حسن البیان
فی
تفسیر القرآن

حُسْنُ الْبَيَانِ
فِي
تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

سورة الإسراء

(مكيّة، وهي مائة وإحدى عشرة آية، سمّيت بسورة الإسراء لأنّ فيها الإخبار عن إسراء الله بالرّسول (ﷺ)، وسمّيت بسورة بني إسرائيل أيضاً؛ لأنّ فيها ذكر بني إسرائيل وما جرى عليهم).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

هذه الآية تخبرنا عن قصّة إسراء الله تعالى بالرّسول (ﷺ) وقبل البدء بتفسير الآية الكريمة نذكر ماورد في القصّة إن شاء الله تعالى.

قصة الإسراء: حدثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أنّ النّبيّ (ﷺ) حدّثهم عن ليلة أُسرِيَ به قال: بينما أنا في الحطيم، وربّما قال في الحجر، مضطجعاً، ومنهم من قال بين النّائم واليقظان، إذ أتاني آتٍ فقد قال وسمعته يقول: فشقّ ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: ما بين ثغرة نحره إلى شعرته، فاستخرج قلبي ثمّ أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي، ثمّ حشي ثمّ أعيد، ثمّ أتيت بدابّة دون البغل وفوق الحمار بيضاء، فقال له الجارود: أهو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم، يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل (ﷺ) حتّى أتى السّماء الدّنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمّد قيل: وقد أرسل اليه؟ قال: نعم، قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلمّا خلصت، فإذا فيها آدم فقال: هنا أبوك آدم فسلّم عليه، فسلّمت عليه فردّ

السّلام، ثمّ قال: مرحباً بالابن الصّالح والنّبيّ الصّالح، ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء الثّانية، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمّد قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح، فلمّا خلصت، فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلّم عليهما، فسلّمت، فردّا، ثمّ قالا: مرحباً بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح، ثمّ صعد بي إلى السّماء الثّالثة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمّد قيل: وقد أرسل اليه؟ قال نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلمّا خلصت فإذا يوسف قال: هذا يوسف فسلّم عليه فسلّمت عليه، فردّ، ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء الرّابعة، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمّد، قيل: وقد أرسل اليه؟ قال: نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت فإذا إدريس قال: هذا إدريس فسلّم عليه فسلّمت عليه، فردّ ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء الخامسة، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمّد، قيل: وقد أرسل اليه؟ قال نعم، فقيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلمّا خلصت فإذا هارون قال: هذا هارون فسلّم عليه، فسلّمت عليه فردّ، ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء السّادسة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمّد، قيل: وقد أرسل اليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح، فلمّا خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلّم عليه، فسلّمت عليه، فردّ، ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. فلمّا تجاوزت بكى قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنّ غلاماً بعث بعدي يدخل الجنّة من أمّته أكثر ممّا يدخلها من أمّتي. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء السّابعة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمّد، قيل: وقد أرسل اليه؟ قال: نعم، قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلمّا خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه، فسلّمت عليه فرد السّلام ثمّ قال: مرحباً بالابن الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ رفعت الى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، فإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت: ما هذان النّهران يا جبريل؟ قال: أمّا الباطنان فنهران في الجنّة، وأمّا الظاهران فالنّيل والفرات، ثمّ رفع بي إلى البيت المعمور، ثمّ أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللّبن فقال: هي الفطرة أنت عليها وأمّتك، ثمّ فرضت عليّ الصّلوات

خمسين صلاة كلّ يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمسين صلاة كلّ يوم، قال: إنّ أمّتك لا تستطيع كلّ يوم خمسين صلاة، وإنّي والله قد جرّبت النّاس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف لأمّتك، فرجعت فوضع عنّي عشراً، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت فوضع عنّي عشراً، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت فوضع عنّي عشراً، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كلّ يوم، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كلّ يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كلّ يوم، قال: إنّ أمّتك لا تستطيع خمس صلوات كلّ يوم، وإنّي قد جرّبت النّاس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشدّ المعالجة، فارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف لأمّتك، قلت: سألت ربّي حتّى استحييت، ولكن أرضى وأسلم، قال: فلمّا جاوزت نادى مناد: أمضيت فريضتي وخفّفت عن عبادي. وزاد في رواية: وأجزي بالحسنة عشراً، وفي رواية أخرى: فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يصلّي فيه كلّ يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا مرّة أخرى. وهذا الحديث اتّفق عليه مسلم والبخاري[1] كما قال في الخازن (رضي الله تعالى عنهم).

وهنا تنشأ أسئلة:

السّؤال الأول: لماذا كان يستفتح جبريل كلّما وصل إلى سماء وهو يستطيع الصّعود والنّزول فيها بدون فتح؟

الجواب: كان يستفتح لأنّه كان معه جسم كثيف وهو محمّد (ﷺ)، وبهذا الاستفتاح كانت الملائكة تعرف أنّ معه جسماً كثيفاً، فكانوا يقولون: ومن معك؟ فيقول: محمّد. فكأنّ الملائكة تقول لجبريل إنّك لا تحتاج إلى الاستفتاح فلا بدّ وأن يكون معك جسم كثيف فمن هو؟

السّؤال الثّاني: إنّ بكاء موسى (عليه السلام) وقوله غلام بعث من بعدي يدخل من أمّته الجنّة أكثر من أمّتي. يدل على الحسد وعلى تحقيره للرّسول بقوله: غلام، فكيف يليق بموسى هذان الأمران وهو رسول من أولي العزم؟

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٤١٠ الحدجيث رقم ٣٦٧٤، صحيح مسلم ١/ ١٤٦ الحديث رقم ١٦٢.

الجواب: إنّه بكى لا حسداً بأمّة محمّد (ﷺ) بل حسرة وحزناً على أمّته الّذين يدخلون النّار، وقوله: غلام ليس فيه تحقير، لأنّ الشّاب القويّ في عمله وعزمه يقال له غلام.

السّؤال الثّالث: كيف رأى الرّسول في السّماء النّيل والفرات وهما في الأرض، فالنّيل في مصر والفرات في العراق؟

الجواب: إنّه رأى صورتهما لا نفسهما، أو المراد أنّ بركتهما تنشأ من الجنّة، ولا يخفى أنّ كلّ الأنهار تنشأ من اجتماع مياه العيون والعيون من مياه الأمطار الّتي تختزن تحت الأرض أو من ماء البحار، ولا شكّ أنّ في السّماء تأثيراً في حدوث الأمطار وفي نفوذ ماء البحار في مجاري الأرض، وإنّما رأى هذين النّهرين فقط بشارة بأنّ بلادهما ستقع تحت راية الإسلام والمسلمين، وهي بلاد كنانة وبلاد الفرس والرّوم، وكانت هذه البلاد أهمّ المعمورة القريبة من ديار مكّة.

السّؤال الرّابع: إنّ قوله: فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف؛ فرجعت فوضع عنّي عشراً يدلّ على ثبوت المكان لله تعالى فهل هذا صحيح؟

الجواب: إنّ السّلف يعترفون بثبوت المكان لله تعالى كما يليق به دون معرفة كيفية ذلك وبدون حاجته إلى المكان، وعند الخلف لا يجوز نسبة المكان إليه تعالى، وعندهم أنّ المراد هنا أنّ الله تعالى خصّص مكاناً لمعراج الرّسول ومخاطبته تعالى له، فكان الذّهاب والإياب بين موسى ومكان المخاطبة لا بين الله وموسى(ﷺ)، وذلك كما خصّص لموسى (ﷺ) جبل الطّور لمكالمته تعالى معه، ولله تعالى في خلقه شؤون.

* * *

فائدة: فيما رأى الرّسول (ﷺ) في هذه الرّحلة المباركة:

١- ورد في الصّحاح زيادة على مامرّ أنّ الرّسول (ﷺ) قال: ورفعت لي (أي كشفت لي) سدرة المنتهى، فإذا نبقها كأنّه قلال هجر وورقها كأنّه آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فسألت جبريل فقال: أمّا الباطنان ففي الجنّة وأمّا الظّاهران فالنّيل والفرات[1]، هذا وسمّيت سدرة المنتهى لأنّه ينتهي إليها علم

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٤١٠ الحدجيث رقم ٣٦٧٤، صحيح مسلم ١/ ١٤٦ الحديث رقم ١٦٢.

الخلائق ولم يجاوزها إلّا الرّسول (ﷺ)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى*﴾ سورة النجم الآيتان/ (١٣-١٦) ـ.

٢- ورد في رواية أخرى أنّه قال: (ثمّ عرج بي حتّى ظهرت لمستوى أسمع فيه صرير الأقلام[١]، ثمّ فرضت عليّ خمسون صلاة .....الخ).

٣- ورد في رواية أنّه قال (ﷺ): (فلمّا علونا السّماء الدّنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى! فقال: مرحباً بالنّبيّ الصّالح والابن الصّالح، قلت: من هذا ياجبريل؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنّة والتّي عن شماله أهل النّار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى[٢].

٤- ورد أنّه اجتمع الأنبياء في بيت المقدس، فحانت الصّلاة فأمّهم الرّسول (ﷺ)[٣]، أقول: والحكمة في ذلك تحقيق مصداق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ*﴾ سورة آل عمران الآية(٨١).

* * *

سؤال: كيف تصحّ الصّلاة من الأنبياء بعد الموت؟ وهم في الدّار الآخرة، وهي ليست دار تكليف، وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث: صدقة جاريّة أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له، كما في الحديث الصّحيح[٤] ؟

الجواب: إنّ الأنبياء هم أكرم من الشّهداء وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٦٩. فالأنبياء

---

(١) من كلام الشراح وليس حديثا / أنظر عمدة القاري ١٨ /٢٣٨.

(٢) صحيح البخاري ١٢١٧ الحديث رقم ٢١٦٤، صحيح مسلم ١/ ١٤٨ الحديث رقم ١٦٣.

(٣) عمدة القاري ١٥/ ٣٠٧.

(٤) سنن الترمذي ٣/ ٦٦٠ الحديث رقم ١٣٧٦.وقال حديث حسن صحيح.

أولى بأن يكونوا أحياء، ثمّ إنّ صلاتهم ليست صلاة تكليف، بل صلاة تلذّذ بذكر الله تعالى، وثبت أنّ أهل الجنّة يتلذّذون بالذّكر بدليل قوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة يونس الآية/ ١٠.

٥- ورد أنّ الرّسول (ﷺ) قال: ومضيت هنيهة (أي في ليلة الإسراء) فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس بقربها أحد، واذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتنّ عندها أناس يأكلون، فقلت: ياجبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمّتك يأتون الحرام ويتركون الحلال، قال: ثمّ مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافيرهم كمشافير الإبل! قال: فتفتح أفواههم فيلقمون من ذلك اللّحم، ثمّ يخرج من أسافلهم، فسمعتهم يضجّون إلى الله عزّ وجل، فقلت من هؤلاء ياجبريل قال: هؤلاء من أمتّك (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا). قال: ثمّ مضيت هنيهة فإذا أنا بنساء تعلّقن بثديهن فسمعتهن يضججن إلى الله عزّ وجل قلت: ياجبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزّناة من أمّتك. قال: ثمّ مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلّما نهض أحدهم خرّ فيقول: أللّهم لا تقم السّاعة، قال: وهم على سابلة آل فرعون، قال: فتجيئ السّابلة فتطؤهم، فسمعتهم يضجون إلى الله عزوجل، قال: قلت: ياجبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ سورة البقرة الآية/. قال: ثمّ مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللّحم فيلقمونه فيقال له: كلّ كما كنت تأكل من لحم أخيك! قلت ياجبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمّازون من أمّتك اللّمازون.

٦- ورد أنّ رسول الله (ﷺ) في ليلة المعراج أتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلّما حصدوا عاد كما كان، فقال النّبيّ (ﷺ): ياجبريل ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تعالى تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف (وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ).

٧- ثمّ أتى على قوم ترضخ رؤسهم بالصّخر كلّما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الّذين تثاقلوا عن الصّلاة المكتوبة رؤوسهم.

٨- ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح

الإبل والنّعم، ويأكلون الضريع والزّقّوم ورضف جهنّم وحجارتها، قال: فما هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء الّذين لايؤدّون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله شيئاً وما الله بظلام للعبيد.

٩- ثمّ أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ولحم آخر نيئ قذر خبيث، فجعلوا يأكلون من اللّحم النّيئ الخبيث ويدعون النّضيج الطّيب، فقال: ما هؤلاء ياجبريل؟ فقال: هذا الرّجل من أمّتك تكون عنده المرأة الحلال الطّيبة فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتّى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فيأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتّى تصبح.

١٠- ثمّ أتى على خشبة على الطّريق لا يمرّ بها ثوب إلّا شقّته ولا شيء إلّا خرقته، فقال: ما هذا ياجبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أمّتك يقعدون على الطّريق فيقطعونها ثمّ تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ٨٦.

١١- ثمّ أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة من حطب لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرّجل من أمّتك يكون عليه أمانات النّاس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها.

١٢- ثمّ أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلّما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: ما هذا ياجبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة.

هذا بعض ما أطّلعنا عليه ممّا رآه الرّسول (ﷺ) ونقله ابن كثير والخازن وغيرهما من المفسرين والرّواة.

وقد رأى الرّسول (ﷺ) أموراً كثيرة وعجيبة أخرى كان يحكيها للصّحابة حسب المناسبات فيقول: رأيت ليلة أسري بي كذا وكذا. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ وقوله جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ سورة النجم الآية/١٨.

* * *

خاتمة: (فيما جرى بين الرّسول وبين قريش صباح ليلة الإسراء حينما ذكر لهم رحلته هذه):

رُوِيَ أنّ رسول الله (ﷺ) بعدما أسري به أصبح حزيناً مخافة أن يكذّبه قومه، فمرّ به أبو جهل فقال له كالمستهزيء: هل رأيت شيئاً؟ قال: نعم، أسري بي اللّيلة إلى بيت المقدس، قال أبو جهل: ثمّ أصبحت بين أظهرنا؟! قال: نعم، فلم يناقشه أبو جهل مخافة أن يرجع الرّسول عن قوله هذا، وظنّ أبو جهل أنّ كلّ من يسمعه فإنّه يكذّبه، كيف لا وإنّ المسجد الأقصى يبعد عن المسجد الحرام مسيرة شهر، وهو يدّعي أنّه ذهب إليه ورجع في ليلة واحدة، فقال له: أتحدّث بهذا قومك؟ قال: نعم، فأرسل واحداً إلى أبي بكر فقال له: إنّ صاحبك يزعم أنّه أسري به هذه اللّيلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ورجع في نفس اللّيلة، فقال: أهو قال ذلك؟ قال: نعم، قال إذاً فقد صدق، قال: أتصدّقه في هذا؟! قال: وأصدّقه في أعجب من هذا، أصدّقه أنّ الوحي يأتيه من فوق السّماوات، فكيف لا اصدّقه في هذا، فنادى أبو جهل في النّاس فاجتمع إليه قريش فقص الرّسول عليهم قصّته هذه، فبقي النّاس بين مصفّق وواضع يده على رأسه متعجّباً، فأثبت رسول الله (ﷺ) قوله بهذه الأدلّة:

١- كان في القوم من رأى المسجد الأقصى حيث ذهب هناك فقالوا له: هل تستطيع أن تصف لنا المسجد الأقصى؟ قال: نعم، فوصف المسجد، فقال القوم: أمّا الوصف فقد أصاب فيه، وقد ذكر هذا صحيح مسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثلها قطّ، قال: فرفعه الله لي انظر إليه ما يسألونني عن شيء إلّا أنبأتهم به[١].

وفي البخاري ومسلم عن جابر أنّه سمع رسول الله (ﷺ) يقول: لما كذّبتني قريش قمت إلى الحجر، فجلّى الله تعالى بيت المقدس فطفقت أخبرهم وأنا انظر اليه[٢].

٢- قال بعض القوم له: أخبرنا عن عيرنا الّتي في الطّريق، فهي أهم إلينا، هل لقيت منها شيئاً؟ قال: نعم مررت بعير بنى فلان وهي بالرّوحاء وقد أضلّوا بعيراً وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ماء، فعطشت فأخذته فشربته، ثمّ وضعته مكانه فسلوا:

(١) صحيح مسلم ١/١٥٦ الحديث رقم ١٧٢.

(٢) صحيح البخاري ٣/١٤٠٩ الحديث رقم ٣٦٧٣، صحيح مسلم ١/١٥٦ الحديث رقم ١٧٠ واللفظ لمسلم.

هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا؟ قالوا: فهذه آية[١].

ثمّ قال: ومررت بعير بني فلان، وفلان وفلان راكبان قعوداً لهما بذي مر، فنفر بعيرهما منّي فرمي بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك؟ قالوا: وهذه آية أخرى[٢].

قالوا: فأخبرنا عن عيرنا (أي عن مكانها)، قال: مررت بها بالتّنعيم يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشّمس. قالوا: وهذه آية أخرى.

ثمّ خرجوا وهم يقولون والله لقد قصّ محمّد شيئاً وبيّنه (أي أثبته) فأتوا كداء فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون حتّى تطلع الشّمس، إذ قال قائل: هذه الشّمس قد طلعت وقال: آخر وهذه العير قد طلعت يقدمها جمل أورق، هذا وبعد كلّ هذه الأدلّة والمعجزات لم يؤمنوا، وزاد أبو جهل في كفره فلذا سمّي أبا جهل، ولما قال أبو بكر: إن كان هو قال: فقد صدق، فلذا سمّي صدّيقاً، فالصّديقية لم تختم وأبوّة جهل لم تنقض، بل كلّ من صدق محمّداً فيما قاله دون تردّد فهو صدّيق، وكلّ من لم يصدّقه فهو أبو جهل، فالصّديقيّة وأبوّة الجهل صفتان تدومان إلى يوم القيامة، يتّصف من يشاء الله بما يتّصف منهما اللّهم اجعلنا من الصّدّيقين آمين.

* * *

وهنا نعود إلى تفسير الآية الكريمة بتوفيق الله تعالى:

(**سُبْحَانَ**) اسم مصدر لسبح يأتي هو ومشتقاته من الماضي مثل ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سورة الحديد الآية/ ١. والمضارع مثل ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ سورة الجمعة الآية/ ١. والأمر مثل ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ سورة الأعلى الآية/ ١ - ومثل ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ سورة الحاقة الآية/ ٥٢. وترد هذه الكلمات لتنزيه الله تعالى أي الإخبار بنزاهته عمّا نسب إليه ممّا لا يليق به مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١١٦. أي تنزّه الله تعالى عن الولد، أو للإخبار عن تنزّه الله تعالى عن العجز عن فعل ما يذكر

---

(١) معجم أبي يعلى ١/ ٤٥ الحديث رقم ١٠.

(٢) المصدر المتقدم والحديث نفسه.

بعده أو قبله من الأمور العظام، فمثال ما نسب إليه قبله مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ حيث قال بعد ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ سورة يس الآيتان/ ٨٢، ٨٣. فمعناه تنزّه الله تعالى الّذي بيده ملكوت كلّ شيء عن أن يعجز عن فعل أي شيء أراده وقدره. ومثال ما يذكر بعده مثل قوله هنا: (**سُبْحَانَ**) أي تنزّه الله تعالى عن أن يعجز عن أن يذهب بأحد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحدة، ويعود به في نفس اللّيلة وقد فعل ذلك فإنّه (**الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**) وهو محمّد (ﷺ) (**لَيْلاً**) أي في ليلة واحدة (**مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**) وهو مسجد مكّة المكرّمة (**إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**) وهو مسجد بيت المقدس، وبينهما مسيرة شهر ذهاباً ومسيرة شهر إياباً، فقطع محمّد في إسراه مسيرة شهرين في ليلة واحدة بقدرة الله تعالى الّذي تنزّه عن العجز عن فعل مثل ذلك الأمر العظيم.

وهنا تنشأ أسئلة:

السّؤال الأوّل: إنّ كلمة (أسرى) معناه الذّهاب بالشيء والسّير به ليلاً، فيكون قوله تعالى (لَيْلاً) زائداً يجب صون القرآن عنه.

الجواب: يقول بعض المفسرين إنّ كلمة (أَسْرَى) جرّد من بعض معناه وحصر في معنى ذهب به فقط، فيكون ليلاً بياناً لوقت الذّهاب به وليس زائداً، والتّجريد مستعمل في كلام البلغاء. ولكن أقول: إنّ قوله: (أسرى) مستعمل في معناه كلّه ولا تجريد فيه، فمعناه ذهب به ليلاً، وقال ليلاً لبيان مدّة الذّهاب به ليلاً، فالمعنى ذهب به ليلاً في ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ولولا أن ذكر ليلاً لاحتمل أن يكون مدّة الذّهاب به في ليالي عديدة، فيقلّ الإعجاز أو ينعدم حيث الإعجاز في قلّة مدّة الذّهاب والإياب كما لا يخفى.

السّؤال الثّاني: لم قال تعالى بعبده ولم يقل بنبيّه أو رسوله أو محمّد (ﷺ) أو غير ذلك من أسمائه وألقابه الشّريفة؟

الجواب: قال ذلك لأمور:

الأوّل: ليعلم النّاس أنّ الإنسان مهما بلغ من الكمال والفضل وإظهاره لخوارق العادات فلا يخرج عن كونه عبداً لله ذليلاً تحت قدرته، لكي لا يزلّ المسلمون فيعتقدوا في رسولهم أنّه حيث ذهب بليلة واحدة إلى المسجد الأقصى وما شاء الله تعالى من العلى ورؤيته لهذه الآيات العظيمة، فقد أصبح إلهاً أو ابن إله كما زلّ اليهود والنّصارى

فاعتقدوا في العزير والمسيح أنّهما ابنا الله تعالى، أو أنّ المسيح إله مع الله، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

الثّاني: ليعلم النّاس أنّ أشرف الألقاب هو ما يشعر عن العبوديّة لله تعالى، فالعبد هو أشرف ألقاب المحبّ بالنّظر إلى حبيبه قال الشّاعر:

لا تدعني إلّا بيا عبده فإنّه من أشرف أسمائي

فالعبد من أشرف ألقاب الرّسول (ﷺ) المحبّ لله تعالى بالنّسبة إلى محبوبه ربّ العالمين.

الثّالث: ليعلم النّاس أنّ محمّداً بلغ هذه المرتبة ونال هذا الشّرف بسبب عبوديّته لله تعالى وانقياده لأوامره؛ ليزيد كلّ مسلم في عبادته وانقياده لله تعالى باتّباع شريعته ومنهجه لينال الرّتب العليّة وشرف الدّنيا والآخرة جميعاً.

السّؤال الثّاني: لماذا كانت رحلة الرّسول هذه باللّيل ولم تكن بالنّهار؟

الجواب: لأنّ القلب في اللّيل أجمع قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ سورة المزّمّل الآية/٦. والعبادة فيه أفضل؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ سورة الأنبياء الآية/٢٦ ـ ولانشغال الرّسول (ﷺ) بالنّهار بالإرشاد والتّبليغ ودعوة النّاس إلى الله تعالى وفراغه باللّيل من غوائل الدّعوة والإرشاد، والله تعالى أعلم.

السّؤال الثّالث: إن أريد بالأقصى الأبعد من كلّ مكان من المسجد الحرام، فليس بصحيح؛ لأنّ القدس ليس أبعد مكان من مكّة وإن أريد المسجد الأقصى الأبعد من كلّ مسجد فلا يصحّ أيضاً، لأنّه لم يكن في ذلك الوقت مسجد آخر حتّى يكون المسجد الأقصى أبعد منه، فما هو المعنى الصّحيح؟

الجواب بوجهين:

الأوّل: إنّ الأقصى صفة مشبّهة بمعنى البعيد فقط، فلا ترد هذه الاعتراضات.

الثّاني: وهو أصحّ، إنّ المعنى إلى المسجد الأقصى أي الأبعد من أن يصله أي أحد من المسجد الحرام في ليلة واحدة إلّا خرقاً للعادة وبقدرة وإرادة الله تعالى، والله أعلم[1].

* * *

(١) وربما الأقصى معناه الأبعد من مسجد النبي محمد (ﷺ) المقدر بناؤه بعد هجرته إلى المدينة إذ كان في علم الله تعالى ذلك، وهو من باب الإعجاز في الأخبار المستقبلية الدالة على صحة نبوة محمد (ﷺ).

(**الَّذِي**) المسجد الأقصى الّذي (**بَارَكْنَا**) أي زدنا الخير والشّرف (**حَوْلَهُ**) والمراد بالخير الخير الدّنيوي والدّيني، أمّا الدّنيوي فلخصوبة أرضها وكثرة الثّمار والأشجار والمزارع فيها، وأمّا الدّيني فلكثرة مجيء الأنبياء فيها ووجود قبورهم حول المسجد المبارك المذكور، والله تعالى أعلم.

ثمّ كأنّ سائلا يسأل: لماذا أسرى الله تعالى بعبده محمّد (ﷺ) هذا الإسراء؟ فقال تعالى: (**لِنُرِيَهُ**) أي لنري محمّداً (ﷺ) (**مِنْ آيَاتِنَا**) بعض آياتنا الدّالة على قدرتنا وعظمتنا وسعة ملكنا ووحدتنا وحقيّة شريعتنا ووجود الثّواب والعقاب، وهذه الآيات هي ماذكر سابقاً من أنّه رأى الأنبياء جميعاً وصلّى بهم، ورأى السّموات وما فيها وأحوال أهل الجنّة وأهل النّار وأحوال العصاة والفاسقين، وغير ذلك ممّا رآه من حقائق الأمور لتصحّ له الشّهادة بها، الشّهادة الّتي حمله الله تعالى إياها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ سورة الأحزاب الآية/ ٤٥ ـ على وجودنا وعظمتنا وقدرتنا ووحدتنا وحقيّة شريعتنا وحقيّة الثّواب والعقاب ووجود الجنّة لمن يليق بالدّخول فيها والنّار لمن استحقّها (وَمُبَشِّرًا) للمطيعين بالجنّة (وَنَذِيرًا) بالنّار للعصاة والفاسقين، فإنّ الشّهادة يجب أن تكون عن مشاهدة وعيان؛ ولذلك ذهب كثير من العلماء إلى أنّه رأى ربّه في هذه الرّحلة وهذا هو الصّحيح لتصبح شهادته بوجوده ووحدته تعالى، والله تعالى أعلم.

ثمّ إنّ بعض الأوهام تجول في بعض القلوب بأنّ الله تعالى ذهب بمحمّد (ﷺ) إليه ليسمع أقوال محمّد (ﷺ) ويرى محمّداً (ﷺ)[1] فلدفع هذه الأوهام قال تعالى: (**إِنَّهُ**) إنّ الله تعالى (**هُوَ السَّمِيعُ**) الّذي يسمع كلّ قول وفي أيّ مكان كان القول، فليس طنين النّملة تحت البحار بأخفى عند الله تعالى من صوت الرّعد فوق السّحب وقت الامطار، وليس صوت في الكون أجهر من صوت بالنسبة إلى سمعه تعالى (**الْبَصِيرُ**) بكلّ شيء أينما كان وكيفما كان، فالذّرة تحت البحر ليست بأخفى من قبب السّماوات بالنّظر إلى رؤيته جلّ وعلا، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعرُج الله تعالى بمحمّد (ﷺ) ليسمع منه أو ليراه بل كمّا قال (**لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**) فيطّلع عليها تشريفاً له وتكريماً، فآلاف الصّلاة والسّلام على هذا النّبيّ محمّد الّذي شرفه تعالى الملك العلام وعلى آله ومن تبعه بإحسان إلى يوم القيام.

---

(١) كرر اسم محمد ﷺ وكان يكفي استعمال الضمير العائد إليه حتى لا يتوهم عود الضمير إلى الله تعالى.

تنبيه: وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: إنّ الإسراء بالرّسول (ﷺ) إلى المسجد الأقصى ثابت بالدّليل القطعيّ، فمن أنكره فهو كافر لتكذيبه للقرآن الكريم، وأمّا المعراج إلى السّماوات العلى فثابت بالأحاديث المشهورة والصّحيحة، فثبوته ظنّي يفسّق منكره ولا يكفّر إلّا أن يكون إنكاره لإنكار كرامة الرّسول (ﷺ) أو إنكار قدرة الله تعالى على ذلك فيكفّر حينئذ.

الفائدة الثّانية: إنّ الحقّ أنّ الرّسول (ﷺ) أسري بروحه وجسمه معاً، وذهب بعض إلى أنّه كان بروحه فقط وفي المنام، وهذا باطل للأدلة الآتية:

الأوّل: إنّ الله تعالى قال: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) والعبد يطلق على الرّوح والجسد معاً ولا يطلق على الرّوح فقط.

الثّاني: إنّه لو كان بروحه فقط لما أنكر النّاس هذا الإنكار وما استبعدوا هذا الاستبعاد، فانّ الرّؤيا والمنام لا يثير هذا الإنكار والتّعجب فانّ عالم الرّؤيا واسع سعة لا تنكر.

الثّالث: إنّ الأحاديث الصّحيحة تدلّ على أنّ الإسراء كان بالجسد والرّوح معاً.

الرّابع: إنّ ما احتجّ به هذا البعض من حديث عائشة أنّه ما فقد جسد رسول الله (ﷺ) لا يقوم الاحتجاج به، لأنّ الإسراء كان في مكّة والسّيدة عائشة (رضي الله عنها) لم تصاحب الرّسول إلّا بعد الهجرة من مكّة، وفي المدينة المنوّرة، فلذلك يحمل حديثها على إسراء آخر وقع للرّسول (ﷺ) في المدينة المنوّرة بالرّوح فقط.

الفائدة الثّالثة: إنّ الصّعود إلى السّماء وكشف الحقائق الكونيّة لم يزل ولا يزال منية ورغبة من رغبات الإنسان سيّما العلماء والمفكّرين، وقد درج به العلم وتقدّم فيه أشواطاً، فاللّائق بالرّسول وهو أحكم الحكماء وأعلم العلماء أن يحظى وينال من ذلك مالم ينله الحكماء والمتفلسفون. بل وذلك تشجيع من الإسلام للعلم والتّدرج نحو كشف مالم ينكشف في هذا الكون المليء بالأسرار؛ ليستفيدوا من ذلك، وليذعنوا بالله تعالى وقدرته وبمحمّد وحكمته ويعترفوا بسموّ دينه وشريعته الّتي تساير العلم والعقل، وليتحقّق مصداق قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ سورة فصلت الآية/٥٣. هذا وإنّما يتعجّب النّاس من إسراء ومعراج الرّسول (ﷺ) لأنّه لم يكن بوسيلة من الوسائل المادّيّة

وبطريقة من طرق الأسباب والمسبّبات، وهذا سرّ إعجاز هذه المعجزة، ولكن ليس من الحقّ أن يتعجّب أو ينكر هذا الأمر العظيم، حيث إنّ العلم لم يزل ولا يزال حائراً في الرّوح وما لها من القوّة الهائلة! وقد أثبت علم النّفس والتّنويم المغناطيسي وجلب الأرواح وعلوم أخرى أنّ الرّوح أقوى من المادة بكثير، ولا سبيل للمادّة إلى الوصول إلى أشواط الرّوح البعيدة المدى، وإنّ المادة إذا تجرّدت عن الرّوح أصبحت هامدة لا تحرّك ساكناً ولا تسكن متحرّكاً، ولكنّ الرّوح حينما تجرّدت عن المادة تبقى عاملة وأقوى من قبل. وإنّ لتأثير الله تعالى في الكون عاملين عامل الرّوح ويعبّر عنه بالأمر، وعامل المادّة ويسمّى عامل الخلق قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الاعراف الآية/ ٥٤. فيخلق الله تعالى بعض الأمور بتدرّج الزّمن وتلاقي الأسباب، وبالتّطور المادّي وتطوير المادّة، وقد جعل ذلك اعتيادياً وألهم من ذلك النّاس الخيرين والأشرار ليأخذوا بالأسباب فينتفعوا بالمسبّبات ليعيشوا ويؤَمِّنُوا بذلك حياتهم وحياة مجتمعهم الإنساني، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ سورة الأعلى الآية/٣. أي الّذي خلق المسبّبات والأسباب وربط بينهما وهدى الإنسان إلى الأسباب لتحصيل المسبّبات. هذا ويخلق الله تعالى بعض الأشياء بالرّوح أي بمجرّد أمر كن فيكون، وبدون تدرّج أو توسّط الأسباب، ويخرق بذلك قواعد المّادة ونواميس الطّبيعة والأسباب والمسببات، وذلك ليعلم النّاس أنّ المؤثّر والخالق هو الله تعالى، وأنّ الأسباب لا قيمة لها بدون إرادة الله مسبّب الأسباب إلّا أنّه لم يجعل ذلك اعتيادياً، بل نوادر تكون معجزة لرسول أو كرامة لوليّ من أوليائه، ومن ذلك جعل النّار على إبراهيم (ﷺ) برداً وسلاماً، وتسبيح يونس في بطن الحوت وفي قعر البحر المحاط بالظّلمات، وشقّ النّيل لموسى وإنجاؤه، وغرق فرعون فيه وولادة عيسى من عذراء لم يمسسها بشر، وغير ذلك ممّا حصل من المعجزات، وأنّ معراج الرّسول (ﷺ) هو أيضاً من هذا القبيل ومن عالم الرّوح الخارج عن الأسباب والمسبّبات والله على كلّ شيء قدير.

* * *

ثمّ إنّ رحلة الرّسول (ﷺ) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وصلاته بالأنبياء هناك إشارة إلى أنّه جمع شرائع الرّسل كلّهم في شريعته وفضائلهم في ذاته وصفاته، وإلى إنتقال النّبوّة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، وهنا كأنّ قائلاً يقول: فلماذا انتقلت النّبوّة والرّسالة من بني إسرائيل؟ فقال جلّ وعلا:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

(**وَآتَيْنَا**) وأعطينا (**مُوسَى الْكِتَابَ**) وهو التّوراة والحكم والشّريعة الّتي كانت في التّوراة (**وَجَعَلْنَاهُ**) أي الكتاب (**هُدًى**) إرشاداً إلى الحقّ والصّواب في العقائد والأحكام (**لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**) ليهتدوا ويسترشدوا ويحكموا به، وأمرناهم في الكتاب (**أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً**) توكّلون إليه أموركم وتأخذون منه أحكامكم وعقائدكم وتعتمدون عليه في أمور دنياكم ودينكم، فإنّ العقائد والأحكام كلّها يجب أن تكون حسب بيان الله وأنّ الأمور كلّها بإرادة الله تعالى وخلقه وإيجاده، فلا مكوّن إلّا الله ولا مشرّع سوى الله تعالى (**ذُرِّيَّةَ**) منادى محذوف الياء فالتّقدير لا تتّخذوا من دوني وكيلاً ياذرّية (**مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ**) وأنعمنا عليكم بنعمة النّجاة من الهلاك والغرق (**إِنَّهُ**) إنّ نوحاً (**كَانَ عَبْدًا**) لله تعالى ينقاد لأوامره ويقف عند حدوده (**شَكُورًا**) لنعم الله تعالى فيستعملها فيما أباح الله تعالى استعمالها فيه، فكونوا مثله في العبادة والشّكر لله تعالى، وأشار بذلك إلى أنّ الله تعالى نجّى نوحاً وقومه من العذاب بسبب عبوديتهم وشكرهم، ومن يكون مثلهم يكون ناجياً ومن لا فلا، فتكون الآية وعداً للمتّقين بالنّجاة من العذاب ووعيداً للآثمين بالهلاك والعذاب. وفي الآية أيضاً تلميح إلى أنّ بني إسرائيل لم يفوا بما أمروا ولم يمتثلوا الكتاب، ولذلك عذّبوا ونقل النّبوة والرّسالة منهم إلى بني إسماعيل، وقد صرّح بذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

(**وَقَضَيْنَا**) وأخبرنا (**إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**) وأوحينا إليهم (**فِي الْكِتَابِ**) في التّوراة

والوحي، وإن كان لموسى إلّا أنّه حيث الأمر يتعلّق بالأمّة فيكون وحياً إليهم، فأخبرهم الله تعالى وقال لهم (**لَتُفْسِدُنَّ**) أنتم بالكفر والفسق والفجور والإنحراف عن شريعة الله وتبديل أحكام الله تعالى (**فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ**) أصله ولتعلوونّ، حذفت نون الجمع لتوالي النّونات فصار التقاء الساكنات بين الواوين والنّون المشدّدة، فحذفت الواوان فصار لتعلنّ أي لتتكبّرن وتعرضن عن دين الله تعالى (**عُلُوًّا**) إعراضاً وتكبراً (**كَبِيرًا**) ثم ذكر الله تعالى نتيجة هذين الإفسادين وعاقبتهما وعذاب الله تعالى إيّاهم على ذلك، فقال جلّ وعلا: (**فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا**) أي وعد أولى المرّتين أي إذا أفسدتم في المرّة الأولى (**بَعَثْنَا**) أي أرسلنا (**عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا**) أناساً، وقال: (**عِبَادًا لَّنَا**) لأنّهم كانوا مطيعين لأمر الله تعالى التّكليفي والتّشريعي إن كان هؤلاء مسلمين، أو لأنّ كلّ النّاس عباد لله تعالى أي أذلاء تحت أمره التّكويني إن كانوا كافرين، وإن أصحّ الرّوايات أنّ هؤلاء كانوا جيش سنحاريب وكانوا كفرة، فيراد بالعباد المعنى الثّاني، فأرسل الله تعالى على بني إسرائيل بعدما أفسدوا المرّة الأولى جيش سنحاريب وكانوا (**أُوْلِي**) أصحاب قوّة في الأبدان و(**بَأْسٍ**) وأصحاب أسباب (**بَأْسٍ**) حرب (**شَدِيدٍ**) فكانوا أقوياء في البدن وأثرياء في معدّات الحرب، فهجموا على بني إسرائيل (**فَجَاسُواْ**) فتجوّلوا (**خِلاَلَ الدِّيَارِ**) أي خلال دياركم بالسّلب والسّبي والنّهب والقتل (**وَكَانَ**) هذا العذاب (**وَعْدًا**) عند الله تعالى (**مَّفْعُولاً**) قضى بفعله لكثرة فسادكم وفجوركم (**ثُمَّ**) بعد هذه المأساة (**رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ**) الغلبة (**عَلَيْهِمْ**) وأعاد الله تعالى لكم ملككم وسلطانكم (**وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ**) كثيرة (**وَبَنِينَ**) كثيرين (**وَجَعَلْنَاكُمْ**) بعد الضّعف والقلّة (**أَكْثَرَ نَفِيرًا**) من قبل أو أكثر نفيراً من غيركم، والمراد بالنّفير القوم والعشيرة سمّي نفيراً لأنّه ينفر ويخرج للحرب والهجوم أو الدّفاع في الحروب والقتال. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّه لا يظلم أحداً وإنّما هو يجازي عباده حسب أعمالهم، وأنّ إحسانه مربوط بحسن أعمالهم وعقابه منوط بقبحها فقال تعالى (**إِنْ أَحْسَنتُمْ**) العمل باتّباع شريعتي وتطبيق أحكامي (**أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ**) حيث تجلبون بذلك إحساني إليكم (**وَإِنْ أَسَأْتُمْ**) العمل بالانحراف عن ديني وعدم تطبيق أحكامي (**فَلَهَا**) أي أسأتم على أنفسكم، حيث تجلبون بذلك العقوبة عليها وقال: (لَهَا) دون عليها لمشاكلة[1] لأنفسكم (**فَإِذَا جَاء وَعْدُ**) المرّة

(١) المشاكلة: هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا، كمن يسئل ماذا تريد أن نطبخ لك فيجيب إطبخوا لي قميصاً./ أنظر الإيضاح في علوم البلاغة ١/ ٣٢٧.

(**الآخِرَةِ**) وأفسدتم مرّة أخرى بعثنا عليكم مثل الأولى عباداً لنا أولي قوّة وبأس شديد (**لِيَسُوؤواْ**) ليحزنوا (**وُجُوهَكُمْ**) بالأسر والسّبي والقتل والنّهب والسّلب (**وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ**) الأقصى فيخربوه (**كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ**) فخرّبوه وهتكوا حرمته (**وَلِيُتَبِّرُواْ**) وليهلكوا (**مَاعَلَوْاْ**) ما استولوا عليه من النّاس بالقتل والمزارع بالحرّق والبيوت بالهدم (**تَتْبِيرًا**) إهلاكاً شديداً، فأرسل هذه المرّة جيش بختنصر ففعل بهم مافعل (**عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ**) بإعادة القوّة والنّصر والغلبة إليكم، وعسى في كلام الله تعالى للتّحقيق، فرحمهم الله تعالى هذه المرّة فأعاد لهم دولتهم (**وَإِنْ عُدتُّمْ**) هذه المرّة إلى الفساد والابتعاد عن حكم كتابنا (**عُدْنَا**) إلى عقابكم وإذلالكم، وقد عادوا إلى الفساد فانتقم الله تعالى منهم، بأن سلب عنهم النّبوّة والرّسالة وآتاها لبني إسماعيل فأرسل محمّداً (ﷺ) فشكّل دولة الإسلام وأذلّ اليهود وأخرجوهم من الجزيرة، وليس ذلّتهم في الدّنيا فقط بل (**وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ**) بشريعة الله تعالى (**حَصِيرًا**) مكاناً لعذابهم وحبسهم فيها، وصرّح تعالى بهذا الانتقام وهو سلب النّبوّة من بني إسرائيل فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

(**إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ**) الّذي أنزل على محمّد (ﷺ) بعد تبديل اليهود والنّصارى كتابهم وانتقال الرّسالة من بني إسرائيل (**يِهْدِي**) يرشد القرآن (**لِلَّتِي**) أي للطّريقة الّتي (**هِيَ أَقْوَمُ**) من كلّ نظام ومنهج ودستور؛ فإنّه منهج وضعه الله تعالى لأن يعيش ويحيا عليه الإنسان، ويعمل به في حياته الفرديّة والاجتماعيّة والإداريّة والاقتصاديّة والسّياسيّة ويطبّق ما فيه من الأحكام الفرديّة والاجتماعيّة والأخلاق والأعمال جميعها، وأنّ الله هو الّذي خلق الانسان، فهو أعلم بطبيعته وأخلاقه وما يصلح له وما لا يصلح، وما ينفع وما يضرّ، ووفق علمه هذا وضع له هذا النّظام والمنهج، فيكون لا محالة أقوم من كلّ منهج بل كلّ ما سواه باطل ومعيب وضارّ بحقيقة الإنسان وأفراده (**وَيُبَشِّرُ**) هذا القرآن (**الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ**) وهي ماجعله القرآن صالحاً سواء كان واجباً أو مندوباً أو مباحاً، ويجتنبون الأعمال الباطلة وغير الصّالحة وهي الّتي جعلها القرآن غير صالحة سواء كان حراماً أو مكروهاً فبشّر القرآن هؤلاء (**أَنَّ لَهُمْ**) في الأخرة (**أَجْرًا**) ثواباً

(**كَبِيرًا**) كبيراً وهي الجنّة وما فيها من النّعم (و) كذلك يبشّر القرآن (**إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**) والمراد بهم الّذين يعملون الأعمال غير الصّالحات وينحرفون عن الأعمال الصّالحة إلّا أنّه ذكرهم بهذا العنوان لأنّ سبب عدم الاتّزان والعدول عن الصّالحات وارتكاب غير الصّالحات هو عدم الإيمان بالآخرة وعدم الخوف من العقاب، فذكر السّبب وأريد به المسبّب فالّذين لا يؤمنون بالآخرة فيرتكبون الأعمال غير الصّالحات (**أَعْتَدْنَا**) هيّأناً (**لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**) مؤلماً جدّاً، وقد أدرج ما للعصاة من الإنذار في البشارة وذكر بلفظها تهكّماً واستهزاءً بهم. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ هذا القرآن منهج قويم يبيّن للإنسان ما ينفعه في الدّنيا والآخرة وما يضرّه فيهما بيّن أنّ بعض النّاس لم يتقوّم بهذا المنهج ولم يستقم به فقال جلّ وعلا: (**وَيَدْعُ الإِنسَانُ**) كلّهم إلّا من رحم الله تعالى ويتّصف (**بِالشَّرِّ**) مثل (**دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ**) أي يظن أنّه خير اتّباعا لهواه ولشهواته (**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**) فيتّبع هواه وشهوته فيعمل ما يضرّه قبل أن يتفكّر فيه ويطبّقه مع هذا المنهج القويم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّه نظّم له الزمان بحيث يسهل له العمل فيه فقال جلّ وعلا:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

(**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ**) وجعلنا في اللّيل (**وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ**) إحداهما الشّمس والأخرى القمر (**فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ**) جعلناها محواً للإضاءة فلا يضيء إلّا قليلاً ويمحو ضوؤه حينما يقرب من الشّمس (**وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ**) وهي الشّمس (**مُبْصِرَةً**) سبباً للإبصار ورؤية الأشياء وفعلنا ذلك (**لِتَبْتَغُواْ**) أي لتكسبوا وتعملوا فتطلبوا بذلك (**فَضْلاً**) رزقاً (**مِّن رَّبِّكُمْ**) فإنّكم تعملون بالنّهار وتستريحون باللّيل، فلولا هذه الاستراحة لمللتم وما استطعتم العمل وشقّ عليكم الكسب، علماً أنّ بعض الأعمال بالنّهار أنفع وبعضها باللّيل أنفع وأسهل (**وَلِتَعْلَمُواْ**) بسبب حركة الشّمس وحركة القمر وزيادته ونقصانه (**عَدَدَ السِّنِينَ**) الشّمسيّة والقمريّة وأشهرهما (**وَالْحِسَابَ**) وفق الشّهور والسّنين، حيث يتعلق بذلك بعض أموركم من الدّيون والمزارع والأسفار ففي اللّيل والنّهار تعملون (**وَكُلَّ شَيْءٍ**) من الأعمال

(**فَصَّلْنَاهُ**) بيّنا حكمه من الحلّ والحرمة والكراهة والنّدب والإباحة (**تَفْصِيلاً**) تامّاً ما فرّطنا في الكتاب من شيء فكلّ شيء من الأحكام مذكور في الكتاب أي القرآن أو في سنّة من أرسل إليه الكتاب وهو الرّسول (ﷺ).

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الإنسان يعمل في اللّيل والنّهار وأنّه بيّن له حكم كلّ عمل من الحلّ والحرمة والنّدب والكراهة، وذكر تعالى أنّ العبد مسؤول عن أعماله ويحاسب عليها فقال جلّ وعلا:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

(**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ**) أي سجّلنا عليه (**طَآئِرَهُ**) أي عمله وجعلناه لازماً له لزوم الدّيون في ذمّة الدائن، وعبّر عن الذّمة بالعنق لأنّه كما أنّ العبد الرّقيق في الدّنيا لا يملك شيئاً فتكون الدّيون والالتزامات متعلّقة برقبته، فكذلك الإنسان في الآخرة لا يكون عنده شيء؛ فيكون هو مرهوناً بعمله وتتعلّق الحقوق برقبته يعذّب هو عليها أو يثاب، وسمّي العمل طائراً لأنّه يتيامن بالعمل الصّالح ويتشاءم من العمل الشّر، كما يتيامن ويتشاءم بالطّائر، أو لأنّ العمل بعد العمل يذهب ويطير، ويمكن أن نقول أنّ أعمال الإنسان كلّها ينتقش في عصب من أعصاب العنق كما ينتقش الصّور والأصوات في أشرطة التّلفزيون (**وَنُخْرِجُ لَهُ**) للإنسان ذلك المسجّل أو المصوّر في عصب العنق فينقلب (**يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا**) مفتوحاً أمامه وهو قادر على قراءته ويقال له (**اقْرَأْ**) أنت بنفسك (**كِتَابَكَ**) لا أحد غيرك (**كَفَى**) أي واكتف (**بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**) محاسباً أعمالك في الخير لتشكر على الثّواب وتنتظره، وفي الشّر لتعترف باستحقاقك للعذاب وتستقبله ولا يبقى لك إعتراض.

ثمّ إنّه بعدما تبيّن أنّ أعمال العبد كلّها مسجّلة عليه وسيحاسب عليها يوم القيامة ويجزى على الخير بالثّواب وعلى الشّر بالعقاب، تبيّن أنّ نفع الأعمال الصّالحة يعود إلى صاحبها فقط، وأنّ الضّرر من الأعمال القبيحة يلحق بأهلها فحسب، ولا ينفع ولا يضرّ أي عمل بالله أو بالرّسول أو بالدّاعيّة وإنّ الدّعوة من الله عباده إلى الخير لمصلحتهم، وكذا من الرّسول والدّاعية، فلذا قال جلّ وعلا:

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

(**مَّنِ اهْتَدَى**) إلى الحقّ وعمل على مقتضاه (**فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ**) ويعود فائدة الاهتداء والعمل الخيري إلى نفسه لا إلى الله تعالى؛ فإنّ الله غنيّ عن العالمين (**وَمَن ضَلَّ**) عن الحقّ واشتغل بالباطل وسفاسف الأمور (**فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**) على نفسه؛ فإنّه لا يضرّ الله تعالى أيّ عمل، فنفع العمل وضرّه يعود إلى صاحب العمل فقط لا إلى الله، ولا إلى الرّسول ولا إلى الدّعاة حيث (**وَلَا تَزِرُ**) ولا تحمل (**وَازِرَةٌ**) نفس آثمة (**وِزْرَ**) عقاب نفس (**أُخْرَى**) فكلّ نفس تعاقب هي على وزرها لا غيرها، ومن رحمة الله تعالى أنّه لا يعذّب عبداً على عمله إلّا بعد التّبليغ والإنذار، فلذا قال جلّ وعلا: (**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ**) أحداً ولا قوماً (**حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**) فيبلغهم بماهو شرّ وعليه العقاب، وبما هو خير وفيه الثّواب، وبعد ذلك لا يبقى للعبد أي عذر، فإنّه يقال: (وقد أعذر من أنذر).

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ كلّ إنسان ينال عقاب معاصيه وجرائمه في الآخرة أراد أن يذكر أنّه ينال الأقوام في الدّنيا عقاب أعمالهم أيضاً؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

(**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً**) أي أن ننفّذ ما حكمنا به من عذاب أهل قرية حسبما علمنا من عتوّهم وضلالهم، وأن نظهر ذلك في الخارج، والمعلوم الخارجي كما كان في المعلوم المعنوي الأزلي (**أَمَرْنَا**) أرسلنا شريعتنا وأمرنا (**مُتْرَفِيهَا**) المتسلّطين وأصحاب النّفوذ تطبيق هذه الشّريعة على أنفسهم وعلى من تحت ولايتهم وسلطانهم والعمل والحكم بها (**فَفَسَقُواْ**) خرجوا عن أمرنا وحكموا خلاف شرعنا (**فِيهَا**) في قراهم (**فَحَقَّ عَلَيْهَا**) على أهلها (**الْقَوْلُ**) بالعذاب وتنفيذه (**فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**) حسب ما يستحقّون من التّدمير ومقداره وحسب الاستحقاق. ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت ما قاله، فذكر قرى كان يعلم بها النّاس؛ فقال جلّ وعلا: (**وَكَمْ**) وكثيراً (**أَهْلَكْنَا مِنَ**) أهل (**الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ**) كما أهلكنا قوم نوح عقاباً على كفرهم وتمرّدهم على الله تعالى وأعمالهم القبيحة

(**وَكَفَى**) أي واكتف (**بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا**) بدقائق ذنوبهم (**بَصِيرًا**) بجلائلها فيعاقبهم عليها أو يثيبهم، ولا يخفى عليه شيء ولا ينساه، وهذه سنّة الله تعالى في عباده فكلّ أمّة عتت عن أمر ربّها وطغت واتّبعت الأهواء والشّهوات وتركت شريعة الله لما تهواه أنفس المترفين والمتسلّطين عذّبها الله تعالى عاجلاً أو أجلاً، ولكلّ أجل كتاب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هلاك الأمم لفساد اتجاهاتهم أراد أن يذكر أنّ الله تعالى يعامل عباده أفراداً أو جماعات حسب اتّجاهاتهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾

(**مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ**) إلى الحياة العاجلة وهي الحياة الدّنيا سمّيت بالعاجلة لأنّها تسبق حياة الآخرة، فمن أراد هذه الحياة فقط دون الحياة الأخرى (**عَجَّلْنَا**) أي قدّمنا (**لَهُ**) ووهبناه (**فِيهَا**) في الدّنيا مقدار (**مَا نَشَاء**) لا ما يشاء هو من المقدار (**لِمَن نُّرِيدُ**) أي باختيارنا لا بالإيجاب، فإنّ إرادة العبد للشّيء واتّخاذه بالأسباب لما يريد لا يوجب على الله تنفيذ ذلك الشّيء وإيجاده (**ثُمَّ**) بعدما خرج من الدنيا بالموت (**جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا**) يدخلها (**مَذْمُومًا**) ملوماً من قبل الله والملائكة وصالح المؤمنين بل ومن قبل أقرانه ونفسه أيضاً لأنّ كلّ من دخل جهنّم يتندم ممّا عمل ويلوم نفسه على عمله (**مَّدْحُورًا**) مطروداً من الرّحمة ونِعَم الله تعالى (**وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ**) أراد حياة الآخرة وحدها (**وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا**) وهو السّعي الصّحيح بأن يكون سعيه لها موافقاً لمنهج الله تعالى وحسبما أمر ورضي به (**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**) إيماناً صحيحاً بالله والرّسل والآخرة (**فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**) أي مجزياً به عند الله تعالى بثواب كثير أو مشكوراً عنده، فإنّه حينما رأى ثوابه بشكره (**كُلاًّ**) كل ممّن يريد الدّنيا وممّن يريد الآخرة (**نُّمِدُّ**) نمدّهم ونعطيهم (**هَـؤُلاء**) طلاب الدّنيا (**وَهَـؤُلاء**) أي طلاب الآخرة فنعطي كلاً (**مِنْ عَطَاء رَبِّكَ**) وفضله لا لاستحقاقهم والوجوب على الله تعالى،فإنّه لا يجب عليه شيء ولا من عطاء الأسباب فإنّ الأسباب لا تعمل إلّا بإرادة الله تعالى، ولعمري من الّذي يخلق

الأسباب أو يهيّئها سوى الله تعالى (**وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ**) إذا أراده (**مَحْظُورًا**) ممنوعاً حيث لا يقدر أحد أن يمنع الله تعالى عن عطائه إذا أراده، إذ هو الفعّال لما يريد هذا.

وهنا إشارات:

الأولى: إنّ قوله تعالى: (من كان يريد العاجلة)، وقوله: (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) يدلّ على أنّ منح الله تعالى في الدّنيا والآخرة مربوط بإرادة الصّبر وكسبه وعمله، فلا يهب الله لعبد إلّا وفق كسبه ومباشرته للأسباب إلّا نادراً وخرقاً لعادته كمعجزة أو كرامة، وكسب العبد هذا وعمله هو مدار المنح في الدّنيا والثّواب في الآخرة أو العقاب فيها، وبهذا بطل مذهب الجبريّة الّذين يقولون لا إرادة ولا اختيار للعبد وإنّما هو كالقلم بين يدي الكاتب.

الثّانية: قوله تعالى: (مَا نَشَاء) نهبه مقدار ما نشاء لا ما يشاء، فإنّ كثيراً من النّاس يعمل عملاً ويريد أن يصل بعمله مقداراً معيّناً فينال أقلّ منه أو أكثر أو لا ينال شيئاً، وهذا بديهي لا يحتاج إلى دليل وقوله: (لِمَن نُّرِيدُ) نهبه باختيارنا ولا جبر له علينا، وهذا أيضاً معلوم لأنّه ليس كلّ من أراد وسعى لشيء يناله؛ فيدلّ ذلك على أنّ إرادة العبد وكسبه ليس كافياً في وجود ما يعمل له ويكسب، بل إنّما يكون ذلك حينما انضم إلى إرادة العبد وكسبه إرادة الله تعالى، ويدلّ هذا على إبطال مذهب القدريّة القائلين بأنّ العبد خالق لأعماله ونتائجها بالتّبع أو بالتّوليد ولا دخل لله تعالى فيها.

الثّالثة: قوله تعالى: (وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا) يشير إلى أنّ السّعي والعمل للآخرة لا يستحقّ صاحبه الثّواب إلّا إذا كان موافقاً لما وضعه الله ونهجه واعتبره سعياً صحيحاً للآخرة، قال الإمام الرّازي ما حاصله: أنّ بعض المشركين يؤمنون بالآخرة ويسعون لها فإنّهم يعبدون الأصنام ويتقرّبون إليها معتقدين أنّها شفعاء لهم عند الله تعالى أو يقرّبونهم إلى الله تعالى زلفى، ولكنّ حيث إنّ سعيهم هذا ليس سعياً صحيحاً ومعتبراً عند الله تعالى فإنّه لا يوصل إلى الله إلّا العمل الصالح الموافق للشّرع، ولا شفاعة لأحد إلّا بإذن الله تعالى ولا إذن لمن أشرك، وإنّ التّقرّب بالعبادات إلى أحد سوى الله تعالى كفر وشرك بالله، فالسعي به باطل وليس سعياً للآخرة.

الرّابعة: قوله تعالى (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) معناه مؤمن إيماناً صحيحاً، فمن كان إيمانه باطلاً فلا يفيد سعيه للآخرة، وإن كان سعياً صحيحاً كمن تصدّق على الفقراء وواسى

المحتاجين وآتى حقوق ذوي القربى والأيتام والمساكين وقام بالإحسانات الّتي يحبّها الله تعالى، ولكنّ إيمانه بالله غير صحيح لأنّه يشرك بالله أو يجعل له ولداً أو يؤمن بالآخرة لا كما يقرّره الشّرع، أو يكذّب رسولاً من رسل الله تعالى، فهذا عمله هدر وحسناته محبطة فلا يقام له الوزن قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾. سورة الكهف الآية (١٠٥-١٠٦).

الخامسة: إنّ التقسيم العقلي هنا ثلاثة أقسام:

الأوّل: من أراد الدّنيا فقط دون الآخرة وهذا مذكور.

الثّاني: من أراد الآخرة فقط بقرينة التّقابل وهذا مذكور أيضاً.

الثّالث: من أراد الدّنيا والآخرة معاً وهذا ليس مذكوراً ولكنّه مفاد من القسمين، فإنّ من سعى للدّنيا فقط فيعطى، فإذا سعاها مع الآخرة فيعطى بالطّريق الأولى، ويمكن أن نقول: إنّ قوله: ومن أراد الآخرة أي وحدها أو مع الدّنيا (فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) أي مجزيّاً في الدّنيا والآخرة، أو نقول: إنّ المؤمن الّذي يسعى للآخرة كلّ سعيه للآخرة وإن وجد منه السّعي للدّنيا فإنّه لا يعمل إلّا أعمالاً موافقة للشّرع، ولا يكسب الدّنيا إلّا حسب ما أحلّ الله والكسب الحلال، عبادة فيدخل في السّعي للآخرة والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ كلّ عامل يعمل للدّنيا أو للآخرة يعطى ثمرة عمله بقدر ماشاء الله وحسب ما يختاره من العطاء لا كما يريد العبد، أثبت ذلك بما هو الواقع والثّابت فقال جلّ وعلا:

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾﴾

(**انظُرْ**) لتعلم أنّ الأمور تجري حسب إرادة الله تعالى لا حسب إرادة العبد حيث ترى (**كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ**) بعض النّاس في الرّزق والأموال والثّروة (**عَلَى بَعْضٍ**) آخر وإن كانا متساويين في العلم والعقل والعمل، وربّما يكون المفضّل أجهل من المفضّل عليه وأنشط وأقوى، وبهذا تعلم أنّ نتائج أعمال العباد هو حسب إرادة ربّ العباد لا حسب إرادتهم، وكذلك الآخرة يكون التّفاوت فيها بين العباد كما قال جلّ وعلا: (**وَ**)

الواو للقسم والقسم به محذوف تقديره: وبعزتي (**لَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً**) للبعض على البعض في الدّرجات ومقامات الجنّة والنّعيم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ من سعى للآخرة السّعي الصّحيح فله الأجر الكبير، أراد أن يبيّن بعض المساعي الصّحيحة للآخرة والتّي يصل بها العبد إلى الأجر والثّواب فقال جلّ وعلا:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢) ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا (٢٤)﴾

إعلم أنّ هذه الأوامر والنّواهي الّتي تأتي وخوطب بها الرّسول (ﷺ) يراد بها المسلمون لا الرّسول، فإنّ الرّسول (ﷺ) معصوم فلا يرتكب منهياً عنه فينهى ولا يترك مأموراً به فيؤمر، ويدلّ على أنّ المراد غير الرّسول قوله تعالى: (**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**) فإنّ الرّسول مات عنه والداه وهو صبيّ.

ولنعد إلى تفسير الآيات: (**لَّا تَجْعَل**) لا تعتقد أنّ (**مَعَ اللّهِ إِلَـهًا**) معبوداً (**آخَرَ**) يستحقّ العبادة (**فَتَقْعُدَ**) بسبب هذه العقيدة الباطلة (**مَذْمُومًا**) عند الله والملائكة والنّاس بل وعندك يوم القيامة (**مَّخْذُولاً**) محروماً من الخير ولا ناصر يوصلك إليه. وبعد أن ذكر الله تعالى أنّه لا يستحقّ العبادة غيره، نهى تعالى عن عبادة غيره؛ فقال جلّ وعلا: (**وَقَضَى**) أي وأمر (**رَبُّكَ**) أيّها المسلم (**أَلاَّ**) أصله أن لا (**تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ**) أي الله تعالى حيث لا أحد ولا شيء يستحقّ العبادة غيره، والعبادة لها صور:

الأولى: أن تعتقد بأنّ غير الله تعالى ينفع أو يضرّ خارج الأسباب، والتّعاون الّذي وضعه الله تعالى بل بالسّلطة الغيبيّة، وهذه الصّورة مذكورة في قول سيّدنا إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ سورة مريم الآية/ ٤٢، حيث كان أبو إبراهيم وقومه يعتقدون أنّ هذه الأصنام ينفعون ويضرّون، بدليل قول إبراهيم لهم: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي بالله من أن يضرّني ﴿إِلَّا أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا﴾، ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ﴾ سورة الأنعام الآية/ ٨١.

الثّانية: أن يتقرّب الشخص إلى غير الله بالنّذور والقرابين والصّدقات أو يعتقد أنّه شفيع له عند الله تعالى فينقذه من العذاب باستحقاقه الذّاتي لا بتكريم الله له، أو يعتقد أنّه يقرّبه إلى الله تعالى ويوصله إليه.

الثّالثة: أن يخالف حكم الله تعالى ويتّبع حكم غيره، فإنّ الحكم نوعان تكويني وتكليفي وكلاهما مختصّان بالله تعالى:

أمّا **الأوّل**: فلما قال سيّدنا يعقوب (عليه السلام) فيما يرويه عنه الله في سورة يوسف الآية/ ٦٧ إذ قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم﴾ يا أبنائي ﴿مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ﴾ أي القضاء والتّكوين والحفظ وعدمه ﴿إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وأمّا **الثّاني**: فلما قال يوسف (عليه السلام) فيما يرويه عنه الله في سورته الآية/ ٤٠ إذ قال لصاحبيه في السّجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ﴾ أي التّشريع ﴿إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ فقوله تعالى هنا (أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ) نهى عن جميع صور العبادة لغير الله تعالى. وبعد أن أمر الله تعالى بحقّه وهو عدم عبادة غيره، أمر تعالى بحقّ من أحقّ بإعطاء حقّه بعد الله تعالى وهما الوالدان، إذ هما سببا وجود المرء بعد الله تعالى فقال جلّ وعلا: (وَبِالْوَالِدَيْنِ) عطف على لا تعبدوا فالتّقدير وقضى ربّك أن تحسنوا بالوالدين (إِحْسَانًا) تامّاً وافياً بحقّهما، وحيث أنّ الوالدين غالباً يحتاجون إلى إحسان الأولاد حينما أصابهم الكبر والشّيخوخة قال تعالى: (إِمَّا) بمعنى إن الشّرطيّة فالمعنى إن (يَبْلُغَنَّ) يصلنّ (عِندَكَ الْكِبَرَ) الشّيخوخة أو الضّعف (أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا) معا (فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ) أي أيَّ كلمة تجرح شعورهما وتؤذى قلوبهما (وَلاَ تَنْهَرْهُمَا) ولا تزجرهما على الأخطاء أو فعل ما لا يليق بل (وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا) ينبّههما على الخطأ وترك ما لا يليق (وَاخْفِضْ) وألن وأبسط (لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ) ويكون ذلك ناشئاً (مِنَ الرَّحْمَةِ) بهما لا عن شيء فارحم بهما فعلاً بأن تخدمهما وقولاً بأن تدعو لهما (وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا) رحما بي إذ (رَبَّيَانِي صَغِيرًا) لا أقدر شيئاً ولا أنفعهما بشيء، هذا وقد وردت أحاديث في الحثّ على برّ الوالدين والنّهي عن عقوقهما، نذكر نبذة منها:

١-عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (رغم أنفه رغم

أنفه رغم أنفه، قيل: من يارسول الله؟ قال: من أدرك والديه عنده الكبر أحدهما أو كليهما ثمّ لم يدخل الجنّة)[١] أي بسبب برهما.

٢- عنه أيضاً قال: قال رسول الله (ﷺ): (لن يجزي ولد والده إلّا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه)[٢].

٣- عن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: سألت رسول الله (ﷺ): أي الأعمال أحبّ إلى الله تعالى؟ قال: الصّلاة لوقتها، قال: قلت: ثمّ أي؟ قال: برّ الوالدين، قال: قلت: ثمّ أيّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله تعالى)[٣] فالبّر بالوالدين أفضل من الجهاد في سبيل الله، وهذه الأحاديث رواه مسلم كما ذكره الخازن رحمه الله تعالى.

٤- عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: جاء رجل إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يارسول من أحقّ النّاس بحسن الصّحبة؟ قال أمّك ثمّ أمّك ثمّ أباك ثمّ أدناك فأدناك)، رواه مسلم[٤].

٥-عن عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) قال: جاء رجل إلى رسول الله (ﷺ) فاستأذنه في الجهاد فقال (ﷺ): أحيّ والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد) رواه البخاري ومسلم[٥].

٦- وعنه أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (رضا الرّب في رضا الوالدين وسخط الرّب في سخط الوالدين) رواه الترمذي[٦].

٧-عن أبي الدّرداء قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (الوالد أوسط أبواب الجنّة فإنّ شئت فضيّع ذلك الباب أو احفظه)[٧].

والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة جدّاً، وفي هذا القدر كفاية، ويكفي في فضل الإحسان إلى الوالدين أنّه قرن الله تعالى بينه وبين عبادته في هذه الآية.

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٨٧ الحديث رقم ٢٥٥١.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١١٤٨ الحديث رقم ١٥١٠.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٨٩ الحديث رقم ٨٥.

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٩٧٤ الحديث رقم ٢٥٤٨.

(٥) صحيح البخاري ٣/ ١٠٩٤ الحديث رقم ٢٨٤٢، صحيح مسلم ٤/ ١٩٧٥ الحديث رقم ٢٥٤٩.

(٦) سنن الترمذي ٤/ ٣١٠ الحديث رقم ١٨٨٩.

(٧) المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٦٩ الحديث رقم ٧٢٥٢.

ثمّ إنّ الإتيان بهذه الأوامر والاجتناب عمّا نهى عنه كلّ ذلك لا يفيد ولا يثاب المرء عليه إلّا إذا كان مقروناً بالإيمان والإخلاص والعمل لامتثال الله تعالى، فلذا قال جلّ وعلا:

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ) من الإيمان والإخلاص (إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ) فإنّ الله تعالى يثيبكم على أعمالكم وإلّا فتوبوا إليه (فَإِنَّهُ) أي الله تعالى (كَانَ لِلأَوَّابِينَ) التّائبين إليه (غَفُورًا) فحذف جواب (إن تكونوا صالحين) والشّرط من (فإنّه ....الى آخر الآية) للعلم بذلك حسب السّياق وأذواق القرآن من الإيجاز.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أحقّ النّاس بالإحسان إليه أراد أن يذكر الباقين الأفضل فالأفضل، فقال جلّ وعلا:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) ممّا يستحقّه من الإرث ومن صلة الرّحم والمودّة والزّيارة وحسن المعاشرة والمواساة في السّراء والضّراء، وإن كانوا محتاجين لزم على الموسر نفقتهم عند أبي حنيفة، وعند الشّافعي لا تلزم النّفقة إلّا للوالد على ولده والولد على والده، وفي الحديث: (من أحبّ أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه)[١] (وَالْمِسْكِينَ) وآت المسكين حقّه (وَابْنَ السَّبِيلِ) حقّه أيضاً من الزّكاة

---

(١) صحيح البخاري ٢٢٣٢/١ الحديث رقم ٥٦٣٩، صحيح مسلم ١٩٨٢/٤ الحديث رقم ٢٥٥٧.

والصّدقات وماعدا ذلك من سدّ حاجاتهما (**وَلَا تُبَذِّرْ**) مالك (**تَبْذِيرًا**) فسّره المفسّرون فقالوا: أي لا تنفق مالك في المعصيّة، فلو أنفق كلّ ماله في الخير فلا يعدّ مبذراً، وإن أنفق درهماً في المعصيّة فهو مبذّر، وقال بعضهم: المراد به الإفراط في الإنفاق على غيره بحيث يضيق على نفسه أو عياله، والحقّ أنّ كلّا المعنيين مراد، فلا يجوز التّضييق على العيال في سبيل الإحسان إلى الغير، وأمّا التّضييق على النّفس إذا لم يكن له عيال فمكروه، لأنّه ربّما لا يتحمّل الضّيق فيدخل في المحظورات (**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ**) المنفقين أموالهم في الحرام أو الإفراط في الإنفاق إلى حدّ الإضرار بالنّفس أو العيال (**كَانُواْ إِخْوَانَ**) أصدقاء (**الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ**) لنعم ربّه (**كَفُورًا**) غير شاكر لها حيث ضيّعها، فمن آتاه الله تعالى نعمة فضيّعها فقد كفر النّعمة، ومن نمّاها وراعاها حسب الشّريعة فقد شكرها، ولذا قيل (أكرموا خبزكم) أي قدّروا معيشتكم فلا تضيّعوها، فإضاعة أسباب المعيشة منهى عنها إلّا إذا اقتضتها ضرورة دينيّة فيجب حينئذ، ولذا ترك الأصحاب أموالهم وديارهم وهاجروا حينما أمروا بالهجرة، فكلّ عمل أو وظيفة تحمل صاحبها ارتكاب محرّم أو عمله أو ترويج مبدأ مخالف للإسلام يجب الإعراض والتّولي عنها، وإلّا فيخسر خسراناً مبيناً، قال البويصري (رحمه الله تعالى) في قصيدته:

ومن يبع آجلاً منه بعاجله يبن له الغبن في بيع وفي سلم

(**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ**) عن المذكورين حيث لا تجد وسعاً في إعطائهم وتنتظر وتبتغي (**ابْتِغَاء رَحْمَةٍ**) رزقاً (**مِّن رَّبِّكَ**) يأتيك فتعطيهم حينئذ (**تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ**) في جوابهم حينما استعطوك (**قَوْلاً مَّيْسُورًا**) قولاً ليّناً جميلاً لا يجرح شعورهم، وقد جاء في حديث مشهور: (الكلمة الطّيّبة صدقة)[1] وقال الشّاعر:

لا خيل عندك تعطيها ولا مال فليسعد النّطق إن لم يسعد الحال

(**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً**) مشدودة (**إِلَى عُنُقِكَ**) فلا تمدّها إلى أحد بالعطاء (**وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**) فتعطى كلّ ما لديك (**فَتَقْعُدَ**) بسبب إنفادك لمالك كلّه (**مَلُومًا**) عند النّاس، فإنّ المفلس ملوم عند النّاس وعند نفسك، فإنّ المرء إذا أفلس نفسه يتندّم ويلوم نفسه على هذا العمل (**مَّحْسُورًا**) حال بعد حال أو صفة لملوماً أو حال عنه، أي منقطعاً لا شيء عندك فتتحسّر على ذلك الحال وما وقعت فيه، هذا وإنّ بعض الأسخياء يحبّ

(١) صحيح البخاري ٥/٢٢٤١ الحديث رقم ٣٤.

أن يلبّي طلب كلّ أحد وليوسّع عليه رزقه، فلذلك يضيّق على نفسه فقال تعالى: (**إِنَّ رَبَّكَ**) أيّها المسلم هو الّذي (**يَبْسُطُ**) يوسع (**الرِّزْقَ**) ويكثره (**لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ**) ويضيّق على من يشاء أن يضيّق عليه حسب حكمته وما يرى من مصلحة الكون، فتوسيع الرّزق وتضييقه موكول إلى الله تعالى، فلا تستطيع أنت على توسيع رزق من ضيّق الله تعالى عليه، فلا يحملنّك عطفك وسخاؤك إلى ما هو فوق وسعك وطاقتك أو إلى تضييق على نفسك أو على أهلك (**إِنَّهُ**) إنّ الله تعالى (**كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا**) فهو يتولّى أمرهم من بسط الرزق وضيقه، فلا تكلّف نفسك إلّا بقدر ما كلّفت به في شريعتنا وديننا.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الوصايا الّتي تتعلّق بمال المسلم نفسه، أراد أن يذكر وصايا أخرى تتعلّق بالنّفس؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

كان العرب يقتلون بناتهم ويئدونهم خوف الفقر؛ فقال تعالى: (**وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ**) أي بناتكم (**خَشْيَةَ إِمْلاقٍ**) فقر ولأنّهن لا يحصلن مالاً ولا يكسبنه فتفتقرون، فإنّ بسط الرّزق وضيقه بيد الله تعالى، فكم من رجل لا يلد إلّا بنات ورزقه مبسوط، وكم من رجل عنده أبناء كثيرون ورزقه قليل، جدّاً وجاء في الحديث: (أبو البنات مرزوق)[1] فلا تقتلوهنّ لأنّ الرّزق بأيدينا (**نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم**) بقدر مانريد أن نرزقهم (**إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا**) ذنباً (**كَبِيرًا**) جدّاً، وعندي أنّ من يريد أن يحدّد من نسله داخل في هذا النّهي، وبأيّ طريق كان إلّا لضرورة غير خوف الرّزق، ويؤيّد ذلك أنّ الله تعالى نهى عن الزّنا بعد قتل الأولاد، لأنّ من حكمة تحريم الزّنا أنّه يؤدّي إلى قتل الأولاد لأنّه فيه ضياع البذر، ولأنّ الجنين من الزّنا يقتل غالباً قبل الولادة أو بعدها فقال تعالى: (**وَلَا تَقْرَبُواْ**

---

(١) لم أجده حديثا وربما هو قول سائر.

الزِّنَى) نهى عن القرب عن الزّنا وإنّما يكون ذلك بالإبتعاد عنه ومقدّماته كالنّظر واللّمس والملاعبة والقبلة والمفاخذة، فحرم كلّ ذلك لئلّا يؤدّي إلى الزّنا، وحيث إنّ غلبة الجنس شديدة جدّاً، وضع هذه الأسيجة حول هذا العمل الجنسي فإنّ الشّيء كلّما ازداد خطره زيد في منعه، وفي الأسيجة حوله للإحتياط **(إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً)** خصلة بالغة شدّة القبح **(وَسَاء سَبِيلاً)** هذا العمل القبيح **(وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ)** تعالى قتله كنفس الإنسان فلا يجوز قتله **(إِلاَّ بِالحَقِّ)** كأن يكون عن قصاص أو على ارتداد أو على ترك الصّلاة أو لقيامها بالإفساد، إلى غير ذلك من الأسباب الّتي أمر الشّارع بقتل النّفس عند قيامها بتلك الأسباب **(وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا)** دون مباشرته لما يبيح قتله **(فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا)** حقّاً في أن يقتل قاتل مولاه **(فَلاَ يُسْرِف)** يزد المولى **(فِّي الْقَتْلِ)** بأن يقتل غير القاتل من أقربائه كما اعتادت العشائر ذلك، أو يقتل أكثر من قاتله أو يمثّل بالقاتل بعد قتله قصاصاً **(إِنَّهُ)** أي الّذي يسرف في القتل **(كَانَ)** في نظام الإسلام **(مَنْصُورًا)** فلا داعي له إلى الإسراف، أو معناه منصوراً عليه ولي المقتول إذا قتل غير القاتل أو أكثر من القاتل فإنّه يقتصّ منه بالقتل أو بما يراه الإمام من العذاب إذا كان الإسراف بالتّمثيل والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض وصايا تتعلّق بأموال الخير وحقوقهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

(وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي) أي بالطّريقة الّتي **(هِيَ أَحْسَنُ)** من عدم القرب عنه، وهي طريقة الإنماء والإستثمار والتّصرف فيه بالمصلحة الّتي تعود نفعها على اليتيم، فالقرب منه بالأحسن جائز **(حَتَّى يَبْلُغَ)** اليتيم **(أَشُدَّهُ)** وهو حال الرّشد فحينئذ لا يجوز القرب من ماله ولا التّعرف ولو بالّتي هي أحسن إلّا بإذنه، بل يردّ ماله إليه يتصرّف فيه هو بنفسه، وإذا لم يبلغ الرّشد فيحجر عليه وينصب له وصيّ يتصرّف في ماله حسب المصلحة فينفق عليه، ويدّخر مازاد له وينمّيه ويستثمره عملا بقوله تعالى: **(وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمْ)**، **(وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ)** اي العهود كلّها إلّا ما حرّم حلالاً أو أحلّ حراماً،

فالوفاء بالعهد واجب، إذ به حفظ حقوق ماليه ونفسيّة وعرضيّة (**إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً**) عند الله تعالى يوم القيامة فيعاقب المرء على عدم الوفاء به (**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ**) فكيلوا تماماً وافياً حقّ من تكيلون له (**وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ**) أي الميزان (**الْمُسْتَقِيمِ**) الّذي لايضيع به من حقّ النّاس ولو بحبّة (**ذَلِكَ**) الوفاء بالعهد والكيل وافياً والوزن بالميزان المستقيم (**خَيْرٌ**) ممّا تستفيدون من مخالفة هذه الوصايا بالنّظر للدّنيا، لأنّ الصّدق يجلب البركة وثقة النّاس وكثرة المشترين وازدياد سعة التّجارة والكذب بالعكس (**وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**) رجوعاً إلى الله تعالى يوم القيامة حيث تلقاه راضياً ومنعماً عليك بالعفو والغفران ودخول الجنّة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر وصايا تتعلّق بالأخلاق؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

(**وَلَا تَقْفُ**) ولا تتبع (**مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**) فتعمل وفق مقتضاه بأن تسمع خبراً فتعمل به دون تثبّت وتحقيق، أو تبصر شيئاً فتتوهّم شيئاً آخر دون تثبّت أو تتوهّم شيئاً بقلبك دون تحقيق (**إِنَّ السَمْعَ وَالْبَصرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ**) الأشياء (**كَانَ**) صاحبه (**عَنْهُ مَسْؤُولاً**) فيسأل، لماذا اتّبعت هذا السّمع دون تحقيق، ولماذا عملت بما رأيت بلا تأكّد وكيف اتّبعت وهمك دون تمحيص، قال(ﷺ): (إيّاكم والظّنّ فإنّ الظّنّ أكذب الحديث)[1] وقال (ﷺ): (بئس مطيّة الرّجل زعموا)[2] و(إنّ أفرى الفري أن تري عينيك مالم تريا)[3]، وقال (ﷺ): (من تحلّم حلماً لم يره كلّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل)[4] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ سورة الحجرات الآية/ ١٢. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠٠٩ الحديث رقم ٨.

(٢) سنن أبي داود ٤/ ٢٩٤ الحديث رقم ٤٩٧٢.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٩٦ الحديث رقم الحديث رقم ٥٧١١.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ٥٣٨ الحديث رقم ٢٢٨٣ وقال حديث حسن صحيح.

جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ سورة الحجرات الآية/٦ ـ فكم من أناس قتل ظلماً لأنّه قيل فيه مالم يعمل أو رؤي منه مايريب أو توهّم فيه ماهو منه بريء **(وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ)** أي على الأرض **(مَرَحًا)** متكبّراً وتذكّر ضعفك لكي لا تتكبّر فإنّك ضعيف حيث **(إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ)** لضعفك **(وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً)** لقصرك، وقد ظهر لي في هذه الآية معنى خلاف المفسّرين، فان أصبت فالحمد لله تعالى وإلّا فأستغفر الله، فأقول **(فإنّك)** إن تتكبر في الأرض **(لن تخرق الأرض)** لن تسود على من دونك، حيث لايطيعونك لكبريائك ويبتعدون عنك كما قال تعالى لهم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ سورة آل عمران الآية/١٥٩: وكذلك إن تتكبّر **(وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ)** أي لا تقدر أن تصاحب من فوقك **(طُولاً)** أي لأجل كبريائك، والحاصل أنّ المتكبّر يبغضه من دونه ومن فوقه، فلا يقدر أن يعيش معهم **(كُلُّ ذَلِكَ)** أي كلّ ما نهينا عنه من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ﴾ إلى هنا **(كَانَ سَيِّئُهُ)** بالتّاء أي معصية **(عِنْدَ رَبِّكَ)** متعلّق بقوله: **(مَكْرُوهًا)** مكروهاً عنده ويفيد التّقدير أنّ كلّ ذلك سيّئة ومكروه عند الله تعالى، وإن قرئ بالهاء فمعناه كان جزاء سيئه عند الله تعالى جزاءً مكروهاً لا يتحمّل.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

(ذَلِكَ) الأوامر والنّواهي الّتي سبقت من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ﴾ الى هنا فكلّ ذلك هو **(مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ)** اللّام عوض المضاف اليه أي هو من حكمته ومواعظه وشرائعه، فاعمل بها وطبّقها ولا تنحرف عنها **(وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا)** مطاعاً **(آخَرَ)** تطيعه فتنحرف عن مناهج الله تعالى ومواعظه إطاعة له، وإذا فعلت ذلك **(فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا)** مطروداً من رحمة الله تعالى ونعمه الّتي أعدّها لمن استقام على منهجه في الجنّة، وتفسير الإله بالمطاع مأخوذ من قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ فيفيد أنّ كلّ من أطاع غير الله فيما خالف شريعة الله تعالى وأحكامه فقد اتّخذه إلهًا مع الله تعالى.

ثمّ بعد أن نهى الله تعالى عن نسبة الشّريك إليه ونزّه ذاته عن الشّريك أراد أن ينزع ذاته عمّا نسب إليه من البنات والأولاد؛ فقال جل وعلا:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

كان المشركون يقولون إنّ الملائكة بنات الله تعالى، فردّ الله تعالى عليهم في صورة إستفهام توبيخي وتقريعي؛ فقال جلّ وعلا: (**أَفَأَصْفَاكُمْ**) أفخصّكم (**رَبُّكُم بِالْبَنِينَ**) وأعطاكم البنين وهم الذّكور من الأولاد (**وَاتَّخَذَ**) واختار لنفسه (**مِنَ الْمَلآئِكَةِ**) حال كونهم (**إِنَاثًا**) على زعمكم فأختارهم بنات وأنتم تحقّرون البنات! فلو اختار الله تعالى الولد لنفسه لاختار البنين، فهل تنسبون الأدنى إلى الله تعالى والأعلى إلى أنفسكم (**إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ**) هذا القول (**قَوْلاً عَظِيمًا**) في الإفك والكفر والعاقبة الوخيمة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر شدّة عناد الكافرين وتمرّدهم على الحقّ؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

(**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا**) ولقد نوّعنا كثيراً من الأدلّة وذكرناها وأثبتنا بها نزاهة الله تعالى عن الشّريك والولد (**فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ**) فيؤمنوا بأنّه لا شريك ولا ولد لله تعالى (**و**) لكن (**مَا يَزِيدُهُمْ**) هذه الاستدلالات والبراهين (**إِلَّا نُفُورًا**) بعداً عن الحقّ وإنكاراً له استكباراً منهم وحسداً وبقاء على التّقليد لا لخفاء الأدلّة وغموضها (**قُل**) لهم (**لَّوْ كَانَ مَعَهُ**) أي مع الله تعالى (**آلِهَةٌ**) أخرى (**كَمَا يَقُولُونَ**) كذباً وافتراءً (**إِذًا**) التّنوين عوض عن المضاف إليه، فالتّقدير إذا كان معه آلهة (**لَّابْتَغَوْاْ**) لطلب تلك الآلهة (**إِلَى ذِي الْعَرْشِ**) وهو الله (**سَبِيلاً**) للوصول إليه والغلبة عليها، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض أو ليزوروه كما يزور الملوك الصّغار ملكهم الأكبر، ليأخذوا منه صلاحيّات في التّصرف، فإذا لم يفعلوا ذلك ثبت أنّهم عجزة، والعاجز لايكون إلهاً لأنّ الإله هو من يقدر على كلّ شيء ولا يعجز عن شيء فإذاً (**سُبْحَانَهُ**) تنزّه الله (**وَتَعَالَى**) أي استغنى عن أن يكون معه آلهة (**عُلُوًّا**) استغناءً (**كَبِيرًا**) جدّاً (**تُسَبِّحُ**) أي تشهد (**لَهُ**) لله تعالى بأنّه نزيه عن الشّريك والولد (**السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ**) من المخلوقات العجيبة العظام فتشهد كلّ ذلك قالاً وحالاً، فإنّ حالها وهو أنّ هذا الكون العظيم والخلق العجيب

والصّنع البديع لا يمكن وجوده إلّا من صانع حيّ عليم بلغ علمه أقصى ما يتصوّر، وقدير بلغت قدرته حدّاً لا يتناهى، ومن كان كذلك فهو غنيّ عن الشّريك والولد، فانّ الشّريك إنّما يريده ويقبله العاجز عن عمله أو الجاهل به، والولد إنّما يريده العاجز أيضاً ولا عجز ولا جهل لهذا الصّانع العظيم، فلا شريك ولا ولد له **(وَإِن مِّن شَيْءٍ)** أي ولا تجد شيئاً من الأشياء **(إِلَّا)** وهو **(يُسَبِّحُ)** يشهد بنزاهة الله تعالى عن الشّريك والولد ويقارن ذلك التّسبيح والشّهادة **(بِحَمْدِهِ)** أي بوصف الله تعالى بالكمال المطلق ومطلق الكمال **(وَلَـكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)** أيّها الجهلة ويعلمها المؤمنون فأنتم تستحقّون العذاب والهلاك والتّدمير عقاباً على كفركم وضلالكم، ولكنّ وقاكم الله تعالى حيث **(إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا)** لايستعجل العقوبة لعلكم ترجعون عن غيّكم **(غَفُورًا)** إن تبتم وآمنتم بتوحيده.

تنبيه: إنّ كلّ شيء يسبّح الله ويحمده قولاً وحالاً، أمّا قولاً فقد ثبت أنّ الحصى كانت تسبّح في يد الرّسول (ﷺ)، فوضعها في يد أبي بكر فسبّحت، ثمّ وضعها في يد عمر فسبّحت، فوضعها في يد عثمان فسبّحت.

وروى مسلم عن جابر بن سمرة أنّ رسول الله (ﷺ) قال: إنّ بمكة حجراً كان يسلّم عليّ ليالي بعثت، وإنّي لأعرفه الآن[١]. وفي البخاري عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله (ﷺ) يخطب إلى جذع فلّما اتّخذ المنبر تحوّل (ﷺ) إليه فحنّ الجذع فأتاه فمسح بيده عليه فسكن[٢]. وروي عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: كنّا في سفر فقلّ الماء، فقال رسول الله (ﷺ) أطلبوا فضلة من ماء، فجاؤونا بإناء فيه ماء قليل. فأدخل رسول الله (ﷺ) يده في الإناء ثمّ قال (ﷺ): حيّ على الطّهور المبارك والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله (ﷺ). ولقد كنّا نسمع تسبيح الطّعام وهو يؤكل[٣]، أخرجه البخارى كما قال الخازن (رحمه الله). فدلّت هذه الاحاديث على أنّ كلّ شيء له نطق، وقد أثبت العلم في هذه الآونه الأخيرة أنّ الأشجار لها لغة تتكلّم بها فيما بينها. وأمّا شهادة كلّ شيء حالاً على أنّ الله تعالى

(١) سنن الترمذي ٥/ ٥٩٢ الحديث رقم ٣٦٢٣.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٣١٣ الحديث رقم ٣٣٩٠.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٣١٢ الحديث رقم ٣٣٨٦.

واحد لا شريك له ولا ولد فهو أنّ كلّ مافي الأرض هو من التّراب ومن الأرض، وأنّ كلّ شيء له لون خاص وجرم خاص ومفعول خاص وحيز خاص وفائدة خاصّة، وانّ أصل عنصرها وكذا أفرادها لا تقتضي من حيث ذاتها هذه الخواص والفوائد وإلّا لاجتمعت كلّها على هيئة واحدة وفائدة واحدة وطبيعة واحدة، فتخصيص كلّ شيء لفوائده وهيئته وصورته لابد وأن يكون من خارج الأشياء، وهذا الخارج يجب أن يكون حيّاً عليها قديراً، إذ الجماد والجاهل والعاجز لايقدر على إيجاد هذه الأشياء الّتي لا تعدّ ولا تحصى، وتخصيص كلّ بفائدة وهيأة ولون ومفعول خاص، ومن له هذه القدرة وهذا العلم لايحتاج إلى شريك ولا ولد لأنّ الشّريك والولد إنّما يريده العاجز عن العمل أو الجاهل به. وهكذا يقال في شهادات السّماوات بتنزيه الله تعالى عن الشّريك والولد ولذا قال الشّاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد

ولقد كان رسول الله (ﷺ) حريصاً كلّ الحرص على إيمان القوم ودخولهم في الاسلام رحمةً بهم وحبّاً في زيادة شوكة الإسلام كما قال تعالى عنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة التوبة الآية/ ١٢٨.

فكان بعض الأحيان سيّما حينما تنزل آيات المناقشة يؤلمه هذا الحرص من الكافرين على البقاء على كفرهم وضلالهم، فتخفيفاً لألم هذا الحرص وتهدئة لأعصابه الشّريفة قال جل وعلا:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

وقبل البدء بتفسير الآيات نروي قصّة تقرّب فهم هذه الآيات إلى الفهم والأذهان وهي: أنّه روى ابن إسحاق في السّيرة عن محمّد بن مسلم بن شهاب الزّهري أنّه

حدّث: أنّ أبا سفيان بن حرب وأبا جهل والأخنس بن شريق بن عمرو خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله (ﷺ) وهو يصلّي باللّيل في بيته، فأخذ كلّ واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكلّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتّى إذا طلع الفجر تفرّقوا، حتّى إذا جمعتهم الطّريق تلاوموا فقال بعضهم لبعض: لاتعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسهم شيئاً، ثمّ انصرفوا حتّى اذا كانت اللّيلة الثّانية عاد كلّ رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتّى إذا طلع الفجر تفرّقوا وجمعهم الطّريق؛ فقال بعضهم لبعض مثل ماقال أوّل مرّة، فانصرفوا، حتّى إذا كانت اللّيلة الثّالثة عاد كلّ رجل إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتّى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعتهم الطّريق فقال بعضهم لبعض: لا نتفرّق حتّى نتعاهد أن لا نعود؛ فتعاهدوا على ذلك ثمّ تفرّقوا، فلمّا أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثمّ خرج حتّى إذا جاء أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمّد؟ قال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولا مايراد بها، قال الأخنس وأنا والله مثلك، ثمّ خرج من عنده حتّى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم مارأيك فيما سمعت من محمّد؟ قال ماذا سمعت ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشّرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتّى إذا تجاثينا على الرّكب كنّا كفرسي رهان قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحى من السّماء فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه[1]. فقام الأخنس من عنده، فظهر في هذه الحادثة وأمثالها أنّ القوم كانوا يعرفون أنّ القرآن من الله وأنّ محمّداً رسول منه، إلّا أنّه كان يمنعهم من الإيمان به الكبرياء وحبّ الرّئاسة والمنافسة القبليّة والتّقليد للآباء والأجداد والمصالح الّتي كانوا يستفيدونها من عبادة الأصنام والبقاء على دينهم الفاسد والعقائد الباطلة؛ فأصبحت هذه الأسباب كلّها حجاباً مانعاً عن الإيمان بصاحب الرّسالة كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ**) أيّها النّبيّ (**جَعَلْنَا بَيْنَكَ**) أي بين الإيمان بك (**وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا**) أي ساتراً أو ذا ستر، أو معناه مستوراً ماوراءه، أو المراد به الحجاب الّذي هو مستور لا يرى وهو كبرياؤهم المانع من الإيمان. وقال: (**لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**) إشارة إلى أنّهم كانوا لايؤمنون بالعقاب في يوم القيامة، ولذلك تكبّروا عن الإيمان حيث لاخوف من الآخرة (**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً**) جمع كنان وهو الغطاء أي جعلنا على

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٥٧.

قلوبهم أغطية مانعة عن (**أَن يَفْقَهُوهُ**) يفهموه فهم الإتّباع والتّصديق (**وَفِي**) وجعلنا (**فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**) ثقلاً مانعاً عن السّماع سماع الحقّ واتّباعه (**وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ**) ودعوتهم إلى التّوحيد (**وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**) أي نافرين وكارهين دعوتك هذه وذكرك لله وحده.

سؤال: فحينما منعهم الله تعالى عن الإيمان بجعل الحجاب وخلقه بينهم وبين الإيمان وخلق الأغطية المانعة عن الفهم للحقّ وجعل الوقر في الآذان؛ فلماذا عاتبهم في الدّنيا وعذابهم في الآخرة؟

الجواب: بوجهين:

الأوّل: أنّ سبب خلق هذه الأمور هو كبرياؤهم ومنافستهم وحسدهم وحبّهم للرّئاسة والمصالح الدنيويّة، وهذه صفاتهم فلذلك العتاب والعذاب.

الثّاني: أنّ الكلام جاء على سبيل التّشبيه والتّمثيل، فالمعنى أنّ حالهم حين قراءتك للقرآن كحال من جعلنا بينهم وبينك حجاباً ساتراً وعلى قلوبهم أغطية وفي آذانهم وقراً فلا يؤمنون، فلا تحزن عليهم ولا تحرص هذا الحرص الّذي أتعبك، فإنّك ليس عليك إلّا البلاغ، وقد قمت به دون تقصير.

* * *

ثمّ ذكر الله تعالى حالهم وقت استماع القرآن وقولهم في الرّسول (ﷺ) فقال جلّ وعلا: (**نَّحْنُ أَعْلَمُ**) منك (**بِمَا**) بالحالة الّتي (**يَسْتَمِعُونَ بِهِ**) القرآن فنبيّن لك هذه الحالة (**إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى**) أي يتناجون بينهم ويتكلّمون سرّاً (**إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ**) في هذه الأحوال (**إِن تَتَّبِعُونَ**) محمّداً فيما إذا اتّبعتموه (**إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُورًا**) استعمل السّحر فيه فجنّ. وهذا كلام الجنّ يتلوه فلتعلم أنّهم لايؤمنون فلا تحزن عليهم (**انظُرْ**) نظر الإعتبار واليأس منهم (**كَيْفَ ضَرَبُواْ**) ذكروا (**لَكَ الأَمْثَالَ**) الّتى شبّهوك بهم (**فَضَلُّواْ**) عن الحقّ (**فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**) إلى الهداية ولايجدونه أبداً، وهم مع خبثهم هذا لافائدة في إيمانهم لو آمنوا فلا تحزن على عدم إيمانهم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى عقيدتهم تجاه الله تعالى من الإشراك به ونسبة البنات إليه وذكر عقيدتهم تجاه الرّسول (ﷺ) وتعاهدهم على أن لا يؤمنوا، أراد تعالى أن يذكر عقيدتهم تجاه يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾

(**وَقَالُواْ**) حينما تنذرهم بعذاب الآخرة ويستفهمون إنكاراً واستهزاء قائلين (**أَئِذَا كُنَّا**) أي صرنا بعد الموت (**عِظَامًا**) لا لحم ولا عصب عليها (**وَرُفَاتًا**) أي تراباً وأجزاءً متفرّقةً (**أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا**) آخر (**جَدِيدًا**) نحن بعد الموت للحساب؟ فقال الله جلّ وعلا جواباً لاستبعادهم وردّاً عليهم: (**قُل**) أيّها النّبيّ وأيّها المؤمن لهم (**كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا**) أي مخلوقاً آخر غير الحجارة والحديد (**مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ**) ويستعبد أن يسري فيه الحياة أكثر من الحجارة والحديد، فإنّ الله تعالى يعيدكم إلى الحياة ويحاسبكم ويجازيكم حسب ماتعملون، فإذا قلت لهم هذا وتحدّيتهم هذا التّحدي (**فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا**) بعد ما كنا تراباً أو حجارةً أو حديداً أو خلقاً آخر أبعد من هذه الأشياء من الحياة (**قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**) هو الّذي يعيدكم، فمن اقتدر على أن يخلقكم من العدم أو من التّراب لقادر على أن يعيدكم مرة أخرى إلى الحياة من التّراب، لأنّ الحياة هي الحياة والتّراب هو التّراب، فلماذا صار حيّاً أوّل مرّة ولا يعود حيّاً مرّة أخرى، فإذا برهنت لهم هذا البرهان القويّ الّذى لا يبقي مجالاً للإستبعاد (**فَسَيُنْغِضُونَ**) فسيحرّكون (**إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ**) تعجّباً واستبعاداً وإنكاراً واستهزاءً (**وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ**) هذا الإحياء وهذا الحشر والحساب (**قُلْ**) لهم (**عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا**) هذا الإحياء إلّا أنّه لا يعلم وقته إلّا الله تعالى (**يَوْمَ**) منصوب بفعل مقدر يدلّ عليه السّياق فالتّقدير يحييكم (**يَوْمَ يَدْعُوكُمْ**) من قبوركم ويقال لكم قوموا إلى الحساب والحشر (**فَتَسْتَجِيبُونَ**) نداءه وأنتم معترفون (**بِحَمْدِهِ**) بكماله وقدرته على البعث وحين لاينفعكم هذا الإعتراف والإيمان (**وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ**) في الدّنيا أو في البرزخ (**إِلّا قَلِيلاً**) فتستقلّون مدّة بقائكم في الدّنيا والبرزخ لأن الفائت قليل وإن كان كثيراً.

ثمّ قد كان كثيراً ما تشتدّ المناقشة بين المؤمنين والمشركين وتبلغ حدّاً يكاد يثير قتالاً، فأمر الله تعالى المؤمنين بالمجادلة الحسنة وعدم إيثار الحرب والقتال فقال جلّ وعلا:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَـٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَـٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٍۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

(وَقُل) أيّها النّبيّ **(لِّعِبَادِي)** الّذين آمنوا **(يَقُولُواْ)** أن يقولوا عند المناقشة مع الكافرين الكلمة **(الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** في المجادلة وهي ماكانت أجلب للقلوب وأحفظ للإحترام وأدعى إلى الاستماع، ولايقولوا الكلمات الجارحة للشّعور حيث **(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ)** يفسد **(بَيْنَهُمْ)** ويوسع شقّة الخلاف بسبب الكلمات اللاّذعة **(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ)** الكافر والمؤمن **(عَدُوًّا مُّبِينًا)** عدوّاً مبيناً فيحبّ إيقاع الفتنة بينهم، فكلّ من تضرّر فهو مراده، لأنّ مراده ضرر الإنسان مطلقاً ومن كان. ثمّ بيّن الله تعالى الكلمة الطّيّبة وأمرهم أن يقولوها فقال: **(رَّبُّكُمْ)** أي قولوا لهم: **(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ)** بحالكم **(إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ)** بالهداية **(أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ)** فقولوا: هذه، بدل أن تقولوا: أنتم أهل الضّلال وأنتم أهل النّار وعليكم اللّعنة من الله تعالى، وما الى ذلك من الكلمات الجارحة **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً)** فتأتي بهم إلى الإيمان قهراً وجبراً، بل أرسلناك مبلّغاً وبشيراً ونذيراً، فإذا لم نأذن لك الهداية بالقوّة فغيرك من المؤمنين أولى بعدم الإذن في استعمال القوّة والقهر **(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)** كلّهم وبجبلتهم وأخلاقهم ونفسيتهم، فأعطى كلّ ماهو موافق لنفسيّتهم من الهداية وغيرها، وأعطى لكلّ مهتد درجات حسب استعداده، فمنهم من نال درجات كثيرة ومنهم أقلّ ومنهم أكثر. وإنّ هذا التّفاوت موجود حتّى بين النّبيّين حيث **(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا)** وبيّنا فيه درجات الأنبياء ومن هو أفضل وأرقى.

ثمّ بيّن الله تعالى للرّسول (ﷺ) كيفيّة مناقشته للمشركين وماذا يقول لهم فقال جلّ وعلا:

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ

﴿رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

(**قُلِ**) لهم أيّها النّبيّ وأيّها المسلم (**ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم**) وتسمّونهم آلهة عند الضرّ ليكشفوا عنكم الضرّ (**فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ**) وإن دعوتموهم ألف مرّة (**وَلَا**) يملكون أيضاً (**تَحْوِيلاً**) للضرّ إلى غيركم، فالمعنى لا ينفعونكم بكشف الضرّ ولا يضرّون أحداً بنقل الضرّ إليه (**أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**) يسمّونهم آلهة هم (**يَبْتَغُونَ**) يطلبون (**إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ**) أي ما يتوسّل به إلى رحمة الله تعالى وهى العبادة، أي هم يعبدون ربّهم ليتوسّلوا بعبادتهم إلى رحمته حتّى أنّ (**أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**) إلى الله يبتغي إليه الوسيلة (**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ**) بالوسيلة أي العبادة (**وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**) بما صدر منهم من التّقصير (**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**) يحذره كلّ أحد حتّى الأنبياء والمرسلون، لأنّ أحداً لا يفي بحقّ الله تعالى. قال رسول الله (ﷺ): (لايدخل أحدكم الجنّة بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله برحمة منه)[1].

سؤال: إنّ آلهة المشركين كان فيها الأصنام والتّماثيل، وهي جمادات، فكيف يبتغون بهم إلى الله الوسيلة؟

الجواب: إنّ من الّذين يعبدهم المشركون هم أناس، وهم مثل عيسى وعزير والرّجال الصّالحين، ومنهم هياكل وتماثيل، وهى تماثيل لأناس كانوا صالحين أو للملائكة، ففي الحقيقه أنّهم يعبدون هؤلاء الصّالحين أو الملائكة. والصّالحون والملائكة يبتغون إلى الله الوسيلة[2] فيتوسّلون إليه بالعبادة والاستغفار. وعليك بمراجعة سورة نوح لتعلم أن المشركين ماذا يعبدون عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

* * *

(١) مسند أحمد بن حنبل ١/ ٢٥٦ الحديث رقم ٧٤٧٣. مسلم ٢/ ٤٧٣ الحديث رقم ١٠١٢٧ بلفظ مختلف.

(٢) أي في تصور المشركين.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذر الكافرين بعذاب الدّنيا قبل الآخرة إن لم يؤمنوا، فقال تعالى: (**وَإِن**) أي وما (**من قَرْيَةٍ**) من قرى الكفار (**إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا**) بعذاب الإستئصال (**قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا**) بالحروب والبلايا (**كَانَ ذَلِك**) الانتقام من المشركين (**فِي الْكِتَابِ**) في اللّوح المحفوظ (**مَسْطُورًا**) مكتوباً ومقرراً لا تخلف فيه.

ثمّ في هذه المناقشات كان المشركون والكافرون يطلبون من الرّسول (ﷺ) أن يظهر خوارق تجبرّهم على الإيمان، فكان الرّسول (ﷺ) يحبّ ذلك حرصاً على إيمان القوم فقال جل وعلا:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

(**وَمَا مَنَعَنَا**) أيها الرّسول من (**أَن نُّرْسِلَ**) لك (**بالآيَاتِ**) العظام والخوارق العجيبة (**إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ**) وأنّ الكفر ملّة واحدة وطبيعة النّاس متشابهة، فلو أرسلنا إليك الآيات لكذّب بها قومك كما كذّب الأولون، ثمّ أثبت تكذيب الأوّلين بالآيات العظام فقال: (**وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ**) معجزةً عظيمةً، حيث خرجت من الصّخرة، وكانت هذه المعجزة (**مُبْصِرَةً**) أي مثبتةً وموضحةً صدق رسولهم صالح فلم يؤمنوا (**فَظَلَمُواْ بِهَا**) فعقروها، وكأنّ قائلاً يقول: فليرسل الله الآيات وإن كذّب القوم، فقال تعالى: (**وَمَا نُرْسِلُ بالآيَاتِ**) حسب إرادة القوم (**إِلَّا تَخْوِيفًا**) لهم بالإستئصال إن كذّبوا، وما أردنا إستئصال أمّتك يا محمّد فلذلك ما أرسلنا بالآيات الّتي هم يريدونها. هذا وقد كان حرص الرّسول ورغبته في نزول الخوارق أن يتغلّب هو على المشركين وتتغلّب عقيدة التّوحيد على عقيدة الشّرك فقال تعالى: (**وَإِذْ قُلْنَا لَكَ**) من قبل (**إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ**) فينصرك عليهم فإذن لا داعي إلى الخوارق رغم أنّ الخوارق لا تأتي بهم إلى الإيمان، حيث أريناهم كثيراً من الخوارق فلم يؤمنوا، ويدلّ على ذلك أنّه (**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ**) وهي رؤية بيت المقدس ليلة أسرينا بك، وأموراً أخرى بيّنت لهم وأثبتّها فلم يفدهم، كلّ ذلك فلم تكن هذه الخارقة (**إِلَّا فِتْنَةً**) إمتحاناً (**لِّلنَّاسِ**) هل يؤمنون أو لا ؟!

فلم يؤمنوا (**وَ**) كذلك جعلنا (**الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ**) المذكورة (**فِي الْقُرْآنِ**) فتنة لهم، حيث كانوا يقولون: إنّ محمّداً يتوعّدكم بنار تحرق الحجارة ثمّ يزعم أنّها تنبت فيها الشّجر، وهي شجرة الزّقوم الّتي أخبر عنها القرآن (**وَنُخَوِّفُهُمْ**) بالقرآن وبأخبار الأمم الماضية (**فَمَا يَزِيدُهُمْ**) هذا الإمتحان وهذا التّخويف (**إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا**) وضلالاً بعيداً، وإنّ الرّؤيا هي ماقلنا من حديث الإسراء الّذي رأى رسول الله تعالى فيه عجائب وخوارق كثيرة أثبتها لهم، والمراد بالشّجرة ما قلنا وهي: شجرة الزّقوم. وهناك تفسيرات أخرى لها كلّها باطلة، لأنّ مافسّروا به كلّها حوادث مدنيّة والسّورة هذه مكيّة والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ الصّراع بين الحقّ والباطل والهداية والضّلال نشأ منذ خلق الله الإنسان الأوّل، ولا ينتهي هذا الصّراع إلى يوم القيامة، فلا يمكن القضاء على الباطل نهائيا، فإذن لاداعي إلى هذا الحرص الشّديد للدّاعي على الحقّ، بل إنّما هو يدعو ويجتهد ولا يأبى بعد ذلك ولا يحزن على ضلال من ضل، فإنّه ليس عليه إلّا الدّعوة وكفى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

(**وَإِذْ**) واذكر (**إِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ**) إعترافاً بفضله عليكم (**فَسَجَدُواْ**) كلّهم (**إَلّا إِبْلِيسَ**) وهو الشّيطان لم يسجد له، ولمّا سأله الله عن عدم سجوده (**قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**) وأنا من النّار وخير منه، فلعنه الله تعالى فغضب إبليس على آدم وأراد الشّر به وبذرّيته ولذا (**قَالَ**) لله تعالى (**أَرَأَيْتَكَ**) أي أخبرني هل (**هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ**) وأمرتني بالسّجود له خير ويطيع لك أو لا (**لَئِنْ أَخَّرْتَنِ**) فأعيش (**إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**) ولا تمتني (**لأَحْتَنِكَنَّ**) لأهلكنّ (**ذُرِّيَّتَهُ**) ذرية آدم بالإضلال (**إَلَّا قَلِيلاً**) منهم (**قَالَ اذْهَبْ**) واعمل فلا أميتك إلى يوم القيامة (**فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ**) جزاؤك

وجزاؤهم (**جَزَاءً مَّوْفُورًا**) أي كاملاً (**وَاسْتَفْزِزْ**) أي إستخف واستنزل بندائك إلى الشرّ (**مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ**) بوسوستك الّتى تناديهم به إلى المعصية (**وَأَجْلِبْ**) وصحّ (**عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ**) باعوانك الرّكب (**وَرَجِلِكَ**) أعوانك المشاة، والمعنى اهجم عليهم بكلّ جنودك واستعمل فيهم كلّ مكايدك (**وَشَارِكْهُمْ**) كن شريكاً لهم (**فِي الأَمْوَالِ**) الّتي يصرفونها في الحرام، فإنّ ماصرف في الحرام فهو للشّيطان (**وَالأَوْلادِ**) الّذين انحرفوا عن الإسلام، فإنّ من انحرف عن الحقّ فهو للشّيطان (**وَعِدْهُمْ**) وبشّرهم بعدم العقاب على المعاصي، وإنّ وعدك باطل حيث (**وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا**) إلّا باطلاً يغرّ به الجاهلين أتباع الهوى والشّهوات. وخلاصة المعنى إفعل كلّ ما ذكر وتفعل، فإنّا أعطيناك قوّة على ذلك إلّا انّه لا تنجح في قصدك حيث (**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**) قدرة على أن تغويهم، بل إنّ الّذين يتّبعونك هم يعطونك السّلطان عليهم حبّاً في شهواتهم واتّباعاً لهواهم (**وَكَفَى**) واكتف (**بِرَبِّكَ وَكِيلاً**) حافظاً للمؤمنين منك ومعيذاً لهم. فانطلق الشّيطان وأصبح يعمل ويوسوس في بنى آدم فيتّبعه أصحاب الهوى والشّهوات والمصالح، ويبقى أصحاب الحقّ والعقل والتّفكير؛ فهؤلاء لايظفر بهم الشّيطان.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن كيفيّة ضلال النّاس رغم أنّ الهداية مركوزة في أعماق أنفسهم وضمائرهم فقال جل وعلا:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡۙ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَـٰهُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلۡنَـٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

(**رَّبُّكُمْ**) هو (**الَّذِي يُزْجِي**) أي يجري ويسيد (**لَكُمُ الْفُلْكَ**) السّفن (**فِي الْبَحْرِ**) ويحفظها من الغرق والآفات (**لِتَبْتَغُواْ**) بالسّفر عليها (**مِن فَضْلِهِ**) من رزق الله تعالى بالكسب والتّجارة (**إِنَّهُ**) أي الله تعالى (**كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**) حيث هيأ لكم أسباب الكسب

والتّجارة في البرّ والبحر (**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ**) من اضطراب السّفينه وخوف غرقها (**فِي الْبَحْرِ ضَلَّ**) غاب عن فكركم وقلبكم (**مَن تَدْعُونَ**) من الشّركاء ولتستغيثون بهم لأنّكم في قرارة أنفسكم تشعرون بالتّوحيد، وركّز في قلوبكم أن لا نافع (**إِلَّا إِيَّاهُ**) أي الله تعالى (**فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ**) رجعتم إلى ضلالكم حيث (**أَعْرَضْتُمْ**) عن التّوحيد وعدتم إلى الإشراك (**وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا**) بنعم الله تعالى، إذ هو الّذي ينعم عليه وهو يعبد غيره فكيف ترجعون إلى الشّرك، فهل انتهت البلايا والمصائب فلاتحتاجون إلى الله مرّة أخرى؟ كلّا، لأنّ المصائب كثيرة ولم تنتهي بعد هذه المصيبة، ولذا قال تعالى: (**أَفَ**) بعد هذه المصيبة مصيبه اضطراب السّفينة والنّجاة منها (**أفأَمِنتُمْ**) أن لا يصبيكم مصيبة أخرى وذلك (**أَن يَخْسِفَ**) الله (**بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ**) حينما خرجتم من السّفينة فيمور بكم في الأرض بدل أن يغرقكم في الماء(**أو**) أمنتم أن (**يُرْسِلَ**) الله (**عَلَيْكُمْ حَاصِبًا**) أي ريحاً يرميكم بالحصباء وهي الحجارة الصّغيرة؛ فتموتون بها كما مات بها قوم لوط من قبل (**ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً**) حافظاً يحفظكم أو ناصراً ينقذكم من هذا الحاصب (**أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ**) في البحر (**تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ**) في هذه المرّة (**قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ**) ريحاً قاصفةً أي كاسرةً كلّ ما أصابته فتكسر سفينتكم (**فَيُغْرِقَكُم**) في البحر (**بِمَا كَفَرْتُمْ**) أي بسبب كفر النّعمة وشرككم بالله تعالى (**ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ**) بجزاء مافعلنا بكم (**تَبِيعًا**) مطالباً يطلب حقّكم منّا لأنّه لا أحد يستطيع أن يطالب الله شيئا لأنّه لا قادر عليه رغم أنّ كلّ شيء ملكه يتصرّف فيه كيف يشاء ويريد (**لايسئل عمّا يفعل وهم يسألون**) فهو غير قابل للمسائلة. (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا**) قدرنا (**بَنِي آدَمَ**) وشرفناه وأنعمنا عليه (**وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ**) على الدّواب وغيرها (**وَالْبَحْرِ**) على السّفن (**وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**) من الثّمار والأطعمة واللّحوم (**وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**) والمراد بالكثير الكلّ، فالانسان أفضل من كلّ ماخلق بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ سورة البينة الآية/٧، أي خير المخلوقات جميعاً.

إلّا أنّ الإنسان لم يشكر هذا التّكريم والتّقدير وهذه النّعم، ولا شكّ أنّه سيحاسب على عدم شكره وعدم تقديره لهذه النّعم، ولذا قال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

(**يَوْمَ نَدْعُو**) ننادي ونجمع (**كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**) مع كتابهم وسجل أعمالهم، سمّي الكتاب إماماً لأنّه يتّبع في الحساب كما أنّ الامام يتّبع (**فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ**) وهم المؤمنون المقدّرون لنعم الله والشّاكرون له بتوحيده والعمل بشريعته (**فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ**) ويفرحون بما فيه من أعمال الخير والبشارة بالنّجاة من العذاب وبالفوز بالجنّات والنّعيم (**وَلَا يُظْلَمُونَ**) لا ينقص من جزاء أعمالهم (**فَتِيلاً**) بقدر فتيل، وهو القشرة الرّقيقة الّتي فوق النّواة (**وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ**) في هذه الدّنيا (**أَعْمَى**) عن الحقّ فلم يتّبعه وعن الإسلام فلم يعتنقه (**فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى**) عن رؤية طريق النّجاة ووصول الخير (**وَأَضَلُّ سَبِيلاً**) للنّجاة عن العذاب؛ فلا يصل ولا يهتدي إلى الجنّة والنّعيم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى معاملة النّاس مع الله تعالى من كفران النّعم والإشراك بالله تعالى، أراد أن يذكر معاملتهم مع الرّسول (ﷺ) وكيف حفظ الله تعالى رسوله من مكايدهم وحيلهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

لقد كان صنايد قريش يحاولون أشدّ المحاولات ويسعون بكلّ جهودهم أن يميل الرّسول إلى بعض تقاليدهم ويعترف ببعض مقدّساتهم، فيعترفوا بما جاء به وأنّه رسول فيتّفقوا ولا يبقى بينهم خلاف، وحيث كانت محاولاتهم قويّةً جدّاً ومغريةً فوق العادة، فكانوا يعدّونه بأن يجعلوه ملكاً عليهم، وأن يزوّجوه أحسن نسائهم، وأن يهبوا له الأموال إلى أن يصير أثرى النّاس فيهم، ومثل هذه المحاولات قلّ أن يصمد النّاس أمامها لولا أن يثبّت الله تعالى من يشاء فثبّت الله الرّسول (ﷺ) فصمد بقدرة الله تعالى وقال: والله لو وضعوا الشّمس في يميني والقمر في يساري لما تركت هذا الأمر

إلى أن يتمّه الله أو أهلك دونه، فقال تعالى: **(وَإِن كَادُواْ)** أي كانت محاولاتهم قريبة بشدّتها من أن يقنعوك **(لَيَفْتِنُونَكَ)** ليستزلّونك فتترك وتعرض **(عَنِ)** بعض **(الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)** من بطلان آلهتهم وفساد عقيدتهم وبعد تقاليدهم وأنظمتهم عن الحقّ، وكان قصدهم من هذه المحاولات **(لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)** غير الذي أوحينا إليك فتعترف ببعض ماهم عليه **(وَإِذًا)** وإذا فعلت ذلك **(لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)** جعلوك من أعز أحبتهم **(وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ)** وجعلناك صامداً على عقيدتك وعلى إنكار ما هم عليه **(لَقَدْ كِدتَّ)** حسب الطبيعة البشرية والشهوات الانسانية **(تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً)** ولكن لم تركن هذا القليل أيضاً لتثبيتنا إياك وعصمتك من الزلل إلى الباطل **(إِذاً)** إذاً كنت ركنت إليهم ولو شيئاً قليلاً **(لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ)** عذابها وهو الذل والمهانة في الدنيا **(وَضِعْفَ الْمَمَاتِ)** وهو عذاب الآخرة **(ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)** ينقذك من العذاب لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذه موعظة لكل مسلم ولكل داعية وأمر بأن لا يميل ولا يقبل من الكافرين أي حكم وأي تقليد وأي عادة وأية تبعية وإلا فيذيقة الله تعالى ضعف الحياة وضعف الممات ولا يجد نصيراً ينصره من هذين الضعفين أي العذابين، ولقد رأينا بأم أعيننا أن كل من عاون الكافر المستعمر أذله الله تعالى في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. فبعد أن فشل المشركون من كل محاولاتهم فلم يلب الرسول أي طلب من طلباتهم قاموا باستفزازه إلى أن يخرج من أرض مكة ويهاجر منها فوقع ذلك وعوقبوا على ذلك كما قال تعالى **(وَإِن)** وقد **(كَادُواْ)** عملوا محاولات أخرى فكادوا وقرّبوا **(لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ)** ليزعجوك بأعمالهم الدّنيئة وعداوتهم الغشيمة ففعلوا كلّ ذلك **(لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا)** من أرض مكّة وقد حصل ذلك فتخرج منها **(وَإِذًا)** وإذا خرجت من أرض مكّة **(لَّا يَلْبَثُونَ)** هؤلاء المستفزون ولا يعيشون **(خِلافَكَ)** بعدك **(إِلَّا قَلِيلاً)** فوقع كذلك؛ فقتل هؤلاء كلّهم في حرب بدر ومنهم من مات قبله. وهذا أي إهلاك الكافرين بعد خروج رسولهم من بينهم سنتنا **(سُنَّةَ مَن)** كسنّة من **(قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا)** من تعذيب قومهم **(وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً)** تبديلاً وتغييراً، فهي ماضية إلى يوم القيامة، فكلّ جماعة مسلمة إذا جاهدوا في الله حقّ جهاده ودعوا دعوة الحقّ وصمدوا عليه ولم يكن نيّتهم إلّا الله، ورفع راية الإسلام وشريعة الله تعالى، فإنّ الله يذلّ أعداءهم وينصرهم عليهم، فاعملوا أيّها المسلمون بصدق تنالوا عزّكم في الدّنيا والآخرة.

ثمّ بعد أن بيّن الله تعالى لرسوله سنّته من نصر الرّسل والدّعاة إلى الحقّ وخذلان أعدائهم، وذلك بسبب قرب الرّسل من الله تعالى وصلتهم به، أمر تعالى رسوله وكلّ

داعية أن يديم صلته مع الله تعالى لينصره نصراً بعد نصر إلى أن يتمّ له تمام النّصر فقال جلّ وعلا:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

(**أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ**) وقت دلوك أي زوال (**الشَّمْسِ**) من وسط السّماء (**إِلَى غَسَقِ**) إلى شدّة ظلام (**اللَّيْلِ**) فيشمل هذا صلاة الظّهر والعصر والمغرب والعشاء (**وَقُرْآنَ**) أي اقرأ (**قُرْآنَ الْفَجْرِ**) أي صلّ صلاته وبهذا تمّت الفرائض الخمس (**إِنَّ قُرْآنَ**) صلاة (**الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**) تشهده ملائكة اللّيل والنّهار. قال رسول الله (ﷺ): (فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة اللّيل وملائكة النّهار في صلاة الصّبح) وقال أيضاً: (يتعاقبون فيكم ملائكة باللّيل وملائكة بالنّهار فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر). (**وَمِنَ اللَّيْلِ**) وفي بعض اللّيل (**فَتَهَجَّدْ**) قم من النّوم (**بِهِ**) بالصّلاة فيه (**نَافِلَةً**) عبادة زائدة (**لَّكَ**) أيّها النّبيّ أي فرض عليك لا على غيرك من أمّتك وكانت صلاة اللّيل فريضة على النّبيّ (ﷺ) وعلى الأمّة في الابتداء ثمّ نسخ فرضيّته على الأمّة فصارت سنّة لهم، وبقي فرضاً على الرّسول، والكلام في هذا الموضوع تجده في سورة المزّمل (**عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ**) بالدّوام على الصّلوات وصلاة التّهجد ويهبك (**مَقَامًا مَّحْمُودًا**) مقاماً يثني عليه وهو مقام الشّفاعة الكبرى يوم القيامة، وتضرّع إلى الله تعالى (**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي**) إلى المدينة المنوّرة (**مُدْخَلَ صِدْقٍ**) إدخالاً يكون سبب رضائك (**وَأَخْرِجْنِي**) من مكّة المكرّمة (**مُخْرَجَ**) إخراج (**صِدْقٍ**) ورضاءٍ منك (**وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا**) أنتصر به على أهل مكّة وغيرهم من الكافرين وبهذا أذن الله تعالى للرّسول (ﷺ) بالهجرة. وتبيّن من هاتين الآيتين أنّ الصّلاة والنّوافل منها والدّعوات والتّضرع إلى الله تعالى

من أفضل أسباب التّقرب إلى الله تعالى ودوام الصّلة مع ربّه بدليل قوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾ فإذا فعلت ذلك وأدمت صلتك بالله فإنّ الله تعالى ينصرك ويفتح على يديك مكّة المكرّمة (**وَقُلْ**) حينما فتحت مكة (**جَاء الْحَقُّ**) وثبت وانتصر (**وَزَهَقَ الْبَاطِلُ**) ولّى وانهزم (**إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**) أمام الحقّ إذا جاهد أهل الحقّ بصدق وإخلاص وأنجز الله تعالى وعده وفتح الرّسول (ﷺ) مكّة فكان ينكس الأصنام ويكسرها ويقول: (وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) وهذا الدّعاء مفيد في كلّ وقت، ولحلّ كلّ مشكلة وعند كلّ حلّ وارتحال، وبعد أن وصّى الله تعالى رسوله هذه الوصايا وهذا العلاج الرّوحي والمادي، أراد تعالى أن يذكر أنّ كلّ علاج لكلّ عقبة ومصاعب هو مذكور في القرآن، سواء كان العلاج روحياً أو مادياً ولكلّ مؤمن فقال جلّ وعلا: (**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء**) وعلاج للأمور والأمراض الماديّة والمعنويّة والمشاكل الفردية والاجتماعيّة والماليّة والنّفسيّة وأمراض العقائد الفاسدة والنّظم الباطلة (**وَرَحْمَةٌ**) سبب رحمة (**لِّلْمُؤْمِنِينَ**) به والمطبّقين له (**وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ**) بالانحراف عن هذا المنهج الصّحيح منهج القرآن الكريم منهج الله الحكيم العليم (**إِلَّا خَسَارًا**) في الدّنيا والآخرة، وقد نجح المسلمون الأوائل كلّ النّجاح حينما كانوا يعملون بوصايا القرآن ويعملون بأحكامه ويتّبعون أخلاقه، فهل للمسلمين من رجوع إلى هذا العلاج لينالوا كلّ الشّفاء اللّهم فافعل آمين.

ثمّ بعد أن بيّن الله تعالى أنّ المنحرفين عن منهج القرآن لا يزيدون إلّا خساراً، ومن منهج القرآن الشّكر على النّعماء والصّبر على الضّراء، ذكر الله تعالى منهج المنحرفين عن القرآن فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

(**وَإِذَآ أَنْعَمْنَا**) بالمال أو القوّة أو المنصب (**عَلَى الإِنسَانِ**) المنحرف عن شفاء القرآن ومنهجه وعلاجه للأوضاع بطر وطغى وتكبّر فتراه (**أَعْرَضَ**) عن الحقّ (**وَنَأَى**) وابتعد وتحوّل عنه (**بِجَانِبِهِ**) وليس مرض أضرّ من التّكبّر والبطر والاستعلاء (**وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ**) من الفقر أو المرض أو زوال القوّة أو المنصب (**كَانَ يَؤُوسًا**) من الحياة لا أمل له، ولكن المستشفي بعلاج القرآن إذا أنعم الله تعالى عليه بالمال أو القوّة أو

المنصب شكر الله تعالى وصرفه فيما ينفعه في الدّنيا، ويعود عليه في الآخرة بالثواب الجزيل (**وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ**) الضّرر كالفقر والضّعف أو زوال المنصب أو المرض صبر ودعا الله تعالى، ويأمل منه التّعويض في الدّنيا أو المجازاة في الآخرة (**قُلْ كُلٌّ**) من المؤمن التّابع لمنهج القرآن والمنحرف عنه (**يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**) على طريقته (**فَرَبُّكُمْ**) بعد ذلك (**أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً**) أحقّ في طريقته وأوصل إلى راحة القلب في الدّنيا والطّمأنينة وإلى الفوز بالثّواب الجزيل في الآخرة، وفي الآية إشارة إلى الوعد لتابع منهج القرآن ووعيد للمنحرف عنه. وفي كون القرآن شفاءً للأمراض الجسمانية بقراءته عليه والتّبرّك به فقد ورد عن أبي سعيد الخدري قال: (بعثنا رسول الله (ﷺ) ثلاثين راكباً فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا، فلدغ سيّد الحيّ فأتونا فقالوا: أفيكم أحد يرقي من العقرب؟ قال: قلت: نعم، ولكن لا أفعل حتّى تعطونا، فقالوا: إنّا نعطيكم ثلاثين شاة، قال: فقرأت عليه سورة الفاتحة سبع مرات فأفاق وبرأ، فبعث إلينا بالمنزل وبعث إلينا بالشّياه فأكلنا أنا وأصحابي وأبوا أن يأكلوا من الغنم حتّى أتينا رسول الله (ﷺ) فأخبرته الخبر فقال: (وما يدريك أنّها رقية) فقلت شيء ألقي في روعي، فقال رسول الله : (كلوا وأطعمونا من الغنم)[١].

ثمّ إن قول الله تعالى أنّ القرآن شفاء يفيد أنّه شفاء من الجهل أيضاً فجاء النّاس يسألون عن الرّوح فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح البخاري ٥/٥٥٨ الحديث رقم٢٢٧٦ ونصه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ نَعَمْ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنْ الْغَنَمِ فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ قَالَ فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمْ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ اقْسِمُوا فَقَالَ الَّذِي رَقَى لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَذَكَرُوا لَهُ فَقَالَ وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ثُمَّ قَالَ قَدْ أَصَبْتُمْ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

(**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُوحِ**) ماهي وما حقيقتها (**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**) هي داخلة في عالم الأمر الّذي يوجد بأمر كن فيكون بدون توسط الأسباب، ولا تقدرون على فهم حقيقتها حيث (**وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً**) وإنّ القرآن حينما يقال إنّه شفاء وعلاج فإنّما هو فيما تحتاجون إليه، وأمّا فى غير ذلك فلا، ولا ضرورة فى معرفة الإنسان كلّ شيء كالرّوح وغيرها ممّا هو من الأسرار الّتى اختصّ الله تعالى بمعرفتها. ثمّ لما أشار الله تعالى إلى أنّ علم الإنسان حتّى الرّسول هو ممّا آتاهم الله تعالى من فضله قال تعالى: (**وَلَئِن شِئْنَا**) أن نذهب بما يعلمه النّاس وبما تعلّمه أنت أيّها النّبيّ (**لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**) كلّه (**ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً**) ناصراً يرده إليك (**إِلَّا**) لكن أبقيناه (**رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**) بك وبالنّاس ولا رحمة أفضل من القرآن إذ فيه سعادة البشريّة في الدّنيا والآخرة لو يعلمون به، وأنّه كتاب لا ولن يبلغه أي كتاب فى الفضل والكمال كما قال تعالى: (**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ**) ويضعوا كتاباً يكون (**بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ**) فصاحةً وبلاغةً وأحكاماً وحكماً وتشريعاً (**لَا يَأْتُونَ**) لايقدرون أن يأتوا به (**بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**) معيناً، كيف لا وإنّه من الله الّذى خلق الإنسان وهو يعلم مايصلح له وينفع ويضرّ ولا ينفع، وما هو خير له وما هو شرّ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ سورة الملك الآية(١٤). فوضع تعالى هذا النّظام وفق علمه هذا، وإنّ النّاس الّذين يضعون الأنظمة فلا تخلوا أنظمتهم من الأهواء والأخطاء والتّحيّزات والميول والنّزعات رغم أنّه مهما بلغ الإنسان من العلم فلا يصل علمه إلى جزء من مليون جزء من علم الله العليم الحكيم، فكيف يستطيع المخلوق أن يضع نظاماً كنظام الخالق؟ كلا، ولكنّ أكثر النّاس يضلّون حسب الهوى

والتّبعيّة والميول (**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا**) ولقد بيّنا بأنواع مختلفة (**لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**) نوضّح به الحقّ ونثبّت به (**فَـ**) مع ذلك (**أَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا**) أن يكفر ويبتعد عن هذا القرآن (**كُفُورًا**) إبتعاداً ونفرةً وإعراضاً عنه تكبّراً أو حسداً أو لهوى أو لشهوات البطن أو الجنس أو الملك أو الحكم أو غير ذلك ممّا يعمي الإنسان عن الحقّ ويعميه ويضلّه عن الصّراط المستقيم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى عظمة هذا القرآن وإعجازه بحيث إنّه يكفي لإثبات رسالة الرّسول والإيمان به، ولا داعي إلى أيّة معجزة أخرى، ولكن كان المشركون يطلبون من الرّسول خوارق تدهش العقول والأفهام كما قال تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

(**وَقَالُواْ**) أي الكافرون (**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ**) يامحمّد بأنّك رسول (**حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ**) تفجر لنا أرض مكّة (**يَنبُوعًا**) عيناً جارية نشرب منها ونزرع بها المزارع (**أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ**) بستان في مكّة (**مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ**) السّواقي (**خِلالَهَا**) بين أشجارها بسقيها (**تَفْجِيرًا**) ظاهراً كثيراً (**أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا**) إذ كان الرّسول يقول لهم إنّ هذا الكون سينهدم وتسقط السّماء على الأرض وتقوم القيامة ويحسب حينئذ العباد وكلّ يجزى وفق أعماله، فكانوا يعتبرون ذلك زعماً منه أي كذباً (**كِسَفًا**) تكون السّماء حين السّقوط قطعاً (**أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً**) مقابلين لنا ونراهم فيشهدوا كلّهم بنبوّتك ورسالتك (**أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ**) دار مبنيّة (**مِّن زُخْرُفٍ**) أي ذهب لأنّك فقير والفقير لايليق بالسّيادة، هكذا كان دأبهم مثل اليهود لايؤمنون إلّا بالمال أو النّسب الأعلى (**أَوْ تَرْقَى**) تصعد (**فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ**) وصعودك فى السّماء (**حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا**) واضحاً (**نَّقْرَؤُهُ**) وفيه أنّك رسول الله تعالى (**قُلْ**) يامحمّد لهم فى جواب هذه المقترحات (**سُبْحَانَ**) تنزّه (**رَبِّي**) الله عن أن يقدر أحد مثل قدرته

(هَلْ كُنتُ) ما كنت **(إِلّا بَشَرًا رَّسُولاً)** من الله تعالى وأنّ البشر لا يقدر على ذلك إلّا بقدرة الله تعالى، وأنّ الله لم يعطنا هذه المعجزات والخوارق والقدرة عليها، لأنّ ما أتيت به من الخوارق يكفي لمن يحبّ الحقّ والإيمان، ومن لا فلا يفيده ملء الأرض والسّموات من الخوارق، ومن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه وما على الرّسول إلّا البلاغ المبين لا الإتيان بكلّ ماتريدون وتقترحون.

ثمّ إنّ الكافرين توسّلوا بحجّة أخرى لردّ دعوى الرّسول الرّسالة فقالوا: كيف يرسل الله بشريعته بشراً؟ ولو أراد أن يرسل ديناً لأرسل الملك لتبليغه ونشره، فردّ الله تعالى قولهم هذا فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ) من **(أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى)** وما حملهم على الكفر والإنكار **(إِلّا أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً)** إلينا ليبلغنا بدينه ويرشدنا إليه وإلى شريعته، فلو أراد الله تعالى إرسال دين أو شريعة لأرسل ملكاً لتبليغه إلينا ونشره بيننا. وهكذا قال كلّ أمّة لرسولهم، فكأنّ الأوّلين نفخوا في أفواه الآخرين ولا عجب فانّ الكفر ملّة واحدة **(قُل)** أيّها النّبيّ في جوابهم **(لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ)** يعيشون ويعمرون الأرض **(مُطْمَئِنِّينَ)** مستقرين على الأرض **(لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا

رَّسُولاً) ولكنّ الّذين يعيشون على الأرض هم من البشر، فأرسلنا إليهم بشراً فإنّ الرّسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم ليحصل التآلف بينهم فيسهل التّخاطب والتّفاهم بينهم **(قُلْ)** أيّها النّبيّ لمنكري رسالتك **(كَفَى)** اكتف **(بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)** على أنّي رسول منه لـ **(إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)** فيعاقبني إن ادّعيت الرّسالة افتراءً وينتقم منكم إن كنت رسولاً منه فلم تؤمنوا بي **(وَمَن يَهْدِ اللّهُ)** إيّاه وأوصله إلى الحقّ والإيمان حيث هو يحبّ الإيمان والحقّ ويسعى له ولا يتكبّر عن الحقّ فيتّبعه على يد من ظهر وأتى به **(فَهُوَ)** فهذا هو **(الْمُهْتَدِ)** إلى الحقّ **(وَمَن يُضْلِلْ)** الله إياه لتكبّره عن الحقّ واستعلائه وحده **(فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء)** يأتون بهم إلى الحقّ **(مِن دُونِهِ)** سوى الله تعالى **(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا)** لأنّهم تعاموا عن الحقّ وآيات الله الكونيّة **(وَبُكْمًا)** لأنّهم لم ينطقوا بالحقّ **(وَصُمًّا)** لأنّهم لم يسمعوا الحقّ سماع القبول ولم يسمعوا الآيات القوليّة **(مَّأْوَاهُمْ)** منزلهم **(جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ)** ضعفت نارها **(زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)** تشعيلاً لجهنّم **(ذَلِكَ)** الّذي ذكرنا **(جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ)** أي بسبب أنّهم **(كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا)** أي دلائلنا الكونيّة والقوليّة والأحكام الشّرعيّة **(وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا)** بالية **(وَرُفَاتًا)** وأجزاءً متفرّقةً **(أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)** ومخلوقون **(خَلْقًا)** ثانياً **(جَدِيدًا)** قالوا ذلك استهزاءً بالبعث وإنكاراً لا إستفهاماً أوطلباً للعلم (أ) يقولون هذا وينكرون البعث **(وَلَمْ يَرَوْاْ)** ولم ينظروا نظر تفكّر واستدلال فيعلموا **(أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ)** كلّها وما فيها من الأجرام والكواكب والنّجوم والشّموس والأقمار **(وَالأَرْضَ)** وما عليها من الجبال والنّبات والأشجار والعيون والآبار والأنهار والوديان والتّلال والآثار وما فيها من المعادن النّافعة والكنوز المفيدة **(قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)** أن يعيد خلقهم مثل خلقهم الآن، بلى إنّه قدر ويفعل ذلك **(وَجَعَلَ لَهُمْ)** لإعادتهم **(أَجَلاً لاَّ رَيْبَ)** لا تخلّف **(فِيهِ)**، **(فَـ)** بعد ظهور الحقّ من هذا الدّليل وعدم بقاء المجال لإنكار البعث **(أَبَى الظَّالِمُونَ)** أي امتنع الكافرون **(إِلاَّ)** أن يكفروا **(كُفُورًا)** لا إيمان بعده تكبّراً وعناداً.

ثمّ أعاد الله تعالى الكلام على طلبهم المعجزات والخوارق فقال تعالى في طلبهم تفجير الينبوع:

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

(قُل) لهم أيّها النّبيّ **(لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ)** جميع **(خَزَآئِنَ رَحْمَةِ)** نعمة ورزق **(رَبِّي إِذًا)** إذاً ملكتم ذلك **(لَّأَمْسَكْتُمْ)** لامتنعتم من صرفها والجود بها **(خَشْيَةَ الإِنفَاقِ)** النّفاد **(وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا)** بخيلاً إلا من أطاع أمر الله تعالى واتّبع منهجه المستقيم، فأنتم في أشدّ الحال من البخل، فلا فائدة إذاً في تفجير الينبوع لكم لتزرعوا بمائه المزارع والبساتين.

ثمّ قال الله تعالى في كلّ الخوارق من أنّها لا تنفعهم كما لم تنفع الخوارق الأمم السّابقه فقال جل وعلا:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ) تسع معجزات خوارق **(بَيِّنَاتٍ)** واضحات في الدّلالة على أنّه رسول من الله تعالى **(فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ)** فإنّهم يقرّون بهذه الآيات التّسع **(إِذْ جَاءهُمْ)** اذ متعلق بآتينا أي آتيناه الآيات، إذ جاء بني اسرائيل وفرعون كرسول **(فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسَى مَسْحُورًا)** إسم مفعول بمعنى الفاعل أي ساحراً مثل قوله: **(حجاباً مستوراً)** أي ساتراً **(قَالَ)** موسى لفرعون والله **(لَقَدْ عَلِمْتَ)** أنّه **(مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء)** الآيات **(إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ)** جمع بصيرة أي شاهدة تشهد كلّ واحدة منها بأنّي رسول الله تعالى **(وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا)** هالكاً ومصروفاً عن الخير والحقّ **(فَأَرَادَ)** فرعون **(أَن يَسْتَفِزَّهُم)** يؤذيهم كما هي عادة الطّغاة حينما عجزوا عن الحجّة لجؤوا إلى القوّة **(مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ)** فرعون **(وَمَن مَّعَهُ)** من الجنود في البحر **(جَمِيعًا)** فلم ينج منهم أحد. والآيات التّسع هي: العصا، اليد البيضاء، السّنون، النّقص من الثّمرات، الطّوفان، الجراد، القمّل، الضّفادع والدّم. وقد فصّلنا الكلام على هذه الآيات في سورة الأعراف.

وفي هذه الأخبار عن موسى وفرعون إشارتان:

الأولى: إنّ الآيات والخوارق لم تنفع فرعون وقومه فلم يؤمنوا بها، فلو أرسلنا الآيات لأهل مكّة لم يؤمنوا أيضاً، لأنّ الكفر ملّة واحدة وإنّ الطّغاة لا تلين قلوبهم بكلّ آية لأنّهم لايريدون إلّا ماهم عليه من السّلطة والطّغيان.

الثّانية: إنّ فرعون وقومه وغيرهم من الأمم السّابقه لم يؤمنوا رغم إرسالنا الآيات؛ فأهلكوا لأنّه من سنّة الله تعالى أنّه إذا لم يؤمن القوم بعد نزول الآيات أهلكهم ودمّرهم وأنّ الله تعالى لايريد تدمير هذا القوم ولا إهلاكهم كالأمم السّابقة (**وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ**) من بعد فرعون (**لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ**) أرض فلسطين ومصر والشّام (**فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ**) وهو يوم القيامة (**جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا**) مجموعين للحساب والسّؤال عمّا عملتم والجزاء حسبما تستحقّون.

ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّه قد أنزل القرآن على الرّسول وهو أكبر معجزة، بل القرآن أمّ المعجزات لاشتماله على معجزات لا تحصى، فلا حاجة إلى إرسال خوارق أخرى، وأنّهم إن لم يؤمنوا بسبب معجزة القرآن فلا يؤمنون وإن جاءتهم خوارق ممّا يطلبون، فقال جلّ وعلا:

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

(**وَبِالْحَقِّ**) متعلّق بقوله (**أَنزَلْنَاهُ**) والمعنى وأنزلناه أي القرآن من عند الله تعالى إلى اللّوح المحفوظ (**بِالْحَقِّ**) ولم يخالطه شيء من الباطل (**وَبِالْحَقِّ نَزَلَ**) من اللّوح على محمّد (ﷺ) لم يدخله شيء من **الباطل**، حيث أتى به جبريل أمين الوحي، فكلّ ما فيه حقّ ومطابق للواقع لا مخالفة فيه، فإخباراته عن الماضي حقّ موافق للواقع ولما في الكتب السّماويّة الّتي لم تحرّف، وإخباراته عن المستقبل حقّ يقع كما أخبر، وإخباره عمّا في قلوب المنافقين ومكايدهم حقّ، وإخباره عن الأمور الكونيّة والمباحث العلميّة حقّ مطابق للعلم ويصدقّه العلم يوما بعد يوم، وأحكامه حقّ موافق للعقل السّليم والضّمير المستقيم، فكلّ مافيه حقّ وأتى به من لم يدرس ولم يشتغل يوما لا بالخطابة

ولا بالشّعر ولا بالعلم فإذاً هو أكبر معجزة **(وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)** من اللّوح المحفوظ على الرّسول (ﷺ) ولم يخالطه شيء من الباطل، حيث أتى به الرّوح الأمين، فهذا الحقّ كاف في الإعجاز وعن إظهار خوارق أخرى **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا)** بالسّعادة لمن آمن به **(وَنَذِيرًا)** بالعذاب لمن كفر، ولم نرسلك لتأتي بالنّاس إلى الحقّ بقوّة الخوارق والمعجزات **(وَقُرْآناً)** مفعول مطلق لقوله نزل فالمعنى ونزل **(قُرْآناً)** أي كتابا مقروءاً (فَرَقْنَاهُ) أي نجوماً متفرّقة حسب الحوادث والوقائع ومانزل جملة واحدة لأنّ ذلك أسهل في الحفظ والتّبليغ كما قال جلّ وعلا: **(لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ)** وتبلغهم إياه **(عَلَى مُكْثٍ)** على مهل وتؤدة ليحفظوه ولذلك **(وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً)** أقساما متفرّقه وفي أزمنة متعدّدة وحسب الحوادث والوقائع **(قُلْ)** للنّاس **(آمِنُواْ بِهِ)** لتنالوا الفوز العظيم في الدّنيا والآخرة **(أَوْ لَا تُؤْمِنُواْ)** لتنالوا العذاب الأليم في الدّارين، فلا يضرّ عدم إيمانكم بالنّسبة إلى الله ورسوله ولا ينفعها إيمانكم، وإنّما النّفع والضّرر يلحقان بكم، ولا يبقى هذا الكتاب دون أن يؤمن به أحد حيث **(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ)** وهم أحبار اليهود الصّادقون ورهبان النّصارى المخلصون فهؤلاء **(إِذَا يُتْلَى)** القرآن **(عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ)** يقعون على الأرض **(لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا)** لله تعالى ويؤمنون بهذا القرآن **(وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا)** أي تنزّه الله تعالى عن إخلاف وعده في الكتب السّابقه بإرسال محمّد وإنزال القرآن عليه **(إِن)** أي قد **(كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا)** هذا الوعد **(لَمَفْعُولاً)** وهذا محمدّ وهذا هو الكتاب المنزّل عليه **(وَيَخِرُّونَ)** أي وينزلون رؤوسهم بحيث يقع أذقانهم على الصّدر **(لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ)** خوفاً من عذاب الله تعالى أو فرحاً بنزول هذا الكتاب **(وَيَزِيدُهُمْ)** القرآن **(خُشُوعًا)** تواضعاً لله تعالى وانقيادا لأوامره.

ثمّ بعد هذه المناقشات الطّويلة أمر الله تعالى رسوله وكلّ داعية أن يتوجّه إلى الله بالتّضرع والدّعوات لتوفيقه ولنصره، وأن يتوكّل عليه في إنجاح الدّعوة ولا يتوكّل على الخوارق والمعجزات؛ إذ الهادي هو الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

(قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ) أي نادوه وتضرّعوا إليه باسم الله أو الرّحمن أو باسم الرّحمن **(أَوِ**

ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا) إلى أي إسم (**تَدْعُواْ**) به فلا بأس فيه (**فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى**) كلّها فبأي إسم تدعوه فهو صحيح (**وَلاَ تَجْهَرْ**) بالقراءة (**بِصَلاَتِكَ**) جهراً كثيراً (**وَلاَ تُخَافِتْ**) ولا تسرّ (**بِهَا وَابْتَغِ**) واتّخذ (**بَيْنَ ذَلِكَ**) بين الجهر والسّر (**سَبِيلاً**) طريقاً مقصداً متوسّطاً بينها (**وَقُلِ الْحَمْدُ**) الكمال المطلق (**لِلّهِ**) وحده فهو الغنيّ عن كلّ شيء وهو (**الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**) لعدم حاجته إليه (**وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ**) في التّصرف وفي السّلطان لغنائه عن كلّ شريك (**وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ**) ناصر ينصره (**مِّنَ الذُّلَّ**) حيث لايعتريه الذّل أبداً (**وَكَبِّرْهُ**) وعظمه (**تَكْبِيرًا**) تعظيماً لائقاً بذاته وعظمة جلاله وعلوّ جماله، ومعنى تكبيره وتعظيمه الإعتراف بعظمته وكبريائه ونزاهته عن كلّ ما ينسب إليه ممّا لا يليق بعظمة ذاته وكمال صفاته، وتسمّى هذه الآية آية العزّ؛ فقد روى الإمام أحمد فى مسنده عن معاذ الجهنيّ عن رسول الله (ﷺ) أنّه كان يقول: (آية العزّ: قل الحمد الله الذى لم يتّخذ ولداً ... إلى آخر سورة الإسراء)[1]. وتفيد هذه الآيات أنّ من تضرّع إلى الله تعالى وصلّى له وحمده ونزّهه عن كلّ نقص وعيب وتوكّل عليه وحده فإنّ الله تعالى يكفيه ويسعده في الدّنيا والآخرة، ويرزقه حسن الخاتمة، والخاتمة الحسنى والفوز العظيم. اللّهم اجعلنا منهم آمين برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/٤٣٩ الحديث رقم ١٥٦٧٢.

سورة الكهف

(مكيّة، وهى مائة وعشر آيات، نزلت بعد الغاشية، سمّيت بسورة الكهف لما فيها من قصّة أصحاب الكهف، وتسمّى بسورة أصحاب الكهف أيضاً)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمّة في سبب نزولها:

ذكر المفسرون وأهل السّير كابن كثير وابن هشام وغيرهم أنّ قريشاً بعثوا النّضر بن الحارث وعقبة بن معيط إلى المدينة وإلى أحبار اليهود، وقالوا لهما سلاهم عن محمّد وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله فإنّهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتّى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله (ﷺ) ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض ما يقول، وقالا: إنّكم أهل التّوارة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا؟ فقال الأحبار: سلوه عن فتية ذهبوا في الزّمان الأول ماذا كان أمرهم؟ فقد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماذا كان نبؤه؟ وسلوه عن الرّوح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتّبعوه فانّه نبيّ، وإن لم يفعل فإنّه رجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النّضر بن الحارث وعقبة بن معيط حين قدما مكّة على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمّد، قد أمرنا أحبار اليهود أن تسألوه عن أشياء، فإن أخبركم بها فهو نبيّ، وإن لم يفعل فهو متقوّل فرؤوا رأيكم فيه، فجاؤوا رسول الله (ﷺ) فقالوا: يامحمّد أخبرنا عن فتيةٍ ذهبوا في الدّهر الأوّل قد كانت لهم قصّة عجيبة. وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها. وأخبرنا عن الرّوح ماهي؟ فقال رسول الله (ﷺ): أخبركم غداً ولم يستثن (أي لم يقل إن شاء الله) فانصرفوا عنه فمكث (ﷺ)

خمسة عشر يوماً فيما يزعمون ولا يأتيه جبريل (ﷺ). حتّى أرجف أهل مكة وقالوا: إن محمداً وعدنا غداً وهذه خمس عشرة ليلةً لا يخبرنا بشيء حتّى حزن رسول الله (ﷺ). ثمّ جاء جبريل (ﷺ) بسورة الكهف فيه خبر ما سألوه عنه من أصحاب الكهف وذي القرنين الرّجل الطّواف، وبخبر عن الرّوح في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ٨٥.

وهنا ينشأ سؤالان:

الأوّل: كيف يقول الرّسول (ﷺ) أخبركم غداً ولا يستثني؟

الجواب: أجاب الإمام الرّازي (رحمه الله) بأنّ ترك الإستثناء خلاف الأولى ولا إثم فيه على أنّ الرّسول (ﷺ) تركه سهواً ونسياناً، هذا وأقول: إنّ الحقّ هو أنّ الإستثناء إنّما ورد النّهي عن تركه بعد هذه القصّة في قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وبعدما وردت الآية لم يتركه الرّسول (ﷺ) أبداً وإنّ الرّسول يتّبع مايوحى له ولا يشرّع من عنده ولم يشرع له الإستثناء قبل ورود الآية، وهذا أولى من نسبة السّهو أو النّسيان أو ارتكاب المكروه أو خلاف الأولى إلى الرّسول (ﷺ).

الثّاني: إنّ السؤال عن الرّوح كان في ضمن ما أجيب عنه في سورة الكهف، فكيف ذكر جوابه في سورة الإسراء وهي مقدمّة على سورة الكهف؟

الجواب: إنّ جوابه ورد مع الأجوبة إلّا أنّه أدرج في سورة الإسراء لأنّه كان منها في اللّوح المحفوظ وإن ورد بعدها في النّزول.

فائدة في بيان فضيلتها: ذكر ابن كثير في فضلها أحاديث شريفة نودّ أن نذكرها:

١- قال الإمام أحمد (رحمه الله) حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: قرأ رجل سورة الكهف وفي الدّار دابّة فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة غشيته، فذكر ذلك للنّبيّ (ﷺ) فقال: (إقرأ يافلان فإنّها السّكينة تنزل عند القرآن أو تنزّلت للقرآن) أخرجاه في الصّحيحين[١].

٢- قال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا هشام بن يحيى عن قتاده عن سالم بن أبي

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٣٢٣ الحديث رقم ٣٤١٨، صحيح مسلم ١/ ٥٤٨ الحديث رقم ٧٩٥.

الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدّرداء عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال: (من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف عصم من الدّجال) رواه مسلم وأبو داود والنسائي والتّرمذي[1] من حديث قتادة، ولفظ التّرمذي: (من حفظ ثلاث آيات من أوّل الكهف) وقال حسن صحيح.

وأقول: المراد من أوّل الكهف في حديث التّرمذي ليس الأوّل الحقيقي، لأنّ المراد بالآيات الثّلاث، والله تعالى أعلم، قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا*﴾ سورة الكهف الآيات/ ٩، ١٠، ١١. والمراد بحفظها العمل بها وهو الاعتزال والخروج عن المجتمع الجاهليّ حينما لا تقدر أن تعمل شيئاً وتُدعى إلى الضّلال جبراً وبالإيواء إلى الكهوف والمغارات أو الأمكنة الّتي يتمّ فيها الاعتزال، وهذه الآيات الثّلاث داخلة فى العشر المذكورة في لفظ غيره.

٣- أخرج الحاكم فى مستدركه عن أبي بكر محمد بن المؤمل حدثنا الفضيل بن محمد الشّعرانى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا أبو هاشم عن أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي سعيد عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال: (من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاءت له من النّور ما بين الجمعتين) ثمّ قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه[2] أي البخاري ومسلم. وهناك أحاديث أخرى يطول ذكرها، وفي هذا القدر كفاية لمن ألقى السّمع وهو شهيد.

ثمّ إنّ السّورة نزلت لإثبات نبوّة محمّد ورسالته (ﷺ) وذلك لأنّها أجابت عن الأسئلة الّتي سألوها الرّسول (ﷺ) وذكرت فيها قصّتين أخريين هما من إختصاص وأسرار أهل الكتاب، وهما قصّة موسى مع العبد الصّالح وقصّة رجلين أحدهما غنيّ والآخر فقير، وإهلاك مال الغنيّ نتيجة تكبّره وخيلائه وكفره، فحيث نزلت السّورة لإثبات رسالة الرّسول (ﷺ) ناسب أن يذكر في أولّها الإخبار برسالته ونزول الوحي

(١) صحيح مسلم ١/ ٥٥٥ الحديث رقم ٨٠٩، سنن أبي داود ٤/ ١١٧ الحديث رقم ٤٣٢٢، سنن النسائي ٦/ ٢٣٦ الحديث رقم ١٠٧٨٧، سنن الترمذي ٥/ ١٦١ الحديث رقم ٢٨٨٥ بلفظ مختلف.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٣٩٩ الحديث رقم ٣٣٩٢.

والكتاب عليه، فلذلك صدّر تعالى السّورة بتلك الأخبار، وافتتحه بالحمد إشارة إلى أنّه من أكبر النّعم الّتي يجب الحمد والشّكر عليه فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾

(**الْحَمْدُ**) هو الوصف بالجميل واللّام للإستغراق، فالمعنى كلّ ثناء ووصف بالجميل ثابت (**لِلَّهِ**) تعالى، فيلزم من ذلك أن يكون الله تعالى متّصفاً بجميع صفات الكمال فيؤوّل المعنى إلى أنّ الله تعالى متّصف بجميع صفات الكمال كما أنّ التّسبيح هو التّنزه عن جميع صفات النّقص، وأّ الاتّصاف بجميع صفات الكمال يعبّر عنه بالكمال المطلق، فالحاصل أنّ الكمال المطلق ثابت لله (**الَّذِي**) نشأ من كماله أنّه (**أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ**) الكامل محمّد (ﷺ) (**الْكِتَابَ**) الكامل وهو القرآن ليوجّه النّاس به إلى الكمال والصّفات الجميلة، ويبعدهم به عن الصّفات القبيحة، فالقرآن كامل ومكمّل لمن يعمل به (**وَلَمْ يَجْعَل**) الله تعالى (**لَّهُ**) للكتاب (**عِوَجَا**) أي انحرافاً عن الحقّ والعدل والصّدق لا في العقائد ولا في الأحكام ولا في المواعظ والقصص والعبر والأخلاق، فهو نظام كامل مستقيم فكلّ ماعداه ممّا يخالفه نظام ناقص منحرف عن الحقّ والفطرة والعقل السّليم، ولذلك جعل الله تعالى القرآن (**قَيِّمًا**) على جميع الكتب والأنظمة وميزاناً لها، فما وافقه فهو حقّ مقبول وما لا فباطل مردود. وكذلك هو ميزان للأشخاص: فمن انحرف عنه فهو ضالّ منبوذ ومن اتّبعه وطبّقه فهو هاد ومهتد وعلى صراط مستقيم. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّه بعدما أنزل هذا الكتاب لم يترك النّاس مختارين وأنّه لا تبعة في العمل به أو الانحراف عنه. بل إنّه أعدّ للّذين يعملون به أجراً كثيراً، ولمن انحرف عنه عذاباً شديداً فقال جلّ وعلا: (**لِّيُنذِرَ**) هذا الكتاب الّذين لا يؤمنون به أو يتركون العمل به (**بَأْسًا**) عذابا (**شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ**) أي من عنده تعالى (**وَيُبَشِّرَ**

الْمُؤْمِنِينَ) به (**الَّذِينَ**) يطبقّونه و(**يَعْمَلُونَ**) الأعمال(**الصَّالِحَاتِ**) وهي ماجعلها القرآن صالحة وعدّها حسناً فيبشّر هؤلاء (**أَنَّ لَهُمْ**) عند الله تعالى (**أَجْرًا حَسَنًا**) كثيراً (**مَاكِثِينَ**) باقين (**فِيهِ**) في ذلك الأجر والثّواب وهو الجنّة وما فيها (**أَبَدًا**) لا يَخْرجون منه ولا يُخْرجون. ثمّ أراد تعالى أن يذكر انحرافاً خاصّاً لأنّه جريمة كبيرة جدّاً تستحقّ الإنذار فقال جلّ وعلا: (**وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا**) وهم اليهود الّذين قالوا عزير ابن الله والنّصارى الّذين قالوا المسيح ابن الله، والمشركون الّذين قالوا الملائكة بنات الله، تعالى الله عن كلّ ذلك علوّاً كبيراً، ولم يذكر المنذر به ليذهب الذّهن كلّ مذهب ممكن أو هو بأس شديد بقرينة السّابق (**مَّا لَهُم بِهِ**) بثبوت الولد لله تعالى (**مِنْ عِلْمٍ**) حيث لا ولد له (**وَلَا لِآبَائِهِمْ**) الّذين سبقوا بهذا القول فقلّدوهم (**كَبُرَتْ**) عظمت (**كَلِمَةً**) قالوها في الإثم والفرية وهي كلمة (**تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**) بدون فكر ورويّةٍ ودون خجل واستحياء من الله تعالى (**إِنْ**) ما (**يَقُولُونَ**) هذا القول (**إِلَّا كَذِبًا**) وافتراءً لاحقيقة له. ثمّ إنّه قد كان الرّسول شديد الحرص على إيمان القوم فحزن حزناً شديداً على تأخّر ورود الأجوبة على أسئلتهم، فقال تعالى له: (**فَلَعَلَّكَ**) أيّها النّبيّ (**بَاخِعٌ**) قاتل (**نَّفْسَكَ**) حرصاً وحزناً (**عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**) شبّه الرّسول بمن شرد عنه بعران فاتّبع أثرها يردّها وجدّ في ردّها إلى أن قرب من الهلاك، والمراد من هذا القول تهدئة أعصابه وتقليل حزنه، فكأنّ الله قال له: فلا تحرص هذا الحرص عليهم ولا تحزن فإنّك لست مسؤولاً عن إيمانهم، وإنّما عليك البلاغ فقط، وقد أدّيت ذلك فلا تكلّف نفسك مالست مسؤولاً عنه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر من آثار قدرته ما يكون حال أصحاب الكهف بالنّسبة إلى ذلك سهلاً ولا داعي إلى التّعجب منه فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

(**إِنَّا جَعَلْنَا**) خلقنا كلّ (**مَا عَلَى الْأَرْضِ**) ما على الأرض من الحيوانات والنّباتات والمعادن والجبال والوديان والأنهار، فنحن خلقنا كلّ ذلك وجعلناها (**زِينَةً لَّهَا**) زينة للأرض وللحياة عليها وجعلناها تحت تصرّف النّاس (**لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**) أيُّ منهم أحسن عمله لأنّ عملاً تمييز محوّل عن فاعل أحسن، فالمعنى نبلو أي نختبر

النّاس بهذه ليتبيّن من حسن عمله بالتّصرف في هذه الزّينة حسب الشّريعة الّتي أنزلناها لهم، ومن ساء عمله بالتّصرف والعمل في الأرض خلاف شريعة الله تعالى، ومعنى لنعلم أي ليتعلّق به علمنا وهو موجود محقّق فى الخارج مثل ما تعلّق به وهو معدوم تعلّقاً معنويّاً فى الأزل، وترك ذكر من ساء عملاً لدلالة أحسن عملاً عليه وللاختصار، فإنّ الإيجاز من بلاغة القرآن (**وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ**) حينما أردنا أن نقيم القيامة (**مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا**) أرضا (**جُرُزًا**) أي أملس لا شيء عليها.

ثمّ بعد أن قدّم هذه المقدمة أراد الله تعالى أن يذكر قصّة أصحاب الكهف جواباً على سؤال المشركين فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

(**أَمْ**) بمعنى همزة الاستفهام، فالمعنى أَبعد أن علمت قدرتنا الباهرة الّتي خلقنا بها هذه الأرض العظيمة، وخلقنا عليها هذه الأشياء الكثيرة من الحيوانات والنّباتات والمعادن وما لا يدخل تحت العدّ والإحصاء، أبعد العلم بهذه القدرة (**حَسِبْتَ**) ظننت أيّها المخاطب (**أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا**) من الدّلائل الدّالة على قدرتنا شيئاً (**عَجَبًا**) يتعجّب منه ويستبعد وجوده، والاستفهام للإنكار، أي ليس ذلك عجب يتعجّب منه ويستبعد من قدرتنا، والكهف معروف، والرّقيم قيل: هو اسم الكتاب الّذي كتب فيه أسماؤهم، وقيل: اسم قريتهم وقيل: هو الوادي الّذي فيه كهفهم، وقيل: اسم الجبل الّذي فيه الكهف، وسيأتي تحقيق ذلك إن شاء الله تعالى (**إِذْ**) اذكر لهم أيّها النّبيّ (**إِذْ أَوَى**) لجأ (**الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ**) ودخلوه واستتروا فيه (**فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا**) هب لنا (**مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً**) تحفظنا ممّا هربنا عنه (**وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا**) الّذي وقعنا فيه (**رَشَدًا**) ما نترشد به ونصل إلى الحقّ والنّجاة (**فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ**) سلّطنا النّوم عليهم (**سِنِينَ عَدَدًا**) عدداً من السّنين كثيرة، سمّى النّوم بضرب الحجاب على الأذن لاشتراكهما فى منع السّماع للأقوال والأصوات (**ثُمَّ**) بعد أن مضى هذا العدد من السّنين (**بَعَثْنَاهُمْ**) أيقظناهم

(**لِنَعْلَمَ**) اللّام لام عاقبة، أي كانت عاقبة إيقاظهم أن نعلم علماً وقوعيّاً كما كنّا نعلم علماً أزليّاً (**أَيُّ الْحِزْبَيْنِ**) المختلفين منهم في مدّة اللّبث والنّوم (**أَحْصَى**) ضبط ضبطاً صادقاً (**لِمَا لَبِثُوا**) في الكهف (**أَمَدًا**) بيان لما في (لما لبثوا) ضبط مدّة لبثهم في الكهف، والتّنوين عوض عن المضاف إليه (أمده) ومدّته.

ثمّ إنّ الله تعالى بعد ماذكر قصّة أصحاب الكهف مجملاً بأنّهم كانوا جماعة من الشّبان هربوا من خوف طاغية، فلجأوا إلى كهف ودخلوا فيه؛ فسلّط الله تعالى عليهم النّوم عدداً من السّنين ثمّ أيقظهم أراد أن يذكر قصّتهم مفصّلة، وإنّما فعل ذلك لأنّ في التّفصيل بعد الإجمال شدّة وقع في الذّهن فإنّ الشّيء حينما ذكر مجملاً يتشوّق السّامع إلى تفصيله، فإذا فصل يقع في نفسه أحسن من أن يذكر مفصّلاً أوّلاً فقال جلّ وعلا:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

(**نَحْنُ نَقُصُّ**) نذكر ونتلو (**عَلَيْكَ نَبَأَهُم**) خبرهم (**بِالْحَقِّ**) الموافق للواقع (**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ**) خالفوا قومهم في العقيدة والإيمان، حيث كان القوم يعبدون غير الله تعالى ويشركون به وهم (**آمَنُوا بِرَبِّهِمْ**) وحده وتركوا عبادة غير الله تعالى (**وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**) ثباتاً على الحقّ والتّوحيد ونبذ الإشراك وعبادة غير الله تعالى (**وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ**) وقوينا قلوبهم وألقينا فيها الصّبر والشّجاعة فجاهدوا بعقيدتهم القوم والطّغاة (**إِذْ قَامُوا**) من بينهم (**فَقَالُوا**) مجاهرين بالحقّ (**رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) فنعبده ونتّبع شريعته (**لَن نَّدْعُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا**) آخر فنعبده ونتّبع نظامه الباطل (**لَقَدْ قُلْنَا إِذًا**) إذا قلنا بألوهيّة غير الله تعالى (**شَطَطًا**) قولاً بعيداً عن الحقّ، ثمّ احتجّوا عليهم بأنّهم على الباطل، وأنّه لا دليل لهم على أُلوهيّة هذه الآلهة الباطلة الّتي يعبدونها فقالوا: (**هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا**) حينما (**اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ**) من دون الله تعالى (**آلِهَةً**) فعبدوها (**لَّوْلَا**) لماذا لا (**يَأْتُونَ عَلَيْهِم**) على أُلوهيتهم

(**بِسُلْطَانٍ**) بدليل (**بَيِّنٍ**) واضح في الدّلالة على ألوهيّتهم، فتفيد الآية أنّ التّقليد غير مقبول في العقائد، وأنّ الدّليل الظّني لا يقبل فيها أيضاً، فحيث ليس لهم دليل فقولهم بألوهيتهم كذب (**فَمَنْ أَظْلَمُ**) أكثر ظلماً (**مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**) والاستفهام للإنكار أي لا يجد أحد أظلم منه، هذا وبعدما اشتدّ النّزاع والجدال بينهم وبين القوم لم يستطيعوا الحياة والبقاء معهم، بل وأرادت السّلطة القبض عليهم وقتلهم، فاتّفقوا على أنّ يعتزلوا ويخرجوا من بين القوم، فقال بعضهم لبعض (**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ**) تعالى وأردتم الخروج من بينهم (**فَأْوُوا**) فالتجئوا (**إِلَى الْكَهْفِ**) كهف معيّن عندهم أو أي كهف من الكهوف دون تعيين، فإن لجأتم إلى الكهف وتركتم القوم والحياة بينهم (**يَنشُرْ**) يبسط (**لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته**) من نعمته (**ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم**) الّذي وقعتم فيه (**مِّرْفَقًا**) ما ترتفقون أي تنتفعون به، فخرجوا ودخلوا في الكهف وسكنوا فيه، فأنامهم الله تعالى في الكهف وجعل حالهم مثل ما ذكر تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

(**وَتَرَى**) أيّها النّاظر إلى وضعهم أنّ (**الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ**) أي تميل (**عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ**) أي إلى يمين الكهف لكي لا تضربهم بأشعتها فتتفسخ أبدانهم (**وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ**) تتجاوز عنهم (**ذَاتَ الشِّمَالِ**) جانب شمالهم لكي لا تصلهم أشعّتها فلا تصيبهم الشّمس أبداً (**وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ**) متّسع (**مِّنْهُ**) من الكهف (**ذَٰلِكَ**) ميل الشّمس عنهم قبل الزّوال إلى اليمين وبعده إلى الشّمال ليُصان أصحاب الكهف من أشعّتها (**مِنْ آيَاتِ اللَّهِ**) معجزاته (**مَن يَهْدِ اللَّهُ**) إيّاه عند رؤية المعجزات (**فَهُوَ الْمُهْتَدِي**) الواصل إلى الحقّ (**وَمَن يُضْلِلْ**) الله إيّاه لخبث نفسه وسوء نيّته (**فَلَن تَجِدَ**) أيّها الدّاعي إلى الحقّ (**لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**) يوصله إلى الحقّ وإن رأى ملء الدّنيا معجزات وخوارق عادات، والله تعالى أعلم.

تنبيهان:

الأوّل: قوله (تزاور) قرىء بفتح التّاء وتخفيف الزّاء، أصله تتزاور حذفت إحدى التّاءين للتّخفيف، وقرىء بفتح التّاء وتشديد الزّاء بقلب التّاء زاياً وإدغامه في الزّاي الأصليّة كما هو القياس وقرىء (تزور) مثل تحمرّ بتشديد الرّاء وفتح الواو وسكون الزّاء وفتح التّاء وعلى كلّ التّقادير معناه تميل وتنعطف.

الثّاني: قال المفسّرون في انعطاف الشّمس نحو اليمين والشّمال قولين هما:

القول الأوّل: إنّ باب الكهف كان بحيث يدخله الشّمس قبل الزّوال وبعد الزّوال، إلّا أنّ الله تعالى جعلها تميل عنهم وقت الطّلوع والغروب حفظاً لهم من أشعتها، ولا يكون كذلك إلّا إذا كان للكهف بابان أحدهما شرقي والآخر غربي كما لا يخفى.

القول الثّاني: إنّ باب الكهف كان شماليّاً مستقبلاً للقطب الشّمالي؛ ولذلك لا تدخله الشّمس لا وقت الطّلوع ولا وقت الغروب، وهذا لا يناسب قوله تعالى: (ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) لأنّ هذا الوضع طبيعيّ فلا يكون خرقاً للعادة ولذا جعلوا (ذَلِكَ) إشارةً إلى نومهم وبقائهم ويقضتهم لا إلى ميل الشّمس عن الكهف وهذا خلاف الظّاهر. على أنّ باب الكهف وإن كان شماليّاً لا يكون بحيث لا يدخله الشّمس أبداً إلّا في البقاع الّتي يكون ظلّ الشّمس شماليّاً أبداً كالبقاع الّتي يكون بعدها عن خطّ الاستواء أربعاً وعشرين درجة فأكثر، وأمّا إذا كان ظلّ الشّمس جنوبيّاً فقط فتدخل أشعتها فيه، وكذا لو كان في بعض الأيّام جنوبيّاً وفي بعضها شماليّاً فتدخل في الأيّام الجنوبي، فلذا لا نستطيع أن نجزم بحقيقة معنى الآية حتّى نعلم كيفيّة الكهف وموضعه الجغرافي تماماً.

* * *

(**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا**) جمع يقظ أي نبه، أي حينما تراهم تحسبهم وتظنّهم أيقاظاً لانفتاح عيونهم (**وَهُمْ رُقُودٌ**) جمع راقد أي وهم نائمون في الواقع (**وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ**) نقلّبهم على جنبهم الأيمن مدةً وعلى جنبهم الشّمال مدةً أخرى، وهكذا لئلّا تأكل الأرض أبدانهم (**وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**) بعتبة الكهف كأنّه يحرسهم (**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ**) أيّها المخاطب من كنت (**لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا**) حيث (**وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ**) من وضعهم (**رُعْبًا**) أي خوفاً، والخطابات من قوله: (وترى الشّمس ...... الخ) موجّه إلى من يراهم أيّ شخص كان لا الرّسول، فلا يلزم أنّه يخاف منهم الرّسول(ﷺ) لو

رآهم لأنّ الرّسول(ﷺ) رأى ليلة الإسراء أمورا أعجب من هذا وما زاغ البصر وما طغى.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

(**وَكَذَلِكَ**) وكما أنمناهم هذه المدّة (**بَعَثْنَاهُمْ**) أيقظناهم (**لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ**) اللّام للعاقبة، فالمعنى: فكان عاقبة إيقاظهم أن يتساءلوا أي يسأل بعضهم بعضاً عن مدّة لبثهم وبقائهم في الكهف، فكانت النّتيجة أنّه: (**قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ**) فبعضهم (**قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا**) واحداً (**أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**) او جزءاً من يوم، وبعضهم (**قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ**) أشاروا بذلك إلى طول مكثهم، وعلموا ذلك لطول أظفارهم وأشعارهم (**فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ**) بفضتكم (**هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ**) فإنّا جائعون (**فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا**) أي أيُّ أهلها (**أَزْكَى**) أحلّ وأطيب وأرخص (**طَعَامًا**) تمييز محول عن الفاعل أي أزكى طعامه (**فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ**) وليتستّر وليكتم أمره (**وَلَا يُشْعِرَنَّ**) ولا يعلمّن (**بِكُمْ أَحَدًا**) من أهل البلدة حيث (**إِنَّهُمْ**) أنّ أهل البلدة والمتنفّذون فيها (**إِن يَظْهَرُوا**) يطّلعوا (**عَلَيْكُمْ**) ويعلموا بكم (**يَرْجُمُوكُمْ**) يقتلوكم (**أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ**) في دينهم (**وَلَن تُفْلِحُوا**) ولن تفوزوا بخير من الله تعالى (**إِذًا**) إذا عدتم إلى دينهم (**أَبَدًا**) بتاتاً لأنّ المرتد تحبط أعماله ومأواه النّار قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ سورة البقرة الآية/٢١٧.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًاۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

(**وَكَذَلِكَ**) وكما بعثناهم فقد (**أَعْثَرْنَا**) أطلعنا القوم (**عَلَيْهِمْ**) وأعلمناهم بهم، وفعلنا

ذلك (**لِيَعْلَمُوا**) ليعلم القوم (**أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ**) بإحياء الموتى وحسابهم (**حَقٌّ**) ثابت وممكن، فإنّ الّذى يقدر أن ينوّم قوماً أكثر من ثلاثمائة سنين ثمّ يوقظهم أحياءً لقادر على أن يحيي الموتى أيضاً (**وَأَنَّ السَّاعَةَ**) وقت إحياء الموتى (**لَا رَيْبَ فِيهَا**) في مجيئها وأريناهم هذه المعجزة الدّالة على القيامة (**إِذْ**) لأنّ القوم كانوا (**يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ**) فيقول البعض بيوم القيامة ويؤمن به وبعضهم ينكره. ثمّ بعد ذلك وحينما علم النّاس بحالهم وأيّد الله تعالى قول القائلين بالبعث والإحياء بعد الموت رجع الأصحاب إلى نومهم وماتوا (**فَقَالُوا**) فقال القوم (**ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا**) ابنوا عليهم بنياناً أي بيتاً (**رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ**) بمدّة لبثهم أو بأنسابهم أو دينهم (**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ**) غلبوا على أمر القوم وهم المسلمون الّذين كانوا يقولون بالبعث فغلبوا على أمر المنكرين له (**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**) يصلّي فيه النّاس ويتذكّرون به هذه الحادثه؛ فيتّعظون بهم وليكون ثواب المسجد لهم.

تنبيه: يستدلّ بعض النّاس بهذه الآية على أنّ بناء المساجد والبيوت والقبب على القبور جائز، وهذا الاستدلال باطل لأنّهم لم يبنوا المسجد على مكان رقودهم، بل بنوا **على** باب الكهف فيكون المسجد بجوارهم لا عليهم، وأنّ بناء المسجد بجوار القبر جائز وأمّا على القبر فلا، حيث قال (ﷺ): (لعن الله اليهود اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[١] وإذا كان المسجد بجوار القبور وكان القبر في جهة القبلة يجب أن يجعل حائط بينه وبين المسجد حيث قال(ﷺ): (لا تصلّوا إلى القبور)[٢] وإن فرض أنّهم بنوا المسجد على الكهف لظاهر قوله: (لنتّخذنّ عليهم مسجداً)، فلا بأس أيضاً لأنّه لا بأس ببناء مسجد على كهف تحته قبر، وإنّما حكمة النّهي أن لا يرى المرء في صلاته القبر مخافة أن يتبرّك به أو بصاحبه فيصبح من أهل الوثنيّة وعبدة الأوثان، والحقّ يقال أنّ من النّاس من أصبح اليوم أهل وثنيّة تامّة بالنّسبة لتعظيمهم للقبور، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله! ولذلك أفتى كثير من العلماء منهم الشيخ ابن حجر الهيثمي في زواجره بوجوب هدم القبب والبيوت المبنيّة على قبور الصّالحين (رضى الله تعالى عنهم) وعنّا أجمعين، والأحاديث في النّهي عن البناء على القبور كثيرة نذكر بعضا منها:

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٦٥ رواه معلقا.

(٢) صحيح مسلم ٢/٦٦٨ الحديث رقم ٩٧٢.

١- روى أبو داود والتّرمذي عن ابن عباس (ﭫ) قال: لعن رسول الله (ﷺ) زوّارات القبور والمتّخذين عليها المساجد والبرج[١].

٢- روى الصّحيحان عن عائشة أنّ (أمّ حبيبة وأمّ سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيه تصاوير، فذكرتا للنّبيّ (ﷺ) فقال: إنّ أولئك إذا كان فيهم الرّجل الصّالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تيك الصّور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)[٢].

٣- روى مسلم عن جابر قال: (نهى رسول الله (ﷺ) أن يجصّص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه)[٣].

٤- روي فى الصحيح عن أبي الهياج الأسدى قال: قال لي عليّ بن أبي طالب: ألا بعثتك على ما بعثني رسول الله (ﷺ) أن لا أدع تمثالاً إلّا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلّا سوّيته[٤].

هذا وبناء على هذه الأحاديث أفتى العلماء بتحريم البناء على القبور من المساجد أو القبب أو غيرها، وبأنّ هذا من فعل اليهود والنّصارى، وأنّ ارتفاع القبر بقدر سنام البعير جائز وما زاد عليه فهو حرام، وأنّ خير القبور الدّوارس هذا هو الحقّ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

* * *

ثمّ أخبر الله تعالى رسوله (ﷺ) بأنّ أهل الكتاب مختلفون في عدد أصحاب الكهف فقال جلّ وعلا:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

(سَيَقُولُونَ) أنّ أهل الكتاب بعد أن أخبرتهم بقصّة أصحاب الكهف يختلفون،

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ٤/٧٨ الحديث رقم ٦٩٩٨.

(٢) صحيح البخاري ١/١٦٧ الحديث رقم ٤٢٤.

(٣) صحيح مسلم ٢/٦٦٧ الحديث رقم ٩٧٠.

(٤) صحيح مسلم ٢/٦٦٦ الحديث رقم ٩٦٩.

فبعضهم يقولون: إنّهم أي أصحاب الكهف (**ثَلَاثَةٌ**) رجال (**رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ**) (**وَ**) بعضهم (**يَقُولُونَ**) إنّهم (**خَمْسَةٌ**) رجال (**سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ**) وهم يرجمون أي يرمون كلامهم هذا (**رَجْمًا**) رمياً للكلام (**بِالْغَيْبِ**) أي بما هو غائب عنهم دون علم لهم بذلك (**وَ**) بعضهم (**يَقُولُونَ**) هم (**سَبْعَةٌ**) رجال (**وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**) ولكنّك لا تتكلّم في عددهم بل (**قُل رَّبِّي أَعْلَمُ**) من كلّ النّاس (**بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ**) أي مايعلم عدّتهم (**إِلَّا قَلِيلٌ**) من النّاس (**فَلَا تُمَارِ**) فلا تجادل معهم (**فِيهِمْ**) في عدّة أصحاب الكهف (**إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا**) وهو أن تفوّض علمهم إلى الله تعالى وتقول: ربّهم أعلم بهم، وذلك لأنّه لا يتعلّق بالعدد غرض ديني ولا ما يوجب العبرة وإنّما العبرة في حالهم سواءً كانوا قليلين أو كثيرين (**وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ**) من أهل الكتاب (**أَحَدًا**) لأنّهم لا علم لهم بذلك. هذا ما يستفاد من الآية وإنّ الله لم يبيّن عدد الأصحاب في هذه الآية وإنّ الرّسول (ﷺ) علم عددهم بوحي آخر من السّنة لا بهذه الآية.

تنبيهان: الأوّل: أنّ الآية تفيد أنّهم ليسوا بأقلّ من سبعة رجال لأنّ الّذي قال: كم لبثتم؟ كان واحداً، والّذين قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، كانوا جمعاً والجمع لا يكون أقلّ من ثلاثة فصاروا أربعة، والّذين قالوا: ربّكم أعلم بما لبثتم، أيضاً جمع فلا يقلّ عن ثلاثة فصاروا سبعة، إلّا أنّها لا تفيد أنّهم ليسوا بأكثر من سبعة لأنّه يجوز أنّ الّذين (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) أربعة أو أكثر أو أنّ الّذين (قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم) هم أربعة أو أكثر، فالّذي يستدلّ بالآية على أنّهم سبعة لا يتمّ استدلاله.

الثّاني: استدلّ البعض بالآية على أنّهم سبعة وثامنهم كلبهم فقال: إنّ هذه الجملة مؤكّدة بالواو في (وثامنهم) فيؤكد اتّصاف السّبعة بأنّ ثامنهم كلبهم فتفيد أنّ هذا القول مؤكّد وهو الحقّ.

أقول: إنّ هذا التّأكيد ليس من الله تعالى بل إنّ هذا البعض كانوا يقولون هذا القول ويؤكّدونه، ولكنّ الأوّلين كانوا لا يؤكّدون كلامهم، بل إنّما كانوا يقولون ظنّاً وتخميناً، فلا يتمّ الاستدلال، وقد استدلّ البعض أيضاً بأنّ الله تعالى وصف قول الأوّلين بأنّه رجم بالغيب، ولم يصف قول الآخرين بذلك فيدلّ على أنّ قولهم هو الحقّ، وهذا الاستدلال حسن إلّا أنّه لا يفيد اليقين، لأنّه ربّما وصف الله تعالى كلامهم بالرّجم بالغيب لأنّهم لم يقولوا إلّا تخميناً، ولكنّ الآخرين أكّدوا كلامهم بدلائل وإن لم تكن قطعيّة، فكان قولهم أقوى من الأوّلين، واستدلّوا بدلائل أخرى من الآية على حقيقة القول الثّالث، إلّا أنّ كلّها لا تفيد إلّا الظّن لا اليقين، إلّا أنّهم يروون أحاديث عن ابن

عبّاس وعليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) تنصّ على أنّهم سبعة وثامنهم كلبهم، فإن صحّت تلك الأحاديث فيؤخذ بها.

* * *

وبعد أن نهى الله تعالى عن الجدال والخوض في الغيب الماضي نهى عن الخوض في الجدال المستقبل أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

في هذه الآية إيجاز فالتّقدير **(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا)** في المستقبل القريب أو البعيد **(إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ)** تعالى فعلك له ويريده، لأنّ فعلك لكلّ شيء معلّق بإرادته في الواقع، وربّما يكون مراده تعالى لا يوافق مرادك فتقع فى الكذب، فلذلك علّق قولك بمشيئته أيضاً، وقل إن شاء الله تعالى، فحينئذ لا تقع في الكذب وتنجو من الإخلاف، هذا وقد فسّر البعض بأنّ معناه: **(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ)** الشّيء **(غَدًا إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ)** ذلك أي أن تكون مأذوناً فيه، وقيل للرّسول (ﷺ) لأنّه قال لهم أجيبكم غداً ولم يكن مأذوناً عند الله تعالى أن يعدهم هذا الوعد، بل كان عليه أن ينتظر الوحي.

وأقول: يحتمل أن يكون معناه: ولا تقولنّ لشيء إنّي فاعل ذلك غداً إلّا أن يشاء الله ذلك الفعل ويرضى به بأن يكون مباحاً أو واجباً، فالمعنى لا تنوِ الشّر ولا تعد به أبداً فالشّر منهي عنه فعله ونيّته وإن لم يحاسب المرء على النّية، فتكون الآية عامّة لكلّ مسلم غير خاصّ بالرّسول (ﷺ) بل لا يراد الرّسول (ﷺ) بها لأنّه معصوم، وحيث إنّ الآية تحتمل هذه المعاني الثّلاثة،أقول مرّة أخرى: ربّما أريد بالآية كلّ المعاني الثّلاثة فإنّ كلّها مطلوب ومرغوب فيها شرعاً والله تعالى أعلم.

إلّا أنّ قوله **(وَاذْكُر رَّبَّكَ)** بالتّسبيح والاستغفار **(إِذَا نَسِيتَ)** فقلت نسيّاً أفعل ذلك وهو غير مباح[1] **(وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ)** لعمل أقرب **(مِنْ هَذَا رَشَدًا)** من

---

(١) لهذه الآية تفسيران : الأول وهو قول الجمهور هو : أنك إذا قلت سأفعل ذلك غدا كذا ونسيت أن تقول إن شاء الله ثم تذكرت فقل إنشاء الله. الثاني: أنك إذا وقع منك النسيان لشيء فاذكر الله تعالى.وكلام الشيخ

حيث الرّشد والهداية حسب الشّرع الشّريف يؤيد المعنى الأخير لأنّه لو فسّرنا (**إذَا نَسِيتَ**) كبعض المفسّرين، وقلنا: اذكر ربّك إذا نسيت الاستثناء فاستثن واستغفر ربّك تقل ملاءمته لقوله: (**وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا**) حيث ماذا يكون المراد بقوله: (**أَقْرَبَ مِنْ هَذَا**) حينئذ إلّا أن نقول المراد (**أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا**) من عدم الاستثناء وهو الاستثناء حيث الاستثناء أقرب (**رَشَدًا**) من تركه وهذا أقلّ لطافة ممّا سبق والله تعالى أعلم.

ثمّ إنّ أهل الكتاب اختلفوا في مدّة لبث الأصحاب في الكهف كما اختلفوا في عددهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

(**وَ**) وقال بعضهم (**لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ**) فقط (**وَازْدَادُوا**) وازداد بعضهم (**تِسْعًا**) من السّنين فقالوا: لبثوا ثلاثمائة وتسع سنين (**قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا**) فيفوّض علمه إليه تعالى ولا تعلمونه أنتم (**لَهُ**) لله وحده (**غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) ما غاب عليكم فيها إذ لا يغيب عليه شيء (**أَبْصِرْ بِهِ**) أبصر بالله (**وَأَسْمِعْ**) بالله، والمعنى أعجب بكثرة سمعه تعالى وبصره فإنّه يرى النّملة ويسمع دبيبها تحت ظلمات البحار (**مَا لَهُم**) ليس لأصحاب الكهف (**مِّن دُونِهِ**) من دون الله (**مِن وَلِيٍّ**) يتصرّف في شؤونهم (**وَلَا يُشْرِكُ**) الله (**فِي حُكْمِهِ**) تكويناً ولا تشريعاً (**أَحَدًا**) غيره فهو المتفرّد بالتّكوين والتّشريع، وقال بعض المفسرين قوله: (ولبثوا) قول الله تعالى، فأخبر الله تعالى: أنّ لبثهم كان ثلاثمائة وتسع سنين، فيصير التّقدير، ولبثوا أي أصحاب الكهف في كهفهم ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تسعاً على ثلاثمائة، وعبّر هكذا للفاصلة، فإنّه لو قال ثلاثمائة وتسع سنين لما توافقت ما قبلها من الفواصل، ولكنّ هذا المعنى لا يلائم قوله: (**قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا**) لأنّ هذا يدلّ على أنّهم قالوا في لبثهم قولاً فردّ الله عليهم، وعلى هذا المعنى لم

الوالد يشبه الثاني لعله يقصد: إذا نسيت فعل غير المباح ثم قلت فعلت ذلك نسيانا فاذكر الله تعالى وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ...

يمض لهم قول حتّى يردّ الله عليهم. وإن قيل أنّ الضّمير في وازدادوا راجع إلى أهل الكتاب فالمعنى أنّهم زادوا على ما أخبر الله به وهو ثلاثمائة سنين تسعاً من السّنين ولذلك ردّ الله تعالى عليهم فقال: (**قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا**) يكون المعنى صحيحاً ومستقيماً إلّا أنّ ورود قراءة (**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا**) بزيادة وقالوا يؤيد المعنى الأوّل، وأمّا القول بأنّ المراد (**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ**) أي شمسيّة (**وَازْدَادُوا تِسْعًا**) بالحساب القمريّة فلا يصلح على أيّ وجه من الوجوه الّتي مضت في معنى الآية، لأنّه لا يوافق الحساب لأن(٣٠٠) شمسيّة لا تساوي (٣٠٩) قمريّة فدقّق الحساب لتعرف صدقي في الخطاب والله تعالى أعلم بالصّواب.

قصّة أصحاب الكهف:

إنّ خلاصة قصّتهم: أنّه كان مجموعة من الشّبان المؤمنين واجهوا بإيمانهم القويّ ودينهم الرّاسخ حاكماً وثنيّاً وطاغياً لا يعرف لله وجوداً ولا للقيم قيمةً ولا للإنسانيّة ميزاناً، وكان يكره شعبه على الوثنيّة والسّجود للأصنام والاعتقاد بما يعتقده وينتفع هو به فأضّل قومه وتبعه الانتهازيون وعبّاد المصالح والمنافع الدّنيويّة. إلّا أنّ هؤلاء الشّبان ثبتوا على إيمانهم بالله الواحد الأحد، وعلموا أن لا مجال لهم إلّا أن ينحرفوا عن دينهم أو يسلّموا أنفسهم للقتل أو الهروب والإيواء إلى الكهف إلى أن يحكم الله تعالى، وهو خير الحاكمين، فخرجوا من البلد سرّاً والتجأوا إلى كهف من الكهوف وطلبوا من الله تعالى وقايتهم من ظلم هذا الظّالم وطغيان هذا الطّاغية (**فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**)، فسلّط الله تعالى النّوم على آذانهم فناموا وبقوا في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، فبعد مرور مدّة نومهم وقد تبدّل هذا الحكم وزال هذا الطّغيان فأيقظهم الله تعالى من نومهم العميق وسباتهم الطّويل، فأصبح يسأل بعضهم بعضاً عن مدّة بقائهم ونومهم في هذا الكهف، ثمّ فوّضوا أمر ذلك إلى الله تعالى وكانوا جياعاً، فأرسلوا أحدهم إلى البلدة ليأتي لهم بطعام زكيّ وأكل لذيذ ووصّوه بأن يأخذ بالحذر والتّجنب عن أن يعلم به النّاس، ويعرفوه مخافة أن يظهر أمرهم فيبحث عنهم جلاوزة الطّاغية فيقبضوا عليهم فيكون مصيرهم القتل والاستشهاد أو العودة إلى الكفر والإلحاد. فلمّا دخل الرّجال البلد أخذته الدّهشة والحيرة، حيث ليست البلدة هي الّتي كانت ولا النّاس أولئك النّاس الّذين كانوا من قبل، فمال إلى حانوت واشترى طعاماً فأخرج النّقود الّتي كانت معه وسلّمها إلى صاحب الطّعام، فلمّا

رأى صاحب الطّعام نقوده وهي غير نقود الوقت بل هي نقود زمان مضى عليه دهور فاتّهمه بأنّه وجد كنزاً، فأخرجه فذهب به إلى السّلطة فلمّا استنطقوه حكى لهم ما كان وما جرى عليهم، وكان الحاكم في ذلك الوقت مؤمناً فانكشف أمرهم واتّضح سرّهم ففرح الحاكم بهذا الأمر فرحاً كثيراً لأنّه كان بينه وبين بعض من قومه جدال عنيف، حيث كان ذلك البعض يعتقدون أنّ البعث لا يكون وأنّ القيامة لا تأتي؛ فعلم أنّه باكتشاف هذه الحقيقة يثبت إمكان الحياة بعد الموت وأنّ السّاعة لتأتي بلا ريب، فأسرع الملك إلى زيارة الكهف وهرع النّاس بعده، فاجتمعوا حول الكهف ورأوهم واطّلعوا على حقيقتهم وحالهم، ولمّا رأى الأصحاب هذه الحالة وأدركوا الحال تمنّوا من الله تعالى أن يتوفّاهم ويرزقهم لقاءه، والخروج من هذه الدّار إلى دار النّعيم، فاستجاب الله تعالى دعاءهم فتوفّاهم فغلب المؤمنون بهذه الحادثة على منكري البعث ومجيء السّاعة لظهور حجّتهم وقيام دليلهم عليهم، فبنوا على باب الكهف مسجداً ليكون محلّاً لزيارة النّاس لهم للعبرة والاتّعاظ بحالهم وبما جرى عليهم. فهذه خلاصة قصّة أصحاب الكهف.

* * *

العبر والعظات: **العبر** والعظات الّتي تؤخذ من هذه القصّة كما يلي:

١- الأمر وإرشاد المؤمنين إلى الصّمود على الحقّ والوقوف ضدّ الباطل مهما كلّفهم الأمر وأدّى إلى هجر الحياة واللّذائذ كلّها واللّجوء إلى كهف أو مغارة حتّى الموت، كما فعل ذلك هؤلاء الشّبان.

٢- عدم الانخداع بالدّنيا وزينتها وعدم الوقوع تحت إغراء الحكام وسلطانهم.

٣- مواجهة أرباب الحكم بنقد ما هم عليه من الباطل، فضلاً عن عدم مسايرتهم في جورهم وعدم السّكوت عمّا أفرطوا فيه من الطّغيان والاتّباع للهوى، كما فعل ذلك هؤلاء الفتية.

٤- التّضرع إلى الله تعالى في كلّ عمل والطّلب منه تعالى قائلاً: ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيّء لنا من أمرنا رشداً.

٥- إنّ من أعرض عن الباطل وتوجّه إلى الحقّ وتوكّل على الله تعالى فإنّه ينجيه من الشّر ويهيئ له ماهو الأصلح له في الدّنيا والآخرة، كما فعل ذلك بأصحاب الكهف.

٦- التّوكّل ليس معناه ترك الأسباب وما تقضيه الحياة وعدم الإتّقاء بما جعله الله تعالى سبباً للوقاية حسب العادة؛ فإنّ أصحاب الكهف التجأوا إلى الكهف للوقاية به والتّستر فيه، وأخذوا معهم نقوداً لصرفها عند الحاجة إلى الطّعام والشّراب حيث قالوا: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا).

٧- إن التّقليد واتّباع الاشخاص في الأمور بغير دليل وبرهان يورث الضّلال والانحراف عن الحقّ كما قال الفتية: (هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) هذا.

* * *

فائدة في بيان موقع هذا الكهف:

اختلفت الرّوايات حول تعيين مكان الكهف وأصحابه فمنهم من قال: أنّه في أفسوس الّذي يقع في بلاد الرّوم، وروى الإمام الرّازي قصّة غريبة في تفسيره ففنّد القول بأنّ الكهف في أفسوس، فقال الإمام: إنّ القفّال حكى عن محمد بن موسى الخوارزمي المنجّم أنّ الواثق أوفده ليعرف حال أصحاب الكهف إلى الرّوم وقال: إنّ ملك الرّوم بعث معي أقواماً إلى الموضع الّذي يقال أنّ أصحاب الكهف فيه في بلد أفسوس، وأنّ الرّجل الموكّل بذلك الموضع أفزعني من الدّخول عليهم إلّا أنّي دخلت عليهم فرأيت الشّعور على صدورهم وعرفت أنّ هذا تمويه واحتيال، وأنّ النّاس قد عالجوا تلك الجثث بالأدوية المجفّفة لابدّ أنّ الموتى الّتي تصونها من البلى ثمّ قال القفّال: لا عبرة بأقوال أهل الرّوم أنّ ذلك الموضع موضع أصحاب الكهف.

وقال بعض الرّواة: إنّ الكهف في بلاد تونس قرب المدينة الخضراء، وهناك رواية أخرى عن عدد من الصّحابة والقوّاد والمفسّرين والمؤرّخين: أنّ أصحاب الكهف الّذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم موجودون في الغار الّذي يبعد نحو سبعة أميال عن عمّان، وعلى مقربة من الغار قرية صغيرة اسمها (الرّقيم) ويطلق عليها البدو اسم (الرّجيب) وهي محرّفة من اسمها القديم (الرّقيم)، وقد أيّد هذا الرأي كلّ من الشّيخ أبو الأعلى المودودي العالم الباكستاني الكبير والشّيخ مولانا كوثر نيازي وزير الأوقاف في باكستان، وقال مولانا كوثر: إنّ مولانا أبو الكلام آزاد من زعماء المسلمين ووزير

المعارف في الهند وقف إلى جانب هذا الرّأي، وقال مفتي باكستان: إنّه لا يوجد كهف في بقعة من بقاع الأرض تنطبق عليه الأوصاف الّتي وردت في القرآن الكريم غير الكهف الّذي قرب عمّان، هذا وقد حقّق هذا الموضوع الأستاذ محمّد تيسير ظبيان رئيس رابطة العلوم الاسلاميّة في الأردن في كتابه المعنون (أعظم اكتشاف تأريخيّ وأثري فى القرن العشرين، أهل الكهف وظهور المعجزة القرآنيّة الكبرى) وأثبت فيه أنّ أصحاب الكهف هم الّذين في الكهف القريب من قرية الرّقيم قرب عمّان، واستشهد بأقوال العلماء السّابقين المودودي وغيره من علماء الهند وباكستان ووصل إلى الاقتناع بسبب حفريّات قامت بها دائرة الآثار الأردنيّة واكتشفت هذا الكهف قبيل ١٠ /٦/ ١٩٦٣ بإشراف المرحوم الأستاذ رفيق الدّجاني مساعد مدير الآثار في الأردن. ثمّ ذكر الأستاذ محمّد تيسير ظبيان الأدلّة على أنّ هذا الكهف هو الّذي ذكر في القرآن الكريم، وتلك الأدلّة نتقلها من كتابه المشار إليه، فيقول محمّد تيسير رحمه الله تعالى:

يمكن تقسيم الأدلّة والقرائن الّتي تؤكّد أنّ الكهف المذكور في القرآن هو الّذي تمّ اكتشافه في جبل الرّقيم قرب عمّان إلى ثلاثة أقسام دينيّة وتأريخيّة وأثريّة:

الأدلة الدينيّة: فلعلّ أهم الأدلّة الدّينيّة وأجدرها بالاعتبار انطباق قوله تعالى على هذا الموقع إذ يقول: (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ) ويقول البيضاوي في معنى الآية: إنّ الشّمس تميل عن الكهف ولا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم، وذلك لأنّ الكهف كان جنوبياً إذا طلعت تميل عنهم يمين الكهف وإذا غربت تميل عنهم شماله (وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ) في متّسع من الكهف لا تصلهم شعاع الشّمس وتصلهم روح الهواء، وذلك لأنّ باب الكهف في مقابلة بنات النّعش، وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السّرطان ومغربه، والشّمس إذا كانت في مدار السّرطان تطّلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن وهو الّذي يلي المغرب، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر، فيقع شعاعها على جانبيه ويحلّل عفونته ويعدّل هواءه، ولا يقع عليهم فيؤذيهم ويبلي ثيابهم وأجسامهم، وهذا الشّرح ينطبق كلّ الانطباق على هذا الكهف. ويقول القرطبيّ: إنّ الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر، فيكون معنى قوله تعالى: (ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) أي أنّ إيواءهم إلى هذا الكهف لا إلى كهف آخر من آيات الله تعالى ونعمته عليهم، ولا يخالف البيضاوى ما في البداية والنّهاية ولا ما في الطّبري. ومن الأدلّة الدّينية العثور

على المسجد الّذي ورد ذكره في القرآن فى قوله تعالى: (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) وقد عثر على هذا المسجد الّذي أقيم فوق الكهف بعد إزالة الأنقاض، وكذلك عثر على الفجوة الّتى ذكرها القرآن، حيث وجدوا داخل الكهف فجوة تمتدّ إلى أعلاه بواسطة كوّة (أي نفق).

الأدلّة التّأريخيّة:

ورد عن الصّحابة ومن جاء بعدهم من الأمراء والقادة المسلمين وعلمائهم أنّهم زاروا هذا الموقع، وذكروا أنّه هو الكهف الّذي ورد في القرآن، فمن ذلك أنّه لما اجتمعت الرّوم في يوم اليرموك واستغاث أبو عبيدة بالخليفة أنجده سيّدنا عمر بسعيد بن عامر، وجعله قائداً لجيش عظيم، فذهب يمشي إلى أن وصل إلى هذا الوادي، وكان وقت وصولهم ليلاً وقد ضلّوا الطّريق، فلمّا أصبح صلّى بهم سعيد صلاة الصّبح، وبعدما طلعت الشّمس خرج المسلمون من الوادي، قال سعيد: حقّقت في الأرض وفي الوادى والجبل فإذا به جبل الرّقيم، فلمّا رأيته عرفته حيث كنت عارفاً بهذا الطّريق من قبل فرفعت صوتى بالتّكبير وقلت: الله أكبر، الله أكبر، وكبّر المسلمون لتكبيرى وقالوا: ما الّذي رأيت يا ابن عامر؟ فقلت: لقد وصلنا بلاد الشّام وهذا جبل الرّقيم، فقالوا: ياسعيد وما الرّقيم؟ فحدّثتهم بحديث الرّقيم وأصحابه، قال سعيد: فعجبوا من ذلك ثمّ أقبلت بهم الى الغار فصلّوا هناك، ثمّ سرنا حتّى أشرفنا على بلاد عمّان إنتهى.

الأدلّة الأثريّة:

فمن الدّلائل الأثريّة على أنّ هذا الكهف هو الّذي ورد ذكره فى القرآن الكريم هو أنّ دائرة الآثار الأردنيّة كتبت رسميّاً الى سفارة الحكومة التّركيّة في عمّان بتأريخ ٢٣/ ٧/ ١٩٦٢، وطلبت منها تزوويدها بكافّة المعلومات عن كهف أفسوس مع صور الكهف، وعمّا إذا كان جرت حفريات في الموقع، وبالإضافة إلى ذلك كلّفت الآثار الأردنيّة (المستر شارلس هورتون) أحد الخبراء الفنّيين في هيئة الأمم المتّحدة ومن هواة الآثار أن يتوجّه إلى أفسوس ويزوّدها بالصّور والمعلومات عن الكهف المزعوم في ذلك المكان، فمن الصّور والبيانات الّتى تلّقتها دائرة الآثار من السّفارة التّركيّة ومن خبير هيئة الأمم تبيّن مايلى:

١- أنّ المسجد الوارد ذكره في القرآن الكريم لا أثر له في كهف أفسوس، إذ لا

يوجد فوقه أي بناء يدلّ على وجود هذا المسجد، ولا يوجد بجواره مسجد ولا على مقربة منه أيّ مسجد آخر.

٢- على أثر الحفريّات فى كهف أفسوس ظهرت فيه مئات المدافن أي القبور مبنيّة من الطّوب، أمّا في الكهف الّذي قرب عمان لم تظهر إلّا ثمانية مدافن محفورة في الصّخر وهى بيزنطية، يدلّ على ذلك زخرفتها ونقوشها ونقودها الّتى عثر عليها.

٣- لايوجد في كهف أفسوس أي نقوش أو كتابات تدلّ على أنّه هو المقصود، في حين أنّ جدران كهف الرّقيم قرب عمان مليئة بالكتابات والنّقوش والخطوط الكوفيّة واليونانيّة والثّموديّة.

٤- تبيّن أنّ كهف أفسوس يقع في الشّمال الشّرقى، فآية ميل الشّمس عنها إلى اليمين حين الطّلوع وإلى الشّمال وقت الغروب لاينطبق عليه، وينطبق تماماً على كهف الرّقيم.

٥- لا توجد فجوة في كهف أفسوس، فى حين أنّه عثر في كهف الرّقيم على الفجوة الواردة في القرآن الكريم. **وأقول**: إنّ من أدقّ مايؤيّد قول محمد تيسير بأنّ الكهف هو كهف الرّقيم: أنّ السّؤال صدر من اليهود، وأنّهم لايسألون عن شيء إلّا إذا كان له صلة بهم أو ببلاد فلسطين.

* * *

سؤال: متى حدثت حادثة هؤلاء الفتية وفي عهد أيّ ملك كانت الحادثة؟

الجواب: أنّ الأستاذ محمد تيسير قد حقّق هذا أيضاً. فأنقل ما ذكره في كتابه المشار إليه، حيث قال الأستاذ تيسير رحمه الله تعالى أو تقول المصادر الإسلامية نقلاً عن المصادر المسيحيّة: أنّ اضطهاد أصحاب الكهف كان في زمان دقيانوس أو دقيوس الّذى حكم سنه ٢٤٩-٢٥١ ميلاديّة وقد استيقظوا فى عهد ملك مؤمن صالح اسمه (ثيودوسيوس)، وجاء في كتاب تأريخ مختصر الدّول لأبى فرج الملطي: أنّ (ثيودو) حكم ٢٤ سنة، وفى عهده انبعث أصحاب الكهف من رقدتهم فخرج (ثيودو) الملك مع الأساقفة والقدّيسين والبطاركه، فنظروا إليهم وكلّموهم، فلمّا انصرفوا من عندهم ماتوا ورجعوا إلى رقدتهم وفى مضاجعهم، وتضاربت المصادر المسيحيّة في زمن نومهم في الكهف فقال بعضهم: ٢٠٠ سنة، وبعضهم قالوا: ١٥٧ سنة، فاختلفت رواياتهم عن

الرّوايه الإسلاميّة في تحديد المدّة، هذا ماذكره الاستاذ محمّد ظبيان وأقول: إنّ هذا القول باطل بأدلّة ثلاثه:

الدّليل الأول: أنّ السّؤال صدر عن اليهود، واليهود لا يسألون عن حادثة إلّا إذا كانت لها صلة بهم، فلا يمكن أن يسألوا عن فتية من النّصارى، هربوا بدينهم إلى الكهف خوفاً من حاكم وثنيّ، ثمّ استيقظوا في زمن ملك صالح مسيحي، فإنّ اليهود لا يعترفون بالنّصارى ولا بدينهم، فكيف يسألون عن حادثة تنبيء عن حقيقة دينهم وصلاحهم.

الدّليل الثّاني: إنّ هذا القول ينصّ على أنّ ابتداء حكم دقيانوس كان في (٢٤٩) ويأتى أن ثيودو سيوس كان في (٤٠٨) إلى (٤٥٠) فلو فرضنا أنّ دقيانوس إضطهد الفتية أوّل حكمه وانبعث الفتية أثر حكم (ثيودو) فمعناه أنّ مدّة لبثهم كانت مئتي سنة وواحدة وهذا خلاف ما في القرآن الكريم.

الدّليل الثّالث: أنّ انبعاث الفتية لو فرضناه في أوّل حكم ثيودو يكون الفترة بين انبعاثهم، والسّؤال عن الرّسول مئتين وأربعين سنة تقريباً، ومثل هذه الحادثة العظيمة الّتي وقعت في البلاد المتقاربة لايعتريها هذا الخفاء في مدّة قرنين، بحيث لايعلمها إلّا المختصون من أهل الكتاب أو من يوحى إليه. ورحم الله محمّد ظبيان كيف لم يتنبّه لهذه الأدلّة فيردّ بها هذه الأقوال. ثمّ قال أبو ظبيان (رحمه الله تعالى): وفي خضم هذه الرّوايات المتضاربّة من إسلاميّة ومسيحيّة فقد برزت الحقيقة على أثر اكتشاف هذا الموقع من قبل دائرة الآثار، أنّ أصحاب الكهف لم يكونوا في زمن دقيانوس أو دوقيوس وإنّما في عهد الإمبراطور (تراجان) الّذي حكم سنة (٩٨ الى١١٧) ميلاديّة كما تدلّ على ذلك البينات الآثريّة، فقد أشارت أسفار التّأريخ إلى أنّ هذه الطاغيّة كان يسجد للاؤثان ويقضى بالموت على كلّ من يرفض أن يسجد لها، وأصدر مرسوماً بذلك، وكان المسيحيّون في زمانه يلاحقون ويقتلون، ثمّ أفاق أصحاب الكهف في زمان الامبراطور الصّالح (ثيودوسيوس) وكان حكمه في (٤٠٨-٤٥٠) ميلاديّة وتضيف القرائن والبينات إلى أنّ (تراجان) الظّالم فتح شرق الأردن سنة (١٠٦) وبنى في عمّان المدرج الرّومانى الّذي لايزال ماثلاً، وهو يستوعب ستّين ألف شخص، وقد عثر في هذا المدرج على الأصنام الحجريّة الّتى كان يعبدها الرّومان وهذه القرائن تطابق فترة نومهم كما وردت في القرآن الكريم الّتى هى ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً، إنتهى ما قاله ظبيان.

ولكنّ هذا التّحقيق ليس صواباً أيضاً لأنّ اليهود لا يذكرون حوادث تدلّ على صلاح المسيحيّين وحقيتهم في الدّين، وأنّ الفترة بين وقوع هذه الحادثة لا تتجاوز مئتين وأربعين سنةً، فلا يعتريهما هذا الخفاء بحيث يكون الإخبار عنها معجزة، فلابدّ أن تكون الحادثة وقعت قبل ميلاد المسيح بزمان كثير، وتكون لها صلة باليهود ويكون في دهر بعيد جدّاً بحيث يكون الإخبار عنها معجزة من المعجزات والله تعالى أعلم، فرحم الله تعالى الأستاذ محمد ظبيان كيف لم يتنبه لهذه الحقيقة. هذا ما وصلت إليه من هذا التحّقيق ونسأل الله تعالى الرّشد والسّداد وحسن الخاتمه آمين.

* * *

ثمّ إنّ المشركين بعد ما أجابهم الرّسول (ﷺ) على أسئلتهم كما هى في الواقع لم يبق لهم عذر في عدم الإيمان، فأرادوا أن يهيّئوا لهم حجّة في عدم إيمانهم، فطلبوا من الرّسول أمرين:

الأوّل: أن يترك بعض ما ينسب إليهم وإلى آلهتم، ويميل الى دينهم شيئاً ما فيؤمنون بعد ذلك.

الثّاني: أن يطرد الفقراء والعبيد الّذين آمنوا به، حيث أنهم يستكنفون أن يجلسوا مع هؤلاء الفقراء في مجلس رسول الله (ﷺ) فبالنّسبة لطلبهم الأوّل قال جلّ وعلا:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

(وَاتْلُ) واقرأ واتّبع **(مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ)** وطبّقه واعمل به حرفيّاً ولا تمل الى مايقولون أبداً، فإنّه لا مداراة ولا مجاملة ولا محاباة مع الكفر وأهله **(لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)** لأحكامه تعالى الّتى أنزلها في القرآن أبداً، فلا تغيّر ولاتبدّل لشيء منها **(وَلَن تَجِدَ)** حينما جاملتهم وملت إليهم **(مِن دُونِهِ)** من دون الله تعالى **(مُلْتَحَدًا)** ملجأ تلجأ إلى الله لينجيك من عذابه على مجاملتك لهم وميلك إليهم هذا.

وكان الرّسول معصوماً من الميل إليهم، ولكنّ الله تعالى أنزل هذه الآية درساً لأمّته وإعلاماً لهم بأنّ كلّ من جامل الكفرة في الدّين وداراهم فيه ومال إلى أحكامهم وتقاليدهم فلا يجد ملجأً ينجيه من العذاب، على ذلك فإنّ الاسلام صامد وصارم لا

يماري ولا يداري ولا يجامل، ويجب أن يكون المسلم كذلك وإلّا فليس بمسلم. اللّهم فأعذنا وأنت خير معين، وأمّا بالنسبة لطلبهم الثّاني فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

(**وَاصْبِرْ**) وأبق (**نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**) يعبدون (**رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ**) صلاة الصّبح والظّهر (**وَالْعَشِيِّ**) صلاة العصر والمغرب والعشاء (**يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**) أي رضاءه (**وَلَا تَعْدُ**) ولا تصرف (**عَيْنَاكَ عَنْهُمْ**) فتميل إلى غيرهم من الأغنياء (**تُرِيدُ**) بذلك أن تنال (**زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) وبهجتها (**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا**) وهو القرآن فلم يؤمن به (**وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**) وشهواته (**وَكَانَ أَمْرُهُ**) شأنه وحاله (**فُرُطًا**) متجاوزاً عن الحقّ والدّين وشريعة الله (**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ**) هذا وبلغتكم إياه. ثمّ أعلن الله تعالى الاستغناء عنهم فقال (**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن**) لينفع نفسه فقط (**وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**)[١] ليضر نفسه فقط حيث (**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ**) للكافرين (**نَارًا**) عظيمةً (**أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا**) طبقاتها (**وَإِن يَسْتَغِيثُوا**) فيطلبوا ماء (**يُغَاثُوا بِمَاء**) يجابوا فيؤتى لهم (**بِمَاء كَالْمُهْلِ**) كالمعدن المذاب في الحرارة (**يَشْوِي الْوُجُوهَ**) يجعلها شواءً (**بِئْسَ الشَّرَابُ**) ذلك الماء (**وَسَاءتْ**) النّار (**مُرْتَفَقًا**) مكان انتفاع وراحة حيث لا راحة فيها.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مضرّة الكافرين أراد أن يذكر منفعة المؤمنين؛ فقال جلّ وعلا:

---

(١) يستشهد بعض المضلللين بهذه الآية على الحرية الدينية في الإسلام وليس كذلك بل إن هذه الآية للتهديد بأن من كفر فله النار ومن آمن فله الجنة، نعم هناك حرية دينية قضاء في الإسلام إذ لا يجبر أحد بالقوة ولا يحاسب أحد قضاء على الكفر الأصلي لكن الله تعالى يوجب على الناس جميعا أن يدخلوا في الإسلام ومن لم يدخل فيه بعد التبليغ يكون مصيره عذاب الله تعالى يوم القيامة.وهذا من المغلوم من الدين بالضرورة فأين الحرية إذا يعذبون على الكفر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**) بهذا القرآن والرّسول الّذى أنزل عليه (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) وهي الأعمال الّتى أمر القرآن بها (**إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا**) لانضيع أجرهم، وذكر بهذه العبارة للدّلالة على أنّ أجرهم لإحسانهم لا لذاتهم أو لأمر آخر[١] من الحسب أو النّسب أو ما يتوسّل به النّاس بهتاناً وزوراً، وغرّهم به أصحاب المصالح والإستغلال، ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أجرهم فقال جلّ وعلا: (**أُوْلَئِكَ**) المؤمنون العاملون للصّالحات (**لَهُمْ جَنَّاتُ**) بساتين(**عَدْنٍ**) إقامة لايخرجون منها ولا يخرجون (**تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ**) من تحت اشجارهم (**الْأَنْهَارُ**) لسقيها (**يُحَلَّوْنَ**) ويزيّنون (**فِيهَا**) بحلى (**مِنْ أَسَاوِرَ**) جمع أسورة وهى جمع سوار وهو حلي يلبس في اليد، وتلك الأساور (**مِن ذَهَبٍ**) خالص ذى حسن فائق (**وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا**) صنعت (**مِّن سُندُسٍ**) وهو الدّيباج الرّقيق (**وَإِسْتَبْرَقٍ**) وهو الدّيباج الغليظ (**مُّتَّكِئِينَ**) معتمدين (**فِيهَا**) في الجنّة أو في الثّياب (**عَلَى الْأَرَائِكِ**) جمع أريكة وهو السّرير (**نِعْمَ الثَّوَابُ**) ما ذكر من هذا الثّواب (**وَحَسُنَتْ**) الجنّة (**مُرْتَفَقًا**) مكانا للتّنعم والإرتفاق.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى تكبّر الكافرين على الفقراء واستنكافهم أن يجلسوا معهم في مجلس رسول الله (ﷺ) أراد أن يذكر قصّة رجل غني تكبّر على صاحبه الفقير بسبب غناه وثروته، فأهلك الله تعالى ثروته وماله انتقاماً له على ذلك التّكبر، وذلك ليتّعظ كلّ ذي ثروة أو قوّة أو جاه، فلا يتكبّر على من دونه، وليعلم أنّ الله تعالى سينتقم منه فى الدّنيا أو في الآخرة أو فيهما فقال جلّ وعلا:

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا

(١) أي ولا لأمر آخر من الحسب ...الخ.

خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

(**وَاضْرِبْ**) واذكر أيها النّبيّ ويا كلّ مسلم (**لَهُم**) لأهل مكّة الّذين تكبّروا على الفقراء المسلمين، ولكلّ من تكبّر بماله أو قوّته أو جاهه على من دونه في أي زمان ومكان أذكر (**لَهُم**) جميعاً (**مَّثَلًا**) تشبيهاً يبيّن حالهم ليتّعظوا به والمثل هو أنّ: (**رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا**) وهبنا (**لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ**) بستانين (**مِنْ أَعْنَابٍ**) جمع عنب وهو الكرم (**وَحَفَفْنَاهُمَا**) وأحطنا الجنّتين (**بِنَخْلٍ**) كسور النّخيل للزّينة أيضاً (**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا**) بين البستانين (**زَرْعًا**) مزرعة يزرع فيها الحبوب والبقول والخضروات (**كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ**) أعطت وأظهرت، وأفراد آتت لأنّ لفظ كلتا مفرد فالجنّتان آتتا (**أُكُلَهَا**) ثمرها الّذي يؤكل (**وَلَمْ تَظْلِمْ**) ولم تنقص (**مِنْهُ**) من الثّمر (**شَيْئًا**) حسب العادة والاستعداد. ومضى جعلنا وحففنا، وجعلنا بينهما أنّه هيأناه للعمل والكسب لهذه الأمور، ووفّقناه وخلقنا له ماعمل وهيّأنا له أسبابه (**وَكَانَ لَهُ**) للرّجل (**ثَمَرٌ**) مايثمر من غير الجنّتين أيضاً من الذّهب والفضّة والمواشي (**فَقَالَ لِصَاحِبِهِ**) متكبّراً عليه واستهانةً به (**وَهُوَ**) صاحب البستان (**يُحَاوِرُهُ**) يتبادل الكلام مع صاحبه، ويجوز أنّ المعنى وهو أي صاحبه يحاوره أي يتكلّم مع صاحب البستان وينصحه ويدعوه إلى شكر الله تعالى على هذه النّعم فتكبّر وتعاظم عليه فقال له: (**أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا**) فلو كان للإيمان والشّكر أثر لكنت أنت أكثر منّي مالاً وأقوى وأكثر نفراً، أي رجالاً وخدماً وأولاداً، سمّوا نفراً لأنّهم كانوا ينفرون بأمره إلى ما يريد منهم (**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ**) مع صاحبه (**وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**) لأنّه كفر فجعل نفسه مستحقّة للعذاب (**قَالَ مَا أَظُنُّ**) ما أعتقد (**أَن تَبِيدَ هَذِهِ**) الجنّة (**أَبَدًا**) قال ذلك حينما قال صاحبه فإنّ لم تشكر فإنّ الله من شأنه أن يعذّبك بالنّار في الآخرة (**وَمَا أَظُنُّ**) وما أعتقد (**السَّاعَةَ قَائِمَةً**) آتيةً كما تقول (**وَلَئِن**) إن كان قولك بمجيء السّاعة صدقاً وأنّي (**رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي**) في السّاعة (**لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا**) من هذه الجنّة (**مُنقَلَبًا**) مأوى وملجأً لأنّي ذو قوّة وثروة وشرف، فأكرم هناك أكثر ممّا أكرمت هنا، فلمّا افتخر الرّجل هذا الافتخار وتكبّر هذه الكبرياء وكفر هذا الكفر، أجابه صاحبه كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾

(**قَالَ لَهُ**) للرّجل الغنيّ (**صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ**) يناقشه (**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ**) فإنّ الانسان يخلق من النّطفة الّتى تقذف في الرّحم وهي من الدّم والدّم من الغذاء والغذاء من الأطعمة والأطعمة من النّباتات وهي من التّراب، فكلّ حيوان مخلوق من التّراب ولذا قال: (**ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ**) مشيراً بثمّ إلى أنّه يوجد مراتب وتراخ إلى أن يصير التّراب نطفة (**ثُمَّ**) بعد النّفطة (**سَوَّاكَ رَجُلاً**) كاملاً، وأشار بثمّ أيضاً إلى أنّ النّطفة تصير بمراحل رجلاً، فإنّها تصير علقةً ثمّ مضغةً غير مخلّقة ثمّ مخلقة ثمّ ينفخ فيها الرّوح ثمّ يخرج من الرّحم ثمّ يربّي إلى أن يصير رجلاً، كلّ ذلك بتقدير الله وإرادته تعالى.

سؤال: وهو أنّ الرّجل قال: (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا) فهذا يدلّ على أنّ الرّجل كان مؤمناً بالرّب الّذي خلقه فكيف قال له صاحبه (أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) والاستفهام هنا للتّقرير والتّقريع؟.

الجواب: هنا بنوعين:

الأوّل: أنّه حينما قال ولئن رددت إلى ربّي لم يقله إيماناً بالرّب وهو الله، بل أراد أنّه إن ردّ إلى ربّه كما يدّعي صاحبه أنّ له ربّا يردّ إليه فيحاسبه ليجدنّ خيراً ممّا له في الدّنيا إلّا أنّ ادعاء صاحبي باطل فلا ربّ ولا ردّ إليه ولا ساعة في الحسبان، والحاصل أنّه إستهزاء بقول الصّاحب أنّ لك ربّاً تردّ إليه فيحاسبك.

الثّاني: أنّه حينما كفر بالآخرة فقد كفر بالله تعالى لأنّ الله تعالى أخبر بالآخرة، فمن لم يؤمن بها فقد كذّب الله تعالى وتكذيبه كفر أشنع من الكفر.

* * *

فقال له صاحبه أيضاً ماحكى عنه تعالى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾

(**لَّكِنَّا**) أصله لكنّ أنا حذفت ألف أنا للتّخفيف فأدغم نون لكنّ في نون نا فصار لكنّ، ويقرأ بالألف في الوقف اتّفاقاً، وبالألف في الوصل أيضاً عند الشّامي وبدونه عند

الباقين (**هُوَ**) ضمير شأن مبتدأ و(**اللَّهُ**) مبتدأ ثان خبره ربّي فجملة الله ربّي خبر لهو، وهو مع خبره خبر لأنا، وأنا مع خبره خبر لضمير شأن مقدّر هو اسم لكنّ، فالمعنى لكنّ الشأن أنا الله (**رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا**) غيره فلا أعتقد التّربية تكويناً ولا تشريعاً إلّا منه، وفي هذا تعريض بالصاحب إلى (أنا لا أشرك بالله مثلما أنت تشرك به).

سؤال: الرجل ماكان يؤمن بالله فماذا شركه؟

الجواب: انّه لايوجد في الكون أحد إلّا ويؤمن بأنّ هذا الكون أي عالم المادّة له مؤثّر يؤثّر فيه، فمنهم من يعتقد أنّ المؤثر في عالم المادة هو ما فوق المادّة وخارج عنها وهو الله، ولا شريك له في التّأثير والإيجاد فهذا موحّد. ومنهم من يعتقد وينسب التّأثير إلى غيره أيضاً، وهذا شرك فهذا واضح، ومن النّاس من يعتقد أنّ المؤثر في المادّة هو الطّبيعة بمعنى أنّ المادة بطبيعته وهي كانت في الأزل ولا تزال، فهذا هو الملحد وأنّه حيث ينسب التّأثير إلى غير الله وهو المادّة فقد اعتقد وجود مؤثر غير الله تعالى، والله موجود في الواقع اعترف هو به أو لا، فيكون مشركاً لاتّخاذه غير الله موجداً، فالمشرك هو من إعتقد موجداً غير الله سواءً إعتقد بالله معه أو لا.

* * *

(**وَلَوْلا**) وهلا (**إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ**) كان وما لم يشأ لم يكن فإنّي إنسان وغيري إنسان، وإنّي عملت وغيري عمل، ولكنّ غيري لم يحصل على ماحصلت عليه. فيدلّ ذلك أنّ عمل الإنسان وكسبه لا ينتج ما لم يشأ الله تعالى، فشاء الله لي هذا المال ولم يشأ لغيره (**لا قُوَّةَ**) للإنسان على تحصيل شيء أو عمل (**إِلَّا بِاللَّهِ**) فهو الرّزاق والّذى يغنى ويغني، هلا قلت هذا (**إِن تَرَنِ**) أصله ترني حذفت الياء تخفيفاً (**أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا**) فالواجب عليك أن تقول هذا وتشكر الله تعالى، لا أن تتكبّر وتطغى وتكفر بالله تعالى ونعمه.

ثمّ لما اشتدّ الجدال بينهما وعلم المؤمن أنّه لا يرجع عن طغيانه إلّا بالبلاء وسلب ما هو فيه عنه؛ فلذلك دعا عليه وقال كما يروي لنا الله جلّ وعلا:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

(فـ) فحيث طغيت هذا الطّغيان وكفرت هذا الكفر بسبب جنتك هذا (**عَسَى**)

أرجو من (**رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ**) في الدّنيا أو في الآخره أو فيهما (**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا**) على جنتك (**حُسْبَانًا**) عذابا (**مِّنَ السَّمَاء**) كالصّاعقة مثلا (**فَتُصْبِحَ صَعِيدًا**) أرضاً ملساء (**زَلَقًا**) ينزلق الإنسان فيها ولا نبات ولا شجر فيها (**أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا**) غائراً وذاهباً في الأرض (**فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ**) للماء (**طَلَبًا**) لتسقي به البستان والزّرع فيهلك بذلك.

فاستجاب الله تعالى دعاء المسلم المؤمن فأهلك البستان كما قال جلّ وعلا:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

(**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ**) وأهلك ثمره أي ماله وثروته وبستانه (**فَأَصْبَحَ**) الرّجل بعد ذلك (**يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ**) من المال والنّقود (**فِيهَا**) في صنع هذه الجنّة ندامة على ذلك (**وَهِيَ**) الجنّة (**خَاوِيَةٌ**) هالكة (**عَلَى**) مع (**عُرُوشِهَا**) وهي مايقصّ عليه الكرم (**وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**) لكيلا ينفد مالي ولا يتغيّر حالي، وكان هذا توبة منه (**وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ**) جماعةٌ (**يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ**) كما كانوا قبل ذلك يطوفون حوله (**وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا**) بنفسه (**هُنَالِكَ**) لأجل ذلك وأنّ النّاس لا ينصرون أحداً ولا يستطيعون ذلك، وأنّهم أبناء الوقت وأنّهم مثل الكلاب يلهثون حولك، واذا متّ يأكلون لحمك، فإذا (**الْوَلَايَةُ**) المحاباة والاعتماد والتوكل والثقة والصلة والسّيادة (**لِلَّهِ الْحَقِّ**) وحده، فليتولّ المرء ربّه فقط ويتمّ صلته به، فإنّه (**هُوَ خَيْرٌ**) من كلّ أحد (**ثَوَابًا**) تمييز محول عن الفاعل أي خير ثوابه من كلّ أحد (**وَخَيْرٌ عُقْبًا**) وخير عاقبة توليته وطاعته.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبين قيمة الدنيا وحالهم ليعلم الناس أنها ليست مما يليق بالانسان أن يطغى بها ويتكبر فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

(**وَاضْرِبْ**) واذكر أيّها النّبيّ (ﷺ) (**لَهُم**) للنّاس (**مَّثَلَ**) حال (**الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) فهي

(**كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء**) العلوّ وهو السّحاب فإنّه يكون فوق الأرض، وكلّ مافوق الأرض سماء (**فَاخْتَلَطَ بِهِ**) بذلك الماء (**نَبَاتُ**) البذرات والمواد الّتى تنبت في (**الأَرْضِ**) فنبت النّبات ثم ازداد إى أن صار كاملاً وأعطى بذره وثمره ثمّ ذبل ونقص (**فَأَصْبَحَ هَشِيمًا**) حشيشاً يابساً (**تَذْرُوهُ**) تنشره (**الرِّيَاحُ**) وتطير به، فكذلك الإنسان ينزل من سماء الرّجل ماءً فيختلط بما يصير ولداً في أرض الرّحم، فينبت ويخرج من الرّحم كما يخرج النّبات من الأرض، فيزيد ويشبّ ثمّ يشيب ويضعف فتطير به رياح الأجل والموت إلى حيث شاء الله تعالى (**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**) فكيف يغترّ المرء بهذه الدّنيا والحياة فيها، وما أجهل من يفعل ذلك (**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) فلابد للإنسان من اتّخاذها (**و**) لكنّ (**الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا**) خير ثوابها من زينة الدّنيا (**وَخَيْرٌ أَمَلاً**) وخير أن تأمل فيها الخير يوم القيامة، حيث يدخل المرء بها الجنّة، والباقيات الصّالحات قيل هي: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) وهذا قول الجمهور، وروي عن النّبيّ (ﷺ) تفسيرها بها، وقيل: الصّلوات الخمس، وقيل: الأعمال الصّالحات كلّها، **أقول**: وهذا هو الأصحّ وتفسير الرّسول (ﷺ) بما ذكر لا يفيد الحصر بل يفيد أنّه منها، **وأقول أيضاً**: أشار الله تعالى بهذه الآية إلى أنّ المال لو اتّخذ وجعل بقيةً صالحة بأنّ يؤخذ من الحلال ويصرف في الحلال وينفق في سبيل الله تعالى وفي أمور الخير خير من أن تكون زينة الدّنيا فقط، وكذا الولد لو اتّخذ وجعل بقيّة صالحة بأن تربّى تربيةً صالحة إسلاميّة ربّانية خير من أن تكون زينة الدّنيا فقط وقال (ﷺ): (إذا مات ابن آدم إنقطع عمله إلّا عن ثلاث، صدقةٍ جاريةٍ وعلمٍ ينتفع به وولدٍ صالحٍ يدعو له)[1] أو كما قال، وقال رسول الله (ﷺ): (أما أنّه سيكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدّقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس منّي ولست منه، ومن لم يصدّقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو منّي وأنا منه، ألا وإنّ سبحان الله والحمد الله ولا إله إلّا الله والله أكبر هن الباقيات الصّالحات)[2]، وقال أيضاً لأبي هريرة: ألا أدلّك على حكمة من كنوز الجنّة؟ قلت: بلى يارسول الله، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا قالها العبد قال الله عزوجل: أسلم عبدي واستسلم[3]، ومن رأى شيئاً

---

(١) سنن الترمذي ٣/ ٦٦٠ الحديث رقم ١٣٧٦ بلفظ إذا مات الإنسان. وقال حديث حسن صحيح.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٦٧ الحديث رقم ١٨٣٧٩.

(٣) المستدرك على الصحيحين ١/ ٦٨١ الحديث رقم ١٨٥٠.

فأعجبه فقال: لا حول ولا قوّة إلا بالله لم يضرّه عين[١]. وقال (ﷺ) أيضاً: (ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ماشاء الله لا قوّة إلّا بالله فيرى فيه آفة دون الموت)[٢].

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّرهم بالآخرة لكي لا يميلوا إلى الدّنيا كلّ الميل فيطغوا به ويتكبّروا ويكفروا فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

(**وَيَوْمَ**) منصوب بفعل مقدّر محذوف وتقديره إمّا واذكر لهم (يَوْمَ ....الخ) أو يقال المفهوم من قول الله تعالى (لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فالمعنى ويقال لهم يوم (**نُسَيِّرُ الْجِبَالَ**) فنزيلها من فوق الأرض بالنّفخ في الصّور (**وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً**) ظاهرة لا جبال ولا تلال فيها ولا وديان بل قاعاً صفصفاً لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً (**وَحَشَرْنَاهُمْ**) وجمعناهم في ميدان الحشر والحساب (**فَلَمْ نُغَادِرْ**) نترك (**مِنْهُمْ**) من النّاس (**أَحَدًا**) صغيراً أو كبيراً (**وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ**) أوقفوا أمامه (**صَفًّا**) مصطفين كلّ جماعة مع من يوافقه في العقيدة والأعمال ويقال لهم من عند الله تعالى في ذلك اليوم (**لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**) ضعافاً لا مال ولا قوة لكم وحفاةً عراةً غرلاً وفرادى فلم لم تعملوا لهذا اليوم (**بَلْ زَعَمْتُمْ**) أيها الكفرة (**أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا**) للحساب وأيها الفسقة حيث إعتقدتم أن الله يغفر لكم للحسب أو النسب أو غير ذلك مما حملكم على الفسق وارتكاب المعاصي (**وَوُضِعَ الْكِتَابُ**) سجل الأعمال (**فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ**) من الكفرة والعصاة (**مُشْفِقِينَ**) خائفين (**مِمَّا فِيهِ**) في كتابهم مما

---

(١) المطالب العالية ١٥/٣١ الحديث رقم ٣٦٥٥_٢.

(٢) المعجم الأوسط ٤/٣٠١ الحديث رقم ٤٢٦١.

يوجب عذابهم (**وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا**) ياهلكتنا (**مَا**) شيء (**لِهَذَا الْكِتَابِ**) وأي سبب له حيث إنه (**لا يُغَادِرُ**) لا يترك خصلة (**صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا**) عدها تماماً (**وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**) فلا يكتب عليه ما لم يعمل من الشّر شيئاً ولا يترك ممّا عمله من خير إلّا أثبته.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّههم ويذكر لهم عداوة الشّيطان لهم أوّل ما خلق أبوهم آدم ليجتنبوه ولا يطيعوه في معصية الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

(**وَإِذْ**) واذكر لهم (**إِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ**) اعترافاً بفضله عليكم (**فَسَجَدُوا**) كلّهم (**إِلا إِبْلِيسَ**) لم يسجد (**كَانَ من الْجِنِّ فَفَسَقَ**) فخرج (**عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**) حيث لم يسجد لآدم (**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ**) من الشّياطين (**أَوْلِيَاء**) لكم فتطيعونهم (**مِن دُونِي**) فتتركوا أمري لأمرهم (**وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ**) فلا يأمرونكم إلا بما يضرّكم (**بِئْسَ**) الشّيطان (**لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**) عن الله تعالى حيث يطيعونه بدلاً عن إطاعة الله تعالى، وحيث إنّ اتّخاذ الشّياطين أولياء وإطاعتهم دون الله تعالى معناه إشراكهم لله في الألوهيّه، ومعنى الإشراك أن يكون لهم الخلق كما أنّ لله الخلق، فنفى الله تعالى ذلك فقال: (**مَا أَشْهَدتُّهُمْ**) ما أحضرتهم (**خَلْقَ**) شيء من (**السَّمَاوَاتِ**) العالم العلويّ ولا من (**الْأَرْضِ**) العالم السّفليّ (**وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ**) النّاس، فما أحضرتهم ليساعدوني في الخلق من شيء أبداً (**وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا**) مساعداً لي في الخلق، فلا خلق لهم لشيء فلا شراكة لهم ولا ولاية لهم أبداً، فلا يليقون بالطّاعة لأنّ الطّاعة يجب أن تكون للخالق فقط.

سؤال: لقد صرحت الآية بأنّ إبليس كان من الجنّ فكيف شمله الأمر بالسّجود الموجّه إلى الملائكة، ليكون بتركه فاسقاً خارجاً عن الأمر؟

الجواب: بوجهين:

الاول: أنّ قوله تعالى للملائكة (اسْجُدُوا) معناه اسجدوا أنتم ومن معكم وكان إبليس معهم.

الثّاني: أنّ الملائكة أفضل من الجنّ، فإذا أمروهم بالسّجود لآدم فالجنّ بالطّريق الأولى يكونون مأمورين به والله تعالى أعلم.

والحاصل أنّ إبليس كان مأموراً بالسّجود بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) سورة الأعراف الآيه/ ١٢.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال المشركين عامّة يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

(**وَيَوْمَ**) منصوب بفعل مقدّر تقديره واذكر للنّاس (**يَوْمَ يَقُولُ**) الله تعالى، وقرىء (نقول) بالنّون، حيث يخبر تعالى عن نفسه بنون المتكلّم مع الغير لأنّه يأمر الملائكة فيقولون للمشركين (**نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ**) أنّهم شركاء لله فليأتوا لينجوكم عن العذاب (**فَدَعَوْهُمْ**) فنادوهم واستغاثوا بهم (**فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا**) فلم يستطيعوا أن يستجيبوا (**لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم**) بين المشركين ومعبوديهم (**مَّوْبِقًا**) مهلكاً ويقال: إنّه واد من جهنّم (**وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا**) وأيقنوا (**أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا**) داخلون فيها (**وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا**) عن دخولها (**مَصْرِفًا**) ما يصرفهم عنها أو يصرفها عنهم وينجّيهم منها (**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا**) نوّعنا وذكرنا (**فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ**) لهداية النّاس وارشادهم ودعوتهم إلى الحقّ (**مِن كُلِّ مَثَلٍ**) دليل وعبر يحتاجون إليها إلّا أنّه (**وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**) ولذلك لم يؤمنوا إلّا من هداه الله تعالى ووفّقه للخير.

لطيفة: عن عليّ إبن أبي طالب (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (ﷺ) طرقه وفاطمة ابنته في ليلة فقال: ألا تصلّيان؟ فقلت: يارسول الله إنّما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً، ثمّ سمعته وهو يضرب فخذه ويقول: (وَكَانَ الإنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)(١).

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه بيّن للنّاس من كلّ مثل وأنّه لم يبق لهم عذر لعدم إيمانهم، أراد أن يبيّن سبب عدم إيمانهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

(**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ**) من (**أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى**) واضحاً دون خفاء (**وَ**) أن (**يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ**) من الذّنوب ويتوبوا إليه (**إِلَّا**) إلّا أنّهم يريدون (**أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ**) الله تعالى في (**الأَوَّلِينَ**) وهو أن يعذّبهم عذاب استئصال (**أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً**) عياناً ظاهراً، فمعنى الآية أنّهم لا يؤمنون إلّا أن يأتيهم أحد الأمرين، وقد أتاهم الأمر الثّاني فعذّبوا في بدر وأُحد والأحزاب والفتح، ثمّ ربّما يقال هنا لماذا لم يرسل الله إليهم خوارق عادات تقنعهم وتأتي بهم إلى الإيمان؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

(**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**) لا قاهرين النّاس على الإيمان بقوّة الخوارق أو قوّة السّلطات، فمن أحبّ الهداية اهتدى بهذا التّبشير والإنذار وما أوتوا من

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٧٩ الحديث رقم ١٠٧٥، صحيح مسلم ١/ ٥٣٧ الحديث رقم ٧٧٥.

المعجزات الّتى أرادها الله تعالى وفي هذه كفاية، وأمّا من لم يحبّ الهداية فينكر حتّى إذا أتينا له بغيره كما قال تعالى: (**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا**) الرّسل (**بِالْبَاطِلِ**) بالأدلّة الباطلة كقولهم: أبعث الله بشراً رسولاً؟ أو قولهم: ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق؟ من الحجج الّتى حكاها القرآن عنهم (**لِيُدْحِضُوا بِهِ**) بهذا الباطل ويزيّلوا (**الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي**) المعجزات الّتى رأوها وأحكامي الّتي بلغوا بها (**وَمَا أُنذِرُوا**) به من الهلاك في الدّنيا والنّار في الآخرة، فاتّخذوا كلّ ذلك (**هُزُوًا**) لعباً وسخروا منه. ثمّ بيّن الله تعالى أنّ هؤلاء لايؤمل فيهم الخير، فقال جلّ وعلا: (**وَمَنْ أَظْلَمُ**) الاستفهام للانكار فيفيد النّفي، فالمعنى لا تجد قوماً أظلم (**مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ**) بمعجزات (**رَبِّهِ**) وأحكامه (**فَأَعْرَضَ عَنْهَا**) فلم يتفكّر فيها ولم يعتن بها (**وَنَسِيَ**) كلّ (**مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**) من كفر وفسق وفجور فلم يتب عنها بعد كلّ هذه التّبشيرات والانذارات والاستدلالات فبسبب ذلك (**إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً**) أغطية مانعة من (**أَن يَفْقَهُوهُ**) يفقهوا الآيات، وأعيد ضمير المذكر لأنّها قرآن أو ذكر (**وَ**) جعلنا (**فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**) ثقلاً لا يسمعون فأصبحوا غير مأمول فيهم (**وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى**) بكلّ الوسائل والأدلّة (**فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا**) إذ جعلنا على قلوبهم الأكنّة وفي آذانهم الوقر (**أَبَدًا**) لا يهتدون إلى الأبد.

سؤال: تفيد الآية أنّ الله تعالى منعهم من الهداية وسماع القرآن سماع استجابة فإذا كان الأمر كذا فلم يلومهم في الدّنيا ويعذّبهم في الآخرة؟.

الجواب: إنّ هذا الجعل ناشىء من حيث نيّتهم وسوء إرادتهم الّتي سبّبت هذا الجعل، فلذلك يلامون ويعذّبون، وهذا مثل ما يضرب أحد طلقة في رأسه فبسبب ذلك يخلق الله موته. أو يقال الآية مبنيّة على التّمثيل والتّشبيه، فالمعنى أنّ حالهم كحال الّذى جعل الله على قلبه الأكنّة وفي أذنيه الوقر في عدم الإيمان وعدم سماع الذّكر والآيات والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذرهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

(**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ**) الغفور صفة الرّب (**ذُو الرَّحْمَةِ**) خبره أي أنّ ربّك المتّصف بالمغفرة هو ذو رحمة بهذا القوم، حيث لم يؤاخذهم بما كسبوا لأنّه (**لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا**) من الكفر والمعاصي وإيذاء الرّسول وأصحابه (**لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ**) وأتى به عليهم فوراً لأنّهم يستحقّون ذلك، إلّا أنّ الله تعالى رحمهم فأخّر العذاب لعلّهم يتوبون ويؤمنون وأنّ تأخير العذاب ليس معناه أنّهم لا يعذّبون (**بَل**) يعذّبون إلّا أنّهم (**لَّهُم مَّوْعِدٌ**) للعذاب فإذا جاء موعده (**لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا**) ملجأً ولا مهرباً. ثمّ ذكّرهم بالقرى الّتي أهلكت بسبب كفرهم وعصيانهم ليعتبروا بهم ويتّعظوا فقال: (**وَتِلْكَ الْقُرَى**) إشارة إلى قرى ثمود ولوط (**أَهْلَكْنَاهُمْ**) أهلكنا أهلهم (**لَمَّا ظَلَمُوا**) ولم يرجعوا عن ظلمهم وهو الكفر والإشراك بالله تعالى (**وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**) ما تخلفوا عنه، فليعتبر بهم كلّ ظالم وكفور.

ثمّ أراد الله تعالى ذكر حادثة من حوادث سيّدنا موسى (عليه السلام) لأمرين:

الأمر الأوّل: ليكون معجزةً ودليلاً على رسالة الرّسول (ﷺ) فإنّ محمّدا الأمّي الّذي لم يمارس قراءة ولا دراسة للكتب لا سبيل له إلى العلم بهذه الحوادث الخفيّة إلّا بالوحي من الله تعالى إليه فهو رسول.

الأمر الثّاني: أن يبيّن الله تعالى أنّه كما يبتلي عبده إذا افتخر بالمال والغنى فكذلك يبتليه إذا افتخر بالعلم والمعرفة، ففي الحديث الصّحيح أنّ موسى (عليه السلام) خطب يوماً في بني إسرائيل فقيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ فقال: لا. فعتب الله تعالى عليه فأوحى إليه: أن بل عبدنا الخضر أعلم منك، فقال: يارِبّ دلّني على السّبيل إلى لقائه، فأوحى الله إليه أن يحمل حوتاً في مكتل ويسير بطول البحر حتّى يبلغ مجمع البحرين فإذا فقد الحوت فإنّ الخضر هناك[1] وهذا الحادث هو ما ذكره تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ

(١) صحيح البخاري ٤/١٧٥٧ الحديث رقم ٤٤٥٠، بهذا المعنى مع اختلاف اللفظ وليس فيه ذكر اسم الخضر.

أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ
سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾
فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ
لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ
صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ
لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا
لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا
تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا
فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ
بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن
يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ
أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾
أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ
يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا
طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا
ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا
فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ۞

(**وَ**) واذكر أيّها النّبيّ للنّاس (**إِذْ قَالَ مُوسَى**) وهو موسى بن عمران كما قال ابن عباس (رضي الله عنه): وردّ قول من قال هو موسى آخر ولعن قائله، فقال موسى: (**لِفَتَاهُ**) وهو يوشع بن نون ابن أخت موسى من ذريّة يوسف (عليه السلام) والمراد بالفتى الخادم، فكان يوشع يخدم موسى ويتعلّم عنده ويتّبعه، فقال موسى (عليه السلام) ليوشع: (**لا أَبْرَحُ**) لا أزال أسير (**حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ**) وهو البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر أو المراد مجمع خليجي العقبة والسّويس في البحر الأحمر(**أَوْ أَمْضِيَ**) أسير (**حُقُبًا**) جمع حقب وهو السّنة أي سنين كثيرة (**فَلَمَّا بَلَغَا**) موسى ويوشع (**مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا**) بين البحرين (**نَسِيَا حُوتَهُمَا**) نسيا أن يراقبا الحوت حتّى يفقد، وأين يفقد فإنّ الله تعالى قال لموسى (عليه السلام) فأين فقدت الحوت فالخضر هناك (**فَاتَّخَذَ**) سلك الحوت المستوي بعد ما صار حيّاً سلك (**سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**) فيه تقديم وتأخير لرعاية الفاصلة، أي سرب في البحر أي قناة فيه، وسرباً بدل من البحر بدل اشتمال أي دخل في سرب من البحر مثل ما يقال: سكن من البلدة داراً أي في دار منها (**فَلَمَّا جَاوَزَا**) مجمع البحرين ومضيا مدّة (**قَالَ**) موسى (**لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا**) اجلب لنا الغداء لنأكله (**لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**) تعباً كثيراً (**قَالَ**) يوشع (**أَرَأَيْتَ**) هل علمت أنّه (**إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ**) عند مجمع البحرين واسترحنا هناك (**فَإِنِّي نَسِيتُ**) نسيت أن أراقب (**الْحُوتَ**) فأذكره لك حال (**وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**) أذكر حاله وما جرى له حيث صار هناك حيّاً وخرج من المكتل (**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**) اتّخاذاً عجيباً يتعجّب منه (**قَالَ**) موسى (**ذَلِكَ**) ذلك المكان (**مَا**) هو المكان الّذي (**كُنَّا نَبْغِ**) نقصده من سفرتنا (**فَارْتَدَّا**) فرجعا (**عَلَى آثَارِهِمَا**) من الطّريق الّذي أتوا منه وهما يقصّان أي يقطعان الطّريق (**قَصَصًا**) قطعاً إلى أن وصلا إلى ذلك المكان (**فَوَجَدَا**) هنالك (**عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً**) نبوّة (**مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**) ماعلمنا موسى (عليه السلام) (**قَالَ لَهُ مُوسَى**) لذلك العبد (**هَلْ أَتَّبِعُكَ**) وأصاحبك (**عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ**) من عند الله تعالى (**رُشْدًا**) أي هداية للأمور والعلم بها، والاستفهام في: هل أتبعك؟ يعطي معنى العرض والالتماس، وهذا من آداب المتعلم يلتمس الطّالب من الاستاذ الصحبة والتّعلّم عنده (**قَالَ**) الخضر لموسى (**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ**) أن تصبر (**مَعِيَ صَبْرًا**) فتبقى معي في الصّحبة لتتعلّم من الرّشد الّذي عندي (**وَكَيْفَ تَصْبِرُ**) في البقاء معي (**عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**) علماً بسببه وأنت رسول يجب عليك النّهي عن المنكر وأنا أفعل أموراً هي منكرة في الظّاهر ولكنّها معروفة في الحقيقة (**قَالَ**) له موسى (**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي**) ولا أخالف وأنكر

(**لَكَ أَمْرًا**) أيّ أمر تفعله وتقوم به (**قَالَ**) الخضر لموسى (**فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ**) ولا تنكره عليّ (**حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ**) أي أشرح لك لذلك الشّيء (**ذِكْرًا**) شرحاً وافياً لا يبقي لك إنكاراً ولا كرهاً له؛ فاتّفقا على هذا الشّرط (**فَانطَلَقَا**) الخضر وموسى ومشيا (**حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ**) في سفينة من السّفن إذ اللاّم فيها للشّيوع، فعمد الخضر إلى معوَل فضرب به السّفينة (**خَرَقَهَا**) فلمّا رأى موسى ذلك الأمر وأنّه إضرار بمال الغير وسيؤدي إلى غرق السّفينة ومن فيها فلم يتحمّل السّكوت على ذلك بل (**قَالَ**) للخضر (**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا**) والله (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**) أمراً منكراً وعظيماً (**قَالَ**) له الخضر (**أَلَمْ أَقُلْ**) أوّل الأمر (**إنك لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) فهذا الّذي قلته لك قد تحقّق فاعتذر منه موسى (**قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي**) لا تعاقبني (**بِمَا نَسِيتُ**) فإنّ هذا الكلام صدر منّي نسياناً لما اتّفقنا عليه (**وَلا تُرْهِقْنِي**) ولا تكلّفني وتحمّلني (**مِنْ أَمْرِي**) أمر الصّحبة (**عُسْرًا**) فتحاسبني على النّسيان والسّهو فقبل معذرته (**فَانطَلَقَا**) مشيا (**حَتَّى إِذَا لَقِيَا**) في الطّريق (**غُلامًا فَقَتَلَهُ**) الخضر فلم يتحمّل موسى هذا ولو كان من قومه لقتله قصاصاً (**قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً**) طاهرةً من الذّنوب حيث لم يبلغ الحلم (**بِغَيْرِ نَفْسٍ**) وهذا من الكبائر والله (**لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا**) منكراً جدّاً وفعلته (**قَالَ**) الخضر (**أَلَمْ أَقُل لَّكَ**) أنت أوّل الأمر (**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا**) وقد اتّفقنا على أن لا تعترض عليّ شيئاً فلمَ خالفت الإتّفاق؟ فاعتذر موسى له (**قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا**) بعد هذه الفعلة وأنكرت عليك (**فَلَا تُصَاحِبْنِي**) وفارقني، حيث (**قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي**) **من** عندي ومن خلافي للإتّفاق (**عُذْرًا**) للمفارقة وعدم الصّحبة فاتّفقا على هذا الشّرط (**فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ**) هي انطاكية في سوريا، وقيل: هي برقة في تونس، فلمّا دخلاها (**اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا**) طلبا من أهلها الطّعام والضّيافة (**فَأَبَوْا**) كلّهم (**أَن يُضَيِّفُوهُمَا**) ولو بخبزين أو خبز (**فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ**) يشرف على (**أَنْ يَنقَضَّ**) يسقط على الأرض فأشار الخضر بيده إليه (**فَأَقَامَهُ**) وعدله أو عمل هو وموسى في بنائه (**قَالَ**) موسى إنّ هذا القوم لم يعطونا شيئاً، ونحن جائعان (**لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**) لنأكل به (**قَالَ**) الخضر (**هَذَا**) السّؤال الثّالث هو (**فِرَاقُ**) سبب الفراق (**بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ**) سأخبرك الآن (**بِتَأْوِيلِ**) أي بالسّبب الّذي يصحّح ويرجع إلى الحقّ كلّ (**مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**).

لطيفة: يقال أنّ أهل القرية عندما وصلهم الإسلام وقرأوا القرآن وقول بعض المفسرين بأنّ أهل القرية الّتي ذكرت كانوا آباؤهم وأجدادهم، فأحسوا بالحرج والخذلان من عمل كهذا منهم، فأرادوا تدارك الأمر فجاؤوا خليفة الوقت فقالوا: إجعل (فأبوا)

فأتوا نعطيك ما تشاء، قال الخليفة لهم: قد كان آباؤكم وأجدادكم يستطيعون في وقته أن يعملوا ذلك بخبز شعير واحد ولكنّ الآن لا يبدّل ولو أعطيتم الدّنيا كلّها.

* * *

ثمّ بدأ الخضر يشرح ويبيّن سبب ما فعله فقال: (**أَمَّا السَّفِينَةُ**) الّتي خرقتها (**فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ**) بها وكانت معيشتهم على هذه السّفينة (**وَكَانَ وَرَاءهُم**) أمامهم (**مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ**) صحيحةً (**غَصْبًا**)، وأمّا ما فيها عيب فيتركها فعيّبتها لكي لا يأخذها، وإنّ الخرق كان سهل الإصلاح ولم يكن فيه ضرر حيث لم يدخل الماء منه (**وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ**) وكان هو شقيّاً فلو بقي وعاش لأصبح كافراً ويجبر الوالدين على الكفر (**فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا**) يكلّفهما (**طُغْيَانًا وَكُفْرًا**) فيجبرهما عليهما (**فَأَرَدْنَا**) بقتله (**أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا**) ولداً (**خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**) بهما (**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ**) إدّخره أبوهما (**لَّهُمَا**) وبنى عليه هذا الجدار، فلو سقط الجدار لانكشف الكنز وأخذه النّاس (**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**) ودعا من الله حفظ الكنز لولديه (**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**) فأمرني بإقامة الجدار فأقمته (**وَمَا فَعَلْتُهُ**) هذا الأمر أو كلّ مافعلت (**عَنْ أَمْرِي**) وإراداتي وإختياري بل عند أمر الله تعالى (**ذَلِكَ**) الّذي قلته (**تَأْوِيلُ**) شرح وسبب (**مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**) حيث رأيته باطلاً ولم يجز لك السّكوت عن الباطل، وكان عندي حقّاً، وكلانا على حقّ حيث خصّ الله تعالى كلّ واحد منّا بمنهج وشريعة لا يجوز لي العمل بمنهجك ولا لك العمل بمنهجي، فاذهب راشداً مهديّاً والسّلام عليك. وهكذا تمّ الفراق بينهما على المحبّة والوداد وحسن التّفاهم وطيب الكلام في الختام، فسلام الله تعالى علينا وعليهما وعلى جميع المسلمين آمين.

وهنا تنبيهات:

الأوّل: أنّ فضيلة طلب العلم تبلغ حدّاً أنّ رسولاً من أولي العزم ترك قومه وتحمّل مشقّةً كبيرةً في طلبه، وأصبح تلميذاً بل وخادماً لمن ترجّى أن يستفيد منه عدّة مسائل من العلم.

الثّاني: أنّ من آداب المتعلّم أن لا يعترض على أستاذه، بل له أن يسأل على الحكمة والشّرح، فإنّ أجّل الأستاذ شرحه إلى أجل فعليه أن يصبر، وإلّا فيكون سبباً للافتراق بينها.

الثّالث: أنّ النّهي عن المنكر يجب القيام به، وإن كان المنكر صادراً عن شيخك أو أستاذك ولذلك لم يصبر موسى وفعل ذلك مع أستاذه وشيخه.

الثّالث: يجب على الشّيخ شرح الغوامض لتلاميذه لكي لا يقعوا في الخطأ أو الشّبهة في حقّ الشّيخ، ولذلك حينما جاءت حفصة زوج النّبيّ (ﷺ) إلى المسجد لتزور الرّسول (ﷺ) فلمّا خرجت ودعها الرّسول (ﷺ) فرأى جماعة فقال لهم: هذه حفصة زوجي، فقالوا: أو نشكّ فيك يارسول الله؟ قال (إنّ الشّيطان يجري من الإنسان مجرى الدّم)[1] أو كما قال (ﷺ).

الرّابع: أنّه يجوز أن يكون في زمان واحد نبيّان ولكلّ منهما شريعة خاصّة، فما فعل الخضر كان حقّاً في شريعته وباطلاً في شريعة موسى (ﷺ)، وبذلك يعلم أنّ مدار الحكم هو إرادة الله تعالى لا الحسن الذّاتي للشيء أو قبحه كما ذهبت إليه المعتزلة، وإلّا لما كان لشيء واحد حكمان متضادّان من الله تعالى في آن واحد، أحدهما لموسى والآخر للخضر (ﷺ).

الخامس: أنّ الخضر كان نبياً لا ولياً فقط، بدليل قوله تعالى: (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا) وأنّ هذه الرّحمة يراد بها النّبوة في إصطلاح القرآن، ولأنّه ليس من المعقول أن يتّبع الرّسول من هو أدنى منه رتبة، إذ الوليّ هو المتّبع لشريعة رسول الوقت.

السّادس: يجوز للشّيخ أن يشترط على التّلميذ شرطاً، فمن خالف الشّرط يجوز فراقه وعدم صحبته.

السّابع: أنّ الإعتذار الحقّ يقبل ويكون سبباً للمسامحة والعفو.

الثّامن: أنّه من آداب السّفر أن يتّخذ المرء معه رفيقاً يرافقه وزاداً يتقوّى به ولا ينافي هذا التوكّل؛ فإنّ التّوكّل هو الاعتماد على الله تعالى بعد تهيئة الأسباب، ولذا قال

(١) صحيح البخاري ٢/ ٧١٧ الحديث رقم ١٩٣٣. ونص الحديث هو :عن صفية بنت حيىء قالت: (كان رسول الله (ﷺ) معتكفا فأتيته أزوره ليلا؛ فحدثته ثمّ قمت فانقلبت فقام معي ليقلّبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرّ رجلان من الأنصار، فلمّا رأيا رسول الله (ﷺ) أسرعا فقال النّبيّ (ﷺ) على رسلكما إنّها صفية بنت حيىء، فقالا: سبحان الله يا رسول الله قال: إنّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدّم وإنّي خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءا).

الرّسول (ﷺ) : (أعقل بعيرك ثمّ توكل)[1] والله تعالى أعلم.

التّاسع: وهذا أهم التّنبيهات وهو أنّه قد ضلّ كثير من النّاس من هذه القصّة، حيث اعتقد البعض أنّ الخضر وليّ، وإنّ ما فعله كان بالمكاشفة وعلم الباطن، فاعتقد بأنّ الولاية أفضل من النّبوة، وأنّ الظّاهر غير الباطن فضلّ بذلك ضلالاً مبيناً، والجواب عن هذا بأمور:

الأمر الأول: أنّ الخضر كان نبيّاً من الأنبياء كما ذكرنا، وليس وليّاً فقط، وإنّ الوليّ لا يكون أكبر من النّبيّ لأنّ الوليّ فرد من أفراد أمّة النّبيّ ولا يكون ولياً إلّا باتّباع شريعة ذلك النّبيّ. فكيف يكون التّابع أفضل من المتبوع.

الأمر الثّاني: ما كان يفعله الخضر لم يكن من الإلهام والمكاشفة، بل كان من الوحي وما كان من الوحي فهو ظاهر وليس باطناً، فالظّاهر والباطن لا يتخالفان ومن فرّق بينهما فقد كفر، حيث أنّ كلّ باطن يخالف الظّاهر فهو كفر وإلحاد إلّا أنّ الخضر كان يفعل ذلك بوحي خاص به، كما كان للرّسول خصائص تخصّ به بوحي خاصّ يختصّ به، ولا يشمل الأمّة، فكذلك الخضر كان يوحى إليه أن أخرق السّفينة وأقتل الغلام وأقم الجدار، بدليل قوله: (وَمَا فَعَلْتُهُ) أي وما فعلت كلّ ما رأيت (عَنْ أَمْرِي) بل عن أمر من الله تعالى صدر منه وأوحي إليّ، ولم يكن ولن يكون لأحد أن يفعل شيئاً مخالفاً للظّاهر إلّا بالوحي، والوحي قد انقطع والإلهام والمكاشفة لا يجوز العمل بها، فإنّه أجمع العلماء على أنّ الإلهام ليس بسبب للعلم ولا يجوز العمل به إلّا إذا كان موافقاً للشّرع وإنّ كلّ من خالف الشّرع والظّاهر بحجّة الإلهام أو المكاشفة فهو ضالّ ومضلّ، وهناك قاعدة من قواعد أهل الحقّ أنّ حمل الظّاهر وردّه إلى خلافه والعمل به كفر وإلحاد. والحاصل أنّ الخضر كان نبيّاً لا وليّاً فقط، وأنّ ما فعل كان بوحي خاصّ به لا يتعدّاه ولم يكن بالمكاشفة والإلهام، وإنّه لا يخالف الوحي إلّا بالوحي، والوحي قد انقطع،وأنّ الإلهام لا يعمل به قطعاً، وذلك لأنّه لو عمل بالإلهام لبطلت الأحكام الشّرعية كلّها لأنّ كلّ أحد يقوم بعمل ويدعي الإلهام كذباً أو صدقاً فلا يفرّق بين الحقّ والباطل، وأنّ الوحي لا يكن إلّا من الله تعالى، ولا يتدخّل فيه الشّيطان أبداً، وإلّا لاختلت قاعدة النّبوة والرّسالة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ

(١) سنن الترمذي ٦٦٨/٤ الحديث رقم ٢٥١٧.

الأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ*﴾ سورة الحاقة الآية/ (٤٤-٤٧). ولذا كان الله تعالى ينتقم من كلّ من يدّعي النّبوة كذباً ويفضحه فوراً، ولكنّ الإلهام غير مأمون أنّه من الله تعالى، فإنّ باب ادّعاء الولاية كذباً، والإلهام افتراءً واسع ولا ينتقم الله تعالى ممّن يدعى ذلك فوراً، حيث إنّه وضع ميزاناً لمعرفة الولي من المستدرج به، والكاذب وهو الشّريعة، فمن وافق أعماله وأخلاقه الشّرع فهو وليّ وما يظهره فهو كرامة ومن لا فهو مستدرج به، وما يظهره إستدراج فالإلهامات المخالفات للشّرع مردودة وباطلة وأهلها أهل الكفر والضّلال، فلا داعي إذن لانتقام الله تعالى منه فوراً بعد وضعه هذا الميزان، بل فيبقيه إستدراجاً وإمتحاناً للنّاس، والّذى يغترّ به ويجعله حاكماً على الشّرع فيضلّ ضلالاً بعيداً، والّذي يزنه بالشّرع ويرفضه فيفوز فوزاً عظيماً، اللّهم اجعلنا من الفائزين.

وهنا ننقل لك نبذة من تفسير القرطبي (رضي الله عنه)[١] حيث قال القرطبي بعد تفسيره لهذه الآيات: قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من الباطنيّة إلى سلوك طريق تؤخذ منه الأحكام الشّرعية فقالوا: إنّ هذه الأحكام الشّرعية العامّة إنّما يحكم بها على الأغبياء والعامّة، وأمّا الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النّصوص بل إنّما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ويحكم عليهم بما يغلب من خواطرهم. قالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوّها عن الأغيار، فتتجلّى لهم العلوم الإلهيّة والحقائق الرّبانية، فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشّرائع الكليّات، كما اتّفق للخضر فإنّه استثنى بما تجلى له من العلوم عمّا كان عند موسى من ذلك المفهوم، ولذا قالوا: إستفت قلبك وإن أفتاك المفتون، قال شيخنا بعد هذا العرض: وهذا الّذى قالوه كفر وزندقة يقتل قائله ولا يستتاب منه، لأنّه إنكار لما علم من الدّين بالضّرورة، فإنّ الله تعالى قد أجرى من سنّته وأنفذ من حكمته بأنّ أحكامه لا تعلم إلّا من جهة الرّسول (ﷺ) وهم السّفراء بينه وبين النّاس والمبلّغون عنه أحكامه، اختارهم لذلك قال تعالى: (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) على أحكامه ودينه (وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء) فيجعله رسولاً مبلّغاً لأحكامه إلى النّاس ﴿فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٧٩

---

(١) دعا بهذا الدعاء لنفسه مع القرطبي لينال المدعو به معه ولأنه كان رأيه أن من يدعو لغيره ولا يدعو لنفسه يعد عجبا ومن يدعو لنفسه ولا يدعو لغيره يعد بخلا .

ـ وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سورة الحج الآية/ ٧٥.

والحاصل أنّه حصل العلم القطعيّ وإجماع السّلف والخلف على أنّ لا طريق إلى معرفة أحكام الله تعالى، ولا يعرف شيء منها إلّا من جهة الرّسل، فمن ادّعى طريقاً آخر يعرف به أحكام الله تعالى غير طريق الرّسول فهو كافر يقتل ولا يستتاب منه.

* * *

خاتمة: قال القرطبيّ: ذهب الجمهور إلى أنّ الخضر قد مات، وقال فرقة: إنّه حيّ لأنّه شرب من عين الحياة وإنّه باق في الأرض ويحجّ البيت. واستدلّ الجمهور على موته بأنّه لو كان الخضر حيّاً ويحجّ لوجب أن يكون له في ملّة الإسلام ظهوره ثانياً، قال الرّسول (ﷺ) (أرأيتكم ليلتكم هذه فإنّ على رأس مئة سنة منها لا يبقى ممّن هو اليوم على وجه الأرض أحد) قال القرطبي: وإلى موته ذهب البخاري واختاره القاضي أبوبكر ابن العربيّ، والحديث السّابق ذكره مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمر قال: صلّى بنا رسول الله (ﷺ) ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته فلمّا سلّم قام فقال: أرايتكم ليلتكم هذه فإنّ على رأس مئة سنة منها لا يبقى ممّن هو على ظهر الأرض أحد)[١] أي ممّن هو عليها اليوم لا كلّ أحد أي ينتهى أعمار من وجدوا في تلك اللّيلة على الأرض، كما شرحوا ذلك وذكروا هذا القيد في آحاديث أخرى. أقول: ويدلّ على موت الخضر (ﷺ) قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ وقال الشيخ الآلوسي في شرح متن بدء الأمالى بعد تأييده موت الخضر أنّه لا فائدة في بقائه، وأقول: إنّ أسطورة ماء عين الحياة باطلة لأنّه لو وجدت لاكتشفت فإنّه لم يبق من الأرض ما لم يكتشف[٢] والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر للرّسول (ﷺ) قصّة الرّجل الطّواف في الأرض فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٥٥ الحديث رقم ١١٦.

(٢) يقصد اكتشاف أكثر ما في الأرض وإلّا فإنّه لا زال هناك ما لم يكتشف بعد كمثلث برمودا وسدّ ذي القرنين وغيرها ....

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

(**وَيَسْأَلُونَكَ**) يسألك اليهود أو المشركون بإشارة اليهود وأمرهم المشركين بأن يسألوه كما ذكرنا ذلك في سبب النّزول وعلى كلا التّقديرين إنّ منشأ السّؤال هو اليهود فيكون هنا معجزتان:

الأولى: الإخبار عن الرّجل الطّواف والإخبار باللّقب الّذي اشتهر به هذا الرّجل بين اليهود وفي كتبهم وهو ذو القرنين (**قُلْ**) أيّها النّبيّ في جوابهم (**سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ**) متعلّق بقوله ذكراً، قدّم للفاصلة أي سأتلو وأفصّل عليكم (**ذِكْرًا**) خبراً (**مِّنْهُ**) من ذي القرنين حسب ما أوحى الله تعالى إليّ فإنّه قال جلّ وعلا: (**إِنَّا مَكَّنَّا**) وهبنا التّمكين والقوّة (**لَهُ**). ثمّ بين الله تعالى كيفيّة إعطائه القوّة والتّمكين له، فقال جلّ وعلا: (**وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ**) من القوّة والتّمكين (**سَبَبًا**) يتوصّل به إلى ذلك الشّيء من التّمكين (**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**) فاستعمل أسباب الإستيلاء والقوّة والتّمكين أي السّلطان، ففتح البلاد بلدة بعد بلدة (**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ**) منتهى المعمورة من جانب المغرب، وإلّا فلا مكان يسمّى بمغرب الشّمس، إذ لكلّ مكان مشرق ومغرب، بل كلّ بلدة تبعد عن بلدة مئة وثمانين درجة فهي مغربها والبلدة الأولى مشرق لتلك البلدة، وهكذا فلا مكان له إسم خاصّ يسمّى مغرب الشّمس، ولذلك فسّرنا مغرب الشّمس بمنتهى المعمورة من جانب المغرب من بلدة ذي القرنين، فلمّا بلغ ذلك المكان (**وَجَدَهَا**) أي رأى الشّمس (**تَغْرُبُ**) في ذلك (**فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**) لا شك أنّ غروب الشّمس يختلف باختلاف الأمكنة، فمن كان في بقعة يقع جبل في غربها يرى أنّ الشّمس تغرب على الجبل أو يقال في

الجبل، وإذا كان في مكان يقع البحر في غربه يرى الشّمس تغرب في البحر كأنّها تسقط فيه وإذا كان المرء في رأس جبل عال أو في صحراء لا بحر ولا جبل في جانب المغرب يرى الشّمس قبل الغروب تحمر حمرة شديده تكاد تذهب بالبصر، ثمّ تصير قطعة سوداء كأنّها عين حمئة فمعنى الآية **(وَجَدَهَا تَغْرُبُ)** في صورة **(عَيْنٍ حَمِئَةٍ)** لأنّ العين مدوّرة وإذا كان فيها طين أسود يكون كشكل مدوّر أسود تغرب وتسقط في النّظر **(فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ)**، أو يقال حيث كان المكان الّذى وصل إليه ذو القرنين على شاطىء المحيط الأطلسي وكان يسمّى بحر الظّلمات، فهناك تغرب الشّمس في بحر أسود؛ فيظنّ الرّائي أنّها غربت وسقطت في عين حمئة، ويردّ هذا المعنى الثّاني قوله تعالى: **(وَوَجَدَ عِندَهَا)** أي عند العين وهو البحر المظلم الأسود فوجد هناك **(قَوْمًا)** كثيرين **(قُلْنَا)** لذي القرنين **(يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ)** القوم **(وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ)** تعمل **(فِيهِمْ حُسْنًا)** حسن المعاملة والإحسان إليهم، وهذا القول من الله تعالى لذي القرنين أمّا المراد به القول التّكويني بمعنى قد مكّناه من العذاب ومن الإحسان، وجعلناه يقدر على كليهما مثل قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ أي جعلناها برداً وسلاماً على أبراهيم (عليه السلام)، أو المراد به القول والإباحة له لأنّ يعمل ما شاء من العذاب أو الإحسان حسب شريعة الله الّتى كان عليها ويعمل بها، أو المراد قلنا له على لسان رجل صالح كان معه وناصح له، أو المراد أنّه أوحي إليه وقال له: إمّا أن تعذّب .....إلخ. وتمسّك بهذا المعنى الأخير من قال أنّه نبيّ ووقع الاختلاف في نبوّته قال في بدء الأمالي:

وذو القرنين لم يعرف نبياً كذا لقمان فاحذر عن جدال

أي لم يعرف يقينا ومتّفقاً عليه بل هو محل خلاف بين المحقّقين **(قَالَ)** ذو القرنين **(أَمَّا مَن ظَلَمَ)** وبقي على الكفر ولم يؤمن **(فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ)** نحن في الدّنيا **(ثُمَّ)** بعد عذابنا له في الدّنيا **(يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ)** يوم يموت **(فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا)** منكراً غير معروف لشدّته **(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ)** فيجزي له يوم القيامه عند الله تعالى **(جَزَاءً الْحُسْنَى)** وحسنى مؤنث الأحسن وإنّما أنّثت لأنّه إن قرىء **(جَزَاءَ الْحُسْنَى)** بإضافة الجزاء إلى الحسنى يكون تقديره جزاءَ الأعمال الحسنى، وجزاؤها تكون مثلها نعماً حسنى، وإن قرىء جزاءً بالتّنوين فيكون الحسنى نائب فاعل لجزاء، ويكون المعنى يجزى الحالة الحسنى والله تعالى أعلم. هذا حاله بالنّسبة ليوم القيامة، وأمّا حاله بالنّسبة

للدّنيا فكما قال: (**وَسَنَقُولُ**) نحن (**لَهُ**) في الدّنيا (**مِنْ أَمْرِنَا**) من أوامرنا (**يُسْرًا**) أمراً سهلاً ولا نكلفه بما لا يطيقه بل نحسن معاملته ونحسن إليه.

وهنا سؤالان:

السّؤال الأول: لماذا قدّم في الظّالم أي الكافر عذاب الدّنيا على عذاب الآخرة وفي المؤمن قدّم الإحسان في الآخرة على الإحسان في الدّنيا؟

الجواب: لأنّ الكافر يخاف من عذاب الدنيا أكثر حيث لا يؤمن بالآخرة والعذاب فيها فعذاب الدنيا بالنسبة إليه أهم فقدم، وأما المؤمن فالإحسان في الآخرة أهم عنده من الإحسان في الدّنيا فقدّم الأهمّ له أيضاً، فما أبلغ هذا القرآن والله تعالى أعلم.

السّؤال الثّاني: كيف قال: أمّا من ظلم فسوف نعذّبه وقد قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؟

الجواب: ليس معنى الآية نعذّبه ليؤمن ونكرهه على الإيمان، بل معناه نضرب عليه الجزية ونفرض عليه إطاعة سلطة الإسلام، وهذا هو العذاب فإنّ الإنسان يتعذّب حينما يرى أنّه يحكمه من لا يدين بدينه ولا يعتقد عقيدته، لأنّ المخالف في العقيدة عدوّ؛ ألا ترى أنّ الحروب كلّها على الاختلاف في المبدأ والعقائد الصّحيحة منها والباطلة حتّى أنّ أهل العقائد الباطلة يتقاتلون فيما بينهم، فكلّ واحد يريد السّلطان لعقيدته ولا يحبّ الإنسان أن يحكمه عدوّه الّذي يخالف عقيدته، ولذا قال تعالى: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ سورة الصف الآية(١٤)، ولم يقل على الّذين كفروا إشارة إلى أنّ الاختلاف في العقيدة عداوة ليس فوقها عداوة إن كان صاحب العقيدة مخلصاً لعقيدته والله تعالى أعلم.

* * *

وهكذا أعلن ذو القرنين دستوره بين النّاس (**ثُمَّ**) بعد أن فتح البلاد إلى منتهى المعمورة في جانب مغرب بلدته (**أَتْبَعَ سَبَبًا**) إستعمل أسباب الفتوحات من بلدته مرّة ثانية ومشى وفتح البلاد في جانب المشرق (**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ**) منتهى المعمورة في جانب المشرق (**وَجَدَهَا**) رأى الشّمس (**تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ**) عراة (**لَّمْ نَجْعَل لَّهُم**) للقوم (**مِّن دُونِهَا**) غير الشّمس (**سِتْرًا**) يسترهم من البرد (**كَذَٰلِكَ**) هذا الخبر كذلك أي مثل ما أخبرنا به أو المعنى (**كَذَٰلِكَ**) أعلن ذو القرنين دستوره في الشّرق مثلما أعلن دستوره في

الغرب (**وَقَدْ أَحَطْنَا**) علمنا (**بِمَا لَدَيْهِ**) من القوّة والعمل والقول (**خُبْرًا**) محيطاً لم يخرج من أفعاله وأقواله عن علمنا مثقال ذرّة.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

(**ثُمَّ**) بعد أن وصل مطلع الشّمس (**أَتْبَعَ سَبَبًا**) إستعمل أسباب الفتح وسار بفتح البلاد إلى جهة الشّمال (**حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ**) وصل إلى مضيق بين جبلين ووجد فيه سّداً لا يستطيع من ورائها من العبور إلى أمامها إلّا من هذا المضيق، وهو مضيق في جبال القوقاز فلمّا بلغ ذو القرنين بين السّدين (**وَجَدَ مِن دُونِهِمَا**) قبلهما (**قَوْمًا**) كثيرين متخلّفين (**لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ**) يفهمون (**قَوْلًا**) فلمّا رأى القوم حسن معاملة ذي القرنين وعدله ولطفه بالنّاس (**قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ**) نجمع (**لَكَ خَرْجًا**) مالاً ونقوداً ونعطيك جعالة (**عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا**) يمنعهم من الغارات علينا.

يأجوج ومأجوج:

وهنا من الجدير بالذّكر أن نشرح: من هم يأجوج ومأجوج؟ وأين كانت تسكن هاتان القبيلتان اللّتان قال هذا القوم فيهم أنّهم مفسدون في الأرض أي في أرضنا؟ حيث كانوا يشنّون عليهم الغارات أو في الأرض كلّها، لأنّهم كانوا يشنّون غاراتهم على ما استطاعوا من البلاد، فأقول: قال أبو الكلام آزاد وزير معارف الهند سابقاً وهو مسلم في مقالته: (شخصية ذي القرنين في القرآن): إنّ معظم آسيا الغربية كانت عرضة لهجمات

قبائل (سى نهين) المغوليّة من القرن السّادس قبل الميلاد، وأنّ الزمن الّذي وقفت فيه هذه الهجمات هو زمن ذو القرنين وقبائل (سى نهين) وهي الّتي كانت تسمّى باسم يأجوج ومأجوج سابقاً، ولصدّ غاراتها بنى ذو القرنين السّد الحديدي، فقفل هذا السّد الطّريق الّذى كان يسلكه هؤلاء الهمج لشنّ غاراتهم على آسيا الغربيّة، فأصبح النّاس لا يسمعون لهجماتهم خبراً ومن أي طريق كانت هذه القبائل تشنّ غاراتها. يخبرنا مؤرخو اليونان بأنّه: كان مضيق في جبال القوقاز، وكان هذا المضيق باباً مفتوحاً على المغيرين زمناً طويلاً، فأراد ذو القرنين صون آسيا الغربيّة من غاراتهم؛ فبنى هذا السّدّ الحديدي في هذا المضيق وبين هذين الجبلين، وهذا هو السدّ الّذي ينطبق عليه ما في القرآن الكريم ولا ينطبق على سدّ آخر غير هذا. فإنّ القرآن يقول: إنّ هذا السدّ بني بالحديد وأفرغ عليه النّحاس المذاب ويقع بين جبلين، ولا يصدّق هذا التّعريف أبداً على سدّ غير هذا السد. فرحم الله تعالى آزاد على هذا التّحقيق المفيد وجزاه الله وإيانا خيراً في الدّارين آمين.

* * *

(**قَالَ**) ذو القرنين في جواب القوم حينما قالوا: نجمع لك نقوداً وأموالاً ونعطيك على أن تجعل بيننا وبين يأجوج ومأجوج سدّاً فقال: (**مَا**) المقدار الّذى (**مَكَّنِّي**) ما جعلني متصرفاً (**فِيهِ**) من الأموال ووهبني (**رَبِّي خَيْرٌ**) أكثر من أن أحتاج إلى خراجكم فلا تعطوني مالاً بل (**فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ**) من سواعدكم وعملكم بأبدانكم معنا وتحت إشرافنا فإن تفعلوا ذلك (**أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا**) سدّاً منيعاً وحاجزاً حصيناً، فوافقوا على ذلك وبدأوا بالعمل (**قَالَ**) ذو القرنين للعمال (**آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ**) قطعة فأتوه بها ووضعوها في المضيق (**حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ**) بين طرفي الجبلين من جهة العلوّ وارتفع بقدر إرتفاع الصّدفين، سميّا صدفين لأنّها يتصادفان أي يتقابلان (**قَالَ انفُخُوا**) على هذه الحدائد بالنّار فأتوا بالمنافخ والنّار فنفخوا عليها (**حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ**) جعل الحديد محمرّاً فصار (**نَارًا**) أو كالنّار في الإحمرار (**قَالَ آتُونِي**) بالنّحاس فأذيبوه (**أُفْرِغْ**) أي أصبب (**عَلَيْهِ**) على هذا الحديد الحارّ المحمرّ (**قِطْرًا**) نحاسا مذاباً، فلمّا أفرغ على الحديد النّحاس المذاب، أصبح الحديد والنّحاس كلّه قطعة واحدة وجبلاً من حديد (**فَمَا اسْطَاعُوا**) فما قدر يأجوج ومأجوج (**أَن يَظْهَرُوهُ**) يصعدوا على السدّ لينزلوا منه إلى ما وراءه (**وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**) فيه تقديم وتأخير وتقديره (**وَمَا اسْتَطَاعُوا نَقْبًا**) أي تثقيباً

وشقّاً (**لَهُ**) للسدّ ليخرجوا منه إلى الوراء، فبعد ذلك وقف ذو القرنين ينظر إلى السدّ ومناعته شاكراً الله تعالى (**قَالَ هَذَا**) السدّ وتوفيقي لبنائه (**رَحْمَةٌ**) نعمة (**مِّن رَّبِّي**) أنعم بها علينا (**فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي**) لفتحه (**جَعَلَهُ دَكَّاء**) أو (دكاء) في قراءة، معناه (مدكوكاً) مهدوماً مستوياً بالأرض (**وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**) أراد بذلك يوم القيامة أو علم أنّه سيأتي زمان ويفتح فلا يبقى، وأخبر به معجزة إن كان نبيّاً وكرامةً لأنّه كان وليّاً دون خلاف.

قال سيّد قطب (رحمه الله تعالى): من الجائز أنّ السّد قد انفتح وكانت غارات المغول والتّتار الّتى اجتاحت الشّرق هي إنسياح يأجوج ومأجوج. وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثّوري عن عدوة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أمّ حبيبة بنت أبى سفيان عن أمّها أمّ حبيبة عن زينب بنت جحش زوج النّبي (ﷺ) قالت: إستيقظ الرّسول (ﷺ) من نومه وهو محمرّ الوجه ويقول: ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق بأصبعيه السّبابة والإبهام. قلت: يارسول أنهلك وفينا الصّالحون؟ قال نعم إذا كثر الخبث[1]. وقد كانت هذه الرّؤيا منذ قرون، وقد وقعت غارات التّتار بعدها ودمّرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسيّة على يد هولاكو في خلافة المعتصم آخر ملوك العباسيين، وقد يكون هذا تعبيراً لرؤيا الرّسول (ﷺ)، وعلم ذلك عند الله تعالى وكلّ ما نقوله ترجيح لا يقين. **أقول**: لم يجزم السّيد بذلك لأنّه لم ير تحقيق أبى الكلام آزاد وإلّا لقال على اليقين والله تعالى أعلم.

خاتمة: يتبيّن من هذه الآيات الكريمات أنّه وجد في الزّمان السّابق بقرون ملك صالح، فتح البلاد إلى أن وصل منتهى المعمورة شرقيّ بلدته ومنتهى المعمورة من غربيها ومن شمالها إلى جبال القوقاز، وبنى هناك سدّاً في مضيق كان يأتي منه يأجوج ومأجوج، ويشنّون الغارات على النّاس، فمنعهم هذا السّد من الخروج زماناً طويلاً وكان من صفت الملك ما يلى:

الأوّل: أنّه كان يلقّب بذي القرنين كما نطق به القرآن الكريم.

الثّاني: أنّه كان مسلماً مؤمناً موحّداً لله تعالى، يفتح البلاد لنشر دين الله تعالى وعبادته في الأرض، بدليل قوله تعالى عنه: (أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢٢١ الحديث رقم ٣١٦٨،صحيح مسلم ٤/ ٢٢٠٨ الحديث رقم٢٨٨٠.

فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا*)، وقوله تعالى عنه أيضاً: أنّه قال بعد تمام السدّ: (هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا).

الثّالث: أنّه كان يفتح البلاد لنشر العدل بين النّاس وبثّ الأمن فيهم، لا للسّيطرة وجمع الأموال وكنزها، حيث قال للقوم حينما عرضوا عليه أن يجمعوا له مالاً مقابل أن يبني بينهم وبين الغزاة سدّاً لم يقبل المال بل قال: (مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) هذا، فمن هذا الملك الصّالح؟ **فنقول:** اختلف النّاس فيه فقال بعض المؤرخين: أنّه الإسكندر بن فيلبوس اليوناني. وقد رجّح الإمام الرّازي هذا القول وذكر لترجيحه أدلّة كثيرة ثمّ نسف ترجيحه وأدلّته كلّها بأنّ الاسكندر كان على مذهب أرسطاطاليس وأنّ هذا المذهب باطل، فلا يلائم هذا الّذي ذكره القرآن ومدحه الله تعالى بأنّه كان مسلماً موحّداً. وقال سيّد قطب (رحمه الله تعالى): إنّ إسكندر كان وثنيّاً وكان ذو القرنين موحّداً فليس هو ما ذكره القرآن. ونقل المفسرون منهم الإمام الرّازي عن أبي الرّيحان الهروي أنّه قال: وقيل إنّه أحد ملوك اليمن، وأيّد الرّيحاني هذا القول بأنّ اليمن هم الّذين كانوا يسمون ملوكهم بذى كذا كذي يزن وذى نواس .... إلخ. وأقول: وهذا القول باطل أيضاً لأنّ اليهود لا يسألون عن أشخاص أو حوادث إلّا إذا كان لهم بها صلة، فالحقّ هو ما قال أبو الكلام آزاد في مقالة نشرها في مجلة ثقافة الهند ونشرتها دار البصري ببغداد، عبارة عن خمس وتسعين صحيفة عنوانها (شخصية ذى القرنين في القرآن) حقّق فيها ذا القرنين وحياته من التّواريخ الصّحيحه والكتب المقدسّة والآثار القديمة ونصّ على أنّه: هو (كورش) الّذي وحّد دولة الفرس وماد، وقضى على دولة بختنصر ببابل، وأطلق سراح أسرى بني إسرائيل وأعادهم إلى القدس، وعمّر لهم بيت المقدس من جديد. وأبو الكلام آزاد كان وزيراً للمعارف في الهند، وكان مسلماً وعالماً وفقيهاً ومؤرخاً كبيراً. وهنا نسأل فلماذا سمّي هذا الملك بذي القرنين؟ الجواب: أنّ هناك أقوالاً، فمنهم من قال: لأنّه عاش قرنين، ومنهم من قال: لأنّه ملك الشّرق والغرب، والقول الثّالث: أنّه كان صفحتا رأسه من نحاس، والقول الرّابع: أنّه كان على رأسه ما يشبه القرنين، والقول الخامس: كان لتاجه قرنان، والقول السّادس: كان له ضفيرتان، والقول السّابع: أنّه كان قد سخّر الله له الظلمة والنّور، والقول الثّامن: سميّ بذلك لشجاعته، والقول التّاسع: أنّه رأى في المنام أنّه صعد الفلك فأخذ بقرني الشّمس، والقول العاشر: أنّه دخل النّور والظّلمة. وهذه أقوال كلّها لاسند لها، وأكثرها تخيّل ووهم باطل. فالحقّ ما قاله أبو

الكلام آزاد وهو: أنّ هذا اللّقب كان من اليهود، وهم سمّوه بهذا الاسم لأنّ السّؤال كان منهم، وسبب تسميتهم له بهذا الإسم أنّ بعض أنبياء بني إسرائيل كانوا أسرى في بابل، فرأى نبيّ من أنبيائهم إسمه دانيال كبشاً واقفاً على شاطىء النّهر له قرنان عاليان ينطح بقرنيه غرباً وشرقاً وجنوباً لا قبل لحيوان بالوقوف أمامه، فهو يفعل ما يشاء، وصار كبيراً جدّاً، وبينما أنا أفكّر في هذه الظاهرة إذ رأيت تيساً له قرن واحد أقبل من جهة الغرب وغشى وجه الأرض كلّها ثمّ إقترب من الكبش فكسر قرنيه وصرعه وراءه، واصبح الكبش عاجزاً عن مقاومته، وأنّ الملك جبريل فسّر له رؤياه أنّ الكبش ذا القرنين يمثل اتّحاد المملكتين مادي وفرس فيملكهما ملك قويّ لا تقدر دولة على مواجهته، والتّيس ذو القرن الواحد هو ملك اليونان وهو الإسكندر المقدوني الّذى دمّر المملكة الكيسانية الّتى كانت لخلفاء كورش إلى آخر الدّهر، فكانت لليهود في رؤيا دانيال بشارة بأنّ نهاية أسرهم ببابل منوطة بقيام دولة الكبش ذى القرنين أي موحّد مادي وفار، فلقّبوه بهذا الأسم، وحينما استولى على بابل نادوه بهذا اللّقب ففكّ أسرهم وأعادهم إلى بلادهم وعمّر لهم البيت المقدس.

* * *

هذا ثمّ إلتفت الله تعالى أي حوّل بالكلام من الغيبة في قوله: (فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) إلى التّكلم، والإلتفات أسلوب بلاغي جميل؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾

(**وَتَرَكْنَا**) وبعد أن جعل السدّ مدكوكاً وفتح باب الخروج من المضيق (**تَرَكْنَا**) جعلنا (**بَعْضَهُمْ**) بعض يأجوج ومأجوج (**يَمُوجُ**) يختلط ويدخل (**فِي بَعْضٍ**) النّاس غيرهم، أو المعنى جعلنا بعض النّاس مطلقاً وفي ضمنهم يأجوج ومأجوج (**يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**) إلى أن جاء موعد قيام السّاعة فأمرنا بقيامها (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ**) النّاس كلّهم في ميدان المحشر (**جَمْعًا**) تامّاً (**وَعَرَضْنَا**) أي قرّبنا (**جَهَنَّمَ**) وأريناها (**لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا**) لا

غموض فيها. ثمّ بيّن الله تعالى حال الكافرين؛ فقال جلّ وعلا: (**الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء**) منعهم (**عَن**) رؤية الدّلائل الكونيّة الّتي تدلّ وتثبت لهم حقيّة (**ذِكْرِي**) شريعتي وهي القرآن وشريعة الإسلام، والغطاء هو غطاء الحسد أو الكبرياء أو التّقليد أو حبّ الرّياسه أو المصالح والمنافع الدّنيويّة أو الخوض في شهوة البطن أو الفرج أو الحكم أو غير ذلك ممّا يصدّ النّاس عن الإسلام والدّخول فيه أو عن تطبيقه (**وَكَانُوا**) بهذه الأمور نفسها (**لَا يَسْتَطِيعُونَ**) لا يقدرون (**سَمْعًا**) للآيات والدّلائل القوليّة.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذر كلّ من اتّخذ غير الله وليّاً له فأطاعه في مخالفة شريعة الله تعالى أو قدّسه تقديساً لا يليق به؛ ظناً منه أنّهم ينفعونهم أو يضرّونهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

(**أَفَحَسِبَ**) الاستفهام للإنكار والنّهي أي فلا يعتقد (**الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء**) أي فلا يعتقدوا أنّ اتخاذهم عبادي أولياء من دوني فيخالفون شريعتي لأمرهم أو للفرط في حبّهم أو تقديسهم، فلا يعتقدوا أنّ ذلك ينفعهم كلّا؛ فإنّ ذلك يضرّهم حيث (**إِنَّا أَعْتَدْنَا**) هيأنا (**جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا**) منزلاً ينزلون فيه.

ثمّ بعد أن ذمّ الله تعالى العقائد السيّئة وهي عقيدة اتّخاذ غير الله تعالى وليّاً وناصراً، وأنذرهم بجهنّم، أراد أن يذكر الأعمال السّيئة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

(**قُلْ**) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم للنّاس (**هَلْ نُنَبِّئُكُمْ**) هل نخبركم (**بِالأَخْسَرِينَ**) بالّذين هم أخسر من كلّ النّاس (**أَعْمَالاً**) في أعمالهم في الدّنيا ولا شكّ أنّ الجواب هنا بلى، لأنّ كلّ إنسان يحبّ العلم، قبله أو لا وعمل به أو لا؛ فأخبرهم تعالى فقال لهم:

(**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ**) أي غاب سعيهم وانحصرت أعمالهم (**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) فيعملون لها ولا يعملون للآخرة شيئاً حيث إنّهم لا يؤمنون بالآخرة ولم يؤمنوا بالآيات الّتى تخبر عن الآخرة وبما ينفع للآخرة (**ويحسبون أنّهمْ يُحسنون صُنعا**)[1] **كما قال جلّ وعلا**: (**أُولَئِكَ**) الّذين يعملون للدّنيا فقط هم (**الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ**) الّذين لم يؤمنوا بأحكام (**رَبِّهِمْ**) فلا يطبّقونها ولا يعملون بها (**وَلِقَائِهِ**) وكفروا بلقاء ربّهم وحشرهم عنده وحسابه إيّاهم (**فَـ**) هؤلاء (**حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**) الّتي كانت يعملونها من الإحسانات ومكارم الإخلاق وحسن المعاملات (**فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**) لهذه الأعمال ولا نثيبهم عليها، لأنّ شرط الثّواب على الأعمال أن تكون مبنيّة على الإيمان بالله تعالى والآخرة وشريعة الوقت وهم لا يؤمنون بذلك، فكلّ أعمالهم ضائعة وخاسرة لا ترجع لهم بنفع وربح أبداً (**ذَلِكَ**) الّذي حبطت أعماله في الآخرة ولم توزن ولم يثب عليها (**جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ**) على هذه الأعمال وإن كانت حسنة في الظّاهر كإكرام الضّيف وإسعاف الفقير وغير ذلك، وذلك (**بِمَا**) مصدريّه يؤول (**كَفَرُوا**) مصدر أي جوّزوا هذا الجزاء بسبب كفرهم (**وَ**) بسبب أنّهم (**اتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا**) لعباً وسخروا منهم واستهزؤوا بهم فلم يعملوا لأمر الشّريعة بل لهواهم أو لأمر آخر أو لاتّباع شريعة باطلة لم تكن شريعة الوقت عند الله تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى عاقبة الكافرين أراد أن يذكر عاقبة المؤمنين؛فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

---

(١) قد نسي الشيخ الوالد رحمه الله تعالى تفسير هذا المقطع من الآية، وقد ذكر المفسرون معاني مختلفة منها: ١ـ هم الذين يعملون ما يعملون على غير القواعد والأسس الإسلامية ويظنون أنها تنفعهم وتنفع الآخرين في الدنيا كأصحاب المبادىء والنظريات غير الإسلامية الذين يظنون أنهم يحسنون الصنع للناس والإنسان والإنسانية ويخدمونها مع أنه ثبت أن نتائج أكثر أعمالهم ومبادئهم مدمرة للبشرية وهادمة لبناء المجتمع الإنساني، ٢ـ وكذلك هم المبتدعة الذين يصنعون أعمالاً لم يرد بها الشرع ظنا منهم أنها حسنة وتنفعهم في الآخرة مع أنها ربما تسوقهم تلك الأعمال إلى الشرك والكفر ثم إلى العذاب في الآخرة. ولكن قوله تعالى بعده (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) يدل على المعنى الأول لأن المبتدعة مؤمنون إلا أن نقول بأن البدعة قد تجر في النهاية إلى الكفر كما حصل لليهود والنصارى من قبل.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**) بالله والآخرة والرسول (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) التي توافق الشرع وعملوها لموافقة الشرع فهؤلاء (**كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ**) وهو وسط الجنة (**نُزُلاً**) منزلاً ينزلونها (**خَالِدِينَ**) باقين (**فِيهَا**) فيها مؤبدين لايخرجهم أحد وهم (**لا يَبْغُونَ**) لا يريدون (**عَنْهَا حِوَلاً**) تحولاً وارتحالاً منها فإنه لا يتصور حالة أعلى من هذه الحالة فيريد التحول منها إليها بخلاف الدنيا فإنها لعدم كمالها مهما بلغ حال الإنسان في الإرتقاء فيها لا يستقر الإنسان ولا يطمأن على حال فيها فدائماً يريد التحول من حال إلى حال ودار إلى دار إلى غير ذلك ليدرك الكمال المرموق ولا يناله إلا في الجنة.

حكاية:

يقال أن ملكاً من الملوك بنى قصراً كأبدع ما يبني القصور، فلما تم بناؤه وكان رجل صالح صديقاً له فدعاه إلى قصره ليريه جمال وأبهة قصره، فلما نظر الصالح في القصر سأله الملك: هل ترى فيه عيباً؟ قال: نعم، فيه عيبان كبيران، قال: وما هما؟ قال: إنه سينهدم وإن صاحبه يموت كما قال الشاعر:

لنا ملك ينادي كل يوم ... لدوا للموت وابنوا للخراب

فقال الملك: فهل يوجد قصر لا يخرب وصاحبه لا يموت؟ قال الرجل الصالح: نعم، فوصف له قصور الجنة وأهلها والخلود فيها وأنها تحصل بالأعمال الصالحة. فترك الملك القصر والملك واعتزل واشتغل بعبادة الله تعالى فأصبح ولياً من أولياء الله تعالى. وأقول: لو لم يعتزل الملك عن الملك بل استمر عليه وتاب وعدل بين الرعية وقام بتعزيز شرع الله ونشر عقيدة التوحيد والإسلام لكان خيراً من الاعتزال للعبادة فإنه جاء في الحديث (عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة)[1] ولعل أنه كان للملك معاذير ولله في خلقه شؤون.

* * *

ثم إن الله تعالى بعدما أخبر في هذه السورة عن أشياء كثيرة وحوادث غامضة وعن رموز أراد أن يذكر مدى علمه فقال جلّ وعلا:

---

(١) روي بألفاظ مختلفة أقربها هو (عدل ساعة خير من عبادة سنة) انظر نصب الراية ٤/ ٦٧. وروي بلفظ: (إمام عدل خير من عبادة ستين سنة) المعجم الأوسط ٥/ ٩٢ الحديث رقم ٤٧٦٥.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

(**قُل**) أيها النبي ويا كل مسلم واعتقد بأنه (**لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا**) حبراً (**لِّكَلِمَاتِ**) لمعلومات(**رَبِّي**) فكتبت به (**لَنَفِدَ الْبَحْرُ**) أي لانتهى البحر، والمراد به الإستغراق أي نفد كل البحار (**قَبْلَ**) دون (**أَن تنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي**) كلها (**وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ**) بمثل البحر كله بحاراً (**مَدَدًا**) تقوية لها لنفدت هي أيضاً ولا ولن تنفد كلمات ربي. أقول: إن البحار كلها مركبة من أجزاء لا تتجزأ من الماء وكل هذه الأجزاء معلومة لله تعالى، فلو كتب بكل جزء نفسه لنفد ولا يكفى إلا لنفسه فالبحار لا تكفي إلا لإحصاء مائها فقط وتبقى باقي معلومات الله من السموات وما فيها والأرض وما فيها والبحار وما فيها من غير الماء دون كتابة وعدّ وإحصاء، فما أوفر علم الله! اللهم علمنا من لدنك علماً ننتفع به في الآخرة ويوم لقائك يا الله.

ثم بعد أن جاء الرسولﷺ بهذه الأخبار وأعجب الناس فلكي لا يزل المسلمون كما زل غيرهم من الملل فيقودهم هذا الإعجاب إلى أن يجعلوا رسول اللهﷺ إلهاً أو ابن إله وليعلموا أن العبد مهما بلغ من الكمال لا يخرج عن كونه بشراً وعبداً لله تعالى فلهذا كله قال تعالى مخاطباً رسوله:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

(**قُلْ**) أيّها الرّسول (ﷺ) للنّاس جميعاً وبلغهم قائلاً: (**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**) آكل وأشرب ويعتريني ما يعتري على البشر إلّا أنّه (**يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ**) موجدكم والمشرّع لكم (**إِلَهٌ وَاحِدٌ**) لا مؤثّر سواه ولا موجد سواه ولا مشرّع سواه بحقّ وكلّ من سواه ممّن يعبد أو يشرّع فهو باطل (**فَمَن كَانَ يَرْجُو**) أي يريد ويجب (**لِقَاء رَبِّهِ**) بوجه أبيض ومنعَماًعليه من قبله بالنّعيم في الجنّة (**فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا**) فليعمل وفق ما شرع الله تعالى له وليعمل ما جعله الله واعتبره صالحاً في شريعته (**وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**) بأن يرائي أو يخالف أمر الله تعالى لأمر غيره أو يعتقد فيه نفعاً أو ضرّاً بدون إرادة الله تعالى في طريق الأسباب أو بسلطته الغيبيّة وراء الأسباب، فمن عمل لله هذا

العمل وأخلص لله هذا الإخلاص ووحدّه هذا التّوحيد فإنّه يلقى ربّه وهو راضٍ عنه وينعم عليه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد يوم القيامة وفي الحياة الآخرة وآخر الحياة،جعلنا الله تعالى منهم آمين يا ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وأمتّه أجمعين وعلينا آمين.

العبر والعظات:

يؤخذ من هذه السورة العبر والعظات التالية:

١- العلم بقدرة الله تعالى التي تقدر على خرق سنن الكون ونواميس الحياة التى يألفها الناس وصنع المعجزات التي لايدرك الناس حكمها وأسرارها، ويظهر ذلك من رقدة أصحاب الكهف ثلثمائة سنة أو أكثر ثم انبعاثهم بعد ذلك أحياء، فكيف عاشوا هذه الفترة دون أكل وشرب وتمتع بما هو من أسباب الحياة لولا قدرة الله تعالى ويظهر أيضاً من إهلاك جنتي الرجل الفاجر والإطاحة بثروته فجأة بدون تأخير نتيجة دعاء الرجل الصالح عليه.

٢- تقرير أمر البعث واليوم الآخر وما فيه من ثواب عظيم للمؤمنين وعذاب شديد للكافرين ويظهر ذلك من الآية: (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ..........إلى الآية: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) ويظهر أيضاً من الآية: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً .... إلى الآية: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا).

٣- إبتلاء البشر بالحياة الدنيا وزينتها وعاقبة من لم يجعلها بقية باقية يستفيد منها يوم القيامة ويظهر ذلك من الآية: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا).

٤- الصراع الدائم بين الكفر والإيمان والحق والباطل والخير والشر منذ أن خلق الله آدم وأبى الشيطان أن يسجد له.

٥- في السورة تسلية للرسول (ﷺ) وللمؤمنين الذين كانوا يتعرضون لأذى قريش وحثهم على التمسك بالصبر وأنه لا بد من الفرج بعد الضيق.

٦- في السورة بيان لأثر الإيمان في النفوس ويجعلها تختار الهجرة والتولي عن الحياة في سبيل الحفاظ على إيمانها وعدم الخضوع للظلمة والطغاة.

٧- في السورة إشارة إلى أن ما أجرى الله تعالى لأصحاب الكهف ليس بأعجب من خلق السماوات والأرض وما فيها وخلق الإنسان نفسه ولكن المألوف ينسى ويحب الإنسان ويتعجب من الجديد.

٨- أكدت السورة على أن الله تعالى يستجيب دعاء المؤمنين وينعم عليهم كما استجاب دعاء أصحاب الكهف وجعل لهم من أمرهم رشداً واستجاب تعالى دعاء أحد الرجلين فأهلك جنة صاحبه حيث طغى وتكبّر وعصى وكفر.

وهناك عبر كثيرة أخرى نتركها خشيه الإطالة وتحويلاً إلى ذكاء القارئ الكريم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيد الأنبياء محمد وآله ومن اتبعه أجمعين إلى يوم الدين آمين.

سورة مريم

(مكيّة، نزلت بعد فاطر، وآياتها ثمان وتسعون، سميّت بسورة مريم لما فيها من ذكر مريم وكيفيّة ولادتها عيسى (عليه السلام))

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لمّا أخبر الله تعالى رسوله في سورة الكهف بأمور كانت غيباً وخفيّة كلّ الخفاء على قومه وعلى من هو له من أهل مكّة، وعلى أهل الكتاب إلّا المختصّين من أحبارهم ورهبانهم، أراد أن يخبره بأمور أخرى غامضة، وكلّ ذلك ليكون معجزةً له، فإنّه مع أحقيّة هذه لا وصول له إلى العلم بهذه الأخبار إلّا من الوحي، فهو رسول يوحى إليه. إذاً فبدأ تعالى بذكر نبذة من حال زكريّا؛ فقال جلّ وعلا:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾

(كهيعص) قد مرّ الكلام على مثل هذه الحروف المقطّعة **(ذِكْرُ)** خبر لمبتدأ محذوف، أي هذا الّذي نتلوه عليك **(ذِكْرُ)** بيان **(رَحْمَةِ رَبِّكَ)** الّتي رحم بها **(زَكَرِيَّا)**

عليه السّلام (**إِذْ**) متعلّق برحمة ربّك أي رحمة بها (**إِذْ نَادَى**) زكريّا (**رَبَّهُ**) تعالى ودعاه (**نِدَاء**) دعاءً (**خَفِيًّا**) في خلوته وفي أعماق قلبه وحيث لا ينتصر به أحد (**قَالَ**) زكريّا في دعائه (**رَبِّ إِنِّي وَهَنَ**) ضعف (**الْعَظْمُ مِنِّي**) وإذا ضعف العظم ضعف الجسد كلّه (**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**) تمييز محوّل عن الفاعل، إي اشتعل شيب رأسي (**وَلَمْ أَكُن**) فيما قبل (**بِدُعَائِكَ رَبِّ**) أي التّضرع اليك في طلب الحاجات (**شَقِيًّا**) محروماً، فعوّدتني استجابة دعواتي يا الله؛ فاستجب دعائي هذا أيضاً (**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ**) وهم أبناء عمومته، فخفت منهم أن يبدلّوا ويفسدوا (**مِن وَرَائِي**) من بعد وفاتي (**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**) عقيماً لم تلد لي ولداً يخلفني ويحكم حسب أمرك (**فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ**) بأمر كن فيكون وبدون الأسباب الاعتيادية (**وَلِيًّا**) ولداً يلي أمور النّاس حسب شريعتك (**يَرِثُنِي**) النّبوة وإدارة أمور النّاس (**وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**) مرضيّاً ترضى أنت عنه يا ربّنا.

تنبيهان:

التنبيه الأوّل: إنّ قوله: (وَهَنَ الْعَظْمُ) حتّى قوله: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) وقوله: (وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) أخبار ويراد بالأخبار تفهيم المخاطب مضمون الخبر أو تفهيمه بأنّ المتكلّم عالم بمضمون الخبر، والأوّل يسمّى فائدة الخبر، والثّاني لازمها، وكان الله تعالى عالماً بالأمرين، وزكريا كان يعلم بذلك؛ فلذلك يجب حمل هذه الإخبارات على التّضرع والتّحسب والاعتراف بالعجز أمام الله تعالى، والتّرحم منه ليرحم به.

التّنبيه الثّاني: قوله: (فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا) يستعمل من لدنه، ومن لدنك، لما يهبه الله تعالى من غير طريق الأسباب الإعتياديّة، وزكريّا كان يعلم أنّه حسب العادة والأسباب يستحيل أن يكون له ولد، لأنّه بلغ حدّاً من الشّيب لا يولد له، وامرأته بلغت حدّاً يستحيل أن تلد النّساء في هذا الحدّ من العمر حسب العادة، ولذا طلب من الله تعالى أن يهب له الولد من لدنه وخرقاً للعادة.

* * *

ثمّ لمّا دعا زكريّا دعاءه هذا وتضرّع هذا التّضرع إلى الله تعالى، استجاب الله تعالى دعاءه؛ فنودي من قبل الله تعالى وعلى لسان الملائكة وبشّر بأنّه سيرزقه الله تعالى ولداً؛ كما قال جلّ وعلا:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾

(**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا**) نحن الملائكة (**نُبَشِّرُكَ بِغلام**) يولد لك من إمرأتك وانّ (**اسْمُهُ**) عند الله تعالى (**يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**) أي مسمّى بيحيى أحداً، وفي هذا بشارتان:

الأولى: أنّه يولد له ولد.

الثانيّة: أنّه يعيش ويعمر لأنّ يحيى بمعنى يعيش، فتعجّب أبو يحيى من هذه البشارة فقال: ما قال تعالى مخبراً عنه جلّ وعلا:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾﴾

(**قَالَ**) أي زكريّا (**رَبِّ أَنَّى**) كيف (**يَكُونُ لِي غُلامٌ**) ولد (**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**) لم تلد إلى الآن وصلت إلى حدّ من العمر يستحيل أن تلد المرأة في ذلك الحدّ (**وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ**) من الشّيب (**عِتِيًّا**) من اليبس. هذا ولم يقل زكريّا ذلك استبعاداً لقدرة الله تعالى على ذلك، فإنّ ذلك تعدّ لا يليق بعوام من المسلمين فكيف بنبيّ من الأنبياء، بل أراد أنّه كيف يرزقه الولد؟ هل يرجع به وبامرأته إلى الشّباب أو يرزقه على هذا الحال، فأجابه تعالى على لسان الملك (**قَالَ**) الملك لزكريّا (**كَذَلِكَ**) الأمر كما قلت، فإنّ امرأتك عاقر وأنت قد بلغت من الكبر عتيّاً ولكنّ (**قَالَ رَبُّكَ هُوَ**) أي إيتاء الولد له وهو وامرأته (**عَلَيَّ**) على هذا الحال (**هَيِّنٌ**) سهل جدّاً (**وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا**) موجوداً فمن قدر على خلقك أولاً من العدم قادر على خلق الولد منك ومن إمرأتك.

سؤال: إنّ تعجّب زكريا كان لأنّ إيتاء الولد له يكون من أسباب لا تليق بوجود الولد وهي الأب الفاني والأمّ العاقر العجوز، ولكنّ زكريا وجد من أبوين صالحين للولادة فكيف يكون هذا جواباً لدفع تعجّبه؟

الجواب: والله تعالى أعلم، أنّ المراد بقوله: (وَقَدْ خَلَقْتُكَ) خلقت أصْلك وهو آدم

(مِن قَبْلُ) قبل وجودك (وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) موجوداً حيث خلق آدم بدون أب وأمّ[١]، فمن قدر على هذا الخلق، فهو قادر على خلق الولد من أبوين عاجزين، فآمن زكريّا بالبشارة إلّا أنّه أراد أن يطمئن قلبه مثل ماقال سيّدنا ابراهيم: ﴿بَلَى وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٦٠. ولذا قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾

(**قَالَ**) زكريّا (**رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً**) علامة أعرف بها حبل امرأتي ويطمئنّ بها قلبي (**قَالَ**) تعالى (**آيَتُكَ**) أن يحبس لسانك فتصير (**أَلَّا تُكَلِّمَ**) أي لا تقدر أن تكلّم النّاس (**ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا**) تماماً، فانحبس لسانه (**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى**) أي أشار (**إِلَيْهِمْ**) باليد (**أَن سَبِّحُوا**) أن صلّوا (**بُكْرَةً**) صلاة صبح (**وَعَشِيًّا**) وصلاة عشاء.

لطيفة: جعل الله تعالى العلامة حبس اللّسان، والله تعالى أعلم، لأمرين:

الأوّل: أن يريه أنّ الله تعالى جعل اللّسان الصّالح للكلام عاجزاً عنه، ثمّ جعله صالحاً مرة أخرى ليعلم أنّ الله يقدر أن يجعل الأبوين العاجزين عن الإيلاد صالحين له.

الثّاني: أن يعاتب عبده زكريّا بحبس لسانه لأنّه أطال الكلام وتردّد مع الله تعالى.

* * *

ثمّ بعد ذلك حملت امرأة زكريّا بيحيى، فلمّا انقضى مدّة الحمل ولدت يحيى فخاطبه الله تعالى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

---

(١) ولا مانع من أن يكون المعنى خلقتك من قبل أن تتصل نطفة والدك ببويضة أمك ولم تك شيئا موجودا آنذاك.

(**يَا يَحْيَى**) إن كان هذا الخطاب من الله تعالى وحياً فهو نبيّ منذ صغره كما هو المشهور، وإن كان خطاب تكوين مثل (**يا جبال أوّبي**) فليس نبيّ حينئذٍ، وقد حقّقت في تفسير سورة يوسف أنّ الأصحّ: أنّه لم يصر يحيى ولا عيسى ولا يوسف أنبياء إلّا بعد أكمال أربعين سنة، خلاف ما اشتهر بين النّاس ومشى عليه بعض المفسّرين، فالمعنى قلنا ليحيى قول تكوين (**خُذِ الْكِتَابَ**) أي التّوراة (**بِقُوَّةٍ**) بجدّ واهتمام فكونّاه كذلك (**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ**) الفقه في الدّين (**صَبِيًّا**) حال كونه صبيّاً (**وَحَنَانًا**) وأتيناه حناناً أي شفقة (**مِّن لدنّا**) وحبّاً فهو يحبّنا ونحن نحبّه (**وَزَكَاةً**) وأتيناه طهراً ممّا لا يليق بعباد الله تعالى (**وَكَانَ تَقِيًّا**) مجتنباً كلّ ما يكرهه الله تعالى من العقائد والأعمال والأخلاق والأحكام (**وَبَرًّا**) وكان برّاً أي محسناً (**بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا**) ولم يكن متكبّراً ومتعالياً عن الحقّ (**عَصِيًّا**) بانحرافه إلى الباطل فلم يصدر منه شيء من ذلك (**وَسَلَامٌ**) ورحمة كثيرة من الله تعالى تنزل (**عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**) بعد الممات ويوم القيامة، فأعظم بيحيى وأكرم به؛ إذ وصفه الله تعالى بهذه الصّفات الجليلة، اللّهم وارحمنا معه أيضاً أمين.

خلاصة قصّة زكريّا ويحيى (عليهما السّلام): قال الشّيخ عبدالوهاب النّجار في قصصه للأنبياء:

لم يذكر نسب زكريّا في القرآن ولا في كتب الأنبياء عند أهل الكتاب، ويوجد زكريّا آخر ليس له قصّة في القرآن أصلاً، وهذا له كتاب من الكتب القانونيّة عند النّصارى وهو زكريّا بن برخيا، وكان في زمن داريوس أي قبل زمن المسيح بما يقرب من ثلاثة قرون، وهو الّذي تكلّم في كتابه من الفصل التّاسع عن ولاية عمر بن الخطّاب وتغلّبه على أورشليم ودخوله فيها منصوراً وادعاً راكباً على حمار، أمّا زكريا أبو يحيى فيظهر أنّه كان ممّن لهم شركة في خدمة الهيكل وعلى ذلك فهو (لاوي). وأنّ أمرأة عمران والدة مريم لمّا نذرت ما في بطنها لخدمة الهيكل جاءت بها إلى خدّام الهيكل، فكلّ واحد منهم أراد أن يكفلها هو، فالقوا قرعة على ذلك، فكانت مريم نصيب زكريّا فقام بأمرها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك إذ يقول جلّ وعلا خطاباً للرّسول: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٤٤. وكان زكريّا زوجاً لخالة مريم، والتّعبير عن عيسى ويحيى بابني الخالة في حديث المعراج فيه تجوّز، لأنّ عيسى ابن بنت خالة يحيى، فكان زكريّا يرعى مريم

ويرى من مريم آيات الله الباهرات الّتي أكرم الله تعالى بها مريم، فكانت ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٣٧. وكان زكريّا قد بلغ من الكبر عتيّاً واشتعل رأسه شيباً، وكانت امرأته عاقراً لاتلد، وبلغت درجة اليأس من أن تلد. وكان في نفس الوقت يخشى من بني اسرائيل الّذين يلون الرّياسة من بعده أن يغلو لما يعلم من حالهم وعدم تمسّكهم بالشّريعة، فلمّا رأى من مريم من خوارق عادات حفزه ذلك على أن يطرق باب التّضرع والطّلب من الله تعالى ليرزقه ذريّة على خلاف العادة، وخرقاً لقاعدة الأسباب ليذهب من الدّنيا حينما يموت مطمئناً، فكان يناجي ربّه بما يريد (فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٣٩. فراجع زكريّا ربّه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء﴾ سورة آل عمران الآية/ ٤٠. فسأل الله تعالى أن يريه علامة على ذلك ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٤١. فانحبس لسانه عن الكلام ثلاثة أيام، وحملت زوجته بيحيى، وولدت عيسى بعد تمام مدّة الحمل به. وأمّا يحيى (عليه السلام) فيقول أهل الكتاب: أنّ زوجة زكريّا وإسمها (اليصابات) حملت بيحيى في الزّمن الّذي كانت مريم حاملاً بعيسى (عليه السلام) قد ولدت يحيى وليس لدينا ولا لدى أهل الكتاب شيء عن طفولته غير أنّهم يقولون: كان يأوب إلى البريّة ويأكل جراداً وعسلاً، وكان يحيى بارعاً في الشّريعة الموسويّة ومرجعاً مهمّاً لكلّ من يستفتي في أحكامها، وكان أحد حكّام فلسطين يقال له: (هيرودوس) وكانت له بنت أخ يقال لها: (هيروديا) بارعة في الجمال، فأراد عمّها أن يتزوج منها، وكانت البنت وأمّها تريدان ذلك، غير أنّ يحيى لم يرض بهذا الزّواج لأنّه محرم كيف وهو عمها، وعرف عن يحيى أنّه معارض في ذلك الزّواج، فانتهزت أمّ الفتاة إخراج فتاتها إلى عمّها في زينتها ورقصت أمامه، فسرّ منها وطلب إليها أن تقول ما تتمنّاه ليعمله لها، وكانت أمّها لقّنتها أنّها إذا قال لها عمّها ذلك أن تطلب رأس يحيى بن زكريّا في هذا الطّبق. فطلبت البنت من عمّها ذلك، فوفّى لها عمّها الحاكم وقتل يحيى. هذا واليهود يختلفون في جواز تزوّج بنت الأخ وبنت الأخت، فيجيزها الرّبانيون منهم ويمنعها القرّاءون، وحجّة الأوّلين: أنّ بنت الأخ وبنت الأخت لم يذكر حرمتهما في التّوراة، وقد كان يحيى على أكمل صفات الصّلاح

والتّقوى. والظّاهر أنّ الله تعالى رزقه الإقبال على معرفة الشّريعة، فصار عالماً بها في صباه، ويقال: إنّه نبيّ قبل أن يبلغ الثّلاثين من عمره، وكان يدعو النّاس إلى التّوبة من الذّنوب وكان يعمدهم أي يغسلهم في نهر الأردن للتّوبة من الخطايا، وقد اعتمد أي اغتسل منه المسيح (ﷺ) وهم يسمّون يحيى يوحنا المعمدان. ولمّا بلغ المسيح أنّ يحيى قد قتل جهر بدعوته وقام في النّاس واعظاً.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال مريم وكيفيّة ولادة عيسىﷺ؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

(**وَاذْكُرْ**) للنّاس أيّها النّبيّ ويا كلّ مسلم (**فِي الْكِتَابِ**) في القرآن أي حسب ما فيه اذكر حال (**مَرْيَمَ إِذِ**) متعلّق بحال الّذي قدّرناه أي اذكر حالها (**إِذِ انتَبَذَتْ**) حيث اعتزلت (مِنْ أَهْلِهَا) ممّن هم معها في خدمة الهيكل فدخلت (**مَكَانًا شَرْقِيًّا**) مكاناً شرقيّ بيت المقدس (**فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ**) من بينها وبينهم (**حِجَابًا**) لتستتر به فتغتسل (**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا**) جبريل في هذه الحال (**فَتَمَثَّلَ**) دخل في صورة ومثال البشر فأصبح (**لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**) تماماً من حيث الصّورة لا من حيث الحقيقة والصّفات الذّاتية، وفي صورة شابّ أمرد صبيح الوجه ومعتدل القامة (**قَالَتْ**) مريم لهذا البشر (**إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ**) من أن تقرّبني (**إِن كُنتَ تَقِيًّا**) خائفاً من الله ومعاصيه فلا تقربني (**قَالَ**) لها جبريل (**إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ**) إنّما أنا ملك من الملائكة فلا تخافي منّي حيث لا يعصي الملائكة ربّهم، وليس له قوّة الجنس فيتصرّف فيه لك، وأرسلني الله تعالى إليك (**لأَهَبَ لَكِ**) أي لأكون سبباً لأن يهب الله تعالى (**غُلامًا**) ولداً (**زَكِيًّا**) طاهراً تقيّاً من المعاصي ومعصوماً منها:

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا

مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾

(قَالَتْ) مريم **(أَنَّى)** كيف **(يَكُونُ لِي غُلامٌ)** ولد **(وَلَمْ يَمْسَسْنِي)** لم يجامعني **(بَشَرٌ)** بالنّكاح **(وَلَمْ أَكُ)** أصله أكن حذفت النّون للتّخفيف أي لم أكن **(بَغِيًّا)** زانية فأباشر الرّجال بلا نكاح، ولا يكون الولد عادة إلّا من مباشرة الرّجال للنّساء **(قَالَ)** جبريل لها **(كَذَلِكِ)** أي إنّ الأمر كما تقولين، وما باشرت أنت الرّجال لا حلالاً ولا حراماً ولم يصدر منك العمل الجنسي أبداً إلّا أنّه **(قَالَ رَبُّكِ هُوَ)** أي إعطاء الولد لها من غير مباشرة الرّجال **(عَلَيَّ)** عندي **(هَيِّنٌ)** سهل جداً لا صعوبة فيه بالنّسبة لقدرتي (و) أهبه لها **(لِنَجْعَلَهُ)** أي هذا الولد **(آيَةً)** معجزة **(لِلنَّاسِ)** دالّة على عظمة قدرة الله تعالى، وأنّه لا يحتاج في خلق الإنسان بدون رجل وامرأة، كما خلق آدم كذلك وبدون أنثى، كما خلق حواء من آدم بدون امرأة له، ويخلق عيسى بدون رجل ليدلّ هذا الأمر **على** أنّ الوالد والوالدة لخلق الله الإنسان من الأسباب الإعتياديّة، فيقدّر الله تعالى أن يخلقه بدونهما أو بدون جانب منهما، ولذلك نهبك هذا الولد **(وَ)** ليجعله **(رَحْمَةً مِّنَّا)** بالنّاس حيث يهديهم سبيل الرّشاد والصّراط المستقيم **(وَكَانَ)** هذا الأمر وهو خلق عيسى منك يا مريم **(أَمْرًا)** شيئاً **(مَّقْضِيًّا)** قضي به الله تعالى ولا راد لقضائه أبداً. فلمّا انتهى جبريل من كلامه مع مريم واستسلام مريم لأمر الله تعالى نفخ جبريل فيها **(فَحَمَلَتْهُ)** فحملت مريم الغلام **(فَانتَبَذَتْ)** فاعتزلت **(بِهِ)** الحمل **(مَكَانًا قَصِيًّا)** بعيداً عن النّاس لكي لا يطّلعوا على حملها **(فَأَجَاءَهَا)** فساقها **(الْمَخَاضُ)** وهو حركات الولادة وأوجاعها **(إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ)** فوضعت الحمل تحت النّخلة فلمّا وضعته **(قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا)** الحزن الّذي وقعت فيه **(وَكُنتُ نَسْيًا)** أي شيئاً **(مَّنسِيًّا)** لحقارته.

سؤال: كيف جزعت مريم هذا الجزع، والجزع ليس من صفات أهل الصّلاح؟

الجواب: يقال: إنّها لم تجزع لهذا الأمر، لأنّه كان مصيبة في الدّنيا حسب الظّاهر، بل جزعت لأنّها سمعت عند وضع الحمل نداءً يقول: أخرج يا من يعبد دون الله تعالى في الأرض فجزعت لهذه المصيبة في الدّين إلّا أنّه لا يلائم هذا القول أنّه قال جلّ وعلا:

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

لأنّ هذه الآيات تنبئ أنّها جزعت خوف اتّهام النّاس لها بالزّنا (**فَنَادَى**) فنادى الغلام (**هَا**) ضمير مؤنث يعود لمريم (**مِن**) بكسر الميم وسكون النّون أي من تحت مريم لأنّ الولد حينما يولد يقع تحت الأمّ، وقرئ (**مَنْ**) بفتح الميم وسكون النّون أي نادى مريم (**مِن**) الّذي (**تَحْتِهَا**) تحتها وهو الغلام فقال الغلام لأمّه: (**أَلَّا تَحْزَنِي**) لأنّه (**قَدْ جَعَلَ**) قد خلق (**رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا**) جدولاً من الماء (**وَهُزِّي**) وحرّكي (**إِلَيْكِ**) إلى جانبك (**بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**) طريّاً لأنّ المرأة عند الولادة تنفعها الحلاوة (**فَكُلِي**) من هذا الرّطب (**وَاشْرَبِي**) من هذا الجدول (**وَقَرِّي عَيْنًا**) تمييز محوّل عن الفاعل، أي ولتقرّ عينك أي تطيب ولا تدمع ولا تيبس (**فَإِمَّا**) أي فإنّ (**تَرَيِنَّ**) ترئيين (**مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا**) وسألك عن الولد والولادة فلا تجيبيه بل (**فَقُولِي**) بالإشارة (**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**) وأنّ الكلام كان في شريعتهم حراماً على الصّائم، وأشيري إلى أن يكلّموني فأنا أجيبهم، فلمّا رأت مريم هذه الخوارق من كلام الولد وخلق الجدول عندها وإثمار النّخلة الرّطب في غير وقت الإثمار اطمأنت، فحزنها كان للدّنيا ومخافة من النّاس ولومهم إياها كما ذكرنا؛ لأنّ هذه الآيات تؤيد أن جزعها كان لمصيبة دنيويّة. ولعلّ أنّها خافت أن تتّهم بالزّنا فلا يبقى لموعظتها وإرشادها تأثير في قلوب النّاس فتكون المصيبة دينيّة حينئذٍ، والله تعالى أعلم.

ثمّ بعد هذه الخوارق اطمأنّت مريم فرجعت إلى بيتها بالولد فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

(**فَأَتَتْ بِهِ**) أي بالغلام (**قَوْمَهَا**) وهي (**تَحْمِلُهُ**) على يديها فلمّا رأوها وهي تحمل ولداً (**قَالُوا**) لها (**يَا مَرْيَمُ لَقَدْ**) والله (**جِئْتِ**) عملت (**شَيْئًا فَرِيًّا**) عجيباً وأمراً عظيماً (**يَا أُخْتَ هَارُونَ**) يتوهّم بعض النّاس أنّ مريم كانت أخت هارون أخي موسى لهذه الآية،

ولأنّها بنت عمران مثل هارون أخي موسى، وهذا خطأ لأنّ موسى وهارون كانا قبل وجود مريم بأزمنة كثيرة بل إنّهم قالوا لها: يا أخت هارون، لأنّه كان من عادتهم أنّهم اذا وجدوا إمرأة صالحة كنّوها بأخت هارون، أي إنّها مثله في الصّلاح، وقيل: كان فيهم رجل فاجر إسمه هارون، فقالوا: يا أخت هارون أي مثله من الفجور. فيا أخت هارون لم فعلت هذا والحال أنّه (**مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ**) أي رجل (**سَوْءٍ**) أي زنا (**وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**) زانية (**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ**) أي إلى الغلام فقالت بالإشارة: أن كلّموه فإنّه يجيبكم فإنيّ صائمة (**قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**) وهو ليس من أهل الكلام ولا يطيقه، فلمّا سمع الغلام كلامهم هذا نطق وأجابهم:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

(**قَالَ**) الغلام وهو في المهد (**إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ**) تعالى ومخلوقه (**آتَانِيَ الْكِتَابَ**) الإنجيل، والمعنى: إنّه قدّر الله تعالى وقضى في علمه الأزلي أن يؤتيه الكتاب، لأنّه ما أوتي من ذلك الوقت وهو رضيع، إذ من المتّفق عليه أنّه لم يكن عنده الإنجيل في المهد، وكذا قوله: (**وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**) أي جعلني في الأزل وفي علمه نبيّاً وسيحقّقه فيما لا يزال (**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ**) بأن أصلّي حينما بلغت (**وَالزَّكَاةِ**) حينما جعل لي المال، إذ من المحقّق أنّه ما كان يصلّي في المهد ولا كان يزكّي (**مَا دُمْتُ حَيًّا**) أعيش في هذه الدّنيا، وهذا أيضاً دليل على أنّ معنى (**آتاني الكتاب**) أي الأزل وفيما لا يزال حينما أبلغ رشدي (**وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**) في الأزل وسيحقّقه حينما جاء وقته لا أنّه نبيّ في ذلك الوقت وهو رضيع. هذا وقد حقّقت في تفسير سورة يوسف عند الآية (**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ**) أنّ أحداً من الأنبياء لم يكن نبيّاً إلّا بعد أربعين سنة من عمره (**وَبَرًّا**) وجعلني الله تعالى برّاً أي محسناً (**بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا**) متكبّراً على النّاس (**شَقِيًّا**) أي عاصياً أمر الله في حقّ والدتي (**وَالسَّلامُ**) والرّحمة (**عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**) يوم القيامة.

وهنا تنبيهات مفيدة جداً:

التّنبيه الأوّل: قد جاء جبريل مريم في صورة البشر لا في صورته الأصليّة لتستأنس

به وبكلامه لأنّه لا يقدر على رؤية جبريل في صورته الأصليّة والكلام معه إلّا الأنبياء والمرسلون. وإنّ الّذي ثبت أنّ الرّسول (ﷺ) رآه في صورته الأصليّة مرّتين وباقي الأوقات كان يراه في صورة دحية الكلبي وهو حسن الوجه والمنظر.

التّنبيه الثّاني: قالت مريم: (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ) ولم تقل: أعوذ بالله لتلتجئ إلى الله تعالى باسمه الرّحمان ليرحمه فيعيذها من هذا البشر وليتذكّر هذا البشر الرّحم والشّفقة فيتركها ولا يتعرّض لها.

التّنبيه الثّالث: قد يخطر ببال بعض النّاس أنّ جبريل وهو قد تمثّل في صورة البشر وصار بشراً، فعقد الله تعالى الزّواج بينه وبين مريم، وإنّ هذا الخطر من الشّيطان لأنّ الملائكة حينما يتمثّلون بصورة البشر لا يتّصفون بصفاتهم من الأكل والشّرب والجنس بدليل أنّ الملائكة حينما جاؤوا سيّدنا إبراهيم أحضر لهم طعاماً فلم يأكلوا واعتذروا عن الأكل بأنّهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتّصفون بصفات البشر قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ*﴾ سورة هود الآية (٦٩-٧٠) ـ وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ*﴾ سورة الذاريات الآية (٢٤-٢٨). فالملائكة وإن تمثّلوا بصورة غيرهم لا تتبدّل حقيقتهم وصفاتهم الحقيقيّة أبداً.

التّنبيه الرّابع: ولد عيسى (ﷺ) من أمّ بلا أب لأنّ النّاس في ذلك الزّمان مالوا إلى المادّة وتوغّلوا فيها، واعتقدوا أنّه لا يوجد مسبّب بدون سببه، وأنّ الأسباب تخلق المسبّبات وأنّ الله تعالى لا يقدر على خلق شيء بدون أسبابه، وأنّ الأسباب يوجب على الله تعالى خلق المسبب كنظريّة الفلاسفة اليونانيين، فخلق الله تعالى عيسى بدون سببه وهو الأب وجعل معجزاته كلّها أموراً خارقة لقاعدة الأسباب والمسبّبات ليرجع النّاس إلى عقيدة أنّ الله هو المؤثّر وأنّ الأسباب أمور عاديّة، هو جعلها أسباباً حسب العادة، فله أن يخالف الأسباب وأن يبدّل الأسباب وأن يعمل بدون أسباب، وأنّه على كلّ شيء قدير ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

التّنبيه الخامس: ركنت مريم حينما جاءها المخاض إلى جذع النّخلة، لأنّه من عادة

النّساء أنّهن يعتمدن بظهرهنّ على إنسان أو شيء آخر عند الولادة؛ لأنّه بذلك تسهل الولادة وتقلّ آلامها، وخلق الله لها الرّطب من النّخلة لأنّ أكل الحلاوة ينفع النّساء بعد الولادة.

التّنبيه السّادس: إنّ الصّلاة والزّكاة فريضتان قديمتان، فقد كانتا واجبتين في شريعة عيسى (عليه السلام) حيث قال: (وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) وكانتا واجبتين في شريعة موسى (عليه السلام) أيضاً قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٨٣. بل وكانتا واجبتين في شريعة ابراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) قال تعالى في هذه السّورة ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا*﴾ سورة مريم الآية/ ٥٤.

التّنبيه السّابع: أوّل ما أنطق الله تعالى عيسى (عليه السلام) أنطقه بقوله: (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ) ليعلم النّاس أنّه مهما بلغ الإنسان في الإرتقاء العلمي أو الرّوحي فلا يزال يكون عبداً لله تعالى، وليكذب الّذين يقولون أنّ عيسى إله أو ابن إله أو ثالث الآلهة.

التّنبيه الثّامن: إنّ عيسى (عليه السلام) كما دفع التّهمة بأنّه إله أو ابن الله بقوله: إنّي عبدالله.... إلى آخر أقواله، فكذلك رفع التّهمة بهذه الأقوال عن أمّه حيث اتّهموها بالزّنا لأنّ مثل هذا المولود لا يولد من الزّنا وأنّه لايكون برّاً بوالدته لو كانت زانية والله تعالى أعلم.

* * *

فائدة: قوله: (فَإِمَّا تَرَيِنَّ) أصله ترئيين نقلت حركة الهمزة إلى الرّاء ثمّ حذفت تخفيفاً فصار تريين ثمّ ألحقت به نون التّأكيد وحذفت نون الجمع وحذفت إحدى الياءين لالتقاء السّاكنين فصار ترينّ.

* * *

فائدة أخرى: قوله: (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا) قال البعض (إن) في (إن كنت تقياً) بمعنى ما النّافية، فالمعنى لست تقيّاً، وإلا فكيف تدخل على في هذا الحال ولكنّ التّغيير الأوّل أصحّ.

* * *

فائدة أخرى: قال تعالى في حقّ يحيى (وسلام عليه) وفي حقّ عيسى (والسّلام عليّ)؛ وذلك لأنّ ما قيل ليحيى هو قول الله تعالى فأخبر تعالى أنّه سلام عظيم وكثير عليه، وأمّا ما في حقّ عيسى هو قول عيسى فهو لم يصف سلامه بالتّنكير للتّعظيم فراراً من العُجب وتزكية النّفس بل أخبر أنّه (عليه السلام) دون وصفه بالعظمة أو الكثرة والله تعالى أعلم.

* * *

خاتمة: في خلاصة قصّة مريم وكيفيّة ولادته عيسى (على نبينا وعليهما الصّلاة والسّلام):

قال الشّيخ عبدالوهاب النّجار (رحمة الله تعالى عليه) كان في بني إسرائيل رجل عظيم بين العلماء وكانت له إمرأة صالحة، وقد حملت فنذرت أن تجعل ما في بطنها من الولد محرّراً لخدمة الهيكل، فلمّا وضعت بينت أنّ الّذي انفصل عنها أنثى، والأنثى ما كانت تستخدم في خدمة بيت الله تعالى، فتوجّهت إلى الله تعالى مظهرة تأسّفها فقالت: (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) ولكنّ الله تعالى تقبل مريم لخدمة بيته بالرّغم من أنّها أنثى وأنبتها الله نباتاً حسناً. فلمّا قدمت الأمّ مريم إلى رعاة الهيكل اختلفوا فيمن يرعاها، فاقترعوا فأصبحت القرعة في صالح زكريّا أبي يحيى وكان زكريّا زوجاً لخالة مريم فكفلها زكريّا، فكان زكريّا يرى عند مريم من رزق الله ما لا وجود له عند النّاس فسألها: (يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا؟ قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ) وكانت الملائكة تأتي إلى مريم وتخبرها بأنّ الله تعالى اصطفاها وطهّرها واصطفاها على نساء العالمين في ذلك الوقت أو في كلّ الأوقات، فنشأت مريم نشأة طهر وعفاف، وبعيدة عن سفاسف الأمور وسيّئها، ومكفولة برعاية الله تعالى ومحروسة بحراسته، فلمّا بلغت مبلغ النّساء اتّخذت مكاناً للخلوة فيه فدخل عليها جبريل(عليه السلام) في صورة فتى حسن جميل، فأخذها الخوف والدّهشة حيث ظنت أنّه رجل يريد بها السّوء فقالت له: (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا) فاتركني ولا تتعرّض إليّ، فقال لها جبريل: إنّه ليس بشراً وإنّما هو ملك أرسله الله تعالى إليها ليهب لها غلاماً وولداً زكيّاً فتعجبّت مريم من هذا الخبر فقالت: (أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) فقال جبريل لها: الأمر كما تقولين وأنت عذراء نقيّة تقيّة ولكن لا يصعب على الله تعالى

أن يهب لك الولد بدون مباشرة للرّجال، فإنّه على كلّ شيء قدير. فنفخ جبريل في جيب درعها فحملت مريم بالغلام فوراً، وقد أخبر جبريل مريم بأنّ إبنها هذا يسمّى عيسى ويلقّب بالمسيح وأنّه يكون وجيهاً في الدّنيا والآخرة ومن المقرّبين من الله تعالى، وإنّه يكلّم النّاس في المهد ويعلّمه الله تعالى التّوراة والإنجيل، ويكون رحمة للنّاس لأنّه يهديهم إلى الحقّ وينقذهم ممّا وقع اليهود فيه من الماديّة وتجاوز الحدود وتحريم الحلال وتحليل ما حرّم الله تعالى، ويعيدهم إلى الدّين الصّحيح بعد ما غيّروه وحرّفوه. فلمّا حملت مريم بنفخ الملك في جيبها قيل: إنّها مرّت بجميع أدوار الحمل إلى أن ولدته، فقيل: كانت مدّة الحمل سبعة أشهر، وقيل: ستّة أشهر، وقيل: ثمانية، وقيل: كما حملته فجأةً ولدته فجأةً دون تراخٍ، وليس هنا نصّ يؤيد أحد الأقوال إلّا أنّ العادة تؤيّد القول بأنّ المدّة كانت ستّة أشهر، والإعجاز يؤيّد القول بأنّ الوضع كان كالحمل فجأة ومعجزة والله تعالى أعلم. فلمّا دنا للجنين أن ينفصل التجأت مريم إلى جذع نخلة في الموضع الّذي يُقال له: بيت لحم. ويقال: إنّ الوقت كان شتاءً وكانت النّخلة يابسة، فجاءت إليها مريم لتعتمد عليها ولتستتر من النّاس. وهنا حسبت مريم ألف حساب للوم اللّائمين وماذا تلقّى من قومها فقالت: (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنسِيًّا) فناداها ولدها (مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا*) فلما رأت هذه الخوارق اطمأنت (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا*) (فَأَشَارَتْ) مريم إلى عيسى وقالت بالإشارة أن يكلّموا هذا (قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) فتكلم عيسى (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا*) وهكذا كانت مريم وهكذا كانت ولادته عيسى (عليه السلام).

* * *

ولذلك اختلف النّاس في عيسى كما قال جلّ وعلا:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي

وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

(ذَلِكَ) أي هذا الّذي سمعتم حاله وقاله هو **(عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)** يقول **(قَوْلَ الْحَقِّ)** وهو أنّه عبد الله تعالى أتاه الكتاب وجعله نبيّاً **(الّذِي)** أي الحقّ **(الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ)** يتردّدون ولا يصّدقونه حيث يقولون: إنّه ابن لله تعالى **(مَا كَانَ)** ما يصلح ولا يليق **(لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ)** له **(سُبْحَانَهُ)** تنزّه عن اتخاذ الولد والصّاحبة، وذلك لأنّ الولد إنّما يريده من كان محتاجاً، والله لا يحتاج إلى شيء حيث **(إذا قضى أمراً)** أن يكون **(فإنّما يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)** ذلك الشّيء حسبما أراد فوراً أو بعد زمان قدّر لوجوده وقال عيسى أيضاً: **(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ)** ولا ربّ غيره **(فَاعْبُدُوهُ)** ولا تعبدوا شيئاً ولا أحداً سواه **(هَذَا)** عبادة الله وحده وإطاعته فقط **(صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)** لا عوج فيه ومن سلكه فاز بسعادة الدّارين **(فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ)** اختلف جماعات بني إسرائيل **(مِن بَيْنِهِمْ)** في عيسى فقال بعضهم: إنّه الله دخل بطن مريم وخرج كإنسان، ثمّ جعل نفسه فداءً لخطايا عباده فقتل. وقال البعض: إنّه إله ثان، وقال البعض: إله ثالث، والبعض هو عبد الله تعالى ونبيه **(فَوَيْلٌ)** فطلب للهلاك وتمنّ للموت **(لِّلَّذِينَ كَفَرُوا)** وهم ماعدا البعض الأخير فثبور لهم **(مِن مَّشْهَدِ)** معاينة وحضور **(يَوْمٍ عَظِيمٍ)** وهو يوم القيامة، فحينئذ يتمنّون الموت والهلاك ويقولون: يا ويلاه حيث يستيقنون عذابهم وسوقهم إلى جهنّم وبئس المصير **(أَسْمِعْ بِهِمْ)** أعجب بكثرة سمعهم للحقّ من ذلك اليوم **(وَأَبْصِرْ)** وأعجب بكثرة رؤيتهم للحقّ وإيمانهم به **(يَوْمَ يَأْتُونَنَا)** إلّا أنّه لا يفيدهم هذا السّماع وهذه الرؤيّة شيئاً حيث **(لَكِنِ الظَّالِمُونَ)** الكافرون وهم الأحزاب الضّالة **(الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)** لا يسمعون الحقّ سماع قبول ولا يرونه رؤية الإتّباع **(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ)** يوم يتحسّرون على عدم الإيمان **(إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ)** بعذابهم وسوقهم إلى النّار **(وَهُمْ)** اليوم في الدّنيا **(فِي غَفْلَةٍ)** عن هذا اليوم وهم ينذرون به وبمجيئه إلّا أنّهم يكفرون به **(وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)** تكبّراً وعناداً، ولأسباب أخرى ذكرناها مراراً. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ هذا اليوم يأتي وليس فيه لأحد ملك ولا قوّة فقال: **(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ)** فنأخذها فلا يبقى لأحد

ملك ومال يدافع به (و) يرث كلّ (**مَنْ عَلَيْهَا**) كلّ من على الأرض، فلا يبقى لأحد قوّة يدافع بها عن نفسه (**وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**) كلّهم فنحاسبهم وننتقم منهم، ومن كلّ من كفر بالحقّ وخالفه، ويثيب من اعتنق الحقّ وآمن به وانقاد له.

خلاصة قصّة عيسى (عليه السلام) مع بني إسرائيل:

انحرف بنو إسرائيل عن الصّراط المستقيم وجاوزوا حدود الله تعالى، واستغرقوا في جمع المال من أي طريق كان حلالاً أو حراماً، فعاقبهم الله تعالى بأن حرّم عليهم كثيراً من الطّيبات الّتي كانت حلالاً لهم. كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا ۞ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا۞﴾ سورة النساء الآية (١٦٠-١٦١). وكذلك ابتعدوا عن الأمور الرّوحية والمعنويّة وجنحوا إلى المادّة؛ فأنكر فريق منهم القيامة والحشر، وأنكروا الحساب والثّواب والعقاب، ولذلك إنغمسوا في الشّهوات غير متوقّعين حساباً ولا عقاباً على ذلك، وفي خضم هذه الإعتقادات الفاسدة والأعمال السّيئة الّتي إنتشرت وتعودّها اليهود بعث الله عيسى (عليه السلام) نبيّاً ورسولاً ليعيدهم إلى دين الله الحقّ، وقيل كانت بعثته في الصّبا وقيل في الثّلاثين من عمره، والأصحّ أنّه بعث في الأربعين من عمره كسائر الأنبياء، وذلك سنُّ النّبوة والرّسالة، وقد حقّقنا هذا الموضوع في تفسير سورة يوسف عند قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ سورة يوسف الآية/ ١٥. فلمّا بعث الله تعالى عيسى (عليه السلام) بدأ عيسى يبشر في النّاس برسالته ويدعوهم إلى اتّباعه ويسعى أن يردّ اليهود عن غيّهم وزيفهم الّذي وقعوا فيه، وأن يعيدهم عن ضلالهم ويبيّن لهم ما اختلفوا فيه من الحلال والحرام وغير ذلك من أمور الدّين، ولأن يحلّ لهم بعض الّذي حرّم عليهم، فاصطدم عيسى في دعوته هذه بجدال الصدّوقين، وهم فرقة من اليهود كانوا ينكرون اليوم الآخرة والحياة بعد الموت والحساب هنالك والثّواب والعقاب، وكذلك إصطدم بالرّجال والرّؤساء الدّينيين والّذين انحرفوا في مفاهيمهم الدّينيّة الخاطئة عن مفاهيم التّوراة وحقيقة الدّين وهم الفريسون والكهنة والكتبة، فأفحمهم عيسى (عليه السلام) بحججه القويّة الدّامغة وبيّن فسادهم في الرأي والعقيدة والسّير والسّلوك، ولكنّ العناد والكفر والضّلال بقي كلّ ذلك مسيطراً على هؤلاء وأتباعهم، فلمّا رأى عيسى (عليه السلام) أنّ تيّار الضّلال يطغى وقف في قومه قائلاً: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ

اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٥٢. والحواريّون كان رؤساؤهم إثني عشر رجلاً، فوقفوا مع أتباعهم بجانب سيّدنا عيسى (عليه السلام)، فهنالك شعر رجال الدّين بالخطر الّذي يدهمهم فها هو عيسى ينكر عليهم إنغماسهم في الشّهوات وتهالكهم على الملذّات وبدأ يفضح أسرارهم وينشر بين النّاس مخازيهم؛ فأجمع هؤلاء على مناوأة عيسى وتكذيبه فأرادوا أن يخرجوه؛ فطلبوا منه أن يظهر لهم معجزات تؤيد رسالته؛ فأيّده الله تعالى بما يلي:

١- كان يصنع من الطّين كهيئة الطّير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله تعالى.

٢- كان يمسح على الأكمه، وهو من ولد أعمى، ويدعو فيعيد الأعمى بصيراً بإذن الله تعالى.

٣- كان يمسح على الأبرص ويدعو فيطيب بإذن الله.

٤- كان ينادي ميتاً فيعيده حيّاً بإذن الله.

٥- كان ينبئ عن ما يأكله النّاس ويدّخرونه في بيوتهم.

٦- دعا من الله تعالى أن ينزل مائدة من السّماء ليأكل منها أتباعه، وليطمئن قلوبهم بها فأنزلها الله تعالى فأكلوا منها.

هذا وقد أعطي عيسى (عليه السلام) هذه المعجزات لأنّ النّاس أصبحوا لا يؤمنون بما وراء الأسباب، ويعتقدون أنّ الله لا يستطيع أن لا يخلق الشّيء إذا اجتمعت أسبابه، وسرى إليهم هذه العقيدة من فلاسفة اليونان، فوهب الله تعالى لعيسى هذه المعجزات ليعيد النّاس إلى الإيمان بما وراء المادّة وهو الله تعالى وبأنّ الله على كلّ شيء قدير، فلمّا أيّد الله تعالى عيسى (عليه السلام) بهذه المعجزات أصبحت ألسن معانديه تخرس وأنوار الحقّ تسطع ويزداد عيسى (عليه السلام) قوّة وأتباعاً. ولكنّ اليهود كانوا قساة القلوب فناوؤه وبدؤوا يعملون بكلّ وسيلة لإطفاء دعوته ومنع النّاس من اتّباعه، فلمّا فشلوا في كلّ مؤامراتهم ورأوا النّاس يجيبونه ويتّبعون دعوته وأنّ أتباعه يزدادون قوّة غلبوا عليهم؛ أخذوا يحرّضون الرّومان ضدّه ويوهمونهم أنّ في دعوة عيسى زوالاً لملك قيصر وتقويضاً لسلطانه، فتمكّنوا من حمل الحاكم الرّوماني على إصدار الأمر بالقبض عليه للحكم عليه بالإعدام. فأخذ جنود الرّومان يبحثون عنه، وكان من أصحابه رجل منافق وهو الّذي وشى به، فألقى الله تعالى شبهه على ذلك المنافق، فقبض عليه الجنود

وأسكته الله تعالى فلم يستطع أن يدافع عن نفسه، فنفّذ فيه حكم الإعدام ونجّى الله تعالى عيسى (عليه السلام). هذا وقد اختلف النّاس والعلماء في مصير عيسى (عليه السلام) فمن قائل أنّه رفعه الله تعالى إلى السّماء جسداً وروحاً وحيّاً، ثمّ ينزل في آخر الزّمان ويروّج دين الرّسول محمّد (ﷺ) وهو الإسلام ويقتل الدّجال. ومن قائل يقول: إنّه مات ورفع جسده ميتاً إلى السّماء. ومن قائل: إنّه مات ودفن في الأرض، وقد ذكرنا هذا الخلاف عند قوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٥٥.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من حال سيّدنا إبراهيم عليه السلام فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾﴾

(**وَاذْكُرْ**) أيّها النّبيّ ويا كلّ مسلم أذكر للناس (**فِي الْكِتَابِ**) في القرآن حال (**إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا**) كثير الصّدق (**نَّبِيًّا**) من أنبياء الله تعالى (**إِذْ**) متعلّق بحال الّذي قدرته قبل إبراهيم، أي اذكر حاله (**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ**) واعظاً وناصحاً وداعياً له إلى الله تعالى فقال لأبيه (**يَا أَبَتِ**) يا أبي أبدلت الياء تاء ولا يقال يا أبت إلّا حال التّرحّم والتّلطّف (**لِمَ تَعْبُدُ**) أي تقدّس وتسجد وتعظّم (**مَا لا يَسْمَعُ**) قولك فيجيبك (**وَلا يُبْصِرُ**) حالك فيرحمك (**وَ**) حتّى لو كان يسمع ويبصر (**لا يُغْنِي**) لا يدفع (**عَنكَ شَيْئًا**) عنك شيئاً من الأضرار، أو جعل عدم السّمع والبصر دليلاً على أنّه لا ينفع ولا يضرّ شيئاً، فإنّ ما لا سمع له ولا بصر لا يقدر على شيء، والعبادة هنا بمعنى التّعظيم والتّقديس وإعتقاد النّفع والضّر في الشّيء، لأنّ أبا إبراهيم كان يُقدّس الأصنام ويأمل فيهم جلب الخير

ودفع الشّر ولم يكن للأصنام كلام ونظام كي نفسّر العبادة بالطّاعة (**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ**) بالله والّذي يجب أن يعبد (**مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي**) فإنّه إن اتّبعتني (**أَهْدِكَ**) أرشدك (**صِرَاطًا سَوِيًّا**) مستقيماً، وفي هذه الآية دليل على أنّ أولى النّاس بالدّعوة إلى الله تعالى من هو أقرب الى الدّاعي، كالوالدين ثمّ الأبناء ثمّ الأخوة ثمّ الأقرب فالأقرب (**يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ**) لا تطع (**الشَّيْطَانَ**) في تقديس الأصنام (**إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا**) في الأزل ولم يسجد لآدم وقد أمره الله تعالى بالسّجود له وقال (**للرّحمن**) ولم يقل لله للإشارة إلى أنّ الشّيطان عصى الله تعالى مع كثرة نعمه تعالى عليه ووفور إحساناته إليه، وفسّرنا العبادة هنا بالطّاعة لأنّه لا يوجد أحد يقدّس الشّيطان ويسجد له، وإنّما النّاس يطيعونه في الأمر بالمعاصي والوسوسة بها، وبالسّجود والتّقديس لغير الله تعالى، كما كان أبو إبراهيم يطيعه في هذه الوسوسة والإختلال (**يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ**) إن بقيت على هذا الحال من (**أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ**) أن يصيبك عذاب أليم (**مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا**) مصاحباً وقريناً في النّار، وقال (من الرّحمن) إشارة إلى أنّ الله تعالى مع رحمانيته لا يرضى بعبادة غيره؛ فيعذب من عبد غيره عذاباً أليماً فلا يغتر أحد برحمانيّته، فيحمله ذلك على المعاصي قال تعالى: (**فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**)، فلمّا ألقى إبراهيم قوله هذا إلى أبيه ونصحه هذه النّصيحة ووعظه هذا الوعظ (**قَالَ**) أبوه (**أَرَاغِبٌ**) أمعرض أنت (**عَنْ**) عبادة (**آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ**) فتعبد إلهاً غيرها (**لَئِن لَّمْ تَنتَهِ**) ولم تترك هذا الدّين وهذه العقيدة (**لأَرْجُمَنَّكَ**) لأقتلنك انتقاماً لآلهتي ونصراً لهم (**وَاهْجُرْنِي**) واتركني وتفكّر في حالك (**مَلِيًّا**) دهراً من الزّمان، أعطاه مهلة للتّفكير، فإن رجع إلى آلهته وإلّا فيكون نصيبه القتل ليس إلّا. فأجابه إبراهيم (عليه السلام) كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

(**قَالَ**) إبراهيم لأبيه بعد أن هدده بالقتل (**سَلامٌ**) أي أمان (**عَلَيْكَ**) عليك، فإن هدّدتني فلا أهدّدك وإن عاديتني فلا أعاديك عملاً بقوله تعالى: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون

قالوا سلاماً﴾ فطبّق إبراهيم هذا الخلق العظيم (**سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ**) أطلب من (**رَبِّي**) أن يغفر لك من معاصيك ومن تهديديك إيّاي بالقتل وأنا المحقّ في قولي (**إِنَّهُ**) إنّ ربّي (**كَانَ بِي حَفِيًّا**) رحيماً مكرماً ويقبل دعائي (**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ**) تنادونهم وتستغيثون بهم لدفع المكاره وجلب المطالب فلا أناديهم أنا (**وَأَدْعُو رَبِّي**) وحده فإنّ من سواه لا يقدر شيئاً (**عَسَى**) أرجو (**أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا**) محروماً فيما أدعوه وأطلبه منه (**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ**) وذهب إلى فلسطين (و) إعتزل (**مَا يَعْبُدُونَ**) هؤلاء (**مِن دُونِ اللَّهِ**) تعالى من الأصنام وغيرها من كان وما كان. وهنا تبيّن أنّ الدّعاء وطلب الحوائج من الغير والإعتقاد في الغير أنّه ينفع أو يضرّ بالسّلطة الغيبيّة بدون الأسباب أو بالأسباب بدون إرادة الله تعالى، كلّ ذلك كفر وإشراك بالله تعالى، فحينها إعتزل إبراهيم كلّ ذلك (**وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ**) إبناً له (**وَيَعْقُوبَ**) حفيداً له (**وَكُلاًّ**) من إسحاق ويعقوب (**جَعَلْنَا نَبِيًّا**) من إنبياء الله تعالى (**وَوَهَبْنَا لَهُم**) لإبراهيم وأولاده (**مِّن رَّحْمَتِنَا**) من الأموال والأهل والأتباع (**وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ**) أي قول (**صِدْقٍ**) فيهم وثناءً عليهم بين النّاس إلى يوم القيامة ثناءً (**عَلِيًّا**) جدّاً حيث لا يزال وسيبقون إلى الأبد يصلّون على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في صلواتهم ودعواتهم وغير ذلك من العبادات والأذكار، فصلّى الله تعالى على النّبيّ محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم كما صلّيت وسلّمت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم إنّك يا ربّي حميد مجيد وعلينا بلطفك آمين، أو يقال لأيّ لسان صدقٍ في الدّعوة إلى الله تعالى. هذا وقد ذكرنا قصّة سيّدنا إبراهيم﵇ في سورة إبراهيم مفصّلاً والحمد لله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من حال سيّدنا موسى﵇ فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

(**وَاذْكُرْ**) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم (**فِي الْكِتَابِ**) في القرآن حال (**مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا**) قرأه ابن كثير وإبن عامر المخلِص في جميع القرآن بكسر اللّام إسم فاعل من أخلص، أي أخلص نفسه وعقيدته ودينه وهذّبها ونزّهها من كلّ ما يخالف الحقّ والحقيقة، وممّا يصرفها ويوجّهها إلى غير الله تعالى. وقرأه غيرهم بفتح اللّام إسم مفعول من أخلص أي أخلصه الله تعالى ونزّهه من الصّفات الذّميمة والأخلاق السّيئة

واتّباع الشّهوات. والمآل واحد فإنّ من أخلصه الله تعالى أخلص هو أيضاً، ولكنّ في المريد، قيل: قصد العبد مقدّم على إرادة الله تعالى وفي المراد بالعكس. والحقّ أنّه لا يحصل شيء من العبد إلّا بعد إرادة الله تعالى، فأفعال العباد ومنه العقد مطاوعة لأفعال الله تعالى وخلقه، وإنّما الثواب والعقاب يردان على الإتّصاف (**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**) فسيّدنا موسى (ﷺ) كان مخلصاً (**وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا**) وقد ذكرنا تعريف الرّسول والنّبيّ والفرق بينهما في سورة (يس) مفصّلاً والحمد الله تعالى عند قوله تعالى: (**إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**) فراجعه إن شئت.(**وَنَادَيْنَاهُ**) وكلّمناه (**مِن جَانِبِ**) جبل (**الطُّورِ الأَيْمَنِ**) صفة للجانب أي الّذي يقع على جهة اليمين من موسى وجبل الطّور هو بين مصر ومدين (**وَقَرَّبْنَاهُ**) منّا تقريباً يليق بالله تعالى دون معرفة كيفيّته، فأصبح موسى (**نَجِيًّا**) يناجي ربّه، والمناجاة هو المكالمة السّرية الّتي لا يسمعها إلّا المتخاطبان (**وَوَهَبْنَا**) وجعلنا (**لَهُ**) لموسى (**مِن رَّحْمَتِنَا**) وإكرامنا له (**أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**) معه ليعاونه في أداء الرّسالة والدّعوة في النّاس إلى الله تعالى ودينه الحقّ. هذا وقد ذكرنا قصّة موسى في سورة الأعراف مفصّلاً والحمد لله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سيّدنا إسماعيلﷺ؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾

(**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ**) ابن إبراهيم والجدّ الأعلى للرّسول (ﷺ) ولقريش بعد إبراهيم (**إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ**) إذا وعد وفى به ولم يخلفه، ومن وفائه بالوعد أنّه قال لأبيه حينما قال له أبوه: (**إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى**) قال لأبيه: (**يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**) فوفى بهذا الوعد وصبر حتّى فداه الله تعالى ولم يجزع ولم يخالف أباه (**وَكَانَ**) إسماعيل (**رَسُولاً نَّبِيًّا**) ومعنى نبيّاً هنا أنّه كان رسولاً عالياً في الرّسالة لأنّ كلّ رسول نبيّ، فلولا تفسيره هكذا لكان (نبيّاً) زائداً يجب صون القرآن منه، فيكون (نبيّاً) من النّبوة بمعنى الرفعة والعلوّ (**وَكَانَ**) إسماعيل (**يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ**) بسبب هذه الصّفات الوفاء بالوعد والصّدق فيه والأمر بالصّلاة والزّكاة (**عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا**) فمن أراد أن يكون مرضيّاً عند الله تعالى فليكن آمراً بالصّلاة والزّكاة أهله وغيرهم من النّاس ومؤدّياً لهما، فبذلك وبالوفاء بالوعد

يجمع واجبات الدّين كلّها ؛لأنّ الإنسان حيثما أصبح مسلماً فقد وعد الله تعالى والمسلمين بأداء الواجبات كلّها واجتناب المحرّمات جميعها، ومن وفى بهذا الوعد صار وفياً عند ربّه تعالى، اللّهم اجعلنا منهم آمين.

وقد مرّت خلاصة قصّة سيّدنا إسماعيل مع قصّة سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) في سورة إبراهيم فراجعها إن شئت لزيادة الإستفادة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال نبيّه إدريس عليه السلام فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾

(وَاذْكُرْ) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم **(فِي الْكِتَابِ)** في القرآن **(إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا)** كثير الصّدق **(نَبِيًّا)** من أنبياء الله تعالى **(وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)** أعطيناه منزلةً عاليةً ورتبةً رفيعةً، وقيل: إنّه رفع إلى السّماء، وقيل: إلى الجنّة، هذا واختلف النّاس في إدريس ومنشئه وفي حياته، وليس في الكتاب ولا في السّنة الصّحيحة ما يؤيد قولاً من هذه الأقوال؛ فالأسلم عدم الخوض فيه وتفويض العلم به إلى الله تعالى. وقال الشّيخ عبدالوهاب النّجار: هو إدريس بن يارد بن قينان بن أنوش بن شعيت بن آدم (عليه السلام). ثمّ قال: وذكر ابن اسحاق أنّه أوّل من خطّ بالقلم، وقد أدرك من حياة آدم ثلثمائة وثمان سنين، وقد قال طائفة من النّاس: أنّه المراد في حديث معاوية بن الحكم السّلمي لمّا سأل رسول الله (ﷺ) عن الخطّ بالرّمل فقال (ﷺ): (إنّه كان نبيّ يخطّ، فمن وافق خطّه فذاك)[1]، أي وإلّا فلا. ويذكر النّجار بعد ذلك فيه أقوالاً وروايات ولا يؤيد هو

(١) والحديث بتمامه هو ما رواه الإمام أحمد بسنده عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ بَيْنَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ قَالَ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونِي لَكِنِّي سَكَتُّ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ وَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا شَتَمَنِي وَلَا ضَرَبَنِي قَالَ إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ هَذَا إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَوْمٌ حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَإِنَّ مِنَّا قَوْمًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ قَالَ فَلَا تَأْتُوهُمْ قُلْتُ إِنَّ مِنَّا قَوْمًا يَتَطَيَّرُونَ قَالَ ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ قُلْتُ إِنَّ مِنَّا قَوْمًا يَخُطُّونَ قَالَ كَانَ نَبِيٌّ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ / مسند الإمام أحمد ٣٩/ ١٧٥ الحديث رقم ٢٣٧٦٢.

شيئاً منها بل يردّ بعضها صريحاً، فالله تعالى أعلم بحال إدريس (عليه السلام).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾

(**أُوْلَئِكَ**) المذكورون في هذه السّورة هم من الأشخاص (**الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم من النّبيّين**) في الدّنيا بالشّرف والنّبوة وفي الآخرة بالثّواب بالجنّة والشّفاعة لمن أذن الله تعالى أن يشفع له، وهؤلاء بعضهم (**مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ**) وهو إدريس وأنّهم كانوا كلّهم من ذريّة آدم إلّا أنّه تعالى نسبهم حسب القرب (**وَمِمَّنْ**) وبعضهم من ذريّة (**مَنْ حَمَلْنَا**) إياهم (**مَعَ نُوحٍ**) وهو إبراهيم عليه السلام (**وَ**) بعضهم (**مِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ**) وهو إسماعيل عليه السلام (**وَ**) بعضهم (**إِسْرَائِيلَ**) من ذريّة يعقوب وهم زكريّا ويحيى وموسى وعيسى عليهم السّلام. (**وَمِمَّنْ**) الواو للعطف على النّبيّين، فالتّقدير أولئك الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين (**وَمِمَّنْ هَدَيْنَا**) إياهم (**وَاجْتَبَيْنَا**) إياهم أي اخترناهم للرّسالة والنّبوّة (**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا**) سقطوا (**سُجَّدًا**) ساجدين لله تعالى (**وَبُكِيًّا**) باكين خوفاً منه، فكيف بكم أيّها النّاس، وبكيّاً أصله بكوء جمع باكٍ مثل قعود جمع قاعد، قلبت الواو ياءً فأدغم فيها وكسر الكاف لمجانسة الياء، وقال آيات الرّحمن إشارة إلى أنّهم مع علمهم بكثرة رحم الله تعالى ونعمه على عباده يخافون منه؛ لأنّه ليس هناك أحد يستطيع أن يؤدّي حقّ الله تعالى كما يليق به تعالى:

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا (٦٠) جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣)﴾

(**فَخَلَفَ**) أي فجاء (**مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ**) الخلف بسكون اللّام الذّرية السّيئة وبفتح

اللام الذّرية الصّالحة (**أَضَاعُوا الصَّلاةَ**) فلم يقيموها (**وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ**) عملوا ما تشتهي أنفسهم من الأعمال والأحكام (**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ**) يوم القيامة (**غَيًّا**) أي شرّاً وعذاباً، وفي التّنكير إشارة إلى فخامة هذا الغيّ، وكلّ شرّ عند العرب يقال له الغيّ، وكلّ خير يقال له الرّشاد (**إِلَّا مَن تَابَ**) رجع عن ترك الصّلاة إلى إقامتها وعن الشّهوات إلى ما يرضى به الله تعالى (**وَآمَنَ**) إيماناً صحيحاً (**وَعَمِلَ صَالِحًا**) من الأعمال وهو ما اعتبره الإسلام صالحاً (**فَأُوْلَئِكَ**) التّائبون (**يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا**) من الحسنات فيحسب لهم كلّ ما فعلوه ويجزون به. ثمّ فسر الله تعالى الجنّة فقال: (**جَنَّاتِ عَدْنٍ**) جنّات إقامة لا ارتحال منها (**الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ**) بهذه الجنّات مقابل عبادتهم (**بِالْغَيْبِ**) وعدهم بالوحي الّذي أرسل إلى أنبيائه ولا يخلف الله هذا الوعد حيث (**إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ**) كلّ ما وعد به (**مَأْتِيًّا**) يؤتى به وينفّذ من قبله فـ (**مأتياً**) أصله مأتوى قلبت الواو ياءً وأدغم فيه وكسر التاء لمجانسة الياء (**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا**) في الجنّة (**لَغْوًا**) باطلاً من الكلام (**إِلَّا سَلامًا**) إستثناء منقطع جيئ به لدفع توهم أنّ ليس في الجنّة الكلام قطعاً، ولذا قال: (**إلّا**) ولكنهم يسمعون (**سَلامًا**) كلاماً فيه الخير والحبّ والوداد (**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**) أي دائماً (**تِلْكَ الْجَنَّةُ**) الّتي ذكرنا وصفها هي (**الَّتِي نُورِثُ**) أي نهب (**مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًا**) فيه تقديم وتأخير وتقديره (**نورث من كان تقياً من عبادنا**) وفيه الإشارة إلى أنّ الجنّة توهب لمن جمع بين العبادة والتّقوى معاً. وفي الآيات ردٌّ على من يفتخر بالنّسب أو يطمع فيه، فلكرم عند الله والتّشريف كلّه منوط بالعبادة والتّقوى لا بالنسب والأجداد، وحيث إنّ الله تعالى ذكر أنّ أهل الجنّة ليسمعون سلاماً ومن ضمنه سلام الملائكة، تذكر الرّسول (ﷺ) سلام جبريل واشتاق إليه فنزل جبريل (عليه السلام) فقال الرّسول (ﷺ): لماذا لا تزورنا كثيراً؟ فقال له وحياً من عند الله جلّ وعلا:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

(**وَمَا نَتَنَزَّلُ**) من السّماء إلى الأرض وإلى الأنبياء والمرسلين (**إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ**) فحينما أمرنا ننزل وإلّا فلا نقدر على النّزول (**لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا**) أي أمامنا فلا نتقدم إليه إلّا بإذنه (**وَمَا خَلْفَنَا**) فلا نتأخّر ونرجع إلى الوراء إلّا بإذنه (**وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ**) أي بين الإمام

والخلف، وهو المكان الّذي يكون الشّخص فيه، أي فلا نقف في مكاننا أيضاً إلّا بإذنه، فالتّقدّم والرّجوع والوقوف كلّ ذلك بأمر ربّك **(وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)** فينساك ولكنّه لا يرسلني إليك إلّا حسب المصلحة ووفق الحكمة. ثمّ استدل على أنّ الله تعالى لا ينسى شيئاً فقال جلّ وعلا: **(رَبُّ)** صاحب **(السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)** ومدبّرها **(وَ)**ربُّ مدبِّر **(مَا بَيْنَهُمَا)** فبرحمة هذا يربّي الكون، ولإنعامه على الموجودات يربّي، ومن كان ربّ هذا الكون العظيم كلّه لا ينسى شيئاً، وهو الحقيق بالعبادة فلذلك **(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)** لإطاعة أوامره ونواهيه وعوّدوا النّفس عليها فإنّها شاقّة عليها **(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ)** لله تعالى **(سَمِيًّا)** شبيهاً فتعبده كلا ثمّ كلا.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الآخرة وعذابها ونعيمها ذكر ما يقول الإنسان الكافر في حقّ الآخرة والحياة بعد الموت؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾

(وَيَقُولُ الإِنسَانُ) الكافر ويستفهم إستفهام إنكار فيقول: **(أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ)** مرّة أخرى **(حَيًّا)** كما يقول الرّسول والمؤمنون به **(أَولا يَذْكُرُ الإِنسَانُ)** ولا يعلم **(أَنَّا خَلَقْنَاهُ)** أوجدناه **(مِن قَبْلُ)** قبل هنا الزّمان **(وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)** يذكر بل كان تراباً فجعلناه نباتاً ثمّ جعلناه غذاءً ثمّ جعلناه دماً ثمّ جعلناه نطفةً ثمّ قذف بها إلى الرّحم ثمّ صار علقةً ثمّ مضغةً غير مصوّرة ثمّ صوّرناها ثمّ نفخنا فيها الرّوح ثمّ خرج من الرّحم إلى الدّنيا، فازداد شيئاً فشيئاً إلى أن صار رجلاً يذكر بين النّاس ويعرف، ألا يعلم أنّ من قدر على خلقه هكذا فإنّه يقدر على إعادته بعد الموت، فما أجهل هذا الإنسان وما أكفره.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذره ويوبّخه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

(**فَوَرَبِّكَ**) قسمي (**لَنَحْشُرَنَّهُمْ**) لنجمعنّهم أي لنجمع النّاس كلّهم في ميدان الحشر والحساب (**وَالشَّيَاطِينَ**) مع شياطينهم الّذين يسوقونهم إلى الكفر وإنكار الآخرة أو المعاصي (**ثُمَّ**) بعد الحشر (**لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا**) واقعين على الرّكب، جثيّ جمع جاث، أصله جثوى قلب الواو ياءاً ثمّ أدغم فيه ثمّ كسر الثاءُ لمجاراة الياء (**ثُمَّ**) بعد الحشر (**لَنَنزِعَنَّ**) لنفصلنّ (**مِن كُلِّ شِيعَةٍ**) من كلّ جماعة (**أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا**) جرأةً وسوءاً في الأدب فنلقيهم في جهنّم (**ثُمَّ**) بعد هؤلاء (**لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى**) أي أحقّ (**بِهَا**) بجهنّم (**صِلِيًّا**) دخولاً فيها فيلقى كلّ النّاس في جهنّم الأولى فالأولى إلى أن لا يبقى أحد كما قال جلّ وعلا:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

(**وَإِن**) أي وليس (**مِّنكُمْ**) أيّها النّاس أحد (**إِلَّا**) هو (**وَارِدُهَا**) وارد جهنّم يوم القيامة (**كَانَ**) ورود الكلّ في جهنّم (**عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا**) واجباً أوجبه هو **على** نفسه (**مَّقْضِيًّا**) قضى به فوجب (**ثُمَّ**) بعد ورود الكلّ (**نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا**) الكفر والشّرك والمعاصي ونخرجهم منها (**وَّنَذَرُ**) نترك (**الظَّالِمِينَ**) بالكفر والشّرك أو المعاصي (**فِيهَا جِثِيًّا**) واقعين على الرّكب.

سؤال: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ*﴾ سورة الأنبياء الآية/ ١٠١، ١٠٢. فكيف التّوفيق بين هنا وما في سورة الأنبياء؟

الجواب: إنّ المراد من الورود ليس الدّخول فيها بل الإيقاف في مكان يرونها ويشرفون عليها، ثمّ ينجّي الله المؤمنين ويترك الكافرين يدخلون فيها جثيّاً. أو يقال إنّ الكلّ يدخلونها إلّا أنّ المؤمنين لا يتألّمون بها كما لم يتألّم سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) حينما ألقيَ في النّار. فيكون معنى (وهم عنها) أي عن عذابها وآلامها مبعدون، والقول الأوّل أولى والله تعالى أعلم. وأقول: إنّ الدّنيا وحياتها من جهنّم لأنّ الإنسان جاء إلى هذه الدّنيا نتيجة الخطأ من آدم. فكلّ النّاس يأتون جهنّم حينما جاؤوا إلى الدّنيا ثمّ يوم القيامة ينجّي الله المؤمنين فيدخلون الجنّة ويُبقي الكافرين في النّار والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن موقف الكافرين بعد هذه الأدلّة والإنذارات والتّبشيرات؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾

(**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا**) أي أدلّتنا الدّالة على حقيّة التّوحيد والحشر والحساب، وكانت تلك الآيات (**بَيِّنَاتٍ**) واضحات الدّلالة لا خفاء فيها (**قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا**) في جواب تلك الأدلّة (**أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ**) أي نحن أو أنتم أيّها المؤمنون (**خَيْرٌ مَّقَامًا**) أفضل منزلاً ومسكناً (**وَأَحْسَنُ**) وأجمل (**نَدِيًّا**) مجلساً فالمعنى: نحن منزلنا أحسن من منازلكم ونادينا أجمل من نواديكم، فيدلّ ذلك على أنّنا على الحقّ وأنتم على الباطل ظنّاً منهم أنّ من كان ذا ثروة وقوّة وجماعة وحسن منزل فهو على الحقّ، فردّ الله تعالى عليهم بأنّ المال والغنى والقوّة ليس كلّ ذلك علامة على الحقّ؛ فقال جلّ وعلا: (**وَكَمْ**) وكثيراً (**أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ**) من أهل قرن (**هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا**) منهم (**وَرِئْيًا**) وأجمل منظراً لأنّهم كانوا على الباطل، فلو كان المال والقوّة والغنى وأبهة الدّنيا علامة على الهدى لما أهلك هؤلاء، فالعبرة بالعقيدة والإيمان الصّحيحين لا بالقوّة والغنى، وكأنّ سائلاً يسأل هنا ويقول: فلماذا يعطي الله تعالى المال والقوّة لأهل الضّلال؟ وما الحكمة من ذلك؟ فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

(**قُلْ مَن كَانَ**) مستغرقاً (**فِي الضَّلالَةِ**) والكفر (**فَلْيَمْدُدْ**) أمر بمعنى الخبر أي يمدد (**لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا**) في المال والنّعم امتحاناً واستدراجاً فيمدّ لهم (**حَتَّى إِذَا**) جاء وقت الانتقام منهم (**رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ**) من الانتقام وهو يكون (**إِمَّا الْعَذَابَ**) في الدّنيا وهو القتل والأسر (**وَإِمَّا السَّاعَةَ**) وهو القيامة يعذّبون بالنّار فيها (**فَسَيَعْلَمُونَ**) إذا جاءهم العذاب (**مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا**) منزلاً (**وَأَضْعَفُ جُندًا**) قوةً ونفراً أهم أو المؤمنون ويعني أنّ الكافرين شرّ مكاناً وأضعف جنداً حينئذ (**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**) إلى الخير في

الدّنيا والآخرة (**وَالْبَاقِيَاتُ**) والأعمال الّتي تبقى ذخراً للمرء (**الصَّالِحَاتُ**) الّتي أرتضاها الشّرع (**خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ**) من أموالهم وقوّتهم (**ثَوَابًا**) تمييز محوّل عن الفاعل أي خير ثوابه (**عِندَ رَبِّكَ**) يوم القيامة (**وَخَيْرٌ مَّرَدًّا**) عاقبةً ورجوعاً بالنّفع إلى صاحبها، وهذا وقع جواباً لقولهم: (**أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا**) وإن كان ما لديهم لا خير فيه أصلاً، إلّا أنّه قيل كذلك للمشاكلة والمقابلة فافهم! عن خباب بن الأرث قال: كنت رجلاً غنيّاً في الجاهليّة وكان لي على العاص بن وائل السّهمي دين فأتيته أتقاضاه فقال: لا أعطيك حتّى تكفر بمحمّد، فقلت: لا أكفر حتّى يميتك الله ثمّ تبعث، قال: أو أنّي لميّت ثمّ مبعوث؟ قلت: بلى، قال: فدعني حتّى أموت وأبعث فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك أي أقضي دينك، فنزلت الآية فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

(**أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا**) كفر بدلائل وحدتنا وبأحكامنا (**وَقَالَ لأُوتَيَنَّ**) يوم القيامة (**مَالاً وَوَلَدًا**) هناك كما أو تبيّن اليوم (**أَطَّلَعَ الْغَيْبَ**) فعلم ذلك وأخبر به، والإستفهام للإنكار أي لم يطّلع على الغيب (**أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**) بأن يعطيه هناك مالاً وولداً، والمراد بالعهد الميثاق أو ما يورث الجنّة وهو الإيمان والعمل الصّالح، والإستفهام هنا أيضاً للإنكار، أي لم يتّخذ العهد بأيّ معنى من المعنيين، فلا يقول ذلك إلّا كذباً أو استهزاءً بالإيمان بالآخرة ولذلك (**سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ**) من هذا الاستهزاء (**وَنَمُدُّ**) ونزيد (**لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**) زيادةً كثيرةً (**وَنَرِثُهُ**) ونسلبه (**مَا يَقُولُ**) ويتمنّى من المال والولد هناك (**وَيَأْتِينَا فَرْدًا**) لا مال له ولا ولد.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سبب عبادة المشركين للأصنام،فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

(**وَاتَّخَذُوا**) اتّخذ هؤلاء المشركون (**مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً**) يعبدونهم (**لِّيَكُونُوا**) أي الآلهة

(لَهُمْ عِزًّا) سبب عزّ ينتصرونهم وينقذونهم من العذاب في الآخرة ومن المصائب في الدّنيا **(كَلّا)** لايقدر الآلهة على نصرهم لا في الدّنيا ولا في الآخرة **(سَيَكْفُرُونَ)** تكفر الألهة وتنكر **(بِعِبَادَتِهِمْ)** لهم ويتبرّؤن منهم **(وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا)** يوم القيامة أو المعنى أنّ المشركين يكونون ضدّ الالهة ويكفرون بهم يوم القيامة، وحينما علموا ببطلانهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّه ممّا يتعجّب منه اتّباع هؤلاء للشّيطان وتولّيهم عن الحقّ،فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

(أَلَمْ تَرَ) ألم تنظر لتتعجب من حال الكفرة وهو **(أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ** تَؤُزُّهُمْ) تهيّجهم وتسوقهم إلى الشّر **(أَزًّا)** تهيّجاً شديداً، وذلك لأنّهم أحبّوا الشّر ومالوا إليه ولم يحبّوا الخير وعادوه، فاطلقنا الشّياطين تهيّجهم وتلعب بهم **(فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ)** بالانتقام **(إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ)** الأيام **(عَدًّا)** قليلاً، فإذا انتهت تلك الأيام ننتقم منهم، ثمّ بيّن الله تعالى يوم الانتقام فقال جلّ وعلا: **(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ)** فنفدهم **(إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا)** يرحم بهم ويكرمهم **(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ)** فيردونها **(وِرْدًا)** ففي ذلك اليوم (لا **يَمْلِكُونَ)** أي لا يستطيعون **(الشَّفَاعَةَ)** أي لا يجوز أن يشفعوا لأحدٍ منهم **(إِلّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)** بالشّفاعة بأنْ يؤمن بالله ولا يشرك به ويعتنق دين الله الحقّ، فالمراد بالمجرمين الكافرون وعصاة المؤمنين، فالكافر لا عهد ولا حظّ له في الشّفاعة بسبب كفره، والمؤمن العاصي له العهد والحظّ في الشّفاعة بسبب الإيمان.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر فريةً أخرى يفتريها المشركون؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

(**وَقَالُوا**) أي قال الكافرون: (**اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا**) وذلك لأنّ المشركين يقولون الملائكة بنات الله فيعبدون الملائكة، لذلك وحيث لا يرون الملائكة اتّخذوا لهم تصاوير وهياكل فعبدوها. وبعض اليهود يقول: عزير ابن الله! وبعض النّصارى يقولون: عيسى ابن الله! تعالى الله عن كلّ ذلك علوّاً كبيراً. فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا: (لَـ) والله (**قَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا**) شيئاً فظيعاً (**تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ**) يتشقّقن (**مِنْهُ**) من هذا الكلام فتقع عليهم (**وَتَنشَقُّ الأَرْضُ**) فتبلعهم (**وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا**) أي خروراً فتقع عليهم، فالمعنى أنّهم بهذا الكلام يستحقّون أن تقع السّماوات عليهم أو تنشقّ الأرض بهم أو تقع الجبال عليهم وذلك (**أَن**) لأن (**دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا**) كذباً وافتراءً حيث (**وَمَا يَنبَغِي**) ما يليق (**لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا**) لأنّ الولد لا يتّخذه إلّا المحتاج والله هو الغنيّ المطلق حيث (**إِن**) ليس (**كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ**) من الملائكة (**وَالأَرْضِ**) من النّاس والجنّ وغيرهم فلا أحد من هؤلاء (**إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**) إلّا هو عبد له؛ فلا يكون محتاجاً، وأنّ العبد لا يكون ولداً لمنافاة الملكيّة للبنوّة فلا يجتمعان (**لَقَدْ أَحْصَاهُمْ**) علم بعددهم (**وَعَدَّهُمْ عَدًّا**) كاملاً، والضّمير في أحصاهم راجع إمّا للقائلين بالولد لله تعالى أو لمن في السّماوات والأرض، والأوّل أولى ليكون تهديداً لهم فيلائم قوله: (**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**) فلا أحد ينصرهم وينقذهم من عذابنا والله تعالى أعلم.

ثمّ لما أنذر الله تعالى المشركين أراد أن يبشّر المؤمنين؛ فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**) بوحدة الله تعالى وبالإسلام (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) أنجزوا الأعمال الّتي اعتبرها الإسلام صالحة فهؤلاء (**سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**) مودّة وحبّاً له وعاقبة لهذا الحبّ وهو النّعيم المقيم في الآخرة وحبّ النّاس له في الدّنيا أيضاً. روى البخاري ومسلم عن النّبيّ (ﷺ) انّه قال: (إذا أحبّ الله سبحانه وتعالى عبداً دعا جبريل (عليه السلام) فيقول إنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ فلاناً فأحبه؛ فيحبّه جبريل (عليه السلام)، وينادي جبريل (عليه السلام) في أهل السّماء أنّ الله تعالى يحبّ فلاناً فأحبّوه فيحبّه أهل السّماء، ثمّ يوضع له القبول في الأرض)[١].

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٧٥ الحديث رقم ٣٠٣٧. صحيح مسلم ٤/ ٢٠٣٠ الحديث رقم ٢٦٣٧.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله ويهدّئ من أعصابه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

إعلم أنّ الكلام هو في النّفس وحيث لا يمكن للنّاس من العلم بما في النّفس خلق الله تعالى النّطق واللّغة ليعبّر بهما المرء عن ما في النّفس فيفهم الغير وسمّى هذا تيسيراً، والقرآن هو كلام الله تعالى ليس داخلاً تحت لغة أو نطق، وإنّما يفهم حينما يجعله الله تعالى داخلاً في لغة من يخاطبه فقوله: (**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ**) أي إنّما أظهرنا كلامنا (**بِلِسَانِكَ**) بلغتك أيّها النّبيّ (**لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**) لإعطاء البشارة للمؤمنين والإنذار للمعاندين شدّة العناد، فهذه وظيفتك فقط وليس عليك الانتقام ممّن لا يؤمن، وإنّما ذلك من وظيفتنا، وسيأتي وقت للانتقام منهم لأنّ أيّ أمّة عتت وعصت فإنّ الله ينتقم منهم، وذكر لذلك برهاناً، فقال جلّ وعلا: (**وَكَمْ**) وكثيراً (**أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم**) قبل منكريك (**مِّن قَرْنٍ**) حيث آذوا رسولهم ولم يؤمنوا به وأشركوا بالله وانحرفوا عن منهجه (**هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم**) هل ترى منهم؟ (**مِّنْ أَحَدٍ**) كلّا (**أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا**) صوتاً، ولو كان خفيّاً كلّا. ولقومك يوم كسائر الأمم فلا تستعجل فإنّ وعدهم لقريب.

اللّهم عجّل بإهلاك الظّالمين وتدمير الكافرين، وارحمنا برحمتك يا أرحم الرّاحمين، واكتب لنا الأجر في العمل وتحقيق الأمل والخاتمة الحسنى وحسن الخاتمة، وصلّ الله على المولى محمّد وعلى آله وسلّم أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

سورة طه

(مكيّة، آياتها مئة وخمس وثلاثون، نزلت بعد مريم و سميّت بـ (طه) لتصديرِها به)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾

(طه) قد سبق أن فصّلنا الكلام على مثل هذه الحروف المقطعة في أوّل سورة البقرة بحيث لا داعي إلى إعادته، إلّا أنّ الّذي نذكره هنا هو أنّ بعض النّاس يعتقدون أنّ (طه) إسم من أسماء الرّسول (ﷺ) وهذا القول خطأ لوجهين:

الأوّل: أنّ أسماء الرّسول (ﷺ) قد جمعت وليس فيها (طه) إسماً له.

الثّاني: لو كان إسماً له كان يكتب (طاها) لا (طه) كما لا يخفى على من يعرف رسم الخط، وأنّ الّذي حمل هذا البعض على أنّ يقولوا هو إسم الرّسول (ﷺ) على ذلك أنّه هو طلب الرّسول بعده فوراً، فقالوا: إنّ التّقدير: يا طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى، ولو كان دليلهم هذا صحيحاً لوجب أن يقال (حم * عسق) هو إسم الرّسول أيضاً لأنّه خوطب بعده بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ ولم يقل بهذا أحد.

كان رسول الله (ﷺ) يتعب لفرط تأسّفه على كفر النّاس وحرصه على إيمانهم، فأنزل الله تعالى: (**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**) وتتعب هذا التّعب حرصاً على إيمان النّاس ويقال أنّه (ﷺ) كان يصلّي حتّى تتورّم قدماه فنزلت الآية، ويجوز أن يكون

السّبب كلا الأمرين إلّا أنّ الأوّل أنسب بقوله جلّ وعلا: (**إلّا تَذْكِرَةً**) أي ما أنزلنا هذا القرآن (**إلا تذْكِرَةً**) موعظةً (**لِّمَن يَخْشَى**) فعظهم به فإن اتّعظوا فبها وإلّا فقد أديت واجبك من الوعظ والتّذكير ولست مكلفاً بخلق الهداية فيهم، فإنّ ذلك من وظيفتنا. وإنّ هذا القرآن تذكرة لكلّ النّاس إلّا أنّه خصّ لمن يخشى لأنّهم المستفيدون منه، وهذا مثل ما تقول أنّ ماء الفرات عذب لمن شربه وهو في حدّ ذاته عذب إلّا أنّه لا يدرك عذوبته ولا يستفيد منه إلّا من شرب منه (**تَنزِيلاً**) نزل تنزيلاً (**مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى**) جمع عليا مثل كبر في جمع كبرى. ثمّ ذكر الله تعالى إسمه وبعض صفاته وأفعاله بعد الأخبار بنزول القرآن إشارة إلى أنّ من خلق هذا النّظام وأنزل النّاس في هذه الأرض، لا يعقل أن يتركهم دون نظام يعيشون عليه وشريعة يعملون بها ويحلّون بها مشاكلهم ويفصلون بها منازعاتهم، كيف وهو أحكم الحاكمين وكلّ حاكم يضع نظاماً لمن يحكمهم، فلذلك أنزل الله تعالى هذا القرآن ليعملوا به ويطبّقوه وقد أنزله رحمة بالنّاس؛ ولذا قال جلّ وعلا:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾

(**الرَّحْمَنُ**) أي كثير النّعم فلذلك أنزل هذا القرآن رحمةً بالنّاس وإنقاذاً لهم من الجهالة ومن عمل به وطبّقه فاز بسعادة الدّارين (**عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**) معناه استوى عليه إستواءً يليق به وهذا عند السّلف، وعند الخلف معناه استوى واستوى جاء بمعنى إستولى. قال الشّاعر:

قد استوى بشر على العراق — بدون سيف ودم مهراق

وعلى كلا المعنيين يفيد إستلام الحكم على الكون كلّه تكويناً وتشريعاً؛ فلذلك أنزل الكتب وأرسل الرّسل بشرائعه إلى أن ختم ذلك بإنزال القرآن على خاتم النّبيّين محمّد (ﷺ) (**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ**) من أجرام وكواكب ونجوم وشموس وأقمار وملائكة (**وَمَا فِي الأَرْضِ**) من بحار وجبال ووديان ونبات ومعادن وحيوان وأشجار وحبوب وثمار إلى غير ذلك ممّا في الأرض ممّا علم وممّا لا يعلمه إلّا الله تعالى (**وَمَا بَيْنَهُمَا**) من السّحب والأمطار والهواء والرّياح (**وَمَا تَحْتَ الثَّرَى**) وهي الطّبقة السّافلة من

الأرض، فبعدما أعلن تعالى حاكميّته هذه وأنّه بموجب حاكميّته أرسل النّظم وأنزل القرآن أراد أن يعلن محاسبته للعباد وفق نظامه وشريعته، فمن كان سلوكه وحياته وفق شريعته فيثيبه ثواباً جزيلاً، ومن لا فيعذّبه بقدر ما انحرف عنها وأهملها فقال جلّ وعلا: **(وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ)** أي وبالعمل أيضاً أو بسرهما فإنّ الله تعالى يعلمه حيث **(فَإِنَّهُ)** أي الله تعالى **(يَعْلَمُ السِّرَّ)** من القول والعمل من النّاس **(وَ)** يعلم ما هو **(أَخْفَى)** من السرّ وهو قصد العمل في القلب أو التّخيّل له وتصوّره، فلا يخفى على الله تعالى شيء، وسيحاسبكم على كلّ ما تقولون وما تعلمون في السّرّ والعلانيّة **(اللَّهُ لا إِلَهَ)** لا حاكم تكويناً ولا تشريعاً، فهو الّذي خلق الهداية للنّاس ويحاسب النّاس **(لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)** صفة مشبّهة لأفضل تفضيل، والإلزام تفضيل الشّيء على نفسه، أي له الأسماء الحسنة، إذ كلّ إسم يطلق عليه فهو مشتقّ من وصف أو فعل له، فالمعنى كلّ أوصافه وأفعاله حسنة، فإذا نفع أو ضرّ أو هدى أو أضلّ أو أحيا أو أمات أو أغنى أو أفنى؛ فكلّ ذلك منه تعالى حسن؛ لأنّه تعالى لا يفعل شيئاً إلّا وفيه حكمة باهرة ومصلحة خفيّة أو ظاهرة، فيكون حسناً وجميلاً، ولذا قيل: (الحمدلله على كلّ حال) فلا يحزن على ضلال القوم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله بذكر حال موسى (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

(وَهَلْ) إذا كان الاستفهام للتقرير فمعناه قد **(أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)** وإن كان للإنكار فمعناه لم يأتك حديث موسى، فنحن نخبرك بحديثه الّذي كان **(إِذْ)** وقتما **(رَأَى نَارًا)** حسب رؤيته وإلّا كان في الحقيقة نوراً لا ناراً **(فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا)** انتظروا مكانكم وكانوا في أثناء الرّجوع من مدين إلى مصر وضلّوا الطّريق في ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ جدّاً

(**فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا**) حيث (**إِنِّي آنَسْتُ**) وجدت (**نَارًا**) فوق جبل الطّور فأذهب إليها (**لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ**) بشعلةٍ على رأس فتيلةٍ أو عود (**منها**) من تلك النّار (**أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ**) عندها (**هُدًى**) شخصاً يهدينا الطّريق، فإنّ العادة أنّه لا يخلو من أن يكون عند النّار أحد (**فَلَمَّا أَتَاهَا**) وصل عند النّار (**نُودِي**) في جوف النّار وقيل له: (**يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ**) حيث (**إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ**) وهو وادي (**طُوًى**) فلا يليق أن تدخله بالنّعال، وقيل: إنّ معناه أترك الدّنيا والآخرة ولا يكن قصدك إلّا رضائي وامتثال أمري (**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ**) للرّسالة والنّبوّة (**فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى**) إليك وتؤمر به، فعلمه تعالى العقيدة والتّوحيد أولاً، لأنّه أساس الدّين فقال: (**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي**) فأطعني ولا تطع أحداً غيري، ثمّ علمه شعائر دينه فقال جلّ وعلا: (**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**) لتخاف من عذابي وتطمع في ثوابي حيث (**إِنَّ السَّاعَةَ**) الّتي سيجرى فيها الحساب وينفذ الثّواب والعقاب (**ءاَتِيَةٌ**) لا شكّ فيها، وبهذا تمّ أسس الدّين الثّلاثة: الإيمان بالله تعالى وتوحيده والقيام بالأعمال الواجبة والإيمان بالحشر والحساب، فالسّاعة آتية (**أَكَادُ**) إنّ لعلّ وعسى وكاد في كلامِ الله تعالى الّذي يخبرُ به عن نفسه للتّحقيق لا للترّجّي ولا للتّقريب فالمعنى إنّي (**أُخْفِيهَا**) أخفي السّاعة نفسها ووقتها (**لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**) حسب عملها.

سؤال: إنّ الله تعالى لو أظهر السّاعة وكشفها لكانت تجزى كلّ نفس بما تسعى أيضاً، فكيف رتّب هذا على الإخفاء فقط؟

الجواب: إنّ الأفعال حيثما ينسب إلى الشّخص يراد بها الأفعال الاختياريّة فمعنى (**لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**) بما تعمل أختياراً ولو كانت الآخرة ظاهرة مكشوفة لكانوا يعملون إجباراً لا اختياراً، ويكون حالهم كمن شهر السّيف أمام أحد وأمره بأمور، فذلك المأمور يعمل ما أمر به كرهاً لا اختياراً وحباً.

* * *

(**فَلَا يَصُدَّنَّكَ**) فلا يصرفنّك (**عَنْهَا**) عن الإيمان بها والخوف منها والعمل لها (**مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**) فلم يخف عذاب الآخرة ولم يطمع في ثوابها، حيث لئن اتّبعت ذلك (**فَتَرْدَى**) فتهلك كما هلك هو.

ثمّ أراد الله تعالى أن يهب لموسى معجزة يؤيّد بها رسالته ودعوته، فمهّد لذلك تمهيداً فقال له جلّ وعلا:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

(**وَمَا تِلْكَ**) وأي شيء (**بِيَمِينِكَ**) في يدك اليمنى (**يَا مُوسَى**) سأله هذا وإن كان معلوماً له أنّه عصاً ليتنبّه على ما ستصير هذه العصا من الإعجاز، فإنّه لو فوجئ بجعلها حيّة لخاف موسى أكثر ممّا خاف بعد التّنبيه (**قَالَ**) موسى (**هِيَ عَصَايَ**) وليس شيئاً آخر (**أَتَوَكَّأُ**) أعتمد (**عَلَيْهَا**) عند التّعب وعند المشي (**وَأَهُشُّ**) وأسقط (**بِهَا**) أوراق الأشجار (**عَلَى غَنَمِي**) ليأكلها (**وَلِيَ فِيهَا**) في حملها (**مَآرِبُ**) حوائج (**أُخْرَى**) أنت تعلمها ولا حاجة إلى الإطالة بذكرها، وإنّما ذكر الصّفات السّابقة مع أنّه كان يعلم بها الله تعالى أيضاً، قيل: في ذلك حكم أحسنها أنّه أراد أن يطيل الكلام مع الله تعالى للتّلذّذ به، ولم يرد على هذا المقدار خوفاً من إساءة الأدب مع الله تعالى. وحمل العصا سنّة ومنافعها كثيرة، وأجمل تعداد تلك المنافع ما قيل: إنّ الحجّاج لقي أعرابيّاً فقال: من أين أقبلت يا أعرابي؟ قال: من البادية، قال: وما في يدك؟ قال: عصاي أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوق بها دابّتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي لتتّسع خطوتي، وأثب بها النّهر وتؤمّنني من العثر، وألقي عليها كسائي فيقيني من الحرّ ويدفئني من القرّ، وتدني إليّ ما بعد منّي، وهي محمل سفرتي وعلّاقة أدواتي، أعصي بها عند الضّراب، وأقرع بها الأبواب، وألقي بها عقور الكلاب، وتنوب عن الرّمح في الطّعان وعن السّيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي وأورثها بعدي لإبني، وأهشّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى. هذا وانعقد الإجماع على أنّ الخطيب يخطب متوكئاً على سيف أو عصاً، ومن أراد أن يطّلع على كلّ منافع العصا وأحكامها فعليه بمراجعة القرطبي. فلمّا تنبّه موسى على عصاه أراد تعالى أن يريه المعجزة من العصا ويجعلها ما به يعمل المعجزات؛ ولذلك قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

(**قَالَ**) الله تعالى لموسى (**أَلْقِهَا**) إطرح العصا على الأرض (**فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى**) كأنها حيّةٌ تمشي سريعاً.

سؤال: قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ سورة النمل الآية/ ١٠. والجانّ هي الحيّة الصّغيرة الخفيفة وقال: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٠٧. وقال: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ سورة الشعراء الآية/ ٣٢. وقال تعالى هنا: فإذا هي حيّة تسعى فما الحكمة في ذلك ؟.

الجواب: إنّ الحيّة تطلق على الصّغيرة والكبيرة والمراد بها هنا الصّغيرة بقرينة الآية العاشرة من النّمل، لأنّ كلتيهما تذكران موقفاً واحداً لموسى، وهو أوّل ما ناداه الله تعالى بالرّسالة وجعلها الله تعالى حيّةً خفيفةً لكي لا يندهش منها إندهاشاً وخوفاً عظيماً، وما في الشّعراء والأعراف كان عندما طلب فرعون من موسى آيةً أي معجحزةً فجعلها الله تعالى ثعباناً كبيراً ليندهش فرعون من كبر المعجزة، فلمّا أصبحت العصا حيةً تسعى خاف منها موسى وولّى هارباً فناداه الله تعالى: (**قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ**) من أن يضّرك (**سَنُعِيدُهَا**) إلى (**سِيرَتَهَا**) حالتها (**الأُولَى**) وهي كونها عصا، وهذه معجزتك الأولى كلّما ألقيتها تصبح حيّةً صغيرةً أو كبيرةً حسب مقتضى الحال والمقام.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يعطيه معجزةً أخرى فقال له جلّ وعلا:

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾

(**وَاضْمُمْ يَدَكَ**) وحرّك يدك (**إِلَى جَنَاحِكَ**) إلى تحت عضدك وأدخلها فيه، فإذا فعلت ذلك (**تَخْرُجْ بَيْضَاء**) تنير ولها شعاع كشعاع الشّمس (**مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**) دون أن يكون بها برص حال كونها (**آيَةً**) معجزة (**أُخْرَى**) لك تدلّ على صدقك في دعوى الرّسالة وفعلنا لك ذلك (**لِنُرِيَكَ**) بهاتين المعجزتين بعضاً (**مِنْ آيَاتِنَا**) من معجزاتنا (**الْكُبْرَى**) أي الكبيرة لكي لا يلزم تفضيل الشّيء على نفسه فافهم (**اذْهَبْ**) بهذه الآيات (**إِلَى فِرْعَوْنَ**) فادعه إلى عبادتي والعمل بشريعتي حيث (**إِنَّهُ طَغَى**) جاوز الحدّ فإنّه يدعى الرّبوبيّة لنفسه والتّشريع حسب عقله.

قال في الخازن: قال وهب: قال الله تعالى لموسى إسمع كلامي واحفظ وصيّتي

وانطلق برسالتي وإنّك بعيني وسمعي، وإنّ معك يدي وبصري، وإنّي ألبسك حلةً من سلطاني تستكمل بها القوّة من أمري. بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمي وأمن مكري فأجحد حقّي وأنكر ربوبيّتي، وإنّي أقسم بعزّتي لولا الحجّة الّتي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشةً، ولكن هان عليّ وسقط من عيني، فبلّغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذّره نقمتي وقل له قولا ليناً لا يغترّ بلباس الدّنيا، فإنّ ناصيته بيدي ولا يتنفّس إلّا بعلمي، فسكت موسى فجاءه ملك وقال له: أجب ربّك فأجاب موسى كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

(**قَالَ**) موسى حينما رأى عظمة الموقف وشدّة الأمر (**رَبِّ اشْرَحْ**) وسّع (**لِي صَدْرِي**) توسيعاً يتحمل أعباء الرّسالة (**وَيَسِّرْ**) وسهّل (**لِي أَمْرِي**) أمر الرّسالة والتّبليغ والقيام بدعوة النّاس القساة الجفاة إلى عبادتك سيّما فرعون الطّاغي الّذي لا يعرف لغيره قدراً ولا يرى في كلّ ما يفعل وزراً، ويرى نفسه ربّاً وغيره عبيداً له (**وَاحْلُلْ عُقْدَةً**) موجودة (**مِّن لِّسَانِي**) حيث كان لسانه ينعقد عند التكلّم ولا ينطق بالكلام فإنّ حللت هذه العقدة (**يَفْقَهُوا**) يفهموا (**قَوْلِي**) وإلّا فلا يفهمونه (**وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي**) يؤازرني ويساعدني في أداء الرّسالة والقيام بالدّعوة، ثمّ عين من يريده من أهله فقال: (**هَارُونَ أَخِي**) كان أناس آخرون هناك يسمّون بهارون فذكر أخي للتّنصيص عليه (**وَأَشْرِكْهُ**) واجعله شريكاً لي (**فِي أَمْرِي**) في الرّسالة واجعله رسولاً معي (**كَيْ نُسَبِّحَكَ**) تسبيحاً (**كَثِيرًا**) جدّاً ويليق بك و(**وَنَذْكُرَكَ**) ذكراً (**كَثِيرًا**) يجلب لنا رحمتك (**إِنَّكَ**) نذكرك حيث إنّك (**كُنتَ بِنَا بَصِيرًا**) فأنعمت علينا بالرّسالة والنّبوّة وشكراً لهذه النّعمة العظيمة (**قَالَ**) الله تعالى جواباً لموسى: (**قَدْ أُوتِيتَ**) من قبلنا (**سُؤْلَكَ**) ما سألته منّا (**يَا مُوسَى**) فيشرح الله صدره وييسر له أمره وأحلّ له عقدة اللّسان وجعل هارون نبيّاً معه وشدّ به أزره.

ثمّ لما منّ الله تعالى على موسى بهذه النّعم وبإجابة دعائه وإيتاء سؤاله أراد أن يذكر أنّه أنعم عليه في الماضي أيضاً، فلم يزل ولا يزال محفوظاً بعناية ربّه ورعايته الّتي لا رعاية سواها فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

(**وَلَقَدْ**) وبعزّتي لقد (**مَنَنَّا**) أنعمنا (**عَلَيْكَ**) يا موسى (**مَرَّةً أُخْرَى إِذْ**) أنعمنا عليك وقتما (**أَوْحَيْنَا**) ألهمنا (**إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى**) من الإلهامات والفتوحات الرّبّانيّة الّتي تسوق المرء إلى ما يصلح له وينفعه فألهمنا أمّك (**أَنِ اقْذِفِيهِ**) اجعلي ولدك موسى حينما ولدت (**فِي التَّابُوتِ**) في صندوق (**فَاقْذِفِيهِ**) فاطرحي التّابوت (**فِي الْيَمِّ**) في البحر؛ وذلك لأنّ فرعون كان يأمر بقتل كلّ ذكر يولد من بني إسرائيل فخافت أم موسى عليه أن يقتله فرعون وأعوانه، فألهم الله تعالى أم موسى وأمرها في المنام أن تجعله في صندوق فتطرح الصّندوق في البحر فإذا فعلت ذلك (**فَلْيُلْقِهِ**) أمر بمعنى التّخبّر لأنّ البحر كان يطرحه (**الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ**) بأمر من الله فإذا طرحه في السّاحل (**يَأْخُذْهُ**) يلتقطه (**عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ**) وهو فرعون وآله، فلمّا ولدت أم موسى موسى جعلته في تابوت وألقت التّابوت في البحر فألقاه البحر بالسّاحل فالتقطه آل فرعون، وهكذا قدر الله تعالى لك يا موسى (**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**) فكان كلّ من يراه يحبّه حبّاً شديداً فأحبّه آل فرعون وأراد أن يقتله فرعون فشفقت له زوجته وطلبت منه أن لا يقتله، بل وأن يجعله إبناً لهما، فقبل فرعون قول زوجته وتبنّاه فأصبح إبناً لفرعون وفعلت لك يا موسى هذا الأمر لتراعى (**وَلِتُصْنَعَ**) ولتربّى (**عَلَى عَيْنِي**) في رعايتي (**إِذْ تَمْشِي**) بدل من إذ أوحينا إلى أمّك فيكون التّقدير ولقد مننّا عليك مرّة أخرى (**إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ**) إلى بيت فرعون حينما كانوا يحاولون أن يستأجروا مرضعاً لترضعك وقد منعناك من كلّ المراضع فلا ترتضع منهن (**فَتَقُولُ**) أختك لأهل فرعون (**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ**) تربيةً وترضيعةً،

فلعلّ الطّفل يقبل ثديها ويرتضع منها فقالوا: حبّاً وكرامة، فأتت بأمّها فأرضعته فارتضع منها وبذلك التّقدير (**فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ**) يتبرّد (**عَيْنُهَا**) فلا تجفّ ولا تدمع بسبب رؤيتها (**وَلا تَحْزَنَ**) بقلبها على فراقه (**وَقَتَلْتَ**) عطف على (تمشي أختك) فيكون بدلاً من أوحينا إلى أمّك أيضاً فيكون التّقدير ولقد مننّا عليك مرّة أخرة حيث (**وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ**) من أن تقتل قصاصاً (**وَفَتَنَّاكَ**) وابتليناك (**فُتُونًا**) اختبارات كثيرة لتتعوّد على المشاكل وعلى الصّبر على المعاسير من الأمور والشّكر على مياسيرها فخرجت بعد قتلك لذلك الشّخص من مصر ووصلت مدين وسكنت فيها (**فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي**) بين (**أَهْلِ مَدْيَنَ**) وعشت معهم (**ثُمَّ جِئْتَ**) إلى هذا المكان (**عَلَى قَدَرٍ**) لقدر قدرناه لك وهو أن نجعلك رسولاً لنا (**يَا مُوسَى**).

فبعد أن ذكر الله تعالى لموسى أنّه راعاه هذه الرّعاية وأنعم عليه هذه النّعم خاطبه فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

(**وَاصْطَنَعْتُكَ**) وراعيتك هذه الرّعاية (**لِنَفْسِي**) لأن تعمل لذاتي وتقوم بأوامري، فمتثل موسى واستعدّ لأداء أوامر ربّه فقال له: (**اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي**) بمعجزاتي (**وَلا تَنِيَا**) ولا تقصّرا (**فِي ذِكْرِي**) فإنّ ذكر الله تعالى وتسبيحه يقوّي القلب ويشدّ العزيمة ويزيد الهمّة والإقدام على العمل (**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**) جاوز الحدّ من الظّلم والكفر (**فَقُولا لَهُ**) حينما تدعوانه إلى الإيمان وترك الظّلم (**قَوْلاً لَيِّنًا**) لأنّ القول اللّيّن أجلب للقلوب وأدعى إلى قبول النّصح كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٥٩. فقولا له قولاً ليناً (**لَعَلَّهُ**) ويكون أملكم منه أنّه (**يَتَذَكَّرُ**) يعرف خطأه فيتركه (**أَوْ يَخْشَى**) يخاف وخيمة ظلمه فيرجع ويتوب عنه.

فلمّا سمع موسى وهارون أمر الله هذا وتذكّرا عظمة فرعون وكبرياءه وكفره وطغيانه استصعبا هذا الأمر ولذلك بيّنوا لله صعوبة الأمر كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾

(**قَالا**) موسى وهارون لله تعالى (**رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ**) من فرعون (**أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا**) في الكلام فيلقي إلينا كلاماً بذيئاً (**أَوْ أَن يَطْغَى**) علينا بالإيذاء والتعذيب (**قَالَ**) تعالى لهما (**لا تَخَافَا**) من فرعون حيث (**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ**) كلامه فأمنعه من الكلام البذيء تجاهكم (**وَأَرَى**) أفعاله فأمنعه من فعل ما يؤذيكم (**فَأْتِيَاهُ فَقُولا**) له (**إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ**) أرسلنا الله تعالى إليك لترسل معنا بني إسرائيل فأطع أمر ربّك (**فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**) لنذهبا بهم إلى الدّيار المقدّسة (**وَلا تُعَذِّبْهُمْ**) أكثر ممّا عذّبتهم (**قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ**) بمعجزةٍ (**مِّن رَّبِّكَ**) تدلّ على أنّنا رسولان منه (**وَالسَّلامُ**) والأمن من عذاب الله تعالى يكون (**عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**) اتّبع هدى الله تعالى الذي جاء به الرّسل وفيه إيماء إلى وعيد له حيث يفيد أنّ من لا يتّبع الأمر الّذي جاء به الرّسل فإنّه لا يأمن من عذاب الله تعالى، بل يستحقّه وقد صرّح تعالى بذلك فقال جلّ وعلا: (**إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا**) من الله تعالى (**أَنَّ الْعَذَابَ**) ينزل (**عَلَى مَن كَذَّبَ**) رسل الله تعالى (**وَتَوَلَّى**) وأعرض عن اتباعهم وامتثال أوامرهم، فجاء موسى وهارون ودخلا على فرعون وبلّغاه هذه المقالة فلم يطلق فرعون سراح بني إسرائيل أن يذهبوا معهم ويتركوا مصر لأمرين:

الأمر الأوّل: أنّه خاف أن تقلّ الأيدي العاملة في مصر فيضعف العمل فتقلّ إقتصاديّاتهم لأنّ بني إسرائيل هم كانوا يقومون بالعمل، وأمّا القبط فكانوا من جنود فرعون وقوّاده ومرتزقته.

الأمر الثّاني: أنّه لو أذن لهم فيذهبوا إلى فلسطين فلا شكّ أنّهم يشكّلون قوةً ودولةً تغير على مصر وتأخذ من القبط انتقام إيذائهم لهم وتعذيبهم إيّاهم.

تنبيه: قد كان إيذاء فرعون لبني إسرائيل وقتله أبناءهم خوفاً منهم، فإنّه كان هناك منافسة قوميّة بين القبط وبني إسرائيل، وكان بنو إسرائيل يتناسلون بكثرة ويزداد عددهم؛ فخاف فرعون أن يكثروا كثرة يغلبون بها على القبط فيسلبوا منهم السّلطة والحكم. وأمّا ما يقال: أنّه كان يقتل أبناءهم لأنّه أخبره المنجّمون أنّه يولد من بني إسرائيل من يكون هلاكه وهلاك حكمه على يده فمردودة برواية أخرى وهي: أنّه جاء إلى فرعون شيوخ القبط فقالوا: إنّ بني إسرائيل يموت شيّابهم وأنت تقتل أبناءهم فمن الّذي يعمل بالبلد؟

فأمر فرعون بأن يتركوا سنةً ويقتلوا سنةً فلو كان قتله لهم لخبر المنجّمين لما تركهم سنة؛لأنّه ربّما يولد الولد المذكور في تلك السّنة، فكان إذن قتله لهم خوفاً من كثرتهم وإستيلائهم على مصر وعدم إذنهم بالذّهاب إلى فلسطين كان لنفس الغرض.

❊ ❊ ❊

ثم بدأ فرعون يجادل موسى فوجه إليه سؤاله وهو أنه كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

(قَالَ) فرعون لموسى وهارون (**فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى**) سأل موسى فقط لأنّه هو رئيس الدّعوة وهارون وزيره (**قَالَ**) موسى له (**رَبُّنَا**) هو (**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**) تقديره وصورته وهيئته وطبيعته (**ثُمَّ هَدَى**) إيّاه لما يحتاج إليه وما يعمل، فالطّفل مثلاً بعدما يخرج من الرّحم يأخذ ثدي أمّه ويمصّه، والجدي بعدما يخرج من الأمّ **يأكل** النّبات، وهكذا هدى الله تعالى كلّ شيء إلى ما يحتاج إليه وإلى ما خلق هو له (**قَالَ فَمَا بَالُ**) فما حال أهل (**الْقُرُونِ الأُولَى**) أين ذهبوا وأين صاروا هل إلى الجنّة أو إلى النّار (قَالَ) موسى (**عِلْمُهَا**) علم أحوالها (**عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ**) وهو اللّوح المحفوظ (**لا يَضِلُّ**) لا يجهل (**رَبِّي**) ربّي ولا يغيب عنه شيء (**وَلا يَنسَى**) شيئاً (**الَّذِي**) ربّي هو الّذي (**جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ**) هذه (**مَهْدًا**) كالفراش تسكنون عليه (**وَسَلَكَ**) وسهل (**لَكُمْ فِيهَا**) في الأرض (**سُبُلاً**) لتمشوا فيها وتعملوا وتحصلوا بذلك على ما رزقكم الله تعالى (**وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء**) من العلوّ وهو السّحاب (**مَاء**) وهو المطر (**فَأَخْرَجْنَا بِهِ**) بالماء (**أَزْوَاجًا**) أضعافاً كثيرةً (**مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى**) متفرّقةً ومتنوّعةً (**كُلُوا**) من حبوب هذه النّباتات أو من نفس بعضها (**وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ**) منها ومن أنباتها وقشورها والأنعام هي الإبل والبقر والضّأن والمعز (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) الّذي ذكر (**لآيَاتٍ**) لدلائل على وجود الله ووحدانيّته

(**لأُوْلِي النُّهَى**) لأصحاب العقول، فإنّ من كان له عقل ليعرف أنّ هذا النّظام لا يوجد بدون صانع عليم وحكيم وقدير وهو الله تعالى، ومن له هذه القدرة الّتي خلق بها هذه الأشياء لا يحتاج إلى شريك ولا يقبله، وقال: (لآيات) لأنّ نفس الأرض آية والمطر آية والنّباتات آية أو كلّ نوع منها آية قال الشّاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنه الواحد

وقال: (**لأولي النّهى**) إشارة إلى أنّ من لم يعرف ربّه وأمامه هذه الدّلائل ولم يوحّده فليس بعاقل، وإن بلغ ما بلغ من الفنون والثّقافات.

(**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ**) للعمل والإكتساب فإنّ كلّ حيوان من التّراب لأنّه من النّطفة والنّطفة من الغذاء والغذاء من النّباتات والنّباتات من الأرض (**وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ**) للبلى والعودة إلى التّراب (**وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**) للثّواب والعقاب والحشر والحساب.

وبالرغم من كلّ هذه الدّلائل فلم يسلم فرعون ولم يؤمن بعد هذه الأدلّة وأراد من موسى خوارق عاداتٍ يثبت بها صدقه فأراه موسى الخوارق أيضاً، فلم يقتنع ولم ينقد لكلّ ذلك بل أصرّ على كفره كما قال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

(**وَلَقَدْ**) وبعزّتي لقد (**أَرَيْنَاهُ**) أرينا فرعون (**آيَاتِنَا كلّها**) معجزاتنا الّتي آتيناها لموسى لا كلّ المعجزات مطلقاً، فإنّها لا تت ـ ناهى ولم يؤت كلّ المعجزات وإنّما أوتي بعضها (**فَـ**) بعد رؤية فرعون لهذه المعجزات (**كَذَّبَ**) موسى (**وَأَبَى**) أن يؤمن به إستعلاءً وتكبّراً لا لخفاء دلالة المعجزات على رسالة موسى (ﷺ) وإنّما (**قَالَ**) فرعون لموسى (**أَجِئْتَنَا**) الإستفهام للتّقرير فالمعنى قد جئتنا (**لِتُخْرِجَنَا مِنْ**) سلطانيّة (**أَرْضِنَا**) وحاكميّتها (**بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى**) فاعتبر معجزات موسى سحراً (**فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ**) مثل سحرك وتعارضك به (**فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا**) للمسابقة مع السّحرة (**لا نُخْلِفُهُ**) لا نتأخّر عن ذلك الميعاد (**نَحْنُ وَلا أَنتَ**) وفي (**مَكَانًا سُوًى**) مستوٍ عدلٍ يظهر كلّ ما

يفعل فيه ليطلع النّاس على تلك المسابقة ويعلموا بمن غلب (**قَالَ**) موسى لفرعون (**مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ**) يوم العيد (**وَأَن يُحْشَرَ**) يجمع (**النَّاسُ**) كلّهم لكي لا يخفى الأمر على أحد منهم وفي وقت (**ضُحًى**) ليكون الأمر أظهر.

فلمّا اتّفقا على هذا، ذهب فرعون يسعى لجمع السّحرة فجمعهم كما قال جلّ وعلا:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

(**فَتَوَلَّى**) أعرض (**فِرْعَوْنُ**) عن الجدال وبدأ بجمع السّحرة (**فَجَمَعَ كَيْدَهُ**) أهل كيده وهم السّحرة (**ثُمَّ أَتَى**) لمعارضة موسى فلمّا جمع السّحرة (**قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ**) خافوا ويلكم أي هلاككم (**لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**) فتسمّوا المعجزات سحراً (**فَيُسْحِتَكُمْ**) فيهلككم الله تعالى (**بِعَذَابٍ**) شديد (**وَقَدْ خَابَ**) خسر (**مَنِ افْتَرَى**) فسمّى معجزاتي سحراً وعارضها بالسّحر، فلمّا قال موسى لهم هذا القول تردّدوا وخافوا من أمرهم (**فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم**) وهو معارضة موسى (**بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى**) وتكلّموا فيه سرّاً وتشاوروا (**قَالُوا**) قال البعض الّذي ظنّوا موسى ساحراً للّذين قالوا: أنّه رسول حيث إنّ هذا القول والكلام ليس من كلام السّحرة فقالوا لهم: (**إِنْ هَذَانِ**) إن قرئ إن بالتّخفيف فهي مخفّفة من الثّقيلة إسمها ضمير شأن مقدّر، وهذان مبتدأ مع خبره، ساحران خبر لضمير الشّأن المقدّر، وإن قرئ بالتّشديد فقال بعضهم: إنّ بمعنى نعم، وهذان لساحران مبتدأ وخبر، ولكنّ يضعف هذا القول أنّ اللّام لا يدخل إلّا على خبر إنّ، وقال بعضهم: إنّ الكلام جرى على لغة من ينصب المثنّى ويرفعه بالألف لا بالياء مثل قول الشّاعر:

إنّ أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها

ولم يقل غاليتها فقالوا: (**إِنْ هَذَانِ**) إنّ موسى وهارون (**لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن**

يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا) ويكون لهم الغلبة في الأرض و(**وَيَذْهَبَا**) ويطيحا (**بِطَرِيقَتِكُمُ**) بشريعتكم (**الْمُثْلَى**) الأحسن من ظنّهم وهي شريعة الإشراك بالله وعبادة فرعون والعمل بما سنّه حسب هواه (**فَأَجْمِعُوا**) أحكموا (**كَيْدَكُمْ**) عمل السّحر (**ثُمَّ ائْتُوا**) للمعارضة (**صَفًّا**) مصطفين حيث (**وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى**) وتفوّق في المعارضة لأنّ القول يكون قوله ويبطل عمل معارضه.

فلمّا أجمع السّحرة على المعارضة خاطبوا موسى (عليه السلام):

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾

(**قَالُوا**) السّحرة لموسى (**إِمَا أَن تُلْقِيَ**) أنت سحرك قبلنا (**وَإِمَا أَن نَّكُونَ**) نحن (**أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى**) فنلقي قبلك (**قَالَ**) لهم موسى (**بَلْ أَلْقُوا**) أنتم قبلي فألقوا حبالهم وعصيّهم (**فَإِذَا**) الأمر صار بحيث (**حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ**) جمع عصا (**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ**) إلى موسى (**مِن سِحْرِهِمْ**) أنّها تسعى تمشي سريعاً وتتجوّل في هذه السّاحة الوسيعة (**أَنَّهَا تَسْعَى**) فشعر (**فِي نَفْسِهِ خِيفَةً**) خوفاً (**مُّوسَى**) فخاف أن لا يغلبهم (**قُلْنَا**) لموسى (**لا تَخَفْ**) لأنّه (**إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى**) عليهم والمتفوّق (**وَأَلْقِ**) واطرح على الأرض (**مَا فِي يَمِينِكَ**) وهو العصا فإذا طرحته (**تَلْقَفْ**) تبلع كلّ (**مَا صَنَعُوا**) من الحبال والعصي (**إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ**) لا حقيقة له (**وَلا يُفْلِحُ**) لا يفوز بالغلبة هذا (**السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**) أينما أتى بسحره، لأنّه أراد أن يعارض بسحره الرّسول من الله تعالى ومعجزاته، وإلّا فبعض السّحرة يتفوّقون في أمرهم ويفوزون بخير في الدّنيا. فألقى موسى عصاه فبلعت الحبال والعصي كلّها، فعلم السّحرة أنّ موسى رسول وليس بساحر لأنّهم علموا بعملهم بالسّحر أنّ هذا ليس سحراً فآمنوا وفي ذلك قال جلّ وعلا:

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾

(**فَأُلْقِيَ**) طرح على الأرض (**السَّحَرَةُ**) كلّهم (**سُجَّدًا**) ساجدين لله تعالى (**قَالُوا آمَنَّا**

بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) وأصبحوا من أتباع موسى (عليه السلام) ومن خلّص المؤمنين. هذا وهنا تتبادر إلى الذّهن أسئلة:

السّؤال الأوّل: إنّ قول موسى (عليه السلام) (بَلْ أَلْقُوا) فيه تباه وإعتزاز وتفاخر وقلّة الإعتناء بالغير، فكيف يليق هذا بمقام النّبوّة والرّسالة؟

الجواب: إنّ كلّ ذلك في موقف إحقاق الحقّ وإبطال الباطل وإعزاز الإسلام وتحقير الكفر جائز ومحمود؛ ولذلك كان أصحاب رسول الله (ﷺ) حينما يبارزون العدوّ في الميدان كانوا ينشدون الأبيات ويتفاخرون ويتباهون فيها (رضي الله تعالى عنهم).

السّؤال الثّاني: كيف كان موسى (عليه السلام) يوجس في نفسه خيفةً؟ وكيف لم يكن يثق بتوفيق الله تعالى إيّاه؟

الجواب: إنّه لم يخف من غلبة السّحرة عليه، بل خاف من القوم أن يضلّوا بما رأوا من هذا الأمر من السّحرة[1].

السّؤال الثّالث: كيف كانت الحبال والعصيّ تسعى؟

الجواب: أنّهم موّهوها بمادّة كالزّئبق أو به، فلمّا ضربت عليها الشّمس أصبحت تتجوّل كالحيّات والله تعالى أعلم.

السّؤال الرّابع: لماذا قال الله تعالى: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ) ببناء المجهول ولم يقل: فألقوا أنفسهم، ببناء المعلوم؟

الجواب: المراد أنّ الله تعالى قذف في قلوبهم الإيمان وساقهم بالإيمان إلى أن يسجدوا ويؤمنوا ولذلك قال: فألقي أي فألقاهم الله تعالى.

تنبيه: إنّ السحرة بعلمهم بالسّحر علموا أنّ ما يفعله موسى (عليه السلام) هو معجزة وليس سحراً؛ فيفيد أنّ العلم كلّه خير وحسن، وأنّ السّحر حينما نهى الرّسول (ﷺ) عنه لم ينه عن تعلّمه بل عن العمل به، وإلّا فتعلّمه فضل كفاية على المسلمين كي يردّوا به

---

(١) الخوف غريزة في الإنسان وكل إنسان مهما كان فهناك مواقف لها من المهابة ما يخاف منها أو من نتائجها، وموسى (عليه السلام) مع كونه نبياً كان بشراً تعتريه الحالات البشرية التي لا تقدح بعصمته وهذه منها.

كيد السّاحرين وإضلالهم للناس، وكذلك كلّ العلوم فرض تعلّمها، لذلك وإن كان البعض يحرّم العمل به، قال الإمام عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه):

علمت الشر لا للشّر لكن لأتّقيه فمن لم يعرف الخير من الشّر يقع فيه

ثمّ بعد أن فشل فرعون ورأى السّحرة آمنوا إستولى عليه الغضب أسفاً فهدّد السّحرة كما أخبر الله تعالى عنه فقال جلّ وعلا:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

(**قَالَ**) فرعون للسّحرة (**ءامَنتُمْ**) واستسلمتم (**لَهُ**) لموسى فتضمّن آمن معنى استسلم ولذا تعدّى باللاّم (**قَبْلَ أَنْ آذَنَ**) أصله أأذن أي قبل أن أعضيكم الإجازة بالإيمان به، أو آذن فعل ماض من الأذان، أي قبل أن يدعوكم موسى إلى الإيمان وهذا أوفق بقوله: (**إِنَّهُ**) أي موسى (**لَكَبِيرُكُمُ**) لأستاذكم (**الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ**) فاتّفقتم على أن يأتي هو إلى البلد فيدّعي النّبوّة فتأتون وتؤمنوا به، وهذه دسيسة دبّرتموها لتستولوا على النّاس (**فَـ**) عقاباً على هذه الدّسيسة (**لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ**) أقطع اليد اليمنى والرّجل اليسرى (**وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي**) على (**جُذُوعِ النَّخْلِ**) جذوع النّخل لتكونوا عبرة لغيركم فلا يتّبعوا موسى (**وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا**) أنا أو رب موسى وهارون (**أَشَدُّ عَذَابًا**) تمييز محوّل عن الفاعل أي أشدّ عذابه (**وَأَبْقَى**) عذابه، أراد أنّ عذابه أشدّ من عذاب ربّ موسى (**وَأَبْقَى**). (**قَالُوا**) السّحرة لفرعون (**لَن نُّؤْثِرَكَ**) لم نختارك(**عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ**

(الْبَيِّنَاتِ) المعجزات **(والهدى)** وسبيل الحقّ فنتّبعها ولا نتّبعك **(وَالَّذِي فطرنا)** إمّا قسم أقسموا بالّذي فطرهم أنّهم لا يتّبعون فرعون أو عطف على **(ما جاءنا)** لن نؤثرك على الّذي **(فَطَرَنَا)** خلقنا وهو الله تعالى **(فَاقْضِ)** فاحكم **(مَا أَنتَ قَاضٍ)** ما تحكمه من القتل والتّقطيع والصّلب **(إِنَّمَا تَقْضِي)** أمور **(هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)** وأمّا الآخرة فلا قدرة لك عليها وإنّا نريد الآخرة ولا نريد الدّنيا إذا عارضت الآخرة **(إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا)** الّتي ارتكبناها من قبل **(وَ)** وخاصّة **(مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ)** لمعارضة الحقّ فنأمل أن يغفر الله لنا لأنّ الإسلام يجبّ ما قبله **(وَاللَّهُ)** تعالى وثوابه **(خَيْرٌ)** من الدّنيا **(وَأَبْقَى)** وأدوم. ثمّ استدلّوا على أنّ ثواب الله تعالى خير فقالوا **(إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ)** يوم القيامة **(مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ)** عقاباً له **(لا يَمُوتُ فِيهَا)** فيستريح **(وَلا يَحْيى)** حياة يستفيد منها، بل كلّ حياته عذاب وإحتراق **(وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا)** بشرط أنّه **(قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ)** مع الإيمان **(فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى)** في الآخرة ثمّ بيّنوا هذه الدّرجات فقالوا: **(جَنَّاتُ عَدْنٍ)** إقامة لا ارتحال عنها **(تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ)** الجزاء والتّكريم هو **(جَزَاء مَن تَزَكَّى)** تطهّر من الكفر والمعاصي بدون عذاب إن زادت حسناته على سيّئاته أو ساوتها، وإن نقصت فبعد تطهّره من الذّنوب بالعذاب إلّا أن يغفر الله تعالى له.

ثمّ بعد ذلك اشتدّ الصّراع بين موسى وأتباعه مع فرعون وجنوده إلى أن وصل الحال ببني إسرائيل الضّيق الّذي لا يتحملونه، فحينئذٍ أمر الله تعالى أن يرتحل موسى وأتباعه خفيةً باللّيل إلى فلسطين دون أن يعلم بهم فرعون وجنوده، ووعدهم بأنّه ينجيهم ويهلك عدوّهم فاقرؤوا ما قال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

(وَلَقَدْ) واذكر وقتما **(أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى)** وأمرناه **(أَنْ أَسْرِ)** أي سر **(بِعِبَادِي)** بعبادي ليلاً إلى تجاه فلسطين خفيةً دون أن يعلم بكم فرعون وجنوده، وإذا وصلتم إلى البحر **(فَاضْرِبْ)** فاجعل **(لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ)** بأن تضرب بعصاك البحر فينفلق فادخلوا فيه **(لا تَخَافُ دَرَكًا)** لا تخف من أن يدرككم فرعون وجنوده **(وَلا تَخْشَى)** غرقاً من

البحر، ففعل موسى ما أمر به، فخرجوا ليلاً، فلمّا علم بهم فرعون أتبعهم بجنوده، فلمّا وصل موسى البحر ضربه بعصاه، فانفلق فدخل هو فيه وقومه، فعبروا سالمين (**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ**) فدخلوا في البحر وراءهم، فلمّا وصلوا وسط البحر انطبق عليهم (**فَغَشِيَهُم**) وأحاط بهم (**مِّنَ الْيَمِّ مَا**) شيء عظيم (**غَشِيَهُمْ**) من الأمواج المتراكمة فغرقوا كلّهم (**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ**) أهلك فرعون (**قَوْمَهُ وَمَا هَدَى**) إيّاهم إلى طريق النّجاة لا في الدّنيا ولا في الآخرة.

ثمّ بعد أن أنجى الله تعالى بني إسرائيل من فرعون خاطبهم فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

(**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**) وهم ذرّيّة يعقوب(عليه السلام) (**قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ**) فرعون (**وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ**) لتأتوا إليه مع موسى، فأوتيكم كتاباً فيه تعاليم دينكم وشريعتكم (**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ**) وهو شيء حلو جدّاً ينزل من السّماء على النّبات والاشجار فيجمعه النّاس (**وَالسَّلْوَى**) وهو نوع من الطّير (**كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**) من المنّ والسّلوى (**وَلا تَطْغَوْا**) ولا تظلموا بسبب الطّغيان (**فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي**) ينزل عليكم عقوبتي (**وَمَن يَحْلِلْ**) ينزل (**عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى**) سقط وهلك (**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ**) كثير المغفرة (**لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**) استقام على ذلك الحال من التّوبة والإيمان والعمل الصّالح.

ثمّ بعد أن واعد الله موسى (عليه السلام) أن يذهب إلى الطّور مع جماعة من قومه ليؤتيهم الله الكتاب، إختار موسى جماعة ليذهبوا معه، واستعجل هو بالذّهب إلى الطّور ووصّاهم أن يلحقوا به على عجل، وبعد أن ذهب موسى صنع السّامري من الذّهب عجلاً جسداً له خوار، ودعا القوم إلى عبادته وقال: إنّ هذا هو الإله، فانشغل الجماعة بهذا الأمر ولم يذهبوا للميعاد، فلمّا وصل موسى الميعاد خاطبه الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾

(**وَمَا**) وأي شيء (**أَعْجَلَكَ**) حملك على العجلة فانفصلت (**عَن قَوْمِكَ**) وتقدّمت عليهم (**يَا مُوسَى**) والإستفهام للإنكار، أي وما كان يليق بك أن تفعل ذلك (**قَالَ**) موسى (**هُمْ**) قومي الّذين اخترتهم للميعاد وكانوا سبعين رجلاً (**أُولاء**) قريبون يشار إليهم يأتون (**عَلَى أَثَرِي**) بعد بقليل (**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**) عنّي (**قَالَ**) تعالى لموسى (**فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا**) إمتحنّا (**قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ**) فلم ينجحوا (**وَأَضَلَّهُمُ**) دعاهم إلى الضّلال (**السَّامِرِيُّ**) فاتّبعوه فضلّوا إلّا قليلاً منهم، يقال: إنّهم كانوا ستّمائة ألف فلم يبق منهم من لا يعبد العجل إلّا إثنا عشر ألفاً، فلمّا قال تعالى لموسى هذا القول رجع كما قال جلّ وعلا:

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾

(**فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ**) مغضباً عليهم (**أَسِفًا**) حزيناً ممّا فعلوه فتوجّه إلى هؤلاء الّذين اختارهم للذّهاب معه إلى الطّور (**قَالَ**) لهم (**يَا قَوْمِ**) أصله قومي حذف الياء للتّخفيف (**أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا**) وهو أن يؤتيكم الكتاب (**أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ**) عهدي وفراقي منكم وبعد المسافة بيني وبينكم (**فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي**) فلم تلحقوا بي ولم تأتوا (**قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا**) باختيارنا (**وَلَكِنَّا**) إنشغلنا عن اللّحوق بك حيث سبق أن (**حُمِّلْنَا**) بفتح الحاء مع اللّام السّاكنة من المحمل أو بضم الحاء وكسر الميم وسكون اللّام من التّحميل وعلى كلا التّقديرين معناه كان عندنا (**أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ**) قوم فرعون؛ حيث إستعاروا منهم الحلي للعيد فبقي عندهم (**فَقَذَفْنَاهَا**) فطرحناها على الأرض حيث قال السّامري: ألقوها أصنع لكم شيئاً عجيباً

(فَكَذَلِكَ) مثل ما ألقينا ما معنا **(أَلْقَى السَّامِرِيُّ)** ما معه **(فَأَخْرَجَ)** فصنع **(لَهُمْ)** من هذا الحليّ **(عِجْلاً جَسَدًا)** له لحم وعظم ودم **(لَهُ خُوَارٌ)** وهو صوت العجلان **(فَقَالُوا)** السّامري وأتباعه **(هَذَا)** العجل **(إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)** موسى إلهه هنا ولم يذهب به إلى الميعاد، فانشغلنا بهذه الفتنة، فكان هذا سبب تخلفنا عنك يا موسى فقبل موسى عذرهم.

ثمّ ذكر القوم دليلين على بطلان كون العجل إلهاً الأول: الدّليل العقلي، والثّاني: الدّليل النّقلي، أمّا الدّليل العقلي فقالوا:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

(أَفَلا يَرَوْنَ) أفلا يتفكّرون هؤلاء الّذين عبدوا العجل **(ألّا)** أصله أن لا، مرّكب من أن المخففة ومن لا، فالتّقدير **(أنه)** أن الشأن هو **(لا يَرْجِعُ)** لا يعيد **(إِلَيْهِمْ)** العجل **(قَوْلاً)** فإذا سألوه لا يجيبهم **(وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ)** أن يضرّهم **(ضَرًّا)** ولو قليلاً **(وَلا)** أن ينفعهم **(نَفْعًا)** أبداً، وما كان كذلك فلا يجوّز العقل أن يكون إلهاً، فإنّ الإله يضرّ وينفع ويجيب الدّعوات، وأمّا الدّليل النّقلي فهو قولهم كما قال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ) من قبل مجيئك يا موسى وهارون رسول وقول الرّسول دليل نقلي فقال لهم هارون: **(يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم)** ابتليتم وامتحنتم **(بِهِ)** بالعجل وليس هو إلهاً **(وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي)** ولا تتبعوا السّامري **(وَأَطِيعُوا أَمْرِي)** ولا تطيعوا السّامري **(قَالُوا لَن نَّبْرَحَ)** لن نزال **(عَلَيْهِ)** على عبدة العجل **(عَاكِفِينَ)** ماكثين **(حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى)** فننتظر ماذا يقول لنا؟ فلم يعملوا لا بالدّليل العقلي ولا بالنّقلي وبقوا على هواهم، وهكذا كلّ من لم يتّبع الدّليل واتّبع الهوى يضلّ، ومن اتّبع الفكر والعقل والدّليل والنّص فهو المهتدي. فنرجو من الله تعالى الهداية في الدّنيا والمغفرة في الآخرة، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

ثمّ إلتفت موسى إلى هارون وعاتبه كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾

(**قَالَ**) موسى معاتباً أخاه هارون (**يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ**) ما حملك على (**أَلا تَتَّبِعَنِ**) تتّبع أمري فتقاتل بالمؤمنين وتقتل المرتدّين (**أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي**) إذ قلت لك قم بالحكم فيهم وأقم الحدّ على من يستحقّه وحدّ المرتد هو القتل فوراً إن لم يتب (**قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ**) هو كان ابن أبيه وأمّه ولكنّ نسبه إلى الأمّ لأنّ الرّحم بين أولاد الأمّ أكثر، وذلك لأنّه كثيراً ما يقع الشّقاق بين أولاد الأب على الميراث وتركة الوالد (**لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي**) لتؤذيني بذلك (**إِنِّي**) لم أقاتل المرتدّين حيث (**خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**) وجعلت بعضهم يقتل بعضاً (**وَلَمْ تَرْقُبْ**) ولم تنتظر (**قَوْلِي**) في ذلك، والآن أتيت أنت فقل: ماذا تريد؟ ونحن نمتثل.

ثمّ إلتفت سيّدنا موسى (عليه السلام) إلى السّامري معنّفاً له قائلاً كما يرويه الله تعالى جلّ وعلا:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

(**قَالَ**) موسى معنّفاً السّامري (**فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ**) فما أمرك العظيم الّذي فعلته يا سَامِرِيّ (**قَالَ**) السّامري (**بَصُرْتُ**) رأيت (**بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ**) وهو أنّه مرّ هنا جبريل (عليه السلام) على فرس (**فَقَبَضْتُ**) فأخذت (**قَبْضَةً مِّنْ**) تراب تحت (**أَثَرِ**) فرس (**الرَّسُولِ**) وهو جبريل (**فَنَبَذْتُهَا**) فقذفت القبضة في العجل فصار حيّاً يصوّت (**وَكَذَلِكَ**) ومثل ما ذكرت لك (**سَوَّلَتْ**) أمرت بالسّوء (**لِي نَفْسِي**) فإنّ النّفس لأمّارة بالسّوء إلّا ما رحم ربّي (**قَالَ**)

موسى للسّامري (**فَاذْهَبْ**) وأخرج من بين النّاس (**فَإِنَّ لَكَ**) عذاباً (**فِي الْحَيَاةِ**) الدّنيا وهو (**أَن تَقُولَ**) لأي أحد لقيته (**لا مِسَاسَ**) لا تمسّني ولا أمسكنّ، وكان هذا الطّرد للشّخص المجرم حدّاً في شريعة بني إسرائيل، فيمنع من أن يتكلّم معه أحد أو هو يتكلّم مع أحد، فكان السّامري كلّ من يلقاه يقول له: لا مساس، وكلّ من مسّه يبتلى هو معه بالحمّى الشّديدة، وهذا عذابك يا سامري في الدّنيا، وأمّا في الآخرة فهو (**وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا**) في الآخرة للعذاب (**لَّنْ تُخْلَفَهُ**) لن تنجو منه (**وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ**) بقيت (**عَلَيْهِ**) على عبادته (**عَاكِفًا**) ماكثاً (**لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ**) لنكسرنّه ونقذف بقطعه (**فِي الْيَمِّ نَسْفًا**) كسراً تاماً، فليدافع عن نفسه إن كان إلهاً، كلّا (**إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**) تمييز محوّل عن الفاعل أي وسع كلّ شيء علمه ولا يخفى عليه شيء أبداً.

سؤال: لماذا لم يقتل موسى السّامري وقد قتل غيره من المرتدّين من لم يتب؟

الجواب: قالوا: إنّ الله تعالى منعه من قتله لأنّه كان سخيّاً. **وأقول:** إنّه لم يقتله ليبقى عبرةً لغيره مدى حياته، وأن يذوق العذاب في الدّنيا كما يذوقه في الآخرة، والله تعالى أعلم.

* * *

لطيفة: كان السّامري إسمه موسى أيضاً، ويقال أنّه كان من بني إسرائيل، فلمّا ولد ذهبت به أمّه إلى كهف خوفاً من أن يقتله فرعون، فأمر الله تعالى جبريل أن يربّيه، ثمّ بعد ما كبر رجع إلى بني إسرائيل، فآمن بموسى ظاهراً وكان في باطنه كافراً، ومن هنا يقول الشّاعر:

إذا المرء لم يخلق سعيداً تحيّرت ظنون مربّيه وخاب المؤمّل

فموسى الّذي ربّاه جبريل كافر وموسى الّذي ربّاه فرعون مرسل.

هذا، وإن قصّة سيّدنا موسى(عليه السلام) ذكرناها مفصّلة في سورة الأعراف، والحمد لله تعالى فمن شاء فليراجعه للإستفادة.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه النّبذة من حال سيّدنا موسى (عليه السلام) لرسوله محمّد (صلى الله عليه وسلم) خاطبه فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

(**كَذَلِكَ**) مثل ما رأيت يا محمّد (**نَقُصُّ**) نروي (**عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء**) من أخبار (**مَا**) الزّمان الّذي (**سَبَقَ**) ليكون لك تسليةً وموعظةً للمؤمنين ووعداً لهم ووعيداً للكافرين (**وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا**) شرعاً ونظاماً وهو ما في القرآن والسّنة من العقائد والأحكام (**مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ**) عن هذا النّظام (**فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا**) جزاءً وزره جزاءً ثقيلاً (**خَالِدِينَ فِيهِ**) في ذلك العقاب (**وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً**) ما يحملونه من العذاب. ثمّ أراد تعالى أن يبيّن حيرتهم أوّل ما يبعثون يوم القيامة فقال جلّ وعلا: (**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ**) نجمعهم (**يَوْمَئِذٍ زُرْقًا**) عيونهم سوداً وجوههم (**يَتَخَافَتُونَ**) يتكلّم المجرمون (**بَيْنَهُمْ**) سرّا وخفيةً ويقولون: (**إِن**) ما (**لَّبِثْتُمْ**) في القبر أو في الدّنيا أو فيهما (**إِلّا عَشْرًا**) من السّاعات أي عشر لحظات (**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ**) هذا القول وغيره (**إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ**) أعدلهم (**طَرِيقَةً**) عملاً وأخلاقاً (**إِن لَّبِثْتُمْ إِلّا يَوْمًا**) واحداً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى يوم القيامة والنّفخ في الصّور كان النّاس يسألون عن هذه الجبال الشّاهقة ماذا يكون حالها بعد النّفخ ومن أثره فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾

(**وَيَسْأَلُونَكَ**) أيها النّبيّ (**عَنِ الْجِبَالِ**) ماذا يكون حالها بعد النّفخ (**فَقُلْ**) أيّها النّبيّ (**يَنسِفُهَا رَبِّي**) يدقّها فيجعلها كالرّمل (**نَسْفًا**) دقيقاً تاماً (**فَيَذَرُهَا**) فيتركها (**قَاعًا**) أرضاً (**صَفْصَفًا**) مستويةً (**لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا**) إلتواءً (**وَلا أَمْتا**) ولا علواً وإرتفاعاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن ماذا يكون حال النّاس في ذلك اليوم فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

(**يَوْمَئِذٍ**) يوم إذ جعلت الجبال قاعاً صفصفاً (**يَتَّبِعُونَ**) النّاس كلّهم (**الدَّاعِيَ**) إلى التّجمع (**لا عِوَجَ**) لا تخلّف لأحد (**لَهُ**) منه ولا إلتواء (**وَخَشَعَتِ**) وذلّت (**الأَصْوَاتُ**) وخفت (**لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ**) من أحدٍ (**إِلا هَمْسًا**) صوتاً خفياً جدّاً (**يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ**) أحداً (**إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ**) أن يشفع له برحمته (**وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**) بأن قال: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله (**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**) مستقبلهم وعملهم فيه (**وَمَا خَلْفَهُمْ**) وماضيهم وما عملوا فيه (**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ**) بالله وأفعاله الجليلة (**عِلْمًا**) ولو قليلاً (**وَعَنَتِ**) وخشعت (**الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ**) وخسر في ذلك اليوم (**مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**) من حمل ذنباً من الكفر وغيره من الآثام (**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ**) في هذه الدّنيا (**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**) فإنّ شرط القبول للأعمال هو الإيمان، فمن لا إيمان له لا ثواب له وإن عمل ملء الدّنيا حسنات (**فَلا يَخَافُ**) المؤمن الآتي بالصّالحات (**ظُلْمًا**) بأن يحمل عليه ما لم يعمله من الذّنوب (**وَلا هَضْمًا**) لحقوقه بأن يُكتم شيء من حسناته وإن كان قليلاً جدّاً.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

(**وَكَذَلِكَ**) وكما قصصنا عليك من أنباء ما قد سبق (**أَنزَلْنَاهُ**) الموحى إليك (**قُرْآنًا**) مقروءاً (**عَرَبِيًّا**) بلسانك لسان العرب (**وَصَرَّفْنَا فِيهِ**) وذكرنا فيه أنواعاً (**مِنَ الْوَعِيدِ**) والوعد وذكر الوعيد فقط لأنّه أدعى إلى الإطاعة من الوعد (**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**) لكي يتّقي النّاس من الكفر والشّرك والآثام (**أَوْ يُحْدِثُ**) أو يكون القرآن سبباً لأن يحدث (**لَهُمْ**

(**ذِكْرًا**) قالوا: ليحدث ذكراً وشرفاً لهم بواسطة العمل به، أو معناه ليتذكّروا العذاب بذكر الأمم السّابقة، وأقول: معناه لكي يتّقوا (**أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ**) مصيبةً يذكرون بها ذكراً مدى التّأريخ وقد حدث ذلك في معركة بدر وأحد والأحزاب والفتح والله تعالى أعلم. (**فَتَعَالَى اللَّهُ**) عن أن يعذّب أحداً قبل أن يبلّغهم بشرائعه وأوامره (**الْمَلِكُ الْحَقُّ**) الّذي يجب أن يطاع ويستحقّ العذاب من عصاه (**وَلا تَعْجَلْ**) أيّها النّبيّ (**بِالْقُرْآنِ**) بقراءته فتقرأه (**مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى**) ينتهي من جبريل (**إِلَيْكَ وَحْيُهُ**) وتفهمه وتحفظه تماماً (**وَقُل**) دائماً (**رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**) وهذا أمر كلّ عالم أن يدعو بهذا أو لا يغترّ بعلمه، بل يجب أن يعتبر نفسه ناقصاً مهما بلغ من العلم حيث ﴿وفوق كلّ ذي علم عليم﴾ سورة يوسف الآية . ٧٧ .

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ الانسان من طبعه الجهل والنّسيان، فلذلك يجب أن يدعو دائماً أن يزيد له من علمه ولا ينسيه ما تعلم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾

(**وَلَقَدْ عَهِدْنَا**) أوحينا (**إِلَى آدَمَ**) وأمرناه أمراً وهو أن يكفّ عن أكل الشّجرة (**فَنَسِيَ**) أمرنا فأكل من الشّجرة (**وَلَمْ نَجِدْ لَهُ**) لآدم (**عَزْمًا**) صبراً على إمتثال الأمر.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن العهد الّذي عهده إلى آدم ونسيان آدم له، ونتيجة ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

(**وَإِذْ**) واذكر إذ وقتما (**قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ**) ومن معهم (**اسْجُدُوا**) كلكم (**لآدَمَ**) تقديراً له واعترافاً بفضله (**فَسَجَدُوا**) كلهم (**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى**) امتنع أن يسجد لآدم (**فَقُلْنَا**) لآدم (**يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا**) الشّيطان (**عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ**) بوسوسته ودعوته إلى المعصية والأكل من الشّجرة (**فَتَشْقَى**) فتتعب (**إِنَّ لَكَ**) يا آدم (**أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا**) في الجنّة (**وَلا تَعْرَى**) من اللّباس فدائماً تكون شبعان ومزيناً بأحسن لباس (**وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ**) لا

تعطش (**فِيهَا**) في هذه الجنّة (**وَلَا تَضْحَى**) ولا تتأذّى بالحرّ ولا بالبرودة فلا تضع عليك هذه الجنّة المملوءة بالرّاحة واللّذة فتخرج إلى الدّنيا (**فَتَشْقَى**) فيها بالعمل والكدّ لتحصيل الرّزق، وفي قوله: (**تَشْقَى**) إشارة إلى أنّ العمل موكول إلى الرّجال ولا تكلّف المرأة بالعمل وتحصيل الأرزاق، وهذا كان عهد الله تعالى إلى آدم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نسيان آدم للعهد ونتيجة ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

(**فَوَسْوَسَ**) فألقى (**إِلَيْهِ**) إلى آدم (**الشَّيْطَانُ**) دعوته السّيئة (**قَالَ يَا آدَمُ هَلْ**) قد (**أَدُلُّكَ**) أرشدك وأطلعك (**عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ**) شجرة يكون الأكل منها سبباً للخلود في الجنّة أبداً ويكون أيضاً سبب (**وَمُلْكٍ لا يَبْلَى**) حصولك على ملك لا يزول ولا يفنى، ومازال الشّيطان يوسوس إلى آدم إلى أن أقنعه (**فَأَكَلا**) آدم وحواء (**مِنْهَا**) من الشّجرة فخلع عنهما لباسهما (**فَبَدَتْ**) فظهرت (**لَهُمَا سَوْآتُهُمَا**) عوراتهما (**وَطَفِقَا**) وصارا (**يَخْصِفَانِ**) يضعان (**عَلَيْهِمَا**) على سوآتهما (**مِن وَرَقِ**) أشجار (**الْجَنَّةِ**) ليستراهما (**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**) فخسر ما كان فيه من النّعمة (**ثُمَّ اجْتَبَاهُ**) اختاره الله تعالى للنّبوّة حيث تاب وتضرّع إلى الله تعالى (**فَتَابَ عَلَيْهِ**) قبل منه توبته (**وَهَدَى**) هداه إلى الخير والاستقامة على الطّاعة.

سؤال: إنّ الله تعالى ذكر أن آدم نسي العهد، ولذلك أكل من الشّجرة والنّسيان معفوّ فكيف عاتبه الله تعالى؟

الجواب: بوجوه:

الأوّل: أنّ معنى (فنسي) أي ترك العمل به.

الثّاني: أنّ النّسيان معفوّ عنه إذا لم يكن عن عدم المبالاة بالأمر، وآدم نسي لأنّه لم يهتم بالأمرن وإلى هذا أشار تعالى بقوله (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا).

الثّالث: أنّ النّسيان معفو في حق هذه الأمة المحمدية وأما في باقي الامم فلم يكن معفواً عنه. ولذلك يقول الرّسول (ﷺ) : (رفع عن أمّتي الخطأ والنّسيان وما استكرهوا

عليه)[١] خصّ الرّفع أي رفع المؤاخذة بأمّته فقط هذا والله تعالى أعلم. ولقد ذكرنا قصّة آدم عليه السّلام في سورة البقرة وما يدور حولها من الأسئلة والأجوبة مفصّلة والحمد لله تعالى فراجعه إن شئت لزيادة الإستفادة ومنه التّوفيق.

* * *

ثمّ بعد أن تاب الله تعالى على آدم خاطبه كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

(**قَالَ**) تعالى لآدم وحواء (**اهْبِطَا**) إنزلا (**مِنْهَا**) أي من الجنّة إلى الأرض أنتما وذريّتكما (**جميعًا**) كلكم مجتمعين فيها (**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**) بسبب تناقض المصالح والمنافع والمنافسة على المنافع (**فَإِمَّا**) فإنّ (**يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى**) شريعة ونظام ودستور (**فمنِ اتّبعَ هُدَايَ**) نظامي وحلّ به ما بينهم من المشاكل والمنازعات والمنافسات (**فَلا يضلُّ**) عن الصّراط المستقيم في الدّنيا والآخرة (**وَلا يَشْقَى**) فيهما أيضاً (**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي**) ديني ونظامي ودستوري فترك العمل به (**فَإِنَّ لَهُ**) في الدّنيا (**مَعِيشَةً**) حياةً (**ضَنكًا**) ضيّقةً (**وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**) لا يرى شيئاً (**قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ**) في الدّنيا (**بَصِيرًا**) أرى بعيني (**قَالَ كَذَلِكَ**) أنّ الأمر كما تقول قد كنت بصيراً ولكن جعلناك أعمى حيث (**أَتَتْكَ آيَاتُنَا**) الدّالة على وجودنا ووحدتنا وحقيّة شريعتنا (**فَنَسِيتَهَا**) ولم تنظر إليها نظر الإتّعاظ والعبرة والعمل بها، وجعلت نفسك كالأعمى عنها (**وَكَذَلِكَ**) كما عميت عن آياتنا (**الْيَوْمَ تُنسَى**) تعمى، وقال: تنسى للمشاكلة (**وَكَذَلِكَ**) ومثل ما علمت (**نَجْزِي**) نعاقب في الحشر (**مَنْ أَسْرَفَ**) جاوز الحدّ (**وَلَمْ**

(١) كنز العمال ٤/ ٩٨ الحديث رقم ١٠٣٠٧.

يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ) فلم يعمل بها **(وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ)** بعد الحشر في جهنّم **(أَشَدُّ)** من عذاب الحشر **(وَأَبْقَى)** منه، وقانا الله تعالى من كلّ عذابه في الدّنيا والآخرة آمين ياربّ العالمين.

سؤال: لقد ذكر الله تعالى أنّ من اتّبع ذكره لا يضلّ ولا يشقى لا في الدّنيا ولا في الآخرة، وأنّ من أعرض عن ذكره فإنّ له معيشةً ضنكاً، وهناك مؤمنون فقراء في الدّنيا متعبون وكافرون أثرياء مترفون، فالآية تخالف الواقع والموجود بظاهرها فكيف الجواب؟

الجواب: أنّ المؤمن الصّادق مهما كان حاله من الفقر والعدم فإنّ نفسه راضية مطمئنّة قانعة يرجو من الله حسن الجزاء والثّواب، ولا يقلقه الفقر والفاقة ولا المرض والآلام، فيكون دائماً في راحة في الضّمير والوجدان وفي غنى النّفس والشعور، وقد قال الرّسولﷺ: (ليس الغنى عن كثرة العرض إنّما الغنى غنى النفس)[١] وأمّا الكافر فمهما يكون حاله في الثروة والغنى فإنّه لا يشبع ولا يقنع ولا تطمئن نفسه، وفي قلبه آمال وأطماع تورثه الآلام والأوجاع في النّفس والشعور؛ فيكون دائماً في همّ وغمّ يجعل في قلبه سعيراً وإليك هذه الحكاية.

❊ ❊ ❊

حكاية: يروى أنّ فلّاحاً قال: ربّي أرجو أن تريني النّبيّ سليمان (عليه السلام) فإنّ لي معه كلاماً، فأوحى الله تعالى إلى سليمان وهو سائر على سفينته الهوائيّة مع جيشه أن انزل في المكان الفلاني، فإنّ هناك فلّاحاً له كلام معك، فنزل سليمان (عليه السلام) وسلّم على الفلّاح، فردّ الفلّاح سلامه فقال: أنا سليمان، وما الكلام الّذي تريد أن تكلّمني به؟ فقال الفلّاح: والله يا نبيّ الله نظرت إلى حالك وحالي، فعلمت أنّ الماضي بالنّسبة إليك وإليّ سواء، حيث ذهبت آلامه ونعمه، والمستقبل بالنّسبة إلى كلينا مستوٍ فلم يبق إلّا هذه اللّحظة الّتي نحن فيها، وهذه اللّحظة أنا شبعان وأنت شبعان، فلا فرق بيني وبينك إلّا أنّ حسابك يوم القيامة أكثر وأدوم، فبدأ سليمان يبكي في قول الفلّاح إلى أن نزل جبريل (عليه السلام) فبشّره بأنّ الله تعالى سيحاسبه حساباً يسيراً، فهدأ أعصاب سليمان وانقطع

---

(١) صحيح البخاري ٥/٢٣٦٨ الحديث رقم ٦٠٨٠.

بكاؤه. فانظر يا أخي إلى العبد الصّالح الفلّاح الفقير لا يبدلّ حاله بحال سليمان بل يرى حاله أحسن منه، لأنّ حسابه قليل. اللّهم اجعلنا من الصّالحين القانعين آمين.

* * *

ثمّ بعد هذه الدّلائل والإنذارات والتّبشيرات بقي الكافرون لا تلين قلوبهم لذكر الله، ولا تصفو نفوسهم عن الكفر، فاستفهم الله تعالى إستفهام توبيخ وتقريع فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

(أَ) بعد هذه الدّلائل والإنذارات والقصص والتّبشيرات غفلوا (**فَلَمْ يَهْدِ**) فلم يتضح (**لَهُمْ**) لهم ولم يتذكّروا (**كَمْ**) عدداً كثيراً (**أَهْلَكْنَا**) أهلكنا من أهل (**الْقُرُونِ يَمْشُونَ**) حين السّفر إلى الشّام (**فِي مَسَاكِنِهِمْ**) الّتي دمّرت كمساكن عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم نتيجة تكذيبهم لرسل الله تعالى وعدم اتّباعهم لشريعة الله جلّ وعلا: (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) الإهلاك لهذه الأمم (**لآيَاتٍ**) تدلّ على وخامة عاقبة من كذّب الرّسولﷺ من الإهلاك والتّدمير وهي آيات (**لأُوْلِي النُّهَى**) أصحاب العقول والفكر. ثمّ ذكر الله تعالى سبب تأخير عذاب من كذّب الرّسولﷺ من قريش فقال جلّ وعلا: (**وَلَوْلا كَلِمَةٌ**) قضاء وحكم (**سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ**) تأخير العذاب في الدّنيا عنهم لعلّهم يهتدون أو يلدون من يهتدي (**لَكَانَ**) العذاب (**لِزَاماً**) نازلاً عليهم ولازماً لهم (**وَأَجَلٌ**) عطف على (**كلمة**) أي ولولا (**أَجَلٌ مُسَمًّى**) معين قدّر لهم لمجيء القيامة وعذابهم هناك لكان العذاب لزاماً لهم مستعجلاً، ولكن حيث وضع لهم أجل لعذاب الدّنيا والآخرة، فقد صبر الله تعالى عليهم إلى أن يأتي أجلهم المحدود والمعيّن ولذلك (**فَاصْبِرْ**) أنت أيّها النّبيّ والمسلم (**عَلَى مَا يَقُولُونَ**) فيك وفي الإسلام (**وَسَبِّحْ**) وصلّ ملتبسة صلاتك ومشعرة (**بِحَمْدِ رَبِّكَ**) بتحسين فعله كلّه من إمهال الكافرين والصبر عليهم فصلّ (**قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ**) صلاة الصّبح (**وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**) صلاة العصر (**وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ**) ساعات اللّيل فصلّ

وذلك صلاة المغرب والعشاء (**وَأَطْرَافَ النَّهَارِ**) وهو صلاة الظّهر لأنّه حنيئذ يلتقى طرف الصّباح الأخير بالطّرف الأوّل من المساء، أي ملتقى أطراف النّهار فصلّ لأنّ الصّلاة تقوّي القلب وتحمله على الصّبر والطّمأنينة وتكون الصّلاة سبباً لجلب النّعم من الله تعالى المعنوية منها والماديّة، ولذلك قال تعالى: (**لَعَلَّكَ**) لكي (**تَرْضَى**) بما يهب الله تعالى لك من النّعم والفيوضات فترضى بها وتقنع.

ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) كان يحبّ أن يؤمن أناس كانوا من أثرياء القوم وصناديدهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

(**وَلا تَمُدَّنَّ**) نظر وشعاع (**عَيْنَيْكَ إِلَى مَا**) المال أو الشرّف الّذي (**مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا**) أصنافاً (**مِّنْهُمْ**) من قريش فيعجبك مالهم وقوّتهم حيث ما متّعناهم بهذا إلّا (**لِنَفْتِنَهُمْ**) لنمتحنهم (**فِيهِ**) في هذا الّذى أتيناهم هل يشكرون الله فيوحّدونه ولا يعبدون غيره ويطيعون شريعته ولا يطيعون نظاماً آخر ويتّبعون رسوله أو لا (**وَرِزْقُ رَبِّكَ**) الّذي أولى أصحابك وإن كانوا فقراء (**خَيْرٌ**) ممّا أولى هؤلاء، لأنّه لم يصر سبباً لطغيانهم وتمرّدهم عن الحقّ (**وَأَبْقَى**) وأدوم من رزقهم لأنّ رزق المؤمن يتّصل برزق الآخرة ونعيمها ورزق هؤلاء يفنى ويكون وراءه العذاب والشّقاء (**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ**) ليطمئنّ بها قلوبهم (**وَاصْطَبِرْ**) أنت (**عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا**) ترزقنا وإنّما نسألك العبادة والطّاعة، فإذا قمت بعبادتنا وطاعتنا فحينئذ (**نَّحْنُ نَرْزُقُكَ**) في الدّنيا (**وَالْعَاقِبَةُ**) الحسنة (**لِلتَّقْوَى**) والتّجنّب من الذّنوب. هذا وإنّ هذه النّصائح هى موجّهة إلى الأمّة لأنّ الرّسول كان متّصفاً بما أمر به في هذه الآيات، فعلى المسلم أن لا ينظر إلى ثروة الأغنياء الفسقة فيعجب بها ويغترّ بما لديهم، فإنّها زائلة وعاقبتها وخيمة لهم، وأن يداوم على الصّلاة ويأمر أهله بها، وأن يتّقي الذّنوب والآثام، فإذا فعل ذلك فإنّ الله تعالى يرزقه سعادة الدّارين وراحة القلب وطمأنينته في الدّنيا والآخرة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حجّة هؤلاء الكافرين الّتى يحتجون بها على عدم إيمانهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾

(وَقَالُوا) قال الصناديد المتمرّدون على الرّسول **(لَوْلا)** لماذا لا **(يَأْتِينَا)** محمّد **(بِآيَةٍ)** بمعجزة تقنعنا كناقة صالح وعصا موسى وغير ذلك من الخوارق، فردّ الله تعالى عليهم فقال: **(أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ)** شهادة **(مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى)** على نبوّته ورسالته كالتّوراة والإنجيل وغيرها من الكتب السّماوية الّتي بشرت بمجيء الرّسول (ﷺ) وذكرت علاماته الّتي انطبقت كلّها عليه، فإذا لم يؤمنوا بعد ذلك فلا يؤمنون وإن أُتي لهم بكلّ خارقة ومعجزة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ هؤلاء القوم كانوا يستحقّون العذاب قبل مجيء الرّسول (ﷺ) لغلوّهم في الشّرك والظّلم والآثام، إلّا أنّا لم نهلكهم حيث قال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم) أهلكنا أهل مكّة **(بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ)** من قبل مجيء الرّسول (ﷺ) إليهم **(لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)** يبلغنا بأحكامك **(فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ)** شريعتك **(مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ)** بعذابك **(وَنَخْزَى)** به، والحاصل أنّهم كانوا يقولون: لماذا عذّبتنا دون أن تبلغنا؟ ولذلك أرسلنا الرّسول إليهم لنقطع حجّتهم هذه إذا عذّبناهم. وبعدما أنذرهم الرّسول بهذه الآية قالوا: نحن نتربّص لك يا محمّد أن يأتيك الهلاك فتموت ويموت دينك، هذا فقال تعالى للرّسول (ﷺ):

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

(قُلْ) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم للكافرين **(كُلٌّ)** جماعة منّا ومنكم **(مُّتَرَبِّصٌ)** بالأخرى فإنّا نتربّص أن يأتيكم الذّل والعذاب كالأمم السّابقة، وأنتم تتربّصون بنا الدّوائر **(فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ)** الطّريق **(السَّوِيّ)** المستقيم **(وَمَنِ)** الّذي **(اهْتَدَى)** إلى الحقّ أنتم أم نحن. والمراد أنّهم يعلمون ذلك في الدّنيا حينما غلب الحقّ على الباطل، وقد علموا ذلك واعترفوا، فإنّهم بعدما أسلموا كانوا يعترفون أنّهم كانوا على الباطل

ويصفون زمانهم الأوّل بالجاهليّة فيقولون: كنّا في الجاهليّة كذا أو نعمل كذا، أو المراد أنّهم يعلمون ذلك يوم القيامة، وحينما سيق الكافرون إلى النّار، بل المراد كلا الأمرين فإنّ كليهما واقع.

اللّهم ثبّتنا على هذا الصّراط السّوي، وارزقنا حسن الخاتمة، وصلّى الله على النّبيّ محمّد وعلى آله وأصحابه ومن اتّبعهم بإيمان إلى يوم الدّين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

سورة الأنبياء

(مكيّة، وهي مئة وإثنتا عشرة آية، نزلت بعد سورة إبراهيم، وسميّت بالأنبياء لما يذكر فيها نبذة من أحوالهم)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) قرب لهم وقت حسابهم وعذابهم على هذا الكفر والتّمرد على الرّسول (ﷺ) والمراد عذابهم في الدّنيا، فإنّ المعارك الّتي أطاحت بسلطان المشركين أتت بعد نزول هذه السّورة بزمان قريب، أو المراد عذابهم في الآخرة، واعتبرت الأقرب قريباً، لأنّ كلّ آت قريب وقد قيل: (ما أبعد ما فات. وما أقرب ما هو آت)[١] أو لأنّ ما بقي من عمر الدّنيا أقلّ ممّا مضى، أو لأنّ كلّ من مات فقد قامت قيامته، والموت قريب من المرء، كان أبوبكر الصدّيق (رضي الله عنه) إذا مرض ينشد ويتغنّى بهذا البيت فيقول:

كلّ امرئٍ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله[٢]

---

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/٤٩٣.

(٢) صحيح البخاري ٢/٦٦٧. الحديث رقم ١٧٩٠.

أو المراد عذاب الدّنيا والآخرة، فإنّ كليهما قريب كما ذكرنا (**إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ**) عنه حيث لا يستعدّون لدفعه واتّقائه بالإيمان والعمل الصّالح، فهم (**مُّعْرِضُونَ**) عن الإيمان الّذي به ينجون من هذا العذاب القريب، وليست غفلتهم وإعراضهم ناشئاً عن عدم تنبيههم بل نبّهوا ووعظوا إلاّ أنّهم (**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ**) من وعظ وتذكير (**مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ**) يتجدّد يوماً بعد يوم من قبل رسوله ونبيّه محمّد (ﷺ) (**إِلَّا اسْتَمَعُوهُ**) استماع المستهزئ والمنكر (**وَهُمْ يَلْعَبُونَ**) بهذا الذّكر ويستهزئون به وبمن جاء به (**لاهِيَةً**) غافلةً (**قُلُوبُهُمْ**) عن إدراك الحقّ واتّباعه (**وَأَسَرُّواْ**) وأخفوا (**النَّجْوَى**) الكلام السّري هؤلاء (**الَّذِينَ ظَلَمُواْ**) أنفسهم بسبب الكفر وجعلها مستحقّة للعذاب فقالوا سرّاً فيما بينهم: (**هَلْ**) الإستفهام للإنكار أي ما (**هَذَا**) الّذي يدّعي الرّسالة (**إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**) أرادوا أنّ الرّسول يجب أن يكون ملائكة ولا يكون البشر رسولاً إلى البشر وأخطأوا؛ لأنّه يجب أن تكون المجانسة بين المرسل والمرسل إليهم، وإلّا فلا يكون التّفاهم والتّآنس بينهم، وهذه الحجّة الواهية كانت حجّة كلّ أمّة في الرّد على رسولهم، فكأن الأوّلين أوحوا إلى الآخرين، ولا عجب فإنّ الكفر ملة واحدة، وحججهم واحدة. وقد بسطنا الكلام على هذا الموضوع في تفسير سورة التّغابن عند قوله تعالى (**أبشر يهدوننا**) بسطاً مفيداً والحمدلله تعالى. ثمّ قالوا: (**أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ**) الّذي يعمله محمّد وتؤمنون به وتتّبعونه (**وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ**) وهذا أيضاً قول الأمم السّابقة لرسلهم! وهكذا كان كفار مكّة يريدون أن يبعدوا النّاس عن الرّسول (ﷺ) لكي لا يؤمنوا به، فتارة يتّهمونه بالجنون وتارة بالسّحر، إلّا أنّ الحقّ يعلو ولا يعلى عليه، وأنّ ما قدّر الله تعالى كان، فانتصر الحقّ واندحر الباطل وصار للرّسول (ﷺ) وأصحابه ((رضي الله عنهم))الكلمة والسّلطان في الأرض قال الشّاعر:

ملك الملوك إذا وهب	**لا تسألنّ عن السّبب**
الله يعطي من يشاء	**فقف على حد الأدب**

وإنّ الحقّ لابد وأن ينتصر إن كان له أصحاب وجاهدوا فيه وله (**قَالَ**) قال النّبيّ في جواب قولهم هذا، وفي قراءة (**قل**) أي قل أيّها النّبيّ في جوابهم (**رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ**) كلّ قول يقال (**فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ**) سواء كان القول سرّاً أو جهراً فيعلم قولكم ونجواكم وسيعاقبكم على ذلك.

ثمّ كان المشركون لا يقفون على أمر واحد بأن يقولوا هو ساحر فقط بل افتروا عليه أموراً أخرى كما قال جلّ وعلا:

﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥﴾

(**بَلْ**) لم يقتصر الكافرون على أن يقولوا للقرآن هو سحر بل (**قَالُواْ أَضْغَاثُ**) صفة لأحلام أضيف إليه، فالتّقدير أنّ هذا الكلام الّذي جاء به محمّد (أضغاث أحلام) أي مختلطة غير متّسقة يراها في المنام ويقول هو وحي من عند الله تعالى، وما اقتصروا على هذا القول أيضاً (**بَلَ**) قالوا (**افْتَرَاهُ**) إختلقه هو من عند نفسه ونسبه إلى الله والوحي منه وما اقتصروا على هذا أيضاً (**بَلْ**) قالوا (**هُوَ شَاعِرٌ**) وهذا الّذي جاء به هو شعر وليس وحياً فإن كان هو رسولاً (**فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ**) بخوارق عاداتٍ (**كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ**) وأتوا بخوارق للعادات كناقة صالح وإحياء عيسى للموتى وتفجير موسى العيون من الصّخرة وتقليب العصا حيّةً وثعباناً، فأراد الله تعالى أن يجيبهم على الأوّل وهو أن يكون الرّسول ملكاً. والثّاني وهو أن يأتي بخوارق عادات، فردّاً على الإقتراح الثّاني قال جلّ وعلا:

﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾

(**مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مّن**) أهل (**قَرْيَةٍ**) طلبوا الخوارق فأجبناهم ولم يقنعوا، ولذلك (**أَهْلَكْنَاهَا**) لأنّه جرت عادتنا بأنّ أيّ أمةٍ إقترحت آية فأوتيت ولم يؤمنوا أهلكناها، فإذا كان هؤلاء الأمم السّابقة لم يؤمنوا بالآيات الّتي اقترحوها (**أَفَهُمْ**) أفأهل مكّة (**يُؤْمِنُونَ**) أذا أريناهم ما اقترحوا من الآيات؟ كلّا، فإنّهم لا يطلبون الآيات للإقتناع بل للإنكار والإحراج، حيث إنّ هذا القرآن أكبر معجزةً، فإذا لم يؤمنوا بسببه فلا يؤمنون بكلّ ما يؤتوا من الآيات.

ثمّ أراد الله تعالى أن يردّ على الإقتراح الأوّل وهو أن يكون الرّسول من الملائكة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾

(**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلّا رِجَالاً**) من البشر وما أرسلنا ملائكةً فأرسلنا رجالاً (**نُوحِي**

إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ) فاسألوا أهل الكتب السّابقة كأحبار اليهود ورهبان النّصارى هل أرسلنا ملائكةً رسلاً إلى البشر قطّ؟ **(إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)** عادة الله تعالى في إرسال الرّسل للتّبليغ والإرشاد.

ثمّ إنّ الكافرين كانوا يعترضون على الرّسول (ﷺ) ويقولون: ﴿ما لِهذا الرَّسولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشى فِي الأَسْواقِ﴾ سورة الفرقان ـ ٧ ـ ظنّوا أو أرادوا أنّ الرّسول لا يأكل ولا يشرب ولا يتمتّع بما يتمتّع به الإنسان، فردّ الله تعالى عليهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ) وما جعلنا الرّسل السّابقين **(جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ)** ولا يشربون ولا يتمتّعون بما يتمتّع به البشر، بل جعلناهم على طبيعتهم البشريّة يأكلون ويتمتّعون بما يتمتّع به الإنسان ويموتون **(وَمَا كَانُوا خالِدين)** في الدّنيا فلا يموتون **(ثُمَّ)** بعد ما دعوا إلى الله تعالى وكذّبهم قومهم **(صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ)** بنصرهم وإهلاك أعدائهم المكذّبين لهم، فأتينا بالعذاب عليهم **(فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء)** وهم المؤمنون بهم **(وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)** المتجاوزين الحقّ بالكفر وتكذيب الرّسل والاستهانة بهم وبدعوتهم، وفي هذا وعيد لأهل مكّة ومن كذّب رسول الله (ﷺ).

ثمّ خاطبهم الله تعالى ونبّههم أنّ حالهم حال المسرفين السّابقين ليحذروا فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

(**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ**) شريعتكم الّتي فرضنا عليكم العمل بها كما أنزلنا على الأمم السّابقة (**أَفَلا تَعْقِلُونَ**) فتعملوا بشريعتنا وتعتبروا بمن سبقكم، حيث أهلكوا حين انحرفوا عن شريعتنا كما قال جلّ وعلا: (**وَكَمْ قَصَمْنَا**) أهلكنا (**مِن**) أهل (**قَرْيَةٍ**) كانت (**كَانَتْ ظَالِمَةً**) منحرفةً عن نظامنا ومنهجنا (**وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا**) بعد إهلاكها (**قَوْمًا آخَرِينَ**) لنمتحنهم أيضاً. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال الأقوام حينما جاءهم عذاب الإهلاك والتّدمير فقال جلّ وعلا: (**فَلَمَّا أَحَسُّوا**) أدركوا (**بَأْسَنَا**) عذابنا وعلموا أنّه قد جاء (**إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ**) يهربون من العذاب فينادي بعضهم بعضاً (**لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ**) أنعمتم (**فِيهِ**) من النّعم واللّذائذ (**وَمَسَاكِنِكُمْ**) إرجعوا إلى مساكنكم (**لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ**) خراجاً؛ فأعطوا وتسلموا من العذاب. ثمّ بعدما فكّروا علموا أنّ هذا عذاب الله تعالى ولا مردّ له لا بمال ولا بقوّةٍ فنادوا (**قَالُوا يَا وَيْلَنَا**) وهلاكنا ودمارنا (**إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**) حيث تركنا أمر الله تعالى وانحرفنا عن دينه ونظامه (**فَمَا زَالَت تِّلْكَ**) الكلمة وهي: يا ويلنا إنّا كنّا ظالمين (**دَعْوَاهُمْ**) يردّدونها (**حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا**) كالزرع المحصود (**خَامِدِينَ**) كالنّار الخامدة أي ميّتين لا حراك لهم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى إرسال الرّسل وإهلاك من كذبوا الرّسل أراد تعالى أن يذكر الحكمة في إرسال الرّسل فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

(**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء**) وهي منتهى العلوّ (**وَالأَرْضَ**) وهي منتهى السّفل (**وَمَا بَيْنَهُمَا**) من المتوسطات كالأجرام من النّجوم والكواكب، فما خلقنا كلّ ذلك (**لاعِبِينَ**) بدون حكمة، فكلّ عمل بدون حكمة ومصلحة يراد منها هو لعب ولهو كلعب الصّبيان لا غرض فيه ولا حكمة، بل خلقنا السّماء والأرض وما بينها لحكمة، وهي أن نخلق ونسكن نوع الإنسان والجنّ هذه الأرض ليعمروها حسب شريعتنا ويستخرجوا ما يدلّ على قدرتنا وحكمتنا وعلمنا من الكنوز والمعادن، ويخترعوا من الصّنائع البديعة والأعمال العجيبة، وينشروا بذلك العدل في الأرض وعبادة الله تعالى فيها؛ فلذلك أرسلنا الرّسل ليبلّغوهم بكيفية عبادتنا ويعلّموهم شريعتنا ومنهجنا ليعملوا به ويطبّقوه،

فإذا أبوا وامتنعوا عن استجابة ما ندعوهم إليه يحقّ عليهم العذاب فدمّرناهم تدميراً، فلهذا خلق الله هذا الكون وأسكن النّاس فيه لا للّعب، فالخلق ليس لهواً والرّسالة والشّريعة والتّكليف ليس لعباً حيث (**لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ**) أن نعمل (**لَهْوًا**) أو لعباً (**لاتَّخَذْنَاهُ**) لعملناه (**مِن لَّدُنَّا**) عندنا في السّماوات لا في الأرض (**إِن كُنَّا فَاعِلِينَ**) للّعب واللّهو، فإنّ اللّاعب يجعل لهوه عنده. هذا وقد فسّر بعض المفسرين اللّهو بالمرأة والولد، وقالوا معناه لو اتّخذنا المرأة والولد واخترناهما لاتّخذناه (**مِن لَّدُنَّا**) من عندنا من الحور والغلمان لا من الأرض كمريم وعيسى وعزير مثلاً، فردّ الله تعالى بهذا على النّصارى واليهود، ولكنّ هذا التّفسير ليس صحيحاً لأمرين:

الأوّل: أنّ هذا التفسير لا يوافق السّياق هنا، لأنّ المقام مقام بيان حكمة الرّسالة والتّكليف بالعمل بنظام الله تعالى، وليس مقام نفي الولد والصّاحبة وتنزيه الله تعالى من ذلك.

الثّاني: أنّ هذه السّورة مكيّة والسّور المكيّة تناقش المشركين فقط ولا تناقش أهل الكتاب، وأنّ النّقاش مع أهل الكتاب في السّور المدنية فقط والله تعالى أعلم[1].

(**بَلْ**) ليس أمرنا لعباً بل (**نَقْذِفُ بِالْحَقِّ**) الّذي جاء به الرّسل (**عَلَى الْبَاطِلِ**) الّذي شرعوه وسنّوه حسب هواهم (**فَيَدْمَغُهُ**) فيزيله ويبطله (**فَإِذَا هُوَ**) الباطل (**زَاهِقٌ**) زائل (**وَلَكُمُ الْوَيْلُ**) الهلاك والعذاب (**مِمَّا تَصِفُونَ**) من العقائد الباطلة والأنظمة الفاسدة خلاف عقيدة التّوحيد وشريعة الله الحميد المجيد.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر استحقاقه للعبادة والإطاعة فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

---

(١) لعل المراد: أنه وفق الإرادة الإلهية الحرة والقدرة المطلقتين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه ولما عجزنا عنه ولجعلنا لذلك اللهو حكمة أيضا؛ لعدم خلو أفعال الله تعالى من الحكمة، فهو تعبير عن مطلقية إرادته وقدرته وعن عدم خلو أفعاله من الحكمة. أي هو قادر على فعل كل شيء فلا يخرج شيء عن إرادته لكنه لايفعل ما يخلو من الحكمة...

(وَلَهُ) ولله مالكيّة وملكيّة كلّ **(مَن فِي السَّمَاوَاتِ)** وهم الملائكة **(وَالأَرْضِ)** وكلّ من في الأرض من الجنّ والإنس، فإذا كان هؤلاء كلّهم ملكه وعبيده تكويناً وخلقاً وإحياءً وإماتةً فيجب أن يطيعوه لا غيره ويعبدوه لا من سواه. ثمّ ذكر الله تعالى أنّ الملائكة يقومون بواجبهم من العبادة والطّاعة ويؤدّونه فقال جلّ وعلا: **(وَمَنْ عِندَهُ)** من الملائكة **(لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ)** فيعبدونه حقّ العبادة **(وَلا يَسْتَحْسِرُونَ)** لا يتعبون منها حيث إنّهم **(يُسَبِّحُونَ)** في **(اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)** وكلّ ساعاتهما مستمرين **(لا يَفْتُرُونَ)** عن التّسبيح والعبادة أي لا يغفلون لحظةً من حياتهم فلماذا أنتم أيها الناس تستكبرون عن عبادة الله تعالى وتغفلون عنها وأنتم مملوكون له وعبيده تكويناً، فاعبدوه تشريعاً وإلّا تستحقّون العذاب والدّمار فلا لوم إلّا على أنفسكم **(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)**.

ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت أنّ الآلهة الّتي يعبدها النّاس باطلة، وأنّه لا إله إلّا الله تعالى فقال جلّ وعلا في بطلان الآلهة:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

(أم) بمعنى همزة الإستفهام فالمعنى **(إتَّخَذُوا)** هؤلاء **(آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ)** تكون لهذه الآلهة قدرة على الخلق ويكونون **(هُمْ يُنشِرُونَ)** يُحيون الأموات[1]، والإستفهام للإنكار أي ما اتّخذوا آلهةً كذلك بل لا تقدر آلهتهم على شيء، فإذا كان الأمر كذلك فآلهتهم باطلة لأنّ من شرط الألوهيّة القدرة على الخلق والإيجاد.

ثمّ ذكر الله تعالى الدّليل على وحدته فقال جلّ وعلا:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا) في السّماء والأرض **(آلِهَةٌ)** متعدّدة اثنين أو أكثر **(لَفَسَدَتَا)** لما صلحتا لأن يوجد فيها شيء من الأشياء، وقد وجد فيها أشياء لا تحصى، وتوجد يوماً بعد يوم وفي كلّ لحظة أشياء لا تحصى، فينتج أنّ الآله واحد فإذا كان الإله واحداً

---

(١) أي يحيون الأموات من قبورهم.

(فَسُبْحَانَ) متنزه **(اللَّهِ)** تعالى **(رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)** من نسبة الشّريك إليه ووجود الآلهة معه قليلاً أو كثيراً كانت تلك الآلهة.

سؤال: فلمِ لا يوجد شيء في السّماء والأرض إذا تعدّدت الآلهة؟

الجواب: لأنّه إذا تعدّدت الآلهة وفُرض التّعدد في أقلّ مراتب العدد وهو إثنان؛ فكلّ شيء أريد وجوده من قبل أحد الإلهين يحتمل أن يعارضه إرادة الآخر بأن يريد هو عدمه، فحينئذٍ إن حصل مراد الإثنين فيقع التّناقض لأنّ وجود الشّيء وعدمه متناقضان والتّناقض محال بداهةً، فإنّه لا يكون شيء واحد موجوداً ومعدوماً في آن واحد. وإمّا أن تتعارض الإرادتان فتسقطان فلا يوجد ذلك الشّيء، وهكذا في كلّ شيء فلا يوجد شيء.

سؤال آخر: فلم لا يجوز أن تتّفق إرادتهما على خلق الأشياء فلا تتعارضا فلا تتساقط إرادتهما فتوجد الأشياء؟

الجواب: إنّه إذا اتّفقا فإمّا أن يوجد الشّيء بإرادة أحدهما فقط فيكون الآخر مستغنى عنه؛ فلا يكون إلهاً، لأنّ الإله ما كان كلّ شيء محتاجاً إليه، أو يكون الشّيء بإرادة الإثنين، فحينئذٍ إن كانت كلّ واحدة من إرادة الإثنين علّة تامّة لوجود الشّيء فيلزم أن يوجد مفعول واحد في آن واحد بفاعلين تامّين، وهذا محال لأنّ تواتر مؤثّرين على أثر واحد محال بداهة. وإن كانت إرادة أحدهما تامّة والأخرى ناقصة فصاحب النّاقصة لا يكون إلهاً لأنّه عاجز والعاجز لا يكون إلهاً، وإن كانت إرادة الكلّ ناقصة وإنّما تكون العلّة تامّه بتوافقهما، فكلاهما يكونان عاجزين لا يصلحان للألوهيّة، فيجب أن يكون الإله واحداً له إرادة مطلقه فعّالة لا تردّ ولا تمنع وبحيث (لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ) غيرهم (يُسْأَلُونَ) فثبت بالدّليل العقلي أنّ الإله واحد لا إله إلّا هو.

سؤال ثالث: لماذا قال تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا) ولم يقل (آلهة إلّا الله لفسدتا) أي السّماء والأرض مع أنّ الدّليل يجري فيما قبل وجودهما فيلزم أن تفسدا أي لا توجدا؟

الجواب: قال ذلك لأنّ الآلهة الّتي يعبدها النّاس كلّها مخترعة بعد خلق السّماوات والأرض، ولا أحد يدّعي إلهاً قبلها سوى الله تعالى بالإتّفاق، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ سورة لقمان/ ٢٥.

❊ ❊ ❊

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الأدلّة القطعيّة الّتي تدلّ على أن لا إله إلا الله الواحد الأحد، أراد أن يذكر أن مدّعي الألوهيّة لغير الله تعالى لا دليل لهم فقال جلّ وعلا:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(أَمِ) بمعنى الهمزة للإستفهام أي **(اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ)** من غير الله تعالى **(آلِهَةً)** والإستفهام للإنكار، أي إنّ هذا شيء منكر جدّاً وباطل حيث لا دليل لهم، ولذا قال جلّ وعلا: **(قُلْ)** أيها النّبيّ وأيّها المسلم لهم: **(هَاتُوا)** إيتوا **(بُرْهَانَكُمْ)** على كون هؤلاء آلهة والأمر للتعجيز، أي لا دليل لهم فليسوا بآلهة **(هَذَا)** التّوحيد وعقيدة أن لا إله إلّا الله **(ذِكْرُ)** دين **(مَن مَّعِيَ)** من المؤمنين **(وَذِكْرُ)** ودين **(مَن قَبْلِي)** من الرّسل **(بَلْ أَكْثَرُهُمْ)** المشركين[1] **(لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ)** لا يحبّون أن يعلموه ولا يسعون له **(فَهُم مُّعْرِضُونَ)** عن الحقّ وعن طلبه والوصول إليه.

ثمّ أثبت الله تعالى أن التّوحيد هو عقيدة كلّ من جاء قبل الرّسول من المرسلين؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ) أيّها النّبيّ **(إِلّا)** كنّا **(نُوحِي إِلَيْهِ)** ونبلغه **(أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)** أصله فاعبدوني، حذفت الياء للتّخفيف أي اعبدوني ولا تعبدوا غيري، وبهذا تمّ الدّليل النّقلي على التّوحيد كما تمّ الدّليل العقلي آنفاً.

ثمّ بعد أن نزّه الله تعالى نفسه عن الشّريك وأثبت أن لا إله غيره، أراد أن يثبت أنّه نزيه عن الولد أيضاً، فلا ولد له فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ

(١) أي أكثر المشركين.

بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

(**وَقَالُوا**) قال المشركون (**اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا**) وأنّ الملائكة بنات الله تعالى، ولذلك كانوا يعبدون الملائكة، وحيث إنّ الملائكة غائبون عن حسّهم وحضورهم مثّلوا لهم تماثيل وهي الأصنام فعبدوها، فهذه كانت فلسفة المشركين (**سُبْحَانَهُ**) تنزّه الله تعالى عن أن يكون له ولد (**بَلْ**) الملائكة (**عِبَادٌ**) لله تعالى (**مُكْرَمُونَ**) محترمون عنده ومقدّرون (**لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ**) لا يسبقون الله تعالى بقولهم فلا يقولون شيئاً إلّا بعد أن يقول الله تعالى، ولا يعملون إلّا بأمره (**وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**) كلّ ما يعملون (**يَعْلَمُ**) الله تعالى (**مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**) مستقبلهم وما يعملون فيه (**وَمَا خَلْفَهُمْ**) ماضيهم وما فعلوا فيه (**وَلا يَشْفَعُونَ**) لأحد (**إِلّا لِمَنِ ارْتَضَى**) رضي الله تعالى أن يشفعوا له وهم الّذين لم يشركوا ولم يعبدوا غيره ولم ينسبوا إليه، وما لا يليق به من الأبناء أو البنات أو الصّاحبة (**وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ**) من الملائكة على فرض المحال (**إِنِّي إِلَهٌ**) آخر (**مِّن دُونِهِ**) من دون الله تعالى (**فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**) كلّهم فندخلهم جهنّم، والظّالم هو كلّ من انحرف عن عقيدة التّوحيد أو العمل بشريعة الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر دلائل تدلّ على وجوده ووحدته ونزاهته من الولد والبنات، فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

(**أَوَلَمْ يَرَ**) أوَ لم يعلم (**الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا**) جرماً واحداً

(فَفَتَقْنَاهُمَا) فشققناهما من ذلك الجرم وصار كلّ واحدة منهما جرماً مستقلاً بذاته، فالآية تدلّ على أنّ السّماوات والأرض كانتا جرماً واحداً ففتقه الله وفجّره وجعل منه أجراماً كثيرة، وكيف كان الرّتق والفتق؟ ذكرنا ذلك في سورة النّازعات في قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ الآية ٣٠. والاستفهام هنا للتّقرير، حيث لم يكونوا يعلمون ذلك، فالمعنى لم يعلموا فإنّا نخبرهم بذلك ليعلموا، أو الإستفهام للتّوبيخ إن كانوا علموا ذلك من البقيّة الباقية من دين سيّدنا إبراهيم وإسماعيل (على نبينا وعليهم الصلاة والسلام) أي علموا ذلك، فلماذا لم يستدلّوا به على وحدة الله تعالى **(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيّ)** فإنّ كلّ حيّ من الحيوان والإنسان والطّيور والحشرات والزّواحف وغير ذلك يوجد من النّطفة والنّطفة من الغذاء والغذاء من النّباتات والأشجار، وهي من الماء الّذي ينزل فيختلط بالتّراب، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ سورة الحج الآية/ ٥. **(أَفَلا يُؤْمِنُونَ)** بعد النّظر في هذا الكون الّذي يدلّ على وجود الله تعالى ووحدته ونزاهته عن الشّريك والولد **(وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ)** جبالاً رواسيةً أي ثابته تثبت الأرض وتمنعها **(أَن تَمِيدَ)** تضطرب **(بِهِمْ)** بالّذين سكنوا عليها **(وَجَعَلْنَا فِيهَا)** في الأرض **(فِجَاجًا)** صفة لقوله: **(سُبُلاً)** سبلاً واسعةً **(لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)** يهتدون ويصلون إلى أمكنة الكسب للرّزق والعمل والتّجارة من البلاد والقرى والصّحارى والوديان والجبال **(وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا)** كالسّقف على الأرض **(مَّحْفُوظًا)** عن السّقوط والوقوع عليهم **(وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا)** عن الدّلائل الموجودة في السّماء الّتي تدلّ على وجود الله ونزاهته عن الشّريك والولد **(مُعْرِضُونَ)** فلا يتفكّرون فيها ولا يؤمنون بمدلولاتها **(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ)** من الشّمس والقمر وغيرهما من الأجرام **(فِي فَلَكٍ)** على مدار **(يَسْبَحُونَ)** يتحرّكون، وهذه الأمور المذكورة من السّماء والأرض والحيوانات والجبال والسّبل واللّيل والنّهار كلّها تدلّ على وجود الله تعالى ونزاهته عن الشّريك والولد، فإنّ كلّ من يتفكّر في هذه الصّنائع العجيبة والأنظمة البديعة يعلم أنّ لا وجود لها إلّا من صانع عليم وقدير وهو الله تعالى، وأنّ من له هذه القدرة والعلم لا يحتاج إلى شريك ولا إلى ولد، فلا يقبلهما لأنّ الشّريك والولد إنّما يقبلهما العاجز عن عمله أو الجاهل، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثمّ كان المشركون ينتظرون موت الرّسول (ﷺ) ويقولون: (نتربّص به ريب المنون) أي مصيبة الموت فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ**) أيها النبيّ (**الْخُلْدَ**) البقاء في الدّنيا إلى خرابها (**أَفَإِن مِّتَّ**) أنت (**فَهُمُ الْخَالِدُونَ**) كلّا فلماذا يفرحون بموتك إذن (**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**) أنت وهم وغيركم فلا ينجو من الموت أحد (**وَنَبْلُوكُم**) ونصيبكم في الحيوة (**بِالشَّرِّ**) بالضّرر (**وَالْخَيْرِ**) النّعم والفوائد (**فِتْنَةً**) امتحاناً لكم فننظر هل تصبرون عند البلاء وتشكرون على النّعماء أم لا (**وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**) بعد الموت فنثيب من صبر وشكر ونعذّب من لم يصبر وكفر.

ثمّ ذكر الله تعالى حال الكافرين وسوء أدبهم تجاه الرّسول فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾

(**وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا**) بك (**إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا**) محلّ استهزاء وسخريّةً منك ويقولون: (**أَهَٰذَا**) الحقير (**الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ**) بسوء ويقول إنّها باطلة (**وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ**) وتوحيده (**هُمْ كَافِرُونَ**) فهم أحقّ بالسّخرية والاستهزاء، ومن هنا غضب المؤمنون وأرادوا أن ينتقم الله تعالى منهم فوراً، فقال تعالى: (**خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ**) جعل من جبلّته الاستعجال (**سَأُرِيكُمْ**) نتيجة (**آيَاتِي**) الّتي نزلت في وعيدهم وأحقّق مصداقها (**فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**) أصله تستعجلونني، حذفت نون الجمع بالجزم بلا النّاهية فصار فلا تستعجلوني، وحذفت الياء تخفيفاً ولرعاية الفاصلة، فأراهم الله تعالى ذلك يوم بدر وحنين والأحزاب والفتح.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى عقيدة الكافرين تجاه الله تعالى من الشّرك ونسبة الولد إليه وعقيدتهم تجاه الرّسول (ﷺ) من السّخرية منه والاستهزاء به، أراد أن يبيّن عقيدتهم تجاه الحشر ويوم القيامة، فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

(**وَيَقُولُونَ**) إنكاراً واستهزاءً (**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**) الّذي تقولون يبعث النّاس فيه أيّها المؤمنون (**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**) من مجيء هذا اليوم فعيّنوا لنا وقته فقال تعالى: (**لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**) حالهم بسبب إنكار يوم القيامة (**حِينَ لا يَكُفُّونَ**) لا يقدرون أن يكفّوا أي يدفعوا (**عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ**) وجواب لو محذوف تقديره لو يعلمون ذلك لما قالوا ذلك، أو لعلموا أمراً فظيعاً يحيط لهم (**وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**) من قبل أحد. هذا وإنّ السّاعة لا يبيّن وقتها ولا يعلم بها أحد (**بَلْ تَأْتِيهِم**) السّاعة (**بَغْتَةً**) فجأة (**فَتَبْهَتُهُمْ**) فتحيّرهم (**فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا**) دفعها (**وَلا هُمْ يُنظَرُونَ**) يمهلون ليستعدّوا لها بتوبة ورجوع إلى الحقّ والإيمان.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله (ﷺ) فقال جلّ وعلا وأنعم علينا وتفضّل:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾

(**وَلَقَدِ**) وبعزّتي لقد (**اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ**) فلا تحزن، فإنّ هذا من سنّة الله تعالى مع رسله يستهزأ بهم ويسخر منهم، ثمّ تكون العاقبة لهم فينصرهم الله تعالى ويهلك أعداؤهم، كما قال تعالى: (**فَحَاقَ**) فأحاط (**بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم**) من الرّسل واستهزؤا بهم عقاب (**مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون**) وهذا وعيد للكافرين بالهزيمة والذلّ أمام الحقّ ووعد للمؤمنين بالنّصر والغلبة على الأعداء إن عملوا وجاهدوا وصبروا. اللّهم انصرنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذرهم فقال جلّ وعلا:

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ

ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

(**قُلْ**) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم للكافرين تذكيراً لهم بالله (**مَن يَكْلَؤُكُم**) من يرعاكم ويحفظكم (**بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**) ومدى الزّمان (**مِنَ الرَّحْمَنِ**) أن يبطش بكم لولا رحمته وصبره عليكم، والاستفهام للإنكار أي لا أحد يحفظكم إلّا الله تعالى (**بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم**) وحفظه لهم من المصائب (**مُّعْرِضُونَ**) معرضون (**أَمْ**) بمعنى همزة الإستفهام أي (**لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم**) من المصائب (**مِّن دُونِنَا**) فهؤلاء الآلهة الّتي وثقوا بها (**لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ**) ودفع الشرّ عن أنفسهم حيث يبول عليها الذّباب فلا يستطيعون دفعه، ولو داس عليهم الكلاب لما قدروا على مقاومته (**وَلا هُم**) أي الآلهة (**مِّنَّا**) من عذابنا إذا أردناه لهم (**يُصْحَبُونَ**) يحفظون، فليس لأحد من هؤلاء الكافرين من يمنعهم من عذابنا (**بَلْ**) لكن (**مَتَّعْنَا هَؤُلاء وَآبَاءهُمْ**) بالأموال والصّحة والرّخاء (**حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ**) طال عليهم زمان التّمتّع ولم يصبهم مصيبة فاغتروا ونسوا الله تعالى وشكره، ويعتقدون أنّه لا غالب عليهم (**أَفَلا يَرَوْنَ**) هؤلاء (**أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ**) أرض الأقوام المتجاورة (**نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**) نأخذ من أطرافها ونخرجها عن سيطرتهم وسلطانهم، وندخلها في سلطان آخر، فإذا لم تغلب تلك الأقوام صاحبة السّلطان على قدرتنا وإرادتنا (**أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ**) على قدرتنا إذا أردنا بهم الهلاك. وهذا أولى من قول المفسّرين أنّ المراد يأخذ من أرض الكفّار ويضمّها إلى سيطرة المسلمين لأنّ السّورة مكيّة ولم يكن هناك جهاد وفتح للبلاد ولا سلطان للمسلمين، لأنّها كان ذلك بالمدينة المنوّرة (**قُلْ**) أيّها النّبيّ لهؤلاء الكفرة (**إِنَّمَا أُنذِرُكُم**) هذه الإنذارات (**بِالْوَحْيِ**) من الله تعالى وبأمر منه وليست من عندي (**وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء**) النّداء (**إِذَا مَا يُنذَرُونَ**) فهم صمّ من كلّ الإنذارات فلا يتنبّهون إلّا وقت الشّدة فإنّهم بحال (**وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ**) دفعة قليلة (**مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ**) فزعوا وتنبّهوا حيث (**لَيَقُولُنَّ**) في ذلك الوقت (**يَا**

وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) فهذا إنذارهم بعذابهم في الدّنيا وأنذرهم الله تعالى بعذاب يوم القيامة أيضاً فقال جلّ وعلا: **(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ)** العدل **(لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ)** فلا تنقص **(نَفْسٌ شَيْئًا)** ممّا عملت **(وَإِن كَانَ)** من عمله ما يساوي **(مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا)** وحسبناها له من خير أو شر **(وَكَفَى)** واكتف **(بِنَا حَاسِبِينَ)** لأعمالهم فلا حاسب أدرى منّا وأعلم وأحفظ.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من أحوال الرّسل السّابقين وأممهم تسلية للرّسول (ﷺ) ووعداً للمؤمنين بالغلبة والنّصر ووعيداً للكافرين بالهزيمة والذّل والهوان فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ) الكتاب الّذي يفرّق بين الحقّ والباطل **(وَضِيَاء)** ينير منهج الحياة والحكم والعمل **(وَذِكْرًا)** وشريعةً **(لِّلْمُتَّقِينَ)** الّذين يحبّون التّخلّي عن الرّذائل والتّحلي بالفضائل **(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم)** أن يعذّبهم إذا عصوه ويخافون منه **(بِالْغَيْبِ)** في حالة الخلوة وعدم إطّلاع أحد عليهم، فهناك يصدق الخوف من الله تعالى إذا امتنع المرء فيه عن المعصية والسّوء **(وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ)** من يوم القيامة والحساب فيه **(مُشْفِقُونَ)** أراد بذلك أنّ الخشية من الله تعالى لا تعتبر إذا لم تكن مقترنةً بالإيمان بيوم القيامة، فإنّ بعض النّاس يخافون عذاب ربّهم في الدّنيا فقط ولا يؤمنون بالآخرة **(وَهَذَا ذِكْرٌ)** وعظ ومنهج **(مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ)** على محمّد (ﷺ) **(أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)** ونزول الكتب أمر معتد من الله تعالى من آدم إلى هذا اليوم والاستفهام للتّوبيخ والتّقريع.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من حال سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

(**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ**) كماله في العلم بأمور دنياه ودينه (**مِن قَبْلُ**) قبل موسى وهارون (**وَكُنَّا به**) بقوله وعمله (**عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ**) جمع تمثال وهو الهيكل والصّورة (**الَّتِي أَنتُمْ لَهَا**) على عبادتها (**عَاكِفُونَ**) ماكثون مقيمون (**قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ**) فنعبدها تقليداً واتّباعاً لهم (**قَالَ**) إبراهيم لهم (**لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ**) جميعاً (**فِي ضَلالٍ**) إنحراف عن الصّراط المستقيم وصراط الله العليم (**مُّبِينٍ**) ذلك الضّلال جدّاً فأجابه قومه كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

(**قَالُوا أَجِئْتَنَا**) في هذا القول (**بِالْحَقِّ**) بالجدّ (**أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ**) تلعب معنا (**قَالَ**) بل أنا مجد في هذا القول وأنّ هذه الأصنام ليست إلّا باطلةً وليست آلهة (**بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ**) خلقهن (**وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم**) القول (**مِّنَ الشَّاهِدِينَ**) من المعترفين والمؤمنين به؛ فلا يستحقّ العبادة إلّا الله خالق السّماوات والأرض والنّاس أجمعين، لأنّ المعبود يجب أن يكون خالقاً ومن لا أو ما لا فلا يستحقّ العبادة والتّقديس. فلمّا طال الجدال بين إبراهيم وقومه واشتدّ النّزاع غضب ابراهيم وأراد أن يثبت لهم عمليّاً أنّ هذه ليست آلهة وعبادتهم ضلال مبين فخاطبهم فقال كما يرويه لنا جلّ وعلا:

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(**وَتَاللَّهِ**) قسمي (**لأَكِيدَنَّ**) لأفعل سوءاً بـ (**أَصْنَامَكُم**) فانظروا هل يقدرون أن يدافعوا عن أنفسهم أو يضرّوني بشيء فأفعل بهم (**بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ**) إلى الصّحراء للّعب يوم عيدكم. فلمّا ذهبوا ذهب إلى الأصنام فكسرهم (**فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا**) مفتتةً بفأس خرّبهم به (**إِلَّا**) صنماً (**كَبِيرًا**) كان (**لَّهُمْ**) فلم يكسره (**لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ**) لكي يرجعوا إلى هذا الكبير فيجعله حجّة لالزامهم وإفهامهم ضلالهم وتثبيته. فلمّا رجعوا من اللّعب وذهبوا لزيارة الأصنام وجدوها مفتتةً فسألوا كما قال جلّ وعلا:

قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

(**قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا**) الفعل المنكر (**بِآلِهَتِنَا**) وكسرها (**إِنَّهُ**) الّذي فعل هذا (**لَمِنَ الظَّالِمِينَ**) المتجاوزين الحدّ في حقّ الآلهة وفي حقّنا حيث هتك مقدّساتنا (**قَالُوا**) قال مجموعة منهم (**سَمِعْنَا فَتًى**) شاباً (**يَذْكُرُهُمْ**) ويقول: لأكيدنّ أصنامكم (**يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ**) ويسمّى به (**قَالُوا**) قال الرّؤساء (**فَأْتُوا بِهِ**) بهذا الفتى (**عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ**) بمرأىً منهم (**لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ**) عليه أنّه هو الّذي ذكر الآلهة بسوء ففتّشوا عن إبراهيم وأتوا به فلمّا حضر أمامهم خاطبوه كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

(**قَالُوا**) قال الرّؤساء لإبراهيم معنّفين له: (**أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا**) الفعل المنكر (**بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**) وكسرت آلهتنا ياإبراهيم؟ والاستفهام للتّوبيخ والتّعنيف والتّقريع (**قَالَ**) إبراهيم في جوابهم: (**بَلْ فَعَلَهُ**) بل فعل هذا الفعل وكسر هذه الأصنام (**كَبِيرُهُمْ هَذَا**) الصّنم الكبير، وكان قد علّق الفأس به فكسرهم لأنّه من عادة الملوك أنّ الملك الكبير إذا غضب على الصّغار قتلهم، فهذا الصّنم الكبير غضب على الصّغار فكسرهم (**فَاسْأَلُوهُمْ**) فاسألوا الصّغار وقولوا لهم: من فعل بكم؟ ليجيبوكم عن الفاعل (**إِن كَانُوا يَنطِقُونَ**) هكذا قال بعض المفسّرين.

سؤال: كيف نسب إبراهيم الفعل والكسر إلى الصّنم الكبير وهو كذب، وهو نبيّ معصوم من المعاصي وأنّ الكذب معصية؟

الجواب: ذكروا في الجواب عنه أقوالاً أحسنها عندي ما قال بعض المفسّرين: أنّ المعنى (بَلْ فَعَلَهُ) فاعل، ولذا يوقف على هاء فعله ثمّ يبتدأ بقوله: كبيرهم هذا.

وأقول: يمكن أنّ إبراهيم (عليه السلام) أراد بقوله: بل فعله، أي فعله الفتى الّذي ذكرهم ويكون إقراراً منه بفعله على وجه لم يفهموه، وقال بعض المفسّرين: أنّ الكذب للمصلحة جائز وقد رووا حديثاً عن البخارى ومسلم أنّ النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال: ما كذب

إبراهيم إلّا ثلاث كذبات: أحدها هذا، والثّاني: قوله: إنّي سقيم، وردّ الإمام الرّازي هذا الحديث فقال: فلأن يضاف الكذب والخطأ إلى روّاة الحديث أولى من أن يضاف الكذب إلى رسول هو من أولي العزم ومن أكابر المرسلين؛ فإنّ الكذب في حقّ الرّسل ممنوع مطلقاً لمصلحة أو لغير مصلحة، ولا تبرّر المصلحة لهم الكذب فإنّه لو جاز ذلك لتطرّق الاحتمال إلى كلّ ما يقولون أنّهم قالوا ذلك لمصلحة وهو كذب. فيبطل الوثوق بهم فيختل أمر الرّسالة والتّبليغ، وهذا الّذي قاله الإمام هو حقّ لا مرية فيه، وهو المعوّل عليه فيجب أن تحمل الآية على هذين الجوابين فقط. ويحمل الحديث إن صح على أنّ المراد بالكذب الكذب صورة.

سوآل آخر: إنّ الأصنام قد كسرت وفتّتت، فكيف قال لهم: فاسألوهم إن كانوا ينطقون؟ فكيف ينطق ما مات وما كسر وأصبح جذاذاً؟

الجواب: بوجهين:

الأوّل: أنّ المراد بـ (فاسألوا كبيرهم) إن كانوا أي إن كان جنس الآلهة ينطقون فكبيرهم يجبيكم.

الثّاني: قال إبراهيم (عليه السلام) ذلك ليعترفوا بأنّ الآلهة كسرت وفتّتت ليحتج عليهم فيقول: فكيف تعبدون ما يكسر ويفتّت ولا يقدر أن يدافع عن نفسه؟ إلا أنّ الكافرين هربوا من هذا الإعتراف بل قالوا: بأنّهم لا ينطقون فلمّا نبّههم إبراهيم على هذه الأمور تفكّروا قليلاً كما قال جلّ وعلا:

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

(**فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ**) وتفكّروا فيها فعلموا أنّهم في ضلالة وأنّ إبراهيم على حقّ وأنّ هذه الأصنام ليست آلهة (**فَقَالُوا**) قال بعضهم لبعض (**إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ**) لا إبراهيم (**ثُمَّ**) بعد ما فكروا وزعموا أنّهم بقضائهم على هذه العقيدة عقيدة عبادة الأصنام

يفقدون سيادتهم ورئاستهم ومصالحم الدّنيويّة فلذلك الظّن **(نُكِسُوا)** إنقلبوا عن رأيهم وهدايتهم كما يتقلّب النّاس **(عَلَى رُؤُوسِهِمْ)** وقالوا لإبراهيم **(لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ)** فكيف تقول: إسألوهم؟ فلمّا اعترفوا بعدم نطقهم وأنّهم جماد ولا شكّ أنّ الجماد لا ينفع ولا يضرّ **(قَالَ)** لهم إبراهيم **(أَفّ)** بعد ما علمتم أنّ هؤلاء جمادات لا تنفع ولا تضرذ **(تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا)** هذا الجماد وهو **(لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا)** ولو قليلاً **(وَلا يَضُرُّكُمْ)** شيئاً **(أُفٍ)** أي قبحاً **(لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)** بعد كلّ ما تبيّن لكم من الحقّ وأنّكم في ضلال، فلمّا عجزوا عن الحجّة والبرهان لجأوا إلى القوّة والسّلطان، وهذه عادة كلّ طاغية إذا أفحموا بالبيان والحجّة باللّسان يستعملون القوّة والسّنان، حيث إنّهم لا يريدون الحقّ وإنّما يريدون السّلطة بأي وجه كان فتنادوا بينهم كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

(قَالُوا) قال حكام قوم إبراهيم: **(حَرِّقُوهُ)** حرّقوا إبراهيم بالنّار **(وَانصُرُوا)** وأنقذوا **(آلِهَتَكُمْ)** من كيد إبراهيم **(إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ)** شيئاً من العقاب تجاه إبراهيم، فجمعوا الأحطاب واشعلوا ناراً عظيمةً وألقوا إبراهيم فيها وحينئذٍ **(قُلْنَا)** أمرنا أمر تكوين للنّار فقلنا: **(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا)** برداً لا يؤذي **(عَلَى إِبْرَاهِيمَ)** فجعلناها برداً وسلاماً عليه فلم يؤثر فيه لا بالحرّ ولا بالقرّ **(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا)** وهو إفناؤه بالنّار **(فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ)** فلم ينجحوا في تخطيطهم بل فضحوا فضحاً فظيعاً **(وَنَجَّيْنَاهُ)** ونجينا ابراهيم **(وَلُوطًا)** إبن أخيه وأمرناهما بالهجرة **(إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا)** بكثره الثّمار والمزارع والأشجار **(لِلْعَالَمِينَ)** وهي أرض فلسطين **(وَوَهَبْنَا لَهُ)** لإبراهيم **(إِسْحَاقَ)** إبناً له بعدما كان لا يولد له وكانت امرأته في عمر لا تلد مثلها عادة **(وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً)** وهو حفيد له سمّي نافلةً لأنّ الحفيد زائد على الولد **(وَكُلاً)** منه ومن إسحاق ويعقوب **(جَعَلْنَا)** هم

(**صَالِحِينَ**) أي أنبياء (**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ**) النّاس إلى الحقّ (**بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ**) أن يفعلوا (**الْخَيْرَاتِ**) ويفعلوا (**وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ**) فأطاعوا (**وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**) مطيعين هذا وقد مرّت قصّة إبراهيم في سورته.

ثمّ ذكر الله تعالى لوطاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

(**وَلُوطًا**) مفعول لفعل مقدر يفسّره قوله: (**آتَيْنَاهُ**) آتينا لوطاً آتيناه (**حُكْمًا**) علماً بفعل الخصومات وعلماً بالشّريعة (**وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت**) سكّانها (**تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ**) جمع خبيثة وهي اللّواطة والرّمي بالبندق واللّعب بالطّيور وغير ذلك (**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ**) من الأعمال والأخلاق (**فَاسِقِينَ**) خارجين عن أمر الله تعالى وشريعته (**وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا**) أدخلناه في نعمتنا في الدّنيا والآخرة حيث (**إِنَّهُ**) كان (**مِنَ الصَّالِحِينَ**) المنقادين لأمر الله تعالى، وقد ذكرت قصّة لوط في سورة الأعراف مفصّلة والحمد لله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نوحاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

(**وَنُوحًا**) منصوب بفعل مقدّر تقديره واذكر نوحاً أي أذكر حاله (**إِذْ نَادَى**) ربّه (**مِن قَبْلُ**) فقال ﴿رَبّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ سورة نوح الآية/٢٦ ـ (**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**) دعاءه (**فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ**) انقذناه وأتباعه (**مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**) وهو عداوة القوم له والطّوفان (**وَنَصَرْنَاهُ**) ومنعناه (**مِنَ**) إيذائه من قبل (**الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) بأحكامنا وشريعتنا (**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ**) من الأفعال والاحكام (**فاسقين**) خارجين عن حكم الله تعالى وشريعته (**فَأَغْرَقْنَاهُمْ**) أي القوم في الطّوفان (**أَجْمَعِينَ**) ولم ينج منهم أحد.

ثمّ ذكر الله تعالى داود وسليمان (على نبينا وعليهما الصلاة السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

(**وَ**) واذكر حال (**دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ**) كانا (**يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ**) في زرع رجل من القوم (**إِذْ نَفَشَتْ**) وقتما دخلت (**فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ**) ليلاً (**وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ**) من إضافة المصدر إلى المفعول والفاعل محذوف تقديره لحكمهما القوم (**شَاهِدِينَ**) عالمين (**فَفَهَّمْنَاهَا**) الفتوى الصّحيحة (**سُلَيْمَانَ**) فأصاب في إجتهاده وأخطأ داوود (**وَكُلاً آتَيْنَا**) إياهما (**حُكْمًا**) معرفة بطريقة الحكم والإجتهاد وعلماً بالشّريعة ومقاصدها، وهذه الآية دليل على جواز الإجتهاد، وإنّ المجتهد قد يخطئ وقد يصيب وفي كلتا الحالتين يثنى عليه لأنّ الله أثنى على داوود وسليمان بالعلم ومعرفة طريق معرفة الأحكام، وروى البخارى ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللهﷺ: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثمّ أخطأ فله أجر)[1].

قصّة حكم داود وسليمان: كان غنم رجل دخلت ليلاً بلا راع زرع رجل فأكلته وأفسدته فتحاكما إلى داوود، فحكم بالغنم لصاحب الحرث وقد استوت قيمتها، فقال سليمان: غير هذا الحكم أرفق بالفريقين، فقال داوود: فأخبرني بما هو الأرفق؟ فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها إلى أن تكمل قيمة ما أهلكته من الحرث وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم حتّى يعود إلى حالة

(١) صحيح البخاري ٦/١٦٧٦ الحديث رقم ٦٩١٩، صحيح مسلم ٣/١٣٤٢ الحديث رقم١٧١٦.

يوم أفسده ثمّ يرجع صاحب الغنم إلى غنمه وصاحب الحرث إلى حرثه. فقال داوود: إنّ القضاء هو ماقضيت، فأمضى الحكم على فتوى سليمان (عليهما السلام).

* * *

تنبيه: يؤخذ من القصّة والآية أنّ الانبياء يجتهدون وأنّهم يخطئون إلّا أنّهم ينبّهون فوراً من الله على خطئهم فيصلحونه. وقد تكلّف السّيد قطب (رحمة الله تعالى عليه) لدفع الخطأ عن داوود فقال: إنّ الحكمين كانا صواباً إلّا أنّ حكم داوود كان أصوب لأنّه كان فيه الضّمان والإستثمار، وحكم داوود كان مقتصراً على الضّمان، ولكنذ قوله ينافي قوله تعالى: ففهّمناها سليمان، إذ يفيد أنّه لم يفهم داوود، وينافي قول داوود أيضاً إذ قال سليمان القضاء ما قضيت. وحمل السّيد على ما قال لتنزيه الأنبياء عن الخطأ، ولا داعي إلى ذلك، فإنّ الأنبياء معصومون عن الذّنوب وليسوا معصومين عن الخطأ إلّا أنّهم ينبّهون فوراً، والخطأ ليس معصية. هذا والله أعلم. وقال مجاهد (ﷺ): كان ما فعله داوود حكماً وما فعله سليمان صلحاً والصّلح خير. إلّا أنّه أيضاً ينافي (ففهّمناها)، ثمّ إنّ هذا الحكم كان في شريعتهم، وأمّا في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه (رضي الله عنهم) باللّيل وبالنّهار إلّا أن يكون مع البهيمة سائق أو راع أو قائد، وعند الشّافعي (رحمة الله تعالى عليه) يجب الضّمان باللّيل فقط، ودليله أنّ إرسالهم باللّيل سبب للضّمان، وللحنفي قوله (ﷺ): (العجماء جبار)[١] وذكر الخازن أدلّة من الحديث يؤيد بها قول الشّافعي (رضى الله تعالى عنهم جميعاً).

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ما منّ به على كلّ من داوود وسليمان، فذكر أوّلاً داوود (عليه السلام) فقال جلّ وعلا: (**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ**) وتسخيرها معه هو أنّها (**يُسَبِّحْنَ**) مع تسبيحه (**وَ**) سخرنا معه (**الطَّيْرَ**) أيضاً حينما يسمعن صوته بالتّسبيح يقفن في الهواء ويسبّحن معه (**وَكُنَّا فَاعِلِينَ**) ذلك لداوود وإن كان عندكم عجيباً. هذا وتفيد الآية أنّ الجبال والطّير لها نطق وكلام وتسبيح (**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ**) وهو ما يلبس من الدّروع في الحرب (**لِتُحْصِنَكُم**) لتحفظكم (**مِّن**) تأثير (**بَأْسِكُمْ**) أسباب بأسكم وهو السّيف والرّمح والبأس الحرب، فداوود أوّل من صنع الدّروع (**فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ**) ربّكم على هذا التّعليم؟ ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ما أنعم به على سليمان عليه السلام فقال جلّ

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٥٤٥ الحديث رقم ١٤٢٨.

وعلا: (**وَلِسُلَيْمَانَ**) وسخّرنا لسليمان (**الرِّيحَ عَاصِفَةً**) شديدةً الهبوب (**تَجْرِي بِأَمْرِهِ**) تجري بأمره حيث وكيف شاء عصفاً أو رخاءً كما في آية أخرى وتسوق سفينته (**إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**) وهي بلاد فلسطين والشّام (**وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ**) ممّا كان لسليمان وشكر سليمان لتلك النّعم (**عَالِمِينَ**)، هذا وقد مرّت قصّة داوود وسليمان في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ **دَاوُدُ جَالُوتَ**﴾.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أيّوب (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

(**وَأَيُّوبَ**) واذكر حال أيّوب (**إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ**) المرض الشّديد (**وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**) بعبادك بل ولا راحم إلّا أنت في الحقيقة (**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**) دعاءه (**فَكَشَفْنَا**) فأزلنا (**مَا بِهِ مِن ضُرّ**) من مرض (**وَآتَيْنَاهُ**) وأحيينا له (**أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ**) آتيناه (**رَحْمَةً**) نعمةً (**مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى**) وموعظةً (**لِلْعَابِدِينَ**) بأنّ من صبر يثاب ويؤجر في الدّنيا والآخرة، وقد ذكرنا قصّته في سورة (ص). (**وَ**) واذكر (**إِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ**) وقد ذكرنا قصّة إسماعيل وإدريس في سورة مريم وقصّة ذا الكفل في سورة (ص) (**وَأَدْخَلْنَاهُمْ**) إسماعيل وإدريس وذا الكفل (**فِي رَحْمَتِنَا**) في نعمتنا في الدّنيا والآخرة (**إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ**) كلّهم أي من الأنبياء.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال يونس (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

(**وَ**) واذكر (**ذَا النُّونِ**) وهو سيّدنا يونس (عليه السلام) ولقّب بـ (**ذا النّون**) لأنّه بقي مدّة

في بطن النّون وهو الحوت فاذكر حاله (**إذ ذَّهَبَ**) من بين قومه وتركهم (**مُغَاضِبًا**) عليهم فخرج بدون إذن منّا (**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ**) لن نضيق عليه الأرض ولن نحبسه فألقي في البحر فالتقطه الحوت (**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ**) ظلمة البحر واللّيل وبطن الحوت (**أَن لا إِلَهَ**) مطاع ولا منجّي (**إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ**) تنزّهت عن أن تكون ظالماً بالقائي في البحر بل (**إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**) حيث تركت القوم بدون إذن منك يا ألله (**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**) دعاءه هذا (**فنجيناه من الغمّ**) خلّصناه من بطن الحوت (**وَكَذَلِكَ**) مثل ما نجّينا يونس (**نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**) كلّهم إن صبروا وتضرّعوا بإخلاص إلى الله تعالى وتابوا من خطيئتهم، هذا وقد ذكرنا قصّة يونس في سورة (ن ـ القلم).

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال زكريّا (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

(**وَ**) واذكر حال (**زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ**) وتضرّع إليه فقال: (**رَبِّ لا تذَرْنِي**) لا تتركني (**فَرْدًا**) دون ولد يرثني (**وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ**) إلّا أنّي أحبّ الولد ليكون عقباً صالحاً لي (**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**) دعاءه (**وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ**) جعلناها تلد بعد أن يبست ويئست من الولادة (**إِنَّهُمْ**) إنّ هؤلاء الأنبياء المذكورين في هذه السّورة (**كَانُوا يُسَارِعُونَ**) يتسابقون (**فِي**) عمل (**الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا**) في عطائنا (**وَرَهَبًا**) وخوفاً من عقابنا (**وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**) مطيعين متواضعين ومتضرّعين إلينا. وقد ذكرنا قصّة زكريّا ويحيى (على نبيّنا وعليهم الصّلاة والسّلام) في سورة مريم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يشير إلى كيفيّة ولادة سيّدنا عيسى (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

(**وَ**) واذكر حال المرأة (**الَّتِي أَحْصَنَتْ**) حفظت (**فَرْجَهَا**) فرجها من العمل الجنسي فلم تعمل لا حلالاً ولا حراماً (**فَنَفَخْنَا فِيهَا**) في درعها (**مِن رُّوحِنَا**) روحاً من عندنا

فولدت عيسى (**وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا**) عيسى (**آيَةً**) دالّة على قدرتنا حيث صارت الولادة بدون أب فهذا كان (**آيَةً لِّلْعَالَمِينَ**) الملك والجنّ والإنس جميعاً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هؤلاء الأنبياء ذكر أنّه أمر كلّ أمّة بالثّبات على طريقتهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾

(**إِنَّ**) قلنا لكلّ أمّة (**إِنَّ هَذِهِ**) الطّريقة (**أُمَّتُكُمْ**) طريقتكم (**أُمَّةً**) طريقةً (**وَاحِدَةً**) وهي طريقة الأنبياء من التّوحيد والعمل بشريعة الله تعالى. فتمسكوا بهذه الطّريقة ولا تنحرفوا عنها (**وَأَنَا رَبُّكُمْ**) لا ربّ لكم غيري يربيكم جسداً ومعنى وشريعةً (**فَاعْبُدُونِ**) أصله (**فاعبدوني**) حذفت الياء للتّخفيف أي فأطيعوني ولا تطيعوا غيري إلّا من أمرتكم بإطاعته، فأطيعوه ضمن ما أباح الله تعالى إطاعته فقط وإلّا (فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق).

ثمّ أخبر الله تعالى أنّ الأمم لم يستقيموا على ما أمرناهم، به بل تفرّقوا فقال جلّ وعلا:

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾

(**وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ**) وجعلوا بعد وفاة النّبيّ أمر دينهم بينهم قطعاً متباينةً وأصبحوا أحزاباً متفرّقةً ذات عقائد مختلفة (**كُلٌّ إِلَيْنَا**) يوم القيامة وبعد الموت (**رَاجِعُونَ**) فنحاسبهم على ذلك (**فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ**) حسب أصل الدّين ولم يبدّل ولم يغيّر ولم يبتدع (**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**) فإنّ من لا إيمان له لا تقبل أعماله ولا ثواب له عليها، فالعامل

للصّالحات مع الإيمان (**فَلا كُفْرَانَ**) فلا إنكار (**لِسَعْيِهِ**) لأعماله (**وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ**) الثّواب على كلّ الأعمال صغيراً أو كبيراً (**وَحَرَامٌ**) وممنوع (**عَلَى**) أهل (**قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا**) بسبب كفرهم ومعاصيهم، ثمّ فسّر الله تعالى كيفيّة الممنوعيّة فقال جلّ وعلا: (**أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ**) إلى الحياة ولا تعمّر قريتهم أبداً (**حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ**) سبل وطرق (**يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ**) للاستيلاء على النّاس فاستولوا عليهم (**وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ**) من كلّ مرتفع من الأرض (**يَنسِلُونَ**) يخرجون للاستيلاء على النّاس، فحينما أصبح الأمر في الأرض بأمرهم والحكم بنظامهم ولم يبق نظام الله يعمل به مطلقاً يأتي يوم القيامة كما قال جلّ وعلا: (**وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ**) بقيام السّاعة (**فَإِذَا**) قامت السّاعة (**هِيَ**) تكون القصّة أنّها (**شَاخِصَةٌ**) ذليلةً (**أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا**) ويقولون: (**يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا**) في الدّنيا (**فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا**) اليوم، ثمّ تذكّروا الرّسل ومجيئهم وتبليغهم فقالوا: (**بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**) حيث لم نتّبع الرّسل ولم نؤمن بهم. وقد ذكرنا في سورة مريم من هم يأجوج ومأجوج ومكانهم، فحينما اعترفوا بظلمهم نودوا من قبل الملائكة بأمر من الله تعالى وقيل لهم كما قال جلّ وعلا:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

(**إِنَّكُمْ**) يقال لهم: (**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ**) وقود جهنّم وقرئ أيضاً حطب (**جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**) عليها واردون، أو معناه فيها داخلون، ويقال لهم: (**لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً**) كما زعمتم (**مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ**) بعد الورود (**فِيهَا خَالِدُونَ**) جميعاً (**لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ**) أنين وبكاء (**وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ**) شيئاً يفرحهم أو يسلّيهم.

سؤال: إنّه من الّذين يعبدون من دون الله تعالى سيّدنا عيسى وعزير والملائكة، فتفيد الآية أنّ هؤلاء من أهل النّار وليس كذلك فكيف التّوفيق؟

الجواب: أنّ المراد بهم الّذين يعبدونهم برضائهم كالطّواغيت والمضلّين فلا يدخل فيهم هؤلاء لأنّهم لا يرضون بعبادتهم لهم وساخطون عليهم.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين أراد أن يذكر حال المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا**) البشارة (**الْحُسْنَى**) بالثّواب بسبب أعمالهم الصّالحة وإيمانهم الصّادق وهم المؤمنون (**أُوْلَئِكَ عَنْهَا**) عن جهنّم (**مُبْعَدُونَ**) لا يدخلونها أو يخرجون منها بعد الدّخول فوراً أو بعد تطهّرهم من الذّنوب والآثام (**لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا**) أبداً أو بعد الخروج منها (**وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ**) من لذائذ الجنّة ونعيمها (**خَالِدُونَ**) مؤبّدون ويتمتّعون بها (**لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ**) الفزع الّذي يغشى النّاس عند قيام السّاعة والنّفخ (**وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ**) في الجنّة يهنّئونهم ويقولون لهم: (**هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**) في الدّنيا على لسان الرّسل مقابل الإيمان والأعمال الصّالحة. قال المفسّرون: وبهذه الآية إستثنى عيسى وعزير والملائكة من قوله تعالى: ﴿**إنّكم وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**﴾ فيكون المعنى: إنّكم وكلّ ما تعبدون حصب جهنّم إلّا من سبقت لهم منّا الحسنى وهم المؤمنون ممّن يعبدهم النّاس كالملائكة وعيسى وعزير، ولكنّ الآيتين بينهما عموم من وجه وخصوص من وجه، فكلّ واحدة أعمّ من الأخرى من وجه وأخصّ منها من وجه، فانّ قوله: (**وَمَا تَعْبُدُونَ**) يشمل المؤمن وغيره وقوله: (**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**) يشمل الّذين عبدوا وغيرهم، فلا يعرف أيّها خصّت بالآخر حيث لا مرجع إلّا أن نقول: أنّ المتأخّر يخص المتقدّم كالنّسخ وقال بعضهم: (**إِنَّ**) في قوله: إنّ الّذين سبقت... الخ. بمعنى إلّا ويراد بها إخراج عيسى وعزير والملائكة من حكم الآيات السّابقة، وفيه نظر لأنّ السّياق في بيان حال الكافرين عموماً وحال المؤمنين جميعاً، فلا يصار به إلى ما يخصّ، كما وأنّ الآية لا تشمل الملائكة بقرينة قوله: وتتلقّاهم الملائكة ..الخ. فتبقى الملائكة غير مستثنى، ولذا قلنا: المراد وما تعبدون أي تعبدونهم برضاهم وهذا هو الأسلم والله تعالى أعلم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكفرة والمؤمنين أراد أن يذكر أنّه متى تتحقّق هذه الأحوال فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

(**يَوْمَ نَطْوِي**) نلف (**السَّمَاء كَطَيِّ**) كلف (**السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**) فنزيلها عن أمكنتها ونبدل هذا النّظام بنظام آخر، وهذا الكون بكون جديد لم يعهده النّاس (**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ**) فنجعل السّماوات والأرض والنّجوم والكواكب والشّموس والأقمار كتلةً واحدةً، كما كانت (**وَعْدًا**) وعدنا بذلك (**وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**) منفذّين لهذا الوعد ولا نخلف الميعاد.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الجنّة للمؤمنين أراد أن يذكر أنّ وراثة الأرض وسلطانها أيضاً للمؤمنين فقال جل وّعلا:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

(وَ) وبعزّتي (**لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ**) وهو إمّا زبور داوود أو كتاب آخر أو اللّوح المحفوظ، وهذا الأصحّ فكتب الله تعالى في اللّوح (**مِن بَعْدِ الذِّكْرِ**) من بعد بيان أحكام الله والعقائد الّتي يرتضيها الله تعالى (**أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا**) ويأخذ السّلطة فيها (**عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**) العاملون بهذه الأحكام والعقائد، وهذه الشّريعة الإلهيّة الغرّاء، فأنجز الله تعالى هذا الوعد، فإنّ المسلمين حينما كانوا يطبّقون هذه الشّريعة ويعملون بها سادوا على الأرض جميعاً، وكان لهم السّلطان وما خسروا هذه السّيادة إلّا بعد التّفرّق والاختلاف والبعد عن هذه الشّريعة والعمل بها كما هي، فهل للمسلمين من عودة إلى هذا الدّين ليكونوا سادة على العالمين، فإنّ الله تعالى قال: ﴿**وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا**﴾ وقال: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وإنّ الله لا يخلف الميعاد (**إِنَّ فِي هَذَا**) الّذي كتب الله من وراثة المؤمنين الأرض (**لَبَلاغًا**) لتبليغاً (**لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ**) لله ليعملوا كما أمر الله تعالى ووفق شريعته ليستلموا سلطان الأرض وزمامها (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ**) أيّها النّبيّ (**إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**) لأنّ من اتّبع الذّكر والشّريعة الّتي بعثناك بها فلا يضلّ ولا يشقى، وفاز بسعادة الدّارين. وقال المفسّرون: إنّه رحمة للعالمين لأنّه رفع الله تعالى الخسف وعذاب

الإستئصال ببعثته. وهذا خطأ لأنّ عذاب الإستئصال رفع بعد نزول التّوراة بدليل ما ذكره أبو سعيد الخدري وغير واحد من السّلف (رضي الله تعالى عنهم): أنّ الله تبارك وتعالى بعد نزول التّوراة لم يهلك أمّةً من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال الكافرين وجهادهم، وإذا أردت أن يطمئنّ قلبك فعليك بمراجعة ابن كثير في تفسيره للآية (٤٣) من سورة القصص وتفسيره للقرية الّتي أرسل الله تعالى إليها ثلاثة رسل من سورة (يس)، وليطمئنّ قلبك فالرّسول جاء بشريعة إذا طبقت فاز العالم بسعادة الدّارين، فهو إذن رحمة لا رحمة فوق هذه الرّحمة. اللّهم ارزقنا السّعادة في الدّارين آمين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن المقصد الأساسي من رسالة محمّد (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(**قُلْ**) أيّها النّبيّ مبيّناً رسالتك وما أرسلت به وهو أنّه (**إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ**) من أمر الألوهيّة والحاكميّة (**أَنَّمَا إِلَهُكُمْ**) حاكمكم تكليفاً وتكويناً (**إِلَهٌ وَاحِدٌ**) فلا تأثير ولا إيجاد ولا خير ولا شرّ ولا نفع ولا ضرّ إلّا بأمره، ولا تشريع حقّاً إلّا منه؛ فهو الموجد والمكون والمكلّف والمشرّع وحده (**فَهَلْ أَنتُم**) أيّها النّاس (**مُّسْلِمُونَ**) منقادون لهذا الأمر فلا تعملوا إلّا بشرعه ولا تدعوا ولا تتضرّعوا إلّا إليه، والاستفهام للأمر، أي فانقادوا لما أبلغكم به (**فَإِن تَوَلَّوْا**) ولم ينقادوا (**فَقُلْ آذَنتُكُمْ**) قد بلغتكم (**عَلَى سَوَاء**) جميعاً متساوين ولم أخصّص بعضاً فأترك آخرين، وسوف يأتيكم العذاب على هذا التّولّي وعدم الإنقياد (**وَإِنْ**) وما (**أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ**) من عذاب الدّنيا والآخرة (**إِنَّهُ**) الله تعالى (**يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ**) والعمل (**وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ**) من أقوالكم وأعمالكم فيحاسبكم عليه (**وَإِنْ**) وما (**أَدْرِي لَعَلَّهُ**) لعلّ إخفاء عذابكم (**فِتْنَةٌ**) إمتحان لكم

هل تتأهّبون لدفعه بالإيمان والعمل الصّالح أم لا (**وَمَتَاعٌ**) وحياة (**إِلَى حِينٍ**) مجيئه ووقوعه، فإنّه لو كان ذلك الوقت معلوماً لانكدرت الحياة وما طابت. ثمّ لما اشتدّ الجدال بين الرّسول (ﷺ) والكافرين، (**قَالَ**) الرّسول (**رَبِّ احْكُم**) يا ربّ احكم بيني وبين أعدائي المكذّبين (**بِالْحَقِّ**) بأن تنصرني عليهم (**وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ**) فهو يرحمنا (**الْمُسْتَعَانُ**) فلا نستعين بغيره (**عَلَى**) عقاب (**مَا تَصِفُونَ**) به الله من أنّ له شريكاً أو أنّ له ولداً، وتصفونني به من أنّه مجنون أو ساحر أو كذاب. وفي قراءة (قل) بدل قال، والمآل واحد، فانّه قال لأنّه قيل له قل أو قيل له قل فقال.

سؤال: إنّ الله يحكم بالحقّ دائماً ولا يحكم بغيره، فكيف قال الرّسول هذا القول؟

الجواب: المراد ربّ عجّل بحكمك بالحقّ ولا تؤخّر فإنّه ربّما لا يصبر المؤمنون أو يطغى الكافرون أكثر وأكثر. والله تعالى أعلم. اللّهم ربّنا احكم بالحقّ وربّنا الرّحمن المستعان على ما يصف الضّالون هذا الاسلام، وانصرنا عليهم وارزقنا حسن الختام، آمين والحمد لله ربّ العالمين.

سورة الحج

(مكيّة، وآياتها ثمان وسبعون، نزلت بعد سورة النّور، سميّت سورة الحجّ لما فيها من قوله تعالى لإبراهيم (عليه السلام): (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) ـ الآية/ ٢٧.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) الخطاب للنّاس كلّهم لأنّ بعثة الرّسول (ﷺ) عامّة (**اتَّقُوا**) عذاب (**رَبَّكُمْ**) باجتناب الكفر والمعاصي حيث (**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ**) إضطرابها وهزّها للنّاس (**شَيْءٌ عَظِيمٌ**) جداً فاتّقوا الله لتخفّفوا عنكم شدّة هذه الهزّة وما وراءها من الحساب والعقاب. ثمّ بيّن الله تعالى شدّة هذه الزّلزلة فقال جلّ وعلا: (**يَوْمَ تَرَوْنَهَا**) تدركونها أي الزّلزلة أو السّاعة، والأولى أنّ الضّمير ضمير قصّة، فالمعنى: يوم ترون القصّة وهي أنّها (**تَذْهَلُ**) تعرض (**كُلُّ**) والدة (**مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ**) فتخرج ثديها من فمه (**وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ**) من الإنسان والحيوانات (**حَمْلَهَا**) فيسقط ما في بطنها من الأجنّة (**وَتَرَى النَّاسَ**) أيّها الرّائي (**سُكَارَى**) لا شعور لهم (**وَمَا هُم بِسُكَارَى**) في الحقيقه (**وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**) فيذهب شعورهم لهذه الشدّة والخوف منها.

ثمّ بعد ما ذكر الله تعالى هول هذا اليوم أراد أن يشير إلى حماقة النّاس، فإنّهم رغم أنّ أمامهم هذا اليوم وهذه الشّدّة فإنّهم غافلون بل إنّ بعضهم كافرون فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

(وَ) رغم وجود هذا اليوم وهذه الشدّة يوجد بعض (**مِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي**) قدرة (**اللَّهِ**) تعالى ودينه فينكر حقيّة الإسلام وينكر إحياء الموتى والبعث والنّشور، فيجادل في هذه الأمور (**بِغَيْرِ عِلْمٍ**) له وعن الجهل بقدرة الله تعالى (**وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ**) متمرّد على الله تعالى فيقلّده في أقواله وأفعاله، والشّيطان المريد هو كلّ من يدعو إلى ضلال من الإنس كان أو من الجنّ (**كُتِبَ عَلَيْهِ**) على هذا الشّيطان (**أَنَّهُ**) أنّ الشّأن هو كل (**مَن تَوَلَّاهُ**) أي اتّبعه وآتاه زمام أموره (**فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ**) عن الصّراط المستقيم (**وَيَهْدِيهِ**) ويرشده (**إِلَى**) ما يكون سبب (**عَذَابِ السَّعِيرِ**) والسّعير هو النّار المحرقة البالغة منتهى درجات الحرارة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت أنّ البعث والإحياء بعد الموت أمر ممكن وسهل على الله تعالى جداً، ولا إستبعاد فيه فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ**) في شكٍ (**مِّنَ الْبَعْثِ**) وتستبعدونه فلا ترتابوا فانّه قد وضعنا أمام أعينكم أموراً تدلّ دلالة واضحة على سهولة البعث على الله تعالى وأنّه

يأتي؛ فذكر الله تعالى هذه الأمور أوّلاً من نفس الإنسان فقال جلّ وعلا: (**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ**) فإنّ التّراب يصير نباتات وأشجاراً ومن النّباتات والأشجار يتكوّن غذاء الإنسان. ومن الغذاء يتكوّن النّطفة (**ثُمَّ**) خلقناكم (**مِن نُّطْفَةٍ**) حيث إنّ النّطفة تقذف بالعمل الجنسي في رحم المرأة فبعد هذه تصير دماً متجمّداً يعلّق باليد إذا مسسته، ولذلك يسمّى علقة (**ثُمَّ**) خلقناكم (**مِنْ عَلَقَةٍ**) وهي هذا الدّم المتجمّد فبعد مدّة تصير هذه العلقة قطعة لحم غير مصورة، ثمّ نصوّر هذه القطعة ويخلق منها أعضاء الإنسان وتسمّى هذه القطعة من اللّحم مضغةً (**ثُمَّ**) خلقناكم (**مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ**) مصورة (**وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**) غير مصوّرة وهي هذه المضغة الّتي تولّدت من العلقة، وفعلنا خلقكم هكذا (**لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ**) كمال قدرتنا وبديع صنعتنا (**وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ**) نجعل مستقراً في الأرحام (**مَا نَشَاء**) من ذكرٍ أو أنثىً أو خنثىً أو ولداً واحداً أو توأماً اثنين فأكثر فيبقى في الرّحم (**إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**) معين عيناه وقدرناه (**ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ**) من الأرحام (**طِفْلاً**) لا يقدر على شيء ولا يعلم شيئاً (**ثُمَّ**) تكون العاقبة تزيدون في النّمو (**ثم لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ**) الكمال في القوّة والجسم (**وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى**) قبل بلوغ الأشدّ فيموت (**وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ**) وهو حد ينسى فيه الإنسان كلّ شيء كما قال جلّ وعلا: (**لِكَيْلَا**) اللّام لام العاقبة أي فتكون عاقبته أنّه (**لَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا**) من الأشياء، فأرذل العمر هو أن ينسى المرء كلّ شيء. فمن قدر على خلقكم هكذا وإحيائكم، كذلك فقادر على أن يبعثكم بعد موتكم، فإنّكم من التّراب وإلى التّراب ومن التّراب مرّة أخرى. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الدّليل من الأنفس أراد أن يذكر الدّليل من الآفاق أيضاً، فقال جلّ وعلا: (**وَتَرَى**) بأمّ أعينك أيّها الانسان (**الأَرْضَ**) هذه (**هَامِدَةً**) يابسةً ساكنةً لا تنبت شيئاً (**فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ**) تحرّك قواها النّامية (**وَرَبَتْ**) وزادت (**وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ**) صنف من النّباتات (**بَهِيجٍ**) ذي بهجة وجمال (**ذَلِكَ**) النّظام نظام خلق الانسان ونظام نبت النّبتات والأشجار يعلّمكم (**بِأَنَّ اللَّهَ**) تعالى (**هُوَ الْحَقُّ**) الموجود الثّابت لا يزول (**وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى**) ويقدر على ذلك (**وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ**) فيحاسبهم على ما عملوا في الدّنيا ويجزيهم حسب ما عملوا.

تنبيه: إنّ الله تعالى جعل نظام وجود أفراد الإنسان ونظام وجود النّباتات دليلاً على ثلاثة أشياء:

الأوّل: أنّه موجود وحقّ لا ريب فيه.

الثّاني: أنّه يقدر على إحياء الأموات.

الثّالث: أنّه يحيي الموتى بالفعل ويبعث من في القبور.

وتحرير الدّليل على هذه الأشياء الثّلاثة يكون كما يلي:

إنّ الإنسان حينما ينظر ويتفكّر يرى معملاً وضع وأنشيء لإنتاج أفراد الإنسان مدى الزّمان، وأنّه ينتج دائماً أفراداً لا تعدّ ولا تحصى، وفي جانب آخر يرى معملاً آخر ينتج أنواعاً من النّباتات والأشجار بحيث لا تعدّ ولا تحصى أيضاً، فحينما رأى الإنسان هذين النّظامين يعلم يقيناً أنّه لابد لإنشاء هذين المعملين من منشيء وموجد عليم نهاية العلم وقدير أعلى درجات القدرة؛ فيؤمن حينئذٍ بوجود الله الخالق العليم القدير، ثمّ يتفكّر ويعلم أنّ من له هذا العلم وهذه القدرة الّتي أوجد وأنشأ بها هذين النّظامين لا يصعب عليه أن يحيي الموتى بعد موتهم. ثمّ يتفكّر ويعلم أنّ من خلق هذا الخلق العظيم وهذا الإنسان المختلف أفراده في الميول والنّزعات والمطامع في الإستعلاء والسّيادات والمتنافس على الحياة، والمتسابق في المصالح والمنافع والخيرات والمائل إلى اللّذات والشّهوات لا يتصور أن يهمل هذا الخالق هذا النّوع من مخلوقه وأن لا يضع له نظاماً يقيّده به ويفرض عليه العمل به، فيؤمن بنظام الله تعالى وشرائعه، ثمّ يعلم أنّ الشّريعة تفرض ثواباً للمطيع وعقاباً للعاصي، ولا يوجد ذلك في الدّنيا؛ فيجب أن يأتي يوم لهذا الثّواب والعقاب وليتحقّق فيه عدل الله تعالى، فثبت أنّ الله موجود وأنّه قادر على الإحياء بعد الموت، وأنّه يفعل ذلك ويبعث من في القبور، وآمنت بذلك كلّه يا الله فأمتنا عليه آمين.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّه بعد وجود هذه الأدلّة الواضحة في الدّلالة على هذه الأمور، يوجد بعض النّاس يجادل فيها فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

(**وَ**) يوجد بعض (**مِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ**) في وجوده وقدرته على إحياء الموتى وإتيانه بالحشر والحساب (**بِغَيْرِ عِلْمٍ**) بديهي حصل له (**وَلا هُدًى**) ولا دليل

عقليّ يدلّ على عدم ما ينكره (**وَلا**) دليل نقلي (**كِتَابٍ مُّنِيرٍ**) نزل من الله تعالى (**ثَانِيَ**) محوّل (**عِطْفِهِ**) جانبه عن الحقّ فلا يلتفت إليه (**لِيُضِلَّ**) النّاس (**عَن**) اتّباع (**سَبِيلِ اللَّهِ**) دينه فهذا الإنسان وكلّ من كان مثله (**لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ**) يجب على المؤمنين أن يذلّوه (**وَنُذِيقُهُ**) يَوْمَ الْقِيَامَةِ (**عَذَابَ الْحَرِيقِ**) الحرق بالنّار، ويقال له تهكّماً (**ذَٰلِكَ**) ذلك العذاب حصل لك (**بِمَا**) بسبّب الّذي (**قَدَّمَتْ يَدَاكَ**) وعملته من الكفر والمعاصي وبسبب (**وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**) أنّ الله يقيم العدل بينهم، فعدله مقتضٍ لعذابك، هذا وقال: ظلام، بصيغة المبالغة لأنّ صفات الله تعالى كلّها بلغت النّهاية فمثلاً علمه بالغ الحدّ الأعلى، وكذا قدرته وعدله، فلو وجد منه الظّلم لكان ظلاماً لا ظالماً سبحانه تعالى عن ذلك.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الكافر الصّريح أراد أن يذكر بعض النّاس الّذين يتردّدون في إيمانهم ويتغيّرون حسب المصالح الدّنيويّة فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

(**وَمِنَ النَّاسِ**) ويوجد بعض من النّاس (**مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ**) على تردّدٍ وحسب المصلحة (**فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ**) منفعة دنيويّة (**اطْمَأَنَّ**) ثبت على الإيمان (**بِهِ**) بسبب ذلك الخير والرّبح الدّنيوي (**وَإِنْ أَصَابَتْهُ**) بسبب الدّين (**فِتْنَةٌ**) بليّة يمتحن به هل يصبر أم لا؟ تراه غير صابر ولا محتسب بل (**انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ**) إرتدّ عن الدّين (**خَسِرَ الدُّنْيَا**) لأنّه أضاع عطف المسلمين ومراعاتهم له (**وَالآخِرَةَ**) لأنّ الله ينتقم منه فيها (**ذَٰلِكَ**) الخسران في الدّنيا والآخرة (**هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**) هو الخسران المبين الواضح الّذى لا خسران فوقه (**يَدْعُو**) ينادي ويستغيث ويستعين في حوائجه (**مِن دُونِ اللَّهِ**) تعالى (**مَا لا يَضُرُّهُ**) شيئاً (**وَمَا لا يَنفَعُهُ**) أبداً كالاصنام (**ذَٰلِكَ**) طلب الحوائج من غير الله تعالى (**هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ**) كلّ البعد عن الحقّ (**يَدْعُو لَمَن**) ضرّ الاستعانة به وعبادته وعقيدة أنّه ينفع ويضرّ فهذه العقيدة (ضَرُّهُ **أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ**) لأنّها تؤدي بصاحبها إلى الشّرك في

الدّنيا وإلى عذاب النّار في الآخرة (**لَبِئْسَ**) والله لبئس النّاصر الّذي يستنصر به هو هذا (**الْمَوْلَى**) الّذي اتّخذه ويدعوه (**وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ**) الصّاحب الّذي يعاشره ويستأنس به هو هذا الّذي يدعوه ويعتمد عليه من دون الله تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين والمذبذبين أراد ان يذكر حال المؤمنين الثّابتين الصّامدين فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

(**إِنَّ اللَّهَ**) تعالى (**يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا**) إيماناً صادقاً لا تذبذب ولا إرتياب فيه (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**) من العقاب للكافرين والمذبذبين والثّواب للمؤمنين ولا رادّ لفعله أبداً.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

(**مَن كَانَ يَظُنُّ**) ويحاول (**أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ**) لن ينصر الله صاحب سبيل الله وداعيه (**فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**) من أمثال من يثني عطفه ليضلّ عن سبيل الله، فليحاول كلّ المحاولات وإن استطاع (**فَلْيَمْدُدْ**) فليصعد (**بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ**) نصره من السّماء (**فَلْيَنظُرْ**) بعد هذه المحاولات (**هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ**) كلّ محاولاته (**مَا يَغِيظُ**) إيّاه وهو نصر الإسلام وإنتشاره؟ والاستفهام للإنكار، فالمعنى أنّ كلّ محاولاته لإضلال النّاس والوقوف ضدّ الإسلام، لا يجدي نفعاً وإنّما الإسلام ينتشر في الأرض رغم أنفه الحقود.

ثمّ علل الله تعالى ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

(**وَكَذَلِكَ**) ومثل ما ترى (**أَنزَلْنَاهُ**) القرآن (**آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**) واضحات يفهمها العقول السّليمة وتستسيغها وتستحسنها وتتّبعها (**وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ**) من النّاس، علّل الله

تعالى عدم تأثير محاولات الكافرين ضدّ إنتشار الإسلام بأمرين:

الأمر الأوّل: أنّ الإسلام ونظامه وكتابه الّذي يمثّل الإسلام واضح لا خفاء فيه ومطابق للعقول السّليمة فتتبعها رغم أنف كلّ ضالّ حقود وهؤلاء هم المريدون للحقّ.

الأمر الثّاني: أنّ الله تعالى يهدي إلى الإسلام من يريده بالرّغم من محاولات الأعداء والمجرمين. وهؤلاء قال الله تعالى فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وقد حقّق الله تعالى هذا الوعد فساد المسلمون في الأرض ونشروا الإسلام والعدل في بقاعها.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذر الّذين يعادون الإسلام ولا يعتنقونه فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**) بمحمّد واعتنقوا الإسلام (**وَالَّذِينَ هَادُوا**) وهم اليهود (**وَالنَّصَارَى**) وهم المسيحيّون (**وَالصَّابِئِينَ**) عباد الكواكب، وقيل: قسم من النّصارى (**وَالْمَجُوسَ**) وهم عبّاد النّار (**وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**) وهم المشركون فهؤلاء كلّهم (**إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ**) الله يحكم (**بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) ويبيّن المحقّ منهم والمبطل وذلك بإدخال الجميع في النّار وإدخال المؤمنين الجنّة دار السّلام. ويؤخذ من هذه الآية أنّ المجوس هم من أهل الكتاب لأنّه فصلهم من الّذين أشركوا وقال الرّسول (ﷺ): (سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب)[١] فحكمهم حكمهم في كلّ شيء. (**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**) من أعمال هؤلاء (**شَهِيدٌ**) مطلع لا يخفى عليه شيء فيعاقب من ضلّ ويثيب من اهتدى واستقام على الصّراط المستقيم وهو توحيد الله بالعبادة وتوحيد شريعته ومنهجه بالعمل والتّطبيق، والله الموفق وهو يهدي السبيل.

ثمّ أراد الله تعالى أنّه إذا كان هناك بعض النّاس ضلّوا بتفكيرهم السّيّئ وعقولهم السّقيمة؛ فإنّ الكون كلّه خاضع لله تعالى وساجد له فقال جلّ وعلا:

(١) سنن البيهقي الكبرى ٧/ ١٧٢ الحديث رقم ١٣٧٦٤.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

(**أَلَمْ تَرَ**) أيّها الرّائي (**أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ**) يخضع لأمره التّكوينيّ كلّ (**مَن فِي السَّمَاوَاتِ**) من الملائكة (**وَمَن فِي الأَرْضِ**) كلّهم من الجنّ والإنس (**وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ**) كلّها (**وَالْجِبَالُ**) جميعاً (**وَالشَّجَرُ**) بعمومه (**وَالدَّوَابُّ**) كافةً (**وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ**) يسجدون له سجدة تكليف وعبادة أيضاً (**وَ**) لكن هناك (**كَثِيرٌ**) من النّاس آخرون (**حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ**) حيث لم يخضعوا لأوامره التّكليفيّة كما خضعوا لأوامره التّكوينيّة فأهينوا بذلك العذاب (**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ**) إيّاه (**فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**) غيره (**إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء**) من إهانة العصاة وتكريم التّقاة. اللّهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن مصير كلّ من الّذين خضعوا لعبادة الله تعالى والّذين حقّ عليهم العذاب فقال جلّ وعلا:

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

(**هَذَانِ**) هؤلاء الكثيرون من النّاس الّذين يسجدون لله وحده والكثيرون الآخرون الّذين حقّ عليهم العذاب وأهينوا (**خَصْمَانِ**) متنازعان (**اخْتَصَمُوا**) تنازعوا، قال: تنازعوا، ولم يقل: تنازعا، لأنّ كلّ طرف جماعة كثيرون فاختصموا (**فِي**) شأن (**رَبِّهِمْ**) فالأوّلون آمنوا به ووحّدوه والآخرون كفروا به وأشركوا (**فَالَّذِينَ كَفَرُوا**) بأي نوع من أنواع الكفر

(**قُطِّعَتْ**) صنعت (**لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ**) يلبسونها حال كونهم (**يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ**) الماء البالغ شدّة الحرارة (**يُصْهَرُ**) يذاب (**بِهِ**) بهذا الماء من شدّة حره (**مَا فِي بُطُونِهِمْ**) من الشّحوم والأمعاء (**وَالْجُلُودُ**) والجلود ولا يموتون حيث يعادون إلى حالهم الأوّل كلّما صهروا به (**وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ**) يضربون بها (**كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا**) من النّار (**مِنْ غَمّ**) من عذاب (**أُعِيدُوا فِيهَا وَ**) يقال لهم: (**ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**) عذاب الإحتراق بالنّار. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين أراد أن يذكر حال المؤمنين فقال جلّ وعلا: (**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا**) بالله والرّسول والإسلام واعتنقوه (**وَعَمِلُوا**) وعملوا الأعمال (**الصَّالِحَاتِ**) حسب الاسلام يدخلهم (**جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**) للسّقي والشّرب (**يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ**) يلبسونها (**وَ**) يحلّون (**لُؤْلُؤًا**) أيضاً (**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا**) في الجنّة (**حَرِيرٌ**) لين وجميل، هذا جزاؤهم في الآخرة وجزاؤهم في الدّنيا أنّهم (**وَهُدُوا**) أوصلوا (**إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ**) وهو لا إله إلّا الله ولا يقولون في مكالماتهم إلّا قولاً طيّباً عملاً بقول الرّسول (ﷺ): (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)[١] (**وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ**) الله (**الْحَمِيدِ**) وهو دينه الحقّ وهو الإسلام أي رزقوا الاستقامة على هذا الصّراط المستقيم. اللّهم اجعلنا منهم آمين.

سؤال: قال الله تعالى هنا وفي سورة الكهف: يحلّون من أساور من ذهب، وقال في سورة الإنسان (هل أتى): يحلّون من أساور من فضة فكيف التّوفيق بين الآيتين؟

الجواب: أنّ الاختلاف إمّا بحسب الاختيار، فبعضهم يلبسون ذهباً وبعضهم فضّةً، وإمّا بحسب الأوقات، فبعض الأوقات يلبسون ذهباً وفي بعضها فضّةً وبكلّ من هذين الوجهين يتمّ التّوفيق والله الموفّق.

❊ ❊ ❊

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض أعمال الكافرين وعذابهم عليها فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٤٠ الحديث رقم ٥٦٧٢.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ**) ويمنعون النّاس (**عَن**) الدّخول في (**سَبِيلِ اللَّهِ**) دينه وهو الإسلام، وقال: يصدّون بلفظ المضارع إشارة إلى أنّ هذا عملهم وهم مستمرّون عليه إلى يوم القيامة، وليحذر منهم المؤمنون (**و**) ويصدّون النّاس عن زيارة (**الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**) وهو بيت الله تعالى في مكّة المكرّمة (**الَّذِي جَعَلْنَاهُ**) محلّ عبادة وزيارة (**لِلنَّاسِ**) كلّهم وليس ملكاً لأحد ولا مختصاً بقوم دون قوم، بل جعلناه لعباد الله (**سَوَاءِ الْعَاكِفُ**) المقيم (**فِيهِ**) دائماً (**وَالْبَادِ**) مع الباد. أصله البادي أي الطّارىء (**وَمَن يُرِدْ فِيهِ**) يبتغي في المسجد خلاف أمرنا (**بِإِلْحَادٍ**) بعدول عن الحقّ (**بِظُلْمٍ**) بتجاوز عن شريعتنا (**نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**) مؤلم وموجع جدّاً (**وَإِذْ**) واذكر (**إِذْ**) وقتما (**بَوَّأْنَا**) عينا (**لإِبرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ**) إن كان بناء إبراهيم أولّ بناء للبيت، فالمعنى المكان الّذي يبنى فيه البيت، وإن كان بناؤه تجديداً له، لأنّه كان موجوداً فهدمه الطّوفان، فالمعنى المكان الّذي كان فيه البيت ليجدّد بناءه، والكلام في أنّ بناء ابراهيم كان تجديداً للبيت أو إنشاءً له فصّلناه في سورة البقرة وآل عمران. فمعنى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) فعيّنا لإبراهيم مكان البيت وأمرناه (**أَن لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا**) من الأشياء (**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ**) من الشّرك والمشركين (**لِلطَّائِفِينَ**) به (**وَالْقَائِمِينَ**) والعابدين فيه (**وَالرُّكَّعِ**) الرّاكعين فيه لله (**السُّجُودِ**) والسّاجدين (**وَأَذِّن فِي النَّاسِ**) وأمرهم (**بِالْحَجِّ**) اليّ بزيارة هذا البيت فإن أذنت لهم (**يَأْتُوكَ رِجَالاً**) مشاةً (**وَ**) ركباناً (**عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ**) بعير مهزول من السّير (**يَأْتِينَ**) الضّوامر (**مِن كُلِّ فَجٍّ**) طريق (**عَمِيقٍ**) بعيد.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض حكم الحجّ فقال جلّ وعلا:

﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

(**لِيَشْهَدُوا**) ليحضروا ويحصلوا (**مَنَافِعَ**) كثيرةً (**لَهُمْ**) وهي التّجارة والتّعارف مع المسلمين والتّداول في شؤون الاسلام والمسلمين وأخذ التّدابير لحلّ مشاكلهم والإتّفاق

لدفع أذى الأعداء ورفعه وطمعهم في مسّ شوكة الاسلام ورايته المرفوعة؛ فإنّ الحجّ كما هو عبادة فكذلك هو مؤتمر إسلامي واسع كبير، ومن المنافع الثّواب المعدّ لمن حجّ، وأداء ركن من أركان الدّين، وورد عن الرّسول (ﷺ): (من حجّ فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه)[١] إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في فضيلة الحجّ وهي في أيام التّشريق (**وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ**) تعالى على ذبحها قائلين بسم الله ألله أكبر(**فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ**) أيام التّشريق (**عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ**) وليذبحوا ممّا رزقهم الله تعالى من بهيمة الأنعام أيّام التّشريق، والأنعام هي: الإبل أو البقر أو الضّأن أو المعزّ. ثمّ بعد ذبحها (**فَكُلُوا مِنْهَا**) من الذّبائح (**وَأَطْعِمُوا**) منها (**الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**) الملتبس بالبأس والفاقة، قال في تفسير الخازن: الأمر في (**فَكُلُوا مِنْهَا**) للإباحة لا للوجوب، وذلك لأنّ أهل الجاهليّة كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئاً؛ فأمر الله تعالى بمخالفتهم واتّفق العلماء على أنّ الهدي إذا كان تطوّعاً يجوز لصاحبه أن يأكل منه، وكذلك أضحيّة التّطوع لما روي عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) في قصّة حجّة الوداع قال: (وقدم عليّ من اليمن ببدن، وساق رسول الله (ﷺ) مئة بدنة فنحر منها ثلاثاً وستين بدنةً ونحر عليّ ما غبر وأشركه في بدنه ثمّ أمر رسول الله (ﷺ) من كلّ بدنة ببضعة، فجعلت في قدر وطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها)[٢] وقوله: (ماغبر) أي مابقي وهو سبع وثلاثون بدنة تمام المئة، واختلف العلماء في الهدي الواجب بالشّرع مثل دم التّمتع والقران، فعند الشّافعي: لا يأكل صاحبه منه شيئاً، وكذلك ما وجب بالنّذر. وقال ابن عمر (رضي الله عنهما): لا يأكل من جزاء الصّيد والنّذر ويأكل من غيره. وبه قال أحمد وإسحاق، وقال مالك: يأكل من التّمتّع والقران وكلّ ما وجب عليه إلّا من فدية الأذى وجزاء الصّيد والمنذور، وعند الأحناف: يأكل من التّمتّع والقران ولا يأكل ممّا وجب من سواهما مطلقاً (**ثُمَّ**) بعد ما ذبحوا (**لْيَقْضُوا**) ليزيلوا (**تَفَثَهُمْ**) أوساخهم ويخرجوا من الإحرام بالحلق وقلم الأظفار ونتف الإبط وغير ذلك ممّا حرم بالإحرام إلّا الجماع فإنّه لا يحلّ إلّا بعد تمام الأركان. ثمّ بعد ذلك فليذهبوا إلى مكّة (**وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**) وهذا طواف الإفاضة وهو ركن من أركان الحجّ، والعتيق معناه: القديم والكريم، وسمّي العبد إذا حرّرعتيقاً لأنّه أكرم بإخراجه من ذلّة العبوديّة أي الرّق.

---

(١) شرح الزرقاني ٢/ ٥٣٢.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ٨٩١ الحديث رقم١٢١٨.

هذا وقد ذكرنا أحكام الحجّ كلّها على المذاهب الأربعة في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وأتمّوا الحجّ والعمرة لله﴾ فراجعه لزيادة الإستفادة إن شئت.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

(**ذَلِكَ**) ما ذكر من الأعمال هو حرمات الله (**وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ**) وهي الأعمال الّتي جعلها الله تعالى محترمة فأوجبها أو ندبها فمن عظّمها (**فَهُوَ**) فتعظيمها (**خَيْرٌ**) نافع (**لَّهُ**) ومفيد (**عِندَ رَبِّهِ**) لأنّه يثيبه عليه ويجزيه بالواحد عشراً إلى سبعمائة، ويضاعف لمن يشاء والله واسع عليم. ولمّا أمر الله تعالى بذبح البهائم وإطعامها للفقراء، وكان المشركون يحرمون البحيرة من الأنعام والسّائبة والوصيلة والحامي منها ناسب أن يقول تعالى: (**وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ**) كلّها (**إلا مَا يُتْلَى**) في القرآن (**عَلَيْكُمْ**) وهي الميتة والدّم منها والنّطيحة والموقوذة والمتردّية، وما أكل السّبع إلّا ما ذكّيتم وما ذبح على النّصب ممّا ذكر في سورة الأنعام. ولهذه المناسبة أيضاً قال: (**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ**) من عبادتها والذّبح لها (**وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**) من نسبة الشّريك إلى الله تعالى وكلّ قول مخالف للواقع والحقّ وتحريم ما لم يحرم (**حُنَفَاء**) إجتنبوا هذه الأشياء حال كونكم حنفاء متجاوزين الباطل ومتّبعين (**لِلَّهِ**) لدينه (**غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**) شيئاً. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر مثالاً لهلاك المشرك فقال جلّ وعلا: (**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ**) سقط (**مِن السّماء**) فتمزّقت أعضاؤه (**فَتَخْطَفُهُ**) فتذهب به (**الطَّيْرُ**) الطّير سريعاً فلا يبقى له أثر (**أَوْ تَهْوِي**) تطير (**بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**) بعيد جدّاً (**ذَلِكَ**) المذكور من الأعمال شعائر الله (**وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا**) إنّ الشّعائر وتعظيمها (**مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**) والشّعائر جمع شعيرة، سمّيت هذه الأعمال من مناسك الحجّ والأضحيات والهدايا لأنّها تشعر وتعلم بعبادة وإطاعة فاعلها لله تعالى، ثمّ إنّه قد ذكر الله تعالى

الذّبائح وهي في الغالب هدايا جمع هديّة، وهي ما يسوقها الحاجّ معه إلى البيت في مكّة ليذبحها هناك، فلذا أراد أن يبيّن حل الإنتفاع بالهدايا من الركوب وشرب ألبانها إلى أن تذبح فقال جلّ وعلا: (**لَكُمْ فِيهَا**) في الهدايا (**مَنَافِعُ**) منافع يجوز أن تنتفعوا بها من الرّكوب والألبان (**إِلَى أَجَلٍ**) وقت (**مُسَمًّى**) معيّن وهو وقت ذبحها (**ثُمَّ مَحِلُّهَا**) مكان ذبحها (**إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**) إلى الحرم فلا يجوز ذبح الهدايا خارج الحرم والحرم كلّه مذبح.

ثمّ ذكر الله تعالى أنّ الذّبائح والأضاحي ليست شريعة جديدة بل هي كانت مشروعة في كلّ الأمم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ**) من الأمم المتديّنة بدين الله تعالى فيما سبق (**جَعَلْنَا مَنسَكًا**) مكاناً للعبادة والتّقرب إلى الله تعالى فيه (**لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ**) ليذبحوها ويذكروا اسم الله عليها عند الذّبح ويجعلوها تقرّباً إلى الله تعالى (**فَإِلَهُكُمْ**) إله الأمم وإلهكم (**إِلهٌ وَاحِدٌ**) وإن اختلفت مناسككم لحكمة أرادها تعالى (**فَلَهُ**) فللّه وحده (**أَسْلِمُوا**) انقادوا وأطيعوا (**وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ**) الخاشعين لله تعالى، وأبهم المبشّر به إشارة إلى أنّه جليل جدّاً لا يوصف ولا يدرك كنهه إلّا من وجده، ثمّ بيّن تعالى المخبتين بأوصافهم فقال جلّ وعلا: (**الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ**) خافت واضطربت (**قُلُوبُهُمْ**) من عظمته (**وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ**) فلا يجزعون ولا يعترضون على الله تعالى ويقولون: إنّا كلّنا ملك لله له أن يتصرّف فينا كيف يشاء وإنّا إليه راجعون بعد الموت فيثيبنا على المصائب إذا صبرنا وسلّمنا إليه تعالى أمورنا وفوّضناه (**وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ**) وهم الّذين يؤدّونها ويحملون من تحت رعايتهم على أدائها (**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**) من المال أو القوّة أو العلم أو الجاه (**يُنفِقُونَ**) في سبيل إسعاف المحتاجين والمعوزّين قدر ما استطاعوا ولا يقصرون.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الصّلاة والإنفاق في سبيل الله كشعائر الله للمسلم أراد أن يذكر أنّ الذّبائح أيضاً شعيرة من شعائر الله فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

(وَالْبُدْنَ) جمع بدنة وهي الإبل وذكرها وحدها من بين الأنعام لأنّها أهمّها فالمعنى: وذبح البدن والبقر والغنم **(جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ)** من عبادات **(اللَّهِ)** تعالى وتشعر بإطاعتكم لله تعالى **(لَكُمْ فِيهَا)** في ذبحها **(خَيْرٌ)** ثواب كثير جدّاً **(فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا)** اذكروا اسم الله على ذبحها حال كونها **(صَوَافَّ)** حين صفت للذّبح بأن أقيمت على ثلاث قوائم وعقلت يدها اليسرى وهذا صورة ذبحها **(فَإِذَا وَجَبَتْ)** ذبحت وثبتت **(جُنُوبُهَا)** جمع جنب أي سكنت عن الحركة أي ماتت بعد الذّبح **(فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ)** الفقير الّذي لا يسأل **(وَالْمُعْتَرَّ)** وهو الّذى يسأل **(كَذَلِكَ)** مثلها ترى **(سَخَّرْنَاهَا)** أي البهائم **(لَكُمْ)** فتنتفعون بها **(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** بالتّضحية بها والتّصدق بها على الفقراء والمحتاجين والتّصرف فيها وفق أمر الله تعالى.

تنبيه: قال العلماء الأمر في (فكلوا منها) للإباحة وفي (وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرّ) للوجوب وعند أهل الظّاهر كلاهما للوجوب؛ فيجب الأكل منها أو يندب، ليعلم الفقراء أنّها طيّبة وأنّ المضحّي لا يستعلي عليهم فيأكل ممّا يأكلون والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

(لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا) لحوم الأضاحي والهدايا والقرابين وذبائح التّطوع **(وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى)** الأعمال الّتي تصدر **(مِنكُمْ)** فتتّقون به عذابه **(كَذَلِكَ)** مثل ما ترى **(سَخَّرَهَا)** سخر البهائم **(لَكُمْ)** فتتصرّفون فيها كيف شئتم، ولولا تذليل الله إياها لما قدرتم عليها، فالإبل إذا شردت لا تقدرون عليها وكذلك البقر وغيرها، ولكنّ الله ذلّلها لكم فيقود هذا الإبل الكبير طفل صغير فذلّلها لكم **(لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ)** وتحمدوه **(عَلَى مَا هَدَاكُمْ)** من الإنتفاع بهذه البهائم **(وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)** بها على الفقراء والمتصدّقين منها.

ثمّ بعد أن وضع الله تعالى هذه الشّعائر للمسلمين فامتازوا عن غيرهم في الشّعائر وأصبحوا أمّة برأسها لها كيانها الخاص وشعائرها الخاصّة أصبح الكافرون يعادونهم ويكيدون لهم كلّ كيد فقال لهم جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾

(**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ**) يدفع بكثرة أذى المشركين (**عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**) لأنّ المشركين خانوا الله تعالى كثيراً فبدّلوا شريعته وكفروا نعمه حين عبدوا غيره و(**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ**) لدينه (**كَفُورٍ**) لنعمه تعالى.

ثمّ لما بالغ المشركون في إيذاء المؤمنين ونصبوا راية القتال تجاههم، أذن الله تعالى للمؤمنين أن يقاتلوهم أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾

(**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ**) أن يقاتلوا مقاتليهم من المشركين (بـ) بسبب (**أَنَّهُمْ ظُلِمُوا**) وأنّ دفع الظّلم ومقاومته واجب وليس من شيمة الإنسان أن يرضى بالظّلم ولايقاومه، قال الشّاعر:

ولا يقيم على ظلم يراد به ... إلّا الأذلّان عير الحيّ والوتد

هذا على الخسف مربوط برمّته ... وذا يشجّ فلا يرثي له أحد

فأمر الله تعالى المؤمنين بالقتال لدفع الظّلم (**وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**) فينصرهم. ثمّ بيّن الله تعالى الّذين ظلموا فقال جلّ وعلا: (**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ**) إلى الحبشة ثمّ إلى المدينة (**بِغَيْرِ حَقّ**) يجيز إخراجهم (**إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**) وحده

ولا نشرك به، وهذا أمر يجب أن يحترم قائله لا أن يؤذى ويخرج. ثمّ بين الله تعالى أنّه لولا إذن الله للمؤمنين به والتّابعين لشريعته بأن يقاتلوا ويدافعوا عن مقدساتهم ومعتقداتهم لما بقي في الأرض ذكره واتّباعه فقال جلّ وعلا: (**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم**) الكافرين والتّابعين للهوى والنّفس والشّيطان (**بِبَعْضٍ**) وهم المؤمنون بالله والمتديّنون بدينه (**لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ**) معابد النّصارى في وقته حينما كانوا على الحقّ (**وَبِيَعٌ**) وهي معابد الصّائبة في وقته حينما كانوا على الحقّ (**وَصَلَوَاتٌ**) وهي معابد اليهود حينما كانوا على الحقّ (**وَمَسَاجِدُ**) معابد المسلمين حيث إنّ هذه الأمكنة كانت (**يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ**) وينشر فيها شريعته فلا يرضى بذلك أصحاب الهوى والطواغيت فيهدمونه، فلذلك أذن الله المؤمنين به في كلّ زمان أن يقاتلوا أعداء الله تعالى للحفاظ على عقيدتهم ودينهم ومقدساتهم (**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ**) في كلّ زمان (**مَن يَنصُرُهُ**) ينصر دينه الحقّ (**إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ**) يقدر على نصر من شاء (**عَزِيزٌ**) عزيز غالب في أمره لا يمنعه من تنفيذه أحد. ثمّ بيّن الله تعالى الّذين ينصرون دينه ليعرفوا، فلا يدّعي كلّ أحد أنّه ينصر دينه فقال جلّ وعلا: (**الَّذِينَ**) إنّ الّذين ينصرون الله هم (**إِن مَّكَّنَّاهُمْ**) إنّ أعطيناهم السّلطة (**فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ**) أدّوا الصّلاة وأمروا بها وأجروا الحدّ على تاركها (**وَآتَوُا الزَّكَاةَ**) من أموالهم (**وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ**) في دين الله تعالى وحكموا به (**وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ**) في شريعته فمنعوه (**وَلِلَّهِ**) بعد خراب الدّنيا (**عَاقِبَةُ الأُمُورِ**) كلّها فلا يبقى سلطة لأحد فينتقم من الّذين انحرفوا عن منهجه وشريعته ويثيب وينعم على من أقام دينه وحكمه على نفسه وعلى من تحت ولايته فتمّ بذلك الوعد والوعيد بالنّسبة للآخرة كما تمّ ذلك بالنّسبة للدّنيا، إفعل يا ألله.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

(**وَإِن يُكَذِّبُوكَ**) أيّها النّبيّ فلا تحزن فإنّ هذا سنّة المرسلين يكذّبون ويؤذون ثمّ يكون النّصر والغلبة لهم والهلاك والدّمار لأعدائهم (**فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ**) قبل قومك (**قَوْمُ نُوحٍ**) رسولهم نوحاً (**وَعَادٌ**) هوداً (**وَثَمُودُ**) صالحاً (**وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ**) إبراهيم (**وَقَوْمُ لُوطٍ**)

لوطاً (**وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ**) شعيباً (**وَكُذِّبَ مُوسَى**) من قبل فرعون وملئه فكلّ هؤلاء كذّبوا رسولهم وكفروا بهم وآذوهم (**فَأَمْلَيْتُ**) فأمهلت (**لِلْكَافِرِينَ**) وما استعجلت بعذابهم (**ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ**) بالعذاب وأهلكتهم (**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**) أصله نكيرى فحذف الياء للتّخفيف والفاصلة، والاستفهام للتّعجب أي كان نكيرى أي عذابي لهم عجيباً وفظيعاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يشير إلى أقوام آخرين أهلكوا غير هؤلاء نتيجة تكذيبهم وعدائهم للرّسل فقال جلّ وعلا:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

(**فَكَأَيِّن**) فكثيراً جدّاً (**مِّن قَرْيَةٍ**) من أهل القرى غير هؤلاء (**أَهْلَكْنَاهَا**) أهلكنا أهلها حيث (**وَهِيَ**) وأهلها (**ظَالِمَةٌ**) ظالمة بسبب الكفر والفسوق (**فَهِيَ**) فالقرية نفسها أيضاً (**خَاوِيَةٌ**) ساقطة (**عَلَى عُرُوشِهَا**) سقوفها أي انقلبت الدّور فوقع السّقف على الأرض والباقي فوقها (**وَبِئْرٍ**) وكم بئر (**مُعَطَّلَةٍ**) لم يبق أهلها موجودة (وَ) وكم (**قَصْرٍ مَشِيدٍ**) قصر محكم بقي بدون صاحبه (**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**) حينما يرون تلك القرى الخاوية فيتّعظوا بها (**أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**) أخبارهم فيعتبروا وماعميت أبصارهم، فإنّهم رأوا هذه القرى في أسفارهم إلى الشّام واليمن وسمعوا بها (**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ**) فإنّها ترى الآثار والعبر (**وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**) فلا تتّعظ ولا تعتبر والرّؤية لا تفيد بدون التّفكر والاتّعاظ فهذه الرّؤية كرؤية البهائم والأنعام.

ثمّ إنّه كان منكرو رسول الله (ﷺ) يستعجلون بمجيء العذاب إنكاراً واستهزاءً ويقولون للرّسول: (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين) فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

(**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ**) يطلبون الاستعجال بمجيئه استهزاءً، فالعذاب يأتيهم حتماً حيث (**وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ**) وقد وعد المؤمنين بإذلال عدوّهم إلّا أنّ الله لا يستعجل بل هو صابر وحدّ صبره هو (**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ**) لصبره (**كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**) فصبره يوماً كصبركم ألف سنة، ويدلّ على أنّ الله لا يخلف وعده ووعيده (**وَكَأَيِّن**) وكثيرا (**مِّن قَرْيَةٍ**) من القرى (**أَمْلَيْتُ لَهَا**) أمهلت (**وَهِيَ ظَالِمَةٌ**) سكانها (**ثُمَّ**) حينما جاء وقت عذابها (**أَخَذْتُهَا**) دمّرتها وهذا عذابهم في الدّنيا (**وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ**) بالنسبة للآخرة فأعذّبهم عذاباً أليماً جداً.

ثمّ أمر الرّسول أن يقول لهم حينما يطلبون منه الخوارق أو نزول العذاب بأنّ وظيفته الإنذار والتّبليغ فقط، وأمّا الخوارق أو العذاب فلا يقدر عليه، بل إنّ ذلك كلّه موكول إلى الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

(**قُلْ**) أيّها النّبيّ للنّاس حينما يطلبون أن تأتي لهم بالعذاب أو بالخوارق فقل لهم: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ**) أنذركم بعذاب الله إن لم تؤمنوا (**مُبِينٌ**) موضّح إنذاري لإخفاء فيه، وأمّا الخوارق والعذاب فهو بيد الله تعالى وليس في مقدوري، فأنذركم أنا (**فَالَّذِينَ آمَنُوا**) نتيجة إنذاري وتبليغي (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ**) من كلّ ما فعلوا من قبل من الذّنوب فإنّ الإسلام يجبّ ماقبله (**وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**) لهم في الدّنيا والآخرة (**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي**) أبطال (**آيَاتِنَا**) شريعتنا وصدّ النّاس عن الإيمان (**مُعَاجِزِينَ**) يعجزون النّاس عن الإيمان بكلّ ما استطاعوا، أو يريدون أن يعجزوا دعوتنا عن الإنتشار وقبول النّاس لها (**أُوْلَئِكَ**) الّذين يعملون ذلك هم (**أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**) في الدّنيا حيث تحرق قلوبهم نار الحسرة والحسد بتقدّم دعوتنا وانتشارها بين النّاس وفي الآخرة يدخلون جهنّم وهي الجحيم.

ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) حزن حينما كان يطلب منه النّاس أن يأتي لهم بالخوارق أو بالعذاب، وكان الله لا يستجيب له ذلك لأنّه كان حريصاً على إيمان النّاس بالله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

(**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيّ إِلّا**) كان حاله أنّه (**إِذَا تَمَنَّى**) قرأ ما أوحينا إليه وطلب من القوم أن يقبلوا دعوته (**أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**) في طريق دعوته عثراتٍ تصدّ بها النّاس عن الإيمان والإتّباع؛ فيوسوس إلى النّاس أن يطلبوا من الرّسول خوارق قاهرة أو أن يأتي بالعذاب؛ فهذا سنّة الله تعالى في الرّسل، فلا رسول أتى وآمن به كلّ النّاس فوراً، ولكنّ الله تعالى يروّج دعوة الرّسل (**فَيَنسَخُ**) فيزيل (**مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**) من قلوب من أراد الإيمان منه ومن قلوب أهل العقل والتّفكير الصّحيح (**ثُمّ يُحْكِمُ اللَّهُ**) يرسخ ويدخل في قلوب الطّيبين (**آيَاتِهِ**) شريعته فيؤمنون بها (**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) بمن يؤمن ويصلح لاتّباع الرّسل وغيرهم (**حَكِيمٌ**) لا يفعل شيئاً إلّا عن حكمة، وفي قبوله تعالى هذه العثرات الّتي يلقيها شياطين الإنس والجنّ في طريق دعوة الرّسل حكمة ذكرها تعالى فقال جلّ وعلا: (**لِيَجْعَلَ**) فعل الله ذلك من قبول إلقاء الشّياطين الشّبهات في طريق الدّعوة (**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً**) اختباراً (**لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**) وهو الكبرياء والحسد وحبّ الرّئاسة والمنافع، يختبرهم الله تعالى هل يحكّمون العقل والتّفكير الصّحيح فيتّبعون الحقّ أو يحكمون كبرياءهم وحسدهم، فيبقون على الباطل (**وَالْقَاسِيَةِ**) ويختبر الّذين قست (**قُلُوبُهُمْ**) وجمدت على التّقليد والعادات الّتي ورثوها، فلا تلين للحقّ وإن ظهر واتّضح (**وَإِنَّ الظَّالِمِينَ**) أي الّذين انحرفوا عن الحقّ كبرياءً وحسداً أو تقليداً (**لَفِي شِقَاقٍ**) نزاع مع الحقّ (**بَعِيدٍ**) ذلك النّزاع وشديد لا يؤمل منهم الإهتداء (**وَلِيَعْلَمَ**) جعل ذلك إمتحاناً ليعلم (**الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**) العقل والتّفكير فيتّبعون العلم والعقل والتّفكير ويحكّمونه فيعلمون (**أَنَّهُ**) الّذي يدعو إليه الرّسل (**الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**)

لأنّه موافق للعقل والمنطق والفطرة والضّمير فبعد التّفكير (**فَيُؤْمِنُوا بِهِ**) فيتّبعونه (**فَتُخْبِتَ**) فتخشع (**قُلُوبُهُمْ**) لله (**وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا**) الّذين يحبّون الحقّ والإيمان (**إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**) فيسلكونه ويستقيمون عليه (**وَ**) لكن (**لا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا**) يحبّون الإستعلاء ويتّبعون الحسد أو التّقليد ولا يحبّون الحقّ فلا يزال هؤلاء (**فِي مِرْيَةٍ**) في شكّ (**مِنْهُ**) ممّا يدعو إليه الرّسل (**حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً**) يوم القيامة فجأة حيث هناك يظهر كلّ شيء (**أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ**) لا يوجد فيه خير وهو عذاب الدّنيا وحين أتتهم السّاعة أو العذاب في الدّنيا لا ينفعهم النّدم ولا التّوبة ولا الإيمان؛ لأنّ التّوبة والإيمان حين اليأس غير مقبول، وهكذا معنى الآيات الكريمة، وأمّا ما يروى من أنّ الرّسول (ﷺ) تمنّى أن يؤمن القوم، فلذلك مدح بعض آلهتهم ليؤمنوا، فقرأ في سورة النّجم بعد قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ فقال: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهنّ لترتجى، فهذه من وضع الكذّابين والمندسّين في الإسلام، لأنّه يخالف عصمة الرّسول (ﷺ) فإنّ الرّسول (ﷺ) معصوم من الذّنوب فكيف بالشّرك وتقديس الأصنام، ومن أراد الإطمئنان فعليه بمراجعة تفسير الخازن وإبن كثير والسّيد قطب وردّهم على هذه الرّواية الكاذبة بعد نقلها عن الرّواة الكاذبين والله الهادي إلى الحقّ والصّواب.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر مايؤول إليه الأمر حينما أتت السّاعة وقامت القيامة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

(**الْمُلْكُ**) السّلطة والسّلطان (**يَوْمَئِذٍ**) يوم تقوم السّاعة (**لِلَّهِ**) وحده فلا يبقى سلطة لأحد من سلاطين الدّنيا الّذي آتاهم الله تعالى السّلطة المجازيّة العارضة إمتحاناً لهم، هل يستعملونها في الحقّ والخير أم لا؟ ففي ذلك اليوم (**يَحْكُمُ**) الله (**بَيْنَهُمْ**) بين النّاس.

ثمّ بيّن الله تعالى كيفيّة حكمه ونتيجته فقال جلّ وعلا: (**فَالَّذِينَ آمَنُوا**) برسله (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) وفق آمره فهم (**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**) يتنعّمون فيها (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا**) بالرّسل (**وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) بأحكامنا فلم يعملوا بها (**لَهُمْ**) في ذلك اليوم (**عَذَابٌ مُّهِينٌ**) يهينهم ويذلّهم (**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا**) لنصرة دين الله تعالى (**ثُمَّ**) بعد الهجرة (**قُتِلُوا**) في المعركة (**فِي سَبِيلِ**) نصرة دين الله تعالى ورسوله (**أَوْ مَاتُوا**) على فراشهم (**لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ**) تعالى في ذلك اليوم (**رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**) في الدنيا أو الآخرة، ثمّ (**لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ**) وهو الجنّة (**وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ**) بأعمال العباد (**حَلِيمٌ**) لا يعجّل بالعقوبة لهم لعلّهم يتوبوا.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حكمه للمؤمنين في الآخرة أراد أن يبيّن حكمه في الدّنيا أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

(**ذَلِكَ**) الّذي ذكر هو حكم الله تعالى في الآخرة، وأمّا في الدّنيا فحكمه كما قال جلّ وعلا: (**وَمَنْ عَاقَبَ**) ومن آذى عدوّه من الكفّار (**بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ**) أوذي (**بِهِ ثُمَّ بُغِيَ**) ثمّ تُعدّي (**عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ**) ويذلّ أعداءه حيث (**إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ**) يعفو عن العبد إذا قام بالانتقام بالمثل من عدوّه (**غَفُورٌ**) يغفر له ويرضى بهذا الانتقام وينصره.

ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت قدرته على أن ينصر من يشاء ويذلّ من يشاء فقال جلّ وعلا:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾

وقد ذكرنا معنى الآية وكيفيّة إدخال اللّيل في النّهار وبالعكس عند قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ...﴾ إلخ الآية ـ سورة آل عمران الآية/ ٢٦. (**وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ**) يسمع كلّ قول وصوت (**عليم**) يعلم كلّ شيء، فمن كان

علمه هكذا وقدرته كذلك فلا يصعب عليه أن ينصر من يشاء ويذلّ من يشاء.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سبب نصره للمؤمنين وإذلاله للكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

(ذَلِكَ) نصر الله للمؤمنين وإذلاله للكافرين حاصل **(بِـ)** بسبب **(أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)** لأن يعبد ويطاع **(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ)** هؤلاء الكافرون ويعبدونه **(هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)** فلا علوّ ولا كبرياء إلّا لذاته، فمن عبد غيره واعتقد فيه الكبرياء والعلوّ فحقيق بأن يذلّه الله تعالى كالكافرين، وأنّ من عبده وحده وهو الحقّ حقيق بأن ينصره تعالى، فالمؤمنون منصورون إن عملوا، وعدم نصرهم اليوم وذلّهم تحت نير الإستعمار لأنّهم لا يعملون للإيمان والإسلام عملاً موحّداً وبجدّ وإخلاص وإلّا فلا يخلف الله تعالى وعده، وإنّما الإخلاف منّا نحن المؤمنين قولاً لا عملاً واتّباعاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر من دلائل كبريائه وأنّه الحقّ بالعبادة فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

(أَلَمْ تَرَ) ألم تنظر نظر إعتبار فتعلم بذلك عظمة الله وكبرياءه، والإستفهام للأمر أي انظر واعلم **(أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء)** من الفوق وهو السّحاب **(مَاء فَتُصْبِحُ الأَرْضُ)** بسبب الماء **(مُخْضَرَّةً)** بالنّباتات **(إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ)** بالنّاس حيث ينبت لهم هذه النّباتات **(خَبِيرٌ)** بما يحتاجون إليه فينبت لهم ذلك **(لَهُ)** أي لله مُلكاً وملكاً كلّ **(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)** فمن كان هذه قدرته وملكه هو الحقّ بالعبادة ولا شريك له حين لا

يحتاج إلى شريك لأنّه (**لَهُوَ الْغَنِيُّ**) عن كلّ شيء والشّريك لا يريده إلّا المحتاج (**الْحَمِيدُ**) الجميل كلّ أفعاله وصفاته، فهو الحقّ بالعبادة وهو ذو الكبرياء فقط. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى من قدرته ما يدلّ على أنّه هو الحقّ بالعبادة والتّكبير، أراد أن يذكر من نعمة ما يجب أن يشكره العباد عليها فلا يعبدوا غيره ولا يكبّروه فقال جلّ وعلا: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ**) كلّه فتنتفعون به (**وَالْفُلْكَ**) سخرّها لكم حيث (**تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ**) وتقديره (**وَيُمْسِكُ**) يمنع (**السَّمَاء**) من (**أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ**) فكلّ ما في العلوّ لا يقع على الأرض إلّا بإذنه، فإذا أراد تقع السّماوات كلّها على الأرض وتقوم القيامة (**إِنَّ اللَّهَ**) بالنّاس (**لَرَؤُوفٌ**) لمنعم (**رَّحِيمٌ**) ولرحمه ينعم عليهم، فمن كان منها بهذه النّعم يجب أن يشكر فلا يعبد غيره ولا يكبّر سواه (**وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ**) مقدار ماشاء من العمر (**ثُمَّ**) اذا جاء أجلكم (**يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**) يوم القيامة (**إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ**) لنعم الله تعالى حيث لا يشكره كما يليق به الشّكر ولا يعبده حقّ العبادة.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

كان الكافرون يجادلون الرّسول (ﷺ) في بعض ما يحكم به الرّسول خلاف الشّرائع القديمة فقال تعالى ردّاً عليهم (**لِكُلِّ أُمَّةٍ**) من الأمم (**جَعَلْنَا مَنسَكًا**) عبادة (**هُمْ نَاسِكُوهُ**) عاملون له حسب مقتضى الزّمان وحكمة الله تعالى، وأنّ الأحكام هى حسب اختيار الله تعالى وإرادته، فيبدّل بعضاً ويبقي بعضاً اختباراً وإمتحاناً للنّاس، وليس حسب عقول النّاس (**فَلَا يُنَازِعُنَّكَ**) فلا حقّ إذن لأن ينازعك النّاس (**فِي الأَمْرِ**) الّذي جئت به (**وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ**) كما يوحي إليك ولا تبال لمنازعة النّاس (**إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى**) منهج (**مُّسْتَقِيمٍ**) لا عوج فيه (**وَإِن جَادَلُوكَ**) فلا تقابل بالمثل ولا تجادل بل (**فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ**) من المكابرة والتمرّد على رسوله فيجازيكم (**اللَّهُ يَحْكُمُ**) يمكن أن يكون هذا معطوفاً على قوله الله أعلم، فيكون المعنى: فقل الله يحكم ...الخ، وأن يكون جملة مستقلّه ومن مقول الله تعالى، فالمعنى: وإن جادلوك فلا تطل معهم الجدال حيث (**اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) يعقابهم على المجادلة (**فِيمَا**) في كلّ ما (**كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**).

ثمّ أكّد تعالى خبره بأنّه يحكم بينهم فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

(**أَلَمْ تَعْلَمْ**) الاستفهام للتّقرير أي لقد علمت (**أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ**) كل مايجري (**فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ**) من أعمال العباد وغيرها (**إِنَّ ذَلِكَ**) الّذى يجري مسجل (**فِي كِتَابٍ**) وإنّ التّسجيل حكمته المحاكمة على حسبه (**إِنَّ ذَلِكَ**) الحكم يوم القيامة (**عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**) سهل لا صعوبة فيه. ثمّ ذكر الله تعالى أعظم ما يختلف فيه المشركون مع المؤمنين فقال جلّ وعلا: (**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا**) أصناماً وآلهةً (**لَمْ يُنَزِّلْ**) الله تعالى (**بِهِ**) بعبادتهم لها (**سُلْطَانًا**) دليلاً فلا دليل لهم من النّقل (**وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ**) دليل من العقل، فعبادتهم لتلك الآلهة باطلة نقلاً وعقلاً، وهذا ظلم أي تجاوز عن الحقّ (**وَمَا لِلظَّالِمِينَ**) هذا الظّلم الكبير (**مِن نَّصِيرٍ**) ينصرهم يوم القيامة وينقذهم من عذاب الله تعالى.

ثمّ ذكر الله تعالى من ظلمهم أنّهم بالرّغم من أنّه لا دليل لهم على ما يعبدونه لا من النّقل ولا من العقل، فإنّهم إذا ذكرت الأدلّة القاطعة على خطئهم لا يسمعونها ولا يعملون بمقتضاها فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

(**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا**) الدّلائل الدّالة على بطلان الشّرك وحقيّة التّوحيد وبطلان ما يعبدون من دون الله تعالى (**تَعْرِفُ**) وترى (**فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ**) الكراهيّة والإنكار والعبس من هذه الآيات، ويتعذّبون من سماعها فلذا (**يَكَادُونَ**) يحاولون ويريدون (**يَسْطُونَ**) يبدؤون بالشّتم وإلحاق الأذى وهو السّطو (بـ) على (**الَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا**) هذه (**قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ**) الّذي نسمعونه وتتأذّون منه والإستفهام

للتّقرير، فالمعنى نخبركم به وهي: (**النَّارُ**) الّتي تدخلونها نتيجة إنكاركم هذا (**وَعَدَهَا اللَّهُ**) وأنذر بها (**الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**) هو هذه النّار لكم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ويبرهن على بطلان آلهتهم فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ**) ذكر (**مثلٌ**) دليل على بطلان آلهتكم (**فَاسْتَمِعُوا**) واقتنعوا به واخضعوا (**لَهُ**) واعملوا على مقتضاه والدّليل هو: (**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ**) تستغيثون بهم وتطلبون منهم دفع المكاره أو رفعها وجلب الخيرات وتعبدونهم (**مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا**) واحداً (**وَلَوِ اجْتَمَعُوا**) كلّهم (**لَهُ**) لخلقه بل وهم أعجز من ذلك حيث وإن (**وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا**) من الاشياء (**لا يَسْتَنقِذُوهُ**) لايستطيعون أن يستردّوه (**مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ**) الّذين يعبدون الآلهة (**وَالْمَطْلُوبُ**) والآلهة كلّها فكيف يعبدونهم. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذا الدّليل على بطلان الآلهة أنذر الكفرة على عبادتهم فقال جلّ وعلا: (**مَا قَدَرُوا**) ماعظّموا (**اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**) حقّ تعظيمه، حيث عبدوا غيره واستغاثوا بغيره (**إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ**) يأخذهم ويعاقبهم بقوّته القاهرة (**عَزِيزٌ**) غالب على أمره لا يمنعه من تنفيذ عذابه فيهم أحد.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أموراً تتعلّق بذات الإله أراد أن يذكر ما يتعلّق بذات الرّسول (ﷺ) وقد كان صناديد قريش يقولون: (أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا) ويقولون أيضاً (لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

(**الله يصطفي**) أصله يصتفي من باب الافتعال من الصّفوة، قلبت التّاء طاء لمجانسة الصّاد فصار يصطفي، أي إنّ الله تعالى يصطفي أي يختار هو (**رسلاً من الملائكة ومن**

(النّاس) حسب اختياره وإرادته لا حسب إرادة النّاس وإقتراحهم **(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ)** بأقوال النّاس **(بصير)** بأحوالهم فيختار منهم من يناسب حاله الرّسالة كما قال: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) سورة الأنعام ـ ١٢٤ ـ وإنّ الله تعالى **(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)** أي مستقبل النّاس **(وَمَا خَلْفَهُمْ)** أي ماضيهم وما عملوا في الماضي وما يعملون في المستقبل **(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمورُ)** كلّها فهو يديرها ويقدّرها كيف يشاء ومنها أمر الرّسالة أيضاً فلا دخل للعباد في اختيار الرّسل إليهم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أمر الرّسول أراد أن يذكر ما أرسل الرّسول لأجله فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالرّسول واعتنقوا دينه الإسلام **(ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا)** صلّوا بركوع وسجود حيث كانوا من قبل يصلّون بدون ركوع وسجود **(وَاعْبُدُوا)** واطيعوا **(رَبَّكُمْ)** بتطبيق شريعته ومنهجه **(وَافْعَلُوا الْخَيْرَ)** ما جعله تعالى خيراً من واجب ومسنون **(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** لكي تفلحوا بذلك أي تفوزوا بالسّعادة وما تريدون من النّعيم في الدّنيا والآخرة بسبب هذه الأعمال **(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)** وهو التّضحية بالمال والنّفس في سبيل إعزاز دينه ورفع رايته **(هُوَ اجْتَبَاكُمْ)** إختاركم لأداء هذه الأمانة من شريعته وتطبيق نظامه **(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)** من مشقّة فكلّ أمر إذا شقّ أبيح لكم تركه وإذا ضاق الأمر اتّسع **(مِّلَّةَ)** أقصد بالدّين ملّة **(أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ)** النّبيّ إبراهيم **(هُوَ)** أي الله تعالى **(سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ)** في زمان إبراهيم **(وَفِي هَذَا)** القرآن **(لِيَكُونَ)** اللّام لام العاقبة، فالمعنى أنّ اختيار الله إيّاكم لحمل هذا الدّين وتطبيقه ونشره هو أنّه يكون **(الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ)** يوم القيامة عند الله على جدّكم وتقصيركم

(**وَتَكُونُوا**) أنتم أيّها المسلمون (**شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ**) غيركم، وقد مرّ الكلام على هذه الآية في سورة البقرة، فاستقيموا على دينكم (**فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**) والمراد بإقامة الصّلاة أداء حقوق الله كافّة وبإيتاء الزّكاة أداء حقوق العباد كلّها (**وَاعْتَصِمُوا**) وثقوا (**بِاللَّهِ**) في كلّ أمر وتوكّلوا عليه (**هُوَ مَولاكُمْ**) ناصركم لا ناصر غيره (**فَنِعْمَ الْمَوْلَى**) هو الله تعالى (**وَنِعْمَ النَّصِيرُ**) هو وحده حيث لا ناصر سواه. اللّهم انصرنا على الكافرين ووفّقنا لعمل الخير وحسّن خاتمتنا واغفر لنا يوم الدّين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وأمّته أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

كتبت مسودة تفسير هذه السّورة في بغداد في ٣ / ربيع الاول ١٤٠٨.

سورة المؤمنون

(مكيّة، وهي مئة وثماني عشرة آية، نزلت بعد سورة الأنبياء (عليهم السلام)، سمّيت ب ـ (المؤمنون) لما صدرت به من قوله: "قد أفلح المؤمنون" ومن ورود تعريف المؤمنين فيه).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ (٢) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ (٤) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٧) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١)﴾

عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال كان رسول الله (ﷺ) (إذا نزل عليه الوحي يسمع عن وجهه دويّ كدويّ النحل، فأنزل الله تعالى عليه يوماً، فسكت ثمّ سرى عنه، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللّهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا، اللّهم ارضنا وارض عنّا، ثم قال: أنزل عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنّة فقرأ: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ .... حتّى ختم عشر آيات)[1].

(١) سنن الترمذي ٥/٣٢٦ الحديث رقم ٣١٧٣.

(قَدْ أَفْلَحَ) قد فاز بالسّعادة في الدّنيا والآخرة **(الْمُؤْمِنُونَ)** الكاملون في إيمانهم بالله والآخرة والإسلام، والّذين يتّصفون بهذه الصفات في الآيات التالية ولذا قال تعالى: **(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ)** خاضعون لله تعالى متذكّرون له ولعظمته ولثوابه وعقابه.

وهذا خلاصة معنى الخشوع، وقد اختلف العلماء في حقيقته، فنذكر أقوالهم كما يلي:

١- عن أبي الدّرداء قال: الخشوع: إخلاص المقال وإعظام المقام واليقين التّام وجمع الإهتمام.

٢- قيل: الخشوع: من أفعال القلب، فهو الخوف من عذاب الله والرّغبة في ثوابه والتّذكر في عظمة ذاته وجلالة صفاته.

٣- قيل: الخشوع: من أعمال الجوارح فهو السّكون وترك الإلتفات وغضّ البصر وعدم العبث بجسده ولباسه.

٤- قيل: لا بد من الجمع بين فعل القلب والجوارح، فأمّا ما يتعلّق بالقلب فهو نهاية الخضوع والتذلّل للمعبود، ولا يلتفت بخاطره إلى شيء سوى ذلك التّعظيم، وأمّا ما يتعلّق بالجوارح فهو أن يكون ساكناً مطرقاً ناظراً إلى موضع سجوده

٥- قيل: الخشوع: من لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله.

هذا والحقّ أنّ الخشوع له درجات، فكلّ قائل عرفه حسب درجته أو حسب ذوقه، فالمكلّف به أن لا يقصر المصلّي في تحصيل درجته الأعلى، فالأعلى والله تعالى أعلم.
وهنا أحاديث تتعلّق بالخشوع نذكرها إن شاء الله تعالى نقلاً عن الخازن (ﷺ):

١- روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: سألت رسول الله (ﷺ) عن الإلتفات في الصّلاة فقال: هو إختلاس يختلسه الشّيطان من صلاة العبد[1].

٢- عن أبي ذر (ﷺ) عن النّبيّ (ﷺ) قال: لا يزال الله مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت، فإذا التفت إنصرف عنه، وفي رواية أعرض عنه. أخرجه أبو داود والنّسائي[2].

٣- روى البخاري عن أنس بن مالك (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): ما بال

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٦١ الحديث رقم ٧١٨.

(٢) سنن أبي داود ١/ ٢٣٩ الحديث رقم ٩٠٩، سنن النسائي ١/ ١٥٦ الحديث رقم ١١١٨.

أقوام يرفعون أبصارهم إلى السّماء في الصّلاة، فاشتدّ قوله له في ذلك حتّى قال: لينتهينّ عن ذلك أو لتخطفنّ أبصارهم[١]. أي إن شاء الله تعالى.

٤- قال أبو هريرة (رضي الله عنه): كان أصحاب رسول الله (ﷺ) يرفعون أبصارهم إلى السّماء في الصّلاة فلمّا نزل قوله تعالى (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ) رمقوا بأبصارهم إلى موضع السّجود.

٥- روي عن النّبيّ (ﷺ) أنّه أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصّلاة فقال: لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه[٢]. قال في الخازن: ذكره البغوى بغير سند.

٦- عن أبي ذر (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: إذا قام أحدكم إلى الصّلاة فلا يمسح الحصى فإنّ الرّحمة تواجهه. أخرجه أبو داود والتّرمذي[٣].

وهذه الأحاديث كلّها فيما يخالف الخشوع، فمن الخشوع ترك ما نهى عنه في هذه الأحاديث والله تعالى أعلم.

ثمّ إن الله تعالى ذكر لعلامة الفلاح سبع صفات:

الأولى: الإيمان وقد ذكرها بقوله: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ).

الثّانية: ذكرها بقوله: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ).

الثالثة: ذكرها في قوله: (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) وفسّروا اللّغو بأقوال أصحّها: أنّه كلّ قول باطل.

الرّابعة: ذكرها تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) مؤدّون الزّكاة إلى أهلها.
الخامسة: ذكرها بقوله: (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) فلا يولجونه إلّا في حلال ويمنعونه (إلّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ) إياها (أَيْمَانُهُمْ) وهي الجواري (فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) ولا معاقبين بل هم مثابون لقوله (ﷺ): (وفي بضع أحدكم صدقة)[٤] أو كما

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٦١ الحديث رقم ٧١٧.

(٢) كنز العمال ٨/ ٩٤ الحديث رقم ٢٢٥٣٠.

(٣) سنن إبي داود ١/ ٢٤٩ الحديث رقم ٩٤٥، سنن الترمذي ٢/ ٢١٩ الحديث رقم ٣٧٩.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٦٩٧ الحديث رقم ١٠٠٦. وهو جزء من حديث.

قال، والفرج يشمل ما للرّجل والمرأة، فالمرأة يشملها هذا الخطاب لأنّ الزّوج أيضاً يطلق على الرّجل والمرأة إلّا أنّه لا يشمل المرأة قوله: أو ما ملكت أيمانهم فإنّه لا يحمل للمرأة أن تمكن عبدها من نفسها بالملك (فَمَنِ ابْتَغَى) طلب (وَرَاء ذَلِكَ) فأراد التّمتّع وفعل بغير الزوج أو المملوك (هُمُ الْعَادُونَ) المتجاوزون أمر الله تعالى وحدوده.

تنبيه: إنّ الإستمناء باليد ويسمّى اليوم بالعادة السّرية، فعند أكثر العلماء هو حرام، وقال عطاء بن رباح: مكروه، وقال سعيد بن جبير: عذّب الله أمّة كانوا يعبثون بمذاكيرهم.

* * *

السّادسة: ذكرها في قوله: (وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) فلا يخونون في الأمانات ولا ينقضون العهود والمواثيق.

السّابعة: ذكرها في قوله: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) لا يضيّعونها أبداً ولا يفوتونها إلّا بعذر فيقضونها حينئذٍ (أُوْلَئِكَ) الّذين يتّصفون بهذه الصّفات (هُمُ الْوَارِثُونَ) لشيء عظيم، ثمّ بيّن ذلك الشّيء العظيم فقال: (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ) وهو أعلى طبقات الجنّة كما ورد في الحديث.

سؤال: إنّ الله تعالى ذكر أوصاف أهل الجنّة هنا وفي سورة الفرقان من قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ الآيات: ٦٣ ـ ٧٥، وفي سورة المعارج من قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ الآيات: ٢٢ ـ ٣٥. وفي مواقع أخرى، وبيّن في هذه المواضع الاختلاف في كيفيّة الصّفات وكمّيّتها فكيف التّوفيق؟

الجواب: إنّ الصّفات المذكورة في المواضع بعضها يستلزم البعض، فالمآل واحد، إلّا أنّ الله تعالى يوجز في بعض المواضع ويطيل في بعض لحكمة بلاغيّة حسب مقتضى الحال والمقام. أو نقول إنّ اختلاف الصّفات توجب اختلاف الدّرجات في الجنّة، إلّا أنّ الإيمان شرط في كلّ موضع ومراد صراحةً أو لزوماً والله تعالى أعلم.

ثمّ إنّ الله تعالى أراد أن يذكر مبدأ الإنسان وأوّل نشأته ومصيره بعد موته فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

(وَ) وبعزّتي (**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ**) من قطعةٍ خالصةٍ (**مِّن طِينٍ**) فإنّ الماء يختلط بالتّراب فيصير طيناً، ومن هذا الطّين ينبت الله النّباتات والأشجار، ومن النّباتات يتكوّن غذاء الإنسان، ومن الغذاء تتكوّن النّطفة، فبعد هذه الأطوار قال تعالى: (**ثُمَّ جَعَلْنَاهُ**) ثمّ بعد هذه الأطوار جعلناه أي الطّين (**نُطْفَةً**) نطفةً، فتقذف هذه النّطفة (**فِي قَرَارٍ**) مستقرّ (**مَّكِينٍ**) محكم وهو رحم الأنثى (**ثُمَّ خَلَقْنَا**) هذه (**النُّطْفَةَ**) وجعلناها (**عَلَقَةً**) دماً متجمّداً إذا مسسته تعلّق باليد (**فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ**) وصيّرناها (**مُضْغَةً**) قطعةً من اللّحم (**فَخَلَقْنَا**) هذه (**الْمُضْغَةَ**) المضغة وصيّرناها (**عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ**) بعد ذلك أي بعد أن كان الإنسان مادّةً فقط في هذه الأطوار كلّها (**أَنشَأْنَاهُ**) جعلناه (**خَلْقًا آخَرَ**) مركباً من الرّوح والمادة فنفخنا فيه الرّوح (**فَتَبَارَكَ اللَّهُ**) تعالى وجلّ (**أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**) المقدّرين والمصوّرين تقديراً وتصويراً، وفيه إشارة إلى أنّ الإنسان أحسن صورة وتقديراً كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ سورة التين الآية/ ٤.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الإنسان وأطواره قبل مجيئه إلى الدّنيا أراد أن يذكر أطواره بعد الخروج منها فقال جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

(**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ**) الخلق والإيجاد والحياة في الدّنيا (**لَمَيِّتُونَ**) حينما أتى أجلكم (**ثُمَّ**) بعد الموت (**إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**) أي تحيون مرّة أخرى.

تنبيه: أشار الله تعالى في هذه الآيات إلى أمرين:

الأمر الأول: أنّ الإنسان في هذه الأطوار كلّها لا اختيار له ولا قدرة في تبديل أيّ طور وأيّ عارض يعرض عليه؛ فيدلّ ذلك أنّه مقهور تحت قدرة قادر عليم وقدير، حيث إنّ من يصنع هذا الصّنع العجيب يجب أن يكون موصوفاً بالعلم والقدرة والسّمع والبصر والحياة، لبداهة أنّ الميّت أو الجاهل أو العاجز لا يستطيع أن يصنع شيئاً فضلاً

عن هذا الصَنع الّذي تحيّر فيه كلّ فيلسوف وحكيم، فيجب أن يستدلّ الإنسان من نفسه على وجود هذا الخالق العظيم. ولذا قيل: من عرف نفسه عرف ربّه.

الأمر الثّاني: أنّ هذا الخالق الّذي خلق الإنسان بهذه الطّريقة وهذه الأطوار هو الّذي يجب أن يتوجّه الإنسان إليه بالعبادة والإطاعة والإستغاثة، فإنّ المخلوق ملك الخالق وعلى المملوك أن يطيع خالقه ومالكه وأن يعلم أنّ خالقه القدير هذه القدرة والعليم هذا العلم لا يقبل شريكاً ولا شريك له.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى دلائل قدرته من الأنفس أراد أن يذكر دلائل قدرته ونعمته من الآفاق فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(وَ) وبعزّتي (**لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ**) المراد بها السّموات السّبع والطّرائق جمع طريقة أي مطروقة سمّيت السّموات بالطّرائق لأنّها تطرقها الملائكة نزولاً وصعوداً، وتطرقها الجنّ للإستراق فيحرقون، وتطرقها النّجوم كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ*﴾ سورة الطارق الآيات ١ ـ ٣. (**وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ**) أي المخلوقات (**غَافِلِينَ**) فنتركهم دون رعاية وإيجاد ما يحتاجون إليه، بل خلقنا لهم كلّما يحتاجون إليه كما قال تعالى: (**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ**) بقدر حاجة الخلق إليه (**فَأَسْكَنَّاهُ**) الماء في جوف الأرض وأجرينا منه العيون والأنهار والآبار (**وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ**) بالماء أو لتقليله أو إفنائه (**لَقَادِرُونَ**) فكم من عيون جفّت وكم من بحيرة غاصت (**فَأَنشَأْنَا لَكُم**) لمنفعتكم (**بِهِ**) بالماء (**جَنَّاتٍ**) تحتاجون إليها وتلك الجنّات من أنواع الثّمرات وخاصّة (**مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**) خصّ النّخيل والأعناب بالذّكر لأنّهما يستعملان قوتاً وفاكهةً، وغيرهما فاكهةً فقط، وذكر غيرهما ضمن قوله: (**لَّكُمْ فِيهَا**) في الجنّات (**فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**) ممّا تقوتون به، وخصّ الله تعالى شجرة بالذّكر لكثرة منافعها فقال جلّ وعلا: (**وَشَجَرَةً**) وأنشأ تعالى شجرةً وهي شجرة الزّيتون (**تَنبُتُ**

بِالدُّهْنِ) وهو الزّيت وتنبت أيضاً بصبغ كما قال: **(وَصِبْغٍ)** وإدام **(لِّلآكِلِينَ)**.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر دلائل قدرته وفضائل نعمته ممّا يحيط بالإنسان ويعيش معه، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ) وهي الإبل والبقر والضّأن والمعز **(لَعِبْرَةً)** لدليلاً تستدلّون به وتتذكّرون به قدرة الله تعالى وإنعامه عليكم حيث **(نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا)** من الألبان الّتي تخرج من بين فرث ودم طاهرةً خالصةً لمن يشربها **(وَلَكُمْ فِيهَا)** سوى الألبان **(مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ)** كالصّوف والوبر والشّعر والشّحوم والأسمدة، ومن أفضل المنافع أنّكم **(وَمِنْهَا)** ومن لحومها **(تَأْكُلُونَ)** ولكم فيها منفعة أخرى وهي: **(وَعَلَيْهَا)** وعلى ظهر الإبل من الأنعام **(وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)** في الأسفار والتنقّلات.

تنبيه: أشار الله تعالى في هذه الآيات إلى أنّ من له هذه القدرة الّتي خلق بها هذه الأشياء وأنعم عليكم هذه النّعم لا يليق به أن يشرك به أو يكفر، أو يعبد أو يطاع غيره، ومن فعل ذلك فإنّه يستحقّ العذاب في الدّنيا والآخرة.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أقواماً عذّبوا في الدّنيا قبل أن يعذّبوا في الآخرة نتيجة كفرهم وأشراكهم بالله وتمرّدهم على رسل الله تعالى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ) فجاءهم **(فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ)** وحده ولا تعبدوا سواه فإنّه **(مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ)** يستحقّ العبادة **(غَيْرُهُ)** وكلّ ما تعبدونه سواه باطل **(أَفَلا تَتَّقُونَ)** عذاب الله تعالى بترك الشّرك **(فَقَالَ الْمَلأُ)** الكبراء **(الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)** وليس برسول بل **(يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ)** يترأّس **(عَلَيْكُمْ)** بهذه الدّعوى **(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ)** أن يرسل رسولاً **(لأَنزَلَ مَلائِكَةً)** برسالته **(مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا)** بالّذي يدعونا إليه نوح من التّوحيد وهذه الأحكام **(فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ)** ونحن نقلدهم ولا نترك آلهتهم لقول نوح: **(إِنْ)** ليس **(هُوَ)** أي نوح **(إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ)** جنون فيهذي **(فَتَرَبَّصُوا بِهِ)** فانتظروا وأمهلوه **(حَتَّى حِينٍ)** لعله يطيب من جنونه أو يموت فنستريح منه، فلمّا اشتدّ الجدال وطال النّزاع بين نوح وقومه، ويئس نوح من هدايتهم ورشدهم، دعا نوح عليهم **(قَالَ رَبِّ انصُرْنِي)** عليهم وأخذلهم وأهلكهم **(بِمَا كَذَّبُونِ)** ما مصدريّة تؤوّل ما بعدها مصدراً، فالمعنى أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي، وكذّبون أصله كذّبوني حذف الياء للتّخفيف والفاصلة والله تعالى أعلم.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

فلمّا قدّرنا إهلاك قوم نوح أخبرنا نوحاً بأنّه يأتيهم الطّوفان فيغرقون به **(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ)** إلى نوح لتدبير نجاة المؤمنين من الطّوفان **(أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ)** السّفينة **(بِأَعْيُنِنَا)** برعايتنا **(وَوَحْيِنَا)** وتعليمنا إياك صنع السّفينة **(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا)** بالطّوفان والفيضان **(وَفَارَ التَّنُّورُ)** هذه الجملة كناية عن فيضان الماء يقال: فار التّنور بالماء أي فاض الماء، أو المراد بالتّنور خاص، وأخبر نوح أنّه إذا فار هذا التّنور فقد جاء الطّوفان فحينئذٍ **(فَاسْلُكْ)** فأدخل **(فِيهَا)** في السّفينة **(مِن كُلٍّ)** من كلّ ذي روح **(زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)** ذكر وأنثى، فبعد أن قال: زوجين، قال: إثنين لئلّا يتوهّم أنّ المراد من كلّ زوجين مكرّرين، فيكون أربعة على الأقل، ولم يقل إثنين دون زوجين لئلا يتوهّم أنّ المراد إثنين، سواء

كان كلاهما ذكرين أو أنثيين، حيث المراد كان ذكراً أو أنثى ليبقى التّناسل، وأحمل فيها **(وَأَهْلَكَ)** أهل بيتك كلّهم **(إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)** حكمنا بالغرق عليه **(مِنْهُمْ)** من أهلك لأنّه كفر، وكان المراد منه إبنه وامرأته لأنّهما كانا كافرين إلّا أنّه لم يبيّن، ولذا دعا فيما بعد لإبنه فقال: (ربّ إنّ إبني من أهلي)، **(وَلا تُخَاطِبْنِي)** فلا تشفع **(فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا)** حيث **(إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ)** أي قضى عليهم بالغرق ولا رادّ لقضائنا **(فَإِذَا اسْتَوَيْتَ)** تمّ استقرارك **(أَنتَ وَمَن مَّعَكَ)** من المؤمنين والحيوانات في الفلك **(فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)** الكافرين والمتعدّين على حدود الله تعالى وعلينا بالسّخرية والإهانة والإيذاء **(وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي)** إلى الأرض بعد إنتهاء الطّوفان **(مُنزَلاً)** نزولاً **(مُّبَارَكًا)** فيه الخير والبركة والتّوفيق لعبادتك ونشر شريعتك في الأرض **(وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ)** بل ولا منزل في الحقيقة إلّا أنت **(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ)** القصص **(لَآيَاتٍ)** لعبراً لمن اعتبر وعظة لمن اتّعظ **(وَإِن)** وقد **(كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)** لممتحنين قوم نوح، فرسب من رسب ونجح من نجح؛ فكان نتيجة الرّاسبين الهلاك ونتيجة النّاجحين النّجاة والتّوفيق والفوز بسعادة الدّنيا والآخرة.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

(ثُمَّ) بعد إهلاك قوم نوح **(أَنشَأْنَا)** خلقنا **(قَرْنًا)** أهل قرن **(آخَرِينَ)** وهم قوم عاد **(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ)** وهو سيّدنا هود (ﷺ) فبلّغهم أمراً وهو **(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ)** وحده ولا تشركوا به شيئاً لأنّه **(ما لَكُم مِّنْ إِلَهٍ)** يستحقّ العبادة **(غَيْرُهُ أَفلا تَتَّقُونَ)** الشرك والمعاصي بعد وضوح الحقّ وبطلان ما أنتم عليه، فكذّبوه **(وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ)** وهو السّادة والكبراء **(الَّذِينَ كَفَرُوا)** بهود **(وَكَذَّبُوا بِلِقَاء)** الله تعالى في الحياة **(الآخِرَةِ)** والحشر والحساب **(وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)** وسّعنا عليهم الرّزق فلذلك طغوا وقالوا: **(مَا هَذَا)** الّذى يدّعي النّبوّة **(إلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)**

منه فلا يكون رسولاً وإنّما الرّسل يكونون من الملائكة (**و**) والله (**لَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا**) إذا اطعتموه (**لَّخَاسِرُونَ**) حجّة واهية إغترّ بها السّفهاء، فإنّ الرّسل إلى البشر لا يكونوا إلّا منهم. ثمّ قد حكموا بأنّ من يطيع البشر لخاسر، وأرادوا أن يطيعهم القوم وهم بشر أيضاً، فهل هذا إلّا مغالطة وسفسطة وإضلال.

ثمّ بعد ما أنكروا رسالة رسولهم وكذّبوه أنكروا الحياة بعد الموت ومجيء يوم القيامة فقالوا كما قال جلّ وعلا:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾

(**أَيَعِدُكُمْ**) أيخوّفكم هود (**أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا**) بالية (**أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ**) من القبر إلى الحياة مرّةً أخرى وتحاسبون حينئذٍ (**هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ**) بعداً بعداً (**لِمَا تُوعَدُونَ**) من الحياة بعد الموت (**إِنْ هِيَ**) ليست الحياة (**إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا**) فقط (**نَمُوتُ**) بعد هذه الحياة (**وَنَحْيَا**) هذه الحياة فقط (**وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**) بمحيّين مرةً أخرى، وظاهر السّياق هو أن يقول نحيا ونموت، ولذا قال بعضهم: فيه تقديم وتأخير، أي نحيا ونموت، وقرأ بعضهم هكذا وقيل: (نموت) يموت بعضنا (ونحيا) يحيا بعضنا كالأبناء والأحفاد وهكذا ينقرض قرن ويأتي قرن.

ثمّ وصفوا قوله ودعوته وتخويفهم بالآخرة بأنّه افتراء، فقالوا كا قال جلّ وعلا:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

(**إِنْ**) ليس (**هُوَ**) هود (**إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**) في إدعائه الرّسالة وفي قوله: إنّ الله يحيي الموتى ويحاسبهم (**وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ**) بمنقادين له، فلمّا تمادى القوم في الطّغيان وإيذاء هود (**قَالَ**) هود متضرّعاً إلى الله تعالى (**رَبِّ انصُرْنِي**) وأهلكهم فإنّهم لا يؤمل الخير منهم فأهلكهم (**بِمَا كَذَّبُونِ**) بسبب تكذيبهم إياي (**قَالَ**) تعالى لهود: (**عَمَّا**) أصله عن ما أي عن وقت (**قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ**) عن تكذيبهم، حيث يأتيهم

العذاب، وحين لا ينفع النّدم (**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ**) صيحة الصّاعقة أو صيحة ملك (**بِالْحَقِّ**) بالعدل، حيث ظلموا وأنّ الانتقام من الظّالم حقّ وعدل (**فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء**) كالحشيش أمواتاً يابسةً لا حراك لهم (**فَبُعْدًا**) فقدّر الله تعالى (**بُعْدًا**) من الرّحمة (**لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**) وهم كلّ قوم انحرفوا عن شريعة الله واتّبعوا أهواءهم وما يشتهون.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أقواماً آخرين فقال جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

(**ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ**) أنشأنا من بعد قوم عاد (**قُرُونًا**) أهل قرون (**آخَرِينَ**) كقوم شعيب وقوم لوط فكلّهم كذّبوا رسلهم وأفسدوا في الأرض؛ فأهلكوا حينما جاء أجلهم واستحقّوا العذاب (**مَا تَسْبِقُ**) واحدة (**مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا**) على أجلها فتهلك قبله (**وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ**) عن أجلهم إذا جاء ولو لحظة.

تنبيه: كثيرا ما ترد من بعد (ما) النّافية كلمة مثل (وما تسبق) ويقول المفسّرون: أنّها أي (ما) زائدة للتّأكيد، ولكن القول بوجود الزّيادة في القرآن ليس هيّناً، فالأحسن تقدير ما ذكرنا من واحدة أو أحد أو غير ذلك وحسب المقام والله تعالى أعلم.

* * *

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(**ثُمَّ**) هكذا جرت سنّتنا حين (**أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا**) واحداً بعد الآخر بزمان طويل أي بعد ما فسدت أمّة الرّسول السّابق وكان الحال أنّه (**كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا**) ليعيدهم إلى الدّين الصّحيح وينهاهم عن الفساد الّذي اتّبعوه والتّحريف الّذي أتوا به على الدّين لم يؤمنوا به بل (**كَذَّبُوهُ**) وأهانوه فأهلكناهم (**فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم**) بعض الأمم (**بَعْضًا**) في الهلاك (**وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ**) عبراً لمن يعتبر (**فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ**) لكلّ قوم (**لا يُؤْمِنُونَ**) بالرّسل ولا يعملون بما أتوا به من شريعة الله تعالى، وهكذا كانت سنّتنا في النّاس إلى أن جاء دور موسى (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

(**ثُمَّ**) بعد هذه الأمم (**أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ**) وحاشيته (**فَاسْتَكْبَرُوا**) عن أن يؤمنوا بهما (**وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ**) في الأرض متسلّطين فيها، فلذلك استكبروا (**فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ**) أننقاد (**لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا**) مثلنا وهما موسى وهارون (**وَقَوْمُهُمَا**) وهم بنو إسرائيل (**لَنَا عَابِدُونَ**) خاضعون أذلّة تحت أيدينا، والاستفهام للإنكار، فالمعنى لا نؤمن لهما أبداً (**فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا**) بسبب التّكذيب لهما (**مِنَ الْمُهْلَكِينَ**) حيث أغرقوا في البحر. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال بني إسرائيل بعد هلاك فرعون فقال جلّ وعلا: (**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**) وهو التّوراة (**لَعَلَّهُمْ**) لعلّ بني إسرائيل (**يَهْتَدُونَ**) لكي يهتدوا إلى الصّراط المستقيم وشريعة الله تعالى فيعملوا بها. ثمّ إنّهم أيضاً فسدوا بعد زمان، وأفسدوا وغيّروا الدّين وبدلّوه، ولذلك أردنا أن نرسل إليهم من كان ولادته معجزة ليرجع بهم إلى الطّريق القويم، ففعلنا ذلك (**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ**) وهو عيسى (عليه السلام) (**وَأُمَّهُ**) مريم (**آيَةً**) معجزة كبيرةً جداً حيث ولد عيسى بدون أب وولدت مريم بدون أن يمسّها بشر، فكانت حالة كلّ منهما آيةً ومعجزةً، وحيث خافت مريم من ملك الوقت أن يقتل عيسى لمّا أخبره الكهّان أنّ في هذه السّنة يولد من يكون زوال ملكك على يده فهربت مريم به فحفظناهما (**وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ**) مرتفع (**ذَاتِ قَرَارٍ**) يحلو الاستقرار بها (**وَمَعِينٍ**) وماءٍ جارٍ، فهؤلاء الرّسل كلّهم جاؤوا ليبلّغوا النّاس بوجود الله ووحدته ووجوب عبادته والعمل بشريعته ومنهجه، ولم يكن أحد من هؤلاء الرّسل لا يأكل ولا يشرب ولا يتمتّع بالحلال كما أراد الكافرون ذلك منهم، وإلى هذا أشار الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾

(**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ**) قلنا للرّسل كلّهم يا أيّها الرّسل (**كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ**) وهي كلّ ما أباح الله تعالى أكله ولم يحرّم على الرّسل الأكل ولا الشّرب كما أراد الكفّار أن يكون الرّسل مجرّدين عن الأكل والشّرب (**وَاعْمَلُوا صَالِحًا**) من الأعمال وهو ما كان واجباً أو مندوباً أو مباحاً (**إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**) فأثيبكم عليه وبلّغوا النّاس وقولوا لهم (**إِنَّ هَذِهِ**) الشّريعة الّتى أتينا بها من التّوحيد وإطاعة أوامر الله وتنفيذ أحكامه والإجتناب عمّا نهى عنه، وكانت هذه الطّريقة (**أُمَّةً**) طريقةً (**وَاحِدَةً**) كلّ الرّسل متّفقون عليها وأمروا بها (**وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**) أصله فاتّقوني حذفت الياء للفاصلة والتّخفيف، ويعني: إتّقوا عذابي بعدم الإنحراف عن هذه الطّريقة طريقة رسل الله والأنبياء جميعاً وهي: توحيد الله في التّكوين والإيجاد والتّأثير والتّشريع وهذا معنى: لا إله إلّا الله، فجاء الرّسل وأدّوا أمانتهم وبلّغوا ما أمروا به، ففاز من آمن وأهلك من كفر، إلّا أنّه بعد وفاة الرّسول ما استقامت الأمّة بل بدّلوا وغيّروا وانحرفوا كما قال جلّ وعلا:

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾

(**فَتَقَطَّعُوا**) جعلوا (**أَمْرَهُم**) أمر دينهم (**بَيْنَهُمْ زُبُرًا**) قطعاً مختلفةً وأصبحوا أحزاباً متباينة (**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ**) من العقيدة والأحكام (**فَرِحُونَ**) ويحبّونه حقّاً، وكذلك أهل مكّة جاءهم إبراهيم وإسماعيل بدين الله تعالى، ثمّ انحرفوا عن التّوحيد دين إبراهيم عليه السلام.

ثمّ أمر الله تعالى أن يتركهم في عصيانهم لفترة يحدّدها الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(**فَذَرْهُمْ**) فاتركهم وليس المعنى ترك دعوتهم ووعظهم، بل المعنى ترك التّحسر وراءهم وترك قتالهم (**حَتَّى حِينٍ**) إلى حين أن يأتي الله تعالى بعذابهم، هذا وحيث إنّ الكافرين كانوا يغترّون بما لهم من قوّة وأموال قال تعالى: (**أَيَحْسَبُونَ**) أيظنّون (**أَنَّمَا نُمِدُّهُم**) نقوّيهم به (**بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ**) معناه أنّنا (**نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ**) ووهبناهم الخير (**بَل**) إنّ ذلك إستدراج ولكهنّم (**لَا يَشْعُرُونَ**) بذلك.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين أراد أن يذكر حال المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ**) عذاب (**رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ**) خائفون خوفاً شديداً حيث يؤمنون بالآخرة والثّواب والعقاب فيها (**وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ**) بدلائل (**رَبِّهِمْ**) وأحكامه (**يُؤْمِنُونَ**) وينقادون لها (**وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ**) فلا يعبدون ربّاً سواه (**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ**) يعطون من مالهم للمستحقّين (**مَا آتَوا**) أعطوا حسب وسعهم (**وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**) خائفة من (**أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**) إذ يرون أنفسهم مقصّرين (**أُوْلَئِكَ**) المتّصفون بهذه الصّفات (**يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**) ويلقونها يوم القيامة (**وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**) في الوصول إليها بسبب أعمالهم هذه وعقيدتهم تلك.

ثمّ حينما تليت هذه الآيات حزن بعض المؤمنين حيث لم يجدوا ماينفقون، فتسلية لهم قال جلّ وعلا:

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

(**وَلا نُكَلِّفُ**) ولا نطلب (**نَفْسًا**) من نفس (**إِلّا وُسْعَهَا**) بقدر طاقتها وجدّيتها (**وَلَدَيْنَا كتابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ**) يظهره وسجّل فيه أعمالهم الّتي عملوها حسب وسعهم (**وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**) فلا ينقص شيء ممّا عملوا من خير، ولا يحملون ما لم يعملوا من شرّ.

ثمّ أعاد الله تعالى الكلام إلى الكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

(**بَلْ**) إنّ هؤلاء الكفّار (**قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ**) في غفلة وإعراض (**مِّنْ هَذَا**) الّذي يعمله المؤمنون (**وَلَهُمْ أَعْمَالٌ**) أخرى (**مِن دُونِ**) خلاف (**ذَلِكَ**) الأعمال الصّالحة وهي أعمالهم في الفساد والفسق والفجور (**هُمْ لَهَا**) لهذه الأعمال الخبيثة (**عَامِلُونَ**) مستمرّون عليها (**حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ**) يصرخون ويتضرّعون إلى الله تعالى فيقال لهم: (**لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ**) حيث لا يفيدكم كلّ تضرّع (**إِنَّكُم مِّنَّا**) من عذابنا (**لا تُنصَرُونَ**) لا تنقذون وذلك لأنّه (**قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ**) عن آياتنا وتجعلونها وراءكم ظهرياً (**مُسْتَكْبِرِينَ**) مستهزئين (**بِهِ**) بما يتلى عليكم (**سَامِرًا**) متحدّثين باللّيل لاهين غافلين (**تَهْجُرُونَ**) الحقّ وهذا القرآن.

ثمّ بدأ الله تعالى يستفهم عن سبب إعراضهم عن القرآن وعدم الإيمان به إستفهامات الإنكار والتّوبيخ فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

(**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا**) أصله يتدبّروا قلبت التّاء دالاً ثمّ أدغمت فيه، أي أفلم يتدبّروا أن يتفكّروا ولم يحقّقوا (**الْقَوْلَ**) القرآن، فيعلموا أنّه الحقّ فيؤمنوا به، والاستفهام للتّوبيخ، أي: فلماذا لم يتدبّروا فيه ورفضوه دون تحقيق وتفكّر فيه؟ في الآية دليل على أنّ كلّ من ردّ قولاً دون التّحقيق والتّفكير فهو معاند ومخذول (**أَمْ جَاءَهُم**) من محمّد (**مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ**) وهو الوحي والرّسالة، والاستفهام للإنكار، أي لم يأتهم شيء غريب غير معتاد، حيث قد جاء الرّسل والشّرائع من الله تعالى إلى آبائهم (**الأَوَّلِينَ**) وعرفوا ذلك، وأنّ الوحي والرّسالة أمر معتاد لا غرابة فيه (**أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ**) بالصّدق والأمانة والنّزاهة ولذلك (**فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**) له ولا يؤمنون أي قد عرفوه حقّ المعرفة واعتبروه

وسمّوه فيما بينهم بالصّادق الأمين (**أَمْ يَقُولُونَ**) التصق (**بِهِ**) بالرّسول (**جِنَّةٌ**) جنون؛ فهذا الّذي يذكره كلام الجنّ. كلّا، إنّه ليس مجنوناً (**بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ**) الّذي لا شك فيه (**وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**) لأنّه يضرّ مصالحهم وسيادتهم على النّاس وإستغلالهم لهم، ولذلك يريدون أن يتّبع الوحي أهواءهم (**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ**) الوحي (**أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ**) لفنت وزالت لأنّهم يريدون الخروج عن كلّ ما فيه عبادة الله تعالى واتّباع الشّهوات كلّها[١]، وإذا فقدت العبادة تزول السّموات (**وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ**) لأنّ هذا الكون خلق لأن يعبد فيه الله، فإذا لم يبق فيه عبادته قضى عليها حيث قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أو نقول في معنى الآية أنّ الوحي لو اتبع أهواءهم فأقرّ بوجود آلهة لفسد الكون كما حدّدنا ذلك في قوله تعالى (**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلّا اللّهُ لَفَسَدَتَا**). ثمّ ذكر الله تعالى أنّ الوحي لا يتّبع أهواءهم (**بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ**) بما يذكّرهم بالحقائق الثّابتة والمعروفة جيلاً بعد جيل (**فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم**) لهذه الحقائق (**مُعْرِضُونَ**) اتّباعاً لهواهم والشّهوات (**أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا**) أي أجراً عن هذه الدّعوة، كلّا لا تطلب منهم شيئاً حيث (**فَخَرَاجُ**) فأجر (**رَبِّكَ**) ربّك الّذي يعطيك مقابل هذه الدّعوة في الدّنيا والآخرة (**خَيْرٌ**) أحسن وأكثر من كلّ أجرٍ ومنفعةٍ (**وَهُوَ**) والله (**خَيْرُ الرَّازِقِينَ**) رزقاً وترفيهاً (**وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ**) منهج (**مُّسْتَقِيمٍ**) لا عوج فيه يوصل سالكه إلى سعادة الدّنيا والآخرة (**وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**) والثّواب والعقاب فيها (**عَنِ الصِّرَاطِ**) المستقيم الّذي تدعوهم اليه (**لَنَاكِبُونَ**) منحرفون، ولذلك أنزلنا عليهم العذاب.

ثمّ يبيّن الله تعالى أنّه لو لم ينزل عليهم العذاب فكيف كان حالهم؟ فقال جلّ وعلا:

---

(١) لعل المقصود بالحق هو ما في قوله تعالى (خلق السماوات والأرض بالحق) أي بالحكمة والوجه والنظام الذي يحق أن تخلق عليه، فلو اتبع هذا الحق الذي خلق عليه السموات والأرض أهواء أولئك البشر لفسدت كفسادهم بإفسادهم، كما يفسد الكفار في الأرض بسوء النظام وفساد الأخلاق وزرع الفتنة بين الناس ونشر سوء الخلق بحيث لا يستقرون على ثوابت يحفظ نظام المجتمع أو الكيان البشري، وكذلك لو اتبع الحكمة والوجه والنظام الذي خلق عليها السموات والأرض لفسدت وانهدمت كما تنهدم أنظمتهم وكياناتهم ومصنوعاتهم.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

(**وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ**) ولو رحمنا أهل مكّة (**وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّ**) جوع أصابهم (**لَّلَجُّوا**) لتمادوا (**فِي طُغْيَانِهِمْ**) وعتوّهم وضلالهم (**يَعْمَهُونَ**) يتردّدون. ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّهم لا يرجعون عن غيّهم إلّا بالعذاب ولا يرفعه عنهم، فقال جلّ وعلا: (**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ**) من قبل هذا (**فَمَا اسْتَكَانُوا**) فما ذلّوا (**لِرَبِّهِمْ**) فيما معنى (**وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**) في المستقبل فلا يتضرّعون (**حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ**) يوم القيامة في نار جهنّم فحينئذٍ (**إِذَا هُمْ**) متضرّعون ولكنّهم (**مُبْلِسُونَ**) آيسون من رحمة الله تعالى لأنّ الإيمان حينئذٍ لا يقبل ولا ينفع شيئاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّرهم بآثار قدرته وتصرّفه فيهم ليتفكّروا فيرجعوا عن ضلالهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

(**وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ**) أوجد (**لَكُمُ السَّمْعَ**) لتسمعوا به الحقّ فتتّبعوه (**وَالأَبْصَارَ**) لتروا بها أدلّة الحقّ فتهتدوا بها (**وَالأَفْئِدَةَ**) لتتفكّروا فتهتدوا إلى الحقّ ولكنّكم (**قَلِيلاً مَّا**) قليلاً جدّاً (**تَشْكُرُونَ**) هذه النّعم فلا تستعملون السّمع في استماع الحقّ، ولا الأبصار في رؤيته، ولا القلوب في إدراكه (**وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**) يوم القيامة (**وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي**) من شاء (**وَيُمِيتُ**) من شاء (**وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَـ**) بعد هذه الأمور كلّها (**لا تَعْقِلُونَ**) وجود الله ووحدته فتعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، والاستفهام للإنكار، أي فلا تعقلون بعد كلّ ذلك بل ينكرون الحقّ وما جئت به أيّها الرّسول وإليه أشار الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

(**بَلْ**) لم يعقلوا وأصرّوا على كفرهم حيث (**قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ**) الكفار (**الأَوَّلُونَ**) من الأمم السّابقة. ثمّ بيّن الله تعالى قولهم فقال جلّ وعلا: (**قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا**) بالية (**أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**) ونحيا مرةً أخرى، والاستفهام للإنكار، أي قالوا: لا نبعث أبداً! (**لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا**) الأمر وهو البعث والحساب (**مِن قَبْلُ**) في زمان آبائنا (**إِنْ**) ليس (**هَذَا**) الوعد والإنذار (**إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**) والأساطير جمع أسطورة وهي حكايات خرافيّة لا أصل لها.

ثمّ أمر الله تعالى رسوله أن يناقشهم حسب إعترافاتهم ويبرهن لهم ما يعتقدونه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

(**قُلْ**) أيّها النّبيّ لهؤلاء الكافرين (**لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا**) خلقاً وإيجاداً وملكاً (**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**) فإنّهم (**سَيَقُولُونَ**) كلّ ذلك (**لِلَّهِ قُلْ**) لهم بعد ذلك (**أَفَـ**) بعد هذا الإعتراف (**لا تَذَكَّرُونَ**) أصله تتذكّرون، حذفت إحدى التّاءين للتّخفيف، فالمعنى أفلا تتذكّرون أن من له هذه الأرض ومن فيها ملكاً وإيجاداً هو الحقيق بالعبادة وحده فكيف تعبدون غيره الّذي ليس له شيء من الإيجاد والخلق والسّلطان.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾

(**قُلْ مَن**) هو (**رَبُّ**) صاحب (**السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ**) خلقاً وإيجاداً وتصرّفاً (**وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**) فإنّهم إن قلت لهم هذا (**سَيَقُولُونَ**) كلّ ذلك (**لِلَّهِ**) لا لغيره (**قُلْ أَفَـ**) بعد هذا الإيمان (**لا تَتَّقُونَ**) عذابه فتعبدون من سواه.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

(**قُلْ مَن بِيَدِهِ**) في قدرته (**مَلَكُوتُ**) تصرّف (**كُلِّ شَيْءٍ**) يتصرّف فيه كيف يشاء (**وَهُوَ يُجِيرُ**) يمنع ما شاء ممّا شاء (**وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ**) عليه شيء فيمنع من التّصرف فيه (**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**) ما سألنا (**سَيَقُولُونَ**) ويعترفون بأنّ ذلك (**لِلَّهِ**) وحده (**قُلْ**) لهم (**فَـ**) فبعد هذا الإعتراف (**أَنَّى**) كيف (**تُسْحَرُونَ**) تصرفون عن توحيده وتعبدون غيره الّذى لا يقدر شيئاً.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

فبعد أن ذكر الله تعالى لهم هذه الأدلّة أشار إلى أنّهم لا دليل لهم عن الشّرك وأنّهم لم يتركوا غافلين، فلم ينبّهوا على بطلان آلهتهم (**بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ**) بما يثبت لهم الحقّ وينبّههم عليه (**وَ**) أثبتنا لهم (**إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**) في قولهم بالشّريك أو الولد لله تعالى وثبت أنّه (**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ**) آخر غيره (**إِذًا**) أي إذا كان معه إله (**لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ**) إن كان له خلق، وإلّا فلا يكون إلهاً، لأنّ معنى الإله أن يكون له الخلق (**وَ**) بعد ما ذهب كلّ إله بما له الخلق والإتّباع (**لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**) كما هو عادة الملوك من المنافسة على الإستيلاء والملك، ولا أحد ينافس الله تعالى فثبت أنّه (**سُبْحَانَ**) تنزّه (**اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**) به إيّاه من الولد والشّريك (**عَالِمِ الْغَيْبِ**) كلّ ما غاب (**وَالشَّهَادَةِ**) كلّ ما حضر (**فَـ**) حيث اتّصف الله تعالى بهذا العلم الشّامل من قدرته الكامله (**تَعَالَى**) تنزّه (**عَمَّا يُشْرِكُونَ**) عن شركة ما يشركون به، فإنّ الشّريك لا يقبله إلّا العاجز عن عمله أو الجاهل، وتعالى الله عن ذلك، فتعالى عن الولد أيضاً لأنّ الولد شريك أيضاً لأنّ ولد الإله يكون إلهاً.

ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ هؤلاء بعد وضوح الحقّ لهم وعدم اتّباعه يستحقّون نزول العذاب عليهم، فأمر رسوله أن يدعو لنفسه النّجاة من عذابهم فقال جلّ وعلا:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

إنّ هذا الخطاب للمسلمين لأنّ الرّسول (ﷺ) معصوم، فالمعنى أيّها المسلم إنّ الكفرة في كلّ زمان يستحقّون نزول العذاب عليهم، فادع الله تعالى ينجّيك من عذابهم إذا جاء (**قُل رَّبِّ إمّا**) أن (**تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ**) من العذاب فاحفظني (**رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**) فأهلك معهم، وكأنّ هنا يقول القائل: فلم لا يأت العذاب؟ فقال جلّ وعلا: (**وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ**) من العذاب (**لَقَادِرُونَ**) إلّا أنّه مرهون بوقته ولكلّ أمةٍ أجل، فكأنّ المسلم يقول هنا: فأنا ماذا أفعل وقد ضاق صدري منهم فقال جلّ وعلا: (**إِدْفَعْ بِالَّتِي**) الخصلة الّتي (**هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ**) إدفع السّيئة بالحسنة (**نَحْنُ أَعْلَمُ**) منك (**بِمَا يَصِفُونَ**) يصفون الله تعالى له من الشّريك والولد وغير ذلك ممّا لا يليق به، وقد صبرنا نحن عليهم لحكمة، فاصبر أنت كما صبرنا.

ثم إن المسلم لا شك أنه يخطر بباله أمور حينما يرى ضلال الكافر وفسوق الناس وإمهال الله تعالى إياهم بل وإنعامه عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

أصله يحضرونني حذفت نون الجمع بالنّصب وحذفت الياء للتّخفيف (**وَقُل**) إذا خطر ببالك شيء حينما ترى ضلال النّاس وإمداد الله تعالى لهم (**رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ**) أن تشوّش قلبي أو توهن ثقتي بالله، فإنّك لا تفعل ذلك إلّا لحكمة (**وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**) يحضرونني هؤلاء الشّياطين فيوسوسوا في قلبي أو ليشوّشوا فكري ياألله يا أرحم الرّاحمين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال هؤلاء الكفرة في المستقبل فقال جلّ وعلا:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

(**حَتَّى**) إلى أن يبقى الضّالون في ضلالهم ويصفون الله بما لا يليق به (**إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ**) وانكشفت له الحقيقة ومستقبله المظلم (**قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ**) ارجعوني إلى الحياة (**لَعَلِّي أَعْمَلُ**) لكي أعمل (**صَالِحًا**) من الأعمال (**فِيمَا**) بدل (**ما تَرَكْتُ**) وفي عوضها فيقول تعالى: (**كَلَّا**) إنّه لا يرجع (**إِنَّهَا**) إنّ مقالته (رَبِّ ارْجِعُونِي) (**كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا**) ندامة فلا يقبل منه، أو المعنى: هو قائلها ولا يعمل بها، حيث قال تعالى في آية أخرى ﴿ولئن ردّوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ سورة الأنعام . ٢٨ . وهذا المعنى أولى من الأوّل لهذه الآية. (**وَمِن وَرَائِهِم**) ومن بعد موتهم يأتي (**بَرْزَخٌ**) وهو مدّة ما بين الموت ويوم القيامة فيبقون في البرزخ (**إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**) فيه وهو يوم القيامة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال النّاس في يوم البعث والنّشور فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

(**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ**) المراد بهذا النّفخ هو النّفخة الّتي يجمع بها النّاس في عرصات الحساب والميزان، فإذا نفخ هذه النّفخة واجتمع النّاس للحساب (**فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ**) فلا حساب للأنساب بين النّاس ليستفيدوا منها، فلا عبرة هنا بالنّسب (**ولا يَتَسَاءلُونَ**) عن النّسب بأن يقال: هذا ابن فلان فأكرموه، بل إنّما السّؤال عن الأعمال (**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**) بالإيمان (**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) الفائزون بالجنّة والنّعيم والنّجاة من نار الجحيم، اللّهم ارزقنا هذه آمين.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

(**وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ**) هم (**الَّذِينَ خَسِرُوا**) أضاعوا (**أَنفُسَهُمْ**) حيث إنّهم (**فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**) ماكثون مؤبداً (**تَلْفَحُ**) تحرق (**وُجُوهَهُمُ النَّارُ**) نار جهنم (**وَهُمْ فِيهَا**) في

النّار أو في جهنّم والمآل واحد (**كَالِحُونَ**) عابسون ويقال لهم من عند الله تعالى تبكيتاً (**أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ**) من قبل الرّسول وورثته العلماء (**فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ**) فهذا جزاؤكم (**قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا**) غلبت علينا اتباعنا للشّهوات ورذائل النّفس (**وَكُنَّا**) وأصبحنا بسبب ذلك (**قَوْمًا ضَالِّينَ**) منحرفين عن الحقّ (**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا**) من النّار إلى الدّنيا (**فَإِنْ عُدْنَا**) إلى سيئاتنا (**فَإِنَّا ظَالِمُونَ**) فافعل بنا ما شئت.

ثمّ لما اعتذروا هذا الإعتذار لم يقبل منهم بل أجابهم الله فقال جلّ وعلا:

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

(**قَالَ**) تعالى في جوابهم (**اخْسَؤُوا**) اسكتوا (**فِيهَا**) في جهنّم أذلّاء (**وَلا تُكَلِّمُونِ**) أصله تكلّمونني، حذفت نون الجمع بالجزم بلا النّاهية، وحذفت الياء تخفيفاً وللفاصلة، فصار تكلّمون أي لا تعتذروا فإنّه لا يقبل أي عذر منكم، فإنّكم بلغتم فأنكرتم واستهزأتم حيث (**إِنَّهُ**) إنّ الشّأن أنّه (**كَانَ**) وجد (**فَرِيقٌ**) جماعة (**مِّنْ عِبَادِي**) المؤمنين (**يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**) ترحّماً وإنعاماً (**فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ**) فجعلتموهم (**سِخْرِيًّا**) محلاً لسخريّتكم وإستهزائكم (**حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي**) فلم تذكروني (**وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ**) وبإيمانهم تستهزئون (**إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا**) على الإيمان (**أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ**) وحدهم حيث إنّهم آمنوا وكفرتم، وهم عملوا لهذا اليوم وأنتم تركتم، فلا حقّ لكم في الفوز هنا.

تنبيه: هناك إشكال وهو: أنّ السّورة مكيّة والسّور المكيّة كلّها يناقش فيها الكافرون فقط. ويذكر فيها عقاب الكافرين ولا يذكر فيها عقاب عصاة المؤمنين، لأنّ الأحكام لم تنزل إلّا في المدينة، فيذكر عقاب العصاة في السّور المدنيّة، كما وأنّ الآيات من قوله تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ) إلى هذه الآية واردة في حقّ الكفار بقرينة قوله تعالى: (أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) وقوله: (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا) وما يتّخذ

المؤمنين سخرياً إلّا الكافرون. هذا وإنّ الموازين لا تقام إلّا لعصاة المسلمين ليعرف مقدار حسناتهم من سيئآتهم، ولا وزن للكافرين لأنّ حسناتهم غير مقبولة، فإنّ الشّرط لقبول الحسنات الإيمان؛ فمن لا إيمان له لا ثواب له؛ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ سورة الكهف الآية ١٠٥. وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾ سورة الفرقان الآية ٢٣. والآيات الّتي تدلّ على عدم الإعتناء بحسنات الكفار وعدم الثّواب عليها وعدم وزنها وحسابها كثيرة. فإذا كان الأمر كذلك فكيف قال تعالى في هذه السّورة: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾؟ هذا ما ذكرناه من الإشكال.

والجواب: أنّ الآيات كلّها وردت في حقّ الكافرين والمؤمنين، والمراد بثقل الميزان للمؤمنين وجود القدر والاحترام لهم يقال: فلان له وزن أي قدر وإحترام وبخفّة الميزان عدم إحترامه وتقديره، ففي الآخرة يثقل ميزان المؤمن أي يحترم بإيمانه ويخفّ ميزان الكافر أي لا إحترام له لكفره، والله تعالى أعلم وهو بالمؤمنين أرحم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر الكافرين يوم القيامة بقلّة زمان حياة الدّنيا ليزدادوا تحسّراً على أنّهم كيف باعوا هذا الباقي الكثير بذلك القليل الفاني؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١١٤)﴾

(قَالَ) تعالى لهم **(كَمْ لَبِثْتُمْ)** كم عشتم **(فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)** من عمركم **(قَالُوا لَبِثْنَا)** فيها **(يَوْمًا)** واحداً **(أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ)** الحاسبين لأعمارنا من الملائكة حسبوا بقاءهم في الدّنيا يوماً أو بعض يوم، لأنّهم نسوا مدّة بقائهم أو استقلّوها **(قَالَ)** تعالى **(إِن)** أي **(لَّبِثْتُمْ إِلّا قَلِيلاً)** جدّاً **(لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)** قلّة لبثكم في **الأرض** ما اغترتم بهذه الحياة القليلة، واللّوم ليس على عدم العلم بل على **عدم** المحاولة للعلم والسّعي له بالنّظر والتّفكر، فإنّ النّظر والتّفكر في الأمور الدّينيّة واجب يلام العبد على تركه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يستفهم منهم إستفهام توبيخ فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾

(**أَفَحَسِبْتُمْ**) أفظننتم (**أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ**) وأسكناكم هذه الأرض (**عَبَثًا**) دون تكليفٍ ونظامٍ وشريعةٍ يفرض عليكم العمل بها (**وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ**) للحساب والعقاب على إنحرافكم عن ديننا ونهجنا، والاستفهام للإنكار، فالمعنى لم نخلقكم عبثاً ولم نهملكم دون نظام (**فَتَعَالَى اللَّهُ**) تنزّه تعالى عن العبث (**الْمَلِكُ الْحَقُّ**) وما سواه من الملوك كلّهم ملوك مجازيّة وملكهم عرض مؤقّت، فإذا كان هؤلاء الملوك مع أنّهم مؤقّتون يضعون أنظمة لرعاياهم ويحاسبونهم عليها، فكيف بملك الملوك والملك الحقّ (**لا إِلَهَ**) لا مطاع (**إِلَّا هُوَ**) فيبيّن الله تعالى كيفيّة إطاعته ويضع نظاماً لها (**رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**) بالرّفع صفة الرّب وبالجرّ صفة العرش، فإنّه عظيم وعرشه عظيم أيضاً، فمن كان عظيماً وصاحب عرش عظيم فله نظام يجب اتباعه ويحاسب المنحرف عنه على الإنحراف عنه (**وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**) من الأصنام أو الهياكل أو الأشخاص فقد افترى وظلم حيث (**لا بُرْهَانَ**) لا دليل (**لَهُ**) بألوهيّة من سوى الله تعالى، بل الأدلّة قائمة على بطلان كلّ إله سوى الله الواحد القهّار لمن عصاه الغفّار لمن اتّقاه (**فَإِنَّمَا حِسَابُهُ**) عقاب من اتّخذ إلهاً غير الله تعالى سواء معه أو بدونه (**عِندَ رَبِّهِ**) فهو يعاقبه حسبما شاء، وقد خسر ذلك الشّخص حيث (**إِنَّهُ**) إنّ الشّأن هو: أنّه (**لا يُفْلِحُ**) لا يسعد (**الْكَافِرُونَ**) ولا ظالم أظلم ممّن اتّخذ إلهاً دون الله تعالى أو مع الله جلّ وعلا. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى عاقبة المنحرفين عن توحيد الله ونظامه، ذكر أنّ المؤمن هو الّذي يأمل مغفرة الله تعالى ونعمته، فأمره بأن يأمل ذلك ويدعوه فقال جلّ وعلا: (**وَقُل**) أيّها المؤمن (**رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**) أشار تعالى إلى أنّ المؤمن مهما بلغ من الصّلاح فلا يستحقّ نعمة الله تعالى والجنّة بصلاحه، وإنّما هي برحمة الله تعالى، ولذا قال الرّسول (ﷺ) (لا يدخل الجنّة أحد بعمله إلّا أن يحفّه الله برحمته، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال:

وأنا)[١] وذلك لأنّ العمل أيضاً هو ملك الله وخلقه وبتوفيقه، فلم يبق للعبد شيء إلّا رحمة الله تعالى، وإنّ رحمته قريب من المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ٥٦.

اللّهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الرّاحمين وأحسن خاتمة أمرنا وختام عمرنا وارحم بنا في الدّنيا والآخرة، وصلّى الله تعالى على محمّد وعلى آله وصحبه وأمّته آمين. والحمد لله ربّ العالمين.

(١) صحيح ابن حبان ٢/ ٦٠ الحديث رقم ٣٤٨.

سورة النّور

(مدنيّة، وآياتها أربع وستّون، نزلت بعد سورة الحشر، سمّيت بالنّور لما فيها من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾

(**سُورَةٌ**) هذه سورة (**أَنزَلْنَاهَا**) إليكم أيّها الرّسول والمؤمنون (**وَفَرَضْنَاهَا**) أوجبنا عليكم ما فيها من الأحكام أن تطبّقوها (**وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ**) دلائل (**بَيِّنَاتٍ**) واضحات في الدّلالة على قدرتنا ووحدتنا وحقيقة شريعتنا (**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) لكي تذكّروا أي تتّعظوا بما فيها من الدّلائل وتعملوا بما فيها من الأحكام.

ثمّ بدأ الله تعالى بذكر الأحكام الواردة فيها فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

(**الزَّانِيَةُ**) الّتي زنت من النّساء (**وَالزَّانِي**) الّذي زنا من الرّجال (**فَاجْلِدُوا**) فاضربوا (**كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**) سوط على الجلد (**ولا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ**) هنا تقديم وتأخير والتّقدير(**ولا تَأْخُذْكُم رَأْفَةٌ**) شفقة (**بِهِمَا في**) تطبيق (**دِينِ**) حكم (**اللَّهِ**) تعالى أن تهملوا حكم الله فلا تجلدوهما شفقة بهما (**إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ**) تصدقون في الإيمان (**بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**) فلا ترحموا بهما، وفي الآية إشارة إلى أنّ من ترك تطبيق حكم الله فليس صادقاً في إيمانه بالله واليوم الآخر، أي العذاب والثّواب فيه. (**وَلْيَشْهَدْ**) وليحضر(**عَذَابَهُمَا**

طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) ليروا عذابهما فيعتبروا وينزجروا، وليذكروا ذلك لغيرهم فينزجروا أيضاً. وهنا مسائل:

المسألة الاولى: الزّنا من الكبائر، وهو أن يولج رجل ذكره في فرج إمرأة لا تحلّ له بحيث يلتقي الختانان، أي تغيب الحشفة في الفرج.

المسألة الثّانية: من شرط إجراء الحدّ على الزّانية أو الزّاني البلوغ والعقل، فلا يجري الحدّ على المجنونة والمجنون وغير البالغة وغير البالغ.

المسألة الثّالثة: يزاد على الجلد تغريب عام للرّجل والمرأة عند الشّافعي وأحمد حيث ثبت ذلك بالسّنة، وعند أبي حنيفة: لا تغريب مطلقاً إلّا إذا رأى الإمام ذلك. وعند مالك: يغرب الرّجل لا المرأة.

المسألة الرّابعة: الجلد يكون بسوط متوسط لا ليّن ولا شديد، ويجرّد المجلود عن ثيابه عند مالك وأبي حنيفة وغيرهما، ويترك على المرأة ما يسترها فقط. وقال الأوزاعي: الإمام مخيّر إن شاء جرّد وإن شاء ترك. وعند الشّعبي والنّخعي: يترك عليه قميص، وقال ابن مسعود: لا يحلّ في هذه الأمّة تجريد ولا حدّ.

المسألة الخامسة: قال مالك: لا ضرب في الحدود كلّها إلّا في الظّهر فقط. وقال الشّافعي: يضرب كلّ مكان إلّا الوجه والفرج، والضّرب يكون مؤلماً لا مجرّحاً، أي يكون متوسّطاً بين اللّين والشّدة.

المسألة السّادسة: لا حدّ على المكرهة بالإتّفاق، وأمّا المكره فعليه الحدّ عند أحمد، وقال أبو حنيفة: إذا كان الإكراه من السّلطان فلا حدّ، وإن كان من غيره حُدّ. وعند الشّافعي: لا حدّ عليه مطلقاً، ووافقه ابن المنذر، وقال ابن قدامة: وهذا القول أصحّ.

المسألة السّابعة: حدّ العبد والجارية نصف حدّ الحرّ والحرّة، فيضرب العبد إذا زنى أو الجارية إذا زنت خمسين سوطاً فقط. وهذه الأحكام كلّها في الزّاني والزّانية غير المحصن، أمّا المحصن فعليه الرّجم أي الرّمي بالحجارة وغيرها حتّى يموت باتّفاق العلماء، وخالف الخوارج في ذلك، وقالوا لم يرد النّص إلّا بالجلد، واحتجّ عليهم الجمهور بأنّه ورد النّص من الرّسولﷺ فكفى، وأجمع الأصحاب عليه وفعلوه فاكتفى بذلك. هذا ولا تنصيف للرّجم في حقّ العبد والأمة، ولذلك فلا رجم عليهما وإن كانا محصنين.

تنبيه: المحصن هو من ذاق طعم الجماع حلالاً ولو مرّة واحدة، وغير المحصن من لم يذقه حلالاً وإن ذاق حراماً كثيراً.

* * *

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

اختلف العلماء في تفسير هذه الآية، فقال بعضهم: النّكاح بمعنى الوطء فالمعنى: الزّانى لا يطأ حين الزّنا إلّا زانية وهي المسلمة الباغية الّتي ترى الزّنا حراماً أو مشركةً إذا كانت تعتقد أنّ الزّنا حلال، وكذا القول في (**والزّانية لا ينكحها إلّا زانٍ أو مشرك**). وقال بعضهم: إنّ النّكاح بمعنى العقد، فكان نكاح الزّانية للعفيف أو الزّاني من العفيفة حراماً ثمّ نسخ هذا الحكم بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ﴾ وقال بعضهم: إنّ الآية وردت في أناس مخصوصين أرادوا أن يتزوّجوا بغاة فنهوا عن ذلك، والمعنى الأوّل أصحّ، فالآية وردت لتقبيح الزّنا وأنّه لا يفعل إلّا بين القبيحات والقبيحين. والمراد بقوله: (**وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**) أي حرّم الزّنا لقبحه على المؤمنين، أو المراد أنّ المؤمنين يبتعدون عنه طبعاً لأنّه مستقذر. وقال بعضهم: الآية محكمة وأنّ نكاح الزّاني من العفيفة أو بالعكس باطل.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

(**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ**) ينسبون الزّنا إلى (**الْمُحْصَنَاتِ**) هنا بمعنى المرأة المسلمة الحرّة فهؤلاء يجب عليهم أن يأتوا بأربعة شهداء غيرهم يشهدون على من رماها بأنّها زنت، فإن قال ذلك (**ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء**) يثبتوا قوله (**فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً**) حدّ القذف (**وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً**) بعد ذلك في شيء (**أَبَدًا**) حيث (**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**) والفاسق لا تقبل شهادته (**إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ**) القول (**وَأَصْلَحُوا**) ظهر صلاحهم (**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**) يغفر لهم فسقهم (**رَّحِيمٌ**) فعند البعض: أنّ شهادته تقبل أيضاً بعد ذلك،

وعند الآخرين: لا تقبل شهادتهم لإنّ الإستثناء راجع إلى (الفاسقون) فقط لقوله تعالى: (أَبَدًا) والله تعالى أعلم. وهذا حكم من قذف غيره بالزّنا كمن كان أجنبيّاً عنها وأمّا إذا قذف الرّجل زوجته بالزّنا فقال تعالى في حكمه:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾

(**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ**) ينسبون إليهن الزّنا (**وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء**) على قولهم (**إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ**) هي (**أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**) بأن يقول أربع مرّات أشهد بالله إنّي لصادق في قولي هذا (**وَالْخَامِسَةُ**) والشّهادة الخامسة الّتي تجب عليه أن يقول أو القولة الخامسة هي أن يقول: (**أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**) في هذا القذف، فبهذه الشّهادات الأربع والقول الخامس يسقط عنه حدّ القذف. وبهذه أيضاً تحرم عليه زوجته حرمة مؤبّدة عند الشّافعي، وتثبت على الزّوجة الزّنا وترجم إلّا أن تدافع عن نفسها فتكذّبه، وحينئذ فعليها ما ذكر تعالى فقال جلّ وعلا: (**ويدرؤا عَنْهَا**) عن الزّوجة الّتي شهد عليها الزّوج بالزّنا يدفع عنها (**الْعَذَابَ**) الرّجم (**أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ**) إنّ زوجه (**لَمِنَ الْكَاذِبِينَ**) في رجمها بالزّنا (**وَالْخَامِسَةَ**) أن تقول: (**أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ**) ويسمّى هذا الّذي يجري بين الرّجل وزوجته لعاناً له باب خاصّ في كتب الفقه. ذكر فيه كلّ الأحكام المتعلّقة باللّعان وهنا ينشأ سؤال وهو:

السّؤال: إنّ القرآن ذكر حكم الرّجل إذا قذف إمرأة بالزّنا وحكم الزّوج إذا قذف زوجته بالزّنا ولم يذكر حكم المرأة الّتي قذفت زوجها بالزّنا أو الرّجل أو المرأة إذا قذفا رجلاً بالزّنا فكيف حكمهما؟

الجواب: من قذف رجلاً بالزّنا سواء كان القاذف رجلاً أو إمراةً فعليه حدّ القذف ثمانين جلدة إن لم يأت بالشّهداء. واذا رمت الزّوجة زوجها بالزّنا فلا لعان وإنّما عليها حدّ القذف إن لم تأت بأربعة شهداء. وصيغ القذف كثيرة بعضها متّفق عليها وبعضها مختلف فيها تجدها في كتب الفقه. ولقد أجاد ابن قدامة (رحمه الله) في البحث عنها:

والّذي نذكره هنا هو: أنّ باللّعان تحرم المرأة على زوجها تحريماً مؤبّداً عند الشّافعي ومالك وأحمد ، وعند الأحناف: لا تقع الفرقة حتّى يفرّق القاضي، وتكون الفرقة طلاقاً بائناً يجوز لهما النّكاح مجدّداً، إلّا أنّ أبا يوسف وزفر منهم وافقوا الشّافعي، وقال زفر أيضاً: تقع الفرقه بنفس التّلاعن كالشّافعي.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

(وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) موجودان **(وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)** لعاقبكم عقاباً معجّلاً حينما يقذف بعضكم بعضاً. ثمّ بعد أن ذكر تعالى حكم القذف ناسب أن يذكر قصّة الإفك وهي قصّة الافتراء على سيّدتنا أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله تعالى عنها) وتبرئتها ممّا افتري عليها، وقبل أن نذكر الآيات المتعلّقة بالإفك وتفسيرها نذكر قصّة الإفك كما وردت في السّير.

(قصة الإفك)

عن ابن شهاب قال حدثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيّب وعلقمة بن وقاص وعبدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن عائشة أنّها قالت: كان رسول الله (ﷺ) إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين زوجاته، فأيّها خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة غزاها فخرج سهمي، فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودج وأنزل فيه، فسرنا حتّى إذا فرغ رسول الله (ﷺ) من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرّحيل، فقمت حين آذنوا فمشيت حتّى جاوزت الجيش، فلمّا قضيت شأني أقبلت إلى الرّحل فلمست صدري فإذا عقد لي من جذع أظفار قد انقطع؛ فرجعت فالتمست عقدي فحبسني إبتغاؤه فأقبل الّذين يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحّلوه على بعيري الّذي كنت أركب وهم يحسبون أنّي فيه، وكان النّساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللّحم، وإنّما يأكلن العلقة من الطّعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه وكنت جارية حديثة السّن، فبعثوا الجمل فوجدت عقدي بعدما إستقرّ الجيش فجئت منزلهم وليس فيه أحد؛ فتيمّمت منزلي الّذي كنت، فظننت أنّهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المبطل السّلمي ثمّ الذّكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته، فوطىء يدها فركبتها فانطلق يقود بي الرّاحلة حتّى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معدسين في نحر

الظّهيرة فهلك من هلك، وكان الّذي تولّى الإفك عبدالله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهراً والنّاس يفيضون في قول أصحاب الإفك ويريبني في وجعي أنّي لا أرى من النّبيّ (ﷺ) اللّطف الّذي كنت أرى منه حين أمرض، إنّما يدخل فيسلّم ثمّ يقول: كيف تيكم؟ لا أشعر بشيء من ذلك حتّى نقهت، فخرجت أنا وأمّ مسطح قبل المناصع مبترزنا لا نخرج إلّا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تتّخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب أو في التّنزه، فأقبلت أنا وأمّ مسطح بنت أبي رهم نمشي، فعثرت في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت أتسبّين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: ياهنتاه ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرض، فلمّا رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله (ﷺ) فسلّم فقال: كيف تيكم؟ فقلت: إئذن لي أن آتي أبويّ، قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله (ﷺ)، فأتيت أبويّ فقلت لأمّي ما يتحدّث به النّاس، فقالت: يا بنيّة هوّني على نفسك الشّأن فوالله لقلّما كان أمرأة قط وضيئةً عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلّا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله ولقد تحدث النّاس بهذا! قالت عائشة (رضي الله عنها) فبتّ تلك اللّيلة حتّى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثمّ أصبحت أبكي، فدعا رسول الله (ﷺ) عليّ بن إبي طالب (كرم الله وجهه) وأسامة ابن زيد (رضي الله عنه) حين إستلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله قالت: فأمّا أسامة فأشار عليه بالّذي يعلم من براءة أهله وبالّذي يعلم في نفسه من الودّ لهم، فقال أسامة: أهلك يارسول الله؟ ولا نعلم والله إلّا خيراً، وأمّا علي بن أبى طالب فقال: يارسول الله لم يضيّق الله عليك والنّساء سواها كثيرة، وسل الجارية تصدقك. فدعا رسول الله (رضي الله عنه) بريرة فقال (ﷺ): يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك؟ فقالت بريرة: لا والّذي بعثك بالحقّ إن رأيت منها أمراً أغمضه عليها قطّ أكثر من أنّها جارية حديثة السّن تنام عن العجين فتأتى الدّاجن فتأكله. فقام رسول الله (ﷺ) من يومه فاستعذر يومئذٍ من عبدالله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله (ﷺ) : من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلّا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلّا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلّا معي؟ فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يارسول الله أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك؟ قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيّد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحميّة فقال: كذبت، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن الخضير فقال:

كذبت لعمر الله، والله لنقتلنّه فإنّك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان: الأوس والخزرج حتّى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله (ﷺ) قائم على المنبر فلم يزل يسكتهم فسكتوا، وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. فأصبح عندي أبواي وقد بكيت ليلتين ويوماً حتّى أظن أنّ البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت إمرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله (ﷺ) فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل ما قيل قبلها، وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت عائشة (رضي الله عنها): فتشهد (ﷺ) ثمّ قال: يا عائشة فإنّه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنّ العبد إذا اعترف بذنبه ثمّ تاب تاب الله عليه. فلمّا قضى رسول الله (ﷺ) مقالته قلص دمعي حتّى ما أحسّ منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عنّي رسول الله (ﷺ)، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله (ﷺ)، فقلت لأمّي: أجيبي عنّي رسول الله (ﷺ) فيما قال. قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله (ﷺ)، قالت عائشة وأنا جارية حديثة السّن لا أقرأ كثيرا من القرآن فقلت: إنّي والله لقد علمت أنّكم سمعتم ما يتحدث به النّاس ووقر في أنفسكم وصدّقتم به ولئن قلت لكم: إنّي بريئة والله يعلم إنّي لبريئة لا تصدّقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنّي بريئة لتصدّقني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلّا أبا يوسف إذ قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. ثمّ تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحياً يتلى وأنا أحقر في نفسي من أن يتكلّم بالقرآن في أمري. ولكنّي كنت أرجو أن يرى رسول الله (ﷺ) في النّوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما دام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتّى أنزل عليه الوحي فأخذه (ﷺ) ما كان يأخذه البرحاء حتّى إنّه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات. فلمّا سرى عن رسول الله (ﷺ) وهو يضحك فكان أوّل كلمة تكلّم بها أن قال لي: يا عائشة إحمدي الله فقد برّأك الله، فقالت لي أمّي: قومي إلى رسول الله (ﷺ) فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله. فأنزل الله تعالى جلّ وعلا: (إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ) الآيات فأنزل الله عزّ وجل هذه الآيات في براءتي[1] فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٩٤٢ الحديث رقم ٢٥١٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بالإِفْكِ**) والإفك أعظم مراتب الكذب والافتراء (**عُصْبَةٌ**) جماعة (**مِّنكُمْ**) أيّها المؤمنون، وهم عبدالله بن أبيّ بن سلول رئيس المنافقين، وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، فقوله تعالى: (عُصْبَةٌ مِّنكُمْ) وفيهم عبد الله بن أبيّ وهو رأس النّفاق إمّا فيه تغليب أو لأنّه كان مسلماً حسب الظّاهر، وإن كان كافراً في الباطن (**لا تَحْسَبُوهُ**) لا تحسبوا هذا الإفك (**شَرًّا لَّكُم**) يا آل بيت رسول الله (ﷺ) ويا أهل أبي بكر الصّديق رضي الله عنه (**بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**) لأنّ الله تعالى أثابكم عليه وكتب لكم به أجراً، وأظهر البراءة للصّديقة (رضي الله عنها) وأهل الإفك (**لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ**) من الذّنب وعقابه (**وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ**) عظم الإفك وأشاعه وهو عبدالله بن أبي (**لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**) جدّاً عند الله تعالى (**لَوْلا**) كلمة تنديم أي لماذا (**إِذْ**) حينما (**سَمِعْتُمُوهُ**) سمعتم هذا القول (**ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ**) بعضهم ببعضهم (**خَيْرًا**) نزاهة وبراءة من السّوء، فكان اللاّئق بهم أن يظنّوا البراءة بحيث حينما سمعوه (**وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**) واضح (**لَوْلا جَاؤُوا**) أهل الإفك أي لماذا لم

يأتوا؟ (**بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء**) يثبتون قولهم: (**فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ**) في قولهم وإفكهم هذا (**وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ**) موجودان فتفضّل عليكم ورحمكم وإلّا (**لَمَسَّكُمْ فِي**) بسبب (**مَا أَفَضْتُمْ**) خضتم (**فِيهِ**) من الإفك (**عَذَابٌ عَظِيمٌ**) ولكنّ الله تفضّل عليكم ورحم وهو أرحم الرّاحمين (**إِذْ**) لأنّه كنتم (**تَلَقَّوْنَهُ**) هذا الإفك (**بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ**) لعدم وجود ما يقال، والمعدوم لا يتعلق به العلم (**وَتَحْسَبُونَهُ**) أمراً (**هَيِّنًا**) سهلاً لا إثم فيه (**وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ**) إثمه وعقابه (**وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا**) ما يليق بنا (**أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ**) تنزّهت يا ربّ عن أن تلصق بآل رسولك عاراً أو دنساً وإنّما (**هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**) جدّاً (**يَعِظُكُمُ**) ينهاكم (**اللَّهُ**) عن (**أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ**) لمثل هذا الافتراء وتتفوّهوا به (**أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**) بالله ورسوله (**وَيُبَيِّنُ اللَّهُ**) تعالى (**لَكُمُ الآيَاتِ**) العلامات الدّالة على أنّ هذا القول إفك وكذب وافتراء (**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) ببراءة الصّديقة ونزاهتها (**حَكِيمٌ**) في أموره كلّها وإنّما وقع هذا الإفك لحكمة منها اختبار المؤمنين (**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ**) نسبة (**الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا**) ويتّهموا بذلك (**لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا**) بحدّ القذف (**وَفِي الآخِرَةِ**) بالنّار (**وَاللَّهُ يَعْلَمُ**) براءة من اتّهم بالفاحشة (**وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**) أو المعنى (**وَاللَّهُ يَعْلَمُ**) ضرر هذه الإشعاعات في المؤمنين (**وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**) ذلك (**وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ**) لأنزل عليكم العقوبة (**وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**) بكم فغفر لمن تاب منكم. وبهذه الآيات برّأ الله تعالى عائشة (رضي الله عنها) من السّوء.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينهى المؤمنين عن اتّباع خطوات الشّيطان في كلّ شيء وخاصّة فيما يسيء بالمسلمين فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**) لا تتّبعوا وساوسه وتزييناته للسّوء حيث (**وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**) يقع في الآثام (**فَإِنَّهُ**) الشّيطان لا يزال (**يَأْمُرُ**) كلّ من اتّبعه (**بِالْفَحْشَاء**) من الأمور القبيحة (**وَالْمُنكَرِ**) من الأفعال والأقوال (**وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا**) ما تطهر (**مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ**) من اتّباع الشّيطان (**أَبَدًا**) لأنّ النّفس

تميل إليه حيث أنّه يأمر بالشّهوات (**وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي**) يطهّر (**مَن يَشَاء**) ويقيه من إغواء الشّيطان (**وَاللَّهُ سَمِيعٌ**) بعلمه (**عَلِيمٌ**) بمن يزكيه، ولعلّ أنّ مقارنة هذه الآية لآيات الإفك كانت لأنّ بعض النّاس تباهى بأنّه لم يدخل في الإفك وأفرط في لوم أهل الإفك، فورد هذا زجراً عن التّباهي والتّطاول على المسلمين إذا صدر منهم ذنب والله تعالى أعلم. ويؤيّد ما قلنا أنّه نزل في سيّدنا أبي بكر الصّدّيق (رضي الله عنه) قوله تعالى: ﴿**ولا يأتل**﴾ الآية الآتية وذلك أنّه كان ينفق على مسطح لفقره وقرابته من أبي بكر، فلمّا إشترك في الإفك حلف سيّدنا أبو بكر (رضي الله عنه) أن لا ينفق عليه بعد أبداً فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

(**وَلا يَأْتَلِ**) من الألى وهو الحلف أي فلا يحلف ولا يمنع نفسه بسبب الحلف (**أُوْلُوا الْفَضْلِ**) أصحاب الفضل من (**أَن يُؤْتُوا**) يعطوا من المال (**أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ**) وكان مسطح جامعاً لهذه الصّفات كلّها؛ فإنّه كان ذا قرابةٍ من الصّديق وكان مسكيناً، وكان مهاجراً، وليكن عطاؤهم (**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) في سبيل امتثال أمر الله تعالى (**وَلْيَعْفُوا**) عمّا صدر منهم (**وَلْيَصْفَحُوا**) وليعرضوا عن الانتقام (**أَلا تُحِبُّونَ**) أيّها المؤمنون (**أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ**) والجواب هو: بلى، فاعفوا أنتم عن النّاس أيضاً ليغفر الله لكم (**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) فغفر لهم حيث تابوا، فاغفروا أنتم أيضاً، فلمّا نزلت تلاها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أبي بكر(رضي الله عنه) فقال: بلى، والله أحبّ أن يغفر الله لي فكفّر عن حلفه ورجع إلى الإنفاق على مسطح.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر عذاب من يقذف المحصنات من المؤمنات فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ**) يقذفون (**الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ**) عن القبيح[(١)] (**الْمُؤْمِنَاتِ**) بالله واليوم الآخر والإسلام (**لُعِنُوا**) هؤلاء القاذفون (**فِي الدُّنْيَا**) على لسان النّاس (**وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**) إلّا أن يتوبوا وتصحّ توبتهم. ثمّ بيّن تعالى وقت عذاب الآخرة فقال جلّ وعلا: (**يَوْمَ**) أي يعذّبون في يوم (**تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ**) بما قالوا (**وَأَيْدِيهِمْ**) بما فعلوا بها (**وَأَرْجُلُهُم**) بما مشوا بها إليه بل (**بِمَا**) بكلّ ما (**كَانُوا**) في الدّنيا (**يَعْمَلُونَ**) من الذّنوب والآثام (**يَوْمَئِذٍ**) يوم إذ شهدت عليهم أعضاؤهم (**يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ**) جزاءهم (**الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ**) العدل المحقّ (**الْمُبِينُ**) الواضح، ولا يبقى شكّ في عدله وحسابه بالعقاب للعاصي والثّواب للمطيعين. اللّهم اجعلنا منهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر الدّليل على براءة الصدّيقة ونزاهتها فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

(**الْخَبِيثَاتُ**) من النّساء تكون حسب العادة وتقدير الله تعالى (**لِلْخَبِيثِينَ**) من الرّجال (**وَالْخَبِيثُونَ**) من الرّجال يكون (**لِلْخَبِيثَاتِ**) من النّساء (**وَالطَّيِّبَاتُ**) من النّساء تكون (**لِلطَّيِّبِينَ**) من الرّجال (**وَالطَّيِّبُونَ**) من الرّجال يكونون (**لِلطَّيِّبَاتِ**) من النّساء[(٢)].

(١) ربما المقصود بها السليمات النية الصافيات القلوب اللاتي يقمن ببعض الأعمال والحركات بسلامة نية خالية من قصد السوء فلا يفكرن بما يتهمن به من قبل من يحصون على الناس كل شيء ويؤولونه بسوء نية وإلصاق الإتهام بهن حسب ظنهم، كما كان من عائشة ﷺ حيث لم يدر في خلدها السوء أبدا ولسلامة نيتها لم تفكر بنتائج ما قامت به من تفقد العقد والتأخر ثم الرجوع مع رجل أمين معروف بحسن صحبته وجهاده في الإسلام، لحسن ظنها بالرجل والناس في تصوراتهم مع ثقتها بنفسها من البعد عن السوء لقوة إيمانها.

(٢) هذه الآية ظاهرها مشكل لوجود ما يخالف ظاهرها في الواقع، لذلك فإن أكثر العلماء فسروا ذلك بأن الخبيثات من الكلمات والأعمال للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات والأعمال وهو لطيف لكنه خلاف الظاهر، وربما كان مستندهم هو تسمية الله تعالى الكلمة بالطيبة والخبيثة في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦)﴾ وما فسره الشيخ الوالد هو المتبادر=

وهذا يدلّ على أنّ عائشة طيّبة ونزيهة، لأنّها اختارها الله تعالى للرّسول (ﷺ) والرّسول (ﷺ) طيّب فلا يختار الله له إلّا الطّيّبة، وقبل نزول الآية قال عمر(رضي الله عنه) حينما إستشاره الرّسول (ﷺ) في أمر عائشة فقال: هل أنت اخترتها لنفسك أم اختارها الله تعالى لك؟ فقال (ﷺ): بل اختارها الله لي، فقال عمر (رضي الله عنه): لا أعتقد أنّ الله تعالى يختار لك إلّا طيّبة. فإذا كان الأمر كذلك (**أُوْلَئِكَ**) عائشة وصفوان والرّسول (**مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ**) برآء ممّا يقول أهل الإفك من لصوق السّوء بهم (**لَهُم مَّغْفِرَةٌ**) في الآخرة (**وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**) في الدّنيا بسبب صبرهم على هذه المصيبة.

تمهيد: إعلم: أنّ الله تعالى قد ذكر الزّنا وقبحه ووضع حدّاً صارماً على من اقترفه، ثمّ حيث أنّه يوجد أسباب ومقدّمات تؤدي إلى الزّنا أراد تعالى أن يحرّم كلّ هذه الأسباب والمقدّمات ويمنعها منعاً باتاً، فمن أوّل الأسباب إختلاط الرّجال بالنّساء ودخولهم في بيت الغير بدون تحفّظ واستئذان، فمنع الله تعالى ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا**) تستأذنوا (**وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا**) بأن تقولوا: سلام عليكم أأدخل؟ (**ذَلِكُمْ**) التّحفظ وعدم الدّخول بدون إذن (**خَيْرٌ لَّكُمْ**) من الدّخول بدون استئذان (**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) هذه الخيريّة فتعملوا وفقها، ولعلّ هنا للأمر، أي تذكّروا ذلك واعملوا به، فإنّ التّرجي في كلام الله محال وقوله: (خَيْرٌ) ليس معناه إن خلاف ذلك فيه الخيريّة إلّا أنّ أكثر خيريّة منه كما هو مفاد أفعل

إلى الذهن، ولكنه أحيانا نشاهد امرأة طيبة مبتلاة برجل= خبيث وكذلك العكس، فإن كان تفسير الشيخ الوالد صحيحا فيحمل على الغالب، لأنه غالبا ما يختار الرجل الطيب امرأة طيبة وكذلك ترضى المرأة الطيبة بالرجل الطيب وكذلك العكس بالعكس، ولكل قاعدة شواذ. والله أعلم.

التّفضيل، بل لا خيريّة في خلاف هذا الأدب، لأنّه حرام والحرام لا خير فيه، إلّا أنّه قيل كذلك مراعاة للعواطف، وليتفكروا فيعلموا شرّية ما كانوا عليه (**فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا**) من الرّجال يأذن لكم (**فَلا تَدْخُلُوهَا**) لكي لا تدخلوا على النّساء (**حَتَّى يُؤْذَنَ**) حتّى تجدوا من يأذن (**لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا**) ولا تغضبوا حيث (**هُوَ**) هذا الأدب (**أَزْكَى**) أطهر (**لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**) من الدّخول بدون تحفّظ وما يورث ذلك من الخلوة مع النّساء والإختلاط بهن (**عَلِيمٌ**) فيجازيكم عليه (**لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ**) ثمّ (**أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ**) ليس فيها أحد (**فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ**) فتخرجوه منها أو تعملوا به ما يحتاج إليه من إصلاح (**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ**) من الأعمال (**وَمَا تَكْتُمُونَ**) منها، مثل من يدخل مثل هذا البيوت وبينه وبين واحدة موعد للإختلاء بها في تلك البيوت فيعاقبكم على ذلك.

ثمّ أنّه لا يخفى أنّ من الأسباب الّتي تؤدّي إلى الزّنا هو نظر الرّجل إلى المرأة وجمالها والتّعمق في ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(**قُل**) أيّها النّبيّ (**لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا**) حذفت لام الأمر للعلم بها من السّياق أي فليغضوا (**مِنْ أَبْصَارِهِمْ**) فلا ينظروا إلى ما لا يحلّ النّظر إليه من النّساء (**وَيَحْفَظُوا**) من عطف المسبّب على السّبب أي فليحفظوا بسبب غضّ البصر (**فُرُوجَهُمْ**) عن الزّنا لأنّ النّظر بريد الزّنا ورائد الفجور (**ذَلِكَ**) غضّ البصر وحفظ الفرج (**أَزْكَى لَهُمْ**) أقرب إلى التّحفظ من الدّنس والتّطهر منه (**إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**) من تعميق النّظر إلى النّسوة وإثارة شهوتهم بسبب ذلك.

هذا ومن الأسباب المؤديّة إلى الزّنا أيضاً نظر النّساء إلى الرّجال وإظهار جمالهن لهم والتّدلل أمامهنّ، فمنع تعالى ذلك أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ

أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

(**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ**) ليغضضن (**مِنْ أَبْصَارِهِنَّ**) فلا ينظرن إلى الرّجال وجمالهم (**وَيَحْفَظْنَ**) بذلك (**فُرُوجَهُنَّ**) من السّوء (**وَلا يُبْدِينَ**) ولا يظهرن (**زِينَتَهُنَّ**) حليهن ولا أمكنتها (**إِلّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**) من مكان الحلى وهو الوجه والكفّان (**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ**) ليسترن الصّدر والعنق والرّأس (**وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ**) محلّها إلّا الوجه والكفّين فلا يظهرنها (**إِلّا لِبُعُولَتِهِنَّ**) لأزواجهنّ (**أَوْ آبَائِهِنَّ**) وإن علوا أو نزلوا (**أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ**) وإن نزلوا (**أَوْ إِخْوَانِهِنَّ**) لأمّ أو لأب أو لهما (**أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ**) من جميع الجهات وإن نزلوا (**أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ**) من أي جهة كنّ وإن نزلوا (**أَوْ نِسَائِهِنَّ**) النّساء المؤمنات، ولا يجوز أن يبدين زينتهن أي محلّها للكافرات وإن كنّ ذميّات (**أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ**) إيّاهم وهم عبيدهن (**أَوِ**) الرّجال (**التَّابِعِينَ**) الّذين يتّبعون النّاس لأكل طعامهم فقط، ولاهم لهم إلّا ذلك بشرط أن يكونوا (**غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ**) الحاجة إلى النّساء وهم الشّيخ الهرم والعنّين والمخنّث والخصيّ والمجبوب (**أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا**) الأطفال الّذين لم يطّلعوا (**عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء**) أي لم يخلق فيهم الشّهوة بعد (**وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ**) على الأرض بشدّة (**لِيُعْلَمَ**) ليعلم النّاس (**مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ**) من الحلي أو من قوّة شبابهن (**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا**) ممّا فعلتم قبل من هذه الأمور (**أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) لكي تفلحوا أي تفوزوا بسعادة الدّارين، وربط الفوز بترك هذه الأمور إشارة إلى عدمه عند إرتكابها والله تعالى أعلم. وهناك أحاديث تتعلّق بالنّظر نذكرها نقلاً عن الخازن (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) نورد لك بعضها:

١- روى مسلم (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (لا ينظر الرّجل إلى عورة الرّجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضِ الرّجل إلى الرّجل في ثوب واحد ولا المرأة إلى المرأة في ثوب واحد)[1].

(١) صحيح مسلم ١/٢٦٦ الحديث رقم ٣٣٨.

٢- روى مسلم أيضاً عن جرير (رضي الله عنه) قال: سألت رسول الله (ﷺ) عن نظرة الفجأة؟ قال: إصرف بصرك[1].

٣- عن بريدة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) لعلّي (رضي الله عنه): يا عليّ لا تتبع النّظرة النّظرة فإنّ لك الأولى وليست لك الثّانية. أخرجه أبو داود والتّرمذي[2]، هذا وهنا نذكر مسائل تتعلّق بتحديد العورة من الرّجال والنّساء إن شاء الله تعالى:

المسئلة الأولى: في تحديد العورة للرّجل فعند الشّافعيّة خمسة أقوال:

الأوّل: أنّها ما بين السّرة والرّكبة وليست السّرة والرّكبة من العورة، وهذا أصحّ الأقوال نصّ عليه الشّافعيّ في الأمّ والإملاء.

الثّاني: إنّ السّرة والرّكبة من العورة أيضاً.

الثّالث: إنّ السّرة عورة دون الرّكبة.

الرّابع: عكس القول الثّالث.

الخامس: إنّ العورة هي القبل والدّبر فقط، وهذا القول شاذّ منكر عندهم.

وعند الحنفيّة: عورة الرّجل من سرّته إلى ركبته وليست السّرة من العورة.

وعند مالك: عورة الرّجل ما بين سرتّه وركبته وليست السرّة والرّكبة من العورة.

وعند أحمد: روايتان:

الأول: ما بين السّرة والرّكبة.

الثّاني: أنّها الفرجان فقط أي القبل والدّبر فقط.

المسألة الثّانية: في تحديد العورة للمرأة: **فعند الشّافعيّة والمالكيّة**: جميع بدن الحرّة عورة إلّا وجهها وكفّيها. **وعند الحنفيّة**: جميع بدن الحرّة عورة إلّا وجهها وقدميها وكفّيها. **وعند أحمد**: كلّ بدنها عورة إلّا وجهها فقط. **وحدّ العورة من الأمّة**: ما بين السّرة والرّكبة فقط.

---

(١) صحيح مسلم ١/١٦٩٩ الحديث رقم ٢١٥٩.

(٢) سنن ابي داود ٢/٢٤٦ الحديث رقم ٢١٤٩. سنن الترمذي ٥/١٠١ الحديث رقم ٢٧٧٧ وقال حديث حسن غريب.

المسألة الثّالثة: النّساء قسمان محرم وغير محرم، فالمحرم: ما يحرم عليك نكاحها مؤبّداً بنسب أو رضاع أو مصاهرة، وغير المحرم: هي غيرها، فالّتي لا يحلّ نكاحها مؤقّتاً غير محرم.

المسألة الرّابعة: يجوز للرّجل أن ينظر من محارمه إلى الرّقبة والرّأس والكفّين والقدمين وليس له النّظر إلى الصّدر والظّهر والبطن، وعند القاضي من الحنابلة أنّ حكم الرّجل مع محارمه مثل حكم الرّجل مع الرّجل والمرأة مع المرأة ينظر إلى غير ما بين السّرة والرّكبة، وما سبق هو على وجه التّقوى والتّوقّي.

المسألة الخامسة: للرّجل أن ينظر إلى جميع بدن زوجته حتّى الفرج إلّا أنّ نظر الفرج مكروه. وكذلك حكم الزّوجة مع زوجها.

المسألة السّادسة: للطّبيب النّظر إلى ما تدعو الحاجة إليه حتّى الفرج، وللشّاهد النّظر إلى وجهها، وكذلك من يتعاقد معها في بيع أو إجارة أو شراء، ولأجل التّعليم والتّعلّم أيضاً، وكلّ ذلك للحاجة لا للشّهوة، لأنّ النّظر بشهوة فيحرم مطلقاً.

المسألة السّابعة: الرّجل مع الرّجل والمرأة مع المرأة ينظر أحدهما إلى الآخر إلى ما سوى ما بين السّرة والرّكبة. وفي قول: إلى ما سوى الفرجين، وأمّا الطّفل والعنين والشّيخ المعطّل عن الجنس، فكالمحارم مع كلّ امرأة، وأمّا مسألة الحجاب فيأتي في سورة الأحزاب إن شاء الله تعالى عند آية الحجاب، والله الموفّق وهو يهدى السّبيل.

ثمّ زيادة في التّوقي من الزّنا أمر الله المؤمنين بالزّواج وبيّن شروطها والتّشجيع عليها فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

(وَأَنكِحُوا الأَيَامَى) جمع أيّم وهو من لا زوج له بكراً كان أو ثيّباً ذكراً كان أو أنثى، أي زوّجوا الرّجال الأيامى والنّساء الأيامى ولا تُبقوا الرّجل ولا المرأة بدون زوج **(مِنكُمْ)** من الأحرار **(وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ)** الأرقّاء **(وَإِمَائِكُمْ)** الجواري، فزوّجوا هؤلاء أيضاً ولا تخافوا الفقر فإنّه **(إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ)** بعد النّكاح والزّواج **(مِن فَضْلِهِ)** من رزقه، ويهيّئ لهم أسباب المعيشة **(وَاللَّهُ وَاسِعٌ)** علمه وإنّه **(عَلِيمٌ)** بكم وبحالكم، والقصد من الآية الأمر بالزّواج أي فليتزوّج الرّجل الأيّم والمرأة الّتي لا زوج لها.

مسألة: اختلف العلماء في هذا الأمر بالنّكاح على ثلاثة أقوال: فعند مالك وأبو حنيفة النّكاح مستحبّ أي سنّة لحديث الرّسول (ﷺ): (النّكاح من سنّتي ومن لم يعمل بسنّتي فليس منّي)[1]. وعند الشّافعي وأحمد مباح أو مندوب، هذا كلّه إذا لم يخف الشّخص من الزّنا وإلّا فيجب بالإتّفاق إلّا أن لا يستطيع ولا يجد أهليّته للزّواج فيكسر شهوته بالصّوم. وعند بعض العلماء واجب مطلقاً للأمر به، ولتوقّف النّسل وبقاء النّوع والعفاف عليه. وهذا هو الأصّح، إلّا أنّ المعذور مغفور **(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا)** تكاليف الزّواج فليستعففوا أي يحفظوا أنفسهم من الزّنا **(حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ)** وييّسر لهم أمر الزّواج، وليس هذا مناقضاً لقوله تعالى **(إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ)** لأنّ ما هنا هو قبل النّكاح وما يدعو إليه النّكاح من المهر والنّفقة، فإذا وجد هذا فلينكح، فبعد ذلك يغنهم الله من فضله كما قال ووعد به. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى العبيد والجواري وكان في ذلك الزّمان يعامل النّاس مع العبيد والجواري معاملتين خبيثتين إحداهما: أنّهم لا يقبلون منهم المكاتبة. الثّانية: كانوا يكرهون الجواري على أنّ يزنين بأجرة ويأتين بها إليهم فقال تعالى: **(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ)** يطلبون **(الْكِتَابَ)** المكاتبة **(مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)** إيّاهم من العبيد والإماء **(فَكَاتِبُوهُمْ)** ولا تمتنعوا **من** ذلك **(إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)** القدرة على الكسب والمعيشة وإلّا فلا، بل أبقوهم عندكم واخدموهم **(وَآتُوهُم)** أنتم أيّها السّادة وغيركم **(مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ)** ورزقكم من فضله إعانة لهم على المكاتبة وأداء ما التزم فيها. والمكاتبة هي: أن يعتق السّيد عبده أو جاريته على مبلغ من المال يعطيه، وقد خصّص الإسلام ثمن أموال الزّكوات لتحرير العبيد من المكاتبين وغيرهم. **(وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ)** جواريكم **(عَلَى الْبِغَاء)** على الزّنا

---

(١) سنن إبن ماجة ١/ ٥٩٢ الحديث رقم ١٨٤٦.

(إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) تطهراً وتعفّفاً من الزّنا، وهذا القيد ذكر لأنّه كان الواقع كذلك، فالجواري كنّ يردن التّطهر وهم يكرهونهنّ، أو لأنّه إذا هنّ لم يردن التّطهر فلا إكراه لأنّهنّ يردن ذلك باختيارهنّ **(وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ)** فيغفر لهن **(رَّحِيمٌ)** يرحمهن ويعاقبكم على ذلك. ثمّ أراد الله تعالى أن يختم هذه الأوامر والأحكام بإنذارٍ لمن ينحرف عنها فقال جلّ وعلا: **(وَلَقَدْ)** أي وبعزّتي لقد **(أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ)** بفتح الياء أي أحكاماً مبينات بيناها وأوضحناها وبكسر الياء أي فقرات من القرآن **(مُّبَيِّنَاتٍ)** موضّحات أحكاماً لكم **(وَمَثَلاً)** وأنزلنا إليكم أمثلة كثيرة **(مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا)** مضوا **(مِن قَبْلِكُمْ)** من قبلكم من الأمم الّذين أهلكوا بسبب انحرافهم عن أحكام الله تعالى لتعتبروا **(وَمَوْعِظَةً)** وأنزلنا إليكم موعظةً كثيرةً **(لِّلْمُتَّقِينَ)** للّذين يريدون التّقوى والتّجنب عن الشّرور والآثام، والقرآن موعظةٌ لكلّ الناس إلّا أنّه لا يستفيد منها المتّقون فلذلك خصّوا بالذّكر والله تعالى أعلم.

ثمّ إنّ الله تعالى ذكر في أوّل السّورة أنّه أنزل في هذه السّورة أحكاماً فرضها على المسلمين، وأنزل آيات تدلّ على وجوده ووحدته وقدرته، وبعد ما ذكر هذه الأحكام أراد أن يذكر تلك الآيات والدّلائل فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ) منوّر السّماوات **(وَالأَرْضِ)** بهدايته ونظامه وشريعته ومنهجه القويم وكتابه الّذي أرسل إلى محمّد (ﷺ) **(مَثَلُ نُورِهِ)** هدايته ونظامه في الوضوح والظّهور أمام العقول والنّفوس وتقبلّها له وأعجابها به **(كَمِشْكَاةٍ)** وهي الكوّة غير النّافذة من الجدار يكون **(فِيهَا)** في الكوّة **(مِصْبَاحٌ)** فيزداد بذلك وضوحاً، لأنّ الكوّة تجمع نوره ويكون هذا **(الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ)** فيزداد نوراً، لأنّ الزّجابة شفّافة تساعد النّور إيضاحاً **(الزُّجَاجَةُ)** صافية **(كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ)** وهو الكوكب المضيء الوقّاد **(يُوقَدُ)** ذلك المصباح **(مِن شَجَرَةٍ)** من دهن شجرة **(مُّبَارَكَةٍ)** ثمّ فسّر الله تعالى الشّجرة المباركة

بقوله: (**زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ**) فاقت كلّ زيتونةٍ، لأنّ كلّ زيتونة إمّا شرقيّة أو غربيّة، فهي زيتونة ذكرت لمجرّد المثال، فإنّ هذه الزّيتونة (**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ**) لصفائه (**وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ**) نور الزّيتونة على نور الزّجاجة ونور الزّجاجة على نور السّراج، فيتكاثر النّور بحيث لا يخفى، فشريعة الله تعالى كذلك لا تخفى حقيقتها وصلاحها ومنهجيّتها على أحد (**يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ**) لدينه الواضح هذا الوضوح (**مَن يَشَاء**) وهو أصحاب العقول السّليمة والقلوب الطّاهرة من الشّهوات والأنانيّة والكبر والحسد والتّعصب والتّقليد (**وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ**) لتشبيه المعقول بالمحسوس وتقريبه إلى الأذهان والفهم (**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ**) فيعلم ما يشابه هذا وما لا يشابه، وما يقرّب الأمر إلى الفهم وما لا يقرّب فيأتي بالمثل المفهم والمفيد. والحاصل أنّ الله تعالى شبّه نظامه ودينه في الوضوح والظّهور والحقيقة عند العقول السّليمة بسراج موصوف بهذه الأوصاف[١].

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر الّذين هداهم إلى هذا النّور وإيمانهم به والعمل به، وأنّ يذكر مستقبلهم السّعيد فقال جلّ وعلا:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

(**فِي بُيُوتٍ**) اختلف المفسرون في متعلّق (**في**) هنا، فكلّ قدّره كيف اجتهدوا[٢]، والّذي أعتقده هو: أنّ الآية جاءت لبيان من هداه الله تعالى وبيان مستقبله المشرق،

---

(١) فسر الشيخ الوالد النور هنا بالشريعة؛ لأن الله تعالى وصف ذاته بالنور، فكل يرجع إليه تعالى هو نور، فكتابه نور وشرعه نور والإيمان والمعرفة في قلوب رسله والمؤمنين به نور، فالإسلام بأصله وفرعه نور أنار الدنيا بمضمونه، ينجو الآخذ به من عثرات الظلام ومتاهات الضّلال في الدّنيا ومن عذاب الله تعالى في الآخرة، ويتمتّع بنعيم الجنّة ونورها. و ذلك لأنّ الله تعالى ليس كمثله شيء فلا يشبّه بما هو نتاج مخلوق مادّي للمصباح والزّجاجة والكوّة وغيرها.

(٢) أي كل واحد من االمفسرين قدر المتعلق حسب ما اجتهد.

فالأحسن أن نقول: هو أي من هداه الله تجده[١] **(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ)** أمر أن تبنى، وهي: المساجد، فهي الّتي أمر الله تعالى بها أن تبنى **(وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)** إسم الله تعالى من الصّلوات والأوراد والأذكار، فتجد المهتدي فيها **(يُسَبِّحُ)** يصلّي **(لَهُ)** لله **(فِيهَا)** في تلك البيوت **(بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)** جمع أصل بضمّ الهمزة والصّاد وهو جمع أصيل وهو المساء، أي يصلّي فيها بالصّباح والمساء والوقت كلّه مقسّم إلى الصّباح والمساء لأنّه بعد شروق الشّمس صباح إلى المغرب أو العصر وبعده مساء أي يصلّي الصّلوات النّهاريّة واللّيليّة فيها **(رِجَالٌ)** من هداه الله هم رجال **(لا تُلْهِيهِمْ)** لا تشغلهم **(تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ)** عن اتّباع ذكر الله وهو شريعته فلا يبيعون ولا يشترون ولا يتاجرون ولا يعملون كلّ عمل إلّا وفق شريعة الله، وما جوّزه الله من المعاملات والأشغال فيتركون ما حرّم الله ويعملون ما أحلّه **(وَإِقَامِ)** ولا يشغلهم الكسب والعمل عن إقامة **(الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ)** وإعطاء الزّكاة لأنّهم **(يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ)** تضطرب **(فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ)** من شدّته ومن خوف الحساب **(لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ)** قال المفسّرون: أي عملوا هذه الأعمال من الصّلاة والذّكر والزّكاة ليجزيهم ... إلخ، وعندي: اللّام للعاقبة فالمعنى أنّهم يعملون هذه الأعمال خوفاً من هذا اليوم فتكون العاقبة أنّه **(لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ)** في ذلك اليوم ثواباً **(أَحْسَنَ)** من **(مَا عَمِلُوا)** الواحد بعشرة أمثالها إلى سبعمائة **(وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)** والله واسع علمه **(وَيَزِيدَهُم)** الله **(مِّن فَضْلِهِ)** أكثر من ذلك **(وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ)** أي بدون أن يستطيع العبد أن يحسبه ويعدّه لكثرته.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أعمال المؤمنين وثوابهم عليها، أراد أن يذكر ما للكافرين من ثمرات أعمالهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾

(١) أو ما بينه الله تعالى من مثل النور من الإيمان والهداية والصراط المستقيم من الشرع والدين كل ذلك مكانه في بيوت...الخ.

إعلم أنّ أعمال الكافر نوعان: أعمال حسنة وأعمال سيّئة، وذكر الله تعالى ثمرة كلّ نوعٍ ووضعها بالمثال لأنّ المثال يوقع الممثّل في النّفس أحسن وأتّم، فذكر الله النّوع الأوّل فقال جلّ وعلا: (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا**) وثمرة وعاقبة الّذين كفروا (**أَعْمَالُهُمْ**) الحسنة (**كَسَرَابٍ**) وهو أنوار ولمعان يحدث من وقوع أشعّة الشّمس على الأرض في الصّحراء يشبه الماء ولذلك (**يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ**) العطشان (**مَاء**) فيفرح عند رؤيته (**حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**) لا ماءً ولا لمعاناً؛ لأنّ السّراب إذا اقتربت منه ينمحي، فكذلك العمل الصّالح من الكافر أنّه يأمل منه خيراً حتّى إذا جاء وقت الثّواب يوم القيامة لم يجده شيئاً،لأنّ عمل الكافر يكون هباء منثوراً (**وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ**) عند المكان الّذي يؤمل فيه ثواب الأعمال (**فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ**) صفّى حسابه بالانتقام منه على كفره (**وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**) سريع الانتقام إذا أراده، هذا إذا كانت أعماله صالحة (**أَوْ**) اذا كانت أعماله سيّئة فهي: (**كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ**) عميق جداً (**يَغْشَاهُ**) يعلو البحر (**مَوْجٌ**) فيزداد ظلمةً (**مِّن فَوْقِهِ**) الموج (**مَوْجٌ**) آخر فيزداد ظلمةً أكثر (**مِّن فَوْقِهِ**) من فوق الموج الأعلى (**سَحَابٌ**) فيصير الحال أنّه (**ظُلُمَاتٌ**) كثيرة (**بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ**) فيصبح حاله (**إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا**) لم يتمكّن من أن يَرَاهَا من شدّة الظّلمة (**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا**) في الدّنيا حيث لم يؤمن فيتنوّر قلبه (**فَمَا لَهُ**) يوم القيامة (**مِن نُّورٍ**) أبداً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يستفهم الكافر المشرك إستفهامات توبيخ على أنّه لم يتفكّر في الدّلائل الّتي تنقذه من الكفر والشّرك وتلك الآيات كثيرة جدّاً، فذكر الله تعالى بعضاً منها فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

(**أَلَمْ تَرَ**) أيّها الكافر والمشرك بالله لتعلم وتعتبر وتترك الكفر والإشراك حينما ترى من دليل عظمة الله ووحدته وهو (**أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ**) يعترف له بالنّزاهة عن الشّريك والولد (**مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) فبعضهم قولاً وبعضهم حالاً، فإنّ حال الموجودات في الأرض والسّماء يدلّ على أنّ من له هذه القدرة الّتي خلق بها هذه المخلوقات والعلم الّذي أتقن به خلقها لا يقبل شريكاً ولا ولداً؛ فإنّ الشّريك والولد لا يريده إلّا

المحتاج أو العاجز أو الجاهل، فكلّ ما في السّماوات والأرض يسبّح (**وَالطَّيْرُ**) تسبح أيضاً حال كونها واقفةً في الفضاء (**صَافَّاتٍ**) تصف أجنحتها (**كُلٌّ**) من هذه الأشياء (**قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ**) كيفيّة صلاته (**وَتَسْبِيحَهُ**) وكيفيّة تسبيحه، فإنّ لكلّ من هذه الأنواع صلاة خاصّة وتسبيح خاص (**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**) عالم بفعل هذه الأشياء (**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**) بعد الموت فكيف تعبدون غيره أو تكفرون به، وأنّ بعد هذا المصير لعقاباً على الكفر للكافرين وثواباً للمؤمنين الموحّدين. اللّهم اجعلنا منهم واحشرنا معهم آمين.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

(**أَلَمْ تَرَ**) ألم تعلم أو ألم تنظر لتعلم (**أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي**) يسوق (**سَحَابًا**) إسم جنس يشمل القليل والكثير من السّحب (**ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ**) فيضمّ بعضه إلى بعض (**ثُمَّ**) بهذا الجمع والتأليف (**يَجْعَلُهُ رُكَامًا**) متراكماً بعضه فوق بعض (**فَتَرَى الْوَدْقَ**) المطر (**يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ**) من بين أجزائه (**وَيُنَزِّلُ**) كالمطر (**مِنَ السَّمَاءِ**) من الأعلى (**مِن جِبَالٍ**) من سحب كالجبال (**فِيهَا**) فيها أي في السّماء (**مِن بَرَدٍ**) وهو حبّات من الماء المتجمّد في الهواء (**فَيُصِيبُ بِهِ**) بهذا البرد (**مَن يَشَاء**) فيؤذيه أو يصيب زرعه فيفسده (**وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء**) فلا يصيبه (**يَكَادُ سَنَا**) لمعان (**بَرْقِهِ**) البرق الّذي يخرج من إحتكاك السّحاب (**يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ**) لشدّة ضوئه ولمعانه (**يُقَلِّبُ**) التّقليب بمعنى أن يجعل الفوق تحتاً والتّحت فوقاً، فالمعنى هنا (**يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**) فيجعل أحدهما فوق الأفق والآخر تحته، ثمّ يقلّب أي يجعل ما تحت الأفق فوقه وما فوقه تحته، وهذا الأمر مستمرّ كلّ يوم (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) التّقليب والصّنع (**لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ**) لموعظةً لأصحاب البصر أي الّذين يرون الأشياء على حقيقتها.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ) وهي ما تدبّ على الأرض من الأحياء، فخلق الله تعالى كلّ ذلك **(مِن مَّاء)** لأنّ الماء ينزل على الأرض فيختلط بالتّراب، ومن ذلك تنبت النّباتات والأشجار، ومن حبوب النّباتات وثمار الأشجار يكون غذاء الحيّ، ومن الغذاء تتكوّن النّطفة فتقذف النّطفة من الذّكور في رحم الإناث، فتصير هذه النّطفة من الحيوانات علقةً وهي تصير مضغةً وهي تصير حيواناً فيولد ويخرج من بطن أمّه وفي الطّيور وما يبيّض تصير النّطفة بيضةً ومن البيضة يتكوّن أفراد ما يتولد من البيضات **(فَمِنْهُم)** فقسم من الأحياء **(مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ)** مثل الزّواحف **(وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ)** كالإنسان والطّيور **(وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ)** أرجل وهي الأنعام وباقي المواشي من الحيوانات البريّة أو البحريّة **(يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء)** خلقه وكيف يشاء من صورته وخلقته **(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** لا يعجز عن ما أراده.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

(لَقَدْ) بعزّتي لقد **(أَنزَلْنَا آيَاتٍ)** براهين ودلائل **(مُّبَيِّنَاتٍ)** مثبتات وجود الله وقدرته وعلمه ووحدته **(وَاللَّهُ يَهْدِي)** بهذه الآيات والدّلائل الّتي ذكرت في هذه المجموعة من الآيات ومن غيرها **(مَن يَشَاء)** الله هدايته، وهم الّذين ينظرون في الدّلائل ليهتدوا بها أي المدلولات فيهديهم الله تعالى **(إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)** وهو دين الله تعالى دين التّوحيد وشريعته الّتي أنزلها على الرّسول محمّد (ﷺ).

تنبيه: إنّ هذه الأدلّة من تسبيح من في السّماوات ومن في الأرض، ونظام السّحب والبرق والأمطار وتقليب اللّيل والنّهار، وخلق كلّ حيّ من الماء خوطب بها الكافرون الّذين يجعلون لله شريكاً، وينسبون إليه ولداً؛ فإنّهم كانوا يعترفون بأنّ هذا الخلق كلّه لله، فكأنّه قال تعالى لهم: فحينما تعترفون بخلق الله، لهذا وقدرته وعلمه الّذي أتقن به هذا الخلق، فكيف تشركون به أو تجعلون له ولداً، والشّريك والولد لا يقبله ولا يريده إلّا العاجز أو الجاهل أو المحتاج، وتعالى الله عن ذلك كلّه، وتكون هذه الأدلّة خطاباً لمن ينكر وجود الله كذلك. فيكون المعنى حينئذٍ انظروا أيّها الملحدون إلى هذا الصّنع العجيب والخلق البديع، واعملوا بالتّفكر فيه أنّ هذا الصّنع والخلق لا يمكن وجوده إلّا بصنع من صانع وخالق حكيم وعليم قدير وسميع وبصير وهو الله تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الكافرين أراد أن يذكر المنافقين فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(**وَيَقُولُونَ**) بعض النّاس وهم المنافقون (**آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا**) يقولون هذا بلسانهم (**ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ**) جماعة (**مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ**) القول فلا يطبّقون مايطلب منهم الإيمان (**وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**) صدقاً حيث (**وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ**) الى شريعة الله تعالى (**وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ**) حسب شريعة الله تعالى (**إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ**) عن شريعة الله وحكم رسوله (**وَإِن يَكُن**) وإذا علموا أنّه يكون في حكم الرّسول (**لَّهُمُ الْحَقُّ**) والإنتفاع (**يَأْتُوا إِلَيْهِ**) إلى الرّسول للحكم (**مُذْعِنِينَ**) طائعين، وأمّا إذا كان الحقّ بجانب خصمهم فلا يذعنون. ثمّ استفهم الله تعالى عن سبب إعراضهم عن حكم الرّسول فقال جلّ وعلا: (**أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**) أكفر؟ (**أَمِ ارْتَابُوا**) شكوا في نبوّة الرّسول؟ (**أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ**) أو يخافون أن يحكم (**اللَّهُ**) بظلم (**عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ**) لا يظلمهم الله ولا رسوله، ولكن (**أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) بإعراضهم عن حكم الله تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى صفات المنافقين أراد أن يذكر صفات المؤمنين صدقاً فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

(**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ**) الصّادقين (**إِذَا دُعُوا إِلَى**) شريعة (**اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ**) ليحكم بينهم حسب شريعة الله تعالى (**أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**) سواء كان في صالحنا أو في عكس ذلك (**وَأُوْلَئِكَ**) الّذين يرضون بحكم الله ورسوله في كلّ مال ربحوا أو خسروا (**هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) الفائزون بسعادة الدّنيا والآخرة (**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ**) إن لم يطع (**وَيَتَّقْهِ**) واجتنب معاصيه (**فَأُوْلَئِكَ**) الموصوفون بهذه الصّفات

(**هُمُ الْفَائِزُونَ**) الواصلون إلى الحقّ والسّعادة في الدّارين. وفي هذه الآيات بيّن الله تعالى علامة المنافقين والمؤمنين الصّادقين، فكلّ من رضي بحكم الله واتّبعه سواء كان في نفعه أو ضرّه فهو مؤمن صادق، ومن رضي به إذا كان في صالحه وإن كان بعكس ذلك إلتجأ إلى قوانين أخرى فهو منافق.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر صفة أخرى إتّصف بها المنافقون وهو الكذب والأخلاف في العهد والقسم في الكلام فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

(**وَأَقْسَمُوا**) المنافقون وحلفوا (**باللَّهِ جَهْدَ**) أكبر (**أَيْمَانِهِمْ**) على أنّهم (**لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ**) مع المؤمنين إلى الجهاد (**قُل لا تُقْسِمُوا**) لا تحلفوا، فالحلف والأيمان لا ينفعكم بل (**طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ**) ظاهرة بالعمل (**خير**) من الأيمان الكاذبة (**إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**) من الكذب والنّفاق والدّجل والخداع فيخبرنا بكلّ ذلك في الدّنيا ويعاقبكم في الآخرة (**قُلْ**) لهم (**أَطِيعُوا اللَّهَ**) وحيث إنّ طاعة الله لا يمكن إلّا بإطاعة الرّسول (ﷺ) قال جلّ وعلا: (**وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**) فيما يبلّغكم به من الله تعالى (**فَإِن تَوَلَّوا**) بعد نصحك هذا (**فَإِنَّمَا عَلَيْهِ**) على الرّسول (**مَا حُمِّلَ**) من التّبليغ (**وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ**) من الطّاعة والاستجابة (**وَإِن تُطِيعُوهُ**) تطيعوا الرّسول (**تَهْتَدُوا**) إلى الحقّ (**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**) وقد فعلت ذلك وأدّيت واجبي فأدّوا أنتم واجبكم من الاستجابة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ما وعد الله الّذين يستجيبون دعوة الرّسول ويؤمنون به ويتّبعونه صدقاً، قولاً وعملاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾

(**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ**) أيّها المسلمون، ومن للبيان لا للتّبعيض (**لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم**) ليجعلّنهم خلفاء (**فِي الأَرْضِ**) ومسيطرين عليها، ونسلّم إليهم القيادة فيها (**كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**) من أتباع الرّسل السّابقين، حيث سادوا في الأرض وسيطروا عليها (**وَلَيُمَكِّنَنَّ**) وليثبّتنّ (**لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى**) اختار (**لَهُمْ**) لهم ورضي به أن يتدينوا به (**لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم**) وليؤتينهم (**مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ**) من الأعداء (**أَمْنًا**) فلا يخافون أحداً لقوتهم وشوكتهم (**يَعْبُدُونَنِي**) في ظلّ هذا الأمان (**لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ**) نعمة الإسلام (**بَعْدَ ذَلِكَ**) النّصر وانحرف عنه (**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**) هم الخارجون عن العهد؛ فننتقم منهم بالذلّ بعد العزّ وبالخوف بعد الأمن، وهذا ما وقعنا فيه أيّها المسلمون، فهل لكم من عودة إلى دين الله لتعود إليكم العزّة والسّيادة؟ اللّهم فافعل آمين. وفي هذه الآية معجزة، حيث أخبرت بما وقع بعد مثل ما أخبرت، فإنّ المسلمين استولوا على الدّنيا، وكان لهم السّلطان في الأرض، وبعد ما انحرفوا ضعفوا وآل أمرهم إلى ما ترى، وفي البخاري عن عديّ بن حاتم قال بينما أنا عند النّبيّ (ﷺ) إذ جاء رجل فشكا إليه الفاقة، ثمّ أتاه آخر فشكا إليه قطع السّبيل فقال (ﷺ): يا عديّ هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها ولكن أنبئت عنها، قال (ﷺ): فإن طالت بك حياة فلترينّ الظّعينة ترحل من الحيرة حتّى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلّا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال (ﷺ): كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترينّ الرّجل ملأ كفّه من ذهب أو فضّة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقينّ الله أحدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم فليقولنّ: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى ياربّ، فيقول: ألم أعطك مالّا وأفضّل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلّا جهنّم، وينظر عن شماله فلا يرى إلّا جهنّم، قال عدي: وسمعته يقول: إتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة، قال عدى: فرأيت الظّعينه ترحل من الحيرة حتّى تطوف بالكعبة لا تخاف إلّا الله تعالى، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترونّ ما قال أبو القاسم (ﷺ) يخرج الرّجل ملأ كفه ذهباً...الخ. ثمّ أراد

تعالى أن يبيّن كيفية شكر نعمة السّيادة في الأرض وشرط بقائها للمسلمين فقال جلّ وعلا: (**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**) أدّوا الصّلاة واحملوا من تحت أمركم على أدائها (**وَآتُوا الزَّكَاةَ**) في كلّ ما أمركم به ونهاكم عنه، واستقيموا على هذا الإتّباع وعدم الإنحراف (**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**) لكي ترحموا ببقاء سيادتكم في الدّنيا ودخول الجنّة في الآخرة، وهذا كان شرطاً لبقاء السّيادة بأيدي المسلمين، فلمّا خالفوا الشّرط خسروا المشروط (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) فلا سيادة للمسلمين إلّا بتطبيق الإسلام، هذا وحينما نزلت الآية بالوعد باستخلاف المؤمنين في الأرض كان المؤمنون ضعفاء والكفار أقوياء جدّاً، فاستبعد بعض العقول هذا الوعد فقال جلّ وعلا: (**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ**) مانعين الله تعالى بكلّ قوّتهم من تنفيذ إرادته (**فِي الأَرْضِ**) باستخلاف المؤمنين فينصر الله المؤمنين ويذلّ الكافرين (**وَمَأْوَاهُمُ**) في الآخرة (**النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ**) مصيرهم وهو النّار، وبذلك تمّ إنذار الكافرين بعذاب الدّنيا والآخرة، ووعد المؤمنين بالعزّة والسّعادة فيهما إن عملوا واستقاموا.

ثمّ أعاد الله تعالى الكلام على الإستئذان عند الدّخول في البيوت بالنّسبة للعبيد والخدم والأطفال فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ**) للدّخول في بيوتكم (**الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**) إيّاهم وهم العبيد والجواري (**وَالَّذِينَ**) والأطفال الّذين (**لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ**) من الأحرار (**ثَلاثَ مَرَّاتٍ**) في ثلاث أوقات في اليوم فلا يدخلوا في هذه الأوقات بدون إستئذان، وهذه الأوقات هي: (**مِن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ**) لكون النّاس في ذلك الوقت بثياب النّوم غير ساترين عوراتهم (**وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ**) وبعد الظّهر للإستراحة (**وَمِن بَعْدِ**

صَلاةِ الْعِشَاء) فهذه (**ثَلاثُ**) أوقات لكشف النّاس (**عَوْرَاتٍ**) عوراتهم فلذلك يجب الإستئذان فيها (**لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ**) إثم في عدم الإستئذان (**بَعْدَهُنَّ**) بعد هذه الأوقات لأنّهم (**طَوَّافُونَ عَلَيْكُم**) يأتون ويخرجون لأداء الأشغال في البيت (**بَعْضُكُمْ**) فبحكم الطّوافية يدخل (**بَعْضُكُمْ**) وهم الخدم والأطفال (**عَلَى بَعْضٍ**) وهم أهل البيوت (**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) بحالكم (**حَكِيمٌ**) يحكم فيكم وفق حكمته فلا يشقّ عليكم (**وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ**) بلغ الأطفال من الأحرار (**الْحُلُمَ**) حدّ البلوغ (**فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ**) ذكروا (**مِن قَبْلِهِمْ**) وهم الرّجال الأحرار (**كَذَلِكَ**) مثل ما ترى (**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ**) أحكامه (**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) بحالكم (**حَكِيمٌ**) يحكم فيكم وفق حكمته.

ثمّ أراد الله تعالى أن يخفّف حكم السّتر عن النّساء اللّاتي لسن محلّ فتنة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

(**وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء**) وهنّ الّذين يئسن من الحيض والولادة (**اللاتِي لا يَرْجُونَ**) لا يرغبن (**نِكَاحًا**) حيث لا حاجة بهن إليه (**فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ**) ليس عليهن إثم في (**أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ**) من الجلابيب والخمار (**غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ**) غير متزيّنات (**بِزِينَةٍ**) الحلي والثّياب الجميلة (**وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ**) فلا يضعن ثياب السّتر (**خَيْرٌ لَّهُنَّ**) حيث يقال:

لكلّ ساقطة في الحيّ لاقطة وكلّ كاسدة يوماً لها سوق

فلربّما يوجد أناس يطمع فيهن (**وَاللَّهُ سَمِيعٌ**) بأقوالكم (**عَلِيمٌ**) بأعمالكم فيجازيكم عليها فإن خيراً فخير وإن شرّاً فشر.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حكم الدّخول في البيوت من الإستئذان وحكم السّتر أراد أن يذكر حكم أكل البعض في بيوت بعضهم فقال جلّ وعلا:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ

بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

(**لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ**) إثم في أن يأكل من بيوت النّاس (**وَلا عَلَى الأَعْرَجِ**) حرج في ذلك (**وَلا عَلَى الْمَرِيضِ**) الّذي عوّقه المرض حرج أن يأكل في بيوت النّاس (**وَلا عَلَى أَنفُسِكُمْ**) حرج في (**أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ**) بأن يأكل بعضكم في بيوت بعض (**أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ**) من النّسب أو من الرّضاع وإن علون (**أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ**) من النّسب أو الرّضاع وإن علون (**أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ**) من النّسب والرّضاع ومن الأب أو الأمّ أو الأبوين (**أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ**) عموماً كما في الإخوان (**أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ**) إخوان أبيكم من الرّضاع أو النّسب، ومن الأب أو الأمّ أو منهما وإن علوا (**أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ**) عموماً كما في الأعمام وإن علون أيضاً (**أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ**) من النّسب أو الرّضاع، وسواء كانوا أخوالاً للأمّ من الأبوين أو من أحدهما فقط وإن علوا (**أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ**) عموماً وعلى التّفصيل في الأخوال (**أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ**) كأن تكونوا وكلاء أو حراساً أو سقاةً للبساتين مثلاً (**أَوْ**) في بيوت (**صَدِيقِكُمْ**) أصدقائكم (**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ**) ليس عليكم إثمّ في (**أَن تَأْكُلُوا**) من هذه الأمكنة سواء كنتم (**جَمِيعًا**) مجتمعين جماعات (**أَوْ أَشْتَاتًا**) أفراداً متفرّقين. كلّ ذلك بعد الإستئذان من الدّخول (**فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا**) من هذه المذكورات للأكل (**فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ**) فليسلّم بعضكم عن بعض فحيّوا بهذه التّحيّة (**تَحِيَّةً**) أمر بها (**مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ**) مثل ما ترون (**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ**) الآداب والأحكام (**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون**) لكي تفهموها وتطبّقوها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر إستئذاناً خاصاً فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

(**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ**) الصّادقين في إيمانهم هم (**الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**) معاً، فالإيمان بأحدهما لا يكفي لأنّ فائدة الإيمان بالله العمل بشرعه، ولا يمكن ذلك إلّا بعد الإيمان بالرّسول وأخذه منه (**وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ**) في عمل (**جَامِعٍ**) يجتمع له النّاس كالمشورة والجهاد والجماعة والجمعة (**لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ**) يستأذنوا الرّسول في الذّهاب (**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ**) ولا يخرجون بدون إذن (**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**) صدقاً وإخلاصاً (**فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ**) هؤلاء (**لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ**) أعمالهم (**فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ**) وهم الّذين لهم أعذار (**وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**) لمن تستغفر لهم (**رَّحِيمٌ**) يرحم بهم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه لا يجوز الذّهاب من عند الرّسول إلّا بعد الإستئذان، أراد أن يذكر أنّه من الواجب أيضاً إذا دعاهم أن يستجيبوا ويحضروا، فقال جلّ وعلا:

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

(**لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ**) طلبه إيّاكم للجمع في عمل أو شغل (**كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا**) إن شاء أجبتموه وإن لا فلا. فدعاء الرّسول ونداؤه واجب الإتّباع (**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ**) يخرجون خفية من الإجتماع عند الرّسول أو عندما دعاكم الرّسول كأنّهم لم يسمعوا (**مِنكُمْ لِوَاذًا**) من اللّوذ وهو التّحفظ بشيء أو التّستّر به، أي تستترون وراء الجدران أو أشياء أخرى لكي لا ترون (**فَلْيَحْذَرِ**) فليخف (**الَّذِينَ يُخَالِفُونَ**) يخرجون (**عَنْ أَمْرِهِ**) ويستترون عن دعائه (**أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ**) بلاء (**أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) مؤلم جداً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّه يجب إتّباع أوامر الله تعالى في كلّ ما أمر وإن بعد من يمتثل ويوعد من يخالف، فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾﴾

(أَلا) فاعلموا **(إِنَّ لِلَّهِ)** كلّ **(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)** فكلّ ذلك ملكه، ومن ضمنه أنتم أيّها النّاس، وعلى المملوك أن يطيع مالكه، فيجب عليكم إطاعة الله تعالى عقلاً ونقلاً كمّاً وكيفاً **(قَدْ يَعْلَمُ)** جدّاً **(مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ)** من الأعمال والأخلاق والعقائد الآن **(وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ)** بعد الموت وعند الحساب يعلمها جدّاً ولا يخفى عليه شيء **(فَيُنَبِّئُهُم)** فيخبرهم **(بِمَا عَمِلُوا)** كلّه ويجزيهم عليه إن خيراً فبالثّواب الجزيل وإن شرّاً فبالعذاب الوبيل **(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** لا يخفى عليه شيء فحسّنوا أعمالكم، ومن الحماقة أن تعملوا المنكر ولا تستحيوا من الله الّذي يراقبكم ويرى كلّ أعمالكم.

اللّهم وفقنا على تحسين الأعمال في كلّ حال من الأحوال، وارزقنا حسن الخاتمة آمين، وصلّى الله على المولى محمّد وعلى آله وصحبه وأمّته أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

كتبت هذه المسوّدة في بغداد يوم ١٧ ربيع الأوّل من عام ١٤٠٨هـ.

سورة الفرقان

(مكيّة إلّا الآيات ٦٨-٧٠ فمدنيّة، وهي سبع وسبعون آية، نزلت بعد سورة "يس"، سميّت بالفرقان، لقوله تعالى: تبارك الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ... الخ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾

(تَبَارَكَ) لفظ تبارك مشتقّ من برك للمبالغة وبرك بمعنى زاد، فتبارك بمعنى زاد بكثرة، وإذا نسب إلى الأشخاص فمعناه زاد رتب ما نسب إليه، فمعنى تبارك الله أي زادت رتبه العليّة بكثرة لا تحصى، فالمعنى هنا **(تَبَارَكَ)** عظم وزادت رتب **(الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ)** الكتاب الفارق بين الحقّ والباطل في العقائد والأحكام وهو القرآن **(عَلَى عَبْدِهِ)** محمدﷺ **(لِيَكُونَ)** القرآن أو عبده محمّد أو هما **(لِلْعَالَمِينَ)** كلّهم **(نَذِيرًا)** منذراً بالعذاب في الدّنيا والآخرة على سيئات الأعمال وفساد العقائد والمبادىء والأفكار. ثمّ أراد الله تعالى أن يبرهن على عظمته فقال جلّ وعلا: **(الَّذِي لَهُ مُلْكُ)** التّصرف في **(السَّمَاوَاتِ)** في كلّ ما علا **(وَالأَرْضِ)** كلّ ما سفل، فيفيد أنّه المتصرّف في الكون وما فيه كلّه، ومن كان هذا ملكه لا يحتاج إلى شريك ولا ولد فلذلك **(وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا)** له لأنّ الولد لا يتّخذه إلّا المحتاج **(وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ)** لغناه عن ذلك **(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ)** موجود في السّماوات والأرض **(فَقَدَّرَهُ)** جعل له قدراً خاصّاً وشكلاً معيّناً **(تَقْدِيرًا)** متقناً

وكما يليق بذلك الشّيء، فمن كان بهذه العظمة ومن له هذا الملك هو الّذي يستحقّ العبادة والألوهيّة فقط، ولا يعقل أن يكون إله دونه إلّا أنّ المشركين فقدوا رشدهم وعبدوا من دونه آلهة كما قال جلّ وعلا:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

(**وَاتَّخَذُوا**) هؤلاء المشركون (**مِن دُونِهِ**) من دون الله تعالى (**آلِهَةً**) باطلةً عبدوها. ثمّ استدلّ على بطلان تلك الآلهة فقال جلّ وعلا: (**لا يَخْلُقُونَ**) لا يقدرون على أن يخلقوا (**شَيْئًا**) ولو صغيراً جدّاً (**وَهُمْ**) أنفسهم (**يُخْلَقُونَ**) فالمخلوق لا يصحّ أن يكون إلهاً، وما لا قدرة له على خلق شيء لا يصحّ أن يكون إلهاً أيضاً (**وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ**) أن يدفعوا عنها (**ضَرًّا وَلا**) أن يجلبوا لها (**نَفْعًا**) والإله يجب أن يقدر على دفع الضّر وجلب النّفع (**وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا**) لأحد (**وَلا حَيَاةً**) لحيّ (**وَلا نُشُورًا**) ولا إيجاداً بعد الموت وإعادة الحياة إلى الميّت؛ فهذه الأمور كلّها تدلّ على بطلان تلك الآلهة إلّا أنّ الإنسان إذا ضلّ فهو كالأنعام بل أضلّ سبيلاً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى موقف الكافرين من الله تعالى من اتّخاذ الآلهة دونه، أراد أن يذكر موقفهم من الرّسول (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

(**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا**) بالرّسول (**إِنْ**) ليس (**هَذَا**) القرآن (**إِلَّا إِفْكٌ**) كذب (**افْتَرَاهُ**) اختلقه محمّد من عنده ونسبه إلى الله تعالى (**وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ**) على هذا الافتراء (**قَوْمٌ آخَرُونَ**) أرادوا عنهم أهل الكتاب، ويكذّبهم في هذا القول أنّ أهل الكتاب أصبحوا أعداءه (**فَقَدْ جَاؤُوا**) هؤلاء المشركون وتحمّلوا بقولهم هذا في حقّ الرّسول (**ظُلْمًا**) تجاوزا عن الحقّ (**وَزُورًا**) وبهتاناً عظيماً (**وَقَالُوا**) لهذا القرآن مرّةً أخرى إنّ هذا القرآن

(**أَسَاطِيرُ**) حكايات (**الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا**) محمّد (**فَهِيَ تُمْلَى**) تقرأ (**عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**) ليحفظها (**قُلْ**) يا محمّد في جوابهم (**أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ**) الغيب (**فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا**) فأرى النّاس سبيل مغفرته بهذا القرآن (**رَّحِيمًا**) ولذلك أنزل لهم هذا المنهج المستقيم.

سؤال: لم لم يذكر الله تعالى لرسوله دليلاً يقنع به الكافرين، وإنّما أمر أن يجيبهم بنفس الدّعوى وهو أنّه من الله تعالى؟

الجواب: بوجهين:

الأوّل: أنّه يقال جواب الأحمق السّكوت، فأمر الله تعالى رسوله بأن لا يدخل معهم في الجدال لأنّهم لم يكونوا يريدون إظهار الحقّ ليعتنقوا به، وإنّما أرادوا العناد والإحراج.

الثّاني: أنّ القرآن نفسه يشهد بأنّه من الله تعالى لإعجازه وإخباره بالمغيبات وأسرار الكون وما في قلوب الكافرين، فلا يحتاج إلى الاستدلال عليه بأنّه من الله تعالى، وإنّما يحتاج إلى تنبيه بأنّه من الله ليفكّروا فيه؛ فيمتنعوا به بأنّه ليس من غير الله تعالى، بل هو منه والله تعالى أعلم.

ثمّ إنّ الكافرين قدحوا في رسالة الرّسول (ﷺ) بأمور كلّها التّعنت والخروج من الواقع والتّهرب من الحقّ؛ فذكر تعالى إعتراضاتهم هذه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾﴾

(**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ**) أرادوا أن يكون الرّسول

منزّهاً من الصّفات البشريّة بالرّغم من أنّهم كانوا يعلمون أنّ الرّسل السّابقين كلّهم كانوا يأكلون كما يأكل النّاس ويمشون في الأسواق، ولم يرسل الله رسولاً مجرداً عن البشريّة وصفاتها، وقالوا أيضاً (**لَوْلا أُنزلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ**) يشهد برسالته (**فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا**) رسولاً مؤيّداً له، وقالوا أيضاً (**أَوْ**) عطفاً على أنزل فالتّقدير لولا (**يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ**) فيستغني به عن الأسواق وليصرفه على من آمن به وأكثرهم فقراء (**أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا**) بدلاً من أن يأكل ممّا يأكله النّاس (**وَقَالَ الظَّالِمُونَ**) منهم أشدّ الظّلم فقالوا للنّاس (**إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَّسْحُورًا**) سُحر فأصبح مجنوناً (**انظُرْ**) أيها النّبيّ (**كَيْفَ ضَرَبُوا**) ذكروا (**لَكَ**) لردّ دعواك بالرّسالة (**الأَمْثَالَ**) الأدلّة السّاقطة (**فَضَلُّوا**) بذلك عن الحقّ (**فَلا يَسْتَطِيعُونَ**) أن يسلكوا (**سَبِيلاً**) إلى الحقّ (**تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاء**) أن تتمتّع بالدّنيا ولذّاتها (**جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ**) الّذي ذكروا من الكنز والبستان، فجعل لك (**جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ**) فيها (**قُصُورًا**) تسكنها، إلّا أنّ الله تعالى لم يشأ لك ذلك فإنّه لم يرد منك أن تكون ملكاً تتمتّع بما يتمتّع به الملوك، بل أراد أن تكون نبيّاً ورسولاً تزهد في الدّنيا لتنال الآخرة، ولتكون قدوة لأمّتك في اختيارهم الآخرة على الدّنيا وإيثارها عليها، ويمكن أن يقال أنّ الضّمير في شاء للرّسول (ﷺ) فيكون المعنى إنّ شاء الرّسول جعل الله له خيراً ممّا يقولون: جنات .... الخ الآية، إلّا أنّ الرّسول لم يختر ذلك، فإنّه خيّر بين أن يكون عبداً نبيّاً وأن يكون ملكاً نبيّاً. فاختار أن يكون عبداً نبيّاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر موقفهم تجاه الآخرة ويوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

(**بَلْ**) بل ارتقوا في الكفر حيث (**كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ**) بيوم القيامة وكفروا به (**وَأَعْتَدْنَا**) وهيّأنا (**لِمَن**) لكلّ من (**كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا**) ناراً مسعورةً شديدة الحرارة، وهي جهنّم (**إِذَا رَأَتْهُم**) قابلتهم مقابلة الرّائي للمرئي أو خلق الله تعالى الرّؤية فيها (**سَمِعُوا لَهَا**) أي رأوا لها (**تَغَيُّظًا**) حالاً مثل حال المتغيّظ من الهيجان وسمعوا لها (**وَزَفِيرًا**) صوتاً شديداً (**وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا**) متعلق بقوله: (**مَكَانًا ضَيِّقًا**) وإذا ألقوا مكاناً ضيّقاً منها أي من جهنّم (**مُقَرَّنِينَ**) مقيّدين بالأغلال(**دَعَوْا**) تمنّوا (**هُنَالِكَ ثُبُورًا**) هلاكاً ويقولون: واثبوراه جئنا،

فيقال لهم من قبل الملائكة: (**لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا**) والهلاك أمر واحد لا كثرة فيه، فمعناه ادعوا الثّبور دعاءً كثيراً لا دعاءً واحداً والله تعالى أعلم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مصير الكافرين أراد أن يذكر عاقبة المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

(**قُلْ**) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم للكافرين (**أَذٰلِكَ**) العذاب الّذي ذكر وهيّأه الله لكم (**خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ**) مكان الخلد خير؟ والجواب: أنّ الجنّة خير وهذه الجنّة هي (**الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ**) أن يدخلوها (**كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء**) على تقواهم من الكفر والشّرك والمعاصي (**وَمَصِيرًا**) ومرجعاً يرجعون إليه بعد الموت، فهذه الجنّة خير لأنّه (**لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ**) من النّعم واللّذات (**خَالِدِينَ**) مؤبّدين فيها (**كَانَ**) هذا الوعد (**عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا**) تنفيذه وهو حتمه على ذاته (**مَسْؤُولاً**) ويسأله المؤمنون تنفيذه سؤال تضرّع وتلطّف لا سؤال طالب ذو حقّ.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر مناقشة المشركين يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

(**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ**) يوم يجمع الله تعالى المشركين في الآخرة (**وَ**) مع (**مَا يَعْبُدُونَ**) هم (**مِن دُونِ اللَّهِ**) تعالى ويحاكمهم (**فَيَقُولُ**) الله للآلهة (**أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاء**) وأمرتموهم بأن يعبدوكم (**أَمْ هُمْ**) بأنفسهم (**ضَلُّوا السَّبِيلَ**) للحقّ ولا دخل لكم في ذلك؟ (**قَالُوا سُبْحَانَكَ**) تنزّهت عن أن يكون معك إله (**مَا كَانَ يَنبَغِي**) يمكن (**لَنَا أَن**

نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء) نعبدهم فكنّا نحن عبيداً لك، فكيف ندّعي الألوهيّة (**وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ**) بالمال والبنين والصّحة ونعيم الدّنيا (**حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ**) الدّين والعبادة والتّوحيد وطغوا (**وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا**) هالكين من حيث العقيدة والعمل. ثمّ حينما قالت الآلهة هذه المقالة، يلتفت الله تعالى إلى المشركين فيقول: (**فَقَدْ كَذَّبُوكُم**) هؤلاء (**بِمَا**) بسبب (**تَقُولُونَ**) أنّهم آلهة (**فَمَا تَسْتَطِيعُونَ**) أنتم ولا آلهتكم (**صَرْفًا**) دفعاً للعذاب (**وَلَا نَصْرًا**) ولا إنقاذاً من العذاب، فان قيل: كيف تتكلّم الآلهة هذا الكلام ومنها الأصنام؟ قلنا: الأصنام كانت تماثيل للملائكة أو الصّالحين، فكانت العبادة في الحقيقة للملائكة والصّالحين(١)، فهم يخاطبون بهذا الخطاب ويجابون هذا الجواب (**وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ**) وهم دعاة الضّلال (**نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا**) لا يوصف كبره لشدّته.

ثمّ أراد الله تعالى أن يردّ على حجج الكافرين وما قدّموا به في رسالة الرّسولﷺ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

(**وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**) أحداً (**إلا إِنَّهُمْ**) كانوا (**لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ**) ويشربون الماء (**وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ**) لشراء حاجات البيت (**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ**) وهم الكافرون (**لِبَعْضٍ**) وهم المؤمنون (**فِتْنَةً**) فنختبركم بهم وبأقوالهم ضدّكم وأفعالهم لننظر (**أَتَصْبِرُونَ**) على أذاهم (**وَكَانَ رَبُّكَ**) بكم (**بَصِيرًا**) فيثيبكم على الصّبر بالنّصر في الدّنيا والثّواب في الآخرة، ويذلّ أعداءكم في الدّنيا ويعذّبهم في الآخرة. وهذه الآية كانت ردّاً على قول الكافرين حينما قالوا: (مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ).

ثمّ أراد الله تعالى أن يردّ على قولهم (لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ) فقال جلّ وعلا:

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع كانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت./ صحيح البخاري ٤/ ١٦٧٣ الحديث رقم ٤٦٣٦.

﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

(**وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءنَا**) قال الّذين لا يؤمنون بالآخرة والحساب (**لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ**) للرّسالة والتّبليغ، فكيف يكون البشر رسلاً من الله تعالى (**أَوْ**) لولا (**نَرَى رَبَّنَا**) بأعيننا فيقول: قد أرسلت إليكم محمّداً (**لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ**) عن الحقّ وعن اتّباع الرّسول (**وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا**) ولذلك يدّعون هذه الإدّعاءات، هذا وإنّ الملائكة لا يأتون إلّا للعذاب والإهلاك؛ ولذلك قال جلّ وعلا: (**يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ**) وهم الّذين كذّبوا الرّسول (ﷺ) (**وَيَقُولُونَ**) يقول الكافرون حينئذٍ ويدعون (**حِجْرًا**) منعاً من هذا العذاب (**مَّحْجُورًا**) ما منعه، فيتمنّون ذلك وفاتهم الأوان إذ لا منع لعذاب الله تعالى إذا جاء (**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ**) من الأعمال الحسنة (**فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء**) غباراً (**مَّنثُورًا**) متفرقاً، فما أتيناهم عليه وما استفادوا منه شيئاً، لأنّ شرط الثّواب على الأعمال أن يكون مع الإيمان ووفق شريعة الله ولامتثالها (**أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ**) يوم إذ صار حال المجرمين كما ترى هم (**خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا**) محلّ قرار وهو الجنّة (**وَأَحْسَنُ مَقِيلاً**) أحسن مكاناً للقيلولة والإستراحة، أي مستقرّهم خير من مستقرّ الدّنيا لا من مستقرّ المجرمين، فإنّه لا خير في مستقرّ المجرمين ليكونوا هم خيراً منهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أحوال النّاس في الآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

(**وَيَوْمَ**) واذكر لهم (**يَوْمَ تَشَقَّقُ**) أصله تتشقّق حذفت التّاء الأولى أي تنشق (**السَّمَاء بِالْغَمَامِ**) بخروج الغمام منها، والمعنى أنّها تنشق، فيخرج الغمام منها بعد الشقّ (**وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلا**) لجمع النّاس وحسابهم (**الْمُلْكُ**) السّلطان كلّه (**يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**) الثّابت الظّاهر (**لِلرَّحْمَنِ**) وأنّ الملك دائماً لله الحقّ إلّا أنّه في ذلك اليوم لا يبقى من يدّعي

الملك لغيره، فكلّ النّاس يقرّون له بالملك (**وَكَانَ**) ذلك اليوم (**يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا**) شديداً.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

(**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ**) فيعضّ بأسنانه على يديه تحسّراً وندامةً (**يَقُولُ يَا لَيْتَنِي**) كنت في الدّنيا (**اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً**) سلكت سبيل الرّسول وهو الإسلام (**يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً**) صديقاً يشير إلى من كان سبباً لجرّه إلى الكفر والفسوق والمعاصي (**لَقَدْ**) والله لقد (**أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ**) عن الدّين (**بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي**) وبلغت به تبليغاً صحيحاً واضحاً (**وَكَانَ الشَّيْطَانُ**) وهو كلّ من دعا إلى الباطن فهو يكون (**لِلإِنسَانِ خَذُولاً**) كثير الخذلان وهو إيقاع الشّخص في الشّر ثمّ تركه له (**وَقَالَ الرَّسُولُ**) في ذلك اليوم شكايةً (**يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**) متروكاً فلم يعملوا به ولم يطّبقوه. ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله فقال جلّ وعلا: (**وَكَذَلِكَ**) وكما جعلنا لك أعداءً (**جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ**) من الأنبياء (**عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ**) يؤذيه ويبعد النّاس عن اتّباعه فلا تحزن، فهذا سنّة الله في أنبيائه فاصبر (**وَكَفَى**) واكتف (**بِرَبِّكَ هَادِيًا**) لبعض النّاس فيتّبعونك (**وَنَصِيرًا**) على الأمراء، والعبرة بالخاتمة وهي خير لك.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر إعتراضاً آخرا إعترض به الكفار على الرّسولﷺ فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

(**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً**) دفعةً (**وَاحِدَةً**) كما أنزل التّوراة على موسى جملةً واحدةً والإنجيل على عيسى كذلك، فأجاب الله تعالى عن قولهم هذا فقال جلّ وعلا: (**كَذَلِكَ**) أنزلنا عليك القرآن نجوماً متفرّقةً وحسب الوقائع والحوادث لا دفعةً واحدةً (**لِنُثَبِّتَ بِهِ**) بهذا التّفريق (**فُؤَادَكَ**) قلبك فيحفظه جيّداً، وكان موسى وعيسى عليهما السلام أهل قراءة وكتابة، فأنزلنا عليهما الكتاب دفعةً واحدةً، وأمّا أنت فأميٌّ واعتمادك على الحفظ، فلو نزل عليك دفعةً واحدةً لشقّ عليك حفظه، وهنا حكمة أخرى وهي: أنّ القرآن لو نزل دفعةً واحدةً لفرضت الفرائض والأحكام والواجبات دفعةً فكان يشقّ على النّاس تطبيقها، ولكنّ حين نزلت الأحكام تدريجيّاً وشيئاً فشيئاً تعوّدت القلوب وتثبّتت؛ فاستطاعت تدريجياً أن تطبّق الكلّ، وهذا التّدرج في التّربية أوقع وأنفع كما لا يخفى على أولي الألباب (**وَرَتَّلْنَاهُ**) ورتلنا القرآن عليك (**تَرْتِيلا**) شيئاً فشيئاً وبهدوء وتؤدة (**وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ**) يعترضون به عليك (**إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ**) بالجواب الحقّ الرّادع (**وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**) بياناً لهم فهؤلاء (**الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ**) لكفرهم وإعتراضاتهم على الرّسول وقدحهم في القرآن والإسلام (**شَرٌّ مَكَانًا**) تمييز محول عن الفاعل أي شرّ مكانهم من كلّ مكان (**وَأَضَلُّ سَبِيلاً**) وأضلّ طريقهم عن الخير من كلّ طريق؛ لإنّ طريقهم إلى جهنّم فبئس الطّريق هو إذن.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أحوال بعض الرّسل مع قومهم ليعلم أنّ هذا سنّة الرّسل والرّسالة يكذّبون ويعادون ثمّ يكون الذّل والخزي لأعدائهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

(**وَ**) وبعزّتي (**لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**) التّوراة (**وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا**) رسولاً يؤزره ويساعده (**فَقُلْنَا**) لهما (**اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) بدلائلنا الدّالة على توحيد الله تعالى في الألوهيّة والرّبوبيّة فذهبا إليهم فكذّبوهما (**فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا**) كبيراً فأغرقناهم في البحر جميعاً.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

(**وَ**) واذكر (**قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ**) حيث كذّبوا نوحاً، وتكذيب رسول واحد

تكذيب لكلّ الرّسل لأنّ دعوتهم واحدة فلمّا كذّبوا نوحاً (**أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً**) عبرةً (**وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ**) بعد إهلاكهم في الدّنيا (**عَذَابًا أَلِيمًا**) في الآخرة.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

(**وَعَادًا وثمودا**) واذكر عَادًا وَثَمُودَ وهما قبيلتان مشهورتان ذكرتا في القرآن مراراً (**وَأَصْحَابَ الرَّسِّ**) هم كانوا قوماً يعبدون الأصنام ولهم مواشٍ ولهم بئر إسمه **الرّس** يشربون ويسقون مواشيهم منها، فبعث الله إليهم نبيّاً فكذّبوه، فبينما هم على البئر إنهارت بهم فخسف بهم وبديارهم، وقيل: **الرّس** إسم قرية قتلوا نبيّهم فأهلكوا، وقيل: هم أصحاب الأخدود، فالرّس: الأخدود، أقوال إختار ابن جرير الطّبري الأخير منها (**وَقُرُونًا**) واذكر قروناً (**بَيْنَ ذَلِكَ**) بين نوح وعاد وثمود وأصحاب الرّس (**كَثِيرًا**) كان أهل ذلك القرون (**وَكُلاً**) من هذه الأمم (**ضَرَبْنَا**) ذكرنا (**لَهُ الأَمْثَالَ**) حكايات الأمم ليعتبروا بهم ومواعظ ليتعظوا فلم يعتبروا ولم يتعظوا فانتقمنا منهم (**وَكُلاً تَبَّرْنَا**) هم أي أهلكناهم (**تَتْبِيرًا**) إهلاكاً، وكذلك لا يعتبر أهل مكّة ولا تتّعظ مع أنّهم شاهدوا ما يجب الإعتبار به حيث (**وَلَقَدْ**) وبعزّتي (**أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ**) مطر العذاب وهو نزول الحجارة عليهم كالمطر ورأوا آثارهم (**أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا**) في سفر الشّام رؤية عبرةٍ واتّعاظٍ (**بَلْ**) علاوة على أنّهم لم يخافوا العذاب في الدّنيا فإنّهم (**كَانُوا لا يَرْجُونَ**) لا يخافون(**نُشُورًا**) حياةً بعد الموت والعذاب فيها، فقال: يؤمنون بالآخرة وبذلك طغوا وبغوا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر طغيانهم وبغيهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

(**وَإِذَا رَأَوْكَ**) أيّها النّبيّ (**إِن**) ما (**يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا**) محلّ استهزاء ويقولون: (**أَهَذَا**) الحقير هو (**الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ**) إيّاه (**رَسُولاً**) إلينا من بين هؤلاء العظماء؟ (**إِن**) قد (**كَادَ**) قرب (**لَيُضِلُّنَا عَنْ**) عبادة (**آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا**) على عبادتها وما خدعنا بكلامه المعسول وادعاء أنّه رسول، قالوا هذا (**وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً**) محمّد أم هم؟ حيث ينكشف الحقّ ويعلمون أنّهم ضّالون، هذا وإنّ الرّسول (ﷺ) كان يحرص على إيمان النّاس حرصاً يتّعبه فخفّف الله من تعبه فقال: (**أَرَأَيْتَ**) أخبرني أنّ (**مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ**) معبوده ومطاعه (**هَوَاهُ**) فلا يطيع إلّا هواه (**أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً**) تأتي به إلى الحقّ وتحفظّه من الضّلالة؟ والجواب هنا: لا. فلا تتعب نفسك وراءهم وإنّما عليك الدّعوة فإن استجابوا فلهم وإلّا فعليهم (**أَمْ تَحْسَبُ**) تظنّ (**أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ**) الحقّ فيتّبعوه (**أَوْ يَعْقِلُونَ**) ليدركوا الحقّ فينقادوا له كلّا بل (**إِنْ**) ما (**هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ**) لا يسمعون ولا يعقلون (**بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**) من الأنعام، لأنّ الأنعام تنقاد لصاحبها وهم لا ينقادون لصاحبهم وهو الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر دلائل قدرته وجلائل نعمته ليستدل بها النّاس على وحدته وليشكروه على نعمته فلا يتّخذوا معه ضدّاً ولا يعبدوا معه ندّاً فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾

إعلم أنّ الزّمان ثلاثة أقسام: ظلمة محضة وهو اللّيل، وإشراق محض وهو النّهار، ومتوسط بين الظّلمة والإشراق وهو ما بين طلوع الفجر الصّادق إلى طلوع الشّمس ويسمّى ذلك بالظلّ، وهذه كلّها أضداد لا يعرف واحد منها بدون الآخر، فلولا الإشراق لما عرفت الظلمة وبالعكس، ولولا الإشراق لما عرف الظلّ، وكلّ واحد من هذه الأزمنة الثّلاثة نعمة من نعم الله تعالى، إذ في اللّيل الإستراحة وفي النّهار العمل

وفي الظلّ الهدوء، وكلّها أيضاً دليل على قدرة الله تعالى، فذكر تعالى هذه الأدوار الثّلاثة للزّمان للاستدلال بها على قدرته والإمتنان بها على عباده، إذ هي من ظواهر نعمته فقال جلّ وعلا: (**أَلَمْ**) لم تنظر لتعرف قدرة الله تعالى ونعمته (**إِلَى**) صنع (**رَبِّكَ**) ربّك وإنّه (**كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ**) على الأرض كلّه من طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس فلا ظلمة ولا إشراق (**وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا**) مستمراً بأن يوقف الأرض عن الحركة فلا تطلع الشّمس (**ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ**) الإشراق (**عَلَيْهِ**) على الظلّ (**دَلِيلاً**) يعرف به، فإنّ الضّدّ لا يعرف إلّا بالضدّ، فلا يعرف الشّبع إلّا بالجوع ولا الرّي إلّا بالعطش مثلاً (**ثُمَّ قَبَضْنَاهُ**) قبضنا الظلّ (**قَبْضًا يَسِيرًا**) شيئاً فشيئاً لأنّ الظلّ يذهب بالتّدريج وليس دفعة واحدة. ثمّ بعد أن ذكر هذا القسم من الزّمان أراد الله تعالى أن يذكر القسمين الباقيين فقال جلّ وعلا: (**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا**) يستركم فتستريحون فيه (**وَالنَّوْمَ**) وجعل (**النَّوْمَ سُبَاتًا**) إنقطاعاً عن العمل ليتجدّد نشاطكم وتتقوّى قواكم (**وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا**) زمان الإنتشار والحركة لتحصيل الرّزق (**وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا**) بشارة بالمطر (**بَيْنَ يَدَيْ**) قبل مجيء (**رَحْمَتِهِ**) وهو المطر (**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء**) من الفوق وهو السّحاب (**مَاء طَهُورًا**) تطهرون به أبدانكم وحوائجكم من الأنجاس والأوساخ وتطهّرون به أمعاءكم من حرارة العطش والظّمأ، وكذلك أنزلناه (**لِنُحْيِيَ بِهِ**) بالماء (**بَلْدَةً مَّيْتًا**) يابسةً لا تنبت فتحرّك قواها الإنباتيّة فتنبت النّبات والأشجار(**وَ**) أنزلناه أيضاً لكي (**نُسْقِيَهُ مِمَّا**) متعلّق بما بعده والتّقدير ونسقيه (**أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**) ممّا خلقناه (**وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ**) وزّعنا الماء (**بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا**) ليتذكّروا نعمة الله تعالى هذه وقدرته تلك فيعبدوه ولا يشركوا به شيئاً (**فَـ**) بعد هذه الأدلّة كلّها (**أَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا**) كفراناً لنعمة الله تعالى حيث يعيشون في نعمه ويطيعون غيره وينعمون من قدرته وخلقه وإرادته فينسبونها إلى غيره.

وهنا نعلم أنّه وجد الرّسول مشقّة في دعوته كيف وأنّ أكثر النّاس كفور، فكيف يستطيع مجاهدة هذه الكثرة الكاثرة فقال له جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

(**وَلَوْ شِئْنَا**) وأردنا كثرة الرّسول (**لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ**) في كلّ بلدة (**نَذِيرًا**) رسولاً

ينذر أهلها ولكن لم نشأ ذلك، وأرسلناك للنّاس كافّةً ليتوحّد النّاس في دينهم ورسولهم (**فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ**) في اتّجاهاتهم وعقائدهم وأحكامهم، وأعطيناك قوّةً تكفيهم ودليلاً يعمّهم وهو القرآن، فامض في دعوتك (**وَجَاهِدْهُم**) وعظهم (**بِهِ**) بالقرآن وجادلهم به فإنّه يكفي دليلاً وموعظةً ومعجزةً لكلّ من أحبّ الحقّ وسعى للإهتداء إليه، فجاهدهم بالقرآن (**جِهَادًا كَبِيرًا**) مستمرّاً ومتواصلاً بلا توان ولا فتور فهذا يكفيك.

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾

(**وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ**) أوصل أحدهما بالآخر لا فاصل بينهما (**هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ**) شديد العذوبة (**وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ**) شديد الملوحة (**وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا**) فاصلاً معنوياً لا يطغى أحدهما على الآخر بل ولا يختلط أحدهما بالآخر حيث جعلنا بينهما مانعاً (**وَحِجْرًا**) منعاً بينهما من الإختلاط (**مَحْجُورًا**) ممنوعاً بهذا الحجر كلّ واحد من البحرين من أن يطغى على الآخر ويختلط به. وقد فصّلنا الكلام على هذه الآية في سورة الرّحمن عند قوله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ تفصيلاً. ليشفي العليل ويروي الغليل والحمد لله تعالى.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

(**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا**) وهو آدم حيث خلق من الماء الّذي اختلط بالتّراب فصار طيناً (**فَجَعَلَهُ**) جعل خلق البشر بعد آدم (**نَسَبًا**) يوجد بالنّسب (**وَصِهْرًا**) وباختلاط الذّكر مع الأنثى (**وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**) على أن يخلق كلّ النّاس مثل آدم، إلّا أنّه جعل نسباً وصهراً ليوجد التآلف بين أبناء البشر وحاجة البعض إلى بعض فيعمّروا هذه الأرض ويظهروا آثار قدرة الله تعالى، كما وإنّ خلق البشر على طريقة التّناسل يظهر قدرة الله تعالى ويثبت أنّ الله قدير؛ لأنّ الأدوار الّتي تأتي على التولّيد والعوامل أي المواد الّتي تعمل إلى أن يولد المولّد تحيّر الأنسان وتدهشه وتنبّهه على أنّ الله تعالى قدير كلّ القدرة، ولكن مع هذه الأدلّة كلّها ترى النّاس يعرضون عن الله (**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ**) ويعبدون شيئاً (**وَلا يَضُرُّهُمْ**) شيئاً (**وَكَانَ الْكَافِرُ**) لميله إلى

الشّهوات (عَلَى رَبِّهِ) على إطاعة ربّه (ظَهِيرًا) معيناً للمعاصي فيختارها على الطّاعة والعبادة، وهذا ضلال منه عظيم. وهنا هاج غضب الرّسول (ﷺ) على الكافرين فأراد أن يبطش بهم ويعلن الحرب عليهم فسلّاه الله تعالى وهدّأ من أعصابه فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ) أيها النّبيّ (إِلَّا مُبَشِّرًا) إيّاهم بالنّعيم على الصّالحات (وَنَذِيرًا) ومخوّفاً لهم بالعذاب على السّيئات والمعاصي، ولم نرسلك لتأتي بالنّاس إلى الدّين كرهاً، فإنّ من يأتي إلى أمر كرهاً لا يرجى منه الخير والإنتفاع، فما عليك إلّا الدّعوة والتّبشير والإنذار، فادعهم وأظهر لهم أنّك لا تريد من هذه الدّعوة نفعاً وبكلّ صراحة (قُلْ) لهم (مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ) على هذا التّبليغ (مِنْ أَجْرٍ) منفعة أنتفع بها منكم (إِلَّا) أنّي أطلب أجر (مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى) رضاء (رَبِّهِ) ودينه (سَبِيلاً) فيعتنق هذا الدّين وهذا الأجر والثّواب الّذي أحصله من دعوتكم يكفيني، ولا أرجو سوى ذلك منكم أجراً[١] (وَتَوَكَّلْ) في نصرة دعوتك وانتشارها بين النّاس واعتناقهم لها (عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ) فهو يكفيك (وَسَبِّحْ) ونزّهه عن أن يعجز عن ذلك مقارناً هذا التّنزيه (بِحَمْدِهِ) بالإعتراف بأنّ كلّ فعل منه جميل، فهدايته لمن شاء جميل وإضلاله لمن شاء جميل لأنّه يفعل كلّ شيء لحكمة تجعل الفعل جميلاً (وَكَفَى) واكتف (بِهِ) بالله بذنوب عباده (خَبِيرًا) فيه تقديم وتأخير، أي كفى هو خبيراً بذنوب عباده فهو ينتقم منهم فلا تحاول أنت للانتقام منهم وفوض أمرهم إلى الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يصف ذاته بأوصاف توجب أن يكون خبيراً بكلّ شيء فقال جلّ وعلا:

---

(١) الغالب على أصحاب الدعوات الدنيوية من السياسية وغيرها هو ابتغاء المنافع من مال أو جاه أو رياسة أو ما مثل ذلك، فجاءت هذه الآية لدفع تلك الشبهة وبيان أن المطلوب من الإيمان بالإسلام هو تحقيق عبادة الله تعالى مع مصالح المؤمنين به في الدنيا والآخرة، لا المنافع الشخصية للنبي (ﷺ).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾

(**الَّذِي**) الحيّ الّذي (**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ**) كلّها (**وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا**) فالسّماوات والأرض وما بينهما يشمل كلّ شيء موجود في الكون، فالمعنى خلق الكون كلّه (**فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**) وقد تكلّمنا على هذه الأيّام السّتة الّتي خلق الله فيها هذا الكون في سورة النّازعات عند تفسير قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فراجعه تجد فيه ما يروي الغليل والحمد لله تعالى (**ثُمَّ**) جعل بعد أن خلق الله تعالى السّماوات والأرض وما بينهما (**اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**) تسلّم زمام أمور الكون كلّها (**الرَّحْمَنُ**) ويفيض نعمه بلا عدذ على هذه الخلق، فالّذي خلق هذا الكون كلّه وبيده زمام الأمور كلّها ويفيض النّعم على الخلق كلّه بلا عدّ وإحصاء؛ يجب أن يكون خبيراً بكلّ شيء فلذا قال جلّ وعلا: (**فَاسْأَلْ**) والمسؤول عنه محذوف فيفيد العموم والإستغراق، فالمعنى فاسأل عن كلّ شيء (**بِهِ**) متعلّق بقوله: (**خَبِيرًا**) فالتّقدير: فاسأل عن كلّ شيء خبيراً به، أي بكلّ شيء وهو الله تعالى. فالله تعالى هو الرّحمن، وهو الّذي يفيض نعمه على كلّ الخلق وكلّ النّعم منه، ومع هذا فالكفّار ينكرونه حيث (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ**) الّذي يفيض النّعم عليكم (**قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ**) فإنّا لانعرفه ولانعترف به (**أَنَسْجُدُ لِمَا**) لكلّ ما (**تَأْمُرُنَا**) دون أن نعرفه (**وَزَادَهُمْ**) قولك هذا (**نُفُورًا**) نفرةً وبعداً عن الإيمان.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أموراً بخصوصها في الكون هي أظهر في الدّلالة على قدرته وعلمه ووحدته فقال جلّ وعلا:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

(**تَبَارَكَ**) تعالى وعظم (**الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا**) جمع برج وهو القصر، وهذه البروج هي إثنتا عشرة مجموعة من الكواكب تشكّل كلّ مجموعة صورة من الصّور، فالمجموعة الأولى تقع على صورة الحمل فسمّيت برج الحمل، والثّانية على صورة ثور وسمّيت برج الثّور، والثّالثة على صورة إمرأة سمّيت بالجوزاء، والرّابعة على صورة

السّرطان، والخامسة على صورة الأسد، والسّادسة على صورة السّنبلة، والسّابعة على صورة الميزان، والثّامنة على صورة العقرب، والتّاسعة على صورة القوس، والعاشرة على صورة الجدي ولد المعز، والحادية عشرة على صورة الدّلو، والثّانية عشرة على صورة الحوت. فهذه المجموعات تسمّى بالبروج تشبيهاً بقصور الملوك، لأنّ الشّمس ترى بإزاء كلّ مجموعة في السّنة ثلاثين يوماً، فكأنّها يسكنها كالملك يسكن القصور، والقمر يرى بإزاء كلّ مجموعة في الشهر يومين ونصف يوم أو أقلّ بشيء، فالشّمس تكون في ديارنا بإزّاء الحمل والثّور والجوزاء في الرّبيع، وبإزّاء السّرطان والأسد والسّنبلة في الصّيف، وبإزّاء الميزان والعقرب والقوس في الخريف، وبإزّاء الجدي والدلو والحوت في الشّتاء، وهذا معنى قوله تعالى: **(وَجَعَلَ فِيهَا)** في هذه البروج أي بإزائها، ولكنّها حيث يرى بالعين كأنّهما فيها قال تعالى: **(وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا)** وهو الشّمس **(وَقَمَرًا مُّنِيرًا)** سمّي الشّمس سراجاً لأنّ نورها من ذاتها، والقمر منيراً لأنّ نوره مكتسب من الشّمس، فإنّه كالمرآة يأخذ النّور من الشّمس فيعكسه إلى الأرض، ولذا يقال نور القمر مستفاد من نور الشّمس. وهذا من معجزات القرآن، حيث لم يعلم هذا إلّا في زمان الدّولة العباسيّة حينما ترجمت الفلسفة وجغرافيّة السّماء إلى اللّغة العربيّة. وقد أخبر القرآن عن ذلك من قبل بقرون **(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً)** يأتي أحدهما بعد الآخر على الإستمرار **(لِّمَنْ أَرَادَ أَن)** جعل الله تعالى هذه الحالة آيةً **(لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ)** يتذكّر بها قدرة الله تعالى فيعبده وحده ولا يشرك به **(أَوْ أَرَادَ)** بهذه الآية الّتي هي نعمة أيضاً، فأراد **(شُكُورًا)** لمن جعل له هذه النّعمة فيعبده ويطيع أوامره ويجتنب معاصيه، وأو بمعنى الواو؛ فيفيد الأمر بالتّذكر والشّكر معاً.

وهنا تبيّن أنّ من النّاس من يتذكّر ويشكر فهم عباد الله ويستحقّون الرّحمة والأنعام، ومنهم من لا يتذكّر ولا يشكر فلا إنعام لهم، فأراد تعالى أن يذكر لعباده صفات يمتازون بها عن من عداهم لكي لا يدّعي أحد أنّه منهم كذباً وافتراءً أو يدعي النّاس لهم ويوصفهم بذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ) أضافهم إلى الرّحمن للإشارة إلى أنّهم يرحمهم الله تعالى في

الدّنيا والآخرة، فهؤلاء لهم صفات يعرفون بها، فالصّفة الأولى والثّانية: أنّهم هم (**الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا**) الّذين يمشون هيّنين متواضعين لا متكبّرين ولا متجبّرين لا يؤذون أحداً ولا يبغون فتنةً ولا يثيرونها بل (**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ**) بقول يجرح شعورهم أو قابلوهم بفعل يؤذيهم لم يقابلوا بالمثل بل (**قَالُوا**) قولاً يورث (**سَلامًا**) وإطفاءً للفتنة عملاً بقول الله تعالى: ﴿إدفع بالّتي هي أحسن السّيئة﴾ سورة المؤمنون الآية/ ٩٦. والمراد بالمشي في الأرض السّير عليها والحياة فيها، أي يعيشون بسلام وهدوء وطمأنينة ووقار وسكينة وحبّ للخير، والصّفة الثّالثة: أنّهم يعبدون الله (**يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا**) لله تعالى فيصلّون (**وَقِيَامًا**) وعبادة من أي نوع كانت العبادة، أي يحيون اللّيل بالعبادة كالصّلاة وغيرها. والصّفة الرّابعة: أنّهم مع عبادتهم هذه لا عجب لهم، بل يخافون من عذاب الله تعالى كما قال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

(**وَالَّذِينَ**) هم مع عبادتهم هذه لا يعجبون بأنفسهم بل يخافون الله من عذابه، ولذا (**يَقُولُونَ**) دائماً (**رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ**) حيث (**إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**) هلاكاً ملازماً لأهله (**إِنَّهَا**) جهنّم (**سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا**) محلّ قرار (**وَمُقَامًا**) محلّ إقامة.

والصّفة الخامسة: ذكرها الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

(**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا**) صرفوا ما لديهم من أموال (**لَمْ يُسْرِفُوا**) لم يتجاوزوا الحاجة (**وَلَمْ يَقْتُرُوا**) ولم ينقصوا عن الحاجة (**وَكَانَ**) إنفاقهم (**بَيْنَ ذَلِكَ**) بين الإسراف والتّقتير (**قَوَامًا**) عدلاً متوسطاً، وهنا بعض الأقوال في حدّ الإسراف نذكرها إن شاء الله تعالى: فقيل: كلّ ما صرف في الحرام إسراف وإن كان قليلاً جدّاً، والإقتار منع حقوق الله تعالى وهو قول ابن عباس. وقيل: الإسراف مجاوزة الحدّ في الإنفاق حتّى يدخل في حدّ التبذير، والإقتار: التّقصير عمّا لا بدّ منه، وهو أن لا يجيع أهله ولا يعريهم ولا ينفق إلى حدّ يقال له أسرف عرفاً.

والصّفة السّادسة والسّابعة والثّامنة: هي الكف عن الإشراك والقتل والزّنا وعدم

إرتكابها، والتّاسعة: التّوبة عنها إذا ابتلي بها، وذكر الله تعالى ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

(**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ**) لا يستغيثون ولا يعبدون (**مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**) فلا يرون لغير الله تعالى تأثيراً ولا نفعاً ولا ضرّاً ولا أن يشرعوا ويحكموا فإنّ كلّ ذلك إشراك (**وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ**) قتلها (**إِلا بِالْحَقِّ**) كقتل القاتل قصاصاً أو الزّاني المحصن حدّاً أو تارك الصّلاة أو المرتد، وكلّ من أباح الشّرع قتله وهدر دمه (**وَلا يَزْنُونَ**) لا يجامعون أي إمرأة إلّا أن تحلّ لهم بنكاح أو ملك أو شبهة (**وَمَن يَفْعَلْ**) ما ذكر من الشّرك والقتل والزّنا كلّها أو بعضها (**يَلْقَ أَثَامًا**) عقاب أتمه هذا (**يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ**) في ذلك العذاب (**مُهَانًا**) محقّراً ذليلاً (**إِلا مَن تَابَ**) رجع عن هذه المعاصي فتركها (**وَآمَنَ**) إيماناً لا شرك فيه (**وَعَمِلَ**) بعد ذلك (**عَمَلا صَالِحًا**) حسب الشّريعة (**فَأُوْلَئِكَ**) التّائبون المقبلون على الصّالحات (**يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**) يوفّقهم لعمل الصّالحات بدل السّيئات، أو المعنى أنّ نفس السّيئات الّتي فعلوها تنقلب حسنات لكثرة ندامتهم عليها وتحسّرهم (**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا**) يغفر لهم (**رَّحِيمًا**) يرحمهم على إقترافها. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر علامةً لصدق التّوبة والإيمان فقال جلّ وعلا: (**وَمَن تَابَ**) ترك الذّنوب (**وَعَمِلَ صَالِحًا**) بعد ذلك (**فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا**) توبة صدق وإخلاص، وأمّا التّوبة باللّسان دون العمل فهو كذب وخداع ونفاق ولا يكفّر بذلك ذنب ولا خطيئة فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

(**وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**) لا يشهدون شهادة الزّور أو المعنى لا يحضرون الأمكنة الّتي يفعل فيها الباطل، أيّ باطل كان، ويؤيّد هذا المعنى قوله: (**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ**) بمكان

فيه اللّغو الباطل (**مَرُّوا كِرَامًا**) وفسّروا المرور كراماً بعدم الإشتراك معهم وعدم الإلتفات.

وعندي: أنّ المعنى ما قال الرّسول (ﷺ): (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فليكره بقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[١] فمرّ الكرام هذه الدّرجات الثّلاث ولكن المفسرين اقتصروا على الأضعف مع الأسف الشديد.

والصفة الثانية عشرة: ذكرها الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

(**وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ**) القوليّة والكونيّة (**لَمْ يَخِرُّوا**) لم يقعوا (**عَلَيْهَا صُمًّا**) فلا يسمعوا القوليّة سماع إعتبار واتّعاظ بل يتّعظون بها (**وَعُمْيَانًا**) بالنّسبة للآيات الكونيّة بل يعتبرون بها ويتّعظون.

والصّفة الثّالثة عشرة: ذكرها الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

(**وَالَّذِينَ**) يحاولون أن يصلحوا أنفسهم وأهلهم وأولادهم فيسعون لذلك ويرجون أن يكونوا قدوة هم وأولادهم وأهلهم للمتّقين فلا ينسون هذا الجهد حتّى في دعواتهم حيث (**يَقُولُونَ**) في دعواتهم دائماً (**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا**) كلّهم (**قُرَّةَ أَعْيُنٍ**) من تقرّ به عيوننا لصلاحهم وتمسّكهم بالإسلام (**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**) يقتدون بنا لكثرة صلاحنا وتمسّكنا بالدّين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر جزاء من اتّصف بهذه الصّفات فقال جلّ وعلا:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٦٩ الحديث رقم ٤٩.

(**أُوْلَئِكَ**) المتعظون بهذه الصّفات (**يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ**) غرف الجنّة والدّرجة العالية (**بِمَا صَبَرُوا**) على هذه الصّفات وتحمّلوا الأذى بسببها أذى النّفس والهوى أو أذى الجهلة والكفرة (**وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا**) في تلك الغرفة (**تَحِيَّةً**) تكرمةً من الملائكة ومن الله تعالى (**وَسَلامًا**) منهم يسلّمون عليهم ويؤمّنونهم من كلّ مكروه (**خَالِدِينَ فِيهَا**) لا يخرجون ولا يخرجون أبداً (**حَسُنَتْ**) هذه الغرفة (**مُسْتَقَرًّا**) مستقرّاً أي محلاً للاستقرار (**وَمُقَامًا**) أي محلاً للإقامة فيها، ومستقرّاً ومقاماً تمييزان محوّلان عن الفاعل أي حسن مستقرّهم ومقامهم فيها.

ثمّ أمر الله تعالى رسوله أن يعلن استغناء الله عنهم، وانّهم سوف يضطرّون إلى اعتناق هذا الدّين فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

(**قُلْ**) يا أيّها النّبيّ للكافرين (**مَا يَعْبَأُ**) ما يبالي ولا يهتم (**بِكُمْ رَبِّي**) أسلمتم أو كفرتم فهو مستغنٍ عنكم (**لَوْلا دُعَاؤُكُمْ**) لولا دعاؤه إياكم إلى الخير وما ينفعكم ما كلّفكم بالإسلام، ومع هذا اللّطف منه ودعوته إلى ما هو خير لكم (**فَقَدْ كَذَّبْتُمْ**) هذه الدّعوة وحاملها (**فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**) في تفسير هذه الجملة وجوه:

الأوّل: فسوف يكون عقاب هذا التّكذيب وعذابه (لِزَامًا) لازماً لكم.

الثّاني: فسوف يكون إعتناق هذا الدّين لزاماً لكلّ أحد، فإنّ كلّ أحد حينما قرب موته ووصل حال النّزع تنكشف له الحقيقة، فيؤمن بالإسلام والتّوحيد، ولكن لا يفيده هذا الإيمان.

الثّالث: إنّ الخطاب لأهل مكّة، فالمعنى فسوف يكون اعتناق هذا الدّين لزاماً عليكم وتضطرّون بأن تؤمنوا لزوم الإطلاع على الحقّ لا لزوم الإلتزام، وذلك حصل بعد فتح مكّة، فإنّ كلّهم أسلموا وعلموا أنّ الإسلام حقّ فاعتنقوه، ويؤيد هذا المعنى ما في البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود أنّه قال: خمس قد مضين: الدّخان واللّزام والرّوم والبطشة والقمر، فاللّزام: ما ذكره هنا وقد مضى حيث آمن كفار مكّة ولزمهم الإيمان. والقمر: هو ما جاء ذكره في: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ سورة القمر الآية/ ١. فإنّ القمر انشقّ بإشارة الرّسول (ﷺ) معجزةً له. والرّوم: هو نصر الرّوم على فارس المذكور في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ

سَيَغْلِبُونَ﴾ سورة الروم الآيتان/ ٢، ٣. فغلبوا على الفرس بعد تسع سنين من نزول هذه الآية. والبطشة: هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ سورة الدخان الآية/ ١٦. وهذه البطشة مضت يوم بدر الكبرى، والدّخان هو المذكور في سورة الدّخان قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة الدخان الآيتان/ ١٠،١١. وقد مضى هذا حيث أصاب أهل مكّة جوع يرى المرء من شدّة جوعه كأنّ بينه وبين السّماء دخان. هذا والله تعالى أعلم، اللّهم اختم أعمالنا بخير وحصّل آمالنا بجودك واجعل آخر كلامنا (لا إله إلّا الله محمّد رسول الله).

سورة الشّعراء

(مكيّة، إلّا الآية ١٩٧ فمدنيّة، ومن الآية ٢٢٤ إلى آخر السّورة فمدنيّة، نزلت بعد سورة الواقعة وهي مئتان وسبع وعشرون آية، سميّت بالشّعراء لما فيها من قوله تعالى: "والشّعراء يتّبعهم الغاوون")

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾

(**طسم**) قد مرّ تفسير هذه الحروف المقطّعة، والكلام عليها مفصّلاً في أوّل سورة البقرة (**تِلْكَ**) هذه الآيات الّتي تتلى على النّبيّ هي (**آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**) آيات اللّوح المحفوظ. أنزلها الله تعالى على النّبيّ وليس من البشر. ثمّ إنّ الرّسول (ﷺ) كان يحرص كلّ الحرص على إيمان النّاس فيتّعبه ذلك فقال له جلّ وعلا: (**لَعَلَّكَ**) قد إقتربت من أنّك (**بَاخِعٌ**) تقتل (**نَفْسَكَ**) تحسّراً وأسفاً على (**أَلّا يَكُونُوا**) هؤلاء مؤمنين فلا تحرص هذا الحرص ولا تتعب، هذا، ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّه لو أراد أن يجبر النّاس على الإيمان لأجبرهم على ذلك بالخوارق الكونيّة إلّا أنّ الله تعالى لا يجبر أحداً، بل جعل الاختيار بأيدي العباد؛ فمن آمن فله الأجر والثّواب والفضل من الله تعالى ومن لا؛ فله العذاب، ولولا هذا الاختيار لما كان للإيمان قيمة ولا للخير فضل

فقال جلّ وعلا: (**إِن نشَأْ**) إيمان النّاس كلّهم وجبرهم عليه (**نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً**) خارقةً (**فَظَلَّتْ**) فتظلّ (**أَعْنَاقُهُمْ لَهَا**) للآية (**خَاضِعِينَ**) فيؤمنون ولكن تركنا الاختيار لعقولهم ليظهر فضل من آمن واتّبع الحقّ بعقله وتفكيره واختياره على من ترك ذلك واتّبع هواه وشهواته ليتحقّق الثّواب والعقاب، وبهذا الاختيار أصبح النّاس منهم متّبعون للحقّ ومنهم معرضون؛ فقال تعالى في حقّ المعرضين: (**وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ**) من موعظة (**مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ**) جديد (**إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ**) غير متّبعين له وفي الآية إشارتان:

الأولى: أنّه قال تعالى من ذكر لأنّ ما يأتي به الرّسل ليس أمراً غريباً وبعيداً عن العقول، بل إنّما يأتون بما هو مركوز في الفطرة والعقول السّليمة بحيث لو نبّه أصحاب العقول وذكّروا به لقبلوه فوراً[1]، فهو تذكير لما غفل النّاس عنه ولكنهم يتركون هذا التّذكّر لغلبة الشّهوات أو الأطماع أو التّقليد عليهم؛ فيتركون ما تريده عقولهم لما يريده هواهم وشهواتهم.

الثّانية: قال (**مِّنَ الرَّحْمَنِ**) إشارة إلى أنّ هذا التّذكر مجرّد رحمة من الله تعالى فيدعوهم إلى ما يكون سبب سعادتهم في الدّارين وإلّا فلا حاجة بالله إليهم والله غني عن العالمين. ثمّ أنذرهم الله تعالى فقال جلّ وعلا: (**فَقَدْ كَذَّبُوا**) بهذا الذّكر (**فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء**) نتائج (**مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون**) من العذاب في الدّنيا والآخرة أو في أحدهما فقط.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّههم على دلائل قدرته وجلائل نعمته ليؤمنوا ويوحّدوا الله تعالى بالعبادة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

(**أَوَ لَمْ يَرَوْا**) أو لم ينظروا (**إِلَى الأَرْضِ**) فيروا (**كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ**) من كلّ صنف (**كَرِيمٍ**) حسن من النّباتات والأشجار فيتمتّعون ويتنعّمون بها (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) الخلق والإنبات (**لآيَةً**) لدليلاً على عظمة قدرة الله تعالى ووفور نعمته إلّا أنّهم لم تسقهم هذه القدرة وهذه النّعمة إلى الإيمان والتّوحيد حيث (**وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم**) مع وفور

(١) أو هو تذكير لهم بما بلغ به الأنبياء قبله من الإيمان والتوحيد والدين.

هذه النّعم والعلم بهذه القدرة (**مُؤْمِنِينَ**) بوحدة الله تعالى (**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ**) الغالب على أمره فلا يعجزه أحد ولا شيء عن أن يعجّل بعقوبتهم إلّا أنّه لا يعجّل حيث هو (**الرَّحِيمُ**) فيؤخّر العقوبة لكي يؤمنوا.

ثمّ ذكّرهم الله تعالى بقصّة سيّدنا موسى مع فرعون وقومه لكي يعتبروا ويتّعظوا بهم؛ فيحفظوا أنفسهم بالإيمان من أن يهلكوا كما هلكوا ويعذّبوا كما عذّبوا؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾

(**وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى**) وأمره (**أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**) في العقيدة لأنّهم عبدوا غير الله تعالى، وفي العمل حيث استعبدوا بني إسرائيل ويعذّبونهم بقتل أبنائهم واستحياء البنات ثمّ بيّن هذا القوم فقال: (**قَوْمَ فِرْعَوْنَ**) ائتهم وفرعون وعظهم وانظر (**أَلَا يَتَّقُونَ**) فيتركوا عبادة غير الله تعالى وظلم بني اسرائيل واستعبادهم. فاعتذر موسى عن تحمّل الرّسالة وحده وطلب أن يرسل معه هارون أخاه؛ كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾

(**قَالَ**) موسى (**رَبِّ**) يا ربّي حذف الياء وحرف النّداء للتّخفيف (**إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ**) أصله يكذّبونني، حذف نون الجمع بالنّصب بأن وحذف الياء للتّخفيف فصار (**يُكَذِّبُونِ**) بكسر النّون (**وَيَضِيقُ**) عطف على (**أَخَافُ**) فالتّقدير إنّي يضيق (**صَدْرِي**) حين الكلام (**وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي**) بالكلام لأنّ في لساني عقدة (**فَأَرْسِلْ**) برحمتك (**إِلَى هَارُونَ**) أن يكون رسولاً معي ويؤازرني (**وَلَهُمْ**) وللقوم (**عَلَيَّ ذَنبٌ**) دعوى ذنب حيث قتل قبطيّاً، وفي الحقيقة لم يكن ذنباً؛ لأنّ قتله له كان خطأً، والخطأ لا إثم فيه إلّا أنّهم اعتبروه ذنباً (**فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ**) قصاصاً، وأصل يقتلون يقتلونني فعمل فيه مثل ما عمل في يكذّبون، فأجابه الله جلّ وعلا:

﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾

(**قَالَ**) الله تعالى لموسى (**كَلاَّ**) لا يقتلونك فلا تخف وقد جعلت هارون رسولاً معك (**فَاذْهَبَا**) معاً (**بِآيَاتِنَا**) بمعجزاتنا (**إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ**) لأقواله فنمنعه من القول البذيء ونرى أفعاله فنمنعه من أن يؤذيكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ـ سورة طه الآية/٤٦. حذف وأرى هنا لأنّ السّامع يرى من يسمعه غالباً وعادة (**فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ**) لأنّه رئيس القبط ورأس الكفر والظّلم (**فَقُولا**) له (**إِنَّا**) كلّ واحد منّا (**رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) أرسلنا إليك وأمرك (**أَنْ أَرْسِلْ**) أطلق سراح (**مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**) ليذهبوا معنا إلى فلسطين فترتاح منهم ويرتاحوا منك، فامتثلا أمر الله تعالى وذهبا إلى فرعون وبلّغاه أمر الله تعالى ورسالته، فامتنع فرعون من الامتثال لهذا الأمر وكذّبهما في دعوى رسالتهما وخاطب موسى:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

(**قَالَ**) فرعون لموسى (**أَلَمْ نُرَبِّكَ**) وراعيناك (**فِينَا**) بيننا وكنت (**وَلِيدًا**) طفلاً صغيراً (**وَلَبِثْتَ**) وبقيت (**فِينَا**) في بيتنا كابن لي (**مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ**) والتّقدير وبقيت في بيتنا سنين من عمرك، فمن عمرك متعلق بسنين مقدّم عليه (**وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ**) وهو قتل قبطيّ (**وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ**) نعمتنا عليك وما شكرتها، فأجاب موسى فرعون كما يرويه لنا جلّ وعلا:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

(**قَالَ**) موسى لفرعون (**فَعَلْتُهَا**) الفعلة الّتي ذكرتها (**إِذًا**) فعلت (**وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**) المخطئين ولم أكن أتعمّد القتل (**فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ**) من أن تقتلوني (**فَوَهَبَ لِي رَبِّي**) بعد ذلك (**حُكْمًا**) شريعةً ونبوّةً (**وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ**) إلى النّاس لتبليغ دينه وشريعته، وإليك لترسل معي بني إسرائيل، ولنذهب بهم إلى فلسطين (**وَتِلْكَ**) إجابتك لأمر الله تعالى بإرسال بني إسرائيل (**نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا**) تمنّ بها (**عَلَيَّ أَنْ**) لأنّ الشّأن هو (**عَبَّدتَّ**) ذلك (**بَنِي إِسْرَائِيلَ**) استعبدتهم إلى الآن، فلو حرّرتهم وخلّيت سبيلهم للهجرة فهي نعمة تمنّها **عليّ**، هذا، وما قال المفسرون في معنى هذه الآية يخالف قول الله تعالى لموسى أوّل ما أرسله إلى فرعون (فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا).

فأجاب فرعون موسى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾

(قَالَ فِرْعَوْنُ) لموسى (عليه السلام) **(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)** الّذي تدعونا إليه **(قَالَ)** موسى هو **(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ)** إن كنتم تحاولون الإيقان في العلم بالحقائق، فإنّ السّماوات والأرض وما بينهما يكفي لأن تستدلّوا بها وتعترفوا بأنّ لهذا الكون خالقاً وهو ربّ كلّ شيء **(قَالَ)** فرعون **(لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ)** قوله؟ فإنّه أجاب بما هو نفس السّؤال**(قَالَ)** موسى بعد ذلك هو **(رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ)** كلّهم فيجب أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره **(قَالَ)** فرعون لقومه: **(إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ)** حسبما يدعي **(لَمَجْنُونٌ)** لأنّ كلّ جواباته هو نفس السّؤال أو بعض منه، فإنّ ربّ العالمين معناه ربّ السّماوات والأرض والنّاس ونحن وآبائنا الأوّلين، وأنا أسأله عن حقيقة الله تعالى ماهي، ولكن كان فرعون مجنوناً، لأنّ العقلاء متّفقون على أنّ حقيقة الله تعالى لا تدرك، وإنّما يعرف الله بصفاته وخَلقه وآثاره.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(قَالَ) موسى (عليه السلام) هو **(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ)** تعرفونه وتؤمنون به **(قَالَ)** فرعون لموسى **(لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)** حتّى تتوب أو تموت في السّجن.

فأجابه موسى (عليه السلام) كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

(قَالَ) موسى لفرعون **(أَوَ)** تسجنني أيضاً **(لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ)** بدليل **(مُّبِينٍ)** مثبت رسالتي ونبوّتي **(قَالَ)** فرعون **(فَأْتِ بِهِ)** بدليل **(إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)** في دعوى الرّسالة.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

(**فَأَلْقَى**) موسى (**عَصَاهُ**) على الأرض (**فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ**) حيّةً عظيمةً (**مُّبِينٌ**) واضح أمام النّاس تسعى وتتجوّل في السّاحة (**وَنَزَعَ يَدَهُ**) نزع ثوبه عن يده (**فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء**) يضيء كالسّراج (**لِلنَّاظِرِينَ**) إليها.

ثمّ لمّا أظهر موسى معجزتيه هاتين التفت فرعون إلى النّاس وخاطبهم كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

(**قَالَ**) فرعون (**لِلْمَلإِ**) الّذين التفّوا (**حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ**) بالسّحر (**يُرِيدُ أَن**) يسيطر عليكم و(**يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم**) هذه (**فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**) أن نفعل به، (**قَالُوا**) له (**أَرْجِهْ**) أصله أرجئه من الإرجاء بمعنى التأجيل، أي أجّله وأخاه إلى مدّة للمناقشة فحذفت الهمزة تحفيفاً فصار (**أَرْجِهْ وَأَخَاهُ**) فاجتمعت ثلاث حركات متوالية كسرة الجيم وضمّة الهاء وفتحة الواو، والقاعدة أنّه كلّما اجتمعت ثلاث حركات تسكّن الوسط منها جوازاً وتخفيفاً، فسكّنت الهاء فصار (**أَرْجِهْ وَأَخَاهُ**)، (**وَابْعَثْ**) في هذه المدّة (**فِي الْمَدَائِنِ**) جمع مدينة (**حَاشِرِينَ**) رجالاً يحشرون ويجمعون السّحرة فإذا فعلت ذلك (**يَأْتُوكَ**) هؤلاء الحاشرون (**بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ**) بالسّحر فيعارضوه ويبطلوا سحره ويفضحوه.

ثمّ أخذ فرعون بما أشاروا عليه، فأرسل النّاس إلى البلاد لجمع السّحرة ففعلوا، وأتوا بهم كما قال جلّ علا:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

(**فَجُمِعَ السَّحَرَةُ**) كلّهم (**لِمِيقَاتِ**) في ميقات (**يَوْمٍ مَّعْلُومٍ**) وهو وقت الضّحى في يوم العيد (**وَقِيلَ لِلنَّاسِ**) فنودي فيهم (**هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ**) أي اجتمعوا، فالاستفهام كان

للأمر (**لَعَلَّنَا**) لكي نحن (**نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ**) دون موسى (**إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ**) على موسى.

ثمّ لمّا اجتمع عليه السّحرة في ساحة المسابقة جاؤوا فرعون وسلّموا عليه وقالوا له كما يرويه لنا جلّ وعلا:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

(**فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ**) فرعون (**قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا**) من عندك (**لَأَجْرًا**) لجائزةً (**إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ**) على موسى (**قَالَ نَعَمْ**) إنّ لكم لأجراً (**وَ**) زيادة على الأجر (**إِنَّكُمْ إِذًا**) إذا غلبتم (**لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**) إليّ.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(**قَالَ لَهُم مُّوسَى**) بعد أن تساءلوا أيّهم يلقي ما لديه قبلُ (**أَلْقُوا**) أنتم قبلي (**مَا أَنتُم مُّلْقُونَ**) من سحركم (**فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ**) جمع حبل (**وَعِصِيَّهُمْ**) جمع عصا، فتحولّت الحبال والعصيّ كالحيّات (**وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ**) نقسم (**إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ**) على موسى.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

(**فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ**) تبلع (**مَا يَأْفِكُونَ**) ما يخيّلون إلى النّاس من أنّ الحبل والعصيّ أصبحت حيّات كذباً، لأنّها لم تصبح حيّات وإنّما موّهوها بمادة كالزّئبق فحرّكتها فتخيّل النّاس أنّها أصبحت حيّات ولم تصبح حيّات (**فَأُلْقِيَ**) ألقت معجزة موسى هذه وهداية الله تعالى (**السَّحَرَةُ**) على الأرض (**سَاجِدِينَ**) لله (**قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) ودفعاً للوهم قالوا: (**رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**) لكي لا يتوهّم أنّهم أرادوا فرعون.

ثمّ لمّا رأى فرعون ذلك غضب على السّحرة وهدّدهم كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾

(**قَالَ**) فرعون للسّحرة (**آمَنتُمْ**) استسلمتم (**لَهُ**) لموسى (**قَبْلَ أَنْ آذَنَ**) نادى (**لَكُمْ**) وطلب منكم الإيمان، فتبيّن بهذا وعلم (**إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**) وأستاذكم وتآمرتم، فأرسلتموه ليدّعي النّبوة فتأتوا وتصدّقوا ادّعاءه لتستولوا على البلاد والعباد بمكيدتكم هذه (**فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**) عقابي لكم. ثمّ بيّن العقاب فقال تعالى: (**لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ**) اليد اليمنى والرّجل اليسرى (**وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ**) على النّخل (**أَجْمَعِينَ**) كلّكم.

ثمّ يروي لنا الله تعالى إجابة السّحرة لفرعون وكان جواباً رادعاً كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

(**قَالُوا لا ضَيْرَ**) لا ضرر علينا إن قتلتنا حيث بعد قتلك إيانا (**إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ**) فنستريح حيث (**إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا**) كل (**خَطَايَانَا**) الّتي ارتكبناها بسبب (**أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ**) من جماعتك بموسى فندخل الجنّة وهي خير وأبقى من الدّنيا، وهذا ربحنا وسعادتنا.

ثمّ بعد أن اشتدّ الصّراع بين موسى وأتباعه وبين فرعون وضاق ببني إسرائيل الأمر، أمر الله تعالى موسى أن يرحل هو وبنو إسرائيل ليلاً وخفيةً إلى فلسطين، كما قال جلّ وعلا:

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى**) وأمرناه (**أَنْ أَسْرِ**) إذهب ليلاً (**بِعِبَادِي**) وهم المؤمنون، فإذا

ذهبت (**إِنَّكُم**) بعد ذلك (**مُّتَّبَعُونَ**) يتبعكم فرعون بجنوده فتنجون أنتم وهم يهلكون كلّهم، فامتثل موسى (ﷺ) الأمر وخرج هو وأتباعه ليلاً، فلمّا سمع النّاس خروجهم أخبروا فرعون بذلك (**فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ**) فوراً (**فِي الْمَدَائِنِ**) متعلّق بما بعده أي أرسل (**حَاشِرِينَ**) النّاس في المدائن، وقال فرعون لقومه وجيشه ومن جمعوهم: (**إِنَّ هَؤُلاءِ**) موسى وأتباعه (**لَشِرْذِمَةٌ**) لجماعة (**قَلِيلُونَ**) الآن (**وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ**) وإنّهم لفاعلون ما يغيظنا، حيث خرجوا بدون أمرنا (**وَإِنَّا لَجَمِيعٌ**) لكثير (**حَاذِرُونَ**) يقظون، نخاف عواقب الأمور، فربّما يشكلّون هؤلاء قوّةً يضربوننا، بها فلنتبعهم ولنستأصلهم قبل أن يستفحل أمرهم ويصعب علينا إهلاكهم، فوافقوا قوله فخرجوا كما قال جلّ وعلا:

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩﴾

(**فَأَخْرَجْنَاهُم**) بهذا التّقدير من البلدة وأهلكناهم وحرّمناهم (**مِّن جَنَّاتٍ**) كثيرة ومثمرة (**وَعُيُونٍ**) جارية عذبة المياه (**وَكُنُوزٍ**) من الأموال (**وَمَقَامٍ**) ومجلس (**كَرِيمٍ**) كانوا يكرمون فيه (**كَذَٰلِكَ**) فعلنا مثل ما قلنا (**وَأَوْرَثْنَاهَا**) هذه المذكورات كلّها فيما بعد (**بَنِي إِسْرَائِيلَ**) وأعطيناهم إيّاها فاستولوا على فلسطين ومصر بعد وحكموها مدّة مديدة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يفصل كيفيّة إهلاكهم فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾

(**فَأَتْبَعُو**) فاتّبع فرعون وجيشه (**هُم**) بني إسرائيل (**مُّشْرِقِينَ**) وقت دخولهم في شروق الشّمس (**فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ**) رأى كلّ جمع الآخر (**قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**) أدركنا فرعون وجنوده وخافوا بطشهم (**قَالَ**) موسى لهم (**كَلا**) إنّهم لا يدركوننا حيث إنّ (**إِنَّ مَعِيَ رَبِّي**) بالنّصر(**سَيَهْدِينِ**) طريق النّجاة وأنّهم مهلكون.

ثمّ كان الأمر كما قال موسى، وأراهم الله تعالى طريق السّلامة كما ذكر فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ

أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

(**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى**) وأمرناه (**أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ**) فضربه (**فَانفَلَقَ**) فانشق البحر وأصبح فرقين بينهما طريق يابس (**فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ**) كالجبل (**الْعَظِيمِ**) فدخل موسى وأتباعه بين الفرقين ومضوا (**وَأَزْلَفْنَا**) وقرّبنا (**ثَمَّ**) من ذلك المكان (**الآخَرِينَ**) وهم فرعون وأتباعه، فلمّا رأوا الشقّ دخلوه (**وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ**) حيث عبّر كلّهم قبل أن ينطبق شقّا البحر (**ثُمَّ**) بعدما وصل موسى وقومه شاطىء السّلامة (**أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ**) حيث انطبق عليهم شقّا البحر قبل أن يصلوا إلى الشّاطىء (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) القصص الّذي ذكرنا من حال فرعون وموسى وأتباعهما (**لآيَةً**) لعبرةً ولدليلاً على نصر الله تعالى المؤمنين إن استقاموا، وخذلان أعدائهم ومع علم القوم بهذه العبرة ما اعتبروا حيث (**وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**) برسول الله (ﷺ) (**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ**) المقتدر على أن يهلكهم كما أهلك قوم فرعون ولكنّه هو (**الرَّحِيمُ**) ولذلك صبر عليهم إلى أن يأتي أجلهم الموعود.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى نبذة من حال موسى (عليه السلام) أراد أن يذكر نبذة من حال إبراهيم (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ**) خبر (**إِبْرَاهِيمَ**) سيّدنا إبراهيم عليه السلام (**إِذْ قَالَ**) وقتما قال: (**لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا**) شيء (**تَعْبُدُونَ**) تقدّسون وتعظّمون وترجون منه الخير ودفع الشّر أو رفعه (**قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ**) نبقى (**لَهَا عَاكِفِينَ**) عابدين.

ثمّ أراد إبراهيم (عليه السلام) أن يبرهن على بطلان هذه الآلهة فخاطبهم كما ذكر لنّا ذلك الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

(**قَالَ**) إبراهيم (عليه السلام) لقومه (**هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ**) هؤلاء الأصنام (**إِذْ تَدْعُون**) إياهم وتنادونهم (**أَوْ يَنفَعُونَكُمْ**) شيئاً (**أَوْ يَضُرُّونَ**) شيئاً (**قَالُوا**) لا يسمعون ولا ينفعون ولا يضرّون ولا نعبدهم لذلك (**بَلْ**) نعبدهم حيث (**وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ**) مثل مانفعل من عبادتهم (**يَفْعَلُونَ**) فتقليداً لهم عبدناهم وعظمناهم.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

(**قَالَ**) إبراهيم (عليه السلام) (**أَفَرَأَيْتُم مَّا**) الآلهة الّتي (**تَعْبُدُونَ**) إيّاها (**أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ**) كلّهم ممّن عبد الأصنام (**فَإِنَّهُمْ**) تلك الأصنام (**عَدُوٌّ**) مكروهون (**لِّي**) ومرفوضون عندي (**إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ**) لأنّهم كانوا يعتقدون بالله ويعبدونه، إلّا أنّهم كانوا يشركون به فالإستثناء متّصل.

ثمّ أراد الله أن يصف ربّ العالمين بأوصاف تأبى أن يعبد غيره؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

(**الَّذِي خَلَقَنِي**) هو ولم يخلقني غيرُه (**فَهُوَ**) لا غيره (**يَهْدِينِ**) إلى ما ينفعني ويضرّني من أمور الدّنيا والدّين (**وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ**) لا غيره (**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**) وحده (**وَالَّذِي يُمِيتُنِي**) حينما جاء أجلي (**ثُمَّ يُحْيِينِ**) ما قدر لي من العمر (**وَالَّذِي أَطْمَعُ**) آمل منه (**أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي**) ذنوبي (**يَوْمَ الدِّينِ**) ولا آمل المغفرة من غيره فهذه الصّفات كلّها تدعو إلى أن يعبد هو وحده ولا يشرك به غيره أبداً.

ثمّ بعدما أيس من القوم وعلم أنّه لا ينفعهم النّصح ولا يؤثّر فيهم كلّ دليل توجّه إلى الله تعالى بالتّضرّع فقال جلّ وعلا:

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى

ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا) علماً بالأحكام (**وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**) وهم الأنبياء (**وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ**) ثناءً حسناً (**فِي الآخِرِينَ**) الّذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة (**وَاجْعَلْنِي**) فرداً (**مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ**) يوم القيامة (**وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ**) عن الدّين الحقّ والصّراط المستقيم (**وَلا تُخْزِنِي**) ولا تلحق بي ما أستحي منه (**يَوْمَ يُبْعَثُونَ**) النّاس كلّهم وهو يوم القيامة.

ثمّ أراد الله أن يذكر بعض أوصاف يوم القيامة وحال النّاس فيه فقال جلّ وعلا:

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

(**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ**) وإن صرف في الخير ووجوه البرّ (**وَلا بَنُونَ**) وإن كانوا صالحين فلا ينفع كلّ ذلك (**إِلّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**) عن الكفر والإشراك بالله، فقبول الخيرات وشفاعة الأولاد أو الآباء أو الأمّهات أو الرّجال الصّالحين كلّ ذلك مشروط بوجود الإيمان والتّوحيد، فمن لا إيمان له أو له الشّرك فلا يقبل خيراته وحسناته ولا تقبل الشّفاعة له (**وَأُزْلِفَتِ**) وقربت في ذلك اليوم (**الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ**) من قبيل عرضت النّاقة على الحوض، فالمعنى قرب المتّقون من الجنّة فيرونها بدليل قوله تعالى: (**وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ**) وأظهرت لهم النّار (**وَقِيلَ لَهُمْ**) حينما رأوا الجحيم وعلموا أنّهم يدخلونها (**أَيْنَ مَا**) الرّؤساء والكبراء ودعاة المبادىء الضّالة الّذين (**كُنتُمْ تَعْبُدُونَ**) إيّاهم أي تطيعونهم (**مِن دُونِ اللَّهِ**) فيما يخالف أمر الله وشريعته (**هَلْ يَنصُرُونَكُمْ**) اليوم فينقذونكم (**أَوْ يَنتَصِرُونَ**) وينجون من النّار؟ كلّا (**فَكُبْكِبُوا**) جمع دعاة الضّلال والآمرون بخلاف ما شرع الله تعالى فألقوا (**فِيهَا**) في الجحيم (**هُمْ**) كلّهم (وَ) أتباعهم (**الْغَاوُونَ**) الضّالون (**وَجُنُودُ إِبْلِيسَ**) وهم كلّ من ينصر الباطل على الحقّ أو يؤيده (**أَجْمَعُونَ**) مجتمعين النّار.

ثمّ حينما اجتمعوا كلّهم في النّار يختصم بعضهم بعضاً كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

(**قَالُوا**) قال أهل النّار (**وَهُمْ فِيهَا**) في النّار (**يَخْتَصِمُونَ**) يختصم ويسبّ بعضهم بعضاً (**تَاللَّهِ إِن**) قد (**كُنَّا**) في الدّنيا (**لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**) لذا حقّ علينا هذا العذاب (**وَمَا أَضَلَّنَا**) عن الحقّ والتّوحيد والعمل بالإسلام (**إِلّا الْمُجْرِمُونَ**) أشاروا إلى سادتهم ودعاة الضّلال والإنحراف عن شريعة الله تعالى (**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ**) يشفع لنا (**وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**) حزّ وصادق في صداقته (**فَلَوْ**) فليت (**أَنَّ لَنَا كَرَّةً**) رجوعا إلى الدّنيا (**فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) المنقدين لدين الله وشريعته.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) ما ذكر من أقوال إبراهيم وما بعده من زواجر الآيات (**لآيَةً**) لعبرة لمن اعتبر، ولكن قلّ المعتبرون حيث (**وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم**) أكثر النّاس (**مُّؤْمِنِينَ**) منقادين لأوامر الله تعالى ودينه (**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ**) القادر على الانتقام منهم فوراً إنّه هو (**الرَّحِيمُ**) فرحم بهم وأخّر عذابهم لعلّهم يتذكّرون.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من حال نوح مع قومه فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾

(**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ**) كلّهم، وإنّهم كذّبوا نوحاً فقط، ولكن حيث إنّ دعوة الرّسل كلّهم واحدة وهو توحيد الله والعمل بشريعته، اعتبر تكذيب رسول واحد تكذيباً بجميع الرّسل (**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ**) في البشريّة والقوميّة وهو (**نُوحٌ**) حيث قال لهم: (**أَلَا تَتَّقُونَ**) الله تعالى فتوحّدوه وتعملوا بشريعته فقط (**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ**) من الله تعالى (**أَمِينٌ**)

فلا أخونكم فلا أقول لكم إلّا ما قال الله تعالى: **(فَاتَّقُوا اللَّهَ)** فاتّقوا عذاب الله، وحيث لا يكون الاتّقاء من العذاب إلّا بالاتّقاء من المعاصي، ولا تعرف المعاصي إلّا من الرّسول قال: **(وَأَطِيعُونِ)** فيما آمركم به وأنهاكم عنه، فبذلك يكون الاتّقاء من عذاب الله تعالى، فيفيد مثل هذه الآيات أنّ إطاعة الله تعالى وتقواه لا يكون إلّا بالسّير على سنّة الرّسول ووفق ما بلّغه ووضّحه لنا. ثمّ برّأ نوح نفسه عن تهمة طمع المال من هذه الدّعوة فقال: **(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ)** على هذا التّبليغ **(مِنْ أَجْرٍ)** من مال **(إِنْ)** ما **(أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)**. وحينما لا أريد من هذا التّبليغ أجراً ولا طمعاً، فاعلموا أنّي صادق، ولذا **(فَاتَّقُوا اللَّهَ)** اتّقوا عذابه باجتناب معاصيه **(وَأَطِيعُونِ)** أصله أطيعوني أي لأرشدكم وأعلّمكم كيفيّة التّقوى والإطاعة لله تعالى، فأجابه قومه بالإباء والاستكبار كما قال جلّ وعلا:

﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾

(قَالُوا) قال رؤساء القوم **(أَنُؤْمِنُ)** أنقاد **(لَكَ)** يانوح **(وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ)** وهم فقراء القوم وكسبتهم من العمال وأهل الحرف، وقالوا: هؤلاء سفلة وليس لهم أعمال صالحة، وأرادوا بذلك دسيسةً وهي أن يطرد الفقراء فتشوّه سمعة الدّعوة فيرجع عنها النّاس وهم لا يتّبعون **(قَالَ)** نوح **(وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** هؤلاء إنّما أنا انظر إلى ظاهرهم وهم مؤمنون ثمّ **(إِنْ)** ما **(حِسَابُهُمْ)** على أعمالهم الباطنة إن وجدت **(إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ)** حكم الله لما قلتم هذا القول **(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ)** من عندي **(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)** واضح الإنذار فمن اتّبع الإنذار وآمن لا أقدر أنا على طرده. فلمّا اشتدّ الصّراع بين نوح وقومه هدّدوه **(قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ)** عن هذه الدّعوة وبقيت تدعو النّاس إلى هذا الدّين **(يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)** من المقتولين فنقتلك ومن معك وهذا آخر ما نجيبك به.

ثمّ لمّا رأى نوح من قومه هذا التّهديد ويئس من إيمانهم توجّه إلى الله متضرّعاً كما ذكر جلّ وعلا:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

(**قَالَ**) نوح (رَبِّ **إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ**) أصله كذّبوني حذفت الياء للفاصلة، أراد أنّهم كذّبوه تكذيباً لا أمل في إيمانهم قطّ (**فَافْتَحْ**) المشكلة وحلّ النّزاع (**بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا**) حلاً سريعاً فإنّه فقد صبري (**وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) من شرّهم وإيذائهم (**فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**) المملوء بالنّاس والدّواب (**ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ**) غيرهم بطوفان أتينا به عليهم (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**) قد مرّ تفسيره (**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**) قد ذكرنا معناه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال هود مع قومه فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

(**كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ**) قد مضى تفسير هذه الآيات في قصّة نوح.

ثمّ قال هود لقومه بعد هذه النّصائح كما قال جلّ وعلا:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾

(**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ**) بكلّ مكان مرتفع (**آيَةً**) بناء على قوّتكم وجبروتكم (**تَعْبَثُونَ**) تلعبون بالنّاس وتتكبّرون عليهم (**وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ**) للحرف (**لَعَلَّكُمْ**) ترجون بذلك أنّكم

(**تَخْلُدُونَ**) في الدّنيا وتتفكّرون في الآخرة أبداً، فلا لوم في صنع المصانع وإنّما اللّوم جاء على صنعها مع عدم الإيمان بالآخرة (**وَإِذَا بَطَشْتُم**) بالنّاس (**بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**) مفرطين في البطش (**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**) معناه قد مرّ (**وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم**) قواكم وأنعم عليكم (**بِأَنْعَامٍ**) جمع (**نِعم**) وهو الإبل والبقر والضّأن والمعز فأعطاكم منها بكثرة (**وَبَنِينَ**) كثيرين (**وَجَنَّاتٍ**) كثيرةٍ مثمرةٍ (**وَعُيُونٍ**) جاريةٍ عديدةٍ (**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ**) إن لم تتّقوا الله ولا تطيعوني أن يرسل الله عليكم (**عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) فيهلككم كما أهلك قوم نوح قبلكم فأجابه قومه كما ذكر ذلك جلّ وعلا:

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

(**قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ**) فإنّا لا نتّبعك ولا نؤمن بك وبما جئت به حيث (**إِنْ**) ليس (**هَذَا**) الّذي جئت به (**إِلَّا خُلُقُ**) افتراءات وخرافات (**الأَوَّلِينَ**) من النّاس (**وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**) لا حياة بعد الموت ولا حساب فلا عذاب للنّاس أبداً (**فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ**) كلّهم بالرّيح الصّرصر العاتية (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**) مر تفسيرُ ذلك آنفا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال صالح مع قومه فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

قد مضى تفسير مثل هذه الآيات آنفاً. ثمّ نصحهم صالح وقال لهم كما قال جلّ وعلا:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

(**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا**) في النّعم الموجودة (**هَاهُنَا آمِنِينَ**) من عذاب الله تعالى وأنتم فيما أنتم فيه من الكفر والمعاصي، ثمّ بين تلك النّعم وعددها عليهم فقال: (**فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ**) ومزارع (**وَنَخْلٍ طَلْعُهَا**) الطّلع للنّخل كالعنقود للكرم (**هَضِيمٌ**) ليّن حلو لذيذ (**وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا**) تحصّناً من الأعداء (**فَارِهِينَ**) فرحين بها كأنّها تحفظكم من كلّ عذاب (**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**) سادتكم (**الْمُسْرِفِينَ**) المتجاوزين كلّ شريعة وإنصاف وعدل (**الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ**) بنشر العقائد الفاسدة والأحكام الجائرة والفسق والمعاصي (**وَلا يُصْلِحُونَ**) بنشر دين الله والعدل والإنصاف والقيم الإنسانيّة والأخلاق الرّبانية، فأجابه قومه بكلّ وقاحة وسفه في الكلام:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾

(**قَالُوا**) يا صالح (**إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**) سحروك السّحرة فأصبحت مجنوناً (**مَا أَنتَ إِلّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا**) ولا فضل لك علينا حتّى تصبح رسولاً إلينا (**فَأْتِ بِآيَةٍ**) بمعجزة تصدّقك (**إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**) في دعواك، فأجابهم صالح (عليه السلام) كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾﴾

(**قَالَ**) فضرب صالح صخرة فأخرج منها ناقةً كبيرةً ثمّ قال لهم: (**هَٰذِهِ نَاقَةٌ**) أخرجتها لكم بإذن الله تعالى دليلاً على صدقي (**لَّهَا شِرْبٌ**) يوم معين من مائكم لا تشربون أنتم منها في يومها ولا تسقون مواشيكم منها (**وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ**) معيّن لا تأتي إلى الماء في ذلك اليوم، فقسّم الماء بين القوم والنّاقة لكلّ منهما يوم (**وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ**) فتمنعوها من الماء في يومها أو تعقروها (**فَيَأْخُذَكُمْ**) بسبب مسّها (**عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) فتهلكوا كما هلك من قبلكم، فمرّت على هذه الطّريقة أيام.

ثمّ لم يصبر القوم على النّاقة لقلّة مائهم بل مسّوها كما قال جلّ وعلا:

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

(**فَعَقَرُوهَا**) عقرها أحدهم برضا الجميع (**فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ**) على عقرها حيث (فـ) بعد عقرها (**أَخَذَهُمُ الْعَذَابُ**) فأهلكوا (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**) لقد سبق تفسيرها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال لوط مع قومه فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾

قد مرّ تفسير مثل هذه الآيات فلا نعيده، ثمّ نصحهم لوط ونهاهم عمّا هم فيه من الفساد فقال كما ذكر جلّ وعلا:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾

(**أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ**) الذّكور (**مِنَ الْعَالَمِينَ**) من النّاس وتعملون اللّواطة بهم (**وَتَذَرُونَ**) الله تعالى (**مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ**) للتمتع (**مِنْ أَزْوَاجِكُم**) الحلائل، فأنتم بهذا العمل ما جاوزتم حدود الله تعالى فقط (**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ**) متجاوزون حدود الإنسانيّة والفطرة والعقل السّليم أيضاً (**قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ**) من هذه الدّعوة واستنكار ما نحن فيه (**لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ**) من هذه القرية فنخرجك أنت ومن معك من الأتباع.

فلمّا يئس لوط منهم تبرّأ منهم وتضرّع إلى الله تعالى كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

(**قَالَ**) لوط لقومه (**إِنِّي لِعَمَلِكُم**) هذا (**مِّنَ الْقَالِينَ**) من الباغضين (**رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي**

مِمَّا) من عذاب ما (**يَعْمَلُونَ**) فإنّه لاقيهم حتماً (**فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ**) لم يهلك منهم أحد (**إِلَّا عَجُوزًا**) إمرأةً وهي زوجة لوط كانت (**فِي الْغَابِرِينَ**) الباقين مع القوم لأنّها كانت كافرة فأهلكت معهم (**ثُمَّ**) بعد أن نجّى لوط وأهله وخرجوا من القرية (**دَمَّرْنَا الآخَرِينَ**) كلّهم (**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا**) من الحجارة (**فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**) بالعذاب من الله تعالى (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**) راجع ما سبق من تفسيرها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر قصّة شعيب (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

راجع تفسير مثلها سابقاً. ثمّ نهى شعيب قومه عن المعاصي الّتي فشت فيهم فقال جلّ وعلا:

﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾

(**أَوْفُوا الْكَيْلَ**) كلوا للنّاس ما تعطوهم وافياً لا ناقصاً (**وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ**) النّاس أموالهم وحقوقهم (**وَزِنُوا**) ما تسلمون (**بِالْقِسْطَاسِ**) بالميزان (**الْمُسْتَقِيمِ**) وزناً تاماً (**وَلا تَبْخَسُوا**) ولا تنقصوا (**النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلا تَعْثَوْا**) ولا تفسدوا (**فِي الأَرْضِ**) حال كونكم (**مُفْسِدِينَ**) متعمدّين الفساد (**وَاتَّقُوا**) عذاب الله تعالى (**الَّذِي خَلَقَكُمْ**) جميعاً (**وَ**) خلق (**الْجِبِلَّةَ**) الخليقة (**الأَوَّلِينَ**) السّابقين عليكم. فأجابه قومه:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾

(**قَالُوا**) لشعيب (**إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**) سحرت فجننت (**وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا**)

لا فضل لك علينا (**وَإِن**) وإنّ الشّأن أنّا (**نَّظُنُّكَ لَمِنَ**) لفرداً[1] (**الْكَاذِبِينَ**) في دعوى الرّسالة (**فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا**) قطعاً (**مِّنَ السَّمَاء**) فعذّبنا بها (**إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**) في دعوى رسالتك، فإنّ الرّسول مستجاب الدّعاء، فادع بالعذاب كما قلنا فأجابهم شعيب (عليه السلام) كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾

(**قَالَ**) شعيب لقومه إنّ (**رَبِّي أَعْلَمُ**) متى (**بِمَا تَعْمَلُونَ**) من المعاصي فهو ينتقم منكم لا أنا، فإنّي ليس في قدرتي شيء (**فَكَذَّبُوهُ**) فاستمرّوا على تكذيبه (**فَأَخَذَهُمْ**) فأصابهم (**عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ**) وهو أنّهم تأخّر عليهم المطر وازداد عليهم الحرّ، فرأوا سحاباً قد أظلّ على الأرض، فاستبشروا به فذهبوا إلى الظلّ، فأنزل الله تعالى عليهم ناراً من هذه الظلّة فأحرقتهم كلّهم (**إِنَّهُ**) إنّ هذا العذاب (**كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) حذرهم شعيب منه فما صدّقوه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

معاني هذه الآية واضحة فلذلك لم نتطرق إلى تفسيرها.

تنبيه: قد تبيّن من القصص والآيات السّابقة أمور:

الأوّل: إنّ دعوة الرّسل واحدة، فإنّ كلّ رسول كان يدعو إلى توحيد الله بالعبادة وعدم عبادة ما سواه، وإلى العمل بشريعته وترك العمل بشريعة أخرى، وينهى عن المعاصي الّتي فشت في أمّته.

الثّاني: إنّ إطاعة الله تعالى لا يمكن إلّا بإطاعة الرّسول واتّباع شريعته، لأنّه هو المبلّغ عن الله تعالى.

الثّالث: إنّه يجب الرّجوع في كلّ أمر إلى كتاب الله وسنّة رسوله وإنّ ما خالفهما يجب أن يترك ويضرب به عرض الحائط.

---

(١) أي من أفراد الكاذبين.

الرّابع: إنّ أجوبة الكفّار كلّهم كانت متشابهة تنبئ عن الإستعلاء والاستكبار واتّباع الشّهوات ومنافع الدّنيا، فالكفر ملّة واحدة، والإسلام واحد وهو دين الله من الأزل إلى الأبد وبه جاء الرّسل كلّهم.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الأنبياء السّابقين مع قومهم أراد أن يذكر حال الرّسول (ﷺ) مع قومه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾

(**وَإِنَّهُ**) وإن هذا القرآن (**لَتَنزِيلُ**) لمنزّل من (**رَبِّ الْعَالَمِينَ**) لي ـ أخذ منه النّاس تربيتهم (**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ**) نزل به جبريل (ﷺ) (**الأَمِينُ**) فلم يغيّر منه شيئاً ولم يخلط به شيئاً بل نزل به كما أمر (**عَلَى قَلْبِكَ**) يا محمّد (**لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**) فتنذر النّاس بالعذاب بسبب ما هم فيه من الشّرك والإبتعاد عن منهج الله تعالى وشريعته عقيدةً وأحكاماً (**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**) واضح غير خفيّ معناه عن أهل العربيّة (**وَإِنَّهُ**) أي القرآن والإخبار عن نزوله (**لَفِي زُبُرِ**) الكتب (**الأَوَّلِينَ**) كالتّوراة والإنجيل موجود (**أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ**) للنّاس (**آيَةً**) دليل على صدق القرآن وإنّه من الله تعالى (**أَن يَعْلَمَهُ**) أن يعلم أخباره وإنّه يأتي، وإنّه هو فيعلم كلّ ذلك (**عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ**) كلّهم، فآمن منهم من كان يحبّ الحقّ والإنصاف، وكفر منهم من اتّبع الهوى والحسد ومنافع الدّنيا.

ثمّ بيّن الله تعالى سبب نزول القرآن بالعربيّ، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

(**وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ**) أي نزّلنا القرآن (**عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ**) وبلّغتهم (**فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم**) وشرحه لهم شرحاً واضحاً (**مَّا كَانُوا**) أي لم يكن العرب (**بِهِ مُؤْمِنِينَ**) أبداً لكثرة العصبيّة وترسّخها في قلوبهم هذا.

ومع أنّه أخبر وشهد به أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ومخيريق وغيرهما ممّن

أسلم منهم، ومع كونه عربيّاً واضحا نزل على عربيّ أصيل منهم، لم يؤمنوا بل كفروا به كما قال جلّ وعلا:

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

(**كَذَلِكَ**) مثل ما ترى (**سَلَكْنَاهُ**) أدخلناه أي أدخلنا شيئاً (**فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ**) المترسّخين في الإجرام، فالضّمير في سلكناه راجع إلى مبهم يفسره قوله تعالى: (**لا يُؤْمِنُونَ بِهِ**) أدخلنا في قلوبهم عدم الإيمان بسبب إجرامهم فلا يؤمنون به (**حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ**) ونزل بهم (**فَيَأْتِيَهُم**) العذاب (**بَغْتَةً**) فجأة (**وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**) بمجيئه (**فَيَقُولُوا**) حينئذٍ (**هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ**) مؤجّلون بعض الوقت لنؤمن فيقال لهم: كلّا. وقد أجّلتم كثيراً كثيراً فما آمنتم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.

ثمّ كان المشركون كلّما بلّغهم الرّسول (ﷺ) بعذاب الله تعالى يقولون: إلى متى توعدنا بالعذاب يا محمّد؟ ومتى هذا العذاب؟ استهزاءً فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

(**أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ**) استهزاءً واغترّوا بماهم فيه من التّمتّع بالنّعم واللّذات (**أَفَرَأَيْتَ**) فأخبرني (**إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ**) إلى آخر الدّنيا (**ثُمَّ جاءهُم**) أمرنا بالعذاب فعذّبوا (**مَّا**) استفهاميّة أي فأيّ شيء (**كانوا يوعدون**) من العذاب (**مَا أَغْنَى**) دفع (**عَنْهُم**) شيئاً من العذاب (**مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**) والجواب لا يدفع عنهم ذلك شيئاً، فليتمتّعوا ما شاؤوا، فإنّهم يأتيهم العذاب، قال يحيى بن معاذ: أشدّ النّاس غفلةً من اغترّ بحياته والتذّ بمراداته وسكن إلى مألوفاته، والله تعالى يقول: أفرأيت إن متّعناهم ..... إلخ الآيات. ثمّ ذكر الله تعالى سبب تأخير عذابهم فقال جلّ وعلا: (**وَمَا أَهْلَكْنَا**) وعذّبنا أهل (**مِن**) أهل (**قَرْيَةٍ**) قطّ (**إلّا لَهَا مُنذِرُونَ**) بلّغوهم وأنذروهم (**ذِكْرَى**) وذكّروهم ووعظوهم ذكرى كثيرة إلى أن يئسوا وحقّ القول عليهم؛ فحينئذٍ أتينا بالعذاب (**وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ**) في

إهلاكهم حيث ذكرناهم وصبرنا عليهم كثيراً فلم يتذكّروا ولم يتّعظوا، بل استكبروا وتمادوا في الكفر والضّلال.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ هذا القرآن تنزّل به الرّوح الأمين أشار إلى الرّد على قول الكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

(**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ**) بالقرآن على قلب محمّد (**الشَّيَاطِينُ**) كما يقول: الكافرون، حيث كانوا يقولون: إنّ هذا القرآن أتى به الجِنّة إلى محمّد؛ فمحمّد كاهن أو مجنون، وهذا كلام الجنّ يتلوه (**وَمَا يَنبَغِي**) وما يمكن (**لَهُمْ**) للشّياطين أن يفعلوا ذلك (**وَمَا يَسْتَطِيعُونَ**) وما يقدرون على ذلك أبداً حيث (**إِنَّهُمْ عَنِ**) الصّعود إلى السّماء ثمّ (**السَّمْعِ**) فيها والإنزال بما سمعوا منها (**لَمَعْزُولُونَ**) لممنوعون، فإنّه كان قبل بعثة الرّسول (ﷺ) يصعد الجنّ إلى السّماء فيسمعون بعض الأخبار ويأتون بها إلى الكهنة وهم يخبرون بها، فلمّا بعث الرّسول (ﷺ) منعوا من ذلك كما قال تعالى حكاية عن قول الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا*﴾ سورة الجن الآيتان (٨،٩). فكلّ من صعد إلى السّماء من الجنّ ليصيبه قبس من النّار فتحرقه فوراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ*﴾ سورة الصافات الآية (٦-١٠) ـ ـ.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى دعايات الكافرين ضدّ الرّسول (ﷺ) ووشاياتهم وافتراءاتهم، أمر الله تعالى أن يثبت على دعوته، وأن لا يثنيه عن المضيّ فيها كلّ دعاية ووشاية، وأنّ الله سينصره حتماً فقال جلّ وعلا:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ

﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

(فَلا تَدْعُ) فلا تعبد ولا تستعن **(مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)** إنّ هذا الخطاب للأمّة ودعاتها، لأنّ الرّسولﷺ معصوم إلّا أنّه خوطب بها النّبيﷺ إشارة إلى أنّ كلّ من دعا غير الله تعالى يكون معذّباً وإن كان الدّاعي شخص الرّسول (ﷺ) **(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)** الأقربين منك وهم: بنو هاشم وأعمامه وعماته وبناته. فلمّا نزلت هذه الآية صعد الرّسول (ﷺ) على الصّفا وقال:(يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبدالمطلب لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفيّة عمّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً[١] (رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة) "كما في الخازن". وهذه الآية تدلّ على: أنّ الواجب على الداعيّة أن يسعى ليصلح ويهدي أهله وأقاربه ثمّ الأقرب فالأقرب، لا كبعض دعاتنا اليوم يسعون لإصلاح النّاس وأولادُهم وأهلهم سفهاء وفسقة إلى حدّ بعيد فإنّا لله وإنّا إليه راجعون **(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ)** ألِن جانبك ترحّماً لمن اتّبعك **(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)** فارحمهم وتلطّف بهم. وهذه الوصايا تعمّ كلّ من يريد إصلاح النّاس وكلّ الدّعاة، فليعملوا بها لينجوا بإذن الله تعالى **(فَإِنْ عَصَوْكَ)** الأقربون ولم يؤمنوا **(فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)** من الكفر والمعاصي ومنكم **(وَتَوَكَّلْ)** في دعوتك **(عَلَى الْعَزِيزِ)** الغالب على أمره فإنّه ينصرك **(الرَّحِيمِ)** ويرحم بك بنصره في الدّنيا والثّواب في الآخرة **(الَّذِي يَرَاكَ)** ويطّلع عليك ويراعيك في كلّ حال **(حِينَ تَقُومُ)** إلى الصّلاة والتّبليغ **(وَتَقَلُّبَكَ فِي)** بين **(السَّاجِدِينَ)** المصلّين وهم المؤمنون **(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ)** أقوال كلّ أحد **(الْعَلِيمُ)** بأفعالهم فيثيب على ما كان خيراً منها ويعاقب على ما كان شرّاً، والآية تشير إلى وعد للمؤمنين بالنّصر والثّواب ووعيد للكافرين بالخزي والعذاب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الشّياطين لم ينزلوا بشيء على محمّد (ﷺ) أراد أن يذكر الّذين تستولي عليهم الشّياطين فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠١٢ الحديث رقم ٢٦٠٢، صحيح مسلم١/ ١٩٢ الحديث رقم ٢٠٦.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

(**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ**) أخبركم (**عَلَى مَن تَنَزَّلُ**) وتستولي (**الشَّيَاطِينُ**) الشّياطين ودعاة الشّر (**تَنَزَّلُ**) وتستولي (**عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ**) وهو من كان دأبه الكذب والافتراء، وكان محمّد (ﷺ) مشهوراً بالصّدق والأمانة بينهم، لم يسمع منه الكذب والخيانة قطّ، فلا تنزل عليه الشّياطين بل تنزل (**عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ**) فاجر ولم يسمع من الرّسول (ﷺ) شيء من الفجور بل كان مشهوراً بالطّهر كما كان مشهوراً بالصّدق والإمانة فهؤلاء الأفّاكون (**يُلْقُونَ السَّمْعَ**) يوجّهون سمعهم إلى الشّياطين فيتّبعونهم (**وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ**) وأكثر قولهم الكذب والصّدق منهم قليل، ومحمّد (ﷺ) لم يكن كذلك باعترافهم واتّفاقهم، وكان ممّن يغويهم الشّيطان بعض الشّعراء الّذين كانوا ينشدون أشعاراً وقصائد في هجو النّبيّ (ﷺ) وأتباعه ويذمّونهم فقال تعالى فيهم:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

(**وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ**) الضّالون ولا يتّبعهم أهل العقل والفطنة، حيث إنّ من ضبيعتهم الكذب والتّمويه والتّخييل، حتّى كانوا يقولون: (أشعركم أكذبكم) ثمّ ذكر الله تعالى دليلاً **على** كذبهم فقال جلّ وعلا: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ**) الشّعراء (**فِي كُلِّ وَادٍ**) في كلّ فنّ من فنون الكلام (**يَهِيمُونَ**) ليسيرون ويتكلّمون فيه ويبالغون في المدح والهجو والغزل وترويج الحقّ والباطل، وفي مدح أنفسهم ونسبة ما لا يفعلون إلى ذواتهم (**وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ**) في أشعارهم (**مَا لا يَفْعَلُونَ**) فهذه الأمور كلّها من دلائل كذبهم وضلالهم، فلا يتّبعهم العقلاء. ثمّ استثنى الله تعالى الشّعراء الصّادقين وهم المؤمنون فقال تعالى: (**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**) إلّا الشّعراء الّذين آمنوا (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) فإنّهم لا يقولون إلّا صدقاً ولا يعتبرون الشّعر حسناً إلّا ما كان صدقاً. قال حسّان بن ثابت شاعر الرّسول (ﷺ):

فإنّما الشّعر لبّ المرء يعرضه ... على المسامع إن كيساً وإن حمقاً

وإنّ أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

(**وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا**) في أشعارهم كثيراً (**وَانتَصَرُوا**) لأنفسهم ولله وللرّسول وللإسلام، وذلك بمدح الرّسول والإسلام وذمّ الكفر والكافرين، وفعلوا ذلك (**مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا**) من قبل الكفار قولاً وفعلاً، فهؤلاء الشّعراء الصّادقون لهم ثواب جزيل ولكنّ غيرهم من الشّعراء الظّالمين الّذين يروجون الكفر والفسوق لهم عذاب أليم، كما قال تعالى: (**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا**) المؤمنين بأعمالهم أو أشعارهم (**أَيَّ مُنقَلَبٍ**) أي مصيرٍ (**يَنقَلِبُونَ**) يصيرون إليه من الذّلّ في الدّنيا والعذاب في الآخرة. وهذه معجزة القرآن حيث ذلّ شعراء الكافرين في الدّنيا ولهم العذاب في الآخرة، إلّا من آمن منهم ورزقهم الله تعالى حسن الخاتمة.

تنبيه: ثبت بهذه الآية أنّ الشعر المذموم هو ما يروّج به الباطل ويعادى به الحقّ، وأمّا ما يروّج به الحقّ ويفنّد به الباطل وأهله فممدوح يثاب المرء عليه، والله تعالى أعلم.

* * *

اللّهم اجعلنا منهم وارحمنا برحمتك وأحسن خاتمة أمرنا وختام أعمالنا في الدّنيا والآخرة، ياربّ. اللّهم ارزقنا حسن الخاتمة وحسن الختام، وعلى الرسّول والآل والصّحب والأمّة الصّلاة والسّلام والحمد لله تعالى حمداً يوصف بالوافي والتّمام.

سورة النّمل

(مكيّة، آياتها ثلاث وتسعون، نزلت بعد الشّعراء لما فيها من قوله تعالى: قالت نملةٌ يا أيّها النّمل ...... وهم لا يشعرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾

(طس تلك) الآيات الّتي ستتلى عليك هي آيات القرآن **(وكتاب مبين)** أي الموضّح للعقائد الحقّة والأحكام الصّحيحة **(هدىً)** حال من الآيات، أي كانت تلك الآيات **(هدىً)** هادية ومرشدة إلى ما هو الحقّ **(وبشرى للمؤمنين)** بها بسعادة الدّنيا والآخرة إن عملوا بها وطبّقوها، ثمّ إنّ الايمان شيء خفيّ، ذكّر الله تعالى المؤمنين وعرّفهم بأوصافهم وعلاماتهم، فقال: **(الّذين يقيمون الصّلاة)** والصّلاة هي رمز الواجبات البدنيّة، فالمعنى يؤدّون الواجبات البدنيّة كلّها **(ويؤتون الزّكاة)** والزّكاة رمز الواجبات الماليّة، أي يؤدّون واجباتهم الماليّة أيضاً، وحيث لا تفيد الطّاعات إلّا مع الايمان بالآخرة والحساب قال تعالى: **(وهم بالآخرة هم يوقنون)** أي يؤمنون إيماناً لاشكّ فيه.

ثمّ بعد أن ذكّر الله تعالى المؤمنين أراد أن يذكر حال الكافرين أيضاً؛ فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

(انّ الّذين لايؤمنون بالآخرة) أي الحياة الآخرة بعد الموت والحساب فيها **(زيّنا لهم اعمالهم)** القبيحة الّتي يرتكبونها **(فهم يعمهون)** يتردّدون فيها تردّد الحائر الفاقد شعوره وعقله، هذا وإنّ تزيين القبائح من الشّيطان والنّفس والهوى والشّهوات إلا أنّ الله نسبه إلى نفسه؛ لأنّ الخلق بيده إذ حينما زيّن المرء شيئاً وعملاً وأراده وسعى له، خلقه تعالى له كما قال تعالى: ﴿ومن يرد ثواب الدّنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشّاكرين﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٤٥، **(أولئك)** الّذين لايؤمنون بالآخرة ويعملون السّيئات هم **(الّذين لهم سوء العذاب)** أي العذاب السّيئ **(وهم في الاخرة هم الأخسرون)** من كلّ خاسر، لأنّهم خسروا الحياة الابديّة وخسروا خسارة لا تعوّض ولا تجبر، وأنّ هذه الآيات الّتي تبشّر المؤمنين وتنذر الكافرين تدلّ ببلاغها وأخبارها عن المغيبات الماضية والمستقبلة على أنّها من الله تعالى، فلذا قال تعالى: **(وانّك لتلقّى القرآن من لدن حكيم)** لا يعمل شيئاً إلّا لحكمة **(عليم)** بالمغيبات.

ثمّ أتبع الله تعالى ذلك نبذة من حال موسى (على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام) التّى كانت غيباً على من يسكن في المحيط الّذي يعيش فيه الرّسول ليكون الإخبار بها معجزةً له، وليكون في نفس الوقت عبرةً للنّاس ووعداً للمؤمنين ووعيداً للكافرين؛ فقال جلّ وعلا:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾

(إذ قال) أي اذكر للنّاس حال **(موسى)** حينما ضلّ الطّريق و أصابه البرد في ليلة مظلمة ورأى ناراً فقال: **(لأهله إنّي آنست)** أبصرت **(ناراً)** فامكثوا مكانكم سأذهب إلى

هذه النّار **(آتيكم منها)** أي من الّذين عندها **(بخبر)** عن الطّريق أودليل يدلّنا عليه **(أو آتيكم بشهاب)** أي بشعلة نار **(قبس)** إضافة شهابٍ إلى قبسٍ مثل خاتم فضة أي خاتم من فضّة أي بشعلة نارٍ من قبس، وإن قرىء بشهاب بالتّنوين فقبس بدل منه **(لعلكم تصطلون)** أي لكي تصطلوا أي تستدفئوا بها **(فلمّا جاءها)** أي وصل الى النّار **(نودي)** هناك وقيل له **(أن)** أي قد **(بورك)** أي بارك الله تعالى وتجلّي **(من في النّار)** أي في الّذي نظنّه ناراً **(ومن)** أي وبارك فيمن **(حولها)** أي حول النّار منك ومن الملائكة **(وسبحان)** أي وأنت قدّس الله تعالى **(ربّ العالمين)** وأطعه فيما يأمرك به من تربيته وشريعته وأوامره **(يا موسى إنّه)** أي الّذي يناديك **(أنا)** خبر إنّ و **(الله)** عطف بيان لقوله: **(أنا)** وقوله: **(العزيز الحكيم)** صفتان لله تعالى أي الغالب على أمره، وكلّ ما أراده **(الحكيم)** فلا يريد إلّا ما فيه الحكمة **(وألق)** على الأرض **(عصاك)** فألقاه فصارت حيّةً **(فلما رآها تهتز)** تتحرّك وتتجوّل في الأرض **(كأنّها جانّ)** حيّةً صغيرةً **(ولّى)** موسى **(مدبرا)** أي حوّل وجهه عنها وجعلها وراء ظهره **(ولم يعقب)** أي لم يفتّش أنّها كيف أصبحت حيّة وماذا تصير أمرها، فنودي في هذه الحالة **(يا موسى لاتخف)** من هذه الحيّة فإنّك رسول، وهذه معجزتك وأنّه **(لا يخاف لديّ المرسلون إلّا من ظلم)** أي صدر منه مالا يليق بمقام الرّسالة **(ثمّ بدّل)** أي أتّبع ذلك **(حسناً)** فتدارك الموقف **(فإنّي غفور)** له **(رحيم)** به **(وأدخل يدك في جيبك)** أي جيب قميصك **(تخرج بيضاء)** تضيء **(من غير سوء)** أي مرض كالبرص، وهذه آية أخرى لك **(في)** ضمن **(تسع آيات)** أتيناك وهي اليد البيضاء وفلق البحر والطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم والطّمس والجدب، ومع العصا تكون عشرة آيات فأرسلناك بهذه الآيات **(إلى فرعون وقومه)** حيث **(أنّهم كانوا)** أي أصبحوا **(قوماً فاسقين)** أي خارجين عن عبادة الله تعالى ودينه؛ فعظهم وبلّغهم أمري وديني وشريعتي، فتحمّل موسى الرّسالة وذهب الى فرعون وقومه وأراهم الآيات.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

(فلمّا جاءتهم آياتنا) معجزاتنا وأظهرها موسى (عليه السلام) لهم وكانت الآيات **(مبصرةً)** موضحةً كلّ الإيضاح بأنّ موسى رسول الله تعالى **(قالوا)** بدل أن ينقادوا **(هذا)** الّذي جاء به موسى ويظهره **(سحر مبين)** أي واضح ولم يكن قولهم هذا عن عدم العلم

بحقيقة هذه المعجزات وبأنّها من الله تعالى، بل **(وجحدوا)** أي أنكروها **(و)** قد **(استيقنتها)** أي علمتها **(أنفسهم)** علماً يقينيّاً أنّها من الله تعالى ولكن أنكروها **(ظلماً)** تجاوزاً عن الحقّ **(وعلوّاً)** واستكباراً حيث لم يرق لهم، واستنكفوا أن يتّبعوا موسى (عليه السلام) **(فانظر كيف كان)** أي أصبح **(عاقبة المفسدين)** وهم الّذين يصدّون النّاس عن اتّباع شريعة الله ويمتنعون عن تطبيقها، والاستفهام للتّعجب أي أصبحت عاقبتهم عجيباً حيث أهلكوا ودمّروا تدميراً وأصبحوا عبرةً لمن أعتبر، وتفكّرا في عواقب الأمور.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذةً من حال داود وسليمان (على نبّينا وعليهما الصّلاة والسّلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

(و) بعزّتي **(لقد آتينا)** أعطينا **(داود وسليمان علماً)** بفصل الخصومات وغير ذلك فشكرا، ربّهما على ذلك **(وقالا الحمدلله الّذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين)** بهذا العلم والنّبوة والملك أراد المؤمنين كلّهم، ولذلك قالا: **(كثير)** وإلّا ففي زمانهما كانا أفضل من الكلّ والله تعالى أعلم.

(وورث) أي أخذ **(سليمان)** الملك والنّبوّة من **(داود)** بعد وفاته **(وقال)** تحدّثاً بنعمة الله تعالى وإظهاراً لشكره **(يا أيّها النّاس علمنا)** فهم **(منطق)** كلام **(الطّير)** وكلّ حيٍّ والتّكلّم معها **(وأوتينا من كلّ شيء)** يؤتى للملوك والأنبياء **(إنّ هذا)** الّذي أتانا الله تعالى **(لهو الفضل المبين)** الظّاهر الّذي لا يخفى على أحد لكثرته وعظمته وعجوبيته، هذا وقد مرّ في سورة البقرة قصّة داود وسليمان (على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام) حادثتان لم تذكرا هناك، فالحادثة الأولى مختصرة ذكرها الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ

أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

(وحشر) أي وجمع في يوم **(لسليمان جنوده من الجنّ والإنس)** قدّم الجنّ لأنّه أقدم خلقاً **(والطّير فهم)** أي فالجنود كانوا **(يوزعون)** أي يوقفون إلى أن يأمر سليمان بالمسير. فلمّا جمع كلّهم مشوا **(حتّى اذا أتوا)** وصلوا وأشرفوا **(على واد النّمل)** وهو واد بالشّام كثير النّمل **(قالت نملة يا أيّها النّمل ادخلوا مساكنكم)** لكي **(لا يحطمنّكم سليمان وجنوده)** حيث **(وهم لا يشعرون)** بكم وبوجودكم هنا **(فتبسّم)** سليمان **(ضاحكاً من قولها)** أي قول النّملة، ثمّ شكر الله تعالى على فهمه كلام النّملة وعلى كثرة جيوشه، وعلى أنّه علم بوجود النّمل قبل وصول الجيش إليه فأوقفهم حتّى دخلوا كلّهم المساكن **(وقال ربّ أوزعنى)** وفّقني **على (أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ)** من هذا الملك وهذا العلم **(وعلى والديّ)** قبلُ من الملك ونبّوة الوالد **(و)** وفّقني على **(أن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك)** أي بإنعامك (في) جملة وسجل **(عبادك الصّالحين)** وهم الأنبياء والأولياء، وكان سليمان نبيّاً حين مادعا هذا الدّعاء طلباً لدوامه في هذه الرّتبة، لأنّ الله مختار في أمره؛ فيقتدر على أن يسلب النّبوة من النّبيّ أو الولاية من الوليّ أو أراد الأنبياء الّذين هم في الدّرجة الأعلى في الصّلاح.

لطيفة: كان لي صديق فجاءني يوماً فقال: عندى سؤال سألت كثيراً من العلماء فلم يقنعني جوابهم، فهل تستطيع أن تجيبني؟ قلت: فقل لعلّي أقنعك بالجواب، قال: نملة سليمان كانت مؤنثاً أو مذكراً؟ قلت: كانت مؤنثاً، قال: كيف تعلم ذلك؟ قلت: لأنّ الله تعالى قال: ﴿قالت نملةٌ﴾ ولم يقل الله تعالى: ﴿قال نملة﴾، فقال: وحوت يونس كيف كان؟ قلت: كان مذكراً، قال: كيف تعلم ذلك؟ قلت: لأنّ الله تعالى يقول: (فالتقمه الحوت) ولم يقل: (فالتقمته)، فقال: والله نعم الجوابان. قلت: فإذاً أنا أسألك؟ قال: قل، قلت: فلم كانت نملة سليمان مونثاً وحوت يونس مذكراً؟ قال: والله لا أدري، قلت: لأنّه أراد الله تعالى أن ينبّه سليمان بعجوز من النّمل، وأراد أن يحفظ يونس عن كلّ أنثى محرّم حتّى من الأسماك، فاندهش وقال: فو الله هذا مليح جداً. هذا والله تعالى أعلم.

ثمّ ذكر الله تعالى الحادثة الثّانية فقال جلّ وعلا:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

(وتفقّد الطّير) إلى آخر الآيات، وقبل أن نفسّر الآيات نروي هذه القصّة ليسهل فهم معاني الآيات.

القصّة: قام سيّدنا سليمان (عليه السلام) يوماً بتفتيش الطّيور كما يفتّش القائد جيشه، فلم يجد الهدهد، فسأل عن سبب عدم رؤيته؟ ثمّ قال: إنّه غاب بدون إذن منّي وغضب فقال: إذا جاء **(لأعذّبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان مبين)** أي بعذر **(مبين)** واضحٍ فأعفو عنه، وبعد برهة من الزّمان، رجع الهدهد وذكر سبب غيبته فقال: إنّي اطّلعتُ على مالم يطّلع عليه حضرتكم وأتيتك من سبأ وهي قطر من الأرض نذكرها بعد، أي جئتك من هذا القطر بخبر يقين لاشكّ فيه، لقد وجدت امرأةً تحكم سكّان هذه الأرض، وقد أتاه الله تعالى من كلّ شيء من أسباب القوّة والنّعيم ولها عرش عظيم جدّاً، و بالرّغم من أنّ الله تعالى وهب أهل هذه الأرض من النّعم ورغد العيش فإنّهم لا يؤمنون بوحدة الله تعالى بل يعبدون الشّمس ويسجدون لها، فأغواهم الشّيطان، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله تعالى وحده. فلّما انتهى الهدهد من كلامه قال سليمان (عليه السلام): سوف نحقّق عمّا قلت وننظر هل صدقت أو لا. فكتب سليمان رسالة وأعطاها للهدهد وأمره أن يلقي الكتاب بين يدي الملكة وهي **(بلقيس)** وأن يستمع إلى ما يقولون ويجيبون به الكتاب. فأخذ الهدهد الكتاب وطار به وألقاها بين يدي **(بلقيس)**، فلمّا قرأت بلقيس الرّسالة جمعت أشراف قومها وقادة جيشها وقالت لهم: يا قومي قد أتتنى رسالة من سليمان هذا نصّها: ﴿بسم الله الرّحمن الرّحيم * ألّا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين*﴾ أي لاتتكبّروا عليّ وأتوني طائعين، فماذا ترون نجيب به سليمان؟ وإنّي لا أنفّذ أمراً حتّى أستشيركم فتعطوني رأيكم فيه؟ فقال الحاضرون: نحن أصحاب قوّة شديدة وعدد كثير، وكلّنا مستعدّون للقتال، إلّا أنّه فوّضنا الأمر إليك **(فانظري ماذا تأمرين)** فنحن نطيعك في كلّ ما تأمرين؟ عرفت الملكة (بلقيس) أنّ القوم يريدون القتال ولكنّها عرفت أنّهم لايقاومون جيش سليمان، فذكرت لهم نتائج الحرب وسيطرة الغزاة على البلاد من أنّهم يفسدون في الأرض ويجعلون أعزّة أهلها أذلّةً وأذلّتهم أعزّةً،

فيستخدمونهم في تنفيذ إرادتهم واستيلائهم على الأرض ومكثهم فيها، ثمّ قالت: إنّي أبعث إلى سليمان وقومه رسالةً مع هديّةٍ عظيمةٍ فننظر نتيجة ذلك، فان قبل سليمان الهديّة فهو ملك فنرضيه بالمال، وان لم يقبله فهو نبيّ لا يقبل إلّا أن نتّبعه؛ لأنّ الملوك يقاتلون للمال والأنبياء للإتّباع و العمل بالدّين، فذهب وفد الملكة (بلقيس) إلى فلسطين ومعه الهدايا، فرأى الوفد ملكاً عظيماً وجنداً كثيراً ليست مملكة سبأ إلى جانبه شيئاً يذكر ويعبأ بها، فسلّموا الهدية إلى سليمان فردّ سليمان الهديّة فقال: ألا ترون ما أتاني الله تعالى من الملك والقوّة والمال، فهل أنتم تمزحون بهديّتكم هذه وتظنّون أنّي طالب مال وسلطان، وإنّما أنا أدعو وأجاهد ليؤمن النّاس بالله وحده ولا يعبدوا غيره، ويحكموا شريعته، فارجعوا واذكروا ما رأيتم من قوّتي ومالي لملكتكم وقومكم، فإن أطاعوا الله وتركوا الكفر والشّرك نجوا والّا فوالله لنأتينهم بجنود لاطاقةً لهم بها ولنخرجنّهم من بلدتهم أذلّاء مستعبدين. فرجع وفد بلقيس بالهديّة وبما علموا من قوّة سليمان وتهديده، وأنّه لا يقبل إلّا الإطاعة والإيمان، فعرفت بلقيس واقتنع قومها أنّ سليمان نبيّ وأنّهم لا يقدرون على قتاله؛ فتجهّزت بلقيس مع أشراف قومها للمسير إلى سليمان (عليه السلام) فعرف سليمان أنّ بلقيس في طريقها إليه، فأراد أن يريها وقومها بعض ما خصّه الله تعالى به من معجزة القوّة والتّسخير ليؤمنوا بنبوّته ولا يتردّدوا فيها، فقال لمن حوله من الجنّ: أيّكم يأتيني بعرش بلقيس قبل أن تصل هي وقومها إلينا ليروا قدرة الله تعالى فيؤمنوا **(قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك)** أي مجلس حكمك، وكان يجلس للحكم من الصّبح إلى الظّهر، وقال العفريت: إنّي لقويّ أقدر على الإتيان به، أمين لا آخذ من جواهره شيئاً ولا أضيّعها، فقال أحد من الملائكة الّذين أيّد الله بهم سليمان: **(أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك)** أي في طرفة عين، فرضي سليمان بقوله فأتي به، فلمّا رأى سليمان العرش مستقرّاً عنده قال: **(هذا من فضل ربّي)** تفضل به عليّ **(ليبلوني)** ليختبرني **(أأشكر أم أكفر)** وإنّي لا أكفر ولا أمتنّ بشكري هذا على الله تعالى حيث **(ومن كفر)** فلا يضرّ الله شيئاً حيث **(فانّ ربّي غنيّ عن العالمين)** وعن شكرهم. فلمّا جاءت بلقيس سليمان (عليه السلام) عرضوا عليها عرشها، فتيقّنت أنّه عرشها، وقالوا لها: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنّه هو، ولم تقل: إنّه هو لأنّهم غيّروه بعض التّغيير، ثمّ قالت لسليمان: لقد علمنا قدرة الله تعالى وصحّة نبوّتك، ورأينا معجزاتك قبل هذا وتأخيرنا عن الانقياد لما أتيت به لم يكن إلّا أنّه كان قومنا راسخين في الكفر وشركهم، فأردنا أن نأتي بهم إلى الإيمان تدريجاً و بالصّبر والحكمة، ثمّ أراد

سليمان أن يري الملكة (بلقيس) زيادة في ملكه وروعة الهندسة في البناء وفي تجميله، فأمر أن يبنى قصر له بهو من زجاج تحته حوض من الماء، وملؤوا الحوض ماءً فأصبح البهو كأنّه بركةُ ماء ولا ماء فيه، فجلس سليمان في البهو على سرير وطلب أن تقابله الملكة (بلقيس) هناك فلمّا وصلت هناك وصلت قرب البهو وقيل لها: ادخلي فاعترتها دهشة حيث رأت البهو كأنّه مملوء من الماء، فكشفت عن ساقيها كي لا تبتلّ ثيابها، فقيل لها بأنّه لا ماء هناك بل إنّ هذا البهو من زجاج وتحته ماء فيرى كأنّه فيه ماء. ثمّ لما رأت (بلقيس) من احترام سليمان لها و أيقنت نبوّة سليمان وحقيقة شريعته توجّهت إلى الله تعالى فقالت: **(ربّ إنّي ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لربّ العالمين)**. قال عبدالوهاب النّجار (رحمة الله تعالى عليه): إن أهل القصص والتّفسير يذكرون أنّ سليمان تزوّج من (بلقيس) وأتت له بولد، ويزعم بعض ملوك الحبشة أنّهم من أبناء سليمان، أقول: والحقّ أنّ هذا صحيح لأنّ امرأةً عاقلةً كهذه وشريفة وملكة لا تليق إلّا بسليمان (ﷺ) فهل يزوّجها سليمان من أفراد الرّعية كلّا، والله تعالى أعلم.

تنبيه: إنّ سبأ هي أرض باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، سمّيت هذه الأرض بسبأ لأنّها كانت منازل أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وسمّي هذا الشّخص بسبأ لأنّه أوّل من سبى السّبي من ملوك العرب وأدخل إلى اليمن السّبايا، وذكر أنّه بنى مدينة سبأ وسدّ مأرب، وعندما حدث سيل العرم في مأرب تفرّق أهل هذه الأرض في البلاد وسارت كلّ قبيلة إلى جهة، فضربت العرب بهم المثل، فقيل ذهب القوم أيدي السبأ.

❊ ❊ ❊

ومن هنا نعود إلى تفسير الآيات الكريمة فنقول: قال تعالى:

(وتفقّد) وفتّش سليمان **(الطّير)** جماعة الطّيور فلم يجد الهدهد حاضراً **(فقال ما لي)** أي أيّ سبب عرض لي فجعلني **(لا أرى الهدهد)** هل صار بيننا حجاب أو حصل في رؤيتي ضعف، ثمّ علم أنّه لا سبب هناك غير غيابه فقال: **(أم)** أي بل **(كان)** أصبح الهدهد **(من الغائبين)** بدون إذن منّي فوالله **(لأعذبنّه)** حينما عاد **(عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان)** بعذرٍ **(مبين)** موضّح جواز غيابه **(فمكث)** أي فبقي الهدهد زماناً **(غير بعيد)** أي غير طويل ثمّ عاد **(فقال)** لسليمان مبيناً سبب غيبته **(أحطتُ)** أي علمت **(بما)** بشيء **(لم تحط به)** لم تعلمه أنت يا نبيّ الله تعالى **(وجئتك من سبأٍ بنبأٍ)**

بخبر يقين لا شكّ فيه فقال سليمان (ﷺ) وما ذلك الخبر فقال كما يرويه لنا الله تعالى بقوله جلّ وعلا:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾﴾

(**إنّي**) أي فقال الهدهد إنّي (**وجدت**) أي علمت أنّ (**امرأة تملكهم**) أي أهل سبأ وتسوسهم (**وأوتيت من كلّ شيء**) من أسباب الملك والنّعم (**ولها عرش عظيم**) جدّاً ومع هذا (**وجدتها**) أي علمتها (**وقومها**) أنّهم (**يسجدون للشّمس**) فيعبدونها (**من دون الله وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم**) هذه من الكفر وعبادة الشّمس وعدم التّمسك بشريعة الله تعالى (**فهم**) بسبب تزيين الشّيطان أعمالهم (**لا يهتدون**) إلى السّبيل. ثمّ بيّن الله تعالى السّبيل الّذي منعهم الشّيطان منه فقال جلّ وعلا: (**ألّا**) أصله أن لا أي منعهم و حملهم على (**ألّا يسجدوا لله الّذي يخرج الخبء**) أي الشّيء المستور (**في السّماوات**) وهو المطر (**والأرض**) وهو النّبات (**ويعلم ماتخفون**) من القول والعمل (**وما تعلنون**) منهما، وبهذه الأمور ثبت أنّه هو (**الله لا إله**) أي لا يستحقّ العبادة (**إلّا هو ربّ العرش العظيم**) فهو المتسّلط على الكون كلّه؛ فهو الحقيق بالعبادة لا غيره، فلمّا ذكر الهدهد ذٰلك لسليمان أجابه سليمان كما ينقل لنا الله جلّ وعلا:

﴿۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(**قال**) سليمان للهدهد (**سننظر**) أي سنعمل عملاً نثبت به (**أصدقت**) في هذا الخبر (**أم كنت من الكاذبين**)، فكتب كتاباً وسلّمه إلى الهدهد وقال له: (**اذهب بكتابي هذا فألقه**) أي الكتاب (**إليهم ثمّ تولّ عنهم**) أي أرجع (**فانظر ماذا**) أي شيء (**يرجعون**) يردّونه في جواب كتابي.

فذهب الهدهد بالكتاب إلى أن وصل الى قصر الملكة فألقاه في غرفتها في كوّة منها، فلمّا رأت الملكة الكتاب وقرأته جمعت أشراف قومه للمشورة معهم، فخاطبتهم بقولها لهم كما يرويه لنا الله تعالى في قوله جلّ وعلا:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾

(قالت) بلقيس لأشراف قومها **(ياأيّها الملأ)** أي الجماعة الخاصّه بي **(إنّي ألقي إليّ كتاب كريم)** أي مختوم وهذا نصّ الكتاب **(إنّه من سليمان)** إلى ملكة سبأ وقومها **(وإنّه)** مصدّر بجملة **(بسم الله الرحمن الرّحيم* الّا تعلوا)** أي أن لا تتكبّروا ولا تبغوا عليّ **(وأتوني مسلمين)** منقادين لي، وللعمل بشريعتي شريعة الله ربّ العالمين. ثمّ بعد أن ذكرت بلقيس مضمون الكتاب لقومها **(قالت)** لهم **(يا أيّها الملؤ افتوني)** أي أشيروا عليّ **(في أمري)** هذا حيث أنّي **(ماكنت قاطعةً)** عاملةً **(امراً)** عملاً **(حتى تشهدون)** أي تضرّون وتبدون رأيكم فيه، ففكّر الملأ في الأمر وأجابوا ملكتهم بما جاء في قوله جلّ وعلا:

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(قالوا) للملكة **(نحن أولوا)** أي أصحاب قوّة من الجنود الشّجاع والسّلاح الفتّاك **(وأولوا)** أي أصحاب **(بأسٍ شديدٍ)** أي مهارة في الحرب، فنقاتل ولا نستسلم لهم أبداً، إلّا أن تأمري غير ذلك، فلمّا رأت بلقيس حرص القوم على الحرب وكانت تعلم أنّ الحرب ليس في صالحهم لما كان لسليمان من قوّة لا تقابل ولا تكسر، أرادت أن تخفّف حرصهم على الحرب فذكرت لهم نتائج الحرب **(قالت إنّ الملوك اذا دخلوا قريةً)** بالحرب وفتحوها **(أفسدوها)** خرّبوها **(وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة)** وأذلّتهم أعزّة ليستخدموهم في تنفيذ خطّتهم وترسيخ حكمهم في القرية **(وكذلك)** مثل ما قلت

(يفعلون) وهذا من دأبهم، فالأصلح أن نعامل بالحكمة **(وإنّي مرسلةٌ إليهم بهديةٍ)** ثمينةٍ **(فناظرةُ بم)** بأيّ وجه يرجع **(المرسلون)** من أخبارهم وقوّتهم، فإنّه إن كان سليمان ملكاً يقبل الهديّة ويفرح بها ويتلاين معنا، وإن كان نبيّاً فلا يقبل إلّا الاتّباع، فأرسلت الهديّة مع جماعة من أهل بلاطها الخاص. فلمّا وصلت الهديّة إلى سليمان غضب وقال ما يرويه لنا الله تعالى في قوله جلّ وعلا:

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

(فلمّا جاء) أي وصل رسل بلقيس **(سليمان)** وحضروا عنده وقدّموا إليه الهديّة ردّ إليهم هديّتهم ثمّ **(قال)** لهم **(أتمدّونن بمالٍ)** أصله أتمدّونني أي أتساعدونني بمالٍ، حذفت الياء للتخفيف وأظهره بعض القرّاء **(فما)** فالّذي **(آتاني الله)** من المال والملك والدّين **(خير)** أكثر **(ممّا أتاكم)** فلست أنا محتاجاً إلى المال ولا أريد المال **(بل أنتم)** طلاب الأموال ولذلك **(بهديتكم تفرحون)** وتتباهون بها **(إرجع)** يارئيس الوفد **(إليهم)** إلى جماعتك وقل لهم إنّا لا نريد إلّا الاستسلام والخضوع لدين الله تعالى، فان خضعوا فقد حفظوا أنفسهم وعزّتهم وكرامتهم وان لم يخضعوا **(فلنأتينّهم بجنودٍ لا قبل)** لاطاقة **(لهم بها)** بمقاومتها **(ولنخرجنّهم منها)** أي من القرية **(أذلةً وهم صاغرون)** أي أسرّاء ونجعلهم عبيداً يباعون في الأسواق. فرجع الرّسل بالهديّة إلى الملكة بلقيس، وذكروا لها ولملئها من قوّة سيّدنا سليمانﷺ وسلطانه ما أقنعهم بأنّهم لا يستطيعون مقابلة سيّدنا سليمان وما لهم بجنوده من قوّة، فقرّروا أن يستسلموا له، فتهيّأت الملكة بلقيس مع سادة قومها للقدوم على سيّدنا سليمان (ﷺ) وجعلت الملكة بلقيس عرشها في بيت بعد سبعة بيوت، وغلّقت الأبواب كلّها ووضعت عليه حرّاساً أشدّاء يقظة، فسمع سليمان (ﷺ) بأنّ الملكة بلقيس وقومها قدموا عليه وهم في الطّريق، فأراد أن يريهم معجزةً تطمئنهم بأنّه نبيّ وليس ملكاً، ولكي لا يبقى في قلوبهم أي أنفة من الخضوع والإستسلام له، فخاطب حاشيته كما جاء في قوله جلّ وعلا:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ

ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

(قال) سليمان **(ياأيّها الملأ)** الجماعة حولي **(أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني)** أي يصلوا إليّ **(مسلمين)** منقادين **(قال عفريت)** أي داهية **(من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك)** أي من مجلس الحكم، وكان يجلس للحكم من الصّبح إلى الظّهر **(وإني عليه)** على الإتيان به **(لقويٌّ)** لا أعجز عنه **(أمين)** لا أنقص منه شيئاً من الجواهر والدّرر المعلّقة به **(قال الّذي عنده علم من الكتاب)** أي اللّوح المحفوظ وهو جبريل أو ملك آخر أرسله الله تعالى لتأييد سليمانﷺ، وقيل هو آصف بن برخيا كاتب سليمان، وقيل هو الخضر، وقيل هو سليمان نفسه، وهذا أولى من الثّالث والثّاني، الأوّل هو أولى من هذا، وأقول هو الله تعالى بدليل قوله: **(فلمّا رآه)** أي العرش **(مستقراً)** ثابتاً **(عنده قال هذا من فضل ربّي)** فإنّ هذا العمل في طرفة عين لا يكون إلّا بأمر من يقول كن فيكون، وهو الله تعالى، ولأنّه لم يقل فلمّا أتي به أو رآه أتيا به ولأنّه **(قال هذا)** أي ثبوت العرش ومجيئه هنا **(من فضل ربّي)** المحض لا دخل ولا فضل لآخر فيه،وقد تفضّل تعالى بهذا الفضل وغيره عليّ **(ليبلونى)** أي ليجعلني في موقف الممتحن فيتبيّن **(أأشكر)** نعمه بصرفها فيما يرضيه وصرفها كما يرضيه **(أم أكفر)** بصرفها فيما لا يرضيه أو كما لا يرضيه، ثمّ إنّي وإن شكرته فليس في ذلك فضل على الله تعالى حيث **(ومن شكر)** الله **(فإنّما يشكر)** لإفادة نفسه ولأن ينفع نفسه، لأنّ الله تعالى يزيد النّعم بالشّكر في الدّنيا و يثيب عليه في الآخرة **(ومن كفر)** فلا يضرّ الله شيئاً **(فإنّ ربّي غنيٌّ)** عن العالمين كلّهم وعن شكرهم **(كريم)** فلا ينعم على الغير إلّا لأنّه كريم لا لحاجته إليه ولا لي شكره، بل لمجرد كرمه فقط ينعم ويكرم لا لأمر سواه.

ثمّ بعد أن أوتي بالعرش أراد سليمان أن يمتحن فطنة وعقل بلقيس وذكاءها، فأمر خدمه أن يغيّروا بعض الشّيء من عرشها كما جاء في قوله جلّ وعلا:

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا

جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾

(قال) سليمان لخدمه **(نكّروا)** غيّروا **(لها)** لبلقيس **(عرشها)** تغيّراً يكاد أن لا تعرفه **(ننظر أتهتدي)** إلى معرفته **(أم تكون من الّذين لا يهتدون)** إلى معرفة الأشياء لغباوتهم **(فلمّا جاءت قيل)** لها **(أهكذا عرشك قالت كأنّه هو)** بعينه ولم تقل هو لأمرين: الأوّل لكي لا تتباهى بأنّ لها عرشا لا يوجد عند غيرها. الثّاني: لأنّه صار فيه بعض التّغيير، فلربّما هو عرش يشبه عرشها. فقيل لها: إنّه نفس عرشك، فعرفت أنّه إنّما أوتي بعرشها معجزة لسليمان لتؤمن هي، فقالت **(وأوتينا العلم)** بنبوّة سليمان وبقدرة الله تعالى **(من قبلها)** أي من قبل هذه المعجزة أو هذه الحادثة **(وكنا مسلمين)**، وكأنّه قيل: فإذا كان الأمر كذلك فلم كانت تعبد غير الله تعالى فقالت **(وصدّها)** التفات من التكلّم إلى الغائب أي ومنع بلقيس عبادة **(ما)** أي الشّمس أو الاصنام الّتي **(كانت تعبد)** عن عبادة الله تعالى وحده مع رجاحة عقلها وذكائها **(أنّها)** أي لأنّها **(كانت من قوم كافرين)** فمشت على عاداتهم و تقاليدهم، وخافت من قومها أن يثوروا عليها ويقتلوها.

ثمّ أراد سليمان أن يريها أمراً آخر عجيباً، فأمر أن تقابله في قصر له بهو تحته حوض من الماء وسقف بالزّجاج، فجاءت إلى باب القصر فأمرت بالدّخول كما يروي لنا الله تعالى في قوله جلّ وعلا:

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

(قيل لها) لبلقيس من قبل الخدم **(ادخلي الصّرح)** أي هذا القصر **(فلمّا رأته حسبته لجةً)** أي ماءً عظيماً **(وكشفت)** أي رفعت ثيابها عن **(ساقيها)** لكي لا تبتلّ ثيابها، وظهر ساقاها. وكان سليمان جالساً في البهو على سرير **(قال)** لها **(إنّه)** ليس ماء بل هو **(صرح)** أي قصر **(ممرّد)** مبلّط **(من قوارير)** أي من الزّجاج وتحتها ماء، فأرسلت ثيابها ودعاها سليمان إلى الإيمان **(قالت ربّ إنّي ظلمت نفسي)** من قبل لعبادة الشّمس **(وأسلمت مع سليمان لله)** وحده **(ربّ العالمين)** كلّهم ولا ربّ سواه، وقيل: إنّ سليمان

بعد ما تزوّجها أبقاها على ملكها، وكان يزورها في كلّ شهر ثلاثة أيام، وولدت له والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من حال قوم ثمود ونبيّهم صالحﷺ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

(**ولقد أرسلنا إلى**) أي وبعزّتي لقد أرسلنا إلى قوم (**ثمود**) وقد ذكرنا مكانهم وقصتّهم في سورة الأعراف، فأرسل الله تعالى إليهم (**أخاهم**) في القوميّة (**صالحاً**) بيان لأخاهم، فأمرهم صالح (**أن اعبدوا الله**) وحده ولا تشركوا به غيره (**فاذاهم فريقان**) جماعتان (**يختصمون**) في أمر صالح، فبعضهم قالوا: هو نبيّ وآمن به، وبعضهم قالوا: هو كذّاب وكفروا به، ولم يقل يختصمان لأنّ أفراد هذا الفريق كانوا يخاصمون أفراد ذلك الفريق، وبالعكس فالفريق الّذين كفروا كانوا يقولون اللّهم إن كان ما يقول صالح حقّاً فأتنا بالعذاب. قالوا ذلك تعنّتاً واستهزاءً بصالح، فخاطبهم صالح (**قال يا قوم لم تستعجلون بالسّيئة**) أي بالعذاب (**قبل الحسنة**) أي دون الحسنة، فالأجدر بكم أن تقولوا اللّهم إن كان ما يقول صالح حقّاً فاهدنا إليه (**لولا تستغفرون الله**) بالإيمان وترك الإشراك (**لعلّكم ترحمون**) لكي ترحموا فيغفر الله تعالى لكم (**قالوا**) في جواب صالح (عليه السلام) (**اطّيرنا**) أي أصابنا الشّر (**بك وبمن معك**) وأرادوا بالشّر الّذي أصابهم التّفرق أو قلّة الأمطار أو كليهما (**قال**) لهم صالح (**طائركم**) أي ما يصيبكم من الشّر(**عند الله**) تعالى و بأمره ولم يصبكم هذا الشّر منّي (**بل أنتم قوم تفتنون**) تمتحنون يمتحنكم الله تعالى بما أصابكم هل ترجعون عن ضلالكم أو لا.

تنبيه: (أطيّرنا) أصله تطيّرنا قلبت التّاء طاء وأدغمت فيه وجيء بالهمزة للابتداء بالسّاكن فصار اطّيرنا. و أصل التّطيّر أنّ النّاس حين كانوا يسافرون إذا مرّوا بطائر يزجرونه، فإذا مرّ بيمين المسافر تيامن أي طمع في اليمن والخير في هذا السّفر، وإذا

مرّ بيساره تشاءم أي ترقّب شرّاً، وكانت عقيدتهم أنّ الخير والشّر يحدثهما اتّجاه الطّائر. ثمّ استعمل التّطيّر في كلّ ما يأتي بعده الشّر فردّ صالح (عليه السلام) على عقيدتهم هذه بأنّ الخير والشّر كلّه من الله إيجاده لا من غيره فقال: (طائركم عند الله) أي ما أصابكم من الشّر من خلق الله تعالى، خلقه لاختباركم كما ذكرنا والله تعالى أعلم.

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾

(**وكان في المدينة تسعة رهط**) أي تسع طوائف (**يفسدون**) أي دأبهم أنّهم يفسدون (**في الأرض ولا يصلحون**) فيها فهمّهم الفساد (**قالوا**) فيما بينهم اتّفقوا و(**تقاسموا**) واحلفوا (**بالله**) أن لا تخالفوا بل (**لنبيتنّه**) أي لندخلنّ على صالح ليلاً فنقتله (**وأهله ثمّ لنقولنّ لوليّه**) وعشيرته (**ما شهدنا**) ماحضرنا (**مهلك**) إهلاك (**أهله**) ولا علمنا بذلك (**وإنّا لصادقون**) في كلامنا هذا (**ومكروا**) أي وقدّروا (**مكراً**) أي عملاً وهو قتل صالح باللّيل (**ومكرنا مكراً**) تقديراً لإهلاكهم وإبطال مؤامرتهم وقتلهم لصالح (**فانظر كيف كان عاقبة مكرهم**) أي مؤامرتهم. ثمّ بيّن الله تعالى عاقبة مكرهم وفسّرها فقال جلّ وعلا: (**إنّا دمرناهم**) أي أهلكناهم (**وقومهم أجمعين**) ولم يبق منهم أحد.

ثمّ أمر الله تعالى النّاس بالنّظر إلى عاقبة هذا القوم للعبرة، فقال جلّ وعلا:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

(**فتلك بيوتهم**) على طريقكم إلى الشّام، فانظروا إليها واعتبروا بأهلها وهي (**خاوية**) ساقطة منهدمة وخالية من أهلها، وأصيبوا بذلك (**بما ظلموا**) ما مصدريّة تؤوّل ما بعدها مصدراً، أي أصيبوا بسبب ظلمهم وكفرهم (**إنّ في ذلك لآيةً**) لعبرة (**لقومٍ يعلمون**) عواقب الأمور ونتائجها (**وأنجينا الّذين آمنوا**) فأمرناهم بالخروج من القرية قبل أن يأتيها العذاب؛ لأنّهم آمنوا (**وكانوا يتّقون**) عذاب الله باجتناب الكفر والمعاصي، فجزاهم الله تعالى بهلاك أعدائهم ونجاتهم من العذاب.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال لوط مع قومه فقال جلّ وعلا:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

(ولوطاً) أي أرسلنا لوطاً إلى قومه فاذكره وحاله **(إذ)** أي وقتما **(قال لقومه أتأتون الفاحشة)** أي الخصلة القبيحة جدّاً **(وانتم تبصرون)** أي تعلمون أنّها فاحشةً، ثمّ بين فاحشتهم فقال **(أإنّكم لتأتون الرّجال)** أي يأتون أدبارهم **(شهوةً)** أي لأجل الشّهوة وقضائها منهم **(من دون النّساء)** اللاّتي خلقهن الله تعالى للشّهوة دون الرّجال، وأنتم بعملكم هذا لا تخالفون أمر الله تعالى فقط **(بل أنتم قوم تجهلون)** مقتضى الفطرة والطّبيعة فتعدلون عمّا وضع لقضاء الشّهوة إلى غيرها، وضع لذلك **(فما كان جواب قومه)** للوط بعدما وعظهم ونهاهم عن الفحش **(إلّا أن قالوا أخرجوا آل)** أي أتباع (لوط) ولوطاً معهم **(من قريتكم)** حيث **(إنّهم أناس يتطهّرون)** يدّعون النّزاهة لأنفسهم وينسبون إلينا الخبث والفاحشة **(فأنجيناه)** أي فبعد أن أراد القوم الفتك بالمؤمنين أتينا بالعذاب عليهم **(فأنجيناه)** أي لوطاً **(وأهله)** وأتباعه **(إلّا امرأته)** لم تنج حيث **(قدّرناها)** أن تكون **(من الغابرين)** أي الباقين في القرية فتهلك معهم؛ لأنّها كانت معهم في الكفر والعقيدة. ثمّ بيّن الله تعالى كيفيّة عذابهم فقال جلّ وعلا: **(وأمطرنا عليهم مطراً)** من الحجارة **(فساء مطر المنذرين)** الّذين لم يعملوا بمقتضى الإنذار ولم يرجعوا عن غيّهم وضلالهم.

ثمّ أمر الله تعالى رسوله وكلّ مؤمن أن يشكر الله تعالى على نجاة المؤمنين وإهلاك الكافرين، وأن ينبّه النّاس على أنّ عبادة الله تعالى واتّباع شريعته خير بالنّسبة للدّنيا كما هو خير بالنّسبة للآخرة، وأن يستدل على ذلك بما هو معلوم من قدرة الله تعالى ونعمه على النّاس، هذه الدائمة والوفيرة فقال جلّ وعلا:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾

(**قل**) أيّها النّبيّ وأيّها المؤمن (**الحمد الله**) على إهلاكه الكافرين وانجاء المؤمنين (**وسلام**) ورحمة وأمان ينزل من الله تعال (**على عباده الّذين اصطفى**) المفعول محذوف أي اصطفاهم أي اختارهم لعبادته وإطاعته واسأل المشركين وقل: (**آلله**) أصله أألله قلبت الهمزة الثّانية ألفا فصار(آلله) أي أعبادة الله تعالى وأطاعته (**خير أمّا**) أصله أم ما ادغم الميم في الميم أي (**أم**) عبادة (**ما يشركون**) من الأصنام والأوثان خير. ثمّ ذكر الله تعالى صفات لذاته تدلّ على أنّ عبادته هي الحقّ والخير فقال: (**أمّن**) أصله (**أم من**) أي أم عبادة من فعل مايأتي خير وهو أنّه (**خلق السماوات**) كلّها (**والأرض**) مع ما فيها (**وأنزل لكم من السّماء**) أي من العلوّ وهو السّحاب (**ماءً**) مطراً (**فأنبتنا به حدائق**) بساتين (**ذات بهجة**) حسن وجمال (**ماكان**) أي ما أمكن (**لكم**) وما تقدرون (**أن تنبتوا شجرها**) أشجارها بل الله أنبتها لكم، فهذا الّذي خلق لكم هذه الأشياء هو الله، فهو خير وهو الحقّ أن يعبدون غيره (**أإله مع الله**) يخلق لكم شيئاً كلّا، فثبت أنّه لاحقّ لأحد أن يعبد غير الله تعالى (**بل هم**) أي المشركون (**قوم يعدلون**) أي ينحرفون عن الحقّ. أو معناه يعدلون أي يساوون غير الله العاجز عن كلّ شيء بالله القادر على كلّ شيء وهذا ضلال مبين.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١﴾

(**أمّن**) أي عبادة من فعل مايأتي خير وهو أنّه (**جعل الأرض قراراً**) محلّ استقرار للنّاس و الحيوان وكلّ ما يدبّ عليها (**وجعل خلالها**) أي فيما بين قطعاتها (**أنهاراً**) من الماء لنسقي بها (**وجعل لها**) للارض (**رواسي**) جبالاً راسيةً أي ثابتةً وتثبت الأرض عن أن تضطرب (**وجعل بين البحرين**) المالح والعذب (**حاجزاً**) مانعاً يمنع عن أن يطغى

أحدهما على الآخر أو يختلط به، فهذه الأمور كلّها فعلها الله تعالى **(أإلهٌ مع الله)** يفعل شيئاً من ذلك كلا، فثبت أنّ عبادة الله تعالى هو الحقّ والخير **(بل أكثرهم لا يعلمون)** فيعبدون ما يعجز عن كلّ شيء بدل أن يعبدوا من يقدر كلّ شيء وهو الله تعالى.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

(أمّن) أي أعبادة من يفعل مايأتي خير وهو أنّه **(يجيب المضطّر)** أي المكروب والمبتلى **(إذا دعاه)** فيدفع عنه الكرب والبلاء **(ويكشف)** أي يزيل **(السّوء)** يشمل كلّ ما يسوء الانسان **(ويجعلكم خلفاء)** متصرّفين في **(الأرض)** فهذه الأمور كلّها يفعلها الله تعالى **(أإلهٌ مع الله)** يفعل شيئاً من ذلك كلّا فإذن **(قليلاً ما)** أي قليلا جدّاً **(تذكّرون)** وتتفكّرون في الأمور، وإلّا لما عبدتم غير الله تعالى:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

(أمّن) أي أعبادة من يفعل مايأتي خير وهو أنّه **(يهديكم)** إلى الطّرق والمنازل **(في ظلمات البرّ والبحر ومن يرسل الرّياح بشراً)** بشارة بالمطر **(بين يدي)** أي قبل مجيء **(رحمته)** أي المطر ثمّ يجيء المطر، فهذه الأمور كلّها يفعلها الله تعالى **(أإلهٌ مع الله)** يفعل شيئاً من ذلك كلّا، ماذا كان الأمر كذلك **(تعالى)** أي تنزّه **(الله عما)** أي عن شركة **(مايشركون)** به.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

(أمّن) أي أعبادة من يفعل مايأتي خير وهو أنّه **(يبدؤ الخلق)** فينبت النّباتات **(ثُمّ)** بعد ما جفّ ويبس وفنى **(يعيده)** في مكانه، وكذلك الأشجار والأمطار، فكلّ ما ترى في الدّنيا إبداءً ثمّ إفناءً ثمّ إعادةً له **(ومن يرزقكم من)** إختلاط ما ينزل من السّماء وهو المطر والماء بما في **(الأرض)** وهو المواد الّتي تنبت وتعيد نباتات ذات حبوب وأشجاراً ذات ثمار **(أإلهٌ مع الله)** يفعل شيئاً من ذلك كلّا **(قل هاتوا)** أحضروا **(برهانكم)** إن

ادّعيتم أن غير الله يفعل شيئاً ويوجده من شركائكم **(إن كنتم صادقين)** في شرككم والأمر في هاتوا للتّعجيز.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى دلائل من الخلق والقدرة على أنّه الحقّ بالعبادة، أراد أن يذكر أنّه الحقّ من حيث العلم بالعبادة كما هو الحقّ من حيث قدرته فقال جل وعلا:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

(قل لايعلم) أحد من **(من في السّماوات)** وهم الملائكة **(والأرض)** وهم الجنّ والإنس الغيب **(إلّا الله)** وحده بل **(وما يشعرون أيّان يبعثون)** من النّوم في الدّنيا ومن القبر إذا ماتوا. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى بطلان عقيدتهم تجاه الله حيث يشركون، أراد أن يذكر عقيدتهم تجاه الآخرة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾

(بل ادّارك) أصله تدارك قلبت التّاء دالاً وأدغم فيه وجيء بالهمزة للابتداء بالسّاكن فصار ادّارك أي ضلّ **(علمهم في الآخرة)** فلم يصل إليها **(بل هم في شكّ منها)** أي من مجيئها **(بل هم منها عمون)** جمع عم بمعنى الأعمى **(وقال الّذين كفروا)** استهزاءً وإنكاراً **(أإذا كنّا تراباً)** بعد الموت نحن **(وآباؤنا أإنا لمخرجون)** من القبور أحياءً مرّة أخرى، والاستفهام للإنكار أي لا نخرج **(لقد وعدنا هذا)** الوعد **(نحن وآباؤنا من قبل أن)** أي ما **(هذا)** الوعد والقول **(إلّا أساطير)** حكايات **(الأوّلين)** الّتي لا أصل لها **(قل)** أيّها النّبيّ وأيّها الدّاعي إلى الحقّ **(سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين)** من الهلاك والتّدمير نتيجة إجرامهم من تكذيبهم للآخرة والإحياء بعد الموت. وبعد هذه المناقشة الطّويلة والأدلّة القويّة أصرّ الكفّار على كفرهم ولم يهتدوا، فحزن الرّسول (ﷺ) فسلّاه الله تعالى، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

(ولا تحزن عليهم) أي على عدم إيمانهم **(ولا تك)** أصله تكن حذفت النّون للتّخفيف **(في ضيق)** غمّ وهمّ **(ممّا يمكرون)** أي يعملون أعمالا ضدّك وضدّ أصحابك وضدّ دينك، لأنّ الله تعالى بطّل كلّ مؤامراتهم، وينصرك عليهم **(ويقولون)** استهزاءً أيضاً **(متى هذا الوعد)** أي وعد عذابنا ووعد مجيء الآخرة **(إن كنتم صادقين)** في قولكم أنّها تأتي **(قل عسى)** أي قد قرب **(أن يكون)** أن يوجد **(ردف)** تبع وجاء **(لكم بعض)** العذاب **(الّذي تستعجلون)** به فجاءهم حادثة بدر وعذبوا فيها **(وإنّ ربّك لذو فضل)** أي نعمة **(على النّاس)** ولذلك لا يعجّل بالعقوبة لهم **(ولكن أكثرهم لا يشكرون)** فيؤمنوا به ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

ثمّ أنذرهم الله تعالى بأنّه يعلم كلّ حالاتهم وسيعاقبهم عليها كلّها؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

(وإنّ ربّك) أيّها النّبيّ **(ليعلم ماتكنّ)** أي تخفيه **(صدورهم)** من سوء النّيّات **(وما يعلنون)** أي يظهرونه بالأقوال والأفعال فيعاقبهم على ذلك كلّه **(وما من)** خصلة غائبة كانت **(في السّماء والأرض إلّا)** هو مسجّل **(في كتاب مبين)** واضح ذلك الكتاب.

ثمّ بعد أن ناقش الله الكافرين في وحدته وناقشهم في مجيء الآخرة، أراد أن يناقشهم في هذا القرآن ويثبت لهم أنّه من الله تعالى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾

(**إنّ هذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل**) اليهود منهم والنّصارى فيقصّ عليهم (**أكثر**) الأمر (**الّذي هم فيه يختلفون**) فيما بينهم فاختلفوا في ولادة المسيح فبيّن القرآن لهم الحقيقة، واختلفوا في أنّه إله أو عبده ورسوله، فبيّن لهم القرآن أنّه عبده ورسوله، واختلفوا فيه هل قتل أو لا ؟ فبيّن لهم: أنّه لم يقتل ولكن شبّه لهم، وكانوا يختلفون في بعض الأحكام فينزل القرآن ويذكر ما هو الصّحيح المذكور في التّوراة، إلى غير ذلك ممّا يدلّ على أنّ هذا القرآن من الله تعالى، وإلّا فكيف علم محمّد هذا العلم؟ (**وإنّه**) أي وأن القرآن (**لهدى**) لهاد ومرشد إلى الحقّ، يدرك ذلك كلّ من اطّلع عليه بقلب خال عن التّعصب والأنانيّة (**ورحمة للمؤمنين**) به لأنّه يعلّمهم الطّريق السّليم في الحياة الدّنيا وما يوصلهم إلى الحياة السّعيدة في الآخرة (**إنّ ربّك يقضى بينهم**) أي يفصل بين المؤمنين بالقرآن والكافرين به (**بحكمه**) وفق حكمه (**وهو العزيز**) على الانتقام ممّن كفر (**العليم**) في حكمه فيحكم وفق حكمته وإرادته. فإذا كان الأمر كذلك (**فتوكّل على الله**) وامض في دعوتك حيث (**إنّك على الحقّ المبين**) الواضح.

ثمّ إنّ الرّسول (ﷺ) كان حريصا كلّ الحرص على إيمان القوم، فكان يتعبه ذلك الحرص ويحزن على كفرهم وتمرّدهم عن الحقّ، فأراد الله أن يخفّف من حرصه وتعبه فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

(**إنّك لا تسمع**) أناساً هم مثل (**الموتى**) في عدم الإجابة (**ولا تسمع الصُمّ الدّعاء**) النّداء (**إذا ولّوا مدبرين**) أي صار ظهرهم إليك، قيّدهم بهذا لأنّه إذا كان وجّههم إليك لتسمعهم بالإشارة، فهؤلاء مثل الصّمّ المدبرين لا يمكن إسماعهم.

سؤال: إنّ هذه الآية تنافي قول الرّسول (ﷺ) حينما ألقي جثث الكفار يوم بدر في القليب فقال: قد وجدنا ماوعدنا ربّنا حقّا فهل وجدتم ماوعدكم ربّكم حقّا، فقيل له: يارسول الله هل تكلّم أناساً أصبحوا جيفا؟ قال: لستم بأسمع منهم إلّا أنّهم لا يجيبون.

الجواب: أنّ المراد لا تسمع الموتى إسماع استجابة وقبول، ولذا قلنا في تفسير الموتى: أي مثلهم في عدم الإجابة. والله تعالى أعلم.

* * *

(**وما أنت بهادي**) أناس هم مثل (**العمى**) فلا يبصرون ما تهديهم إليه فتنقذهم (**عن ضلالتهم إن**) أي ما (**تسمع إلّا من يؤمن**) أي له حبّ وسعي لأنّ (**يؤمن بآياتنا**) فيتفكر فيها ويتعقّلها (**فهم**) وحدهم (**مسلمون**) منقادون لأمرك ولهذا الدّين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض أحوال الآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

(**واذا وقع**) أي صدر (**القول**) أي الحكم (**عليهم**) بقيام السّاعة (**أخرجنا لهم دابّةً من الأرض**) تناديهم و (**تكلّمهم**) فتقول: (**إنّ النّاس كانوا بآياتنا**) الّتي أخبر عن السّاعة (**لا يوقنون**) لا يصدّقون، وخروج هذه الدّابة هي إحدى علامات السّاعة. روى مسلم: عن أبي هريرة (ﷺ) أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (بادروا بالأعمال ستّا. طلوع الشّمس من مغربها، والدّخان، والدّجال، والدّابة، وخويصة أحدكم، وأمّ العامريّة)[١]. وفي مسلم أيضاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص (ﷺ) قال سمعت الرّسول (ﷺ) يقول: (إنّ أوّل الآيات خروجاً طلوع الشّمس من مغربها، وخروج الدّابة على النّاس ضحى، وأيّتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها). فهذه مرحلة من مراحل الآخرة، ثمّ ذكر الله تعالى مرحلة أخرى فقال جلّ وعلا: (**ويوم**) أي واذكر (**يوم نحشر من كلّ أمّة فوجاً ممّن**) من هنا للتّبيين لا للتّبعيض، أي نجمع من كلّ أمّة جماعة وهم كلّ من (**يكذّب بآياتنا فهم يوزعون**) يوفضون ثمّ يساقون إلى الحشر (**حتّى اذا جاؤوا**) أي حضروا موقف الحساب (**قال**) الله تعالى لهم (**أكذّبتم بآياتي**) أي بالدّلائل الدّالة على مجيء هذا اليوم وبالآيات المخبرة عنه، وبالأحكام الّتي فرضناها عليكم (**ولم تحيطوا بها علماً**) أي ما أردتم وما عملتم لفهمها، بل أعرضتم عنها (**أمّا**) أصله (**أم ما**) أي بل أيّ شيء (**ذا**) الّذي (**كنتم تعملون**) في الدّنيا (**ووقع**) أي وصدر (**القول**) أي الحكم

(١) صحيح مسلم ٤/٢٢٦٧ الحديث رقم ٢٩٤٧.

بالعذاب (**عليهم بما ظلموا**) أي بسبب ظلمهم أي كفرهم (**فهم لا ينطقون**) أي لا يستطيعون أن يتكلّموا ويدافعوا عن أنفسهم، لأنّ للسّاعة مراحل، ففي بعض المراحل يتكلّمون وفي بعض لا يبقى لهم كلام، فكلّ آية تخبر عن مرحلة من مراحل الآخرة، والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر لهم دليلاً على مجيء السّاعة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

(**ألم يروا أنّا جعلنا**) خلقنا (**اللّيل**) مظلماً ليتعطّلوا عن العمل (**ليسكنوا فيه**) ليستريحوا (**و**) خلقنا (**النّهار مبصراً**) مضيئاً ليعملوا فيه ويتحرّوا لكسب الرّزق والحوائج (**إنّ في ذلك**) النّظام (**لآيات**) لدلائل على السّاعة (**لقوم يؤمنون**) يحبّون الايمان والإهتداء إلى الحقّ، وهذه الآيات كما تقول:

١- إنّ الّذي يقدر على إزالة هذا النّهار المضيء والإتيان بهذا اللّيل المظلم على هذا الكون، ثمّ إزالة الظّلام والإتيان بالضّوء والنّور لدليل على أنّه يقدر على أن يأتي بالموت على الحياة ثمّ بالحياة بعد الموت.

٢- إنّ هذا اللّيل والنّهار يحدثان بحركة الأرض حول الشّمس وإيقاف الشّمس فوق الأرض، فمن يقدر على خلق هذه الشّمس وهذه الأرض، وجعل واحدة تدور حول الأخرى لقادر على أن يعيد الإنسان بعد الموت إلى الحياة مرّة أخرى.

٣- إنّ من خلق هذا النّظام لأجل حياة الإنسان في هذا الكون، ثمّ خلق الإنسان وأسكنه في الكون، ولسكونه في اللّيل وعمله في النّهار لا يعقل أن يترك هذا الإنسان بدون شريعة. فإنّ الإنسان هو الإنسان تختلف أعمال أفراده في الحسن والقبح، وتتنافس أفراده على الحياة. ويقع بينهم التّخاصم والاختلاف، فيدعو حال الإنسان هذا إلى أن يضع الله تعالى لهم شريعة يعملون بها، فيحلّوا بها مشاكلهم ويفصلوا بها منازعاتهم ويفرّقوا بها بين الخير والشّرّ والحسن والقبيح، وأنّ الشّريعة تحكم بثواب المطيع وعقاب العاصي، وحيث لا يوجد هذا الثّواب والعقاب كلّيّا في الدّنيا فلا بد من أن يأتي يوم يجري فيه هذا الثّواب والعقاب، وليتحقّق فيه عدل الله تعالى هذا.

ثمّ بعد أن ذكر تعالى الدّليل على مجيء السّاعة أراد أن يذكر ما يجري فيها فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

(ويوم) أي واذكر للنّاس يوم **(ينفخ في الصّور)** قد تكلّمنا على معنى النّفخ في الصّور وعدد النّفخات في سورة النّبأ عن الآية ﴿ونفخ في الصّور فتأتون أفواجاً﴾ كلاماً مفصّلاً يغني عن الكلام هنا[1] **(ففزع من في السّماوات ومن في الأرض)** أي خافوا خوفاً ماتوا كلّهم على أثره **(إلّا من شاء الله)** وهم بعض الملائكة مثل جبريل وإسرافيل وميكائيل وغيرهما ممّن أراد الله تعالى إبقاءه للقيام بأمور الآخرة **(وكلّ)** أي وكلّ **من** في السّماوات والأرض أتوه أي أتوا الله تعالى **(داخرين)** أي أذلّاء له **(وترى)** أيّها الرّائي **(الجبال)** في ذلك اليوم **(تحسبها جامدةً)** أي ساكنة ولكنّها ليست ساكنة بل **(وهي تمر)** تسير **(مرّ السّحاب)** أي مثل سير السّحاب في السّرعة وفي أنّها تطير في الهواء **(صنع الله)** أي يصنع الله تعالى هذا الصّنع وهو مرور الجبال **(الّذي)** أي الله الّذي **(أتقن)** أحكم صنع **(كلّ شيء إنّه)** أي الله **(خبير بما تفعلون)** أي بكلّ أفعالكم لأنّ الخالق خبير بمخلوقه فيجازيكم على هذه الأفعال كلّها إن خيراً فبخير وثواب وإن شرّاً فبشرّ وعذاب.

ثمّ فصّل الله جزاءه فقال جلّ وعلا:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

(من جاء بالحسنة) وهي الإيمان والتّوحيد والعمل الصّالح **(فله)** ثواب **(خير)** وأكثر

---

(١) أحال على تفسير سورة النبأ لأنه رحمه الله تعالى فسرها قبل هذه السورة إذ كان يدرسها لدورة تطويرية لشيوخ المساجد.

(منها) وهي الجنّة والنّعيم المقيم والحسنة بعشرة أمثالها وإلى سبعمائة، بل يزيد الله تعالى لمن شاء **(وهم من فزع)** أي من خوف العذاب **(يومئذٍ)** يوم أن قامت القيامة **(آمنون)** مطمئنّون **(ومن جاء بالسّيئة)** وهي الكفر بالله أو الإشراك به **(فكبّت)** ألقيت **(وجوههم)** مقلوبة أي يطرحون مقلوبين **(في النّهار)** فتلقى وجوههم النّار قبل باقي الأعضاء ويقال لهم **(هل)** الإستفهام للإنكار فيفيد النّفي أي ما **(تجزون)** اليوم **(إلّا ما)** أي مقابل ما **(كنتم تعملون)** في الدّنيا من الكفر والوقوف دون نشر الإسلام ورفع رايته.

ثمّ إنّ الكافرين كانوا يريدون من رسول الله (ﷺ) أن يداريهم ويداهنهم بعض المداهنة في العقيدة لكي يرتفع بعض الخلاف والشّقاق بينهم فأمره الله تعالى أن يعلن لهم منهجه ويذكر لهم خلاصة دعوته فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

(إنّما) أي قل يا أيّها النّبيّ للكافرين مبيناً منهجك **(إنّما أمرت)** من الله تعالى **(أن أعبد ربّ هذه البلدة)** وحده ولا أشرك به شيئاً و **(الّذي)** والرّب الّذي **(حرّمها)** أي جعل هذه البلدة حراماً أي محترماً ومعظماً وحرّم إنشاء القتال فيها **(و)** أن أعتقد أنّ **(له)** لله **(كلّ شيء)** خلقاً وإيجاداً وتصرّفاً وتبديلاً وتغييراً لا تصرّف لأحد غيره، وأنّ ظواهر تصرّفات الغير فهي من تصرّفه حقيقة، وإنّما غيره مظاهر ومجاري وأسباب **(وأمرت أن أكون من المسلمين)** المنقادين لأمر الله تعالى وحده **(وان أتلو القرآن)** لأعلم أو أمره فأطبّقها وأعمل بها، فالقرآن هو دستور الله تعالى وهو الواجب أن يعمل له ويطبّق **(فمن اهتدى)** واتّبع هديك ومنهجك وعمل بالقرآن **(فإنّما يهتدي لنفسه)** لأنّه ينفع نفسه في الدّنيا والآخرة **(ومن ضلّ)** عن دينك دين الله تعالى فلا تقهره بل **(فقل إنّما أنا من المنذرين)** فوظيفتي الإنذار فقط، ولست ممّن أجبر النّاس على الإيمان بالقتل أو بإظهار خوارق العادات كما تريدون منّي **(وقل الحمد لله)** على ما هداني إلى منهجه و أنزل عليّ قرآنه فهو الّذي **(سيريكم آياته)** الدّالة على حقيّة ما أدعوكم إليه يوماً بعد

يوم، فقل يا أيّها النّبيّ هذه الأموال لهم وأعلن لهم منهجك كذلك، ثمّ فوّض الأمر إلى ربّك **(وما ربّك بغافل عمّا تعملون)** أنتم والكفّار فينصركم عليهم ويكون لكم العاقبة وحسن الختام، وفي هذه الآيات دليل على أنّ الدّعوة يجب أن تكون صريحة لا غموض فيها ولا مداهنة ولا مجاملة ولا نفاق، كما يفعل ذلك أرباب المذاهب والمبادئ المضلّة.

وصلّى الله على المولى محمّد وعلى آله وأصحابه وأهله أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين أولاً وآخراً ومنه التّوفيق وحسن الخاتمة.

سورة القصص

(مكيّة، سمّيت بذلك لما فيها من قصص سيّدنا موسى (عليه السلام)، وهي ثمان وثمانون آية نزلت بعد سورة النّمل)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾

(طسم) هذه حروف مقطّعة جيئ بها للدّلالة على أنّ القرآن من الله تعالى، وقد ذكرنا وجه دلالتها على ذلك في أوّل سورة البقرة، ويدلّ على أنّه جيئ بها لذلك؛ ذكرُ الله تعالى بعدها مباشرة حال القرآن؛ فقال جلّ وعلا: **(تلك)** أي الّتي تتلى عليك هي **(آيات الكتاب المبين)** أي اللّوح المحفوظ أو القرآن و**(المبين)** أينما وقع في القرآن فهو من أبان المزيد، بمعنى الموّضح، أو من بان المجرّد أي المتّضح، ويفسّر حسب ما يناسب المقام، فهنا سواء كان المراد بالكتاب اللّوح أو القرآن فهو بمعنى الموضّح للأخبار الصّادقة والأحكام الصّحيحة والعقائد الحقّة **(نتلو)** أي نقصّ في هذه الآيات **(عليك)** أيّها النّبيّ **(من نبأ)** أي خبر **(موسى وفرعون)** والّذي جرى بينهما تلاوة ملتبسة **(بالحقّ)** أي بما يوافق الواقع ونفس الأمر، ليكون عبرة وموعظة **(لقوم يؤمنون)** وإنّ هذه القصّة عبرة لكلّ أحد إلّا أنّه حيث لا يتّعظ بها إلّا المؤمنون أي الّذين يحبّون الإيمان والإهتداء إلى الحقّ خصّ الذّكر بهم.

ثمّ بدأ الله تعالى بذكر القصّة فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾

(إنّ فرعون) لقب حكّام مصر مشتقّ من الفرعنة أي الدّهاء والمكر، وفرعون موسى كان اسمه الوليد بن مصعب، ويستعمل فرعون لكلّ عات ومتكبّر، ففرعون موسى **(علا)** أي تكبّر في الأرض أي في أرض مصر **(وجعل أهلها)** أي أهل مصر **(شيعاً)** جمع شيعة من شايع أي تابع أي جعلهم فرقاً مختلفة، ليستطيع أن يستخدمهم ويحكم عليهم، فإنّ التّفرّق سبب لضعف الأمّة، وضعفها سبب لسهولة الإستيلاء عليها، وقديماً يقال: فرق تسد[1]. ثمّ فسّر الله تعالى تفرقته بين النّاس فقال جلّ وعلا: **(يذبح)** أي يقتل ذبحاً

(١) **فَرّق تَسُدْ** هو مصطلح عسكري اقتصادي الأصل اللاتيني له."divide et impera" ويعني تفريق قوة الخصم الكبيرة إلى أقسام متفرقة لتصبح أقل قوة وهي غير متحدة مع بعضها البعض مما يسهل التعامل معها كذلك يتطرق المصطلح للقوى المتفرقة التي لم يسبق أن اتحدت والتي يراد منعها من الاتحاد وتشكيل قوة كبيرة يصعب التعامل معها. وسياسة فرق تسد ليست بسياسة جديدة بل هي قديمة قدم السياسة نفسها حيث طبقها القدماء لتفكيك قوى أعدائهم وتحييد هذه القوى من خلال توجيهها داخليا واحدة ضد الأخرى. في شكله الحالي ومنذ نشأته في بداية سبعينات القرن التاسع عشر طبق هذا الأسلوب القديم في السياسة لنفس الأغراض والأهداف ومن أجل إضفاء الشرعية على احتلاله لبلد ما من خلال الظهور. ويبدو أن سياسة فرق تسد تأتي بعد مرحلة فرق تغزو، لأن استعباد شعب ما والاستيلاء على أراضيه وثرواته يتطلب أولاً إنهاك قواها العسكرية والاقتصادية لغرض تسهيل العملية وتقليص تكاليفها. وهذا يتم عادة من خلال إثارة الفتنة الطائفية والتحريض على نشر روح الانتقام بين الطوائف والطبقات المكونة لهذا الشعب وإشعال حروب داخلية وخارجية تنتهي بإنهاك قوى كافة الأطراف. وهو في الوقت الحاضر = سياسة استهدامية إستعملها الحلفاء المستهدمون الذين احتلوا بلاد المسلمين بداية القرن العشرين ففرقوهم إلى دويلات حسب القوم والطائفة والإقليم وأوجدوا بينهم صراعات على=

(أبناءهم ويستحي) أي يترك نساءهم في الحياة **(إنّه)** بعمله هذا **(كان من المفسدين)** في الأرض لا المصلحين، والطّائفة الّتي كان يفعل بهم ذلك هم بنو إسرائيل، وفي سبب ذلك رأيان:

الأوّل: إنّ الكهنة والمنجّمين أخبروه بأنّه يولد من بني اسرائيل من يكون زوال ملكه على يديه، فأمر بذبح كلّ ولد ذكر يولد في بني إسرائيل.

الثّاني: إنّه كان هناك منافسة قوميّة عنصريّة بين القبط وبني اسرائيل، وفرعون كان من القبط، وكان بنو اسرائيل يتناسلون بكثرة فخاف من كثرة رجال بني اسرائيل أن يثوروا عليه ويستلموا الحكم من الأقباط. وهذا الرّأي أصحّ لأنّه بعد مدة من قتله أبناء بني اسرائيل جاءه شيوخ القبط فقالوا إنّك تقتل شبابهم وشيّابهم يموتون، فيؤدي ذلك إلى عدم بقاء الأيدي العاملة في البلد وتعطيل الأمور والحرف والصّنائع! فأمر بأن يقتلوا سنة ويتركوا سنة، فلو كان السّبب خبر الكهنة لما فعل ذلك لأنّه ربّما يولد من أخبروا عنه في سنة ترك قتلهم، فكان فرعون يفسد هكذا في الأرض. **(ونريد أن نمنّ)** أي ننعم **(على الّذين استضعفوا في الأرض)** وهم بنو اسرائيل **(ونجعلهم أئمةً)** أي سادة **(في الأرض)** يتّبعهم النّاس **(ونجعلهم الوارثين)** لملك فرعون وسلطانه **(ونمكّن)** ونعطي القوّة والتّمكين والسّلطان **(لهم في الأرض)** أرض الشّام ومصر **(ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون منه)** وهو استيلاء بني إسرائيل على الأقباط، فأردنا أن نفعل ذلك على يد واحد من آل عمران فقدّرنا ذلك **(وأوحينا إلى أمّ موسى)** حين ولدت موسى **(أن أرضعيه)** أي موسى مدّة **(فإذا خفت عليه)** أن يعلم به جنود فرعون فيقتلوه **(فألقيه في اليّم)** أي في البحر **(ولا تخافي)** من غرقه فإنّا نحفظه من الغرق **(ولا تحزني)** على فراقه حيث **(إنّا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين)** منّا إلى النّاس لهدايتهم إلى عبادتنا والعمل بشريعتنا، والمراد بالوحي إليها هنا الإلهام أو رؤيا صادقة، أو جاءها ملك فبشّرها بما ترى وأمرها بذلك، وليس هذا الوحي وحي النّبوّة والرّسالة لأنّه لم يجعل الله النّبوّة للنّساء بدليل قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحي إليهم

المصالح والحدود وغيرها ليبقوهم ضعفاء يسهل السيطرة عليهم والتلاعب بمصيرهم. واستعملها مجددا أمريكا وحلفاؤه عن طريق ما سمي بالربيع العربي والثورات الشعبية وغيره في بلاد العرب والمسلمين لإحداث فوضى عارمة لا يقوم بعدها للأمة قائم.

من أهل القرى﴾ سورة يوسف الآية|١٠٩. وقد بسطنا الكلام على الموضوع هناك فامتثلت أمّ موسى فأرضعته وبعد أن خافت عليه وضعته في تابوت سدّت منافذه بالقار وألقته في اليم.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

(**فالتقطه**) أي فبعد أن ألقت الأمّ ابنها موسى في البحر (**التقطه آل فرعون**) أي أتباعه أو أهل بيته (**ليكون**) اللّام لام عاقبة أي التقطوه وربّوه فكان العاقبة أن يكون (**لهم عدوّاً وحزناً**) وسبباً لأحزانهم ومصائبهم. ثمّ بيّن الله تعالى سبب أن كان موسى في العاقبة عدوّاً لفرعون وأتباعه فقال جلّ وعلا: (**إنّ فرعون وهامان**) وهو وزير فرعون (**وجنودهما كانوا خاطئين**) أي عاصين ومذنبين، فعاقبهم الله تعالى على يد موسى وهارون (عليهما السّلام) فلمّا التقطه آل فرعون أتوا به إلى فرعون فأراد فرعون أن يقتله إلّا أنّ الله تعالى منعه من قتله حيث (**وقالت امرأة فرعون**) لفرعون وقد ألقى الله تعالى حبّ موسى في قلب فرعون وامرأته، فقالت المرأة هذا أي موسى (**قرّة عين**) أي برد عين كناية عن السّرور أي هو سبب سرور (**لي ولك لا تقتلوه**) فإنّه (**عسى**) يترجّى منه أن ينفعنا (**أو**) أي بل (**نتّخذه ولداً**) حيث لاولد لنا، فوقع قول الإمرأة منهم موقع قبول، فتركوا قتله وتبنّاه فرعون وربّاه في بيته كابن له (**وهم لا يشعرون**) أنّه هو الّذي يكون سبب هلاكهم.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

(و) لما التقطه آل فرعون وسمع النّاس أنّ آل فرعون عثروا على تابوت فأخرجوا منه ولداً وذهبوا به إلى بيت فرعون **(أصبح فؤاد)** قلب **(أم موسى فارغاً)** من الطّمأنينة الّتي حصلت لها حينما قيل لها في الإلهام أو الرّؤيا أو من الملك **(لا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه اليك)** فأصبحت قلقة جدّاً، كيف لا، وقد التقطه آل فرعون وذهبوا به إلى بيته وهم يقتلون الأولاد، فبلغ قلقها إلى حال **(أنّ)** أي قد **(كادت لتبدي به)** بحال هذا الولد فتبكي وتصرخ وتقول: إنّه ولدي وأنا ألقيته في اليمّ، فالآن يقتلونه **(لولا أن ربطنا على قلبها)** أي ثبّتناها وصبرناها على الكتم حتّى لاتخبر النّاس بحال الولد وربطنا على قلبها **(لتكون من المؤمنين)** بأنّ الله تعالى ينجز ما وعد به **(وقالت لأخته)** أي لأخت موسى **(قصيه)** أي اتّبعي أثره وانظري ماذا يفعلون، وكيف يقتلونه وأين يدفنونه، فذهبت الأخت إلى بيت فرعون **(فبصرت)** أي نظرت إليه **(عن جنب)** أي في جانب تجنّباً من أن يحسّوا بأنّ للولد صلة بها **(وهم لا يشعرون)** أنّها أخته **(وحرّمنا عليه المراضع)** أي منعنا الطّفل من أن يرتضع من واحدة من النّساء، فكان لا يقبل ثدي أيّ إمرأة بتتاً، فكان أهل بيت فرعون في قلق وتفتيش عن امرأة يقبل الولد ثديها ليستأجروها ويأتي ثمن كان **(فقالت)** لهم أخته **(هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم)** يرضعونه ويحضنونه **(وهم له ناصحون)** مخلصون؟ قالوا: نعم، ويا حبّذا. فرجعت إلى أمّها وقصّت عليها القصّة وذهبت بها إلى بيت فرعون، فأرضعت موسى وارتضع هو منها، وقبل ثديها فاستأجروها كمرضعة له، فكانت دائماً تأتي إلى بيت فرعون لإرضاعه وخدمته **(فرددناه إلى أمّه كي تقرّ عينها)** بكونه حيّاً عندها **(ولا تحزن)** بفراقها **(ولتعلم أنّ وعد الله حقّ)** ولا إخلاف فيه **(ولكنّ أكثرهم)** أي أكثر النّاس **(لا يعلمون)** بأنّ وعد الله حقّ، ومنهم أمّ موسى حيث لم تطمئن بالوعد، وقلقت عندما سمعت خبر موسى وأنّه إلتقطه آل فرعون. فتربّى موسى في بيت فرعون كإبن للملك حتّى أصبح شابّاً قويّاً وبلغ رشده ومبلغ الرّجال كما قال جلّ وعلا:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ

إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

(ولمّا بلغ) موسى **(أشدّه)** قوّة في العقل والجسم **(أتيناه حكماً)** فكان يسوس النّاس كابن للملك **(وعلما)** بالسّياسة وادارة دقّة الحكم **(وكذلك)** مثل ما عملنا لموسى **(نجزي المحسنين)** كلّهم بسبب إحسانهم **(ودخل)** موسى **(المدينة)** أي السّوق أو البلد يوماً **(على حين)** أي في وقت غفلة من أهلها والظّاهر أنّه كان في اللّيل وكان يفتش حال النّاس **(فوجد فيها رجلين يقتتلان)** فكلّ واحد يريد أن يقتل الآخر **(هذا)** أي أحدهما من شيعته أي بني اسرائيل **(وهذا)** الآخر **(من عدوّه)** من القبط **(فاستغاثه الّذي من شيعته)** وأراد أن يعينه **(على الّذي من عدوّه فوكزه)** أي فضرب موسى القبطي ضربة بيده **(فقضى عليه)** أي فكان ذلك سبب موته، فمات فندم موسى **(قال إنّ هذا)** كان **(من عمل الشّيطان)** حملني الشّيطان عليه **(إنّه)** أي الشّيطان **(عدوّ)** لكلّ انسان **(مضلّ)** يحمله على فعل الشّر **(مبين)** مظهر عدواته من أوّل ما خلق آدم أبو الإنسان ألأوّل، ثمّ توجّه موسى إلى الله تعالى **(قال ربّ إنّي ظلمت نفسي)** بضرب هذا، و إنّ قتل الخطأ وإن لم يكن ذنباً اعتبره موسى ذنباً لشدّة ورعه، فدعا ربّه **(قال ربّ اغفر لي)** من هذا الأمر **(فغفر)** تعالى له **(إنّه هو الغفور)** لا غافر إلّا هو **(الرّحيم)** ولرحمته يغفر لا لأمرٍ آخر، ثمّ عزم على عدم العود إلى مثل هذه الأمور **(قال ربّي)** قسماً **(بما أنعمت عليّ)** من القوّة والحكم **(فلن أكون)** في المستقبل **(ظهيراً)** معيناً **(للمجرمين)** على إجرامهم أبداً.

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

(فأصبح) موسى بعد هذه الحادثة **(في المدينة خائفاً يترقّب)** ينتظر عواقبها **(فإذا**

الّذي إستنصره بالأمس) من بني إسرائيل **(يستصرخه)** يستغيثه على قبطي آخر يقتله **(قال له موسى إنّك لغويّ)** أي منحرف عن الرّشد **(مبين)** غوايتك حيث فعلت بالأمس وكرّرته اليوم **(فلمّا أن أراد)** موسى **(أن يبطش بالّذي هو عدوّ لهما)** وهو القبطي حيث كان عدوّاً لموسى وللإسرائيلي، لأنّه لم يكن على دينهما أوّلاً، وكان من القوم المنافس والمضطهد للإسرائيليّين جميعاً. فرفع موسى يده وظنّ الإسرائيلي أنّ موسى يريده لأنّه قال له **(إنّك لغويّ مبين)** فصاح **(قال يا موسى أتريد أن تقتلني)** اليوم **(كما قتلت نفساً بالأمس إنْ)** أي ما **(تريد)** يا موسى **(إلّا أن تكون جباراً في الأرض)** في أرض مصر **(وما تريد أن تكون من المصلحين)** أبداً. فانكشف أمر موسى وثبت عليه قتل القبطي، فقرّر جماعة فرعون أن يقتلوه **(وجاء رجل)** إلى موسى **(من أقصى المدينة)** أي من الطّرف الأبعد منها **(يسعى)** يمشي سريعاً **(قال يا موسى إنّ الملأ)** أي جماعة فرعون **(يأتمرون بك)** أي يأمر بعضهم بعضاً **(ليقتلوك فاخرج)** من البلدة **(إنّي لك من النّاصحين)** من المخلصين **(فخرج)** موسى **(منها)** أي المدينة فوراً وكان **(خائفاً يترقّب)** ينتظر أن يتّبعه جنود فرعون فيدركوه وتوجّه إلى الله داعياً **(قال ربّ نجّني من القوم الظّالمين)** أي قوم فرعون.

وهنا سؤالان:

السّؤال الأوّل: كيف اعتبر موسى قوم فرعون ظالمين مع أنّهم كانوا يريدون القصاص منه، وطالب القصاص ليس بظالم؟

الجواب: أوّلاً: إنّ قتله كان خطأً، ومن أراد أن يقتل القاتل خطأً فهو ظالم لأنّه جوز حدّ الله، لأنّ حدّ الله تعالى للقاتل الخطأ هو الدّية لا القصاص.

ثانياً: إنّهم كانوا ظالمين لكفرهم وعبادة فرعون والأصنام.

ثالثاً: كانوا ظالمين لإضطهادهم بني اسرائيل واستعبادهم إيّاهم.

السّؤال الثّاني: إنّ موسى تاب وقال: (ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي) ثمّ حلف أن لا ينصر بعد ذلك ظالماً فقال: (ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين) فكيف أراد أن يبطش هذه المرّة بالقبطي أيضاً ونصراً للإسرائيلي مع قوله له: (إنّك لغويّ مبين)؟

الجواب بوجهين:

الأوّل: أنّه لم يرد بالبطش ضربه، وإنّما أراد أن يمنعه من النّزاع و من قتل الإسرائيلي.

الثّاني: أنّه ربّما تبيّن له بعد قوله للإسرائيلي إنّك لغويّ مبين، أنّ القبطي مجرم فأراد تأديبه ومنعه والله تعالى أعلم.

* * *

ولما خرج موسى من المدينة توجّه إلى طرف مدين وهي قرية سمّيت باسم مدين ابن ابراهيم (عليه السلام)، فتوجّه إلى مدين لأنّهم كانوا من أبناء عمومته، لأنّه كان يرجع إلى إسحاق ابن ابراهيم (عليه السلام) ومدين كانت تبعد عن مصر مسيرة ثمانية أيّام، فذكر الله تعالى مسيره بعد ماخرج وتوجّه إلى مدين؛ فقال جل وعلا:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

(ولمّا توجّه تلقاء) أي إلى جهة (مدين **قال عسى**) أي أترجّى من (**ربّي أن يهدين سواء السّبيل**) أي طريقاً مستوياً يوصلني إلى مدين ولا أضلّ فيه **(ولما ورد ماء مدين)** وكان بئراً يسقون فيها مواشيهم **(وجد عليه أمّة)** جماعة من الرّعاة **(يسقون)** مواشيهم وأغنامهم **(ووجد من دونهم)** أي أسفل منهم **(إمرأتين تذودان)** أي ترفعان أغنامهما عن الماء **(قال)** موسى للإمرأتين **(ماخطبكما)** أي ماشأنكهما تذودان أغنامكما عن الماء **(قالتا لا نسقي)** أي لا نستطيع أن نسقي أغنامنا ولا يفسحون لنا المجال **(حتّى يصدر الرّعاء)** أغنامهم ويبتعدوا عن الماء **(وأبونا شيخ كبير)** لا يقدر أن يأتي إلى السّقي فيسقي لنا، فقام موسى ودفع الرّعاة كلّهم عن الماء وزجرهم على عدم مساعدتهم لتينك المرأتين الضّعيفتين **(فسقى لهما)** غنمها **(ثمّ تولّى إلى الظّل)** أي ظلّ شجرة كانت هناك وتوجّه

إلى الله تعالى (**فقال ربّ إنّي لما أنزلت**) أي لما تنزل (**إليّ من خير**) من مال ورزق (**فقير**) ومحتاج، حيث إنّي في مكان لا أهل لي فيه ولا مال ولا ذو قرابة قريبة، فأين أتوجّه ومن يؤتيني ويضيّفني، فرجعت الإمرأتان إلى البيت، فسألهما أبوهما عن سبب رجوعهما قبل أن يأتي موعد رجوعهما في سائر الأيام؟ فذكرتا له الحادثة، فقال الأب لإحداهما: إذهبي وأْتِي به لنكافئه عن العمل الّذي قام به.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

(**فجاءته**) أي فجاءت موسى وهو تحت ظلّ الشّجرة (**إحداهما**) احدى الإمرأتين وكانت (**تمشي على استحياء**) وخجل وحشمة وحجاب (**قالت**) لموسى (**إنّ أبي يدعوك**) أي يعْزمك في بيته (**ليجزيك أجر**) مكافأة (**ما سقيت لنا**) ما مصدريّة تؤول ما بعدها مصدراً أي أجر سقيك لنا، فقام موسى ومشى معها (**فلمّا جاءه**) أي جاء أباهما (**وقصّ**) وذكر (**عليه القصص**) أي حادثته (**قال**) أبو الامرأتين له (**لا تخف**) حيث (**نجوت من القوم الظّالمين**) لأنّهم لا قوّة لهم بهذه الدّيار (**قالت إحداهما**) أي إحدى البنتين (**يا أبت استأجره**) ليرعى غنمنا حيث (**إنّ خير**) أحسن (**من استأجرت**) هو الرّجل (**القويّ الأمين**) وهو كذلك، فسألها: بم علمت قوّته وأمانته؟ فقالت: أمّا قوته فإنّه دفع الرّعاة عن البئر فلم يقدروا على مقاومته، وأمّا أمانته، فإنّه لمّا رآني صوب رأسه فلم ينظر إليّ، وفي الطّريق قال: إمشي خلفي ودلّيني على الطّريق، وظننت أنّه كره أن ينظر إلى ساقي، فقبل الأب قول ابنته وصوّب رأيها فتوجّه إلى موسى وخاطبه.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾﴾

(قال) أبو البنتين لموسى **(إنّي أريد أن أُنكحك)** أي أزوّجك **(إحدى ابنتيّ هاتين)** فاختر منهما من تعجبك **(على)** صداق وهو **(أن تأجرني)** أي تخدمني في رعي غنمي **(ثماني حجج)** جمع حجّة أي ثماني سنوات **(فان أتممت عشراً)** من السّنين **(فـ)** هو فضل **(من عندك وما أريد أن أشقّ عليك)** فأشترط عشر سنوات **(ستجدني إن شاء الله من الصّالحين)** من المعاشرة معك طول هذه السّنين، فوافق موسى على ذلك **(قال ذلك)** أي إتمام العشرة شيء **(بيني وبينك أيّما الأجلين)** المدّتين الثّماني أو العشر **(قضيت)** فهو باختياري **(فلا عدوان)** فلا إلزام منكم **(عليّ والله على ما نقول وكيل)** أي شهيد فتمّ بذلك الزّواج.

﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

(فلمّا قضى) أي أتمّ **(موسى الأجل)** عشر سنوات **(وسار بأهله)** ليرجع إلى مصر مسقط رأسه، وضلّ الطّريق وخيّم عليهم اللّيل وأصابهم البرد الشّديد **(آنس)** رأي **(من جانب)** جبل **(الطّور ناراً)** مشتعلة **(قال لأهله امكثوا)** أي أقيموا هنا حيث **(إنّي آنست ناراً)** فأذهب إليها **(لعلّي آتيكم منها)** أي ممّن حولها **(بخبر)** من الطّريق **(أو جذوة)** أي شعلة **(من النّار)** نفسها **(لعلّكم تصطلون)** أي لكي تستدفئوا بها، فترك أهله هناك وذهب إلى النّار **(فلمّا أتاها)** أي وصلها **(نودي من شاطئ)** أي من جانب **(الواد الأيمن)** الواقع على يمين موسى **(في البقعة المباركة)** يتجلّى الله تعالى فيها **(من الشجرة)** الموجودة في البقعة وقيل له **(أن يا موسى إنّي أنا الله ربّ العالمين)** كلّهم تجلّيت هنا وأتكلّم معك **(وأن الق)** أطرح **(عصاك)** على الأرض فطرحها فأصبحت حيّةً **(فلمّا رآها تهتز)** تتحرّك

وتتجوّل **(كأنّها جانٌّ ولّى)** أعرض عنها وهرب **(مدبراً)** جعل ظهره إليها لكي لا يراها خوفاً منها **(ولم يعقّب)** ولم يفتّش عن حال العصا، فناداه الله تعالى قال: **(يا موسى أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين)** المحفوظين فلا يصيبك ما يضرّك فأقبل ولا تدبر، وارجع إلى مكانك مكان الخطاب فرجع **(اسلك)** أي أدخل **(يدك في جيبك)** وهو طرف القميص المحيط بالعنق **(تخرج)** يدك بعد ذلك **(بيضاء)** تضيء كالسّراج **(من غير سوء)** أي مرض كالبرص **(واضمم إليك جناحك)** أي إلى صدرك جناحك كما يضمّ الطائر جناحه إلى جسده فافعل ذلك **(من الرّهب)** من الخوف الّذي أصابك، فبهذا العمل يزول خوفك، أقول وهل هذا مختصّ بموسى أو كلّ من فعل ذلك يقلّ خوفه؟ الظّاهر أنّه عام **(فذانك)** أي العصا واليد البيضاء **(برهانان)** معجزتان **(من ربّك)** أرسلك بهما **(إلى فرعون وملئه إنّهم كانوا)** أي أصبحوا **(قوماً فاسقين)** خارجين عن حدود الله تعالى وعن حدود العدل والإنصاف؛ فاذهب إليهم وعظهم لعلّهم يهتدون، أو تقوم الحجّة عليهم ويستحقّوا العذاب والتّدمير، فلمّا سمع موسى هذه الخطابات من الله تعالى ذهب عنه الخوف من الحيّة، وعلم أنّه رسول كلّف بالذّهاب إلى فرعون وجماعته، فاستصعب ذلك فخاطب الله تعالى بقوله:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(قال) موسى **(ربّ إنّي قتلت منهم نفساً)** شخصاً **(فأخاف)** إن ذهبت إليهم **(أن يقتلون)** أصله يقتلونني، ذهبت نون الجمع بالنّصب بأن والياء للتّخفيف ورعاية الفواصل **(وأخي هارون هو أفصح)** أبين **(منّي لسانا)** أي كلاماً **(فأرسله معي ردءاً)** أي مساعداً **(يصدّقني)** حيث **(إنّي أخاف أن يكذّبون)** أصله يكذّبونني، فعومل به معاملة **(يقتلون)** **(قال)** تعالى لموسى أجبنا دعاءك **(سنشدّ)** أي سنقوّي **(عضدك بأخيك)** هارون، وأرسلناه معك **(ونجعل لكما سلطاناً)** أي وغلبة معنويّة **(فلا يصلون إليكما)** بمكروه **(بآياتنا)** أي بسبب سلطان آياتنا **(أنتما ومن اتّبعكما الغالبون)** عليهم في عاقبة الأمر ونهاية المطاف، فامتثل موسى الأمر فذهب إلى فرعون وملئه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾

(فلما جاءهم) أي جاء فرعون وملأه **(موسى بآياتنا)** بمعجزاتنا الّتي كانت **(بيّنات)** واضحات في الدّلالة على رسالة موسى **(قالوا)** أي فرعون وملؤه **(ماهذا)** الّذي جاء به موسى من خوارق العادات **(إلّا سحر مفترى)** به على الله تعالى **(وما سمعنا بهذا)** الّذي يدعونا إليه موسى من التّوحيد وترك عبادة غير الله **(في)** عصر **(آبائنا الأوّلين)** فما أعجب ماجاء به موسى من دين **(وقال موسى)** لهم **(ربّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده)** أي من عند الله منّي ومنكم، وبمن ضلّ منّا فيجازي كلّاً وفق منهجه وعقيدته **(و)** ربّي أعلم **(من تكون له عاقبة الدّار)** أي العاقبة الحسنة في الدّار الآخرة والدّنيا، وقصد موسى أنّ العاقبة له حيث قال **(إنّه لا يفلح الظّالمون)** وهم أنتم، فلا تكون لكم العاقبة الحسنى بتاتاً.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾

(وقال فرعون) لقومه **(ياأيّها الملأ)** أي النّاس المجموعون هنا **(ما علمت لكم من إله غيري)** ولو عملت ذلك لأمرتكم بالإيمان به **(فأوقد)** النّار **(لي يا هامان على الطّين)** لتكون أجراً **(فاجعل لي)** فابن لي لهذا الأجر **(صرحاً)** بناءً رفيعاً جداً فأصعد عليه **(لعلّي أطّلع إلى إله موسى)** الّذي يدّعى أنّه في السّماء **(وإنّي لأظنه)** أي موسى **(من الكاذبين)**

في قوله بإله غيري **(واستكبر هو)** أي فرعون **(وجنوده)** أتباعه **(في الأرض بغير الحقّ)** فلم يؤمنوا بموسى وما خافوا العذاب حيث **(وظنّوا أنّهم إلينا لا يرجعون)** للحشر والحساب فلم يؤمنوا بالآخرة كما لم يؤمنوا بموسى وبالله تعالى **(فأخذناه وجنوده فنبذناهم)** فطرحناهم **(في اليمّ)** في النّيل **(فانظر كيف كان عاقبة الظّالمين)** المكذّبين بالرّسل، فاعتبر بهم أيّها الرّائي وأيّها السّامع لهذا الخبر الصّادق **(وجعلناهم)** بعد هذه المقالات غير موفقين للخبر بل خذلناهم بسبب هذا الطّغيان وجعلناهم **(أئمّةً)** قادة **(يدعون)** النّاس **(إلى)** عمل أهل **(النّار ويوم القيامة لا ينصرون)** فلا ينقذون من العذاب **(وأتبعناهم في هذه الدّنيا لعنةً)** على لسان النّاس **(ويوم القيامة هم من المقبوحين)** أي الملعونين أيضاً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

(ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التّوراة والحكم والشّريعة **(من بعد ما أهلكنا)** ما مصدريّة أي من بعد إهلاكنا **(القرون)** أي أهل القرون **(الأولى)** وهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون وغيرهم، وكانت التّوراة **(بصائر للنّاس)** أنواراً تنير القلوب إلى إدراك الرّشد والحقّ **(وهدى ورحمة)** لهم **(لعلهم يتذكّرون)** والتّرجّي المفهوم من لعلّ بمعنى الأمر، أي فليتذكّروا وليتّعظوا وليعملوا بالتّوراة. ذكر ابن كثير عن ابن جرير ووصله إلى أبي سعيد الخدري أنّه قال: (ما أهلك الله قوماً بعذاب من السّماء ولا من الأرض بعد ما أنزلت التّوراة على وجه الأرض غير قرية مسخوا قردة بعد موسى (عليه السلام)، ثمّ قرأ هذه الآية. وأيّده ابن كثير برواية موصولة إلى الرّسول (ﷺ).

ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت أنّ القرآن وحي من الله تعالى فقال جل وعلا:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(وما كنت) يا محمّد **(بجانب)** الجبل **(الغربيّ)** صفة جانب **(إذ قضينا)** أوحينا **(إلى موسى الأمر)** بالرّسالة فتخبر بذلك **(وما كنت من الشّاهدين)** لذلك الحال والحادثة؛ فإخبارك بهذا الأمر كما هو لدليل على أنّه أوحي إليك **(ولكنّا أنشأنا)** أي خلقنا **(قروناً)** أي أهل قرون من بعد موسى **(فتطاول عليهم العمر)** والزّمان وابتعدوا عن شريعة الله تعالى فأرسلناك لتعود بهم إلى دين الله الحقّ **(وما كنت ثاوياً)** مقيماً **(في أهل مدين)** فتعلم أخبار موسى فيها من سقي الغنم للمرأتين وزواج أبيها منه أحديهما وأستئجاره مقابل ذلك، ومع ذلك **(تتلو عليهم)** على أهل مكّة **(آياتنا)** المخبرة عن حال موسى في مدين **(ولكنّا كنّا مرسلين)** لك وأوحينا إليك هذه الأخبار **(وما كنت بجانب الطّور إذ نادينا)** موسى ما قصصنا عليك **(ولكن)** أوحينا ذلك إليك **(رحمة من ربّك)** لتكون معجزة فيؤمن النّاس بسبب ذلك **(لتنذر)** بما وقع لقوم فرعون من الهلاك **(قوماً)** وهم أهل مكّة حيث **(ما أتاهم من نذير من قبلك)** فأرسلناك إليهم نذيراً لهم **(لعلّهم يتذكّرون)** أي لكي يتذكّروا ويتّعظوا فيؤمنوا.

ثمّ ذكر الله تعالى أنّه أرسل إليهم الرّسول ليبلّغهم لكي لا يبقى لهم حجّة على الله أن أتاهم عذاب بسبب ماعملوا فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

(ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) من الكفر والفساد **(فيقولوا)** لما أرسلناك، ولكن أرسلناك لكي لا يقولوا حينما تصيبهم مصيبة في الدّنيا أو الآخرة **(ربّنا لولا أرسلت)** أي لماذا لم ترسل **(إلينا رسولاً)** يبلّغنا بأحكامك ودينك **(فنتّبع آياتك)** أحكامك وشريعتك **(ونكون من المؤمنين)** بالرّسول فنكون محفوظين من هذه المصيبة والبلاء، فإنّ العذاب قبل التّبليغ ليس من عادتك يا ألله، فلهذه القولة ولقطع حجتهم وأعذارهم أرسلناك.

ثمّ ذكر الله تعالى موقفهم بعد الإرسال إليهم؛ فقال جل وعلا:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

(فلمّا جاءهم) أي أهل مكّة **(الحقّ)** محمّد والقرآن **(من عندنا)** لهدايتهم **(قالوا لولا أوتي)** محمّد من الخوارق **(مثل ما أوتي موسى من قبل)** من الخوارق كالعصا واليد البيضاء، فردّ الله تعالى عليهم بأنّه لو أوتي مثل موسى من الخوارق لمّا آمنوا، واستدلّ على ذلك بأنّ قوم موسى ما آمنوا بموسى مع ما أوتي من الخوارق، منهم لا يؤمنون أيضاً بمحمّد ولو أوتي من الخوارق لأنّ الكفر ملّة واحدة وحججهم واحدة، فقال مفيداً هذا الرّد **(أولم يكفروا)** أي النّاس **(بما أوتي موسى من قبل)** من الخوارق **(قالوا)** لموسى وهارون **(سحران)** أي ساحران **(تظاهراً)** تعاونا وادّعيا النّبوة **(وإنّا بكلّ)** منهما كافرون. أو يقال في معنى الآية **(أو لم يكفروا)** أي أهل مكّة **(بما أوتي موسى)** أيضاً؟ والجواب: بلى قد كفروا به أيضاً حيث **(قالوا)** أي أهل مكّة حينما صدق الرّسول بعض أهل الكتاب وشهدوا بأنّ محمّداً رسول، وأنّه أخبر عنه في التّوراة فقال أهل مكّة **(سحران)** أي التّوراة والقرآن سحران **(تظاهرا)** يؤيّد أحدهما الآخر **(وإنّا بكلّ)** منهما **(كافرون)** وهذا المعنى أصحّ حيث يلائم قوله **(قل)** لأهل مكّة إن لم يؤمنوا لا بالتّوراة ولا بالقرآن **(فأتوا)** أنتم **(بكتاب من عند الله هو)** أي ذلك الكتاب يكون **(أهدى)** أحقّ **(منهما)** من التّوراة والقرآن، فإن تأتوا به **(أتّبعه)** أنا **(إن كنتم صادقين)** في قولكم إنّهما سحران وليسا من عند الله تعالى **(فإن لم يستجيبوا لك)** بأن لم يؤمنوا ولم يأتوا بكتاب **(فاعلم)** أنّهم **(إنّما يتّبعون أهواءهم)** وشهواتهم **(ومن؟)** والإستفهام للإنكار أي لا تجد أحداً **(أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى)** أي دليل **(من الله)** تعالى وشريعته منه، فهؤلاء أي أتباع الهوى ظالمون ولا يهديهم الله حيث **(إنّ الله لا يهدي القوم الظّالمين)** جبراً وهم لا يختارون الهدى، بل اتّبعوا الهوى فلا يهتدون أبداً **(ولقد وصلنا لهم)** أي إليهم **(القول)** أي قولنا وأمرنا وهو الحقّ بواسطة الرّسل وبلّغناهم **(لعلّهم يتذكّرون)** أي لكي يتذكّروا ويؤمنوا أو ما على الرّسل إلّا البلاغ المبين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّه من دلائل حقيقة القرآن، وأنّه من الله تعالى أنّ أهل

العدل والإنصاف والصّدق والإخلاص من أهل الكتاب يؤمنون به امتثالاً لما يأمرهم به التّوراة والكتب السّابقة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

(**الّذين آتيناهم الكتاب من قبله**) أي قبل محمّد من اليهود والنّصارى (**هم به**) بالقرآن (**يؤمنون**) لما يعرفون من أخبار كتبهم أنّ هذا القرآن من الله تعالى (**وإذا يتلى**) القرآن (**عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ**) نزل (**من ربّنا إنّا كنّا من قبله**) أي من قبل نزوله (**مسلمين**) منقادين له ومؤمنين به لما نجد في كتبنا وصفه وأخباره (**أولئك**) الّذين يؤمنون بالقرآن من أهل الكتاب (**لهم أجرهم**) ثوابهم (**مرّتين**) مرّة لأجل الإيمان بالتّوراة والأنجيل ومرّة لإيمانهم بالقرآن، كما قال تعالى (**بما صبروا**) أي بسبب صبرهم على الإيمان والعمل بالسّابق واللاّحق (**ويدرؤون**) أي يدفعون (**بالحسنة**) بالحلم (**السّيئة**) أذى الكافرين (**وممّا رزقناهم ينفقون**) من المال والقوّة والعلم والجاه في سبيل الله وعلى المحتاجين والمعوزّين (**واذا سمعوا اللّغو**) الباطل من كلام الكافرين ضدّهم وضدّ دينهم وغير ذلك من كلّ كلام باطل (**أعرضوا عنه**) عن اللّغو (**وقالوا**) لأهل اللّغو (**لنا أعمالنا ولكم أعمالكم**) فكلّ يجزى حسب عمله (**سلام عليكم**) أي لا نقاتل ولا نعادي كما (**لا نبتغي**) أي لا نصاحب (**الجاهلين**) في جهلهم وأباطيلهم.

ثمّ إنّ الرّسول (ﷺ) كان حريصاً كلّ الحرص على إيمان قومه سيّما أهل قرابته وأبناء عمومته؛ فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

(إنّك) أيّها النّبيّ **(لا تهدي)** أي لا توجد الهداية لـ **(من)** لكلّ من **(أحببت)** أن يؤمن أو أحببته **(ولكنّ الله يهدي)** يخلق الهداية لـ **(من يشاء)**[١] **(وهو أعلم)** منك **(بالمهتدين)** أي بالّذين يصلحون للهداية، فوظيفة كلّ رسول هي هداية الإرشاد لا هداية الإيجاد **(وقالوا)** أي أهل مكّة **(إن نتّبع الهدى معك)** يا محمّد **(نتخطّف)** أي نخرج وننزع **(من أرضنا)** وهي مكّة، أرادوا أنّ قبائل العرب تحاربهم وتخرجهم، فأجابهم الله تعالى بأنّ العزّة والنّصرة والتّمكين في الأرض والإخراج منها بيد الله تعالى، فكيف يدع الله النّاس أن يخرجوهم إن اتّبعوا هداه، فقال جلّ وعلا: **(أولم نمكّن)** أي أولم نقوّهم وجعلنا **(لهم حرماً آمناً)** لا يستطيع أحد أن يمدّ يده إليه وجعلنا **(يجبى)** يجمع ويرسل **(إليه)** إلى الحرم **(ثمرات كلّ شيء)** كلّ نوع ورزقناهم بذلك **(رزقاً من لدنا)** والاستفهام للإنكار وإنكار النّص إثبات أي نحن جعلنا لهم كلّ هذه الأمور **(ولكن أكثرهم لا يعلمون)** ذلك فلا يشكرون الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذرهم بذكر أقوام أهلكوا لعدم الإيمان برسلهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

(وكم) أي وكثيراً **(أهلكنا من قرية)** من القرى لأنّ أهلها **(بطرت)** طغت **(معيشتها)** منصوب بحذف الجار، أي طغت بمعيشتها أي بسببها حيث كانت رغيدة ووفيرة **(فتلك مساكنهم)** ظاهرة ترونها في سفركم إلى الشّام **(لم تسكن)** أي لم تصبح مسكونة بالنّاس فلم يسكنها أحد **(من بعدهم)** أي من بعد أهلهم الّذين أهلكوا **(إلّا**

(١) لعل المقصود هو أن الله تعالى يهدي من يشاء الهداية أي من لديه الإستعداد لها ويريدها لكنه تمنعه موانع كالخوف وعدم الفهم وغيره فيوفقه الله تعالى لها بإزالة تلك الموانع.بعكس المعاند الذي يعرف ويعاند. بدليل قوله تعالى (وهو أعلم بالمهتدين) أي الصالحين لها بوجود الإستعداد لديهم.

قليلاً) من تلك المساكن يسكنها المارّة والمسافرون **(وكنّا نحن الوارثين)** لها وصار أمرها إلى الله تعالى **(وما كان ربّك مهلك القرى)** أي أهلها **(حتّى يبعث في أمها)** أي عاصمتها **(رسولاً يتلوا عليهم آياتنا)** ويدعوهم إلى الإيمان والعمل بشريعة الله تعالى فيتمرّدون ويكفرون **(وما كنّا مهلكي القرى إلّا وأهلها ظالمون)** متمرّدون على الله ورسله ومنحرفون عن شريعته، فيستحقّوا بذلك العذاب، فأهلكناهم بعد ذلك، وفي هذا إنذار بالعذاب إن بقوا على تمرّدهم وكفرهم وعدم إيمانهم بالرّسول (ﷺ).

ثمّ إنّ سبب عدم إيمان القوم كان أكثره حبّ الدّنيا والرّئاسة واعتقادهم أنّهم لو آمنوا زالت رئاستهم ومنافعهم الدّنيويّة ولذا قال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

(وما أوتيتم من شيء) من منافع الدّنيا كسدانة الأصنام وكالرّئاسة والجاه بسبب ما أنتم عليه من الشّرك (فـ) كلّ ذلك **(متاع الدّنيا)** الفانية **(وزينتها)** الوقتيّة **(وما عند الله)** من الجنّة ونعيمها الّذي وعد المؤمنون به **(خير)** ممّا أنتم فيه **(وأبقى)** لأنّ نعيم الجنّة دائمة لا تزول **(أفلا تعقلون)** فلا تضيّعوا هذا الخير الباقي الكثير بسبب هذا الفاني القليل **(أفمن وعدناه وعداً حسناً)** وهو النّصر في الدّنيا والسّيادة فيها لمن آمن وعمل حسب الإيمان والخلود في الجنّة له **(فهو لاقيه)** دون شكّ وارتياب، أفهذا **(كمن متّعناه متاع الحياة الدّنيا)** القليل الفاني **(ثمّ هو)** بعد ما مات **(يوم القيامة من المحضرين)** في جهنّم وبئس المصير.

ثمّ ذكر الله تعالى حال المشركين مع آلهتهم يوم القيامة، فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾

(ويوم) أي واذكر يوم **(يناديهم)** الله تعالى **(فيقول أين شركائي الّذين كنتم تزعمون)** تعتقدون باطلاً أنّهم شركائي، فأين هم لينجوكم من العذاب **(قال الّذين حقّ)** صدر **(عليهم القول)** أي الحكم بالعذاب وهم الدّعاة إلى الضّلال والشّرك **(ربّنا هؤلاء الّذين أغوينا)** هم ودعوناهم إلى الضّلال فنحن **(أغويناهم)** أضللناهم **(كما غوينا)** نحن وضلّلنا الحقّ **(تبرّأنا)** فهم وفوّضنا أمرهم **(إليك)** حيث إنّهم **(ما كانوا)** في الحقيقة **(إيّانا يعبدون)** يطيعون بل كانوا يطيعون شهواتهم وهواهم ومنافعهم فاتّبعونا وأطاعونا لذلك. وحينما انتهت مجادلة المتبوعين مع الأتباع ذكر الله تعالى مرحلة أخرى؛ فقال جلّ وعلا: **(وقيل)** لهم للأتباع والمتبوعين **(ادعو شركاءكم)** لينجوكم من العذاب **(فدعوهم فلم يستجيبوا لهم)** شيئاً وما نفعوهم **(ورأو العذاب)** المهيّأ لهم ودخلوه قالوا **(لو)** أي تمنّوا **(أنّهم كانوا مؤمنين)** لكي لايدخلوا هذا العذاب ولا ينفعهم تمنّيهم هذا شيئاً.

ثمّ يذكر الله تعالى تقريعاً آخر يقرعون به يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

(ويوم) أي واذكر لهم **(يوم يناديهم)** الله **(فيقول)** لهم **(ماذا أجبتم المرسلين)** الّذين أرسلناهم إليكم ليبلّغوكم بأمرنا ونهينا وعاقبة الشّرك والكفر **(فعميت عليهم الأنباء)** أي تعذّرت عليهم الأخبار والجواب، حيث لم يكن لهم عذر فيجيبوا به **(فهم لا يتساءلون)** أي لا يسأل بعضهم بعضاً ماذا نجيب، فسكت الكلّ خجلاً وندامة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى ما لهم أراد أن يذكر حال من تاب عن الشّرك وآمن بالتّوحيد واتّبع الرّسول (ﷺ)؛ فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

(فأما من تاب) منكم أيها الكفرة عن الكفر والشّرك **(وآمن)** بالرّسول (ﷺ) **(وعمل صالحاً)** وفق الشّريعة وخالياً عن كلّ شرك **(فعسى)** أي فيحقّ **(أن يكون)** كلّ من تاب وآمن وعمل صالحاً **(من المفلحين)** الفائزين بالسّعادة الأبديّة والنّعيم المقيم، وعسى في الكلام للتّحقيق لا للتّرجّى.

ثمّ إنّ الكافرين كانوا يقترحون اقتراحات: فمرّة يقولون لماذا لم يرسل الله الرّسول

من أحد العظماء؟ ومرّة يقولون: لم لا يأتينا محمّد بخوارق ومعجزات كما نريد؟ فقال الله جلّ وعلا:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

(وربّك يخلق مايشاء) من الخوارق والمعجزات لا ما يشاؤون هم **(ويختار)** للرّسالة من يختاره لا من يختارونه هم **(ما كان لهم)** حق **(الخيرة)** الاختيار لأنّ المملوك لا اختيار له مقابل المالك **(سبحان الله)** تنزّه الله تعالى عن أن يختار عليه أحد **(وتعالى عمّا يشركون)** به فلا شريك له **(وربك يعلم)** كل **(ما تكنُّ)** تخفي صدورهم من الاعتراضات على رسالتك فيعاقبهم عليه **(وما يعلنون)** من معاداتهم فيخذلهم ويخزيهم **(وهو الله)** القادر على كلّ شيء **(لا إله)** لا حاكم **(إلّا هو له الحمد)** على كلّ ما يفعل **(في الأولى)** في الدّنيا **(والآخرة)** لأنّ كلّ ما يفعل جميل يحمد عليه **(وله الحكم)** تكويناً وتشريعيّاً لاحكم لأحدٍ غيره **(واليه ترجعون)** فيعاقبكم على الإنحراف عن حكمه وشريعته وعبادته وتوحيده.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر دليلاً على وحدته وبطلان الآلهة كلّهم سواه فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

(قل) أيّها المسلم الموحّد للمشركين **(أرأيتم)** أي أخبروني **(إن جعل الله عليكم اللّيل سرمداً)** دائماً باقياً **(إلى يوم القيامة)** ولم يأت النّهار **(من إله غير الله)** ممّن

تعبدونه وتدعونه **(يأتيكم)** يستطيع أن يأتي لكم **(بضياء)** أي نهار؟ والإستفهام للإنكار أي لا يأت أحد من آلهتكم بذلك **(أفلا تسمعون)** هذا الدّليل فتوحّدوا الله تعالى بالعبادة والطّاعة **(قل أرأيتم)** أخبروني **(إن جعل الله عليكم النّهار سرمداً)** باقياً **(إلى يوم القيامة)** فلم تغرب الشّمس أإله غير الله يأتيكم بليل **(تسكنون)** وتستريحون **(فيه أفلا تبصرون)** هذا الدّليل. وقال في الأوّل: تسمعون، وهنا تبصرون، لأنّ في الأوّل يصوّر بقاء اللّيل وفي اللّيل لا رؤية، فيجب أن يسمع الدّليل، وفي الثّاني يصوّر النّهار وفيه يمكن الإبصار **(ومن رحمته)** أي نعمته وإحسانه **(جعل لكم اللّيل والنّهار)** لتسكنوا **(فيه)** في اللّيل وتستريحوا فيه **(ولتبتغوا من فضله)** أي فضل الله تعالى ورزقه بالعمل في النّهار **(ولعلكم تشكرون)** والتّرجي هنا للأمر، أي فاشكروه بتوحيده بالعبادة والطّاعة ولا تشركوا به شيئاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ شركاءهم كما لا يقدرون لهم في الدّنيا شيئاً فلا يقدرون في الآخرة لهم شيئاً أيضاً؛ فقال جل وعلا:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

(ويوم) أي واذكر لهم **(يوم يناديهم)** الله تعالى **(فيقول أين شركائي الّذين كنتم تزعمون)** في الدّنيا وتزعمون بمعنى تعتقدون أنّهم شركائي فليأتوا لينجّوكم من العذاب **(ونزعنا)** وأخرجنا **(من كلّ أُمّةٍ شهيداً)** يشهد عليهم بشركهم وهو نبيّهم **(فقلنا)** لهم حينما ثبت عليهم الشّرك **(هاتوا)** أحضروا **(برهانكم)** دليلكم على شركة هؤلاء لله **(فعلموا أنّ الحقّ)** كلّه **(لله)** لا شريك له **(وضلّ)** وغاب **(عنهم ماكانوا يفترون)** في قولهم أنّهم شفعاء لهم عند الله تعالى، وأنّهم يقرّبونهم إلى الله زلفى ولم ينفعوهم شيئاً.

ثمّ إنّ أكثر ما يسوق الإنسان إلى الكفر والمعاصي هو الطّغيان المالي، فأراد الله تعالى أن يذكر قصّة قارون الّذي أطاح به الطّغيان المالي وأهلكه شرّ هلكة؛ فقال جل وعلا:

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(إنّ قارون كان من قوم موسى) من بني إسرائيل وآمن به **(فبغى عليهم)** على موسى وقومه، أي خرج عن أمرهم وإطاعتهم وعاداهم وكفر وطغى بسبب كثرة ماله حيث **(وأتيناه من الكنوز ما)** مقداراً **(إنّ مفاتحه لتنوء)** لتثقل حملها **(بالعصبة)** بجماعة من الرّجال **(أولي القوّة)** وأذكر **(اذ قال له قومه لا تفرح)** بهذا المال ولا تطغ به حيث **(إنّ الله لا يحبّ الفرحين)** بالمال فرحاً يسوقهم إلى الطّغيان والكفر والفساد **(وابتغ)** أي واطلب وحصل **(فيما)** بما **(آتاك الله)** من المال **(الدّار الآخرة)** بأن تنفق هذا المال في وجوه البرّ والخيرات **(ولا تنس نصيبك)** حظّك وتمتّعك بالمال **(من الدّنيا)** فاخدم بمالك هذه الدّنيا والآخرة وحصّل به كليهما **(وأحسن)** إلى النّاس بالمال وتصدّق به على المحتاجين **(كما أحسن الله اليك)** فآتاك هذا المال **(ولا تبغ الفساد في الأرض)** فتعمل المعاصي وتنشر الكفر والفسق والفجور حيث **(إنّ الله لا يحبّ المفسدين)** بل يبغضهم وينتقم منهم في الدّنيا والآخرة أو في إحداهما **(قال إنّما أوتيته على)** بسبب **(علم)** بتحصيل المال **(عندي)** ذلك العلم فكسبت وجمعت به هذا المال، فهو مالي ولا حقّ لأحد فيه، وإنّي أتصرّف بمالي هذا كيفما أشاء وفيما أشاء، قال هذا ولم يخف من الله وعذابه، فقال تعالى: كيف طغى هذا الطّغيان ولم يعتبر بمن مضى **(أو لم يعلم أنّ الله قد أهلك من القرون من هو أشدّ منه قوةً)** من الرّجال والحزم **(وأكثر جمعاً)** للمال كشداد وعاد ونمرود وثمود أو لم يعلم بحالهم فيعتبر ويتّعظ بهم، فلا يكفر ولا يطغى، فقد أهلك الله هؤلاء كلّهم **(ولا يسأل عن ذنوبهم)** وخطاياهم **(المجرمون)** سواهم بل هم وحدهم يسألون ويعاقبون على ذنوبهم، فلا يعاقب أحد بذنب آخر وجريمته، فلم

يسمع قارون نصيحة قومه ولم يعتبر بمن مضى من قبله بل بقى على طغيانه وجبروته.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

(فخرج) قارون يوماً **(على)** مرأى من **(قومه في زينته)** من الخدم والفرسان والثّياب المزينة فلمّا رآه القوم **(قال الّذين يريدون الحياة الدّنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون)** من المال والخدم والزّينة (إنّه) أي قارون **(لذو حظّ)** نصيب **(عظيم)** جدّاً **(وقال الّذين أوتو العلم)** بأنّ الدّنيا المجرّدة عن الدّين والّتي لم تتّخذ مزرعة للآخرة ووسيلة إليها ليست ممّا يتمنّى ويطلب عند العقلاء، فقال هؤلاء العلماء: **(ويلكم)** كلمة زجر زجروا بها من تمنّى مثل ما أوتي قارون، ثمّ قالوا: **(ثواب الله)** الّذي يؤتي عبده يوم القيامة بسبب عمله الصّالح **(خير)** ممّا أوتي قارون، وإنّ هذا الثّواب وهو الجنّة أعدّه الله تعالى **(لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقّاها)** أي هذه الخصلة أو هذه الجنّة **(إلّا الصابرون)** على عبادة الله تعالى وطاعته، فبقي قارون على طغيانه هذا فعاقبه الله تعالى كما قال جلّ وعلا: **(فخسفنا به وبداره الأرض)** فهلك وبلعته وداره الأرض **(فما كان له فئةٌ)** جماعة **(ينصرونه من دون الله)** كما كان له جماعات وفئات يدافعون عنه **(وما كان)** هو بنفسه **(من المنتصرين)** المنقذين ممّا أصابه **(وأصبح الّذين تمنّوا مكانه)** وما أوتي **(بالأمس يقولون ويكأنّه)** كلمة وي تقال حين النّدامة أي ندماً و **(كأنّ)** هنا للتّحقيق لا للتّشبيه أي فحقّاً **(إنّ الله يبسط)** يوسع الرّزق لمن يشاء **(ويكأنّه)** وحقّاً إنّه **(لا يفلح الظّالمون)** وهم الّذين استعملوا ما أتاهم الله تعالى من العلم أو القوّة أو المال فيما لا

يرضى الله تعالى **(لولا أن من الله علينا)** أتانا مثل ما أوتي قارون من المال والظّلم **(لخسف بنا)** كما خسف بقارون **(ويكأنّه)** أي فحقّاً **(لا يفلح الكافرون)** لنعمة الله تعالى بصرفها فيما لا يرضى الله تعالى، وهكذا أصبح مال ومصير قارون في الدّنيا، وأمّا في الآخرة فأشار إلى مصيره فقال جلّ وعلا: **(تلك الدّار الآخرة)** أي الجنّة **(نجعلها)** خاصة **(للّذين لا يريدون علوّاً)** استكباراً **(في الأرض ولا فساداً)** فيها كأمثال قارون الّذين همّهم الاستكبار وديدنهم الفساد في الأرض **(والعاقبة)** الحسنى **(للمتّقين)** الّذين يجتنبون الاستكبار والفساد والمعاصي والذّنوب.

ثمّ فصّل الله تعالى حال النّاس في الآخرة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

(من جاء بالحسنة) من الأعمال مع الإيمان **(فله)** ثواب **(خير)** أي أكثر **(منها)** من الحسنة الواحدة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة، ويزيد الله لمن يشاء **(ومن جاء بالسّيئة فلا يجزى)** أي فلا يعاقب **(الّذين عملوا السّيئات إلّا)** مقابل **(ما كانوا يعملون)** فلا يزاد عليهم شيء، فإنّ كان ما عملوا كفراً أو شركاً فلهم الخلود في النّار وإن كان سيّئة مع الإيمان فلهم العقاب بالنّار بقدر ما عملوا حتّى يتطهّروا، ثمّ يخرجون منها إلى الجنّة ودار النّعيم؟.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه القصص والعبر وهذه الإنذارات والتّبليغات وأصرّ النّاس على كفرهم ولم يستجيبوا لهذه العبر والإنذارات، أمر الله تعالى رسوله بالثّبات والمضيّ في دعوته وعدم الإنحياز إلى الكافرين مطلقاً فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

(إنّ) الله (**الّذي فرض عليك القرآن**) أن تعمل به (**لرادّك الى معاد**) وهو يوم القيامة فيثيبك ويؤجرك على العمل به وتبليغه ثواباً جزيلاً وأجراً عظيماً، فامض في دعوتك وتبليغك ولا تتوان عنه، وإذا جادلك الكافرون (**قل**) لهم (**ربّي أعلم من جاء بالهدى**) فيثيبه في الآخرة وينصره في الدّنيا (**ومن هو في ضلال مبين**) فيذلّه في الدّنيا ويعاقبه في الآخرة (**وما كنت**) يامحمّد (**ترجو**) وتتوقّع يوماً من الأيام (**أن يلقى اليك**) هذا (**الكتاب**) من الله تعالى وما ألقي إليك (**إلّا رحمةً من ربّك**) رحمك بها وأنعمك بإلقائها فإذا كان الأمر كذلك (**فلا تكوننّ ظهيراً**) مساعداً وصديقاً (**للكافرين**) أبداً (**ولا يصدنّك**) أي ولا يمنعنّك الكافرون (**عن**) تبليغ ونشر (**آيات الله**) أي أحكامه وعقائده والعمل بها (**بعد إذ أنزلت إليك**) فاعمل بها وطبّقها (**وادع إلى**) عبادة (**ربّك**) وحده (**ولا تكوننّ من المشركين**) بالله شيئاً (**ولا تدع مع الله إلهاً آخر**) فتعبده أو تستغيث به حيث (**لا إله إلّا هو كلّ شيء هالك**) عاجلاً أو آجلاً (**إلّا وجهه**) أي ذاته فإنّه أزلاً وأبداً لا يعتريه أيّ تغير أو زوال (**له الحكم**) إيجاداً وتكويناً، فلا تخف من أحد حيث لا يقدر أحد أن يضرّك إلّا هو وله الحكم (**تشريعاً**) فلا تتّبع منهجاً سوى منهجه وشريعته (**وإليه ترجعون**) بعد نموت، ويوم القيامة فيحاسبكم على أعمالكم واتّباعكم لشريعته أو انحرافكم عنه، فيجزي كلاً حسب عمله وهذه الأوامر وجّهت إلى الرّسول (ﷺ) وأريد بها أمّته أيضاً، فيجب على المسلم تنفيذ هذه الأوامر كلّها وإلّا فليس بمسلم حقّاً، فطوبى لمن رجع إلى الله تعالى بالعمل الصّالح وحسن الختام وصلّى الله على المولى محمّد وعلى آله وأصحابه وأمّته أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين أوّلاً وآخراً الى يوم الآخرة وآخر الأيّام.

سورة العنكبوت

(مكيّة،وهي تسع وستون آية، نزلت بعد سورة الرّوم، سمّيت بهذا الإسم لما فيها من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾

قد جزع بعض أصحاب رسول الله (ﷺ) ممّا أصابهم من أذى المشركين بسبب إيمانهم ودخولهم في الإسلام فأنزل الله تعالى **(الم)** قد مرّ معناه مراراً **(أحسب)** أي أظنّ **(النّاس)** وهم المؤمنون **(أن يتركوا)** فلا يصيبهم الله تعالى بمشقّة أو تعب أو أذى لمجرّد **(أن يقولوا آمنا)** فيسلموا من كلّ أذى **(وهم لا يفتنون)** أي لا يمتحنهم الله تعالى بالمشقّة بسبب الإيمان كلّا، إنّ هذا الظّن خطأ، بل يصيبهم الله بالأذى والمشقّة بسبب الإيمان ليتبيّن الصّادق من الكاذب والمخلص في إيمانه وغير المخلص، وليس هذه الفتنة والإمتحان خاصّاً بهذه الأمّة، بل هو سنّة الله تعالى في كلّ أمّة انقادت لأمر الله تعالى وأسلمت واتّبعت الرّسل والأنبياء كما قال تعالى **(ولقد فتنّا)** أي امتحنا **(الّذين من قبلهم)** من الأمم المؤمنة بالله تعالى وابتليناهم بالأذى والمشقّة على إيمانهم حيث **(فـ)** بذلك الإمتحان والإبتلاء **(ليعلمنّ الله الّذين صدقوا)** في إيمانهم فيثبتون ويصبرون **(وليعلمنّ الكاذبين)** في الإيمان فيرتدّون بسبب الأذى والمشقّة، فالإبتلاء محكّ الإيمان يعرف به الإيمان الخالص والمغشوش ومعنى **(ليعلمنّ الله)** أي يتحقّق علمه الأزلي

بذلك في الخارج، ويتعلّق بما هو موجود فعلاً، كما تعلّق به في الأزل معنىً، وهو معدوم في ذلك الوقت.

ثمّ بعد أن ردَ الله تعالى على ظنّ المؤمنين أراد أن يردّ على ظنّ الكافرين أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

(أم) للاستفهام أي هل **(حسب)** ظنّ **(الّذين يعملون السّيئات)** فيؤذون المؤمنين **(لأن يسبقونا)** أي يفوتونا فلا ننتقم منهم كلّا بل **(ساء)** قبح **(ما يحكمون)** وهو أنّهم لا يعاقبون على معاداة المؤمنين وإيذائهم فإنّهم يعاقبون حتماً، وفي هذا كان وعداً للمؤمنين بعذاب أعدائهم ووعيداً للكافرين بسوء عاقبتهم.

ثمّ وعد الله تعالى وعداً آخر للمؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾

(من كان يرجو) أي يؤمن بأنّ **(لقاء الله)** تعالى يوم القيامة حقّ وهناك الثّواب والعقاب فلا يجزع ولا يفزع **(فإنّ أجل الله)** أي الوقت الّذي حدّده الله تعالى للقائه **(لآت وهو السّميع)** لجميع أقوال المؤمنين **(العليم)** بجميع أفعالهم، فيثيبهم على كلّ ذلك ولا يضيّع منه شيئاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه المؤمنين على أنّه ليس لهم أن يعاتبوا الله تعالى إذا أوذوا، أو يمُنّوا على الله بالإيمان وما يتّبعه من المجاهدات والأتعاب؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾

(ومن جاهد) في سبيل الإيمان ونشر مبادئ الإسلام بالمال فصرفه في ذلك أو بالنّفس فتحمّل المشقّة والأذى على ذلك **(فإنّما يجاهد لنفسه)** أي تعود منفعة الجهاد إلى نفسه لا إلى الله تعالى حيث **(إنّ الله لغنيٌ)** كلّ الغني **(عن العالمين)** وعن جهادهم، وأنّ منفعة الجهاد الحاصلة للمجاهدين هي الوصول إلى سيادة الدّنيا وقيادتها في الدّنيا والوصول إلى الجنّات ولذّاتها في الآخرة، ولا شيء أنفع من هذين الأمرين.

ثمّ بيّن الله تعالى هذه المنفعة وصرّح بها فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾

(والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات لنكفّرن) لنغفرنّ ونزيلنّ عنهم عقاب **(سيّئاتهم)** الّتي عملوها قبل؛ فإنّ الإسلام يجبّ ما قبله **(ولنجزينّهم)** على أعمالهم الصّالحة ثواباً وأجراً **(أحسن)** من **(الّذي كانوا يعملون)** لأنّ الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ويزيد الله لمن يشاء.

ثمّ أنّه كان هناك من يتردّد في إيمانه لأنّ والديه ساخطان عليه، حيث ترك دين الآباء والأجداد، فما يدري هذا المؤمن أيرضي والديه فيرجع عن الإسلام أو يثبت ولا يبالي بوالديه رضيا أو سخطا؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾

(ووصّينا) أي وأمرنا **(الإنسان بوالديه)** فتعلّق بما بعده، أي أمرناه أن يحسن حسناً بوالديه **(و)** لكنّ **(إن جاهداك)** أي أمراك بجهد وجدّ كلّ الجدّ **(أن تشرك بي ما ليس لك به)** بشركته **(علم)** حيث لا توجد شركة لأحد حتّى يعلم به **(فلا تطعهما)** في ذلك، بل وفي أمرهما بأيّ معصية كانت **(إليّ مرجعكم)** يوم القيامة **(فأُنبّئكم بما كنتم تعملون)** أي أجازيكم به، ثمّ بيّن الله تعالى جزاءه فقال: **(والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات)** رغم أنّ سخط الوالدين على إيمانه وأعماله **(لندخلنّهم في زمرة الصّالحين)** وهم الأنبياء فيدخلون الجنّة معهم وحسن أولئك رفيقاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يخبر عن المنافقين ويذكر أوصافهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾

(**ومن النّاس من يقول آمنّا بالله**) واعتنق الإسلام (**فإذا أُوذي في**) نشر دين (**الله**) واعتناقه له (**جعل فتنة**) أي عذاب (**النّاس كعذاب الله**) شدّةً ورجع عن الإسلام وارتدّ (**ولئن جاء نصر من ربّك**) للمؤمنين وغنيمة (**ليقولُنّ إنّا كنّا معكم**) ليأخذوا الغنيمة (**أو ليس الله بأعلم**) من كلّ أحد بما في صدور (**العالمين**) من الكفر والإيمان والنّفاق، وجواب الإستفهام هنا هو بلى إنّ الله أعلم بذلك (**وليعلمنّ الله الّذين آمنوا**) صدقاً وظاهراً وباطناً (**وليعلمنّ المنافقين**) المؤمنين كذباً وظاهراً فقط.

ثمّ اخبر الله تعالى عن ما يقول الكافرون لبسطاء المؤمنين ليرجعوهم من الإسلام فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

(**وقال الّذين كفروا للّذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا**) أي ديننا (**ولنحمل**) أي ونحن نحمل عنكم (**خطاياكم**) إن كنت ونتعذّب بدلكم (**وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء**) حيث ولا تزر وازرة وزر أخرى بل (**إنّهم لكاذبون**) في قولهم هذا للمؤمنين (**وليحملنّ أثقالهم**) أي ذنوبهم (**وأثقالاً**) وذنوباً أخرى (**مع أثقالهم**) مع ذنوبهم، وهو ذنوب الإضلال (**وليُسئلنّ يوم القيامة عن**) كلّ (**ما كانوا يفترون**) من الضّلال والإضلال.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال بعض الرّسل لتسلية الرّسول (ﷺ) ووعيداً للكافرين بالعذاب والدّمار، ووعداً للمؤمنين بالنّصر وحسن العاقبة فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

(**ولقد**) أي وبعزّتي (**أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث**) أي فأقام (**فيهم**) بينهم يدعوهم إلى الله وعبادته وتوحيده والعمل بشريعته (**ألف سنة إلّا خمسين عاماً**) فلم يؤمنوا إلّا قليلاً منهم، فأرسل الله تعالى عليهم الطّوفان (**فأخذهم**) وأغرقهم (**الطّوفان وهم ظالمون**)

كافرون **(فأنجيناه)** أي نوحاً من الطّوفان **(وأصحاب)** أي وأهل **(السّفينة)** الّذين حملهم نوح فيها، وهم المؤمنون **(وجعلناها)** أي هذه الحادثة **(آية)** عبرة **(للعالمين)** ليعتبروا بها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال إبراهيم (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

(وإبرهيم) أي ولقد أرسلنا إبراهيم **(إذ قال لقومه اعبدوا الله)** وحده ولا تشركوا به شيئاً **(واتّقوه)** أي اتّقوا عذاب الله بالتّجنب عن المعاصي وترك الإشراك **(ذلكم)** الّذي أمركم به **(خير لكم)** ممّا أنتم عليه من الشّرك والذّنوب والآثام **(إن كنتم تعلمون)** إن كان لكم علم وإدراك تطيعونني فيما أمرتكم به **(إنّما تعبدون من دون الله أوثاناً)** جمع وثن وهو التّمثال أي تماثيل لاحياة لها ولا علم ولا سمع ولا بصر ولا قدرة على أي شيء **(وتخلقون)** بعبادتكم لها **(إفكاً)** كذباً وافتراءً وتنشرون باطلاً في الأرض واستدلّ على ذلك فقال: (انّ **الذين تعبدون)** هم **(من دون الله لا يملكون لكم رزقاً)** ومن لا يملك الرّزق تكون عبادته باطلة **(فابتغوا)** فاطلبوا **(عند الله الرّزق)** لا عند غيره **(واعبدوه)** ولا تعبدوا غيره **(واشكروا له)** فإنّ كلّ ما بكم من نعم هو من عنده وإحسانه عليكم **(إليه ترجعون)** فيعاقبكم على انحرافاتكم كلّها **(وإن تُكذّبوا)** قولي ولم تؤمنوا بي فسيعاقبكم الله تعالى حيث **(فقد كذّب أُممٌ** من **قبلكم)** رُسلهم فعاقبهم الله تعالى فقد بلّغت **(وما على الرّسول إلّا البلاغ المبين)** أي البلاغ الواضح والدّعوة الصّريحة دون غموض وخفاء.

ثمّ إنّ الله تعالى قبل أن يذكر جواب قوم إبراهيم عنّف كلّ أمّة وقرعهم على أنّهم لم يتفكّروا في آيات الله تعالى الدّالة على قدرته وعلمه ووحدته، وذكر تلك الدّلائل؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

(أو لم يروا) فيستدلّوا بما رأوا على قدرة الله وعلمه ووحدته، وهو أنّه **(كيف يبدأ الله الخلق)** فينبت النّبات من الأرض ويزداد ثمّ يهلك **(ثمّ يعيده)** الله مرة أخرى على مكانه، وهكذا، وكذلك كلّ شجر وكلّ مطر فإنّه ماء يصير بخاراً؛ فيصعد فيصير سحاباً ثمّ يعود ماءً فينزل **(إنّ ذلك)** الإبداء والإعادة **(على الله يسير)** سهل حيث تجرى هذه العملية دائماً وباستمرار الزّمان **(قل)** أيّها النّبيّ وأيّها الدّاعي إلى الله قل للنّاس **(سيروا في الأرض)** وتفكّروا في ما خلق الله تعالى في هذا الكون **(فانظروا)** لتروا **(كيف** بدأ) الله تعالى **(الخلق)** ثمّ يفنيه ثمّ يعيده، فكلّ شيء إبداء ثمّ إفناء ثمّ إعادة، فبذلك تعرفون قدرة الله تعالى وعلمه، وتعلمون أنّ من له هذه القدرة وهذا العلم لا شريك له، وأنّ من قدر على هذا الخلق فعلى إعادة الإنسان بعد الموت لقادر، وأنّ من له هذا النّظام لابد وأن يكون له حكم وشريعة، والشّريعة تحكم بثواب المطيع وعقاب العاصي، وحيث لا يوجد ذلك في الدّنيا كليّاً، يجب أن يأتي يوم لذلك فتؤمنون بأنّه **(ثمّ)** أي بعد هذا البدء **(الله ينشيء النشأة الآخرة)** وهي نشأة وحياة القيامة وتعرفون **(إنّ الله على كلّ شيء قدير)** لا يعجزه شيء عن ما أراده أبداً.

ثمّ أعاد الله الكلام إلى إبراهيم (عليه السلام) فقال عنه جلّ وعلا:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

(يعذّب) أي قال إبراهيم لقومه بعد أن قال: **(واشكروا له وإليه ترجعون)**، **(يعذّب)** أي يعذّب الله تعالى بعد رجعتكم إليه **(من يشاء)** وهم الكافرون والمشركون **(ويرحم من يشاء)** فينجّيه من العذاب وينعم عليه بالجنّة وهم المؤمنون الموحّدون **(وإليه تقلبون)**

تُردّون **(وما أنتم بمعجزين)** الله تعالى من أن يعذّبكم بعذاب **(في الأرض)** بالخسف أو الرّياح **(ولا)** بعذاب **(في السّماء)** كالصّواعق مثلاً **(وما لكم)** في كلّ وقت وفي كلّ مكان **(من دون الله من وليّ)** يوليكم نعمه **(ولا نصير)** ينقذكم من العذاب والمصائب **(والّذين كفروا بآيات الله)** أي أحكامه وشريعته **(ولقائه)** أي وكفروا بلقائه، ولذلك ينحرفون عن شريعته حيث لا يخافون العذاب **(أولئك يئسوا)** أي لا ينالهم شيء **(من رحمتي)** أي من نعمتي في الجنّة بل **(وأولئك لهم عذاب أليم)** زيادة على حرمانهم من النّعيم.

فلمّا ألقى إبراهيم هذه الموعظة وأنذرهم هذه الإنذارات أجابه قومه كما قال جلّ وعلا:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(فما كان جواب قومه) أي جواب قوم إبراهيم له **(إلّا أن قالوا: اقتلوه أو حرّقوه)** ثمّ اتّفقوا على أن يحرّقوه؛ فأوقدوا له ناراً عظيمة فألقوه فيها **(فأنجاه الله من النّار)** سالماً **(إنّ في ذلك)** القصص **(لآيات لقوم يؤمنون)** فإنّهم يعتبرون بها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر جملة أخرى من أقوال إبراهيم (عليه السلام) لقومه فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وقال إبراهيم لقومه **(إنّما اتّخذتم من دون الله أوثاناً)** أي هياكل وتماثيل لا دليل لكم عليها بل فعلتم ذلك **(مودّة)** أي لأجل مودّة **(بينكم)** وبقائها فجعلتم ذلك رمزاً لوحدتكم **(في الحياة الدّنيا)** فإنّ الاختلاف في العقيدة سبب للفرقة والتّباغض **(ثمّ)** بعد أن انتهت الدّنيا إنّكم **(يوم القيامة يكفر بعضكم)** وهم الأتباع **(ببعض)** وهم المتبوعون الدّاعون إلى الضّلال **(ويلعن بعضكم بعضاً)** فيلعن الأتباع المتبوعين وكذا المتبوعون

يلعنون الأتباع **(ومأواكم)** الأتباع والمتبوعين جميعاً **(النّار وما لكم من ناصرين)** يخرجونكم منها.

وبعد هذه الدّعوة المتواصلة والمواعظ المسترسلة لم يؤمن به من قومه إلّا لوط واضطهدهما القوم فهاجرا كما قال جلّ وعلا:

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(فَـ) أي فبعد دعوة إبراهيم المتواصلة **(آمن)** أي انقاد **(له لوط)** فقط فاضطهدهما القوم وعاداهما **(وقال)** إبراهيم بعد ما يئس من إيمان القوم **(إنّي)** مع لوط **(مهاجر إلى ربّي)** أي إلى حيث أمرني ربّي، والأولى أن نقول: **(مهاجر إلى)** حيث أقدر على عبادة ربّي وأداء ما وجب عليّ من الدّعوة إلى الله تعالى **(إنّه)** أي إنّ ربّي **(هو العزيز)** الغالب على أمره فيحفظني من الأعداء ويروّج دعوتي بين أقوام آخرين **(الحكيم)** ولحكمته قدّر أن أهاجر وأن أقوم بالدّعوة في بلاد أخرى غير بلدتي هذه، فهاجر هو ولوط من العراق إلى حرّان ثمّ هاجر إلى الشّام، فلمّا هاجرا وفّقناه وأنعمنا عليه بنعم الدّنيا والآخرة كما قال جلّ وعلا: **(ووهبنا له)** بعد الهجرة إسحاق ويعقوب ابن اسحاق **(وجعلنا في ذريّته)** أي في أولاده **(النّبوة والكتاب)** أي الشّريعة **(وآتيناه أجره في الدّنيا)** بالمال الكثير والأولاد الصّالحين **(وإنّه في الآخرة لمن الصّالحين)** للدّرجات العليّة في الجنّة ودار النّعيم. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال لوط (عليه السلام) مع قومه فقال جلّ وعلا:

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

(ولوطاً) أي واذكر للنّاس لوطاً **(إذ قال لقومه إنّكم لتأتون الفاحشة)** أي عملاً

قبيحاً جدّاً **(ما سبقكم بها)** أي بعملها **(أحدٌ من العالمين)** ثمّ بيّن الفاحشة فقال مستفهماً استفهام إنكار: **(أئنّكم لتأتون الرّجال)** لقضاء الشّهوة من أدبارهم **(وتقطعون السّبيل)** على المارّة فتسلبون أموالهم وتخوفوّنهم **(وتأتون في ناديكم المنكر)** فكانوا يعملون الفاحشة[١] بعضهم ببعض في مجالسهم **(فما كان جواب قومه إلّا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصّادقين)** في ادعائك أنّك رسول الله، وقالوا ذلك استهزاءً به، فلمّا يئس لوط من إيمانهم وأرادوا أن يؤذوه **(قال ربِّ انصرني على القوم المفسدين)**.

فاستجاب الله تعالى دعاءه فأرسل ملائكةً لإهلاكهم فمرّوا على إبراهيم ليبشرّوه بأنّه يولد له ولد ذكر فوصلوا بيت إبراهيم (ﷺ) فقالوا له كما جاء في قوله جلّ وعلا:

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

(ولمّا جاءت رسلنا) وهم الملائكة جاؤوا **(ابراهيم بالبشرى)** من الله تعالى بأنّه يرزقه ولداً ذكراً صالحاً فبشروه ثمّ **(قالوا)** لابراهيم حينما سألهم أين تذهبون **(إنّا مهلكو هذه القرية)** أي قرية لوط حيث **(انّ أهلها كانوا ظالمين)** متجاوزين حدود الله تعالى وحدود الطّبيعة **(قال)** لهم ابراهيم عليه السّلام **(إنّ فيها)** أي في القرية **(لوطاً)** وهو ابن أخي ونبيّ الله تعالى فماذا تفعلون به **(قالوا نحن أعلم بمن فيها)** من لوط وغيره **(لننجيّنه)** أي لوطاً **(وأهله)** أجمعين **(إلّا امراته كانت من الغابرين)** أي الباقين مع القوم فنهلك معهم، وقال: كانت دون تكون لأنّ ما قضى الله به فقد وقع ومضى وإن لم يقع بعد، أو لأنّ المعنى كانت من الغابرين ديناً وإعتقاداً، ولذلك لا ننجيها والله تعالى أعلم فتودع الملائكة من ابراهيم (ﷺ) وتوجّهوا إلى بيت لوط [عليه السلام] فقال جلّ وعلا:

---

(١) أي مجامعة الرجل الرجل من الدبر وهو ما يسمى لدى العوام باللواط، وفي اعتقادي أنه لا يجوز تسمية هذا الأمر القبيح باللواط لأن لوطا (ﷺ) أجل من أن يشتق من اسمه اسم لهذه الفاحشة، لذلك نرى النبي (ﷺ) سماها عمل قوم لوط في قوله (ﷺ) من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به. / المستدرك على الصحيحين ٤/ ٣٩٥ الحديث رقم ٨٠٤٧. لكن المؤسف أن كثيرا من العلماء تساهلوا في هذا الإطلاق دون انتباه لهذا، غفر الله لنا ولهم..

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(**فلمّا جاءت رسلنا لوطاً سيء**) أي حزن لوط (**بهم وضاق بهم**) أي بمجيئهم (**ذرعاً**) أي ضاق بهم ذرعه أي وسعُه، أي بمجيئهم لأنّهم جاؤوا في صورة شبّان مرد حسان جدّاً، فعلم أنّ قومه يتعرّضون إليهم ليفعلوا بهم السّوء (**وقالوا**) الرّسل للوط (**لا تخف ولا تحزن**) حيث (**إنّا**) رسل ربّك ونحن (**منجّوك**) أي مخرجوك من هذه القرية (**وأهلك إلّا امرأتك كانت من الغابرين**) وفي معنى هذه الفقرة آنفاً فنخرجك من القرية حيث (**إنّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً**) أي عذاباً (**من السّماء**) مصدريّة (**كانوا يفسقون**) أي بسبب كونهم يفسقون أي يستمرون على الفسق ولا يتوبون لأنّه صار جبلّةً منهم (**ولقد**) أي وبعزّتي (**لقد تركنا**) أي جعلنا (**منها**) من القرية وأهلاكها (**آيةً**) عبرةً (**لقوم يعقلون**) أي يدركون عواقب الأمور ونتائجها، وحيث إنّ العاقلين هم المستفيدون من الآيات خصّوا بالذّكر وإلّا فهي آية لكلّ النّاس.

ثم أراد الله تعالى أن بذكر حال شعيب (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

(**وإلى**) أي وأرسلنا إلى (**مدين**) أي إلى قوم (**مدين أخاهم شعيباً فقال**) لهم (**يا قوم اعبدوا الله**) وحده ولا تشركوا به شيئاً (**وارجوا**) أي وآمنوا وترقّبوا (**اليوم الآخر**) والثّواب والعقاب فيه (**ولا تعثوا**) أي ولا تفسدوا (**في الأرض مفسدين**) متعمدين للفساد (**فكذّبوه**) وأهانوه واستهزؤوا به (**فأخذتهم الرّجفة**) أي الزّلزلة الشّديدة (**فأصبحوا**) كلّهم (**في دارهم جاثمين**) واقعين على الرّكب ميّتين لا حراك لهم فماتوا.

ثمّ اراد الله تعالى أن يلفت بالنّاس التفاتة مختصرة إلى أقوام آخرين فقال جلّ وعلا:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

(وعاداً) أي واذكر للنّاس **(عاداً)** قوم عاد **(وثمود)** قوم ثمود **(وقد تبيّن لكم)** حالهم **(من مساكنهم)** الّتي تمرّون عليها في أسفاركم **(و)** كان سبب هلاكهم أن **(زيّن لهم الشّيطان أعمالهم)** القبيحة **(فصدّهم)** فمنعهم **(عن)** سلوك **(السّبيل)** المستقيم سبيل الله تعالى ودينه **(و)** واذكر لهم حال **(قارون وفرعون وهامان)** حيث ما أهلكناهم إلّا بعد أن وعظناهم وبلّغناهم الحقّ وحذّرناهم من الهلاك نتيجة الكفر والطّغيان فإنّه **(ولقد جاءهم موسى بالبيّنات)** بالمعجزات الدّالة دلالةً واضحةً على رسالته، وبالشّرائع الواضحة حقيقتها عند العقل السّليم **(فاستكبروا)** هؤلاء الأقوام وتلك الأشخاص كلّهم **(في الأرض)** فلم يؤمنوا بالرّسل **(وما كانوا لنا سابقين)** أي غالبين قادرين أن يرفعوا عنهم عذابنا **(فكلّاً)** من هؤلاء الأقوام والأشخاص **(أخذنا)** أهلكناهم **(بذنبه)** بسبب ذنبهم **(فمنهم من أرسلنا عليهم حاصباً)** أي عاصفةً فأهلكناهم كقوم لوط **(ومنهم من أخذته الصّيحة)** فأهلكتهم كثمود **(ومنهم من خسفنا به الأرض)** كقارون **(ومنهم من أغرقنا)**هم كفرعون وهامان وجنودهما **(وما كان الله ليظلمهم)** بإهلاكهم **(ولكن كانوا)** هم **(أنفسهم يظلمون)** حيث لم يؤمنوا فجعلوها مستحقّة للعذاب.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر خسارة المشركين وسفاهتهم فذكرهم في مثال فقال جلّ وعلا:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ

مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(**مثل الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء**) أي نصراء وبعقيدتهم أنّهم يبصّرونهم وينفعونهم فيعبدونهم على هذه العقيدة الباطلة، فمثلهم في عدم الانتفاع بتلك الأولياء والآلهة (**كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً**) لينتفع به إلّا أنّها لم تنفع بيتها شيئاً حيث (**وإنّ أوهن**) أضعف (**البيوت لبيت العنكبوت**) فلا يستفاد منها، فكذلك لا يستفيد المشركون من آلهتهم شيئاً بل يتعذّبون من ورائهم حيث (**إنّ الله يعلم ما يدعون**) أي يعبدون ويستغثون به (**من دونه**) من دون الله (**من شيء**) أي شيء كان ذلك الّذي يدعونه سواء كان ناراً كالمجوس أو وثناً وهيكلاً أو صنماً أو أشخاصاً كمن اتّخذ بعض الأنبياء أو الصّالحين وثناً يعبده، إلى غير ذلك من كلّ ما يعبده النّاس دون الله تعالى، فهؤلاء كلّهم يعلمهم الله تعالى فينتقم منهم (**وهو العزيز**) الغالب على الانتقام منهم لا يمنعه منه أحد (**الحكيم**) لا يعمل شيئاً بدون حكمة وفي انتقامهم حكمة (**وتلك الأمثال**) الّتي سمعتها (**نضربها**) نذكرها (**للنّاس**) كلّهم ولكن (**وما يعقلها**) أي لا يفهمها فهم اتّباع واتّعاظ (**إلّا العالمون**). ثمّ أشار الله تعالى إلى حكمة الانتقام من المشركين فقال جلّ وعلا: (**خلق الله السّماوات**) كلّها (**والأرض**) وما فيها (**بالحقّ**) أي للحقّ ولامتثال الحقّ وجريانه فيها والعمل وفق الحقّ، فمن عبد غيره فقد انحرف عن الحقّ فيستحقّ العذاب والانتقام (**إنّ في ذلك**) الخلق العظيم (**لآية**) لدليلاً على وجود من خلقه وعلى أنّه هو الّذي يستحقّ العبادة والطّاعة والعمل بشريعته دون غيره إلّا أنّه آية (**للمؤمنين**) أي للّذين يحبّون الإيمان والعلم بالحقّ ويبحثون عنه، وإلّا فغيرهم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً، لأنّ الأنعام ترجع بالتّنبيه والزّجر وهؤلاء لا يرجعون عن غيّهم بكلّ زجر وتنبيه ومواعظ ونصح. ألّلهم لا تجعلنا من الغافلين واجعلنا من المتّعظين التّابعين لهديك يا ربّ العالمين. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه خلق السّماوات والأرض بالحقّ وللحقّ أراد أن

يذكر ما يصرف به الحقّ فقال جلّ وعلا (**اتل ما أوحي إليك من الكتاب**) وهو القرآن لتعرف الحقّ فإنّه بيّن لك الحقّ (**وأقم الصّلاة**) لتهتدي إلى الحقّ حيث (**إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**) عند الله تعالى، فإنّ كلّ مافي الصّلاة من الأفعال والأقوال مواعظ وإشارات تهدي المصلي إن راعاها إلى فعل الخير وتزجره عن الشّر (**ولذكر الله**) الّذي تورثه الصّلاة (**أكبر**) من نهيها عن الفحشاء والمنكر، أي إنّ الحاصل في الصّلاة أمران:

الأوّل: إنّها تنهى المصّلي بأفعالها وأقوالها عن الفحشاء والمنكر كما في هذه الآية.

الثّاني: أنّها تورث ذكر الله تعالى وذكر عظمته كما قال تعالى: ﴿فاعبدني وأقم الصّلاة لذكري﴾ سورة طه الآية/ ١٤ ـ فذكر الله الّذي تورثه الصّلاة أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر (**والله يعلم ماتصنعون**) فيجازيكم عليه، فتفيد الآية أنّ القرآن يعلمك الحقّ وأنّ الصّلاة تحثّك على التّمسك بالحقّ والله تعالى أعلم.

سؤال: إنّ من النّاس من يصلّون ويرتكبون الفواحش والمنكر، فكيف التّوفيق بين هذا الواقع وبين الآية؟

الجواب: عن ذلك بوجوه:

الأوّل: إنّ الصّلاة تنهى وتعظ، فبعض المصلين ينتهون وبعضهم لا ينتهون، ولم يقل الله تعالى إنّ المصّلي ينتهي بالصّلاة عن الفحشاء والمنكر فلا تتعارض الآية مع الواقع.

الثّاني: إنّ المصّلي الّذي يعمل المنكر لو لم يصلّ لعمل المنكر أكثر فأكثر.

الثّالث: إنّ المراد بالصّلاة الصّلاة الكاملة، فالّذي يصلّي ولا ينتهي من المنكر فصلاته غير كاملة إلّا أنّه يرتفع عنه بها الواجب فقط.

الرّابع: إنّ المصلّي المداوم على الصّلاة لابدّ وأن ينتهي يوماً من الأيام عاجلاً أو آجلاً، والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ إنّ المؤمنين كانوا يجادلون أهل الكتاب مناقشةً حادّة فقال لهم جلّ وعلا:

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالّتي) أي بالطّريقة الّتي **(هي أحسن في المجادلة)** ولا تتّبعوا طريق العنف والمكابرة **(إلّا الّذين ظلموا منهم)** وهم الّذين يريدون إيذاء المؤمنين وضربهم، فهؤلاء يعاملون بالرّد بالمثل. ثمّ بيّن الله تعالى المجادلة الحسنة فقال جلّ وعلا: **(وقولوا)** لهم **(آمنا بالّذي أنزل إلينا وأنزل إليكم)** وفي قوله **(وأنزل إليكم)** بدون إعادة لفظ ما إشارة إلى أنّ ما أنزل إلى الطّرفين واحد، فإنّ الأديان كلّها متساوية في العقيدة وأمّهات الأحكام، فديننا واحد كما **(وإلهنا وإلهكم واحد)** أيضاً **(ونحن له)** أي لهذا الإله **(مسلمون)** منقادون **(وكذلك)** أي وكما أنزلنا إلى موسى وعيسى [عليهما السّلام] **(أنزلنا إليك الكتاب ..... يؤمنون)** كلّهم **(به)** بالقرآن لأنّهم بما رأوا في التّوراة من الأخبار به يعرفونه ويؤمنون به أنّه من الله تعالى، إلّا أنّ بعضهم حسداً وخوفاً من زوال الرّئاسة لا يؤمنون له أي لاينقادون له، فأهل الكتاب كلّهم يؤمنون به وإن لم يؤمنوا به **(ومن هؤلاء)** أي ومن المشركين **(من يؤمن به)** ومن لا يؤمن به **(وما يجحد بآياتنا إلّا القوم الكافرون)** أي السّاترون للحقّ والمنكرون له حيث لا يوافق هواهم أو شهواتهم أو مصالحهم..وهنا روايات صحيحة تثبت أنّ أهل الكتاب كلّهم كانوا يؤمنون بالقرآن وبالرّسولﷺ وإن كان هناك من لم يؤمنوا له أي لم ينقادوا للرّسولﷺ والقرآن ونذكر منها واحدة.

قال ابن إسحاق: حدثني عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمر وبن حزم قال: حدثت عن صفيّة بنت حييء ابن أخطب زوجة رسول الله (ﷺ) إنّها قالت: كنت أحبّ ولد أبي إليه وإلى عمّي أبي ياسر، لم ألقهما قطّ مع ولد لهما إلّا أخذاني دونه، فلمّا قدم رسول الله (ﷺ) المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حييء ابن أخطب وعمّي أبو ياسر مغلّسين فلم يرجعا حتّى كانا مع غروب الشّمس، فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، فهشهشت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغمّ، وسمعت عمّي يقول لأبي: أهو هو أي

أمحمّد هو الّذي يبشّر به التّوراة قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته، والله ما بقيت[١]، هذا ويصرّح في قوله تعالى بذلك فإنّه يقول: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة البقرة: الآية/ ١٠٩ ـ

ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت أنّ هذا القرآن من الله تعالى وأنّ محمّداً (ﷺ) رسول الله؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

(وما كنت تتلو من قبله) أي من قبل نزول القرآن عليك أيّها النّبيّ **(من كتاب)** قطّ **(ولا)** كنت **(تخطّه)** أي تكتب أي كتاب **(بمينيك)** بل كنت أميّاً لاتقرأ ولا تكتب **(إذاً)** أي إذا كنت قبل قارئاً أو كاتباً **(لارتاب المبطلون)** فيقول المشركون هو كاتب، فأنشأ هذا القرآن من عنده، ويقول اليهود إنّ الّذي بشّر به التّوراة هو أميّ لا يقرأ ولا يكتب **(بل هو)** أي القرآن **(آيات بيّنات)** واضحات الدّلالة على أنّها من الله تعالى تستقرّ **(في صدور الّذين أوتوا العلم)** ويعترفون بها **(وما يحجد بآياتنا إلّا الظّالمون)** أي المجبولون على الظّلم والانحراف عن الحقّ وحبّ الباطل والشّهوات.

ثمّ إنّ الكافرين كانوا يعترضون على الرّسول (ﷺ) بأنّه لا يأتيهم بخوارق مثل الرّسل السّابقين فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٥٢.

وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

(وقالوا) اعتراضاً عليك **(لولا أنزل عليه آياتٌ)** خوارق عادات **(من ربّه)** فنقتنع بها كما أنزلت تلك الخوارق على من قبله من الرّسل **(قل إنّما الآيات)** الخوارق **(عند الله)** فيؤتي من يشاء منها ولكلّ نبيّ نوع من الخوارق، وليس في وسعي أن آتيكم بالخوارق كما تريدون **(وإنّما أنا نذير مبين)** موضّح إنذاري، ولست آتياً لآتيكم بخوارق كيفما أريد أو تريدون **(أو لم يكفهم)** معجزة وخارقة **(إنّا أنزلنا عليك)** هذا **(الكتاب)** العظيم وهو القرآن يخبر عن الماضي والمستقبل وأسرار الكون، وما في قلوب النّاس من أسرار، وعن أحكامٍ قيّمة وأخلاق وغير ذلك ممّا في القرآن، فالقرآن هو أمّ المعجزات أولم يكفهم هذا القرآن **(يتلى عليهم)** من أمّي لم يدرس قطّ ولم يكتب بتاتاً ولم يكن له علم بالكتب ولا صلة بها **(إنّ في ذلك)** القرآن **(لرحمةً وذكرى)** موعظةً لقوم **(يؤمنون)** يحبّون الإيمان بالحقّ والإستسلام له **(قل)** لهم أيّها النّبيّ **(كفى)** أي أكتفي أنا واكتفوا أنتم **(بالله)** أن يكون **(بيني وبينكم شهيداً)** على صدقي في الرّسالة حيث إنّه **(يعلم ما في السّماوات والأرض)** كلّ ما فيهما **(و)** اعلموا أنّ الّذين **(آمنوا بالباطل)** وهو الأصنام **(وكفروا بالله)** تعالى وانحرفوا عن دينه **(أولئك هم)** وحدهم **(الخاسرون)** لا المؤمنون بالله والحقّ الّذي جاء من عنده. هذا وكان الكفار يقولون للرّسول (ﷺ) فأمطر علينا حجارةً من السّماء إن كنت من الصّادقين ويقول: اللّهم إن كان ما يقول محمّد حقّاً فأتنا بعذاب أليم إلى غير ذلك استهزاءً بالرّسول فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

(ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجلٌ مسمّى) معيّن حدّدناه لعذابهم **(لجاءهم العذاب)** إلّا أنّه لا نقدم عذاب أي أمّة على أجلهم المحدود **(وليأتينّهم العذاب)** حينما جاء أجله **(بغتةً)** فجأة **(وهم لا يشعرون)** بمجيئه **(يستعجلونك بالعذاب)** في الدّنيا **(وإنّ جهنّم لمحيطةٌ)** لتحيطُ **(بالكافرين)** أي بهم إلّا أنّه ذكر الكافرين للإشارة إلى أنّ سبب العذاب

هو كفرهم (**يوم**) منصوب بقوله لمحيطة أي لتحيط جهنّم بهم (**يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول**) الملك لهم تقريعاً وفي قراءة (**نقول**) لهم (**ذوقوا**) جزاء (**ما كنتم تعملون**) في الدّنيا من الكفر والمعاصي والذّنوب.

ثمّ إنّ ضعفاء المسلمين كان يصيبهم الأذى من المشركين حينما كانوا يظهرون عبادتهم ودينهم، وكانوا يخافون الموت والفقر إن هاجروا بلدتهم إلى بلد آخر يعبدون فيه ربّهم بكلّ حرّيّتهم فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

(**يا عبادي الّذين آمنوا**) بالإسلام ورسوله (**إنّ أرضي واسعة**) فهاجروا فيها (**فإيّاي فاعبدون**) في أي مكان استطعتم فيه أن تظهروا دينكم بدون خوف من النّاس، ولا تخافوا من الموت فيمنعكم ذلك من الهجرة حيث (**كلّ نفس ذائقة الموت**) فتموت حينما جاء أجلها وفي أيّ مكان كان، فلا الهجرة تقدّم الموت ولا البقاء في الوطن يؤخّره (**ثمّ**) بعد الموت (**إلينا ترجعون**) فنثيبكم أجراً جزيلاً مقابل الهجرة لأجل الحفاظ على دينكم وعقيدتكم. ثمّ بين الله تعالى ذلك الثّواب فقال جلّ وعلا: (**والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات لنبوّئنّهم**) أي لنسكننهم (**من الجنّة غرفاً**) في غرف من الجنّة (**تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم**) أي حسن جدّاً (**أجر**) ثواب (**العاملين**) لله وفي سبيل الله ووفق شريعة الله تعالى (**الّذين صبروا**) على عقيدتهم وتحمّلوا الأذى في سبيلها (**وعلى ربّهم يتوكّلون**) لا على غيره، وياعبادي لا تخافوا الفقر إن هاجرتم في سبيلي فإنّه (**وكأين**) أي وكثيراً جدّاً توجد (**من دابةٍ**) من دواب (**لا تحمل**) أي لا تقدر أن تحمل (**رزقها**) وتدّخرها ولو لوجبةٍ واحدةٍ (**الله يرزقها**) كلّما احتاجت إلى الرّزق (**وإيّاكم**) ولا يضيع ولا ينسى أحداً من عباده.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أموراً يعترف بها المشركون وكلّ هذه الأمور يدعو إلى

التّوحيد وترك الأصنام وعبادة غير الله، ثمّ يقرعهم على بقائهم على الشّرك والضّلال مع الإعتراف لهذه الأمور؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾

(ولئن سألتهم) أي المشركين فقلت لهم: **(من)** الّذي **(خلق السّماوات)** العالم العلويّ كلّه **(والأرض)** والعالم السّفلي جميعه **(وسخّر الشّمس)** للإضاءة **(والقمر)** للإنارة ليلاً، وأوقفهما في هذا الفضاء؟ **(ليقولنّ الله)** فعل ذلك كلّه **(فـ)** بعد هذا الإعتراف **(أنّى)** أي كيف **(يؤفكون)** أي يصرفون كذباً إلى عبادة غير الله تعالى **(الله)** وحده **(يبسط)** يوسع **(الرّزق لمن يشاء من عباده)** أن يوسّع لهم **(ويقدر)** ويضيّق الرّزق **(له)** أي لمن يشاء **(إنّ الله بكلّ شيء عليم)** فيوسّع الرّزق ويضيّقه حسب علمه هذا **(ولئن سألتهم)** فقلت لهم: **(من)** الّذي **(نزّل من السّماء ماءً)** وهو المطر وغيره من ماء العيون، فإنّ كلّ ماء هو من المطر ومنّ السّماء **(فأحيا به الأرض)** أي حرّك قواها الإنباتية ساكنةً لا تنبت شيئاً **(ليقولن الله)** يفعل ذلك **(قل الحمد)** أي كلّ فعل جميل وكلّ نعم **(لله)** وحده، فهو الحقّ إذاً بالعبادة وغيره باطل **(ولكنّ أكثرهم لا يعقلون)** فيعبدون غيره ويعتقدون فيه النّفع والضّر والخير والشّر وهو لا يستطيع شيئاً.

ثمّ بعد وضوح الأدلّة على بطلان الشّرك وعبادة غير الله تعالى فإنّ كثيراً من النّاس يبقون على الضّلال ويرجون الباطل ويعملون به حفاظاً على منافعهم الدّنيويّة ومصالحهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)﴾

(وما) وليس **(هذه الحياة الدّنيا إلّا لهوٌ)** لعب لا قاعدة له **(ولعب)** وهو ما له قاعدة، وكلّ من اللّهو واللّعب لا ثمرة فيه وإنّه شيء مؤقّت ويزول، فالدّنيا مثله لا تبقى بل تزول **(وإنّ الدّار الآخرة لهي الحيوان)** أي الحياة الباقية الأبديّة الّتي لا تزول **(لو كانوا يعلمون)** حقيقة الدّنيا والآخرة لما آثروا الدّنيا على الآخرة. ثمّ أثبت الله تعالى أنّهم يختارون الضّلال لأجل منافع الدّنيا فقال جلّ وعلا: **(فإذا ركبوا في الفلك)** السّفينة وصار في السّفينة اضطراب **(دعوا الله)** وحده **(مخلصين)** أي منزّهين **(له)** لله **(الدّين)** عقيدتهم عن كلّ شرك حيث عملوا أنّه لا منقذ إلّا الله تعالى وحده **(فلمّا نجّاهم)** الله تعالى **(إلى البرّ إذا هم يشركون)** يرجعون إلى شركهم **(ليكفروا بما آتيناهم)** من النّعم والإنقاذ من الغرق في البحر **(وليتمتّعوا)** بمنافع دنيويّة ومصالح يحصّلونها من طرق باطلة فيقولون: نجّانا فلان وفلان وينسون الله تعالى **(فسوف يعلمون)** عقاب عملهم هذا ونتيجة شركهم من العذاب والخزي والهوان في الدّنيا والآخرة.

ثمّ إنّ الله تعالى بعد ماذكر دلائل وحدته وجلائل نعمته العامّة والّتي تدعو كلّ واحد منها إلى أن يوحّدوه ولا يشركوا به شيئاً، أراد أن يذكر نعمة خاصّة أنعم بها على أهل مكّة ليشكروا هذه النّعمة ويوحّدوا من أنعم بها عليهم ويتركوا الشّرك والضّلال فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

(أو لم يروا) نعمة الله عليهم وهي **(أنّا جعلنا حرماً آمناً)** وهو بلد مكّة حرّمها الله تعالى على النّاس وجعلها محترمة عندهم، فلا يتعرضّون لها ولأهلها لا في داخل مكّة ولا في خارجها، احتراماً لبيت الله الّذي فيها **(ويتخطّف)** النّاس **(من حولهم)** فيقتلون وينهب أموالهم وهم آمنون لايتعرّض لهم أحد **(أفبالباطل)** وهو الأصنام **(يؤمنون)** يعتقدونهم آلهةً **(وبنعمة الله)** هذه **(يكفرون)** والاستفهام للتّوبيخ والتّقريع **(ومن)** الاستفهام للإنكار فيفيد النّفي أي ولا تجد **(من أظلم)** أي أكثر ظلماً وتجاوزاً عن الحقّ وانحرافاً عنه **(ممّن افترى على الله الكذب)** فنسب إليه شركاء كذباً **(أو كذّب بالحقّ)** وهو التّوحيد والإسلام والقرآن والرّسول (ﷺ) **(لمّا جاءه)** هذا الحقّ واتّضح بالدّلائل

والبراهين، ثمّ أنذر هؤلاء فقال جلّ وعلا: (**أليس في جهنّم مثوى**) مأوىً ومقاماً (**للكافرين**) وهم هؤلاء وكلّ من حذا حذوهم وانحرف عن شريعة الله تعالى.

ثمّ بعد هذه المناقشات الكثيرة أراد الله تعالى أن يطمئن المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

(**والّذين جاهدوا فينا**) أي في عبادتنا ونشر ديننا وشريعتنا (**لنهدينّهم**) اي لنوصلّنهم (**سبلنا**) إلى الخير والسّعادة لأنّهم بجاهدهم هذا محسنون (**وإنّ الله لمع المحسنين**) فيسعدهم في الدّنيا بالنّصر والعزّ والسّيادة، وفي الآخرة بالنّعيم المقيم والحسنى والزّيادة، فالله ينصرهم في هذه الدّنيا وفي الآخرة، فطوبى لمن كان الله نصيره فلن يغلب في الدّنيا ولايخسر في الآخرة، وصلّى الله على المولى محمّد وعلى آله وصحبه وأُمتّه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

سورة الرّوم

(مكيّة، نزلت بعد سورة الإنشقاق وهي ستّون آية. سمّيت بالرّوم لورود كلمة الرّوم في الآية الثّانية منها في قوله تعالى: غلبت الرّوم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قد حدث أنّ الفرس غزوا الرّوم فغلبوهم ففرح بذلك مشركو مكّة وقالوا: إنّ الفرس لا كتاب لهم مثلنا، وإنّ الرّوم لهم كتاب مثلكم أيّها المؤمنون، فلننتصرنّ نحن عليكم كما انتصر الفرس المشركون على الرّوم أتباع الإنجيل فأنزل الله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾

(الم) سبق معناها **(غلبت الرّوم)** أي غلبت عليهم الفرس **(في)** أرض هي **(أدنى الأرض)** أي أقربها من العرب **(وهم)** أي الرّوم **(من بعد غلبهم)** أي من بعد مغلوبيّتهم وانهزامهم **(سيغلبون)** على الفرس وذلك **(في)** غضون **(بضع سنين)**، فلمّا سمع أبو بكر هذه الآيات أخبر بها المشركين فلم يصدّقوا، فراهنهم الصّديق ووضع لهم الأجل ثلاث سنين، فلمّا أخبر الرّسول ﷺ قال: يا أبا بكر زد في الرّهان وامدد في الأجل؛ فإنّ

البضع من ثلاث إلى تسع، ففعل أبو بكر ذلك، فانتصر الرّوم على الفرس في السّنة التّاسعة وفرح المؤمنون **(لله الأمر)** أي الحكم والتّأثير **(من قبل)** أي حين غلبة الفرس **(ومن بعد)** أي من بعد ذلك، وهنا نجد أنّ من أدقّ ما أخبر عنه القرآن هنا أنّه قال **(ويومئذ)** أي ويوم أن يتغلّب الرّوم على الفرس**(يفرح المؤمنون بنصر الله)** لهم على المشركين حيث كان في اليوم الّذي انهزم الفرس أمام الرّوم، انتصر المسلمون على المشركين في معركة بدر الكبرى، فمن أين علم محمّد أنّ الرّوم ستنتصر على الفرس، وفي اليوم الّذي ينتصر المسلمون على المشركين لولا أن أوحي إليه، فاشهد بأنّ هذا القرآن من الله وأنّ محمّداً رسول الله **(ينصر)** الله **(من يشاء وهو العزيز)** أي الغالب على نصر من يشاء، وينتقم الله تعالى من الكافرين يوم القيامة **(الرّحيم)** بالمؤمنين في الآخرة **(وعد الله)** أي وعد الله تعالى وعده بالآخرة ومجيئها **(لا يخلف الله وعده)** فيأتي بيوم القيامة حتماً **(ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون)** أي لا يؤمنون بذلك، وبمجيء السّاعة لعدم تفكّرهم في دلائلها وعدم السّعي، لذلك حيث إنّهم **(يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا)** ويسعون لها فقط **(وهم عن الآخرة)** أي السّعي لها وللعلم بها **(هم غافلون)** أي تاركون ومهملون.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه النّاس على ما يستدلّ به على مجيء يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾

(أولم يتفكّروا في) أعماق أنفسهم فيعلموا أنّه أي أنّ الله خلق هذا الكون بحكمة لا عبث فيها، وهي أنّ يعيش النّاس في هذا الكون العظيم وفق ما يقدّر هو لهم ويشرّع، فإنّ واحداً من أصغر الحكّام حينما يبنى قرية ولو صغيرة فإنّما يبني ليسكنها من يضيعه و يطبّق أوامره، فكيف بالله وهو أحكم الحاكمين، فما يبني هذا الكون إلّا للعمل **(بالحقّ)** وإجراء النّاس الحقّ فيه، ومن البداهة أنّ كلّ النّاس لا يعملون وفق الحقّ ووفق نظم الله تعالى، فلا بدّ من يوم يعاقب فيه من عزف عن الحقّ ويثاب من اتّبعه ونصره، فالسّموات والأرض وما بينهما يشهد كلّ ذلك على أنّ للنّاس ثواباً وعقاباً حسب أعمالهم **(و)** أنّ ذلك موكول إلى **(أجل)** وقت **(مسمّى)** معين للثّواب والعقاب وهو يوم القيامة **(و)** مع شهادة الكون على مجيء يوم القيامة **(إنّ كثيراً من النّاس بلقاء**

ربّهم) يوم القيامة وحسابهم فيه **(لكافرون)** غير مؤمنين.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذر الكافرين بعذابه لهم في الدّنيا والآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

(أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم) من الهلاك والدّمار نتيجة كفرهم وشركهم ومعاصيهم وهم **(كانوا أشدّ منهم قوّة)** من هؤلاء الّذين كفروا بالقرآن والرّسول (ﷺ) فلم تنفعهم قوّتهم شيئاً **(وأثاروا الأرض)** أي زرعوها بعد الحرث والكرب **(وعمروها)** بالمزارع والبساتين **(أكثر ممّا عمروها)** هؤلاء الكافرون، ولم يكن إهلاكهم إلّا بعد التّبليغ والانذار **(وجاءتهم رسلهم)** فبلّغوهم وأنذروهم، وقد أثبت الرّسل رسالتهم **(بالبيّنات)** بالدّلائل والمعجزات الواضحة في الدّلالة على رسالتهم فلم يؤمنوا بعد كلّ ذلك فأهلكهم الله تعالى **(فما كان الله ليظلمهم)** بإهلاكهم **(ولكن كانوا)** هم **(أنفسهم يظلمون)** حيث لم يتّبعوا الرّسل، فجعلوا أنفسهم مستحقّة للعذاب والدّمار **(ثمّ)** بعد عذابهم هذا في الدّنيا **(كان عاقبة الّذين أساؤوا)** بالكفر والآثام الدّار **(السّوآى)** أي الأسوء من كلّ دار وهي جهنّم وذلك **(أن)** أي لأنّهم **(كذّبوا بآيات الله)** أي معجزاته وبراهينه وأحكامه **(يستهزئون)** ويستهينون بها.

ثمّ أخبر الله تعالى بأنّ السّاعة آتية، وبيّن حال النّاس فيها، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟

بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

(الله يبدؤ الخلق) أي بخلق الإنسان إبداء **(ثمّ)** بعد موته **(يعيده)** إلى الحياة **(ثمّ)** بعد إحيائه **(إليه)** إلى الله **(ترجعون)** للحساب والجزاء حسب أعمالهم **(ويوم تقوم السّاعة)** وهو وقت الحساب **(يبلس)** أي ييأس **(المجرمون)** الكافرون، ثمّ بين الله تعالى يأسهم فقال جلّ وعلا: **(ولم يكن لهم)** للكافرين **(من شركائهم شفعاء)** يشفعون لهم، كم كانوا في الدّنيا يأملون فيهم ذلك **(وكانوا)** وأصبحوا في ذلك اليوم **(بشركائهم كافرين)** وأعداء لهم ويتبرّؤون منهم **(ويوم تقوم السّاعة يومئذ يتفرّقون)** أي يصير النّاس فرقتين **(فأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات)** وهم الفرقة الآولى **(فهم في الرّوضة)** وهي الجنّة **(يحبرون)** ينعمون ويكرمون **(وأمّا الّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة)** أي لقاء الله فيها وحسابه إيّاهم، وهم الفرقة الثّانية **(فأولئك في العذاب محضرون)** جميعهم فيعذّبون.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر مايدلّ على نزاهته من كلّ نقص واتّصافه بكلّ كمال فقال جلّ وعلا:

﴿فَسُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

(فسبحان) أي اعترفوا بنزاهة الله تعالى عن كلّ نقص **(حين تمسون)** واستدلّوا على نزاهته بمجيء المساء الّذي يستولي على الضياء شيئاً فشيئاً حتّى يستره ويصير الظّلام تاماً. **(و)** سبحوه أيضاً **(حين تصحبون)** واستدلّوا على ذلك بمجيْ الصّباح الّذي يستولي على الظّلام شيئاً فشيئاً حتّى يصير الضّوء التّام **(وله الحمد)** أي الثّناء بالجميل والإعتراف باتّصافه بجميع صفات الكمال **(في السّموات والأرض)** أي يصفه بذلك ويثني عليه كلّ من فيهم في هذين الوقتين، لدلالتهما على كماله المطلق **(وعشيّا)** أي وله اعتراف بنزاهته وكماله في العشاء، ويستدلّون بهذا الظّلام الّذي استولى على الضياء تماماً وبالنّجوم المتلألئة في ذلك الوقت **(وحين تظهرون)** وتستدلّون بهذا النّور الّذي قضى على الظّلام تماماً، ولدلالة هذه الأوقات على عظمة الله تعالى كان التّسبيح فيها أفضل وأثوب، وقد ورد في فضل التّسبيح والحمد أحاديث كثيرة نذكر بعضاً منها إن شاء الله تعالى:

١- ذكر الخازن عن البخاري ومسلم عن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول الله (ﷺ): كلمتان خفيفتان على اللّسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرّحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم[١].

٢- عنه عن مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: كنّا عند رسول الله (ﷺ) فقال: أيعجز أحدكم أن يكتسب كلّ يوم ألف حسنة، فسأل سائل من جلسائه قال: كيف يكتسب ألف حسنة، قال: يسبّح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحطّ عنه ألف خطيئة[٢].

٣- عنه عن مسلم عن جويريّة بنت الحرث (رضي الله عنها) زوج النّبيّ (ﷺ) أنّ النّبيّ (ﷺ) خرج ذات غداة من عندها وهي في مسجدها؛ فرجع بعدما تعالى النّهار فقال: مازلت في مجلسك هذا منذ خرجت بعد؟ قالت: نعم، فقال: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بكلماتك لوزنتهن (سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته)[٣].

ثمّ أراد تعالى أن يذكر آيات علمه وقدرته ووحدته من الأنفس والآفاق فقال جلّ وعلا:

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

(**يخرج الحيّ**) وهو الحيوان والنّبات والشّجر والطّير (**من الميت**) وهو النّطفة والبذرة والنّواة والبيضة (**ويخرج الميت**) وهو النّطفة والحبّ والثّمر والنّواة والبيضة (**من الحيّ**) وهو الحيوان والنّبات والشّجر والطّير(**ويحيي الأرض**) أي يحرّك قواها الإنباتيّة (**بعد موتها**) أي بعد يبسها، فيخرج منها النّباتات (**وكذلك**) مثل ما يخرج النّباتات من الأرض بعد موتها (**تخرجون**) أنتم من الأرض أحياء بعد الموت وتقوم القيامة. (**ومن**

(١) صحيح البخاري ٥/٢٣٥٢ الحديث رقم ٦٠٤٣، صحيح مسلم ٤/٢٠٧٢ الحديث رقم ٢٦٩٤.
(٢) صحيح مسلم ٤/٢٠٧٣ الحديث رقم ٢٦٩٨.
(٣) صحيح مسلم ٢/٢٠٩٠ الحديث رقم ٢٧٢٦.

آياته أن خلقكم من تراب) فإنّ التّراب يصير نباتاً وهو يصير غذاء وهو يصير نطفة وهي تصير إنساناً **(ثمّ)** بعد مدّة ومضي هذه الأطوار **(أنتم بشر)** مستوون **(تنتشرون)** على الأرض وتعملون فيها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن آيات أخرى يتعامل معها النّاس ويرونها يوميّاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم) من جنسكم ومن نطفتكم وأرحامكم **(أزواجاً لتسكنوا)** لتميلوا وتألفوا **(إليها)** وتكون العمليّات الجنسيّة فتتناسلوا وتتكاثروا **(وجعل بينكم)** وبين **(أزواجكم مودّة ورحمة)** يودّ ويحبّ كلّ الآخر ويرحمه **(إنّ في ذلك)** الخلق والتّرابط والتّحابب **(لآيات لقوم يتفكّرون)** ألا يرى أنّه إذا سلب الله تعالى المودّة بين الزّوجين ربّما يقتل أحدهما الآخر **(ومن آياته خلق السّموات)** وما فيها من النّجوم والكواكب والأقمار والشّموس والمدارات والمجرّات **(والأرض)** أي وخلق الأرض وما فيها من الجبال والتّلال والوديان والنّباتات والأشجار وأنواع من الحيوانات ومن العيون والأنهار والبحار ومن المعادن والكنوز والآثار **(و)** من آياته أنكم كلّكم من أبوين هما آدم وحواء ومن عنصر واحد وبينكم **(اختلاف ألسنتكم وألوانكم)** من عربيّ وعجميّ وتركيّ وكرديّ وفارسيّ إلى آخر اللّغات الكثيرة، ومن أحمر وأصفر وأسود وأسمر **(إنّ في ذلك)** الاختلاف **(لآيات للعالمين)** كلّهم حيث ليس للانسان اقتضاء ذاتي للّغة ولا لألوان دون أخرى، فتخصيص كلّ صنف بلغة ولون يكون من فاعل غيره وهو الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(ومن آياته منامكم باللّيل والنّهار) وتعطّلكم بذلك عن العمل ثمّ يقظتكم وانتباهكم

من النّوم **(وابتغاؤكم)** وسعيكم **(من فضله)** من رزقه تعالى، فكلّ شخص يحبّ عملاً دون آخر أو يريد حرفة دون أخرى وسعياً دون آخر، فاتّحادكم في الحقيقة واختلافكم في ميولكم واختياراتكم إلى أن أصبح لكلّ عمل جماعة يحبّونه ويعملونه، وبذلك أصبح لكلّ عمل طائفة، فأكمل بذلك جميع حاجات المجتمع **(إنّ في ذلك)** التّوزيع لأفراد الإنسان إلى طوائف الأعمال **(لآيات لقوم يسمعون)** القول فيتّبعون أحسنه، فإنّه لولا هناك خالق مدبّر يوجّه الإنسان إلى ما يريده لما اختلف أفراد الانسان في الميول والاختيارات، وذلك لاتّحاد حقيقتهم وعنصرهم جميعاً.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(ومن آياته) أنّه تعالى **(يريكم البرق خوفاً)** فتخافون من البرق لما فيه من الصّواعق وتطمعون فيه **(وطمعاً)** في نزول المطر**(وينزّل من السّماء ماء فيحيي الأرض بعد موتها إنّ في ذلك)** النّظم نظم السّحب و الرّعد والبرق والأمطار **(لآيات لقوم يعقلون)** وقد ذكرنا حقيقة ماهو البرق والرّعد عند تفسيرنا سورة الرّعد والحمد لله تعالى.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

(ومن آياته أن تقوم) أي أن تدوم وتبقى **(السّماء والأرض)** كما ترى تعملان **(بأمره)**وحسب إرادته **(ثمّ)** يهدمها الله ويخرجها عن هذه الحالة ويبدّل الأرض والسّماوات غير السّموات **(وإذا دعاكم)** بعد ذاك **(دعوة)** إلى المحشر والحساب **(إذا أنتم تخرجون)** من قبوركم وتذهبون إلى عرصات المحشر، ويجزي كلّ حسب عمله وسيرته وسلوكه إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر وعذاب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الآيات و الأدلّة على عظمة ذاته وكمال صفاته وجليل قدرته وكمال علمه ذكر نتيجة هذه الأدلّة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

(و) تبيّن من هذه الأدلّة وهذه الخلائق أنّ **(له)** عبد له وسخّر تحت يده وقدرته كلّ **(من في السّماوات)** من الملائكة **(ومن في الأرض)** كلّهم من الجنّ والحيوان والانسان **(كلّ له)** لله **(قانتون)**خاضعون لأمره التّكويني لايقدرون الخروج عن إرادته وتقديره، فليكونوا كلّهم طائعين لأمره التّكليفي أيضاً فيعبدوه ولايعبدوا غيره ويعملوا بشريعته دون نظام آخر، ليسعدهم في الدّنيا والآخرة والله على كلّ شيء قدير **(و)** تبيّن أيضاً أنّه **(هو يبدؤ الخلق)** أي يخلق الشّيء ابتداء ثمّ يغنيه**(ثمّ يعيده)** مرّة أخرى**(وهو)** أي الإعادة **(أهون)** أي أسهل **(عليه)** من الإبداء حسب ظنّ النّاس وإلّا فلا أصعب ولا أسهل عند الله، فكلّ شيء في السّهولة بالنّسبة إلى قدرته سواء، **(وله المثل الأعلى)** السّلطان الأعلى من كلّ سلطان **(في السّماوات والأرض)** بل كلّ سلطان هو يؤتيه لمن يشاء وينزعه عمّن يشاء بيده الخير إنّه على كلّ شيء قدير **(وهو العزيز)** أي القدير على تنفيذ إرادته لايمنعه مانع **(الحكيم)** ولا يريد شيئا إلّا وفيه حكمة باهرة ومصلحة ظاهرة أو خفيّة لا يطّلع عليها إلّا الله العليم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى آيات من الآفاق و الأنفس على سعة ملكه وعظيم سلطانه وكمال قدرته ووفور علمه، وأشار بذلك إلى أنّه من له هذا الملك والقدرة والعلم لايحتاج إلى شريك، ولا يقبل شريكاً له، أراد أن يذكر دليلاً من واقع حالهم على أنّ الله تعالى لا يقبل شريكاً ولا شريك له، فقال جلّ وعلا:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(ضرب) أي ذكر **(الله لكم مثلاً)** أي دليلاً **(من أنفسكم)** أي من واقعكم وهو أنّه **(هل لكم من ما ملكت أيمانكم)** أي من عبيدكم **(من شركاء)** منهم**(في ما رزقناكم)** من الأموال والأملاك **(فـ)** تكونون **(أنتم)** مع عبديكم **(فيه)** في مارزقناكم **(سواء)** متساوون في حصة الملك وأنكم **(تخافونهم كخيفتكم أنفسكم)** أي كما تخافون الأحرار، والجواب طبعاً وحسب الواقع كلّا، فإنّه لا يكون العبد شريكاً لمالكه في ملكه، بل ولا

يكون العبد مالكاً لشيء قطّ، وليس لهم قدرة على النّفع والضّر كالأحرار، فإذا كان الأمر كذلك وأنتم ملككم ليس ملكاً حقيقيّاً بل مجازيّاً، فإنّ الملك كلّه لله تعالى وضعه عندكم وتحت تصرفّكم مؤقّتاً، وعبيدكم بالنّسبة إليكم ليسوا كمثل آلهتكم بالنّسبة إلى الله تعالى، فإنّ الآلهة مخلوقة لله تعالى و عبيدكم ليسوا من خلقكم، فإذا أنتم لا تقبلون شركة عبيدكم لكم من ملككم المجازي فكيف تقبلون وتدعون أنّ الالهة الّتي هم خلق الله تعالى يكونون شركاء لله في ملكه الحقيقي، وهم من خلقه إن هذا إلّا ضلال مبين (**كذلك**) مثل ماسمعت (**نفصّل**) نبيّن (**الآيات**) تفصيلاً (**لقوم يعقلون**) الآيات ومضامينها، فتبيّن من هذه الأدلّة أنّه لا شريك لله أبداً (**بل اتّبع الّذين ظلموا**) تجاوزوا الحقّ وهم المشركون اتّبعوا (**أهواءهم**) وأحبّوا الضّلال (**بغير علم**) بغير دليل فأبقاهم الله تعالى على الضّلال (**فمن**) يقدر على أنّه (**يهدي من أضلّ الله**) أي حكم الله عليه بالضّلال وأبقاه فيه بسبب تعنّته أي لا أحد يستطيع ذلك، وكما أنّه لا هادى لهم في الدّنيا (**ومالهم من ناصرين**) ينقذهم من العذاب يوم القيامة؛ فلا تتعب نفسك أيّها النّبيّ وأيّها الدّاعي وراء هؤلاء، ولا تحزن عليهم واشتغل أنت ومن معك بما أمرك الله.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

(**فأقم**) الأمر هنا للأمّة بدليل قوله بعد (منيبين) بصيغة الجمع وقوله (وأقيموا الصّلاة ولا تكونوا من المشركين) لأنّ الرّسولﷺ معصوم عن ترك الصّلاة فلا يؤمر بها وعن الشّرك فلا يوجّه إليه النّهي عنه. فالمعنى فأقيموا أيّها المسلمون (**وجهك**) أي وجوهكم (**للدّين**) إلى دين الاسلام واثبتوا عليه (**حنيفاً**) أي مائلين عن ما يخالفه من كلّ باطل (**فطرة**) بدل من الدّين ونصبت لأنّ معنى (**أقم وجهك للدّين**) الزم الدّين، وجيء بهذا البدل ليبيّن أنّ هذا الدّين كان (**فطرة الله**) أي خلقة الله وجبلته (**الّتي فطر**) أي خلق وجبل (**النّاس عليها**) فهذا الدّين موافق للفطرة الإنسانيّة، فإنّ كلّ ما حرّم الله تعالى في هذا الدّين فهو مبغوض عند فطرة الإنسان السّليمة، وكلّ ما فرضه ملائم

لفطرته، فإنّ الاسلام جاء لتوجيه النّاس إلى خالقهم وعبادتهم له، والانسان إذا خلي وطبعه يعرف في قرارة نفسه أنّه لابد وأن يكون لهذا الكون صانعا عليما وقديرا يجب أن يعبد ويطاع ويشعر في قرارة نفسه بوجوب حفظ العقل والمال والنّفس والعرض، وكلّ ماحرّم الإسلام متعلّق بذلك، والحاصل أنّ كلّ حكم من أحكام الإسلام حينما حلّل يكون موافقاً للعقل السّليم وطبيعة الانسان المستقيم وجبلته، ولو فعل ذلك لاحتاج إلى تأليف كتاب كبير ولكن اكتفينا هنا بالإشارة إليه والعاقل تكفيه الإشارة، **(لا تبديل لخلق لله)** أي للجبلّة الّتي فطر النّاس عليها، إلّا أنّها ربّما يطرأ عليها الغفلة بسبب تقليد أو منفعة أو مصلحة، كما يطرأ على الذّهب الصّدأ فيزول ذلك الصّدأ ببيّنة وتذكير، ولذلك جاء الأنبياء والمرسلون لهذا التّنبيه والتّذكير فقط، فالرّسل مذكّرون، قال تعالى لرسوله (ﷺ) في سورة الغاشية ﴿إنّما أنت مذكر﴾[1] وقال للقرآن في سورة التّكوير ﴿إِنْ هُوَ ذِكْر لِلعَالَمينْ﴾[2] وقد بسطنا الكلام على هذا الموضوع في حينه فراجعه فإنّه يثلج القلوب والحمد لله تعالى **(ذلك الدّين)** الّذى أنزل إليكم هو **(الدّين القيّم)** المستقيم الموافق للعقل المستقيم والطّبع السّليم **(ولكنّ أكثر النّاس لايعلمون)** لانحرافهم عن الجبلّة الإنسانية بسبب الشّهوات أو المنافع أو المصالح الشّخصية أو التّقليد أو اتّباع أصحاب الأهواء والشّهوات **(منيبين)** حال أي أقيموا وجوهكم للدّين حال كونكم **(منيبين)** راجعين **(إليه)** إلى الله تعالى **(واتّقوه)** أي واجتنبوا عذابه باجتناب معاصيه **(وأقيموا الصّلاة)** لأنّها رمز العبوديّة لله وصلة بين العبد وربّه، وسبب لذكر الله فتحثّه على إطاعته **(ولا تكونوا من المشركين)** فتنيبوا وترجعوا إلى غير الله تعالى لجلب المنافع أو دفع المكاره أو رفعها، أو اتّباعهم دون أمر الله وشريعته، ثمّ شخّص تعالى المشركين بصفاتهم فقال جلّ وعلا (من الّذين **فرّقوا)** أي غيّروا **(دينهم)** فجعلوا بدل التّوحيد الشّرك وبدل أحكامه تعالى أحكاماً حسب هواهم وعقولهم القاصرة **(وكانوا)** أي أصبحوا بسبب ذلك **(شيعاً)** جماعات متفرّقة **(كلّ حزب)** أي جماعة **(بما لديهم)** من العقائد الباطلة والأحكام الفاسدة **(فرحون)**.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ معرفة الله ووحدته جبلّة خلق الإنسان عليها إلّا أنّه يصرفه عن جبلّته هذه أمور؛ فقال جلّ وعلا:

---

(١) الغاشية . ٢١.

(٢) التكوير. ٢٧ .

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(**وإذا مسّ النّاس ضرّ**) شدّة من المرض أو الفقر أو أيّ مصيبة كانت رجعوا الى جبلّتهم الّتى خلقوا عليها وهو معرفة الله ووحدته حيث (**دعوا ربّهم**) تعالى وحده وينسون كلّ شيء غيره (**منيبين**) راجعين ومتضرّعين (**إليه**) فقط (**ثم أذاقهم**) الله تعالى (**منه رحمة**) فأنقذهم من ما مسّهم (**إذا فريق منهم بربّهم يشركون**) فينسبون الرّحمة الى غير الله تعالى (**ليكفروا**) اللّام لام عاقبة أي (**فيكفرون بما آتيناهم**) من رحمتنا وذلك لمنافع دنيوية يتمتّعون بها وهي مربوطة بشركهم هذا ولذلك قال تعالى (**فتمتّعوا**) بهذه المنافع (**فسوف تعلمون**) عاقبتها وعاقبة شرككم لأجلها وعقابكم على ذلك (**أم**) بمعنى همزة الاستفهام أي (**أنزلنا عليهم سلطاناً**) دليلاً من العقل أو النّقل (**فهو**) ذلك السّلطان والدّليل (**يتكلم**) أي يدلّ و ينطق (**بما كانوا يعملون**) من الشّرك و الاستفهام للإنكار والتّوبيخ أي لا دليل لهم على ذلك وسيعاقبون عليه أشدّ العقاب.

ثمّ أراد تعالى أن يذكر صفة أخرى للانسان المنحرف عن المنهج المستقيم فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

(**وإذا أذقنا**) الإنسان المنحرف منّا (**رحمة**) نعمة من المال أو القوّة أو الجاه أو العلم (**فرحوا**) بطروا بها، وكان الأجدر بهم أن يتواضعوا ويشكروا الله تعالى (**وإن تصبهم**) في المال أو النّفس (**سيئة**) ضرر وخسارة (**إذا هم يقنطون**) ييأسون من رحمة الله تعالى وكان الأجدر بهم أن يصبروا ويأملوا رحمة الله، ثمّ يبيّن لهم أنّه لا حقّ لهم في البطر عند النّعمة ولا في اليأس عند النقمة فقال جلّ وعلا: (**أو لم يروا**) أي أو لم يعلموا (**أنّ الله يبسط الرّزق لمن يشاء**) فلا داعي أن يبطروا بالنّعمة فإنّها ليست منهم

بل من الله تعالى فليشكروه بالتّواضع ولا يبطروا **(ويقدر)** أي ويضيق الله الرّزق لمن يشاء، وذلك امتحان فليصبروا لينجحوا في هذا الامتحان ويعلموا ويتوجّهوا إلى الله راجين منه التّوفيق والسّداد **(إنّ في ذلك)** أي في سعة الرّزق لبعض وضيقه على بعض **(لآيات)** لدلائل على أنّ الرّزق من الله تعالى لا من العباد، فإنّك ترى شخصين يعملان عملا واحدا وبجهد متساو فينجح أحدهما ويكثر ماله ويبقى الآخر معدماً أو متأخّراً، وترى عاقلاً فقيراً وأبله غنيّاً، ومن فكّر في أحوال النّاس وأرزاقهم يرى عجباً عجاباً: فيضطرّ أن يعتقد أنّ هناك تقسيماً للرّزق وقاسماً يوسّع ويضيّق وليس منوطاً بالشّخص وعمله بل بإرادة ذلك القاسم الحكيم.

ثمّ بعد أن عاقب الله تعالى الإنسان الّذي يبطر ويفرح بالنّعمة أراد أن يعلمه ماذا يفعل صاحب المال في ماله بدل أن يفرح ويبطر به، فقال جلّ وعلا:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

(فآت ذا القربى) من النّفقة عليه ودفع حاجته **(والمسكين)** بدفع حاجته وابن السّبيل بدفع ما يوصله إلى وطنه إليه، والمراد بالمسكين ما يعمّ الفقير **(ذلك)** الإيتاء والمواساة لذى القربى والمحتاجين **(خير)** لكلّ أحد من البطر والفرح والتّباهي بالمال إلّا أنّه قال جلّ وعلا: **(للّذين يريدون وجه)** الله أي رضاه؛ لأنّهم الّذين يطبّقون هذا الوعظ والإرشاد **(وأولئك)** الّذين يريدون وجه الله ويطبّقون أمره **(هم المفلحون)** الفائزون بسعادة الدّنيا والآخرة **(وما آتيتم)** للنّاس **(من ربا)** من زيادة على القرض **(ليربو)** أي يزيد عن الّذي أعطيتم **(في أموال النّاس)** وهم المقرضون **(فلا يربو)** أي فلا يبارك فيه **(عند الله)** لأنّه لا يثيب المعطي ويعذّب المعطى له **(وما آتيتم)** المستحقّ **(من زكاة تريدون وجه الله)** أي رضاه **(فأولئك هم المضعفون)** المكثرون لثوابهم عند الله، حيث الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ويزيد الله لمن شاء، ولعلّ هذه الآيه نزلت مقدّمة لتحريم الرّبا والله تعالى اعلم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى دلائل على قدرة الله وعلمه وأنّ الرّزق والحياة والموت

منه أراد أن يطعن بآلهة المشركين بأنّهم لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف يعبدونهم فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

(الله) هو الّذي **(خلقكم ثمّ)** هو الّذي **(رزقكم ثمّ)** هو الّذي**(يميتكم ثمّ)** هو الّذي **(يحييكم)** بعد الموت **(هل من شركائكم من يفعل ذلكم)** الأمور **(من شيئ)** كلّا ثمّ كلّا، فإذا كان الأمر كذلك **(سبحانه)** أي تنزّه الله **(وتعالى عمّا)** عن شركة ما **(يشركون)** به، فليسوا شركاء له شيء، ثمّ أنذرهم الله تعالى فقال جلّ وعلا: **(ظهر الفساد)** أي الشّرك والمعاصي والخروج عن الإعتدال والعدل و الإنصاف، فعمّ ذلك **(في البرّ والبحر بما كسبت أيدي النّاس)** من الإضلال وحثّ النّاس على الفسوق والإنحرافات **(ليذيقهم)** اللّام للعاقبة، فالمعنى فيذيقهم الله عاقبة **(بعض الّذى عملوا لعلّهم يرجعون)** أي لكي يرجعوا عن ما هم عليه من الفساد.

ثمّ استدلّ تعالى بأنّ عذابه واقع عليهم إلّا أن يرجعوا، فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

(قل) لهولاء المشركين والكافرين**(سيروا في الأرض فانظروا)** نظر عظة واعتبار فتروا **(كيف كان عاقبة الّذين من قبل)** أي من قبلكم من الهلاك و التّدمير ودمّروا هذا التّدمير لأنّه **(كان أكثرهم مشركين)** فإذا كان عاقبة الشّرك وخيمة هذه الوخامة **(فأقم)** أي فأقم أيّها المشرك **(وجهك)** وحوله **(للدّين)** إلى الدّين **(القيم)** وهو دين التّوحيد فاسلم **(من قبل أن يأتي يوم)** لعذابك **(لا مردّ له)** لذلك اليوم ولا للعذاب فيه **(من الله)** تعالى لأنّ الله تعالى إذا جاء بالعذاب فلا يردّه **(يومئذ)** أي يوم أن جاء عذابهم **(يصدّعون)**

أصله يتصدّعون، قلبت التّاء صاداً فأدغمت فيها أي يتألّمون.

ثمّ بعد هذه الدّعوة الملحّة من الله تعالى عباده إلى الإيمان والتّوحيد والإعراض عن الكفر والشّرك، ربّما يتوهّم بعض الجهلة أنّ لله تعالى حاجة بالنّاس وبعبادتهم فأظهر الله تعالى غناه عن ذلك وذكر أنّ الدّعوة ليست إلّا لمنفعتهم لا لمنفعة الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

(**من كفر فعليه**) ضرر ووبال كفره، ولا يضرّ الله كفره ولا الإسلام ورسوله شيئا (**ومن عمل صالحاً**) وفق الإيمان (**فأولئك**) ينفعون أنفسهم حيث (**فلأنفسهم يمهدون**) يهيّئون منزلاً حسناً في الآخرة (**ليجزي**) اللّام للعاقبة أي أنّ الله تعالى (**يجزي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات**) جزاءً حسناً وثواباً جميلاً (**من فضله**) وكرمه وإحسانه، ويعاقب الكافرين حيث (**إنّه لا يحبّ الكافرين**) وقولي ويعاقب... لدلالة (أنّه لا يحبّ الكافرين) عليه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر آية أخرى على كمال قدرته وجلال نعمته على النّاس والّتي تدعو إلى التّوحيد ونبذ كلّ إشراك وضلال، فقال جل وعلا:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(**ومن آياته**) الدّالة على قدرته ونعمته على النّاس (**أن يرسل**) الله تعالى (**الرّياح مبشّرات**) بالمطر (**وليذيقكم من رحمته**) من نعم الحبوب والثّمار بسبب المطر، إذ لا حبوب ولا ثمار بدون الأمطار.(**ولتجرى الفلك**) أي السّفن بسبب الرّياح (**بأمره**) أي بأمر الله وتقديره، حيث ربط سلامة سير السّفن بالرّياح السّليمة (**ولتبتغوا**) بالسّفر على السّفن والتّجارة بها (**من فضله**) من رزقه تعالى (**ولعلّكم تشكرون**) على هذه النّعم الجليّة؛ فتعبدوا الله ولا تشركوا به.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله وينذر الكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

(و) وبعزّتي (**لقد أرسلنا من قبلك رسلاً**) كثيرين (**إلى قومهم فجاؤوهم بالبيّنات**) بالمعجزات الدّالة على رسالتهم فكفروا بهم وكذّبوهم (**فانتقمنا من الّذين أجرموا**) فأهلكناهم و عذّبناهم ونصرنا عليهم المؤمنين حيث (**وكان حقاً علينا**) حتّمنا على أنفسنا (**نصر المؤمنين**) فلا تحزن أيّها النّبيّ فإنّ الله ينصرك وينتقم من أعدائك ولكلّ أجل كتاب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الرّياح مبشّرة بالمطر ومجرية للسّفن أراد أن يذكر أنّ الرّياح هي تنشر السّحب ويجمعها حيث شاء الله فتمطر؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

(**الله**) هو (**الّذي يرسل الرّياح فتثير سحاباً**) أي تنشره و تسوقه حيث شاء تعالى (**فيبسطه**) أي يمدّه (**في السّماء كيف يشاء**) قلّة وكثرة في المدّ (**ويجعله كسفاً**) قطعاً متفرّقة (**فترى**) بعد ذلك (**الودق**) أي المطر (**يخرج من خلاله**) أي من خلال أجزائه (**فإذا أصاب به**) بهذا المطر مزارع وأراضي (**من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون**) أي يفرحون فرحاً يظهر أثره على البشرة في وجوههم (**وإن**) أي وقد (**كانوا من قبل أن ينزل عليهم**) هذا المطر، وقوله من قبله بدل من قوله من قبل أن ينزل أي قبل أن يأتي الرّياح بالسّحاب (**لمبلسين**) أي لآيسين من المطر، جيئ بهذا البدل لتحديد وقت اليأس فإنّهم كانوا عند وجود السّحاب آملين ومترقّبين المطر، ولذا بيّن وقت اليأس أنّه كان

قبل مجيء السّحاب (**فانظروا إلى آثار رحمة الله**) أي نعمته بالمطر (**كيف يحيي الله الأرض**) أي يحرّك قواها الإنباتيّة بالمطر فتنبت (**بعد موتها**) أي يبسها وتوقّفها عن الإنبات (**إنّ ذلك**) القادر العظيم (**لمحيي الموتى**) كما يحيي الأرض (**وهو على كلّ شيء قدير**) لا يعجز عن شيء (**ولئن أرسلنا**)على ما أنبتت الأرض (**ريحاً**) بلاءً (**فرأوه مصفراً**) وهالكاً (**لظلّوا**) لأصبحوا (**من بعده**) إلى من بعد الإصفرار (**يكفرون**) بنعمة المطر ويصير فرحهم حزنا، وهكذا فالإنسان غير كامل يفرح عند النّعمة ويكفر بالنّعمة عند زوالها ويحزن وييأس عند استبطاء النّعمة، ولكنّ الإنسان الكامل في إيمانه يحمد الله في كلّ حال، ويجعل كلّ حال دليلا على قدرة الله تعالى، وعلى أنّه المتصرّف في الأمور، فينيب إليه في كلّ حال، فيشكره عند النّعمة، ويصبر عند النّقمة، ولا يفرح فرح البطر، ولا ييأس ولا يكفر ويتوكّل على الله تعالى في كلّ الأمور، ولمّا بيّن الله تعالى حال الإنسان قال لرسوله:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

(**فـ**) إذا كان حال هؤلاء هكذا (**إنّك**) أيّها النّبيّ (**لا تسمع الموتى**) أي لا تستطيع أن تسمع هؤلاء الّذين هم كالموتى في عدم سماع الإجابة (**ولا تسمع**) ولا تستطيع أن تسمع أناساً هم كـ (**الصّم إذا ولّوا مدبرين**) فإنّ الأصمّ يمكن تفهمّه بالإشارة إذا كان مقبلاً، ولكن إذا كان مدبراً لا يمكن إفهامه أبداً (**وما أنت بهادي**) أناس هم كالعمي (**عن ضلالتهم إن تسمع**) وتهدي (**إلّا من يؤمن**) أي يجب أن يؤمن ويسعى له وينقاد للحقّ (**فهم مسلمون**) لك ومنقادون لاغيرهم، فلا تحزن عليهم ولا تذهب نفسك حسرات عليهم، واقنع بمن اتّبعك ومن ضلّ فلا يضلّ إلّا على نفسه، وليس بضارّك شيئاً فإنّه ليس من واجبك إلّا التّبليغ وقد أدّيته وقمت به كأحسن مايرام. وبهذا سلّى الله تعالى رسوله وخفّف من أتعابه وأحزانه على ضلال النّاس.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر من دلائل قدرته في أنفسهم فقال جلّ وعلا:

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

(الله) هو الّذي **(خلقكم من ضعف)** أي من شيء ضعيف جدّا وهو ماء مهين يقذفه الرّجل في رحم المرأة **(ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة)** حين الشّباب والكهولة **(ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً)** وهو الشّيخوخة **(وشيبة)** وهو الهرم **(يخلق مايشاء)** أي فبدّل هذا الخلق على أنّ الله **(يخلق)** أي يقدر على أن **(يخلق ما يشاء)** ويختار **(و)** يدلّ ذلك أيضاً على أنّه **(هو العليم)** بكلّ شيء **(القدير)** على كلّ شيء، ومن كان هذه صنعته لا يحتاج إلى شريك ولا يقبله فلا شريك له أبداً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال المؤمنين والمشركين في يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

(ويوم) منصوب بقوله بقسم الآتي فالمعنى ويقسم المجرمون **(يوم تقوم السّاعة)** أي ساعة ووقت العذاب والثّواب وهو يوم القيامة، ففي ذلك اليوم **(يقسم المجرمون)** أي يحلفون أنّهم **(ما لبثوا)** في الدّنيا **(غير ساعة)** فإنّه من طبيعة الانسان أنّه إذا أصابه النّعم ينسى أيام النّعم ويستقلها كأنّها لم تكن**(كذلك)** أي مثل ما صرفوا في الآخرة عن الصّدق وإدراك الحقّ **(كانوا)** في الدّنيا **(يؤفكون)** يصرفون عن الصّدق والحقّ **(وقال)** لهم الّذين **(أوتوا العلم والإيمان)** من الله تعالى **(لقد لبثتم)** ماكتب لكم **(في كتاب الله)** من الزّمان فبقيتم **(إلى يوم البعث فهذا يوم البعث)** قد وقع وأتى **(ولكنّكم كنتم)** في الدّنيا **(لا تعلمون)** لاتصدّقون بمجيئه **(فيومئذ)** أي فيوم إذا جاء يوم البعث **(لا ينفع الّذين ظلموا)** بالكفر والآثام معذرتهم شيئاً **(ولا يستعتبون)** أي لا تقبل توبتهم.

ثمّ بيّن الله تعالى سبب عدم قبول معذرتهم وتوبتهم فقال جلّ وعلا وأنعم علينا وتفضّل:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا

يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

(ولقد) أي بعزّتي لقد **(ضربنا)** ذكرنا **(للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل)** دليل ومواعظ وعبر يحتاجون إليها وما فيه الكفاية ولكنّهم لم يتّعظوا ولم يعتبروا بل **(ولئن جئتهم بـ)** أي **(آية)** دليل وموعظة وعبرة وحكم **(ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلّا مبطلون)** فيرفضون كلّ آية تأتي بها **(كذلك)** مثل ماترى **(يطبع)** يختم **(الله على قلوب الّذين لا يعلمون)** لا يحبّون العلم والإيمان ويستكبرون عنه فلا يدخل فيها الحقّ والإنقياد له **(فاصبر)** أيّها النّبيّ وأيها المسلم الدّاعي إلى الله حيث **(إنّ وعد الله)** بعذابهم في الدّنيا والآخرة ونصرك عليهم وثوابك في الدّنيا والآخرة **(حقّ)** يأتي لامحالة **(ولا يستخفنّك)** أي ولا يحملنك على عدم الصّبر عمل **(الّذين لا يوقنون)** فإنّ لكلّ أجل كتاب، وقد أنجز الله وعده في الدّنيا فنصر المؤمنين على الكافرين ويحقّق وعده بثوابهم في الآخرة لا محالة، فإنّ الله لا يخلف وعده، وحينئذ يلقى المؤمنون من الله تعالى التّكريم والسّلام وحسن العاقبة والختام وصلّى الله على المولى محمّد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإيمان، والحمد لله ربّ العالمين ورحمنا الله تعالى في البدء والختام آمين.

تذييل: إنّ هذه الدّلائل الّتي استدلّ الله تعالى بها على وحدته وقدرته وعلمه وعلى أنّه الحقيق بالعبادة وحده. وكانت من الآفاق والأنفس، وأنّ الآيات كلّها من قوله (الله يبدؤ الخلق) إلى آخر السّورة كانت مسلمة عند المشركين من أنّ هذه الأمور كلّها من الله تعالى وخلقه، فلذلك قامت الحجّة عليهم وعلى إبطال الشّرك وأنّهم ضالّون حينما يشركون. وتقوم حجّة على الملحدين أيضاً، فإنّ هذه الأمور لا يمكن أن يخلقها إلّا صانع حيّ قدير عليم خبير وهو الله تعالى، فنرجو منه الثّبات على الإيمان والتّوحيد وحسن الخاتمة وهو على كلّ شيء قدير وبالإجابة جدير.

سورة لقمان

(نزلت بعد سورة الصّافات، وهي أربع وثلاثون آية، وسمّيت بلقمان لذكر وصيّة لقمان فيها).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

(الم) مر تفسيرها **(تلك)** الآيات الّتي تتلى عليكم هي **(آيات الكتاب الحكيم)** وهو اللّوح المحفوظ أو القرآن الكريم، ووصفها بالحكيم لما فيها من الحكمة **(هدى)** مصدر بمعنى إسم فاعل، أي هادية تلك الآيات إلى الحقّ والصراط المستقيم، وعبّر عنه بالمصدر مبالغة في هدايتها، فكأنّها نفس الهداية مثل رجل عدل **(ورحمة)** أي سبب رحمة ونعمة **(للمحسنين)** القائمين بالأعمال الحسنة، وإنّ القرآن هدى لكلّ النّاس ورحمة لهم، إلّا أنّه خصّ بالمحسنين لأنّهم هم يعملون بها فيهتدون ويرحمون بها، وغيرهم لا يستفيدون منها حيث لا يؤمنون ولا يعملون بها، والمحسنون هم الّذين يعملون الأعمال الحسنة، فذكر الله تعالى بعضاً منها فقال جلّ وعلا: **(الّذين يقيمون الصّلاة)** أي يؤدّونها ويجبرون من تحت قدرتهم على أدائها **(ويؤتون الزّكاة)** إلى مستحقّيها **(وهم بالآخرة هم يوقنون)** إيمانهم بها يبلغ درجة اليقين، ذكر الله من الأعمال الحسنة هذه الثلاثة فقط؛ لأنّ هذه الثّلاثة لو وجدت في العبد صحيحةً وخالصةً فقد إستكمل إيمانه وإسلامه، لأنّ الإيمان بالآخرة يستلزم الإيمان بالله وملائكته والكتب

والرّسل .....الخ، وكذا الصّلاة وإقامتها تستلزم أداء الواجبات البدنيّة كلّها، وأداء الزّكاة يستلزم أداء الواجبات الماليّة جميعها، فتمّ بذكر هذه جميع أعمال الإسلام عقيدةً وعملاً ضمناً وإلتزاماً **(أولئك على هدىً)** أي هدايةً ورشداً أوتوا **(من ربّهم وأولئك)** الّذين عملوا هذه الأعمال **(هم المفلحون)** أي الفائزون بسعادة الدّارين، ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى وصف المحسنين ومالهم من الهداية في الدّنيا والفلاح في الآخرة أراد أن يذكر غيرهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾

(ومن النّاس من يشتري) ويتّخذ ويروّج **(لهو الحديث)** من إضافة الصّفة إلى الموصوف أي الحديث اللّاهي وهو كلّ حديث وكلام يقتل الوقت ولا يثمر خيراً من علم أو موعظة أو غيره، فيدخل فيه الغناء والحكايات الّتي لا خير ولا عظة ولا علم نافعاً فيها **(ليضلّ)** أي ليغفل النّاس **(عن سبيل الله)** تعالى من علوم القرآن وتلاوته وعلوم العقيدة والأحكام الشرعية أو العلوم النّافعة ويفعل ذلك **(بغير علم)** بعاقبة ذلك وبمجرد الجهل أو الحقد على الخير؛ فتكون سبباً لضياع وقته وماله ووقت النّاس وأموالهم. هذا وإنّ الآية وإن نزلت في حقّ النّضر بن الحارث الذي كان يشتري الكتب المحتوية على أساطير الفرس وقصص أبطالهم وحروبهم ويقول للّذين يريدون أن يذهبوا لسماع القرآن من الرّسول (ﷺ) إنّ محمّداً يحدّثكم عن عاد وثمود وأنا أحدثكم عن رستم وإسفنديار والأكاسرة، فكان بعض النّاس يتركون سماع القرآن لسماع حكاياته الباطلة. إلّا أنّه هدف الآية عام في كلّ من يروّج ما لا فائدة فيه **(ليضلّ)** النّاس **(عن)** قيم الإسلام **(سبيل الله بغير علم ويتّخذها)** أي يتّخذ سبيل الله **(هزواً)** محلّ استهزاء كما في زمننا هذا؛ حيث اتّخذت كثير من الأمور باسم التّقدم والثّقافة؛ والغرض من كلّ ذلك إبعاد النّاس عن تقاليد الإسلام، وقد عمل المستعمر وعمل إلى أنّه أصبحت كثير من الأمور الدّينيّة والإسلاميّة في بلاد الإسلام خرافةً ورجعيّةً عند أهل العصر ويستهزئون بها؛ وابتعدوا بذلك عن سبيل الله والصّراط المستقيم **(أولئك)** الّذين يعملون هذه الأعمال ويروّجونها بيننا من الأجانب ومأجوريهم منّا **(لهم عذاب مهين)** يهينهم

إهانةً شديدةً **(وإذا تتلى عليه)** أي على الّذي اتّبع لهو الحديث **(آياتنا ولّى مستكبراً)** عن سماعها فلا يسمعها **(كأنّ في أذنيه وقراً)** أي شيئاً مانعاً عن سماعها **(فبشّره بعذاب إليم)** عذاب شديد الألم. وقد مرّ بي ما يصدّق هذا الواقع أنّه كنت مسافراً بين بغداد وأربيل، وكان مذياع السّيارة مفتوحاً يبث أغنيات وما شابهها، إلى أن جاء وقت بثّ البرنامج الدّينيّة فبثّ موعظةً دينيّةً، فلمّا بدأ الواعظ بالوعظ كان بجانبي مسلم، أي من ولد في بلد إسلامي ومن أبوين مسلمين مدوّن في دفتر نفوسه (الدّين: مسلم)، فما أن بدأ الواعظ حتّى مدّ يده فسدّ المذياع وسبّ الواعظ، فدخلت معه في مناقشة إلى أن سكت خجلاً وإستحياءً، وهذا واحد من آلاف من المسلمين المرتدّين والّذين نفخ في عقولهم شياطين الإستعمار والمستعمرين.

ثمّ بعد أن أنذر الله تعالى الكافرين بالعذاب الأليم أراد أن يبشّر المؤمنين؛ فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

(إنّ الّذين آمنوا) بهذا القرآن **(وعملوا الصّالحات)** حسب وصايا القرآن والإسلام أعدّ **(لهم)** من الله تعالى **(جنّات النّعيم)** أي جنّات فيها النّعيم فقط ولا مكروه فيها أبداً **(خالدين فيها)** إلى أبد الآبدين لا يخرجون منها ولا يخرجون **(وعد الله)** أي كان جزاؤهم هذا وعد الله وعدهم أيّاه وعداً **(حقّاً)** ثابتاً ومنجزاً لهم **(وهو)** أي الله **(العزيز)** الغالب على تنفيذ وعيده في حقّ الكافرين وإنجاز وعده للمؤمنين **(الحكيم)** في وعده ووعيده لا يغفل شيئاً إلّا وفيه حكمة.

ثمّ أشار الله تعالى إلى دلائل تدعو إلى عبادته وعدم الإشراك به؛ فقال جلّ وعلا:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

(خلق) الله **(السّماوات)** أي العالم العلوي كلّه بعزّته وحكمته **(بغير عمد)** يقيمها وتقوم عليه **(ترونها)** جملةً مستقلةً جيئ بها لإثبات أنّه لا عمد تقوم عليه السّماوات أي ترونها رأي العين أنّها بغير عمد تقوم عليه، أو صفة لعمد أي بغير عمد ترونها بعيونكم، فتفيد أنّ لها عمداً لا يرى وهو الجاذبيّة الّتي أوقفت كلّ جرم من الأجرام العلويّة في مكانها بتنسيق دقيق ونظام محكم وبديع،هذا المعنى عندي أوفق **(وألقى في الأرض رواسي)** جمع راسية أي ثابتة وهي الجبال، فألقاها تعالى في الأرض منعاً من **(أن تميد)** الأرض أي تضطرب بكم حيث أثبتها الجبال ومنعها من الإضطراب **(وبثّ)** أي ونشر الله تعالى **(فيها)** في الأرض **(من كلّ دابةٍ)** تدبّ عليها من الإنسان والجنّ والحيوان والطّيور والزّواحف وغير ذلك ممّا لا يحصيها إلّا الله تعالى **(وأنزلنا من السّماء)** أي من العلوّ وهو السّحاب **(ماءً)** وهو المطر **(فأنبتنا)** بالماء بعد إختلاطه بالتّراب **(فيها)** في الأرض **(من كلّ زوج)** صنف من النّباتات والأشجار **(كريم)** أي ذي قدر وقيمة وحسن وجمال، وتفيد الآية أنّ كلّ نوع من النّبات والأشجار زوج أي ذكر وأنثى ولا ينتج النّبات الحبّ ولا الشّجر الثّمر إلّا بعد لقاح والتقاء بين مادة الذّكر ومادّة الأنثى، وهذه معجزة من معجزات القرآن الّتي اكتشفها العلم بعد قرون **(هذا)** الّذي ذكرناه هو **(خلق الله)** أي مخلوقه الّذي خلقه **(فأروني ماذا)** أي أي شيء **(خلق)** الآلهة **(الّذين)** اتّخذتموهم (من **دونه**) والجواب لا شيء خلقوا فلا يستحقّون العبادة، إذن لأنّ من شرط الألوهيّة الخلق فلا ألوهيّة لهم **(بل الظّالمون)** بعبادة غير الله **(في ضلال مبين)** واضح لا خفاء فيه حيث يعبدون ما لا يخلق شيئاً ولا ينفع ولا يضرّ ولا يقدر على دفع الأذى عن نفسه فكيف عن غيره.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر موعظة لقمان لابنه ليتّعظ بها النّاس لأنّها موافقة لدين الله وشريعته وتوحيده ونبذ كلّ شريك وإشراك، وذلك لاعتراف المخاطبين بلقمان وحكمته:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

(ولقد) أي بعزّتي (**آتينا لقمان الحكمة**) وفسّر الله تعالى الحكمة فقال جلّ وعلا: **(أن اشكر** لله) أي آتيناه القوّة على شكر الله تعالى، وشكر الله هو أن لا يستعمل العبد

ما وهبه الله فيما لا يرضيه تعالى، فلا يعصى بجوارحه ولا بقلبه ولا بماله؛ لأنّ كلّ ذلك من هبة الله تعالى وهبها لعباده، ثمّ ذكر الله تعالى أنّ فائدة الشّكر ومنفعته تعود إلى العبد نفسه لا إلى الله تعالى؛ فقال جلّ وعلا: (ومن **يشكر**) الله تعالى **(فإنّما يشكر لنفسه)** أي لمنفعة نفسه، فإنّ الله تعالى يزيد النّعمة بالشّكر في الدّنيا ويثيب عليه في الآخرة قال تعالى **(لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد)** فمنفعة الشّكر تعود إلى الشّاكر لا إلى الله تعالى، كما وإنّ مضرّة الكفران تعود لصاحبه، ولذا قال الله تعالى **(ومن كفر)** فلا يضرّ بكفره إلّا نفسه ولا يضرّ الله شيئاً **(فإنّ الله غني)** عن العالمين كلّهم وعن شكرهم و عبادتهم **(حميد)** بذاته سواء حمده النّاس أو لم يحمدوه.

سؤال: من هو لقمان هذا؟ وهل كان نبيّاً؟

الجواب: قال في منظومة بدء الأمالي:

وذو الـقـرنـيـن لـم يـعـرف نـبيـاً كـذا لـقـمـان فـاحـذر عـن جـدال

فنبوّته غير مجمع عليها، قال ابن كثير **(رحمه الله تعالى)** في تفسيره: اختلف السّلف في لقمان هل كان نبيّاً أو عبداً صالحاً من غير نبوّة؟ على قولين: الأكثر على أنّه كان عبداً صالحاً من غير نبوّة، وكذلك اختلفوا في نسبه فقال بعضهم: إنّه كان من السّودان حيث قال الأوزاعي: حدّثني عبد الرّحمن بن حرملة فقال: جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيّب فقال سعيد: لا تحزن من أجل أنّك أسود فإنّه من أخير النّاس ثلاثة من السّودان: بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم كان أسود نوتياً، وقال بعضهم: إنّه كان حبشيّاً، وقال البعض إنّه ينتهي نسبه إلى جدّ إبراهيم (عليه السلام)، ويقال: إنّه كان قاضياً في بني إسرائيل، والحاصل أنّه كان من الحكماء الّذين كان يعترف به الجاهلون والمتديّنون، فلذلك ذكره الله تعالى في القرآن، وذكر موعظته فكأنّ الله تعالى يقول للجاهلين ألا يعترفون بحكمة لقمان، فهذه موعظته الّتي تأتي وينهى فيها عن الشّرك فقال جلّ وعلا:.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

(و) أي واذكر للنّاس **(إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه)** فقال له **(يا بنيّ لا تشرك**

بالله) شيئاً حيث **(إنّ الشّرك لظلم عظيم)** ولم يقل أعظم، لأنّ الإلحاد أعظم منه، لأنّ المشرك يعترف بالله وعظمته وخلقه والملحد لا يعترف بالله ولا بخلقه ولا بوجوده تعالى، فهذه موعظة لقمان ولقمان هو لقمان الحكيم و يعظ إبنه ولا يعظ الأب إبنه إلّا بما هو الخير والحقّ والصّحيح.

ثمّ أراد الله تعالى أن يؤكّد قول لقمان وأنّ الشّرك ظلم عظيم جدّا وبلغ من العظمة أنّه لايطاع فيه الوالدان مع مافرضنا على الإنسان من البرّ بهما وإطاعتهما فقال جلّ وعلا:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

(ووصّينا) أي وأمرنا **(الإنسان)** أن يبرّ **(بوالديه)**الأب والأم سيّما الأم حيث **(حملته أمّه)** في بطنها وهي تهن أي تتعب **(وهناً على وهن)** أي تعبا على تعب، فكلّ وقت يزيد تعبها إلى أن تضعه**(وفصاله)** أي فصل الولد عن أمّه إلى الحين الّذي فيه ينفطم أي لا يرتضع **(في عامين)** أي بعد عامين، لأنّ مدّة الرّضاعة عامان، فتتحمّل الأمّ المشقّة في هذه المدّة أيضاً، ثمّ بيّن ما وصّى الله به الإنسان تجاه والديه فقال جلّ وعلا: **(أنْ اشكر)** أي قلنا له وأمرناه أن اشكر **(لي)** باطاعة أوامري حيث أوجدتك وخلقتك**(و)** اشكر**(لوالديك)** بإطاعتهما حيث إنّهما كانا سبب وجودك بعد إرادتي وخلقي لك، فهما في الدّرجة الثّانية في نعمة وجودك **(إليّ المصير)** أي مصيرك ورجوعك إليّ يوم القيامة، فأعاقبك على عدم شكري والإنحراف عن شريعتي، وعلى عدم شكرك لوالديك بعدم إطاعتهما، فأطع والديك **(و)** لكن **(إن جاهداك)** أي حاولا معك لأن يحملاك **(على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما)** في ذلك بل في كلّ معصية فإنّه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق **(و)** لكن لا تتركهما بل**(وصاحبهما في الدّنيا)** صحابا **(معروفاً)** أي حسناً من خدمتهما ورعايتهما **(واتّبع)** في العقيدة و الدّين**(سبيل من أناب)** أي رجع **(إليّ)** في العقيدة والأحكام **(ثم)** يوم القيامة **(إليّ مرجعكم)** فأجازي كلاً

حسب عقيدته وأعماله (**فأنبّئكم بما كنتم تعلمون**) بتلاوة سجل أعمالكم ومجازاتكم عليها.

تنبيه: قال تعالى: (**ماليس لكم به علم**) أي ماليس له شريك فيعلم حيث لا شريك له، فنفي العلم لنفي المعلوم لا لنفي العلم به فقط.

تنبيه ثان: وصّى الله تعالى وأمرنا في آيات كثيرة ببر الولد لوالديه ولم يوص الوالدين ببرّهما بالولد لأنّ ذلك لا حاجة إليه، حيث الوالدان يبرّان بولدهما حسب الفطرة والخلقة بل ويتفانيان في برّهما إليه وخدمته.

تنبيه ثالث: إنّ الوالدين مع تأكيد الله تعالى على برّهما وجعله رضاءه في رضائهما وسخطه في سخطهما، إلّا أنّه لم يجُز إطاعتهما وبرّهما في معاصي الله تعالى، فغيرهما ممّن يجب طاعته لا يجوز أيضاً إطاعته فيما حرّم الله تعالى ومنعه وبالطّريق الأولى، والحاصل لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

* * *

ثمّ أعاد الله تعالى الكلام إلى ذكر مواعظ لقمان لابنه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

(**يا بنيّ**) أي قال لقمان لابنه، وبنيّ تصغير ابن خاطبه به شفقة عليه لا لصغره (**إنّها**) أي إنّ كلّ خصلة تعملها (**إن تك مثقال حبّة من خردل**) في صغرها (**فتكن**) مستورة (**في صخرة**) أي في جوفها(**أو في**) أعلى السّماوات (**أو في**) أعماق (**الأرض**) فلا تخف على الله تعالى بل يعلمها وأنّه (**يأت بها**) يوم القيامة ويظهرها ويحاسبك وفقها، فإن كانت خيراً فيثيبك بها وان كانت شرّا فيعاقبك عليها(**إنّ الله لطيف**) أي ينفد علمه في كلّ شيء فيصل إلى كلّ شيء (**خبير**) أي عالم بكلّ شيء، فهما أي اللّطيف والخبير بمعنى واحد إلّا أنّ الفرق في المدلول، فاللّطيف يستعمل في مقام الرّحمة والخبير في مقام السخط، فالمعنى هنا (**لطيف**) يعلم حسنات عباده فيثيبهم بها (**خبير**) بسيئاتهم فيعاقبهم عليها والله تعالى أعلم.

ثمّ إنّ لقمان بعد أن نبّه إبنه على أنّ الله تعالى يعلم كلّ الحسنات فيثيب بها،

وعلم كلّ السّيئات فيعاقب عليها، أراد أن يذكر لابنه الحسنات ويأمره بها فقال:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

(يابنيّ أقم الصّلاة) أي اجعلها مقامة فيك وفيمن تحت قدرتك **(وأمر بالمعروف)** أي بكلّ ماهو حسن حسب شريعة الله تعالى، وأْت به أيضاً حسب الطّاقة **(وإنّه عن المنكر)** أي كلّ منكر في الشّرع أنّه غيرك عنه واجتنبه بنفسك **(واصبر على ما أصابك)** من الأذى والمشقّة في سبيل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر **(إنّ ذلك)** أي الصّبر على ذلك **(من عزم الأمور)** أي الأمور المزعومة أي المأمورة بها من عند الله تعالى ولا رخصة في تركها **(ولا تصعّر)** أي ولا تمل وجهك عن المخاطب تحقيراً **(للنّاس)** المخاطبين معك **(ولا تمش في الأرض مرحاً)** متكبّراً حيث **(إنّ الله لا يحبّ كلّ)** أي أيّ **(مختال)** متكبّر على النّاس **(فخور)** بما عنده من العلم أو القوّة أو المال أو الجاه فيتكبّر به **(واقصد)** أي واعتدل في **(مشيك)** بين السّرعة، فلا تسرع كما يفعل السّفهاء ولا تبطيء كما يفعل من به الخيلاء **(واغضض)** أي اخفض **(من صوتك)** فلا ترفعه أكثر من اللّازم فإنّ الصّوت الرفيع أي العالي منكر ألا ترى أنّه **(إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير)** لأنّه عال جدًا.

ثمّ لما ذكر الله تعالى لهم الدّليل النّقلي على قبح الشّرك وحسن ما أمر به الإسلام أراد أن يذكر الدّليل العقليّ لهم أيضاً على بطلان الشّرك ووجوب اتّباع شريعة الله تعالى. فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

(ألم تروا) أي ألم تنظروا أيّها الكافرون **(أنّ الله سخّر لكم)** كلّ ما في السّماوات من الكواكب و الشّموس و النّجوم والأقمار **(ومافي الأرض)** من النّباتات والاشجار والجبال والعيون والأنهار **(وأسبغ)** وأتمّ بذلك **(نعمه عليكم)** نعماً **(ظاهرة وباطنة)** لا تعلمونها **(و)** مع ذلك يوجد **(من النّاس من يجادل في الله)** في وجوده أو وحدته **(بغير علم)** أي دليل عقلي **(ولا هدى)** ولا إرشاد من رسول **(ولا كتاب منير)** أنزل عليه. **(وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله)** حيث ليس لكم كتاب ولا دليل، فكتاب الله هو الدّليل **(قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا)** من العادات والتّقاليد ولا نتّبع غيره **(أولو كان الشّيطان يدعوهم)** بما هم عليه من تقليد الآباء **(إلى عذاب السّعير)** يتّبعونه على ذلك التّقليد.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن عاقبة من اتّبع كتاب الله وعاقبة من كفر به فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

(ومن يسلم) أي وجّه **(نفسه)** أي ذاته **(إلى الله)** فعمل له وحسبما أراد **(وهو محسن)** أي مؤمن وموحّد **(فقد استمسك)** أي تعلّق **(بالعروة)** وهي ما يتعلّق بها الإنسان للعروج إلى المراتب العالية والمقامات الرّفيعة **(الوثقى)** أي المتين الّذي لا يقطع ويصل بها إلى المطلوب و السّعدة **(وإلى الله عاقبة الأمور)** أي نهاية أموره أي أعماله فيجازيه عليها بأحسن مايروم **(ومن كفر)** بدين الله **(فلا يحزنك كفره)** أيّها النّبيّ وأيّها المسلم حيث **(إلينا مرجعهم)** فننتقم منهم **(فينبّئهم بها)** بكلّ ماعملوا بالعقاب عليه ولا يخفى على الله تعالى من أعمالهم من شيء حيث **(إنّ الله عليم بذات)** أي بحقيقة **(ما في الصّدور)** فكيف بغيره من الأمور **(نمتّعهم)** في الدّنيا **(قليلاً)** فإنّ كلّ ما في الدّنيا قليل، وإنّ كثر جداً لأنّه زائل وفان **(ثمّ نضطرّهم)** أي نسوقهم جبراً **(إلى عذاب غليظ)** جدّاً وهو عذاب جهنم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ شركهم باطل حسب مايعرفونه فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

(**ولئن سألتهم من خلق السّماوات والأرض ليقولنّ الله**) خلق ذلك كلّه (**قل**) فإذا كان الأمر كذلك (**الحمد**) أي الكمال المطلق لله حيث لا يقدر على هذا الخلق إلّا من له الكمال؛ فلا شريك له لأنّ الشّريك من سمات النّقص وينافي الكمال (**بل أكثرهم لا يعلمون**) حقيقة الأمور فيكذّبونه أنفسهم بأنفسهم، حيث يعرفون بما يثبت الكمال المطلق لله، ثمّ ينسبون إليه ماينافي الكمال. ثمّ أراد الله تعالى أن يظهر غناه عنهم وعن عبادتهم وعن حمدهم فقال جلّ وعلا (**لله**) تعالى مُلكاً ومِلكاً لكلّ(**ما في السّماوت**) أي العالم العلويّ (**والأرض**) وجميع ما في الأرض وهو العالم السّفليّ، فمن كان له هذا الملك فلا يحتاج إلى أحد ولا إلى عبادتهم حيث (**إنّ الله** هو **الغنيّ**) المطلق (**الحميد**) في ذاته فلا يحتاج إلى حمد النّاس له.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى كمال قدرته أراد أن يذكر سعة علمه فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

(**ولو أنّ**) كلّ (**مافي الأرض من شجرة**) من الأشجار (**أقلام**) كانت أقلاماً (**والبحر يمدّه**) أي تكون البحر مداداً له أي حبراً لتلك الأقلام(**من بعده**) من بعد بحر الدّنيا تكون (**سبعة أبحر**) أخرى فيكتب بهذه الأقلام وهذه الأبحر كلمات الله (**مانفذت كلمات الله**) لما انتهت كلمات الله تعالى، بل لا تكفي تلك الأقلام ولا الأبحر إلّا لكتابة نفسها، فإنّه لو قسمت الأقلام إلى أجزاء لا تتجزّأ، وكذلك البحار، فكلّ جزء لا يكفي إلّا لكتابة نفسه، فبقي غير ذلك من الموجودات دون عدّ وإحصاء وكتابة (**إنّ الله عزيز**) بقدرته الّتي ذكرت (**حكيم**) بعلمه الّذي ثبت له، فمن كان له هذه القدرة والعلم

لا يصعب عليه أي شيء فاذاً (**ماخلقكم**) ابتداء (**ولا بعثكم**) إعادتهم إلى الحياة مرّة أخرى (**إلّا كنفس واحدة**) أي كخلق نفس واحدة في السّهولة بالنّسبة إلى قدرته وعلمه (**إنّ الله سميع**) بجميع الأقوال (**بصير**) بكلّ الأعمال فيجازي عليها حين البعث.

ثمّ ذكر الله تعالى من دلائل قدرته وسعة علمه فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٣٠)﴾

(**ألم تر**) أي ألم تنظر نظرة اعتبار واستدلال على قدرة الله تعالى وعلمه إلى(**أنّ الله يولج**) أي يدخل اللّيل في النّهار (**ويولج النّهار في اللّيل**) ويدخل النّهار في اللّيل، وكيفيّة إدخال اللّيل في النّهار والعكس ذكرناها عند تفسيرنا لسورة آل عمران بعد قوله تعالى: ﴿قل اللّهم مالك الملك .... الخ). (**وسخّر الله الشّمس والقمر كلّ**) منها (**يجري**) يعمل (**إلى أجل**) وقت (**مسمّى**) معيّن عند الله تعالى وهو يوم القيامة(**وإنّ الله بما تعملون خبير**) فيجازيكم عليه (**ذلك**) الخلق والنّظام يعلم (**بأنّ الله هو الحقّ**) الموجود الثّابت (**وأنّ مايدعون من دونه**) أي إلى عبادته من الهياكل والأوثان والأصنام والأشخاص(**هو الباطل**) عبادته ودعوة النّاس إليه (**وأنّ الله هو العليّ الكبير**) لا عليّ ولا كبير سواه، بل كلّ علوّ وكبرياء هو يعطي لمن علا وكبر امتحاناً له، فإذا شكر وأطاع فيثاب وإلّا فيعاقب عقاباً عسيراً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى آيات قدرته ونعمته من العالم العلويّ أراد أن يذكر آياته من عالم البحار؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾

(**ألم تر**) رؤية الإتّعاظ والإعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى ونعمته(**أنّ الفلك**) السّفن (**تجري**) على الماء(**في البحر**) دون أن تغرق وذلك بأمر الله وأرادته، حيث لو أراد الله تعالى لاختلّ شيء من الماء أو الهواء أو السّفينة فتغرق السّفينة في الماء فيغرق أهلها (**إنّ في ذلك**) أي جريان السّفن على الماء(**لآيات لكلّ صبّار**) كثير الصّبر عند حدوث مكروه إلى أن يزول (**شكور**) كثير الشّكر لله عند زوال المكروه، ولكنّ هؤلاء الكافرين لا صبر عندهم على المكروه ولا شكر لهم عند زواله، واستدلّ تعالى على ذلك فقال جلّ وعلا: (**وإذا غشيهم**) أي النّاس (**موج**) كبير (**كالظّلل**) جمع ظلّة وهي ما تظلّ على الأرض كالجبال أو السّحب أي موج عال لغلبته، كالجبل أو كالسّحاب فزعوا ولم يصبروا ثمّ (**دعوا الله مخلصين**) منزّهين (**له**) لله (**الدّين**) أي العقيدة والدّعاء عن كلّ شرك (**فلما نجّاهم**) الله تعالى(**إلى البرّ**) اليابسة (**فمنهم مقتصد**) معتدل يبقى على توحيده ويشكر الله تعالى على نعمة النّجاة وهم المؤمنون، ومنهم من يكفر هذه النّعمة وينسبها إلى الشّركاء (**وما يجحد بآياتنا**) أي لا يكفر بنعمنا ودلائل قدرتنا (**إلّا كلّ ختّار**) غدار(**كفور**) أي جبلّته الكفران والشّرود.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى آيات قدرته ونعمته أنذر المعرضين عن هذه الآيات بعذاب يوم القيامة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

(**يا أيّها النّاس اتّقوا**) أي اجتنبوا أن تعصوا (**ربّكم**) بالشّرك أو الكفر أو الآثام (**واخشوا**) عذابه وانتقامه(**يوما**) في يوم شديد ومن شدّة ذلك اليوم إنّه (**لايجزي والد عن ولده**) شيئاً ولا يدفع عنه العذاب (**ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً**) ولا الولد يستطيع أن يدفع عن والده شيئاً، فكلّ إنسان يؤخذ بذنبه ولا يفكّه أحد (**إنّ وعد الله**) بمجيء هذا اليوم الشّديد وهو يوم القيامة(**حقّ**) ثابت يأتي ولاشكّ ولا خلف فيه(**فلا تغرنّكم**) زينة و حلاوة (**الحياة الدّنيا**) فتسوقكم على المعاصي والكفر لأجلها، فإنّ الدّنيا مهما كثرت فهي فانية والآخرة لا تفنى ولاتزول (**ولا يغرنّكم بالله**) أي بكثرة رحمة الله تعالى ومغفرته (**الغرور**) وهو الشّيطان حيث يوسوس إليك بأنّ الله غفور رحيم

ويسوقك بذلك إلى المعصية، فإنّ الله شديد العقاب أيضاً، ولا تدري ما الذي يدركك من هذين الأمرين، كثرة معرفته أو شدّة عقابه، وأنّ للرحمة والمغفرة شروطاً ذكرها الله تعالى فقال جلّ وعلا: ﴿وإنّي لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى﴾ سورة طه الآية / ٨٢. وقال: ﴿وإنّ رحمة الله قريب من المحسنين﴾ سورة الاعراف الآية / ٥٥. إلى غير ذلك من الآيات الّتي تقيد الرّحمة والمغفرة بشروط.

ثمّ إنّ أكثر ما في هذه السّورة يدور حول بيان قدرة الله الّتي لا تقبل العجز عن أي شيء، والاستدلال على إثبات كلا الأمرين؛ ليعلم أنّه لا شريك له، حيث إنّ الشّريك يدلّ على نقص من القدرة أو العلم، والله منزّه عن ذلك كلّه، فناسب أن يختم السّورة ببيان مدى علمه وقدرته، كما يختم الاستدلالات ببيان النّتيجة، فقال الله جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

(**إنّ الله عنده علم السّاعة**) متى تجيء ولا يعلم ذلك غيره، وهو يأتي بالسّاعة فيبدّل هذا الكون بكون آخر بقدرته(**وينزّل**) الله (**الغيث**) من السّماء ولا يقدر أحد على إنزال الغيث، ويعلم متى ينزل ولا يعلم غيره ذلك (**ويعلم مافي الأرحام**) من البويضات، وما يصلح منها لأن تصير جنيناً، وكيف يكون الجنين والولد ذكراً أو أنثى أو خنثى، منفرداً أو توأماً، أحمر أو أبيض أو أسود أو أسمر إلى آخر لون يكون عليه الإنسان، وكيف يكون ذكيّاً أو غبيّاً، نشيطاً أو كسولاً، طويلاً أو قصيراً، ضعيفاً أو قويّاً، سميناً أو نحيلاً، فيعلم الله تعالى ما في الأرحام بهذا التّفصيل وفي حالة الإبهام الّذي لا قرينة على شيء من ذلك. فلا يعلم أحد ذلك وهو الّذي يقدر على خلق الجنين في الأرحام لا غيره (**ما تدري نفس ماذا تكسب**) أي تعمل (**غداً**) أي في المستقبل القريب، فكيف بالبعيد والله يعلم كلّ ماتكسب كلّ نفس فيما يستقبل من حياته إلى أن يموت، ولا يقدر أحد أن يعمل شيئاً إلّا بقدرته وإرادته (**وما تدري نفس بأيّ أرض تموت**) والله يعلم كلّ أحد متى يأتي وفي أي أرض يأتيه، وهو الّذي يقدر على أن يخلق موت الإنسان لا أحد غيره (**إنّ الله عليم**) بهذه الأمور وكلّ الأمور الجليلة (**خبير**) بالدّقائق من الأمور كلّها أيضاً ولا يخفى عليه شيء.

هنا قد يتبادر إلى الذّهن بعض الأسئلة:

الأوّل: إنّ بعض النّاس يعرفون ما في الرّحم هو ذكر أو أنثى منفرد أو توأم فكيف حصر الله ذلك في نفسه تعالى؟

الجواب: لا أحد يعرف مافي الرّحم وبالتّفصيل الّذى ذكرناه في حالة الإبهام، بل إنّما قد يعرف بعد ظهور بعض العلامات، والله يعلم ذلك قبل كلّ علامة وأمارة.

الثّاني: إنّ بعض أرباب وأطبّاء التّوليد يعملون أموراً يغيّرون الجنين بها ذكراً أو أنثى وكيف ما أرادوا؟

الجواب: لا مانع من ذلك فإنّ ذلك بأسباب خلقها الله تعالى وألهمها بعض عباده، وأنّ الأسباب تعمل بإرادته الغالبة، فيرفع الأمر أيضاً إلى خلقه وتقديره.

الثّالث: إنّ بعض المنجّمين وأهل الأنواء يعلمون متى ينزل المطر وأين ينزل فكيف خصّ الله الأمر بذاته؟

الجواب: إنّ هؤلاء يعرفون ذلك بعد ظهور علامات وأمارات، ولكنّ الله يعلم ذلك قبل كلّ أمارة وعلامة، بل الأمارات والعلامات هو أيضاً بخلقه إياها وعلمه بها، قبل علم النّاس بها.

الرّابع: إنسان حكم عليه بالإعدام شنقاً حتّى الموت وذهب به إلى المشنقة أو مكان رميه بالرّصاص :فيعلم بذلك بأي أرض يموت وكذلك من حضره الموت وهو في بيته أو مكان آخر فكيف خصّ الله هذا العلم بذاته؟

الجواب: إنّ حال اليأس من الحياة وتيقّن الموت له حكم الموت ولذلك لا تقبل التّوبة ولا الإيمان في ذلك الوقت فالمراد: أنّ الله يعلم ذلك قبل ذلك وقبل أن يولد الشّخص، ولا يعلم هذا العلم أحد غيره. فثبت أنّ الله وحده هو العليم الخبير بهذه الأشياء[١] ولذا

---

(١) إن الله سبحانه وتعالى وحده ليس عليماً بهذه الأمور الخمس على سبيل الحصر بل هو عليم بما لا يحصى مما لا يعلمه البشر وإنما خص هذه الأشياء بالذكر لكونها لاصقة بالإنسان جداً ومتكررة في حياته ويهمه معرفتها. فقد ذكر هذه الخمس لأن الناس كثيرو السؤال عن موعد الساعة متى هو، فأجابهم الله تعالى بأن علم الساعة مختص بالله تعالى فلا تسألوا عنها فإنكم لاتعلمون أشياء لاصقة بحياتكم وتحتاجون إلى معرفتها لعلاجها حسب رغبتكم كالقدرة على تنزيل المطر أو معرفة مواطن ومواعيد نزوله لأجل زرعكم ومعرفة مافي الرحم من استعداد لعدد الأولاد ونوعهم، وكذلك معرفة ما تكسبونه غدا وأنتم بأشد الحاجة إليه لأجل التدبير والتخطيط للمعاش وكذلك معرفتكم بموعد موتكم للإستعداد له، فإذا كانت الأمور التي أنتم بأشد الحاجة إلى معرفتها قد غيبها الله تعالى عنكم لحكمة فكيف بما لا تنفعكم معرفته ولا تحتاجون إلى معرفته وهي موعد الساعة، فلا تسألوا عنها لأن علمها عند الله فقط./ انظر تفسير الرازي ٢٥/ ١٤٤.

قال الرّسول (ﷺ): ﴿مفاتيح الغيب خمس وتلا هذه الآية الكريمة﴾[١].

* * *

هذا ما وصل إلي علمي القاصر من تفسير هذه السّورة الشّريفة فإنّ كان من الله فأشكره شكراً يوافي نعمه ويكافىء مزيده، وإلّا فأستغفره وأرجو منه أن يوفّقني إلى الصّدق والصّواب وأن يختم أعمالي وأعمارى بالخير، وأن يرزقنى حسن الخاتمة، وما ذلك على الله بعزيز، والله على كلّ شيء قدير، ولا حول و لا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، والصّلاة على رسوله وأمّته وصحبه وآله، والحمد لله على إنعامه وإفضاله على كلّ حال وفي البدء والختام.

---

(١) صحيح البخاري ٤/١٦٩٣ الحديث رقم ٤٣٥١. ونصه:عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتح الغيب خمس إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير.

سورة السّجدة

(مكيّة نزلت بعد سورة ـ المؤمنون ـ وهي ثلاثون آية، سمّيت بالسّجدة لأنّ الآية(١٥) فيها يسجد التالّي عند تلاوتها).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

(الم) مرّ تفسيره **(تنزيل الكتاب)** أي القرآن مبتدأ خبره**(من ربّ العالمين)** وجملة **(لاريب فيه)** معترضة بين المبتدأ**(الكتاب)** وخبره لتأكيد مضمونهما، أي لا ريب في أنّ تنزيل القرآن على محمّد هو **(من ربّ العالمين)** جلّ وعلا، ونفى الله تعالى الشّك في ذلك لأنّه كلّ من تفكّر في القرآن وإعجازاته ومفاهيمه لا يبقى عنده شكّ في أنّه من الله تعالى (**أم**) بمعنى همزة الاستفهام، والاستفهام هنا للتّقرير فالمعنى أنّهم **(يقولون افتراه)** أي إفتراه محمّد على الله تعالى، وليس من الله **بل** هو من عنده أو تعلّمه من أحد من النّاس **(بل)** كذّبوا في ذلك القول حيث **(هو)** أي القرآن **(الحقّ)** الموافق للواقع والضّمير والوجدان والعقول السّليمة،وجاء **(من ربّك)** أيّها النّبيّ **(لتنذر)** به **(قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يهتدون)** أي لكي يهتدوا به إلى الحقّ في العقائد والأحكام.

* * *

سؤال: إنّ كان المراد بقوله: (**لتنذر قوماً**) وهم أهل مكّة أو العرب ينافي قوله تعالى (وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين) وقوله: (وما أرسلناك إلّا كافة للنّاس) وإن كان يراد به كلّ الأقوام ينافي قوله: (ما أتاهم من نذير قبلك) لأنّ اليهود والنّصارى أتاهم نذير قبله، وهو موسى بالنّسبة لليهود وعيسى بالنسبة للنّصارى (على نبّينا وعليهما الصّلاة والسّلام)، فكيف التّوفيق؟.

الجواب: إنّ المراد كلّ الأقوام لأنّه بعثه عامة للنّاس وقوله: (**ما أتاهم من نذير من قبلك**) أي بعد انحرافهم عن الدّين الحقّ وتبديلهم له لا مطلقاً وإلّا فأهل مكّة أيضاً جاءهم نذير وهما إبراهيم وإسماعيل (على نبّينا وعليهما الصّلاة والسّلام).

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّه لا يستحقّ العبادة إلّا هو ولا إله إلّا هو فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾

(**الله**) مبتدأ و(**الّذي**) مع صلته صفته، وخبره مالكم ....الخ، فالمعنى (**الله الّذي**) اتّصف بأنّه (**خلق السّماوات**) العالم العلويّ كلّه و(**الأرض**) أي العالم السّفلي جميعه (**وما بينهما**) من طبقات الهواء ومختلف المخلوقات (**ثم**) بعد خلق هذه الأشياء كلّها (**استوى على العرش**) استواءً يليق به (**ما لكم**) في الكون كلّه (**من دونه من ولي**) يتولّى أموركم من النّفع أو الضّرر كما تعتقدون أيّها المشركون أنّ الأصنام تنفعكم أو تضرّكم (**ولا شفيع**) كما تزعمون أنّ هؤلاء الآلهة يشفعون لكم عند الله تعالى يوم القيامة فينقذونكم من العذاب (**أفلا تتذكّرون**) بأنّ من له هذا الخلق لا شريك له ولا يقبل شريكاً أبداً (**يدبّر الأمر**) أي يصدر الأمر بوقوع الحوادث(**من السّماء**) ويرسله بالملائكة(**إلى الأرض**) ثمّ يعرج الملك الموكّل بالأمر (**إليه**) إلى جهة حكمه، ويتمّ نزول الملك وعروجه (**في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا**) أي من السّنين الّتي (**تعدّون**) أي من هذه السّنوات الّتي نحن نعدّها ونمشي عليها في حساباتنا الدّنيوية، فيكون مدّة نزول

الملك مسافة خمسمائة سنة من سنواتنا، ومدّة عروجه خمسمائة سنة منها، ويقطع الملك هذه المسافة نزولاً وعروجاً في يوم واحد، الحاصل أنّ نسبة سرعة البشر إلى سرعة الملك كنسبة واحد إلى الألف، فتكون المسافة بين الأرض والسّماء الّتي ينزل منها حكم الله تعالى خمسمائة سنة حسب سيرنا لو سرنا فيها، ولا تنافي هذه الآيه قوله تعالى في سورة المعارج (تعرج الملائكة والرّوح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) لأنّ المقصود هنا المسافة من الأرض إلى السّماء الّتي فيها اللّوح المحفوظ وما في المعارج من الأرض إلى العرش، ولو قسّمنا مسافة نزول الملك من العرش إلى الأرض وعروجه فيها إليه لكانت مائة ألف سنة، فالحاصل أنّ المسافة بين اللّوح إلى الأرض خمسمائة سنة لنا، وللملك نصف يوم، وبين العرش والأرض خمسين ألف سنة لنا وللملك يوم واحد أيضاً، فيفيد أنّ الملائكة الّذين يعرجون إلى العرش أسرع من الّذين يعرجون إلى اللّوح بتسع وتسعين درجة، ومن هؤلاء الملائكة الّذين يعرجون إلى العرش جبريل (عليه السلام)، هذا وللآية تفاسير أخرى ولكن إلى هذا المعنى مال فكري الفاتر وذهني القاصر والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر لذاته صفات أخرى تقتضي التّوحيد فقال جلّ وعلا:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

(ذلك) الّذي خلق هذا الكون العظيم هو**(عالم الغيب)** أي كلّ ما غاب عنكم **(والشّهادة)** أي وكلّ ما تشاهدونه **(العزيز)** المقتدر على عقاب أعدائه وهم المشركون **(الرّحيم)** بأوليائه وهم المؤمنون الموحّدون **(الّذي أحسن)** أجاد خلق **(كلّ شيء خلقه)** وأوجده **(وبدأ خلق الانسان)** أي خلقه وصوّره فابتدأ **(من طين)** لازب **(ثمّ جعل نسله)** أي تناسله وذريّته **(من سلالة)** ممّا ينسل أو يخرج، ثمّ بين ذلك بقوله: **(من ماء)** ينسل ويخرج من الرّجل ثمّ يدخل رحم المرأة **(مهين)** أي حقير ذلك الماء **(ثمّ)** بعد أن صوّر الإنسان الأوّل من الطّين **(سواه)** أي أتمّ تصويره وقوّمه **(ونفخ فيه)** أي وقذف فيه **(من**

روحه) أضاف الرّوح إلى نفسه لأنّه من عالم الأمر الّذي لا يدخل للخلق فيه وإنّما هو يوجد بأمر كن فيكون **(وجعل لكم السّمع)** لتسمعوا الحقّ فتتّبعوه **(والأبصار)** لتروا به الحقّ فتأخذوا به **(والأفئدة)** لتعرفوا به الحقّ فتعتقدوه **(قليلاً ما)** تأكيد أي قليلاً قليلاً جدّاً **(تشكرون)** هذه النّعم حيث تصرفون السّمع فيما لا فائدة فيه وتنظرون بالأبصار إلى ما لم يأذن الله فيه، وتملأون قلوبكم بأفكار باطلة وعقائد فاسدة وخيالات مضرّة ومبادئ مضلّلة ما أنزل الله بها من سلطان.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى ما يتعلّق بالمبدأ وهو الله تعالى أراد أن يذكر ما يتعلّق بالمعاد وهو الآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

(وقالوا) أي الكافرون **(أإذا ضللنا)** أي غبنا وبلينا **(في الأرض أإنّا لفي خلقٍ جديد)** فنبعث بعد ذلك، ولم يكن استفهامهم هذا للإستعلام **(بل هم بلقاء ربّهم)** يوم القيامة وبعد الموت **(كافرون)** وإنّما الاستفهام للعناد والاستهزاء بقول المؤمنين أنّ السّاعة تأتي وتقوم **(قل)** بلى **(يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم)** أي يقبض أرواحكم **(ثمّ)** بعد الموت**(إلى ربّكم ترجعون)** فيحاسبكم على عقيدتكم الباطلة هذه وأعمالكم القبيحة كلّها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حالهم يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

(ولو ترى) المنظر المهيب **(إذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربّهم)** خوفاً وخجلاً

لرأيت أمراً عظيماً فيقول المجرمون (**ربّنا أبصرنا**) أي علمنا الحقّ (**وسمعنا**) استجبنا له (**فارجعنا**) أي أعدنا إلى الدّنيا فإنّه إن أعدتنا (**نعمل صالحاً**) حيث (**إنّا موقنون**) بما بلّغنا الرّسل، فلا يستجاب لهم هذا الدّعاء حيث قد بلّغوا في الدّنيا فلم يبق لهم معذرة تقبل ولا دعاء يستجاب.

سؤال: وهنا كأنّ سائلاً يسأل ويقول: فلماذا لم يجعل الله أمر السّاعة والألوهيّة أمراً بديهياً واضحاً كما في الآخرة ليهتدي النّاس كلّهم؟

فنجيبه بقوله تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) جبراً فجعلنا أمر الألوهيّة والرّسالة والآخرة بديهيّاً مكشوفاً ومشاهداً (وَلَكِنْ) لم نفعل ذلك بل جعلنا العلم بهذه الأمور مربوطاً بالأدلّة والبراهين والعلامات، وهيّأنا تلك الأدلّة أمام عقول النّاس بحيث لو تفكّروا فيها لوصلوا إلى مدلولاتها، ولم نكتف بذلك بل أرسلنا رسلاً نبّهوهم على الأدلّة وذكّروهم بها، ودعوهم إلى الاعتراف بمدلولاتها والإنقياد لها؛ وذلك ليبقى فضل في العمل والإيمان والإنقياد للحقّ فيستحقّ من انقاد له للثّواب والتّكريم ويتميّز خبثاء النّفوس وأهل الكبرياء والإستعلاء عن اتباع الحقّ والدّاعي إليه، ولولا ذلك لاستوى كلّ النّاس ولم يبق فضل في الخير على الشّر ولا في الحسن على القبيح فامتاز بهذه الطّريقة أصحاب الضّمائر النّيرة، أمّا أصحاب النّفوس المظلمة فاستحقّوا العذاب.

* * *

وبذلك (**حقّ القول**) أي صدر حكمنا بأنّه (**لأملأنّ جهنّم من الجنّة والنّاس**) الخبثاء والأشرار (**أجمعين**) ونقول لهم حينما دخلوا جهنّم (**فذوقوا**) العذاب(**بما نسيتم**) ما مصدريّة أي بسبب نسيانكم (**لقاء يومكم هذا**) فما صدّقتم رسلي حينما أنذروكم به، وتركتم الاستدلال والتّفكير للوصول إلى التّصديق به وتركتم العمل له، فكما أنّكم نسيتم هذا النّسيان(**إنّا نسيناكم**) أي تركناكم من شمول الرّحمة بكم (**وذوقوا**) هذا العذاب (**عذاب الخلد**) أي المؤبّد الّذي لا خروج منه (**بما تعملون**) أي بسبب الأعمال الّتي كنتم تعملونها في الدّنيا، وليس ذلك بظلم وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

سؤال: هل ملك الموت إسم لشخص معين من الملائكة وهو يقبض الأرواح كلّها، أو هو إسم جنس تحته أفراد كثيرون مخصّصون لقبض الأرواح ؟

الجواب: إنّه ورد في ما يتعلّق بالوفاة وقبض الأرواح آيات نذكرها ثمّ نحكم حسب ما يظهر من تلك الآيات وهي:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ سورة النساء الآية/ ٩٧.

٢- قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ سورة الأنعام الآية/ ٦١.

٣-قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سورة الأعراف الآية/ ٣٧.

٤- قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ سورة الأنفال الآية/ ٥٠.

٥- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سورة النحل الآية/ ٢٨.

٦- قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ سورة محمد الآية/ ٢٧.

فهذه الآيات كلّها تفيد أنّ الملائكة الّذين يتوفّون أرواح النّاس ويقبضونها كثيرون لا شخص واحد، فملك الموت إمّا إسم جنس يشمل كلّ ملك يقوم بقبض الأرواح، أو هو شخص واحد رئيس لهؤلاء الملائكة، ونسب إليه فعل الوفاة هنا لأنّه الآمر كما نسب إلى الله تعالى، لأنّه الآمر الحقيقي والخالق للوفاة وذلك في آيات منها:

١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُم فيه لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرجِعَكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلون﴾ سورة الأنعام الآية/ ٦٠ ـ

٢- قال تعالى: ﴿وَلكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذي يَتَوَفَّاكُم﴾ سورة يونس الآية ١٠٤.

٣- قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتي لَمْ تَمُتْ في مَنامِها﴾ سورة الزمر الآية/ ٢٧.

وما يقال أنّ ملك الموت واحد غير معقول لأنّه في آن واحد يموت آلاف

الأشخاص في آلاف الأمكنة، فيلزم وجود ملك الموت في آن واحد في آلاف الأمكنة، وهو محال، لأنّ وجود جسم في آن واحد في مكانين محال، فكيف بآلاف الأمكنة، وملك الموت جسم كما لا يخفى، وما قيل أنّه جعلت له الأرض كالطّست يتناول منها حيث شاء ينافي قوله تعالى: ﴿حتّى إذا جاءتهم رسلنا﴾ لأنّه يفيد أنّه يأتي الميّت رسل، وما قيل أنّ ملك الموت على معراج بين السّماء والأرض فتنزع أعوانه روح الإنسان، فإذا بلغ ثغره سخّره قبضة ملك الموت، يوجب كونه حاضراً عند كلّ ميّت فيصادم المحال كما ذكرنا، فالحقّ أنّ ملك الموت إسم جنس له أفراد كثيرون يقومون بقبض الأرواح، أو هو رئيسهم يأمرهم بقبض الأرواح، هذا وانّ صحّ حديث يخالف ما قلنا فيجب تأويل الحديث أو الآية للتّوفيق بينهما والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى المجرمين ومصيرهم أراد أن يذكر المؤمنين وثوابهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ (١٨)﴾

(**إنّما يؤمن بآياتنا**) القوليّة والكونيّة (**الذين**) يحبّون الحقّ والوصول إليه وطابت نفوسهم عن الأنانيّة والاستكبار، وخشعت قلوبهم للحقّ فهم (**إذا ذكّروا بها**) بالآيات (**خرّوا لها سجّداً**) أي منقادين لها ومؤمنين بمقتضاها (**وسبّحوا**) أي نزّهوا الله تعالى عن الشّركاء وسمات النّقص جميعها مقترناً تسبيحهم هذا (**بحمد ربّهم**) أي بحمدهم لربّهم، أي بوصفه بجميع صفات الكمال (**وهم لا يستكبرون**) عن الحقّ وعن اتّباعه وعن اتّباع من جاء به (**تتجافى**) أي ترتفع (**جنوبهم عن المضاجع**) أي يقومون باللّيل ولا ينامون (**يدعون**) أي يعبدون (**ربّهم**) بالصّلوات أو بعبادات أخرى (**خوفاً**) أي يخافون خوفاً من عذابه (**و**) يطمعون (**طمعاً**) في رحمته (**وممّا رزقناهم**) من المال أو القوّة أو العلم أو الجاه (**ينفقون**) على من احتاجوا إليه، فهذه أوصاف من صدق إيمانه وحسن إسلامه، ثمّ

أراد الله تعالى أن يذكر ثوابهم فقال جلّ وعلا: **(فلا تعلم)** أيّها السّامع مقدار عظمة وكثرة **(ما أخفي لهم)** أي ادّخر لهم عند الله تعالى **(من)** ما يكون سبب **(قرّة أعين)** لهم بما ادخر لهم وجوّزوا هذا الثّواب **(جزاء بما)** أي بسبب الّذي **(كانوا يعملون)** في الدّنيا من الحسنات والكفّ عن السّيئات، ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى عقاب المجرمين وثواب المؤمنين، أراد أن يردّ على من يتوهّم أنّ كلّ النّاس سواء في العاقبة والمصير، فقال جلّ وعلا مستفهماً للإنكار والتّوبيخ: **(أفمن كان مؤمناً)** يكون **(كمن كان فاسقاً)** أي كافراً كلّا فإنّهم **(لا يستوون)** في العاقبة والمصير، وهذه الآية من دلائل مجيء يوم القيامة، فإنّه نرى هناك مؤمنين صالحين يموتون ولم يحصلوا على ثواب في الدّنيا على إيمانهم وأعمالهم الصّالحة، وبجانبهم مجرمون يموتون لم يلقوا في الدّنياعقاباً على جرائمهم، فلو ذهب الإثنان سواءً ولم يأت يوم لثواب المطيع وعقاب العاصي لا يظهر عدالة الله تعالى، وهذا محالٌ فلا بدّ من يوم يجري فيه الثّواب والعقاب.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن ثواب المؤمنين وعقاب المجرمين، فقال جلّ وعلا:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

(أمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات) الأعمال الّتي اعتبرها الشّرع صالحات **(فلهم جنّات المأوى)** أي جنّات هي مأوى ومسكن الصّالحين **(نزلاً)** أي ينزلون هناك ويكرمون فيها تكريماً **(بما)** أي بسبب **(ما)** الأعمال الصّالحة الّتي **(كانوا يعملون)** إيّاها في هذه الدّنيا، اللّهم اجعلنا منهم، آمين يا أرحم الرّاحمين.

هذا مصير المؤمنين، وأمّا مصير الفاسقين فقد ذكره الله تعالى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(وأمّا الّذين فسقوا) أي كفروا بدليل مقابلته مع **(وأمّا الّذين آمنوا)** ولأنّ السّورة مكيّة ومعلوم أنّ في الآيات الّتي نزلت بمكّة لم تفرض الأحكام، فيوجد الفاسق بترك

الأحكام (**فمأواهم**) أي مأوى الفاسقين (**النّار كلّما أرادوا أن يخرجوا منها**) ويتحرّكوا (**أعيدوا**) وأسكنوا (**فيها وقيل لهم**) اسكنوا و(**ذوقوا عذاب النّار الّذي كنتم**) في الدّنيا (**به**) بذلك العذاب (**تكذّبون**) حينما تنذرون به (**ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى**) أي الأقرب وهو عذابهم في الدّنيا (**دون**) أي قبل (**العذاب الاكبر**) في الآخرة (**لعلّهم يرجعون**) أي لكي يرجعوا عن كفرهم وتكذيبهم، ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن سبب استحقاقهم للعذاب؛ فقال جلّ وعلا: (**ومن**) الاستفهام للإنكار أي لا نجد أحداً هو (**أظلم ممّن ذكر بآيات ربّه**) القوليّة منها والكونيّة (**ثمّ أعرض عنها**) ولم يتّعظ بها فهؤلاء مجرمون فلذلك نعذّبهم حيث (**إنّا من المجرمين منتقمون**) في الدّنيا والآخرة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله بذكر حال سيّدنا موسى ﷺ فقال:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(**ولقد**) أي وبعزّتي يا محمّد (**لقد آتينا موسى الكتاب**) التّوراة (**فلا تكن**) أيّها النّبيّ (**في مرية**) في شكّ (**من لقائه**) من أنّك تلقى موسى وتراه في الآخرة وفي الدّنيا، فرآه الرّسول (ﷺ) في ليلة المعراج وورد في الصّحيح ما يخبر عن تلاقيهما ليلة المعراج منها:

١. عن ابن عبّاس عن النّبيّ (ﷺ) قال: رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً جعداً، كأنّه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة إلى البياض سبط الشّعر، ورأيت مالكاً خازن النّار والدّجال في آيات أراهنّ الله إياه (فلا تكن في مرية من لقائه)[1] رواه البخاري ومسلم كما ذكره الخازن.

٢. ذكر الخازن عن مسلم عن أنس أنّ رسول الله (ﷺ) قال: أتيت على موسى ليلة المعراج ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلّي في قبره[2].

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٨٢ الحديث رقم ٣٠٦٧، صحيح مسلم ١/ ١٥١ الحديث رقم ١٦٥.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٥ الحديث رقم ٢٣٧٥.

وهنا ذكر الخازن **سؤالين** نوردهما مع الجواب:

الأوّل: قد صحّ في حديث المعراج أنّ الرّسول (ﷺ) رأى موسى في السّماء السّادسة فكيف الجمع بين هذا الحديث وحديث المعراج؟

الجواب: أنّه رآه مرّتين مرّة بالكثيب ومرّة بالسّماء السّادسة.

الثّاني: أنّ الرّسول (ﷺ) قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»[1] فكيف رأى موسى وهو يصلّي في قبره؟

الجواب: أنّ المراد من الحديث أنّ عمله التّكليفي ينقطع، وأمّا العمل الاختياري للتّلذّذ بذكر الله تعالى وعبادته وبدون أمرهم به فلا ينقطع، ألّا يرى أنّهم يسبّحون الله تعالى وهو عبادة، ويسلّم بعضهم على بعض والسّلام عبادة، قال تعالى: ﴿دعواهم فيها﴾ أي في الجنّة (سبحانك اللّهم وتحيّتهم فيها سلام) إنتهى الجواب والله تعالى أعلم.

وقال بعض المفسّرين: **(فلا تكن في مرية)** في شكّ **(من لقائه)** أي أنّك تلتقي مع موسى وكتابه فيما أوصى إليكما من التّوحيد وأمّهات الأحكام، فدينكما واحد هو الإسلام، وقال آخرون: معناه فلا تكن في شكّ (من لقائه) أي إنّك تلاقي ماهو لاقاه من إيذاء الكافرين وعدواة المشركين، فإنّ هذا سنّة الله في الأنبياء والمرسلين يضطهدون أوّلاً ويكون لهم العزّة والنّصر في الخاتمة وآخر الأمر، فلا تحزن أيّها الرّسول، والكلّ صحيح، ويجوز أن يراد هذه المعاني كلّها حيث لا تناقض بينها والله تعالى أعلم.

* * *

(وجعلناه) أي كتاب موسى **(هدى)** هادياً ومرشداً إلى الحقّ **(لبني إسرائيل وجعلناهم)** أي بني إسرائيل بسبب العمل بالتّوراة وتطبيقها **(أئمة يهدون)** النّاس ويسوسونهم **(بأمرنا)** أي حسب أمرنا **(لمّا صبروا)** أي مدّة ما صبروا على العمل بالتّوارة وشريعتنا **(وكانوا بآياتنا)** بأحكامنا **(يوقنون)** ويعلمون بها، ثمّ اختلفوا فمنهم من انحرف ومنهم من استقام على حقيقة ما في التّوراة وعمل بها وبهذا الاختلاف ذلّوا في الدّنيا وينالهم في الآخره سوء العذاب كما قال الله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

---

(١) الجمع بين الصحيحين ٣/ ٣٠٨ الحديث رقم٢٧٣٣.

(**إنّ ربّك هو**) لا غيره (**يفصل**) يقضي ويحكم بينهم يوم القيامة (**فيما**) في كلّ أمر(**فيه يختلفون**) بإظهار الحقّ والباطل وأثابة المحقّ وعقاب المبطل.

ثمّ أراد الله تعالى أن يعظ أهل مكّة والمشركين بإطلاعهم على حال أمم أخرى غير أمّة موسى، وبما يرون من آثار قدرة الله تعالى وإنعامه على النّاس، فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

(**أو لم يهد لهم**) يبيّن ويظهر لهم أنّه (**كم**) أي كثيراً (**أهلكنا من**) أهل (**القرون**) وهم (**يمشون**) حينما يسافرون إلى الشّام (**في مساكنهم**) الخاوية وآثارهم المدمّرة (**إنّ ذلك**) الإهلاك لهؤلاء الأقوام بسبب تكذيبهم للرّسل (**لآيات**) لعبراً وعظات (**أفـ**) بعد هذه الدّلائل كلّها والعبر جميعها (**لا يسمعون**) هؤلاء لدعوة الرّسول أي لا يستجيبون لها (**أو لم يروا أنّا نسوق الماء**) أي المطر (**إلى الأرض الجرز**) الّتي لم تنبت شيئاً (**فنخرج به**) بالماء (**زرعاً**) نباتاً (**تأكل منه أنعامكم وأنفسكم**) أفبعد هذه الأدلّة الظّاهرة (**لا يبصرون**) لا يدركون مدلولاتها من قدرة الله ووحدته فينقادوا لها، والاستفهامان للتّوبيخ والتّقريع، فقال للأوّل: لا يسمعون لأنّه منوط بالخبر عن تلك الأقوام، وللثّاني: يرى بالأبصار والله تعالى أعلم. ثمّ إنّ الكفار بالرّغم من سماعهم لهذه العبر والعظات ورؤيتهم لهذه الدّلائل والآيات كانوا يستهزئون بالمؤمنين كما قال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(**ويقولون**) أي الكافرون للمؤمنين حينما ينذرونهم بعذابهم يوم القيامة وإنّ الله تعالى يفتح بينهم وبين الكافرين بعذاب الكافرين وثواب المؤمنين، فيقول المشركون والكافرون للمؤمنين استهزاءً (**متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**) في قولكم أنّه يأتي هذا،

وقد قال بعض المفسّرين المراد يوم الفتح مكّة أو يوم بدر، إلّا أنّ هذا المعنى ينافي قوله تعالى: (**قل**) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم (**يوم الفتح**) إذا جاء (**لا ينفع الّذين كفروا إيمانهم**) فإنّ الإيمان كان ينفع ويقبل يوم فتح مكّة ويوم بدر وفي سائر المعارك، وإنّما لا ينفع الإيمان ولا يقبل يوم القيامة (**ولا هم ينظرون**) أي لا يمهلون بل يساقون إلى النّار فوراً، والمعنى أنّ هذا اليوم يأتيكم وتؤمنون في ذلك الوقت إلّا أنّه لا ينفع إيمانكم ولا يقبل، لأنّ ذلك اليوم دار جزاء لا عمل، وهنا دار العمل فقط، ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله ويعده بالنّصر عليهم فقال جلّ وعلا: (**فأعرض عنهم**) ولا تستعمل معهم العنف والشّدة (**وانتظر**) فإنّا ننصرك عليهم (**إنّهم منتظرون**) أيضاً أن تصيبك حادثة من حوادث الزّمان فتهلك، ولكن انتظارك بالنّصر عليهم حقّ وانتظارهم خائب، فإنّ لك وللمؤمنين الغلبة والنّصر وحسن الخاتمة، وقد أنجز الله تعالى وعده ونصر رسوله وأهل الإيمان.

اللّهم انصرنا على الكافرين وارزقنا حسن العمل والخاتمة آمين، وصلّى الله على المولى محمّد وآله وصحبه وأمّته أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

سورة الأحزاب

(مدنيّة، وآياتها ثلاث وسبعون، نزلت بعد سورة آل عمران، سمّيت بهذا الإسم لما فيها من ذكر قصّة الأحزاب).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

إعلم أنّ الله تعالى قد حكم في هذه السّورة فأصدر أحكاماً وشرع أموراً ترسخ في قلوب النّاس خلالها؛ فكانت هذه الأحكام ممّا يكون سبب بلبلة وإفشاء إشاعات ضدّ الرّسولﷺ وتطبيقه لهذه الأحكام، ويفتح باباً واسعاً وثغرة ينفُذ منها المنافقون إلى قلوب المؤمنين، لتشكيكهم في دينهم ومحاولة إدخال الرّيب في نفوسهم، فلذلك افتتح الله تعالى هذه السّورة بالأمر بتقوى الله وعدم مخالفة أوامره، واتّباع ما يوحى إليه وتنفيذ ما فيه، وعدم إطاعة الكافرين والتّوكل على الله تعالى مهما حاول الكافرون والمنافقون، وسعوا لإحباط هذا الدّين والنّيل منه ومن التّابعين له، فقال جلّ وعلا: **(يا أيّها النّبيّ)** خاطب النّبيّ (ﷺ) وأراد الأمّة لأنّ الرّسول (ﷺ) لم يكن من يتصور منه القيام بخلاف ما يؤمر به أو ينهى عنه، لأنّه معصوم من كلّ ذنب، إلّا أنّه وجّه الخطاب إليه لأنّه المبلّغ، وليعلم النّاس عظمة الموقف، فإنّه خاطب الله تعالى رسوله هذا الخطاب المهيب فكيف بهم، **(اتّق الله)** أي اجتنب عذابه بإمتثال أوامره واجتناب ما نهى عنه، **(ولا تطع الكافرين والمنافقين)** في ترك العمل بما أنزل إليك وعدم تطبيق ما يحكم به

الله تعالى حيث: **(إنّ الله كان عليماً)** فلا يحكم بشيء إلّا وهو موافق للعلم والعقل والمنطق السّليم، **(حكيماً)** وكلّ أحكامه موافق للحكمة، ولما فيه مصلحة النّاس وتنظيم حياتهم تنظيما يلائم الحقّ وما فطر الإنسان عليه، **(واتّبع ما يوحى إليك)** وطبّق كلّ ما فيه من الأحكام المشرّعة، **(من ربّك وكان الله بما تعملون)** من تطبيق أحكامه أو إهمالها **(خبيراً)** عالما غير غافل، فيجازيكم وفق علمه بذلك؛ فيثيب المتّبع ويعذّب المنحرف عنه **(وتوكّل على الله)** ولا تخف من مؤامرات الكافرين والمنافقين ومشاغباتهم **(وكفى)** أي واكتف **(بالله وكيلاً)** فهو ينصرك عليهم ويحبط كلّ مؤامراتهم.

ثمّ بعد هذه التّوصيات بدأ الله تعالى بإلغاء بعض الأحكام المتّبعة انذاك من الأحكام الجاهلية الّتي لم يكن لها صلة بالشّرائع الإلهيّة النّقيّة، فقد حرّم النّفاق وألغى كون الظّهار طلاقاً، وحرّم التّبنّي؛ فقال جلّ وعلا:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

(ماجعل) أي ماخلق **(الله)** تعالى **(لرجل)** واحد **(من قلبين في جوفه)** أي في صدره، فيستطيع أن يحمل عقيدتين كلّ عقيدة في قلب، وإنّما جعل له قلباً واحداً وهو لا يسع إلّا عقيدةً واحدةً، فإذا صدقتم في إيمانكم فلا تميلوا إلى الكفّار ومبادئهم أبداً وفي أيّ شيء، وإلّا فيكون ذلك نفاقاً يشهد عليكم على أنّكم كاذبون في الإيمان والإسلام، فالمسلم يجب أن يكون صريحاً صامداً صارماً متبرّئاً من كلّ عقيدة ودستور إلّا نظام الإسلام ودستوره الآتي من الله ربّ العالمين، وبهذا حرّم الله تعالى النّفاق والتّقيّة في الحقّ والدّين، بعدها ذكر الله تعالى الظّهار فقال جلّ وعلا: **(وما جعل)** الله **(أزواجكم اللّائي تظاهرون منهنّ أمّهاتكم)** فتقولون لهنّ أنت عليّ كظهر أمّي، وبمجرّد هذا القول تحرمونهنّ تحريماً مؤبّداً، كتحريم الأمّ من ناحية الزّواج بها، فإنّ هذا القول وهذا الحكم باطل حيث لسن أمّهاتكم، فلا يحرمن عليكم، بل إنّما يكون قولكم هذا

كحلف يوجب كفارة خاصّة، وقد ذكرنا حكم الظّهار وكفارته في سورة المجادلة مفصّلاً والحمد لله. وبهذه الآية أبطل الله تعالى الحكم الجاهليّ وهو أنّ الظّهار سبب لتحريم الزّوجة من زوجها تحريماً مؤبداً كالأم. ثمّ أراد الله تعالى أن يلغي حكماً جاهلياً آخر وهو نظام التّبنّي؛ فقال جلّ وعلا: (**وما جعل أدعياءكم**) جمع دعيّ، أصله دعيو، بمعنى مدعو، وهو من كان يدّعى أي ينسب إلى رجل آخر، غير أبيه فيقال له مثلاً: ابن زيد، وهو ليس إبنه حقيقةً، فما جعل الله هؤلاء الأدعياء (**أبناءكم**) ولا يعطيه حكم الأبناء بمجرد قولكم هذا إبني، حيث (**ذلكم**) القول (**بأفواهكم**) وليس موافقاً للواقع، حيث ليس إبناً لكم (**والله يقول الحقّ**) بأنّهم ليسوا أبناءكم، فليس لهم حكم الأبناء (**وهو**) أي الله تعالى بقوله الحقّ في كلّ شيء (**يهدي**) النّاس جميعاً ويرشدهم إلى (**السّبيل**) الحقّ والنّظام القويم والمنهج المستقيم لحياة الفرد والأمّة والجماعة، فاتّبعوا هذا السّبيل، إذ هو سبيل الله وفيه الفوز بسعادة الدّارين، وحيث إنّ هؤلاء الأدعياء ليسوا أبناء لمن تنسبون إليهم فاتركوا هذه النّسبة ولا تنسبوهم إليهم بل (**ادعوهم**) أي انسبوهم (**لآبائهم**) الحقيقيّين (**هو**) أي نسبهم إلى آبائهم الحقيقيّين (**أقسط**) أي أعدل وأقسط عند الله تعالى ودعوتهم إلى غيرهم جور وعدل عن الحقّ (**فإن لم تعلموا آباءهم**) الحقيقيّين حيث كان هناك من اشترى عبداً ثمّ أعتقه وتبنّاه، أو كان من يجد لقيطاً لا يعرف له أب فيتبنّاه (**فـ**) هم (**إخوانكم في الدّين**) فادعوهم وقولوا لهم يا أخي إذا كان حرّاً (**و**) هم (**مواليكم**) جمع مولى إن كانوا عبيداً فأعتقوا وتبنّاهم من أعتقهم فقولوا له مولاي فلان، والمولى هنا بمعنى المنعم عليه، وذلك لأنّ السّيد أنعم عليه بإعتاقه (**وليس عليكم جناح**) أي إثم (**فيما أخطأتم به**) من نسبتهم وقولكم لهم خطأً ابن فلان بعد ما حرّم ذلك (**ولكن**) عليكم إثم في (ما **تعمّدت قلوبكم**) وقلتم ذلك تقصّداً (**وكان الله غفوراً**) لمن أخطأ (**رحيماً**) بكم حيث يغفر عن الخطأ ولكن العمد لا يغفر عنه إلّا لمن تاب واستقام.

تنبيه: في توضيح التّبنّي:

إنّ التّبنّي حكم جاهلي قديم جدّاً، والّذي نجده في القرآن كان موجوداً في زمان **يعقوب**(عليه السلام) حيث إنّ إبنه يوسف (عليه السلام) حينما اشتراه عزيز مصر أراد أن يتبنّاه كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ سورة يوسف الآية/ ٢١. وكذلك كان موجوداً بعد زمان يوسف (عليه السلام) فيروي لنا

القرآن أنّ آل فرعون حينما التقطوا موسى أراد فرعون أن يقتله إلّا أنّ امرأته منعته من قتله كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امرأةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لي وَلَكَ لا تَقْتُلوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أو نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرون﴾ سورة القصص الآية/ ٩ ـ هذا هو التّبني باختصار، ولكن كان للتّبنّي أنواع وهي:

الأول: أنّ الرّجل يأخذ ابن رجلٍ آخر هبةً أو شراءً منه فيجعله إبناً له، ويعلن ذلك بين النّاس؛ فيكون إبنه ويعطى له حكم الإبن الحقيقيّ من الإرث والحرمة والنّسب والمصاهرة والرّضاع، لا فرق بينه وبين الإبن الحقيقيّ في شيء.

الثّاني: يلقى الرّجل ولداً غير معروف النّسب فيتّخذه إبناً له ويعلن ذلك بين الملأ، فيكون حكمه حكم الإبن الحقيقيّ كما سبق.

الثّالث: كان الرّجل يعتق عبده ويجعله إبناً له، فيعطى حكم الإبن الحقيقيّ كما سبق.

فلمّا جاء الإسلام أبطل هذه الأنواع كلّها وحرّم التّبنيّ وأبطل أحكامه من الحرمة في النّسب والرّضاع والمصاهرة، ومن أن يرث المتبنّى ـ بفتح النّون من المتبنّي، بكسرها، أو بالعكس. وحرّم نسبة أحد إلى غير أبيه، فقد روى البخاري ومسلم عن سعد ابن أبي وقاص وأبي بكر أنّ النّبيّ (ﷺ) قال: (من ادّعي إلى غير أبيه وهو يعلم أنّه غير أبيه فالجنّة عليه حرام)[1].

* * *

ثمّ بعد أن أشار الله تعالى إلى أنّه لا إرث ولا محرميّة إلّا بالنّسب أو المصاهرة أو الرّضاع أراد أن يستثني النّبيّ وأزواجه من هذا العموم، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٤٨٥ الحديث رقم ٦٣٨٥، صحيح مسلم ١/ ٨٠ الحديث رقم٦٣.

(**النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم**) فهو يرثهم إن لم يكن لهم عصبة، قال (ﷺ) (أنا وارث من لا وارث له أرثه وأعقل عنه)[١] أي يأخذ ماله لبيت المال لا لنفسه ويعقل أي يعطي الدّية عنه، هذا وإنّ المؤمنين يرثون النّبيّ (ﷺ)، قال (ﷺ): (نحن معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه صدقة)[٢] توضع في بيت المال للمسلمين. (**وأزواجه**) أي أزواج الرّسول (ﷺ) (**أمّهاتهم**) أي أمّهات المؤمنين في احترام وحرمة نكاحهن أبداً، وأمّا في حلّ النّظر إليهن والخلوة بهن ففيه قولان: الصّحيح عدم الجواز لأنّه لو كان ذلك حلالاً لما فرض عليهن الحجاب. ثمّ إنّه كان هناك توارث بالإيمان أو بالهجرة أو بالمواخاة فألغى الله تعالى ذلك فقال جلّ وعلا: (**وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض**) في الإرث من غيرهم (**في كتاب**) أي في حكم (**الله**) تعالى وغيرهم (**من المؤمنين**) فلا يرث أحد من غيره بالإيمان إذا لم يكن بينهما قرابة إلّا من لم يكن له ذو قرابة، فإرثه لبيت مال المؤمنين (**والمهاجرين**) فلا يرث مهاجر مهاجراً بالهجرة دون القرابة، فلا حقّ لهؤلاء في مالكم (**إلّا أن تفعلوا إلى أوليائكم**) أي أصدقائكم (**معروفاً**) بالوصيّة له أو الوقف عليه وضمن الشّروط الموضوعة في الشّرع والمبيّنة في كتب الفقة (**كان ذلك**) الأحكام المذكورة في هذه الآيات(**في الكتاب**) أي في اللّوح المحفوظ (**مسطوراً**) مكتوباًعند الله تعالى.

سؤال: فإذا كانت هذه الأحكام مسطورةً في اللّوح المحفوظ وكانت من أحكام الله تعالى، فكيف آخى الرّسول بين المهاجرين والأنصار وكان يرث بعضهم من بعض بسبب الإيمان أو الهجرة أو المؤاخاة؟

الجواب: إنّ الرّسول فعل ذلك بناء على الأعراف السّائدة في ذلك الوقت من التّوارث بالحلف والإتّفاق في الدّين، فلمّا نزلت الآية أبطلت هذه الأعراف، وقد كان الرّسول لا يبطل عرفاً إلّا أن يأتي الوحي بإبطاله والله تعالى أعلم، وهذا الجواب عندي أولى من أنّ الآية نسخت السّنة لأنّ النّسخ لا يصار إليه إلّا إذا لم يوجد محمل سوى النّسخ.

* * *

(١) سنن ابن ماجة ٢/ ٩١٤ الحديث رقم ٢٧٣٧.

(٢) مسند الربيع ١/ ٢٦١ الحديث رقم ٦٦٩.

ثمّ بعد ذكر هذه الأحكام أشار الله تعالى إلى أنّ الرّسل والأمم مسؤولون عن شريعة الله تعالى وأحكامه، فالرّسل مسؤولون عن تبليغها ودعوة النّاس إليها، والأمم مسؤولون عن تطبيقها والعمل وفقها؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

(و) واذكر**(إذ أخذنا من النّبيّين)** كلّهم **(ميثاقهم)** أي عهدهم بتبليغ شريعتنا والدّعوة إليها**(و)** وأخذنا**(منك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم)** خصّ هؤلاء بالذّكر بعد ذكرهم في ضمن النّبيّين لأنّهم أكبر الرّسل وفي التّرتيب إشارة إلى ترتيبهم في الفضل **(وأخذنا منهم)** من النّبيّين كلّهم **(ميثاقاً غليظا)** أي متيناً جدّاً **(ليسأل)** اللاّم لام عاقبة، فالمعنى أنّه أخذنا الميثاق، وعاقبة ذلك الميثاق أن يسأل الله تعالى **(الصّادقين)** وهم الرّسل**(عن صدقهم)** أي الوفاء بالميثاق وتبليغهم الأمم بما أمر الله تعالى لإلزام الأمم بالحجّة كي لا يقولوا لم نبلّغ ولم يأتنا أمر ولا نهي **(وأعد)** الله تعالى**(للكافرين)** الّذين لم يتبّعوا الرّسل ولم ينقادوا لشريعة الله تعالى **(عذاباً أليماً)** جدّاً، ومن مفهوم المخالفة يفهم أنّه تعالى أعدّ للعالمين بدين الله والمطبّقين لأحكامه ثواباً كريماً جداً.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه المؤمنين على نعمة عظيمة أنعم بها عليهم وهي إحباطه كيد الأحزاب الكفرة الّذين اجتمعوا ضدّهم وعسكروا قرب المدينة ليستأصلوا المؤمنين كلّهم، فأحبط الله تعالى كيدهم ورجعوا خائبين وذلك ليشكر المؤمنون هذه النّعمة فيعملوا بدين الله ويثنوا عليه ويجاهدوا في سبيله، فإنّه ما أنعم الله تعالى بهذه النّعمة عليهم إلّا لأنّهم كانوا معتنقين دين الله ومطبّقين لأحكامه؛ فقال جلّ وعلا: (ياأيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) إلى آخر الآيات الّتى تذكر قصّة الأحزاب.

قصّة الأحزاب: وقبل ذكر الآيات والبدء بتفسيرها نريد أن ننقل لكم قصّة الأحزاب لتكون سبباً لتسهيل فهم الآيات المتعلّقة بها فنقول: قال الخازن أنّه قال البخاري رحمهما الله تعالى: قال موسى بن عقبة أنّ غزوة الأحزاب، ويقال لها أيضاً غزوة الخندق، كانت سنّة أربع من الهجرة، وروى محمّد ابن إسحاق عن مشايخه: أنّ نفراً من اليهود، منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الرّبيع بن الحقيق وأبو

عمّار الوائلي في نفر من بني النّضير ونفر من بني وائل هم الّذين حزّبوا الأحزاب وجمعوهم على حرب رسول الله (ﷺ)، فكان من قصّتهم أنّهم خرجوا حتّى قدموا على قريش بمكّة، فدعوهم إلى حرب رسول الله (ﷺ)، وقالوا إنّا سنكون معكم عليه حتّى نستأصله، فقالت قريش: يا معشر اليهود إنّكم أهل الكتاب الأوّل والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه؟، قالوا: دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحقّ منه، فقال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ أوتوا نَصيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنونَ بالجِبْتِ والطَّاغوتِ، وَيَقولونَ لِلَّذين كَفَروا هَؤلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذينَ آمَنوا سَبيلاً﴾ سورة النساءالآية/ ٥٠ ـ فلمّا قالوا لقريش قولهم هذا سرّهم ماقالوا، ونشطوا لمّا دعوهم إليه من حرب رسول الله (ﷺ)، فاجتمعوا على ذلك، ثمّ خرج أولئك النّفر من اليهود حتّى جاؤوا غطفان وقيساً وعيلان، فاجتمعوا على ذلك وأخبروهم أنّهم سيكونون معهم عليه، وأنّ قريشاً قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم، وخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في بني فزارة، والحرث بن عوف أبي حارثة الحرلي في بني مرّة، ومسعر بن رخيلة بن نويرة ابن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع، فلمّا سمع بهم رسول الله (ﷺ) وبما اجتمعوا له من الأمر حفر الخندق حول المدينة، وكان الّذي أشار على رسول الله (ﷺ) بالخندق سلمان الفارسي وكان أوّل مشهد شهده سلمان مع رسول الله (ﷺ) وهو يومئذ حرذ، فقال: يارسول الله كنّا بفارس إذا حوصرنا ضربنا خندقاً علينا، فعمل فيه رسول الله (ﷺ) والمسلمون حتّى أحكموه، وروي أنّ رسول الله (ﷺ) خطّ الخندق عام الأحزاب ثمّ قطع لكلّ عشرة منهم أربعين ذراعاً، فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قويّاً، فقال المهاجرون سلمان منّا وقال الأنصار سلمان منّا، فقال النّبيّ (ﷺ): سلمان منّا أهل البيت، قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان وحذيفة والنّعمان بن مقرن المزني وستّة من الأنصار في أربعين ذراعاً، فحفرنا حتّى إذا كنّا تحت، أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة حتّى كسرت حديدنا وشقّت علينا، فقلنا يا سلمان أرق إلى رسول الله (ﷺ) وأخبره بخبر هذه الصّخرة، فإمّا أن يعدل عنها فإنّ المعدل قريب، وإمّا أن يأمرنا فيها أمره، فإنّا لا نحبّ أن نجاوز خطه، قال: فرقى سلمان إلى رسول الله (ﷺ) وهو ضارب عليه قبّة تركيّة، فقال: يارسول الله خرجت لنا صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق، فكسرت حديدنا وشقّت علينا حتّى ما يجينا منها شيء قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمرك فإنّا لا نحبّ أن نجاوز خطك، فهبط رسول الله (ﷺ)

مع سلمان إلى الخندق واستند على شقّ الخندق وأخذ (ﷺ) المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، يعني المدينة، حتّى كأنّه مصباح في جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله (ﷺ) تكبير فتح وكبّر المسلمون معه، ثمّ ضربها رسول الله (ﷺ) الثّانية فبرق منها برقةٌ حتّى أضاء ما بين لابتيها حتّى لكأنّه مصباح في جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله (ﷺ) تكبير فتح وكبّر المسلمون معه، ثمّ ضربها رسول الله (ﷺ) فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، حتّى لكأنّ مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله (ﷺ) تكبير فتح وكبّر المسلمون معه، ثمّ أخذ بيد سلمان ورقى، قال سلمان: بأبي أنت وأمّي يارسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيت مثله قطّ، فالتفت رسول الله (ﷺ) إلى القوم وقال: أرأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول، قال: ضربت ضربتي الأولى فبرق البرق الّذي رأيتم، فأضاء لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنّها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل أنّ أمّتي ظاهرة عليها، ثمّ ضربت ضربتي الثّانية فبرق البرق الّذي رأيتم، أضاء لي منها قصور قيصر من أرض الرّوم كأنّها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أنّ أمّتي ظاهرة عليها، ثمّ ضربت الثّالثة فبرق الّذي رأيتم أضاء لي منها قصور صنعاء كأنّها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أنّ أمّتي ظاهرة عليها، فأبشروا، فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله وعد صدق، وعدنا النّصر بعد الحصر، فقال المنافقون: ألا تعجبون يُمنّيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنّه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنّها تفتح لكم وأنتم إنّما تحفرون الخندق من الفزع لا تستطيعون أن تبرزوا، قال: فنزلت الآية القرآنية: ﴿وإذَ يَقولُ المُنافِقونَ وَالَّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنا اللهُ وَرَسولُهُ إلّا غُروراً﴾ وأنزل الله ﴿قل اللّهمَ مالك المُلْك﴾ سورة آل عمران الآية/ ٢٦. عن أنس قال خرج رسول الله (ﷺ) إلى خندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلمّا رأى ما بهم من النّصب والجوع قال:

اللّهم إنّ العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الّذين بايعوا محمّداً على جهاد ما حيينا أبداً

عن البراء بن عازب قال: رأيت النّبيّ (ﷺ) ينقل معنا التّراب وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا وما تصدّقنا ولا صلّينا

فأنزلن سكينةً علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنةً أبينا

ويرفع بها صوته، وفي رواية أخرى قد وارى التّراب بياض إبطيه.

وبعد هذا فلنرجع إلى حديث ابن إسحاق حيث قال: فلمّا فرغ رسول الله (ﷺ) من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة من الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، حتّى نزلوا بذنب نعمى إلى جانب أحد، وخرج رسول الله (ﷺ) والمسلمون معه حتّى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنّساء فرفعوا إلى الآكام، وخرج عدوّ الله حييء بن أخطب من بني النّضير حتّى أتى كعب بن أسود القرظي صاحب عقد بني قريظة، وكان قد وعد رسول الله (ﷺ) على قومه وعاهده على ذلك، فلمّا سمع صوت ابن أخضب أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حييء: يا كعب إفتح لنا، فقال ويحك يا حييء إنّك امرؤٌ مشؤوم وإنّي قد عاهدت محمّداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلّا وفاءً وصدقاً، فقال: ويحك افتح أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: والله إن أغلقت دوني إلّا خوفاً أن آكل معك، فاحفظ الرّجل ففتح له، فقال: ويحك يا كعب جئتك بعزّ الدّهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وساداتها حتّى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتّى أنزلتهم بذنب نعمى إلى جانب أحد، وقد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا حتّى يستأصلوا محمّداً ومن معه، فقال له كعب: جئتني والله بذلّ الدّهر وبجام قد يهرق ماؤه ويرعد ويبرق ليس فيه شيء، دعني ومحمّداً وما أنا عليه، فإنّي لم أر من محمّد إلّا صدقاً ووفاءً، فلم يزل حييء بن أخطب بكعب يفتله في الذّروة والغارب حتّى سمع له على أن أعطاه من الله عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش ولم يصيبوا محمّداً أن أدخل معك في حصنك حتّى يصبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد العهد وبرىء ممّا كان عليه فيما بينه وبين رسول الله (ﷺ). فلمّا انتهى الخبر إلى رسول الله (ﷺ) وإلى المسلمين؛ بعث رسول الله (ﷺ) إلى سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل وهو يومئذ سيّد الأوس وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة وهو يومئذ سيد بني الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة أخو الحرث بن الخزرج وخواد بن جبر أخو بني عمر وبن عوف فقال لهم: انطلقوا حتّى تنظروا ما بلغنا عن هؤلاء القوم أحقّ أم لا ؟ فإن كان حقّاً فالحنوا إليّ لحناً أعرفه، ولا تفتّوا

أعضاد النّاس، وان كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للنّاس، فخرجوا حتّى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله (ﷺ)، وقالوا: لا عقد بيننا وبينه ولا عهد، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وكان رجلاً عنده حدة، فقال له سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أكبر من المشاتمه، ثمّ أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله (ﷺ) فسلّموا وقالوا: عضل والقارة، أي كغدر عضل والقارة، بأصحاب رسول الله (ﷺ) وأصحاب رجيع خبيب بن عدي وأصحابه، فقال رسول الله (ﷺ): الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين، وعظم عند ذلك البلاء واشتدّ الخوف، وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتّى ظنّ المؤمنون كلّ ظنّ، ونجم النّفاق من بعض المنافقين حتّى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمّد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً، وقال أوس بن قيظى أحد بني حارثة: يا رسول الله إنّ بيوتنا لعورة من العدوّ، وذلك على ملأ من رجال قومه، فأذن لنا فلنرجع إلى ديارنا فإنّها خارجة من المدينة. فأقام رسول الله (ﷺ) وأقام المشركون عليها بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر، ولم يكن بين القوم حرب إلّا الرّمي بالنّبل والحصى، فلمّا اشتدّ البلاء على النّاس بعث رسول الله (ﷺ) إلى عيينة بن حصن وإلى حرث بن عوف وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله (ﷺ) وأصحابه، فخرج بينهما الصّلح حتّى كتبوا الكتاب ولم تقع الشّهادة، فذكر رسول الله (ﷺ) ذلك لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيه فقالا: يارسول الله أشيء أمرك الله به لابدّ لنا من العمل به أم أمر تحبّه فتصنعه أم شيء تصنعه لنا؟، قال، بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلّا لأنّي قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم من كلّ جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأصنام لا نعبد الله ولا نعرفه ولا يطمعون أن يأكلوا منّا تمرة واحدة إلّا قرىً أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وعزّنا بك نعطيهم أموالنا ما لنا بهذا من حاجة، والله وما نعطيهم إلّا السّيف حتّى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله (ﷺ): أنت وذاك، فتناول سعد الصّحيفة فمحا ما فيها من الكتابة ثمّ قال: ليجهدوا علينا، فأقام رسول الله (ﷺ) والمسلمون وعدوهم فحاصروهم ولم يكن بينهم قتال إلّا أنّ فوارس من قريش عمرو بن عبد ود أخو بنى عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميّان ونوفل بن عبد الله بن ضرار بن الخطاب

ومرداس أخو بني محارب بن فهد قد نشبوا للقتال وخرجوا على خيلهم، فمرّوا على بني كنانة فقالوا: تهيّؤا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان، ثمّ أقبلوا نحو الخندق حتّى وقفوا عليه فلمّا رأوه قالوا: والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثمّ تيمّموا مكاناً ضيّقاً من الخندق وضربوا خيولهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السّبخة بين الخندق وسلع، وخرج عليّ بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتّى أخذوا عليهم الثّغرة الّتي اقتحموا منها، وأقبلت الفرسان تعنّف نحوهم، وكان عمرو بن عبد ود قاتل يوم بدر حتّى أثخنته الجراحة فلم يشهد أُحداً، فلمّا كان يوم الخندق خرج معلّماً ليرى مكانه، فلمّا وقف هو وخيله قال علي: يا عمرو إنّك كنت تعاهد الله لا يدعوك رجل من قريش إلى خلّتين إلّا أخذت منه إحداهما، قال: أجل، قال له علي: فإنّي أدعوك إلى الله ورسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: إنّي أدعوك إلى النّزال، قال: ولم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحبّ أن أقتلك، فقال علي: لكن والله أحبّ أن أقتلك، فحمى عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه، ثمّ أقبل على عليٍّ فتناولا وتجادلا فقتله عليّ، وخرجت خيله منهزمة حتّى اقتحمت من الخندق هاربة، وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبيد بن السّباق بن عبد الدّار أصابه سهم فمات بمكّة، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، وكان قد أقتحم الخندق فتورّط فيه فرموه بالحجارة فقال: يا معشر العرب قتلة أحسن من هذه، فنزل إليه عليّ فقتله، فغلب المسلمون على جسده فسألوا رسول الله (ﷺ) أن يبيعهم جسده، فقال رسول الله (ﷺ) لا حاجة لنا في جسده وثمنه فشأنكم به فخلّى بينهم وبينه. قالت عائشة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) كنّا يوم الخندق في حصن بني حارثة، وكان من أحرز الحصون في المدينة، وكانت أمّ سعد بن معاذ معنا في الحصن، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، فمرّ سعد بن معاذ، وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلّها، وفي يده حربة وهو يقول: لا بأس بالموت إذا حان الأجل، فقالت له: إلحق يا بنيّ فوالله قد اخترت، قالت عائشة: فقلت: يا أمّ سعد والله لوددت أنّ درع سعد كانت أسبغ ممّا هي، وخفت عليه حيث أصاب السّهم منه، قالت: فرمي سعد يومئذ بسهم فقطع منه الأكحل رماه خباب بن قيس بن العرقة أحد بني عامر بن لؤي فلمّا أصابه قال: خذها وأنا ابن العرقة، قال سعد: عرق الله وجهك في النّار، ثمّ قال سعد: اللّهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنّه لا قوم أحبّ إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذّبوه وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تمتني حتّى تقرّ عيني من بني قريظة، وكانوا

حلفاءه ومواليه في الجاهليّة، قال محمّد بن إسحاق فيما بلغه: أنّ صفيّة بنت عبد المطلب كانت في قارع حصن حسان بن ثابت، وكان حسان معنا مع النّساء والصّبيان، قالت صفيّة: فمرّ بنا رجل من اليهود، فجعل يطوف بالحصن وقد حاربت قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله (ﷺ) والمسلمون في نحر عدوّهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذا أتانا آت، قالت: فقلت يا حسّان إنّ هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن وإنّي والله ما آمنه أن يدلّ على عورتنا من ورائنا من اليهود، وقد شغل عنّا رسول الله (ﷺ) وأصحابه، فانزل إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك يا بنت عبدالمطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فلمّا قال لي ذلك ولم أر عنده شيئاً، اعتجرت، ثمّ أخذت عموداً ثمّ نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتّى قتلته، فلمّا فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: ياحسان إنزل إليه فاسلبه فإنّه لم يمنعني من سلبه إلّا أنّه رجل، قال: مالي بسلبه حاجة يا بنت عبدالمطلب. قالوا: وأقام رسول الله (ﷺ) وأصحابه فيها، وفيها ما وصف الله من الخوف والشدّة لتظاهر عدوّهم وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ثمّ إنّ نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله إنّي قد أسلمت وإنّ قومي لم يعلموا بإسلامي، فأمرني بما شئت، فقال رسول الله (ﷺ): إنّما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنّا إن استطعت فإنّ الحرب خدعة. فخرج نعيم بن مسعود حتّى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهليّة، فقال لهم: يا بني قريظة قد عرفتم ودّي إياكم وخاصّة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت لست عندنا بمتّهم، فقال لهم: إنّ قريشاً وغطفان جاؤوا لحرب محمّد وقد ظاهرتموهم عليه، وإنّ قريشاً وغطفان ليسوا كهيئتكم، البلد بلدكم به أموالكم وأولادكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحوّلوا منه إلى غيره، وإنّ قريشاً وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم بغيره إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين هذا الرّجل، والرّجل ببلدك لا طاقة لكم به، إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتّى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمّداً حتّى تناجزوه، قالوا: لقد أشرت برأي ونصح، ثمّ خرج حتّى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودّي إياكم وفراقي محمّداً، فقد بلغني أمر رأيت حقّاً عليّ أن أبلغكم نصحاً لكم فاكتموا عليّ، قالوا: نفعل، قال: تعلمون أنّ معشر اليهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمّد، وقد أرسلوا إليه أن ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكم فتضرب أعناقهم ثمّ نكون معك

على من بقي منهم؟ فأرسل إليهم أن نعم، فإن بعثت إليكم اليهود يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً، ثمّ خرج حتّى أتى غطفان فقال: يامعشر غطفان أنتم أهلي وعشيرتي وأحبّ النّاس إليّ ولا أراكم تتّهمونني، قالوا: صدقت، قال: فاكتموا عليّ، قالوا: نفعل، فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم مثلما حذّرهم. فلمّا كانت ليلة السّبت من شوال سنة خمس، وكان ممّا صنع الله لرسوله (ﷺ) أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم: إنّا لسنا بدار مقام قد هلك الخفّ والحافر، فاغدوا للقتال حتّى نناجز محمّداً ونفرغ ممّا بيننا وبينه، فأرسلوا إليه أنّ اليوم السّبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابهم مالم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالّذي نقاتل معكم حتّى تعطونا رهناً من رجالكم يكون بأيدينا ثقة لنا حتّى نناجز محمّداً، فإنّنا نخشى إن خسرتم الحرب واشتدّ عليكم القتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا، والرّجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمّد، فلمّا رجعت إليهم الرّسل بالّذي قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: تعلمان والله أنّ الّذي حدّثكم به نعيم بن مسعود لحقّ، فأرسلوا إلى بني قريظة إنّا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا معنا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرّسل: إنّ الّذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحقّ، ما يريد القوم إلّا أن يقاتلوا، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك شمّروا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرّجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان أنّا لا نقاتل معكم حتّى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم وخذل الله عزّ وجل بينهم، وبعث عليهم الرّيح في ليال شاتية شديدة البرد تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم، فلمّا انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم، دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم نيلاً. وروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد ابن كعب القرظي وروى غيره عن ابراهيم التّميمي عن أبيه قالا: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله (ﷺ) وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: كيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنّا نجهد، قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ولخدمناه وفعلنا معه ما فعلنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتنى ليلة الأحزاب مع رسول الله (ﷺ) فقال: من يذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله الجنّة؟ فما قام منّا رجل، ثمّ صلى رسول الله (ﷺ) هوناً من اللّيل ثمّ التفت إلينا فقال مثله، فسكت القوم وما قام منّا رجل، ثمّ صلّى رسول الله

(ﷺ) هوناً من اللّيل ثمّ التفت إلينا فقال: هل من رجلٍ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم على أن يكون رفيقي في الجنّة؟ فما قام رجل من شدّة الخوف وشدّة الجوع وشدّة البرد، فلمّا لم يقم أحد دعاني رسول الله (ﷺ) فقال: يا حذيفة، ولم يكن لي بد من القيام حين دعاني رسول الله (ﷺ) فقلت: لبّيك يا رسول الله، وقمت حتّى أتيته فأخذ بيدي ومسح رأسي ووجهي ثمّ قال: إذهب إلى هؤلاء القوم حتّى تأتيني بخبرهم ولا تحدّثن شيئاً حتّى ترجع إليّ، ثمّ قال: اللّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته، فأخذت سهمي وشددت على أسلابي، ثمّ انطلقت أمشي نحوهم كأنما أمشي في حمّام. فذهبت فدخلت في القوم وقد أرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً، وجنود الله تفعل به ما تفعل لا تقرّ لهم قدراً ولا نارا ولا بناء، قال: وأبو سفيان قاعد يصلّي، فأخذت سهماً فوضعته في كبد قوس فأردت أن أرميه ولو رميته لأصبته فتذكّرت قول رسول الله (ﷺ) لا تحدثنّ حدثاً حتّى ترجع، فرددت سهمي في كنانه، فلمّا رأى أبو سفيان ما تفعل الرّيح وجنود الله بهم لا تقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء، قام فقال: يا معشر قريش ليأخذ كلّ منكم بيد جليسه فلينظر من؟ فأخذت بيد جليسي فقلت من أنت؟ فقال: سبحان الله أما تعرفني أنا فلان بن فلان رجل من هوازن، فقال أبو سفيان: يا معشر قريش إنّكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخفّ وأخلفتنا بني قريضة وبلغنا عنهم الّذي نكره، ولقينا من هذه الرّيح ما ترون، فارتحلوا فإنّي مرتحل، وقام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثمّ ضربه فوثب على ثلاث فمّا أطلق عقاله إلّا وهو قائم. وسمعت غطفان بما فعل قريش فاستمرّوا راجعين إلى بلادهم، قال: فرجعت إلى رسول الله (ﷺ) كأنّي أمشي في حمّام فأتيته وهو قائم يصلّي، فلمّا سلم أخبرته فضحك حتّى بدت أنيابه في سواد اللّيل، فلمّا أخبرته وفرغت قررت وذهب عنّي الدّفاء، فأدناني النّبيّ (ﷺ) فأنامني عند رجليه وألقى عليّ طرف ثوبه، وألصق صدري ببطن قدميه، فلم أزل نائماً حتّى أصبحت، فلمّا أصبحت قال: قم يا نومان فذلك قوله عزّ وجل: ﴿إِذْ جَاۤءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من فوق الوادي.

* * *

وإلى هذه القصة أشار الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾

(ياأيّها الّذين آمنوا) بالإسلام واعتنقوه **(اذكروا نعمة الله عليكم)** بنصره إيّاكم وخذلان أعدائكم الكافرين، وقد كان ذلك النّصر **(إذ)** وقتها **(جاءتكم جنود)** كثيرون من الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود بني النّضير، **(فأرسلنا عليهم ريحاً)** قلبت قدورهم وقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم **(وجنوداً لم تروها)** أي أنتم، أو الجنود أو كلاهما، وهم الملائكة جاؤوا ليدخلوا الرّعب في قلوب الأحزاب والكفرة، فانهزمت الأحزاب بدون قتال وأحبط الله تعالى كيدهم **(وكان الله بما تعملون)** يوم الأحزاب **(بصيراً)** من حفر الخندق والصّمود والثّبات على العقيدة والوقوف أمام العدوّ والاستعداد للتّضحية بالمال والنّفس في سبيل نصرة الإسلام ورسوله، فيثيبكم عليه في الآخرة بالجنّة كما أثابكم في الدّنيا بالنّصر وخذل الأعداء، ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر شدّة ذلك اليوم على المؤمنين فقال جلّ وعلا: **(إذ جاؤوكم)** أي الجنود والأحزاب **(من فوقكم)** حيث جاءت قبيلة غطفان وأسد، يرأس مالك بن عوف النّضري قبيلة **غطفان**، ويرأس قبيلة أسد عينيّة بن حصن الفزاري ومعها ألف، فنزلوا من فوق الوادي شرق المدينة وكان معهم حييء بن أخطب اليهودي وطليحة بن خويلد الأسدي **(ومن أسفل منكم)** حيث أتت قريش وكنانة من بطن الوادي غربيّ المدينة، وكان يرأسهم أبو سفيان بن حرب القريشي **(وإذ زاغت)** أي خشعت وشخصت **(الأبصار)** من الخوف **(وبلغت القلوب الحناجر)** أي زالت القلوب أي الأرواح عن أماكنها فبلغت الحناجر فكادت أن تخرج من شدّة الرّعب **(وتظنّون بالله)** أي بتقديره **(الظّنونا)** مختلفة. فأمّا المسلمون فكانوا يترقّبون من الله تعالى النّصر والظّفر. وأمّا المنافقون فظنّوا الإستئصال والدّمار. روي أنّ المسلمين قالوا لرسول الله (ﷺ): هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم، قولوا اللّهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا[1]. فكان هذا دعاء لكلّ مسلم يدعو به عند الشدّة والخوف **(هنالك)** في ذلك الوقت **(ابتلي)** اختبر **(المؤمنون)** ليظهر المخلصون والصادّقون في

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٣ الحديث رقم ١١٠٠٩.

إيمانهم، والمنافقون الّذين دخلوا الإسلام كذباً وزوراً **(وزلزلوا)** أي وحرّكوا **(زلزالاً شديداً)** حركة قويّة من الخوف والشّدة لا يقف أمامها إلّا الجلد الصّامد القويّ في العقيدة والإيمان، فإنّ مثل هذا المسلم لا يبالي حيث يعتقد الخير في كلّ حال، فإنّ قتل فهو إلى الجنّة في الآخرة، وإن انتصر فإلى العزّة والسّيادة في الدّنيا. ونتيجة لهذا الإبتلاء والاختبار انكشف المنافقون فأصبحوا يبثون البلبلة بين المسلمين ويزيدون الطّين بلّة والأمر شدّة ببلبلتهم ودعاياتهم السّيئة، فذكر الله تعالى حالهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾

(وإذ) أي واذكر إذ **(يقول المنافقون)** وهم عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه **(والّذين في قلوبهم مرض)** وهو الكفر والنّفاق، جيئ بهذه الجملة صفة للمنافقين لبيان سبب أنّهم يقولون **(ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً)** أي إلّا وعداً غرّونا به فكانوا يقولون إنّ محمّداً كان يعدّنا فتح الشّام وقصورها واستلام كنوز كسرى وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله، وهذا هو الغرور **(وإذ)** أي واذكر **(اذ قالت طائفة)** أخرى **(منهم)** من المنافقين **(يا أهل يثرب لا مقام)** لا تستطيعوا القيام ولا قرار **(لكم)** هنا في معسكر الرّسول (ﷺ) **(فارجعوا)** إلى المدينة وإلى بيوتكم، فكان بعضهم يرجعون بدون استئذان من الرّسول (ﷺ) **(ويستأذن فريق)** طائفة **(منهم النّبيّ)** للرّجوع إلى بيوتهم **(ويقولون إنّ بيوتنا عورة)** أي عارية عن الحصانة ويكذبون في قولهم هذا حيث **(وما هي)** أي بيوتهم **(بعورة إن)** أي ما **(يريدون)** بقولهم هذا **(إلّا فراراً)** من الجهاد لأنّهم لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وكانوا يحبّون الرّجوع إلى الكفر إن استطاعوا، كما قال تعالى: **(ولو دخلت)** أي ولو دخل المدينة المشركون واستولوا **(عليهم من أقطارها)** من نواحيها **(ثمّ سئلوا الفتنة)** أي الرّجوع إلى الشّرك **(لأتوها وما تلبّثوا)** وما توقّفوا **(إلّا)** زماناً **(يسيراً)** قليلا مدّة معرفتهم بزوال سلطة المسلمين **(و)** أي وبعزّتي **(لقد)** جاؤوا

باختيارهم وإنّهم **(كانوا عاهدوا الله)** أي عاهدوا رسول الله (ﷺ)، وجيء بهذه العبارة ليعلم أنّ المعاهدة مع الرّسول (ﷺ) معاهدة مع الله تعالى فعاهدوا **(من قبل)** أي من قبل مجيء الأحزاب أنّهم يقاتلون وأنّهم **(لا يولّون الأدبار)** للعدوّ ولا ينهزمون **(وكان وعد الله مسؤولاً)** عنه ويعاقب المرء على نقضه ومخالفته.

ثمّ بعد أن كشف الله تعالى حال المنافقين وما فعلوا، أمر الرّسول (ﷺ) أن يعظهم موعظة فيها زجر بليغ لكي لا يرتكبوا هذه الأعمال مرّة أخرى وفي قتال آخر إن حصل فقال جلّ وعلا:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ لهؤلاء المنافقين **(لن ينفعكم الفرار)** شيئا **(إن فررتم)** في أيّ قتال وأيّ معركة **(من الموت أو القتل)** فإنّه لو كتب الله الموت أو القتل عليكم لأصابكم، وإن كنتم في بروج مشيّدة **(وإذا)** أي وإذا فررتم ولم يكتب الموت أو القتل عليكم **(لا تمتّعون)** بالحياة في الدّنيا بعد الفرار **(إلّا)** زماناً **(قليلاً)** لأنّ مدّة الحياة في الدّنيا مهما طالت فهي قليلة لا تتجاوز إلّا سنوات عديدة **(قل من ذا الّذي يعصمكم)** أي يمنعكم **(من الله إن أراد بكم سوءاً)** فيدفعه عنكم **(أو أراد بكم رحمة)** نعمة فيزيلها عنكم، والاستفهام للإنكار أي لا أحد يمنع الله من ذلك **(ولا يجدون من دون الله ولياً)** لهم يتولّى أمرهم **(ولا نصيراً)** ينصرهم فكلّ أمر بيد الله تعالى من النّفع والضرّ فكيف الفرار من أمره ومخالفة عهده ونقض ميثاقه، إن هذا إلّا ضلال مبين، فلينتهوا عن ذلك فيما يستقبل من الزّمان.

ثمّ شدّد الله تعالى التّكبّر على المنافقين وذكر لهم أوصافاً دنيئة ووجّه إليهم إنذاراً شديداً فقال جلّ وعلا:

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى

يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

(**قد يعلم الله المعوّقين منكم**) أي الّذين يعوّقون النّاس ويمنعونهم عن القتال والجهاد (**والقائلين لإخوانهم**) أي لأصحابهم وأصدقائهم (**هلمّوا**) تعالوا (**إلينا**) وارجعوا عن معسكر النّبيّ (ﷺ) (**و**) هم بأنفسهم (**لا يأتون البأس**) أي القتال (**إلّا قليلاً**) بقدر ما يخفون النّفاق عليهم، فهم لا يعضدّونكم بالمال بل إنّهم كانوا (**أشحة**) بخلاء بصرف المال (**عليكم**) للصّرف في سبيل الجهاد ولا يشاركونهم في القتال أيضاً، بل (**فإذا جاء الخوف**) من دخول القتال (**رأيتهم ينظرون إليك**) أيّها النّبيّ وأنّهم على حال (**تدور**) تتحرّك (**أعينهم كالّذي يغشى**) يساق (**عليه من**) سكرات (**الموت**) فينظر يميناً وشمالاً (**فإذا ذهب الخوف سلقوكم**) رموكم وتكلّموا معكم (**بألسنةٍ حداد**) فكأنّهم هم الّذين هزموا العدوّ وحدهم، وطلبوا من الغنيمة الحظّ الأوفر فكانوا (**أشحّة**) أي حريصين (**على**) أخذ (**الخير**) أموال الغنيمة (**أولئك لم يؤمنوا**) فلا يستحقّون شيئاً من الغنيمة (**فأحبط الله أعمالهم**) القليلة الّتي عملوها تقيّة ورياء واختفاءا وراءها (**وكان ذلك**) الإحباط لأعمالهم (**على الله يسيراً**) سهلاً لا صعوبة فيها، وإنّ هؤلاء المنافقين لا يزال الخوف مسيطرا عليهم فإنّهم (**يحسبون الأحزاب لم يذهبوا**) لم يرجعوا (**وإن يأت الأحزاب**) مرّة أخرى (**يودّوا**) يحبّوا (**لو أنّهم بادون**) أي ساكنون خارج المدينة (**في الأعراب**) بعيدين عنكم (**يسألون عن أنبائكم**) أخباركم (**ولو كانوا فيكم**) ولم يخرجوا من المدينة (**ما قاتلوا**) هذه المرّة أيضاً (**إلّا قليلاً**) وبقدر ما يتّقون به من ظهور كفرهم ونفاقهم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى موقف المنافقين أراد أن يذكر موقف الرّسول (ﷺ) من الصّبر والطّمأنينة والثّقة بالله والجدّ في العمل والعطف على المؤمنين وبثّ الثّقة في نفوسهم، وأنّه يجب أن يتّخذ قدوة لكلّ مسلم ولكلّ قائد؛ فيقتدوا به في أخلاقه في هذه في الحرب وفي السّلم وفي كلّ حالة من أحوال الحياة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

(لقد كان لكم) يوم الخندق ويوم الأحزاب في أعمال وأخلاق الرّسول (ﷺ) من الصّبر والطّمأنينة وبثّ الثّقة في قلوب المسلمين والتّضحية في سبيل نصرة دين الله تعالى **(أسوة حسنة)** اقتداء وتبعيّة حسنة **(لمن كان يرجو الله)** أي رضاءه **(واليوم الآخر)** أي نعيمه في يوم القيامة **(وذكر الله كثيراً)** فاقتدوا به لتسعدوا وتفوزوا بالفلاح في الدّارين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر موقف المؤمنين فقال تعالى:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

(ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا) مع ما بلغت قلوبهم الحناجر وزاغت أبصارهم وبلغت الشدّة غايتها **(هذا ما وعدنا الله ورسوله)** من النّصر وفتح الشّام وبلاد فارس **(وصدق الله ورسوله)** في وعدهما **(وما زادهم)** ما أصابهم من الشدّة **(إلا إيماناً)** بالنّصر **(وتسليماً)** وانقياداً لأمر الله وقيادة الرّسول (ﷺ) بعكس ما قال المنافقون حين بلغتهم الشّدة إذ قالوا **(ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً)** وخالفوا الرّسول وما انقادوا للقتال **(من المؤمنين رجال)** وأي رجال حيث **(صدقوا ما عاهدوا الله عليه)** من الجهاد في سبيله والصّمود أمام العدوّ والثّبات مع النّبيّ (ﷺ) إلى النّصر أو الشّهادة، بعكس المنافقين الّذين نقضوا العهد وخالفوه **(فمنهم)** أي فمن المؤمنين **(من قضى نحبه)** أي مات أو قتل في سبيل الله **(ومنهم من ينتظر)** أي يموت أو يقتل في الجهاد **(وما بدّلوا)** عزمهم على الثّبات على العقيدة ومع النّبيّ (ﷺ) **(تبديلاً)** بتاتاً **(ليجزي الله)** اللّام لام العاقبة

فالمعنى كانت عاقبة هذه المعركة أن (**يجزي الله الصّادقين**) في عهدهم النّصر والعزّة في الدّنيا والجنّة في الآخرة (**بصدقهم**) أي بسبب صدقهم وجهادهم (**ويعذّب المنافقين إن شاء**) تعذيبهم في الدّنيا بالذّل وفي الآخرة بالنّار (**أو يتوب عليهم**) إن تابوا (**إنّ الله كان غفوراً**) لمن تاب منهم (**رحيماً**) بهم بعد توبتهم (**وردّ الله الّذين كفروا**) وهم الأحزاب (**بغيظهم**) أي مع غيظهم وقلوبهم المحروقة حقداً وحسداً على المؤمنين حيث (**لم ينالوا**) من حركتهم هذه (**خيرا**) نصرا ونجاحا بل خزيا وعاراً وخذلاناً وخجلاً (**وكفى الله المؤمنين القتال**) حيث هو هزم الأحزاب وحده دون أن يقاتلهم المؤمنون وهزمهم بالرّيح والرّعب والملائكة (**وكان الله قوياً**) على ما أراده من هزيمتهم (**عزيزاً**) لا يمنعه من تنفيذ إرادته أحد أبدا، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

العبر من غزوة الخندق (الأحزاب):

١- إنّ الكفر ملّة واحدة، وكلّ فئة من الكفار هم عدّو الإسلام؛ فعلى المسلمين أن لا يثقوا بأيّة فئة منهم، فإنّه لا تجد فئة منهم إلّا وتريد بالإسلام والمسلمين شرّا.

٢- إنّ الايمان الصّادق لا يتميّز عن الإيمان المشوب بالكذب والنّفاق إلّا عند الشّدة والإبتلاء ونيل المكاره والكروب في سبيل الايمان.

٣- إنّ المؤمنين إذا صدقوا في إيمانهم وعملوا بإخلاص وتوكلّوا على الله، وعملوا لرفع راية الله تعالى ونشر دينه في الأرض، فإنّ الله ينصرهم على أعدائهم مهما كانوا أقوياء وأكثر عددا، فينصرهم بالرّعب والرّيح والملائكة وغير ذلك يخذل الله تعالى به من يشاء من الكفار وأعداء الإسلام ﴿وما يعلم جنود ربّك إلّا هو﴾[1].

* * *

ثمّ بعد أن أشار الله تعالى إلى غزوة الأحزاب أراد أن يشير إلى غزوة بني قريظة فقال تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) المدثر. ٣٠.

(وأنزل) عطف على قوله **(ورد)** فالمعنى أنّه بعد ما ردّ الله الأحزاب خائبين غائظين **(أنزل الّذين ظاهروهم)** أي عاونوا الأحزاب **(من أهل الكتاب)** وهم يهود بني قريظة فأنزلهم الله تعالى **(من صياصيهم)** جمع صيصية بكسر الصّاد الأوّل وكسر الصّاد الثّاني وهي القلعة. فأنزلهم الله من قلاعهم **(وقذف في قلوبهم الرّعب)** أي الخوف فأصبحتم **(فريقاً تقتلون)** إيّاهم وهم المقاتلون **(وتأسرون فريقاً)** وهم النّساء ومن دون الحلم من الذّكور **(وأورثكم)** أي وأعطاكم الله تعالى **(أرضهم)** من المزارع والبساتين **(وديارهم)** جمع دار **(وأموالهم)** المنقولة **(وأرضاً)** أخرى يهبكم الله **(لم تطئوها)** أنتم بعدُ وهي أرض خيبر **(وكان الله على كلّ شيء)** أراد فعله **(قديراً)** لا يعجز عن شيء، وفي هذه الآية معجزة وهي أنّها أخبرت بأنّ المسلمين يستولون على أرض خيبر، ووقع الأمر كما أخبرت الآية. ونسرد لكم قصّة بني قريظة كما هي في سيرة ابن هشام.

(غزوة بني قريظة)

أمر الله رسوله على لسان جبريل بحرب بني قريظة، حيث في ظهر أحد أيام السّنة الخامسة للهجرة أتى جبريل رسول الله (ﷺ) (كما تحدّث الزّهري) معفراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها هالة، وعلى الهالة قطيفة من ديباج فقال: أوقد وضعت السّلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السّلاح بعد، وما رجعت الآن إلّا من طلب القوم أنّ الله عزّ وجل يأمرك يا محمّد بالمسير إلى بني قريظة، فإلى عامل الجهد فزلزل بهم.

دعوة الرّسول (ﷺ) المسلمين للقتال: فأمر رسول الله (ﷺ) مؤذّناً، فأذّن في النّاس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّينّ العصر إلّا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أمّ مكتوم فيما قال ابن هشام.

تقدّمْ عليّ وتبليغه رسول الله (ﷺ) ما سمعه من سفهائهم:

قال ابن اسحاق: وقدّم رسول الله (ﷺ) عليّ ابن أبي طالب برايته إلى بني قريظة وابتدرها النّاس. فسار عليّ ابن أبي طالب، حتّى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله (ﷺ)، فرجع حتّى لقي الرّسول (ﷺ) بالطّريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأجانب، قال: لم؟ أظنّك سمعت منهم لي أذى؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً، فلمّا دنا رسول الله (ﷺ)

من حصونهم قال: يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته؟ قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً.

سؤال الرّسول عمّن مرّ بهم فقيل دحية فعرف أنّه جبريل: ومرّ رسول الله (ﷺ) بنفر من أصحابه بالصّورين قبل أن يصل إلى بني قريظة فقال: هل مرّ بكم أحد؟ قالوا: يا رسول الله، قد مرّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة،عليها قطيفة وديباج، فقال رسول الله (ﷺ): ذلك جبريل، بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم وبحصونهم ويقذف الرّعب في قلوبهم، ولمّا وصل رسول الله (ﷺ) بني قريظة نزل على بئر من آبارها من ناحية أموالهم، يقال لها بئران، قال ابن هشام يقال لها: بئر انا.

تلاحق المسلمين بالرّسول: قال ابن اسحاق: وتلاحق به النّاس، فأتى رجال منهم من بعد العشاء الآخرة، ولم يصلّوا العصر لقول الرّسول (ﷺ): لا يصلّينّ أحد العصر إلّا ببني قريظة، فشغلهم ما لم يكن منه بدّ في حربهم، وأبوا أن يصلّوا لقوله (ﷺ) حتّى تأتوا بني قريظة، فصلّوا العصر بها بعد العشاء الآخرة، فما عاتبهم الله تعالى على ذلك في كتابه، ولا عنّفهم به الرّسول (ﷺ)، حدثني بهذا الحديث أبو إسحاق بن يسار عن معبد بن كعب بن مالك الأنصاري.

حصارهم ومقالة كعب بن أسد لهم: قال: وحاصرهم رسول الله (ﷺ) خمساً وعشرين ليلة حتّى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرّعب، وقد كان حيىء بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب ابن أسد بما كان عاهده عليه، فلمّا أيقنوا بأنّ رسول الله (ﷺ) غير منصرف عنهم حتّى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنّي عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيّها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرّجل ونصدّقه، فو الله لقد تبيّن أنّه لنبيّ مرسل وأنّه الّذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التّوراة أبداً ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتُن عليّ هذه فهلّم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثمّ نخرج إلى محمّد وأصحابه رجالاً مصلّتين السّيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتّى يحكم الله بيننا وبين محمّد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدنّ النّساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم. قال: فإن أبيتم عليّ هذه فإنّ اللّيلة ليلة السّبت وإن عسى أن يكون محمّداً وأصحابه قد أمّنونا فيها، فأنزلوا لعلّنا نصيب من

محمّد وأصحابه غرّة. قالوا: نفسد سبتنا علينا ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلّا من قد علمت، فأصابه مالم يخف عليك من المسخ. فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمّه ليلة واحدة من الدّهر حازماً.

أبو لبابة وتوبته: قال: ثمّ أنّهم بعثوا إلى رسول الله (ﷺ) أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمر بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله (ﷺ) إليهم، فلمّا رأوه قام إليه الرّجال وجهش إليه النّساء والصّبيان ليكون في وجهه فرق لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمّد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنّه الذّبح، قال أبو لبابة: فو الله مازالت قدماي من مكانهما حتّى عرفت أنّي خنت الله ورسوله(ﷺ). ثمّ انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله (ﷺ) حتّى ارتبط في المسجد إلى عمود من أعمدته وقال: لا أبرح مكاني هذا حتّى يتوب الله عليّ ممّا صنعت، وأعاهد الله أن لا أطأ بني قريظة أبداً ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

ما نزل في خيانة أبي لبابة: قال ابن هشام وأنزل الله في أبي لبابة فيما قال سفيان بن عينية عن اسماعيل بن أبي خالد عن عبدالله بن أبي قتادة ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تخونوا اللهَ والرَّسولَ وَتَخونوا أماناتِكُم وَأَنْتُمْ تَعْلمون﴾[١].

موقف الرّسول من أبي لبابة وتوبة الله عليه: قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط: أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السّحر وهو في بيت أمّ سلمة فقالت أمّ سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السّحر وهو يضحك، قالت: فقلت: ممّ تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنّك قال: تيب على أبي لبابة، قالت: قلت: أفلا أبشّره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئت قال: فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهنّ الحجاب فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار النّاس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله حتّى يكون رسول الله ﷺ هو الّذي يطلقني بيده، فلمّا مرّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصّبح أطلقه[٢].

ما نزل في التّوبة على أبي لبابة: قال ابن هشام: أقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ستّ

(١) الأنفال . ٢٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٩.

ليال تأتيه إمرأته في كلّ وقت صلاة فتحلّه للصّلاة ثمّ يعود فيرتبط بالجذع، فيحادثني بعض أهل العلم والآية الّتي نزلت في توبته قول الله عزّ وجل: ﴿وآخرون اعْتَرفُوا بذُنوبِهم خَلَطوا عَمَلاً صَالحاً وآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيم﴾[1] سورة التوبة الآية/ ١٠٢.

إسلام نفر من بني هدل: قال إسحاق: ثمّ إنّ ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد وهم نفر من بني هدل ليسوا من بني قريظة ولا النّضير نسبهم فوق ذلك هم بنو عمّ القوم، أسلموا تلك اللّيلة الّتي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله (ﷺ).

أمر عمرو بن سعدي: وخرج في تلك اللّيلة عمرو بن سعدي القرظيّ، فمرّ بحرس رسول الله (ﷺ)، وعليه محمد بن مسلمة تلك اللّيلة فلمّا رآه قال: من هذا؟ قال: أنا عمرو بن سعدي وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله (ﷺ)، وقال لا أغدر بمحمّد أبداً، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللّهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام، ثمّ خلّى سبيله، فخرج على وجهه حتّى أتى باب مسجد رسول الله (ﷺ) بالمدينة تلك اللّيلة، ثمّ ذهب فلم يدر أين توجّه من الأرض إلى يومه هذا، فذكر لرسول الله (ﷺ) شأنه فقال: ذاك رجل نجّاه الله بوفائه، وبعض النّاس يزعم أنّه فيمن أوثق من بني قريظة على حكم رسول الله (ﷺ)، فأصبحت رمّته ملقاة ولا يدري أين يذهب، فقال رسول الله (ﷺ) فيه تلك المقالة والله أعلم أي ذلك كان.

نزول بني قريظة على حكم الرّسول وتحكيم سعد:

قال: فلمّا أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله (ﷺ) فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنّهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت، وقد كان رسول الله (ﷺ) قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه. فسأله إياه عبد الله بن أبيّ بن سلول فوهبه له - فلمّا كلّمته الأوس قال رسول الله (ﷺ): ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا بلى، قال رسول الله (ﷺ): فذاك إلى سعد بن معاذ، وكان رسول الله (ﷺ) قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة في مسجده، كانت تداوي

(١) المصدر نفسه.

الجرح وتحسب بنفسها على خدمة من كانت به حكيمة من المسلمين، وكان رسول الله (ﷺ) قد قال لقومه حين أصابه السّهم بالخندق: اجعلوه في خيمة رفيدة حتّى أعوده من قريب، فلمّا حكّمه رسول الله (ﷺ) في بني قريظة فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم وكان رجلا جسيماً جميلاً، ثمّ أقبلوا معه إلى رسول الله (ﷺ) وهم يقولون يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإنّ رسول الله (ﷺ) إنّما ولّاك ذلك لتحسن فيهم، فلمّا أكثروا عليه قال لقد أتى لسعد أن لا تأخذه في الله لومة اللّائم، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمتهم الّتي سمع عنه، فلمّا انتهى سعد إلى رسول الله (ﷺ) والمسلمين قال رسول الله (ﷺ) قوموا إلى سيّدكم، فأمّا المهاجرون من القريش فيقولون إنّما أراد رسول الله (ﷺ) الأنصار، وأمّا الأنصار فيقولون قد عمّ بها رسول الله (ﷺ) فقاموا إليه، فقالوا يا أبا عمرو: إنّ رسول الله (ﷺ) قد ولّاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، إن الحكم فيهم لما حكمت قالوا: نعم وعلى من ها هنا؟ في النّاحية الّتي فيها رسول الله (ﷺ)، وهو معرض عن رسول الله (ﷺ) إجلالاً له، فقال رسول الله (ﷺ) نعم، قال سعد فإنّي أحكم فيهم أن تقتل الرّجال وتقسّم الأموال وتسبى الذّراري والنّساء.

رضاء الرّسول بحكم سعد: قال ابن اسحاق: فحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن عمرو ابن سعد بن معاذ عن لقمة بن وقاص اللّيث قال: قال رسول الله (ﷺ) لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[1].

سبب نزول بني قريظة على حكم سعد في رأي ابن هشام: قال ابن هشام: حدثني بعض من أثق به من أهل العلم أنّ عليّ ابن أبي طالب صاح وهو محاصر بني قريظة يا كتيبة الإيمان، وتقدّم هو والزّبير بن العوّام، وقال: والله لأذوقنّ ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم، فقالوا: يا محمّد تنزل على حكم سعد بن معاذ.

مقتل بني قريظة: قال ابن اسحاق ثمّ استنزلوا فحبسهم رسول الله (ﷺ) بالمدينة في دار بنت الحارث امرأة من بني النّجار، ثمّ خرج رسول الله (ﷺ) إلى سوق المدينة الّتي هي سوقها اليوم، فخندق بها خنادق، ثمّ بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلّ

(١) أي من فوق سبع سماوات.

الخنادق، يخرج بهم إليه إرسالاً، وفيهم عدوّ الله حييء بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ست مئة أو سبع مئة، والمكثر لهم يقول: كانوا بين الثّمان مئة والتّسع مئة، وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى لرسول الله (ﷺ) إرسالاً يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كلّ موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الدّاعي لا ينزع، وإنّه من ذهب به منكم لا يرجع، هو والله القتل، فلم يزل ذلك الدّأب حتّى فرغ منهم رسول الله (ﷺ).

مقتل ابن أخطب وشعر ابن جوال فيه: وأتي بحييء بن أخطب عدوّ الله وعليه حلّة له فقاحيّة، قال ابن هشام فقاحيّة ضرب من الوشى قد شقّها عليه من كلّ ناحية قدر أنملة (أنملة) لئلا يسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلمّا نظر إلى رسول الله (ﷺ) قال أما والله ما لمت نفسي في عدواتك ولكنّه من يخذل الله يخذل، ثمّ أقبل على النّاس فقال: أيّها النّاس إنّه لا بأس بأمر الله كتابٌ وقدرٌ وملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل، ثمّ جلس فضربت عنقه، فقال جبل بن جوال الثّعلبي:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنّه من يخذل الله يخذل

لجاهد حتّى أبلغ النّفس عذرها وقلقل يبغى العزّ كلّ مقلقل

قتل من نسائهم امرأة واحدة: قال ابن اسحاق وقد حدثني محمّد بن جعفر بن الزّبير عن عروة بن الزّبير عن عائشة أمّ المؤمنين: أنّها قالت لم يقتل من نسائهم إلّا امرأة واحدة، قالت والله إنّها لعندي تحدّث معي وتضحك ظهراً وبطناً ورسول الله (ﷺ) يقتل رجالها في السّوق، إذ هتف هاتف باسمها ابن فلانة قالت أنا، والله قالت قلت: لها ويلك مالك؟ قالت: أُقتل، قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته، قالت: فانطلق بها فضربت عنقها، فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجباً منها، طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنّها تقتل، قال ابن هشام وهي الّتي طرحت الرّحا على خلاد بن سويد فقتلته.

شأن الزّبير بن باطا: قال ابن اسحاق وقد كان ثابت بن قيس بن الشّماس كما ذكر ابن شهاب الزّهري أتى الزّبير بن باطا القرضي، وكان يكنّى عبد الرّحمن، وكان الزّبير قد منّ على ثابت بن قيس في الجاهليّة، ذكر لي بعض ولد الزّبير أنّه كان منّ عليه يوم بعاث، أخذه فجزّ ناصيته ثمّ خلّى سبيله، فجاءه ثابت وهو شيخ كبير فقال: يا أبا عبد الرّحمن هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: إنّي أردت أن أجزيك بيدك

عندي، قال: إنّ الكريم يجزي الكريم، ثمّ أتى ثابت بن قيس رسول الله (ﷺ) فقال: يارسول الله إنّه كانت للزّبير عليّ منّة وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه، فقال رسول الله (ﷺ): هو لك، فأتاه فقال: إنّ رسول الله (ﷺ) قد وهب لي دمك فهو لك، قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟ قال فأتى ثابت رسول الله (ﷺ) فقال: بأبي أنت يارسول الله هب لي امرأته وولده، قال: هم لك، قال: فأتاه فقال قد وهب رسول الله (ﷺ) أهلك وولدك فهم لك، فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك، فأتى ثابت رسول الله (ﷺ) فقال: يارسول الله ماله، فقال: هو لك، فأتاه ثابت فقال قد أعطاني رسول الله (ﷺ) مالك، قال ثابت: ما فعل الّذي كان وجهه مرآة صينيّة يتراءى فيها عذارى الحيّ كعب بن أسد؟ قال: قتل، قال: فما فعل سيّد البادي والحاضر حييء بن أحطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا عزال بن سموأل؟ قال: قتل، قال: فما فعل المجلسان يمني كعب بن قريظة ويمني عمرو بن قريظة؟ قال: ذهبوا وقتلوا، قال: فإنّي أسألك يا ثابت بيدي عندك إلّا الحقتني بالقوم، فما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قبلة دلو ناضح حتّى ألقى الأحبّة، فقدّمه ثابت فضرب عنقه، فلمّا بلغ أبوبكر الصّديق قوله ألقى الأحبّة قال: يلقاهم والله في نار جهنّم خالداً فيها مخلّداً. قال: ابن هشام قبلة دلو ناضح (و) قال زهير بن ابي سلمى: في (قبلة):

وقابل يتغنّى كلّما قدرت على العراقي يداه قائما دفقا

وهذا البيت في قصيدة له، قال ابن هشام: ويروى وقابل يتلقّى يعني قابل الدلّو يتناول.

أمر عطيّة ورفاعة: قال ابن اسحاق: وكان رسول الله (ﷺ) قد أمر بقتل كل من أنبت منهم. قال ابن إسحاق وحدّثني شعبة بن الحجّاج عن عبدالملك بن عمير عن عطيّة القرظي قال: كان رسول الله (ﷺ) قد أمر أن يقتل من بني قريظة كلّ من أنبت منهم، وكنت غلاماً فوجدوني لم أنبت فخلّوا سبيلي. قال ابن اسحاق: وحدثّني أيوب ابن عبدالرحمن بن عبدالله بن أبي صعصعة أخو بني عدى بن النّجار أنّ سلمى بنت قيس أمّ المنذر أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله (ﷺ) قد صلّت معه القبلتين وبايعته بيعة النّساء ـ سألته رفاعة بن سموأل القرضي وكان رجلاً قد بلغ فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك، فقالت: يا نبيّ الله بأبي أنت وأمّي هب لي رفاعة

فإنّه قد زعم أنّه سيصلّي ويأكل لحم الجمل قال: فوهبه لها فاستحبّه.

قسم فيء بني قريظة: قال ابن اسحاق: ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) قسّم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعلمَ في ذلك اليوم سُهمانَ الخيل وسُهمَانَ الرّجال وأخرج منها الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم، وللرّاجل من ليس له فرس سهم، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستّة وثلاثين فرساً، وكان أوّل من وقعت فيه السّهمان وأخرج منها الخمسة، فعلى سنتها وما مضى من رسول الله (ﷺ) فيها وقعت المقاسم ومضت السّنة في المغازي، ثمّ بعث رسول الله (ﷺ) سعد ابن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل سباية من سباية بني قريظة إلى نجد فابتاع لهم خيلاً و سلاحاً.

شأن ريحانة: قال وكان رسول الله (ﷺ) قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة إحدى نساء بني عمرو بن قريظة، فكانت عند رسول الله (ﷺ) حتّى توفّي عنها وهي في ملكه، وقد كان رسول الله (ﷺ) عرض عليها أن يتزوّجها ويضرب عليها الحجاب، فقالت يا رسول الله بل تتركني في ملكك، فهو أخف عليّ وعليك فتركها، وقد كانت حين سباها قد تعصّت بالإسلام وأبت إلّا اليهوديّة فعزلها رسول الله (ﷺ)، ووجد في نفسه لذلك من أمرها، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: إنّ هذا لثعلبة بن سعية بشّرني بإسلام ريحانة، فجاءه فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة فسرّه ذلك من أمرها. (انتهت القصّة).

* * *

تنبيه: لعلّ بعض الحاقدين على الإسلام ورسوله (ﷺ) يتّخذون من قصّة بني قريظة ثغرة للطّعن في الرّسول (ﷺ) وأن يصفوا عملهم في حقّ بني قريظة بأنّها قسوة شديدة وبعيدة عن الإنصاف، كيف لا وقد حفر حفرة وذبح حوالي ثمان مئة شخص، وألقى جثثهم في الحفرة وواراهم بالتّراب، ولكنّ أصحاب العقول السّليمة ومن تعمّق في حال بني قريظة وقصّتهم يشهد بأنّهم كانوا يستحقّون ما فعل الرّسول بهم، وأنّ الرّسول (ﷺ) كان محقّاً في حكمه ومنصفاً وحاكماً بالقسط والعدل وذلك لما يلي:

١- إنّ غزوة بني قريظة لم يقم بها الرّسول (ﷺ) من عنده وباختيار منه، بل إنّ الله تعالى أمره بها، ويدلّ على ذلك ما ذكر في أوّل قصّتهم أنّ جبريل أتى رسول الله

(ﷺ) بعد رجوعه من الخندق فقال: أوقد وضعت السّلاح يا رسول الله! قال: نعم، فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السّلاح، إنّ الله عزّ وجلّ يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فإنّي عامد إليه فزلزل بهم، وبعد ذلك أذن الرّسول (ﷺ) في النّاس بالذّهاب إلى حرب بني قريظة.

٢- إنّ هذا الحكم الّذي حكم به الرّسول على بني قريظة لم يكن من عنده بل كان حسب اختيار بني قريظة، فإنّهم نزلوا على حكم رسول الله (ﷺ)، وجعل الرّسول حكمهم حليفهم سعد بن معاذ، ورضي بنو قريظة بحكمه، فحكم عليهم بقتل الرّجال وأسر النّساء ومن دون الحلم من الذّكور، وقد وافق حكم سعد حكم الله فيهم، حيث قال الرّسول (ﷺ) لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

٣- إنّهم كفروا بالإسلام ورسوله حسداً واستكباراً مع علمهم وتعيّنهم بأنّ محمّداً هو الرّسول الّذي بشّر به التّوراة وأخذ منهم العهد أن يؤمنوا به، ويدلّ على ذلك ما ذكر في القصّة أنّ رئيسهم كعب بن أسد قال لهم: يا معشر اليهود إنّه قد نزل بكم ما ترون، وإنّي عرض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيّها شئتم، قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرّجل ونصدّقه، فوالله لقد تبيّن لكم أنّه لنبيّ مرسل، وإنّه للّذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم قالوا: لا نفارق حكم التّوراة أبداً.

٤- أنّهم كانوا مخبرين بنبيّ الإسلام والقتل إن لم يسلموا، ومن أسلم منهم لم يقتل، بل ومن طلب الأمانة لم يقتل، بدليل أنّ ثعلبة بن سجية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد أسلموا تلك اللّيلة الّتي نزلوا على حكم رسول الله (ﷺ)، فسلموا من القتل والسّلب وقبل إسلامهم، وقد عفى الرّسول عن زبير بن باطا ووهب له أهله وماله وولده حينما استأمنه ثابت بن قيس إلّا إنّ الزّبير أبى إلّا أن يقتل ولم يرض بهذه الأمانة كما مرّ في القصّة. ووهب رسول الله (ﷺ) رفاعة بن سموأل القرظي لسلمى بنت قيس وعفى عنه، فتبيّن من ذلك أنّ أي واحد منهم أسلم أو ائتمنه مسلم أو طلب الأمانة لم يكن ليقتل إلّا أنّهم لم يفعلوا واحداً من هذه الأمور، وما رضوا إلّا بالقتل عناداً واستكباراً.

٥- إنّهم نقضوا العهد والميثاق الّذي كان بينهم وبين الرّسول (ﷺ) في أحرج الأوقات وأشدّ الأحوال، وخانوا الله ورسوله والميثاق[1].

٦- إنّهم كانوا مصرّين على عداوة الرّسول (ﷺ) والإسلام ما بقي فيهم الحياة وما استطاعوا ذلك وبكلّ ما يملكون من وسائل، فإنّه كما مر في القصّة أنّهم أتوا بحييء بن أخطب ليقتل، فلمّا نظر إلى رسول الله (ﷺ) قال: أما والله ما لمت نفسي على عداوتك.

٧- إنّهم ما كانوا يريدون إلّا استئصال المؤمنين ورسولهم، فمن أراد استئصالك أفلا تستأصله؟ قل: بلى وربّي، فحقّاً كان ما فعل بهم الرّسول (ﷺ) وعدلاً، وما ظلمناهم بل كانوا أنفسهم يظلمون.

* * *

ثمّ إنّه بعدما قضى المسلمون على بني قريظة وأصبحت أموالهم وأملاكهم كلّها للمسلمين ومن قبلهم، أجلي بنو قينقاع وبنو النّضير وبقيت أموالهم للمسلمين، ووسّع الله تعالى الرّزق على المؤمنين ووهبهم رغداً في العيش، وكان بيد الرّسول (ﷺ) أموال كثيرة كان له الحقّ في صرفها على نفسه وأهله، فكان بإمكانه أن يعيش عيشة الملوك إلّا أنّ الرّسول (ﷺ) حينما أخبره الله بين أن يكون نبيّاً ملكاً أو نبيّاً مسكيناً؟ استشار جبريل (ﷺ) فأشار عليه أن يكون نبيّاً مسكيناً، فاختار الرّسول (ﷺ) المسكنة، واختار الشّظف في العيش والكفاف، وكان يدعو دائماً ويقول: اللّهم اجعل رزق آل محمّد كفافاً[١]، فكان يكتفي بما يقي من الحرّ والقرّ ويستر العورة وما يدفع العطش ويسدّ الجوع، ويصرف ما زاد على ذلك على المسلمين وحوائجهم ومصالح الإسلام، هذا من جانبه، ومن الجانب الآخر رأت نساؤه الطّاهرات أنّ الرّسول (ﷺ) أصبح بجانب نبوّته

(١) لو فرضنا أن اليهود بعد نقضهم العهود مع النبي واتفاقهم مع المشركين قدّر لهم النّصر على المسلمين ونبيّهم آنذاك مع ما في قلوبهم وقلوب المشركين آنذاك من الغيظ والحقد لقاموا حتما بقتل النّبيّ ورجاله وسبي نساء المسلمين وأطفالهم غدرا وخيانة، فهم قد نقضوا العهد مع النّبيّ واتّفقوا مع المشركين لضربه من الخلف والمشركون من الأمام في أحرج الأوقات وأضعف حالة احتياج المسلمين إلى الحفاظ على مواثيق المواطنة والتّناصر التي كانت بينهم، فغدروا بهم للقضاء عليهم لا ليسلموهم. فالعدل أن يفعل بهم مثل ما عزموا على فعله قصاصا وكنتيجة معتادة للحرب آنذاك لا خيانة ولا غدرا، لأنّه بعد أن أراد اليهود عدّة مرات قتل النّبيّ والقضاء على دينه وأمّته لم يبق مجال للعفو عنهم لأنّهم كما قال الله تعالى (ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه).

(٢) صحيح ابن حبان ١٤/ ٢٥٤ الحديث رقم ٦٣٤٣.

ملكاً، ورأين في يده من الأموال ما يجعل في وسعه التّرفيه عليهم، فلماذا يبقين يعشن عيشة المساكين، فطلبن من الرّسول (ﷺ) الزّيادة في النّفقة والتّوسيع في الرّزق والتّرفيه في الطّعام والحلي والملابس، وأن يعشن عيشة أزواج الملوك، أليس زوجهن ملكاً؟ أو عيشة المترفين أليس زوجهن غنيّاً، ولكنّ الرّسول (ﷺ) لم يستجب لهنّ طلبهن ولم يلب رغبتهنّ، فهو رسول يريد الله والآخرة ومصلحة الإسلام، وليس ملكاً يريد الدّنيا وزينتها ومصالحه الشّخصية، ونتيجة الإلحاح من نسائه في هذا الطّلب ضاق صدر الرّسول (ﷺ) وغضب عليهن، وفي هذا الأثناء والرّسول في هذه الحالة من مضايقة النّساء له أقبل أبوبكر يستأذن على رسول الله (ﷺ) فلم يؤذن له، وأقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له، ثمّ أذن لهما فدخلا والنّبيّ (ﷺ) جالس ونساؤه حوله وهو ساكت، فقال عمر في نفسه لأكلّمنّ النّبيّ (ﷺ) لعلّه يضحك فقال: يارسول الله يا رسول الله ! لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النّفقة آنفاً فوجأت عنقها، فضحك الرّسول (ﷺ) حتّى بدت نواجذه، وقال: هنّ حولي يسألانني النّفقة، فقام أبوبكر ليضرب عائشة، وقام عمر إلى حفصة ليضربها، وكلاهما يقول: تسألان النّبيّ (ﷺ) ما ليس عنده، فمنعهما الرّسول من ضربهما، وتدخّل الوحي في الأمر ونزلت هذه الآيات الّتي فيها يقول الله جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾

(**ياأيّها النّبيّ قل لأزواجك**) جواباً لطلبهنّ زينة الدّنيا وكانت تسعاً (**إن كنتنّ تردن**) اللّذائذ والتّرف في (**الحياة الدّنيا وزينتها**) من الحلي والملابس الفاخرة (**فتعالين أمتّعكنّ**) أي أعطيكنّ متعة الطّلاق وهي مال يعطي الرّجل زوجته بعد الطّلاق (**وأسرّحكنّ**) أي وأطلّقكن بعد ذلك (**سراحاً**) طلاقاً (**جميلاً**) وهو الطّلاق السّني،وقد ذكرنا الطّلاق السّني في سورة الطّلاق، فإنّي رسول الله ولا يليق بي ولا بأهلي الدّخول في زينة الدّنيا والتّرفه فيها، وإنّما يليق بنا السّتر والكفاف والعفاف (**وإن كنتنّ تردن الله**) أي رضاء الله (**ورسوله**) أي وصحبة رسوله (**والدّار الآخرة**) والنّعيم فيها في الجنّة فاقنعن بحالكنّ هذا (**فإنّ الله أعد للمحسنات**) هيّأ للمحسنات منكنّ (**أجراً عظيماً**) في الآخرة وهنّ من

أقتنعن بالكفاف واختيار رضا الله والرّسول والآخرة على الدّنيا وزينتها، فلمّا نزلت الآية بدأ الرّسول (ﷺ) بعائشة فقال لها: إنّي ذاكر لك أمراً ما أحبّ أن تستعجلي فيه حتّى تستأمري أبويك، قالت: ماهو؟ فتلا عليها الآية، فقالت عائشة: أفيك أستأمر أبويّ بل أختار الله ورسوله، ثمّ عرض هذا الأختيار وتلا الآية على باقي نسائه فاختار كلّهنّ الله ورسوله، ولم تختر أيّة واحدة منهنّ فراق رسول الله (ﷺ).

ثمّ بدأ الله تعالى يعظ أزواج النّبيّ (ﷺ) ويفرض عليهن أموراً تليق بجلال مقامهنّ كأزواج للرّسول (ﷺ) وموقفهن كأمّهات للمؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾

(**يا نساء النّبيّ**) الإضافة للتّشريف والتّكريم، وللتّعليل بها لما بعدها، أي حيث أنتنّ نساء النّبيّ ولمقامكنّ هذا فأمركنّ أعظم حيث (**من يأت منكم بفاحشة**) أي بمعصية (**مبيّنة**) ظاهرة (**يضاعف لها العذاب ضعفين**) قيّد بهذا لأنّ المضاعفة تكون بأكثر من مثلين، أي تعذّب مثلي ما تعذّب نساء النّاس؛ وذلك لأنّهنّ قدوة لسائر النّساء، ومن هذا يفهم أنّ عذاب العلماء وأصحاب المناصب الدّينيّة أعظم. كتب أحد الأشراف وهم أولاد فاطمة (رضي الله تعالى عنّا وعنهم) رسالة إلى أحد الخلفاء يعاتبه لما حدث بينهما من جفاف، وكان يتباهى في رسالته بنسبه وأنّه من أحفاد رسول الله (ﷺ)، فكتب له الخليفة جواباً على رسالته: الحسنة حسنة وإن كانت من أهل بيت النّبوّة فأحسَن، والسّيّئة سيّئة وإن كانت من آل العلويّة أشيَن(**وكان ذلك**) أي عذابكنّ يا نساء النّبيّ ضعفين (**على الله يسيراً**) أي سهلاً لا صعوبة فيه (**ومن يقنت منكنّ**) أي يطع الله ورسوله فيما أمرا به (**وتعمل**) عملًا (**صالحاً نؤتها أجرها مرّتين**) أي مثل أجر غيركّن من النّساء، فأجر النّساء مقابل حسنة عشر أمثالها، فيكون أجر نساء النّبيّ مقابل حسنة عشرين (**وأعتدنا لها**) في الآخرة (**رزقاً كريماً**) أي رزقاً كثيراً ومحترماً.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ

ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

(**يانساء النّبيّ**) لكونكنّ نساء النّبيّ ولمقامكنّ هذا المقام الكريم (**لستنّ**) أي ليست كلّ واحدة منكنّ (**كأحد من النّساء**) فأنتن أكرم عند الله تعالى من سائر النّساء (**إن اتّقيتنّ**) الله تعالى وأطعتنّ أوامره، ثمّ بيّن الله تعالى كيفيّة تقواهنّ؛ فقال جلّ وعلا: (**فلا تخضعن بالقول**) لا ترفعن صوتكنّ عند القول والكلام مع النّاس (**فيطمع الّذي في قلبه مرض**) خبث وميل إلى الفجور (**وقلن**) وتكلّمن مع النّاس (**قولاً**) كلاماً (**معروفاً**) اعتياديّاً لا دلال فيه ولا تلطف (**وقرن في بيوتكنّ**) أمر من القرار أي اثبتن في بيوتكنّ (**ولا تبرجنّ**) ولا تخرجن (**تبرجّ الجاهليّة الأولى**) وهو الخروج للتّزهة كاشفات الزّينة والجمال والحلي ومحاسن اللّباس (**وأقمن الصّلاة**) المفروضة عليكنّ (**وآتين الزّكاة**) إذا وجبت عليكن (**وأطعن الله ورسوله**) فيما يؤمر به وفي جميع الطّاعات. وإنّ الله تعالى لا يريد بهذه الأوامر أن يشقّ عليكنّ أو يتّهمكنّ بما لا يليق بكنّ بل (**إنّما يريد الله**) من هذه المواعظ (**ليذهب**) أي ليبعد (**عنكم الرّجس**) وهو الإثم وما لا يليق بمقامكنّ (**أهل البيت**) أي يا أهل بيت رسول الله وأزواجه (**ويطهّركم تطهيراً**) من كلّ ما لا يليق بمقامكنّ (**واذكرن**) أي وتدّبرن في (ما **يتلى في بيوتكنّ من آيات الله**) وطبّقن مضامينها (**والحكمة**) وهي أقوال الرّسول وأفعاله (**إنّ الله كان لطيفاً**) بكنّ (**خبيراً**) بأعمالكنّ فيؤاجركنّ عليها كلّها ولا يخفى عليه شيء منها.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ لأزواج النّبيّ (ﷺ) مثل ما لغيرهنّ من النّساء من الأجر أراد أن يبيّن أجر سائر النّساء الصّالحات فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

(إنّ المسلمين) أي الآتين بأفعال الإسلام **(والمسلمات)** والآتيات بها **(والمؤمنين)** بالإسلام **(والمؤمنات)** به، وذكر الإيمان بعد الإسلام لأنّ الإسلام أعمال ولا عبرة بالأعمال بدون الإيمان، ولا صّحة ولا قبول لها **(والقانتين)** والمطيعين لأمر الله ورسوله **(والقانتات)** والمطيعات كذلك **(والصّادقين والصّادقات)** في الأقوال والعهود والأعمال **(والصّابرين)** على أداء الواجبات واجتناب المنهيّات **(والصّابرات)** على ذلك **(والخاشعين)** والمتواضعين غير المتكبّرين **(والخاشعات)** والمتواضعات **(والمتصدّقين)** من أموالهم على الفقراء والمحتاجين **(والمتصدّقات)** كذلك **(والصّائمين والصّائمات)** ما فرض **(والحافظين فروجهم)** من الحرام **(والحافظات)**، كذلك **(والذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات)** لله كثيراً **(أعد)** هيّأ الله **(لهم)** للذّكور والإناث من هذه الأصناف **(مغفرة)** عن الذنوب **(وأجراً عظيماً)** أي ثواباً عظيماً يوم القيامة في مقعد صدق عند مليك مقتدر، جعلنا الله منهم آمين.

تنبيه: لم يذكر الله المصلّين والمصلّيات؛ لأنّ هذه الأعمال المذكورة تستلزم الصّلاة، أو لأنّ المراد بالخاشعين الّذين يخشعون في صلاتهم، أو المراد بالمسلمين المؤمنون، وبالمؤمنين المصلّون والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يلغي ويقضي على عادة جاهليّة أخرى وهي التّفاخر بالأنساب والتّباهي بها، وقد كان أن خطب رسول الله (ﷺ) زينب بنت جحش الأسديّة بنت أميّة بنت عبد المطلب عمّة النّبيّ (ﷺ) خطبها، لزيد بن حارثة، فقالت زينب: أنا خير منه فلا أرضاه لنفسي، وكذلك كره أخوها عبدالله بن جحش أن تكون زينب لزيد، فأنزل الله هذه الآية فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

(وما كان) وما جاز **(لمؤمن)** كعبد الله بن جحش **(ولا مؤمنة)** كزينب بنت جحش **(إذا قضى الله ورسوله أمراً)** وحكماً **(أن يكون لهم الخيرة)** الاختيار **(من أمرهم)** في شؤونهم، بل يجب عليهم ترك اختيارهم لأمر الله ورسوله، كما قال الرّسول (ﷺ): (لا

يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعا لما جئت به)[1] من كلّ أمر.(**ومن يعص الله ورسوله**) فخرج عن أمرهما (**فقد ضلّ ضلالاً مبيناً**) واضحاً، فلمّا سمعت زينب وأخوها استسلما لأمر الله ورسوله، وجعلت زينب أمرها بيد رسول الله (ﷺ) فزوّجها من زيد ودخل زيد بها، وأرسل رسول الله (ﷺ) عشرة دنانير وستّين درهماً وخماراً ودرعاً وملحفة وخمسين مدّاً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر.

ثمّ أراد الله تعالى أن يطبّق النّاس حكم إلغاء التّبنّي وأراد أن يكون إلغاؤه وتطبيقه قبل كلّ النّاس من شخص الرّسول (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

بعد أن زوّج الرّسول (ﷺ) زينب من زيد، وكان زيد عبداً اشترته السّيدة خديجة ثمّ وهبته لرسول الله (ﷺ)، ثمّ أعتقه وتبنّاه الرّسول (ﷺ)، فمكثت زينب عند زيد حيناً، ثمّ أصبحت تتكبّر على زيد لأنّها من قريش وابنة عمّة الرّسول (ﷺ)، وكانت وضيئة وذات حسن وجمال من أتمّ نساء قريش، فاستنكفت أن تكون زوجة لعتيق، وكان عندها حدّة في الطّبع، فساءت المعاشرة بينها وبين زيد، فأتى زيد رسول الله (ﷺ) وقال: إنّي أريد أن أفارق صاحبتي، فقال الرّسول (ﷺ) له: مالك أرأيت منها شيئا؟ قال: لا والله ما رأيت منها إلّا خيرا ولكنّها تتكبّر عليّ بشرفها وتؤذيني بلسانها، فقال له الرّسول (ﷺ): (أمسك عليك زوجك واتّق الله) في الطّلاق فإنّ الله تعالى لا يحبّ الطّلاق. ثمّ بعد أن رأى رسول الله (ﷺ) إصرار زيد على طلاق زينب وما لذلك من محيص فكّر رسول الله (ﷺ) في زينب أنّها كانت بكرا فأصبحت ثيّبا وأنّها ستصبح مطلّقة، وأكثر الرّجال لا يرغبون في زواج الثّيّبات سيما إذا كانت مطلّقة، فلا شكّ أنّ زينب سينكسر خاطرها ويجرح شعورها، حيث شعرت بغبنها وضياع مستقبلها، وكان

(١) الأربعين النووية ١/ ٥١ الحديث رقم ٩.

السّبب في كلّ ذلك هو رسول الله (ﷺ)، حيث زوّجها زيداً دون رغبتها، فبماذا يجبر كسر خاطرها ويعوّض عنها هذا الغبن الّذي لا غبن فوقه، لأنّ النّساء جلّ همهن هو الحصول على زوج تطيب الصّحبة معه وتحسن معاشرته والحياة معه، فلم يجد لذلك الأمر علاجاً إلّا أن يتزوّج هو بها بعد طلاقها، فيجبر بذلك كسر خاطرها إلّا أنّه مازال يلحّ على زيد ويقول له: (**أمسك عليك زوجك واتّق الله**) فلا تطلّقها فقال تعالى: (**و**) أي واذكر يا أيّها النّبيّ (**إذ**) وقتما (**تقول للّذي أنعم الله عليه**) بالإسلام (**وأنعمت عليه**) بالعتق وهو زيد (**أمسك عليك زوجك واتّق الله**) فلا تطلّقها (**وتخفي في نفسك**) بأنّه لا محيص لزيد من طلاق زينب، وأنّه لا يعوّض غبن زينب ولا يجبر كسر خاطرها إلّا أن أتزوّجها، وإنّ هذا الأمر الّذي كان في نفسك هو (**ما الله مبديه**) فيأمرك بذلك، والسّبب في عدم الإذن لزيد بطلاق زينب أنّه (**وتخشى النّاس**) أن يقولوا إنّ محمّداً تزوّج زوج متبنّاه، ويثيروا بلبلة وإشاعة ضدّك (**والله أحقّ أن تخشاه**) وحده ولا تخش أحداً سواه، فأذن لزيد بطلاقها (**فلمّا قضى زيد منها وطراً**) حاجته من الطّلاق وانقضت عدّتها (**زوّجناكها**) جبراً لكسر خاطرها ثمّ(**لكي لا يكون**) بعد زواجك بزينب (**على المؤمنين حرج**) امتناع ولوم (**في**) نكاح (**أزواج أدعيائهم**) زوجات متبنّيهم (**إذا قضوا منهنّ وطراً**) أي طلّقوهنّ، وبهذه الآية ألغى الله تعالى حكم التّبنّي وجميع آثاره، وطبّق الرّسول (ﷺ) أوّل ما طبّق ذلك **على** نفسه، فلا يبقى **على** مؤمن حرج بعد ذلك في أن ينكح طليقة دعيّه ومتبنّاه (**وكان أمر الله**) قضاؤه بزواجك زينب (**مفعولاً**) منتهياً ومقضيّاً به. فبعد نزول هذه الآية أذن الرّسول (ﷺ) لزيد في طلاق زينب، فطلّقها، فلمّا انقضت عدّتها دخل بها الرّسول (ﷺ) على العقد الّذي قام به الله تعالى.

تنبيه: ذكر المفسّرون في معنى قوله تعالى (تخفي في نفسك ما الله مبديه) ما ذكرنا وفسّرنا به الآية روايتين هما:

الأولى: أنّ رسول الله (ﷺ) أتى بيت زينب يوماً لحاجة، فرأى زينب في درع وخمار، وكانت بيضاء جميلة، فلمّا رآها الرّسول (ﷺ) وقع حبّها في نفسه وأعجبها حسنها، فقال (ﷺ): سبحان الله مقلّب القلوب، وذلك لأنّ زينب حينما خطبها الرّسول (ﷺ) أرادت زينب أن يخطبها الرّسول (ﷺ) لنفسه فأبى، فلمّا جاء زيد ذكرت زينب ذلك لزيد، ففطن زيد ودخل في نفسه كراهيّة زينب، فأتى رسول الله (ﷺ) فقال: إنّي أريد أن أفارق زوجتي، فقال الرّسول (ﷺ): (أمسك عليك زوجك واتّق الله) فيكون المعنى على هذه الرّواية (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) أي تخفي في نفسك حبّ

زينب وحبّ طلاق زيد لها، وحبّ أن تتزوّجها بعد طلاقها. قال بعض العلماء: إنّ هذه الرّواية في نهاية الفساد، ولا يرضى بها إلّا من هو حاقد على الأسلام ومنكر لرسوله. قال في الخازن: وهذا القول فيه إقدام عظيم لمن يقول به، وقلّة معرفة بحقّ النّبيّ (ﷺ) وبفضله، فكيف يقال إنّه رآها فأعجبته وهي بنت عمّته ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كانت النّساء يحتجبن منه، وهو الّذي زوّجها لزيد، فلا شكّ في تنزيه النّبيّ (ﷺ) عن ذلك وكيف يأمر زيداً بإمساكها ويحبّ طلاقها.

وأقول: إنّ صوغ العبارة لا تلائم هذه الرّواية أيضاً، لأنّ الله تعالى لم يذكر شيئاً يشير إلى أنّ الرّسول (ﷺ) أحبّ زينب وأحبّ طلاقها ونكاحه إياها بعد طلاقها، لا يستلزم أنّه أحبّها قبل، بل ربّما تزوّجها لحكمة مثل ما ذكرنا كجبر خاطرها، بل الحكمة كانت إبطال آثار التّبنّي كما قال تعالى: لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ....الخ) وقوله: (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) ليس نصاً في أنّ ما أخفاه هو حبّ زينب وتزوّجها، بل ربّما كان إرادة تزوّجه بها جبراً لخاطرها لا حبّاً لها، ولو أريد بقوله(سبحان الله مقلّب القلّوب) كما في الرّواية، لقال ما الله أبداه لا ما الله مبديه، والله تعالى أعلم.

الثّانية: إنّ الله تعالى أعلم رسوله وألهمه بأنّه يتزوّج زينب بعد طلاق زوجها، وتكون إحدى زوجاته إبطالاً لاثار التّبنّي، وإنّ الرّسول (ﷺ) كان يخفي هذا الّذي كان في نفسه، ويقول لزيد: (أمسك عليك زوجك واتّق الله)، وردّ هذه الرّواية بأنّ إعلام الله رسوله (ﷺ) وإلهامه إيّاه شيئاً أمر بذلك الشّيء، فليس من المعقول أن يخفي الرّسول (ﷺ) ما أمره الله تعالى به أو يماطل في تنفيذه، فالرّأي الّذي يليق بمقام الرّسول (ﷺ) هو ما فسّرنا به الآية، وهو أنّ الرّسول (ﷺ) قرّر أنّه إن أصرّ زيد على طلاق زينب وطلّقها فإنّه يتزوّجها جبراً لخاطرها وتعويضاً لغبنها؛ لأنّه هو الذّي كان سبباً لزواجها من زيد، وهذا الرّأي لم يذكره أحد من المفسّرين والمفكّرين فيما أعلم، وإنّما ابتكره نظام الدّين عبدالحميد الأستاذ المساعد في كليّة الشّريعة ببغداد في مقال نشره في مجلّة الرّسالة الإسلاميّة الّتي تصدرها وزارة الأوقاف في عددها (٢٠٣) سنة ١٤٠٨هـ، واخترت هذا الرّأي لأنّه أليق بمقام الرّسول (ﷺ) وباركت في الأستاذ حينما أبدى هذا، فجزاه الله تعالى خيراً.

* * *

تنبيه آخر: إنّ الرّواية الأولى رويت عن جماعة من التّابعين والمفسّرين الكبار وأهل العلم والصّلاح، فإن صحت هذه الرّواية عن الرّسول (ﷺ) فلا يقدح شيئاً في عظمة الرّسول (ﷺ) وفضله كما أقام البعض القيامة على هذه الرواية، فإنّ كلّ ما في الأمر أنّ الرّسول (ﷺ) أحبّ زينب وأحبّ أن تطلّق من زيد فيتزوّجها، وأنّ هذا الأمر لا يقدح في شيء من فضل الرّسول (ﷺ) وعظمتهن بل على العكس يدلّ على نزاهتة وفضله، فإنّ الرّسول (ﷺ) وإن كان رسولاً فإنّه بشر (قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد) والبشر مهما بلغ من العظمة لا يخلو عن طبعه البشري، فيعتريه الحبّ والغضب والألم والجوع والمرض والحرّ والقرّ، وإنّ هذه الأمور لا إثم فيها ولا نقص، فالحبّ شيء يخلقه الله في قلب كلّ أحد، وكذلك البغض وجميع الصّفات الجبليّة، ولا يأثم العبد بهذه الصّفات الجبليّة والضّرورية، فلا يأثم من أحبّ امرأة وأحبّ نكاحها، وإنّما يأثم إذا ساقه هذا الحبّ إلى فعل ما نهى الله عنه، كأن يحاول أن يختلي بها أو يمسّها إلى غير ذلك من الأفعال المنهي عنها والّتي تنشأ من الحبّ أو الهوى، وأمّا حديث النّفس والحبّ فلا إثم فيهما، بل إنّ من أحبّ فعفّ يثاب على ذلك ثواب الصّبر وكفّ النّفس عن المعاصي خوفاً من الله تعالى واتّباعاً للدّين والشّريعة، وتمسّكاً بالطّهر والعفاف، والرّسول (ﷺ) لو فرض أنّه أحبّ زينب فلم يرتكب ما يخالف عظمته فإنّه بعد أن رأى زينب وأعجبته قال: سبحان الله وخرج من البيت فوراً ولم يحاول للقاء زينب مرّة أخرى، ولم يحاول أيضاً لأنّ يطلقها زيد بل على العكس كان كلمّا يأتيه زيد ليطلّقها ينصحه ويمنعه من الطّلاق ويقول له: (أمسك عليك زوجك) فلمّا أصرّ زيد على الطّلاق وعلم الرّسول (ﷺ) أنّه لا مناص لزيد من الطّلاق وأمره الله تعالى بإذنه لزيد أن يطلّق زوجته، فبعد كلّ هذه المحاولات ضدّ رغبة نفسه وحبّه لزينب وفق الرّواية، وبعد أمر الله تعالى بذلك أذن له في الطّلاق، فزاد الرّسول (ﷺ) بذلك عظمة وأجراً، حيث خالف نفسه ولم يعمل شيئاً يوافق رغبته وحبّه، بل خالف وعفّ. وأمّا الرّواية الثّانية أيضاً فلا يقدح في فضل الرّسول (ﷺ) فإنّه لو فرضنا صحّة الرّواية وأنّ الله أعلمه أنّ زينب ستكون إحدى زوجاته، فليس معناه أنّ الأمر مستعجل جدّاً فيجب على الرّسول المبادرة في ذلك، وتحريض زيد على الطّلاق فوراً، بل يحتمل أنّه كان مأموراً بزواجه بعد هذه المحاولات والنّصائح لزيد في إمساكه على زوجته، فإنْ أبى زيد إلّا الطّلاق فليتزوّجها إبطالا لآثار التّبنّي؛ فإنّ الرّسول (ﷺ) كما قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى * إن

هو إلّا وحي يوحى﴾[١] فتسويف الرّسول (ﷺ) في الأمر وقوله (ﷺ) لزيد كلّ مرّة (أمسك عليك زوجك واتّق الله) كلّ ذلك بأمر من الله تعالى (وما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى) فلا داعي إذن إلى إقامة القيامة على من قال بإحدى الرّوايتين وتشديد النّكير عليه. إلّا أنّ المحقّقين من المحدّثين كذّبوا الرّواية الأولى فلا يجوز الاعتماد عليها ابداً.

* * *

ثمّ بعد أن طلّق زيد زينب وتزوّجها الرّسول (ﷺ) أثيرت ضدّ الرّسول الكريم محمّد(ﷺ) شائعتان:

الأولى: إنّ المنافقين وضعفاء الإيمان كانوا يقولون ما بال محمّد يكثر من النّساء ويتزوّج كلّ يوم امرأة، فكلّ همّه الزّواج والنّكاح والنّساء، وهو يدّعي أنّه نبيّ ورسول، فإذا كان كما يقول فلماذا لا يترك النّساء ولذائذ الدّنيا فقال تعالى تبرئة لساحة الرّسول محمّد (ﷺ) وردّا على قول المنافقين، فقال جلّ وعلا:

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

(**ما كان على النّبيّ من حرج**) أي إثم ولا لوم (**في**) أن يفعل (**ما فرض الله**) أي قدّر الله وأباح (**له**) من لذائذ الدّنيا والتّمتّع بالنّساء وفيما أباح الله تعالى له، وإنّ هذا الأمر من تمتّع الأنبياء بما أباح لهم من النّساء ليس أمراً جديداً قام به محمّد (ﷺ) بل إنّه كان (**سنّة الله**) أي عادته وأمره (**في**) الأنبياء (**الّذين خلوا**) مضوا (**من قبل**) من قبل محمّد (ﷺ) فكانوا يتزوّجون عدداً كثيراً من النّساء بإذن الله وأمره، ومحمّد يفعل هذا ويتزوّج مثلهم بإذن الله تعالى وأمره، فلا حرج ولا لوم عليه (**وكان أمر الله**) أي فعله وتقديره في زواج النّبيّ بهذه النّساء (**قدراً**) أي أمراً (**مقدوراً**) من الله تعالى فقضى به وحكم. ثمّ وصف الله تعالى الّذين خلوا فقال: (**الّذين يبلّغون رسالات الله**) وهم

---

(١) النجم الآيتان: ٣و٤ .

الأنبياء (**ويخشونهم**) أي يخشون الله تعالى (**ولا يخشون أحداً إلّا الله**) أي لا يخشون غير الله تعالى، فلا يبالون بلوم النّاس، فلا تبالي أنت يا محمّد بإشاعات النّاس ولومهم (**وكفى**) واكتف (**بالله**) وحده (**حسيباً**) رقيباً لك ولأعمالك، ولا تضرّك رقابة النّاس مادام سيرك وعملك موافقاً لأمر الله تعالى وإذنه، وهذا خطاب لكلّ مسلم، فعلى المسلم أن لا يخاف لوم أحد ما دام عمله موافقاً لأمر الله تعالى، وأن لا يخشى إلّا الله تعالى، فإنّ كلّ الأمور بيده وليس في يد أحد وقدرته شيء.

الثّانية: أنّهم قالوا محمّد تزوّج حليلة إبنه وهو زيد، فكيف فعل ذلك، وقد حرّم الله تعالى حلائل الأبناء فقال جلّ وعلا:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

(**ماكان محمّد**) بن عبد الله بن عبد المطلب (**أبا أحد من رجالكم**) لا زيد ولا غيره، فليس له ابن حتّى يكون هو أباه، وليس نسبته إلى أحد نسبة الأبوّة والبنوّة (**ولكنّ**) نسبته إليهم أنّه كان (**رسول الله**) إليهم يجب عليهم أن يطيعوه، وأن كلّ أعماله وأقواله من الله تعالى، وأنّه لا يخالف أمر الله في شيء (**وخاتم**) بفتح التّاء وكسرها أي ختم الله به (**النّبيين**) فلا يأتي بعده أحد نبيّاً، ولهذه الحكمة لم يرزقه الله ولداً ذكراً حيّاً بلغ مبلغ الرّجال لئلا يتّخذه النّاس نبيّاً لأنّه ابن نبيّ (**وكان الله بكلّ شيء عليماً**) فعلم أنّ زيداً ليس ابنه، وإنّ المتبنّى لا يكون إبناً للمتبنّي، ولذلك أباح للرّسول وغيره أن يتزوّجوا من أزواج متبنّاهم والله تعالى أعلم.

ثمّ أمر الله تعالى المؤمنين أن يذكروه ويعظّموه شكراً على إرساله هذه الأحكام وهذا الدّين القوي؛ فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

(**يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً**) شكراً على ما أولاكم من الهداية إلى

دينه القويم ومنهجه المستقيم **(وسبّحوه)** أي نزّهوه واعترفوا بنزاهته عن الجور والخطأ في الأحكام **(بكرةً وأصيلاً)** أي دائم الأوقات لأنّ ذكر طرفي الشّيء يدلّ على كلّه ويراد منه جميعه، فسبّحوه وعظّموه واشكروه لأنّه **(هو الّذي يصلّي عليكم)** أي يرحمكم ويبيّن لكم أحكامه **(وملائكته)** يترحّمون عليكم بإتيانهم بهذه الأحكام إلى رسول الله (ﷺ) **(ليخرجكم من الظّلمات)** أي ظلمات الأعراف والتّقاليد الجاهليّة الفاسدة **(إلى النّور)** نور الشّريعة السّمحاء والأحكام الإلهيّة النّاصعة **(وكان)** الله تعالى يوم القيامة **(بالمؤمنين رحيماً)** فيدخلهم الجنّة ويغفر لهم **(تحيّتهم)** من الله تعالى ومن الملائكة وفيما بينهم **(يوم يلقونه)** أي يلقون الله تعالى **(سلام وأعدّ لهم أجراً كريماً)** أي ثواباً محترماً جدّاً.

ثمّ أمر الله تعالى رسوله أن يبلّغ شريعته ويتوكّل عليه وأن لا يهتم بالكافرين والمنافقين، فلا يمنعه من الدّعوة إلى هذا الدّين وتبليغه دعاياتهم السّيئة ومكايدهم الدّنيئة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾

(يا أيّها النّبي إنّا أرسلناك) لتكون **(شاهداً)** على هؤلاء النّاس أنّهم آمنوا أو كفروا **(ومبشراً)** للّذين يؤمنون بسعادة الدّارين **(ونذيراً)** للّذين يكفرون بعذاب الله تعالى في الآخرة أو في الدّنيا والآخرة جميعاً **(وداعياً إلى)** العمل بدين **(الله)** وشريعته وتوحيده في التّكوين والتّشريع، فتدعو النّاس إلى دين الله **(بإذنه)** أي بإذن الله تعالى وأمره **(وسراجاً منيراً)** طريق الحقّ ومبيناً له **(وبشر المؤمنين)** والتّابعين لهذا الدّين **(بأنّ لهم من الله)** تعالى **(فضلاً كبيراً)** في الدّنيا بالعزّة والسّيادة، وفي الآخرة بالجنّة والسّعادة **(ولا تطع الكافرين والمنافقين)** فتميل إلى أحكامهم أو تتكاسل عن الدّعوة لأجلهم **(ودع أذاهم)** لك وللمؤمنين، ولا تقابل السّيئة بالسّيئة **(وتوكّل على الله)** في نصرك عليهم وإذلالهم **(وكفى)** واكتف **(بالله وكيلاً)** حفيظاً لك ولمن معك من كيد الأعداء والكافرين.

سؤال: إنّ السّورة مدنيّة وفي المدينة فرض الجهاد، فكيف قال تعالى: **(ودع أذاهم)**؟

الجواب: إنّ القتال إنّما ينشأ مع من يقاتل، وهؤلاء الكافرون لم يقاتلوا، وإنّما

كانوا يؤذون الرّسول والمؤمنين بالنّفاق والإشاعات ضدّه، فأمر الله تعالى رسوله أن يصبر عليهم، فإنّ الله يخذلهم أو يهديهم، فكان كما قال فاهتدى بعضهم، وبعضهم ماتوا وتطهّرت المدينة منهم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أحكاماً أخرى فبعضها متعلّق بالمؤمنين كافّة، وبعضها متعلّقة بالرّسول خاصّة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) بالإسلام واعتنقوه ديناً **(إذا نكحتم المؤمنات)** القيد لموافقة العادة، لأنّ العادة والغالب أن لا ينكح المؤمن إلّا مؤمنة، وإلّا فالحكم يشمل الكتابيّة أيضاً **(ثمّ طلّقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ)** أي قبل الجماع معهن **(فمالكم عليهنّ من عدّة تعتدّونها)** فلهنّ التزوّج بعد الطّلاق فوراً **(فمتّعوهن)** أي أعطوهن المتعة حينما طلّقتموهنّ، والمتعة بعض من الأموال يجب على الزّوج أن يعطي للزّوجة بعد طلاقها وقدرها حسب اجتهاد القاضي وتقديره **(وسرّحوهن)** أي طلّقوهن إذا أردتم الطّلاق **(سراحاً جميلًا)** أي من غير إلحاق ضرر أو أذى بهن.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أحكاماً خاصّة بالنّبيّ (ﷺ)، فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾﴾

هذه الآية نزلت بعد ما حرّم الله تعالى على المؤمنين أكثر من أربع نسوة، وكان

للرّسول (ﷺ) تسع نسوة، فاستثنى الله تعالى النّبيّ (ﷺ) من هذا الحكم لحكمة نذكرها بعد تفسير الآية إن شاء الله تعالى.

(**يا أيّها النّبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك الّتي آتيت أجورهنّ**) أي مهورهنّ (و) أحللنا لك ماملكت يمينك إيّاهن (**ممّا أفاء الله**) أي ردّها عليك فيئاً وغنيمة، حيث كانت عنده جاريتان مارية وريحانة، وهذه الأزواج هنّ من أقربائك (**وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك**) وهنّ (**اللّاتي هاجرن**) من مكّة (**معك**) أي اتّباعاً لك، فـ (مع) لأداء معنى الاتباع لا لاتّحاد زمان هجرتهنّ لهجرته (**وامرأة مؤمنة إن**) هي إن المخفّفة من الثّقيلة، فتكون بمعنى قد، أي وامرأة مؤمنة قد (**وهبت نفسها للنّبيّ**) بدون صداق (**إن**) مخففّة أيضاً، فيكون بمعنى قد، أي قد (**أراد النّبيّ أن يستنكحها**) بقرينة أن بفتح الهمزة في قراءة، وكانت عنده امرأة بدون صداق، وهبت نفسها للنّبيّ (ﷺ) (**خالصة**) أي إنّ تلك الأحكام من الزّيادة على أربع وجواز الزّواج بدون صداق كانت خالصة (**لك**) أيّها النّبيّ وخاصّة بك (**من دون المؤمنين**) وكأنّ قائلاً يقول فهذا حكم النّبيّ (ﷺ) فما هو حكم المؤمنين؟ فقال تعالى: (**قد علمنا**) أي بيّنا في سورة أخرى وآيات أخر (**ما فرضنا على المؤمنين في**) حقّ (**أزواجهم**) من عدم الزّيادة على الأربع وعدم جواز الخلوّ عن الصّداق (**و**) في حقّ (**ما ملكت أيمانهم**) بشرط أن تستبرئ الأمة، وبشرط أن تكون مسلمة أو كتابيّة، وأمّا المشرك فلا تجوز له، وأحللنا لك أيّها النّبيّ ما ذكر (**لكي لا يكون عليك حرج**) مشقّة في ترك بعض الأزواج وإبقاء البعض (**وكان الله غفوراً**) للمؤمنين، عمّا سلف منهم من تعدّد الزائد على الأربع (**رحيماً**) ولرحمه غفر لا لأمر آخر.

وهنا مسائل:

الأولى: الحكمة في تخصيص الرّسول (ﷺ) بجواز أكثر من أربع من النّساء تكمن في أمور:

الأوّل: أنّه حينما خيّرهن الرّسول (ﷺ) بأمر من الله تعالى بين طلب رضاء الله والرّسول، والبقاء مع الرّسول في شظف من العيش، وبين الدّنيا وزينتها وطلاق الرّسول إيّاهن اختارت كلّهن رضاء الله تعالى ورسوله والبقاء معه، وتركن الدّنيا وزينتها، فلذلك أباح الله بقاءهنّ مع الرّسول تكريماً لهنّ.

الثّاني: أنّهن أصبحن أمهات للمؤمنين، وحرّم على سائر النّاس نكاحهنّ، فلو أمر

الله تعالى رسوله (ﷺ) بترك بعضهنّ وإبقاء الأربعة فقط، لوقعت المتروكات في بؤس شديد وحالة مؤسفة دون زوج ولا معيل.

الثّالث: أنّ الرّسول (ﷺ) تزوّج كلّ واحدة منهنّ لمصلحة، فلو ترك بعضاً منهنّ لفاتت المصلحة الّتي كانت متعلّقة بنكاحهنّ.

الرّابع: أنّ نساء النّبيّ (ﷺ) كانت كلّ واحدة منهنّ مساعدة للرّسول (ﷺ) في تبليغ الأحكام الشّرعية والمواعظ إلى النّساء، فلو ترك واحدة منهنّ لصار نقص من المساعدات ونقصت مصلحة التّبليغ للنّساء.

هذه ما أعلم من الحكم حول تجاوز زوجات الرّسول على الأربع، ولو فرضنا أنّه لم يكن هناك كلّ حكمة، فالله يحكم مايشاء ويفعل ما يريد، وإنّ ذكر الحكم إنّما هو لضعفاء الإيمان، وإلّا فالمؤمن الكامل لا يحتاج إلى التّفتيش عن الحكم، بل يقف عند النّص ويقول: ﴿آمنّاً بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبّنا وَمَا يَذَكَّرُ إلّا أولو الأَلْباب﴾ سورة آل عمران الآية/ ٧.

المسألة الثّانية: أثار الكافرون والحاقدون على الرّسول الكريم محمّد (ﷺ) سيّما المستشرقين والمبشّرين إشاعة ضدّ الرّسول (ﷺ) بأنّه كان رجلاً شهوانياً وغلبت عليه الغريزة الجنسيّة، ولذا تزوّج هذا العدد الكثير من النّساء. هذا القول ضلال كبير وافتراء على الرّسول (ﷺ) يكذّبه تأريخ الرّسول (ﷺ) وسيرته، حيث ثبت أنّه (ﷺ) كان يتنزّه بشبابه عن نزوات الشّباب ومجونه، فلم يرو في حقّه قطّ حتّى من الأعداء الألدّاء له أنّه قصد يوماً مكاناً من الأماكن الّتي كان يرتادها فتيان مكّة، فلو كان صدر منه شيء من ذلك لتكلّم أعداؤه في حقّه وأشاعوه لإبعاد النّاس عنه، وقد تزوّج السّيدة خديجة وهو في الثّالث والعشرين من عمره، وبقي معها ثمان وعشرين سنة سبع عشرة منها قبل النّبوّة وإحدى عشرة بعدها، ولم يحاول في هذه المدّة الطّويلة في التّزوج بإمرأة أخرى بالرّغم من أنّه كان في وسعه أن يتزوّج بمن شاء من بنات الأشراف ذوات الحسب والحسن والجمال، فيدلّ ذلك على أنّه لم يكن شهوانيّاً همّه النّساء والزّواج، وبعد وفاة السّيدة خديجة وقد وصل عمره أكثر من خمسين سنة،وذهب أكثر قوّته الجنسيّة ما تزوّج إلّا من ثيّبات أشرفن على الشّيب سوى السّيدة عائشة (ﷺ)، فلو كان نكاحه منهنّ للجنس لتزوّج الأبكار والشّابات ولم يتزوّج شيخات لا يرغب فيهنّ الرّجال عادة، فدلّ ذلك على أنّه لم يتزوّج أي إمرأة إلّا لمصلحة دينيّة وإنسانيّة في زواجها، ولذا نذكر

الحكمة في زواجه لكلّ إمرأة تزوّجها، وأنّه لماذا تزوّجها؟ فنقول:

١. تزوّج بعد وفاة السّيدة خديجة (رضي الله عنها) سودة بنت رفعة، وهي من السّابقين إلى الإسلام،حيث أسلمت هي وزوجها سكران بن عمرو تحمّلا من قريش أذىً كثيراً، فهاجرا إلى الحبشة فسمعا أنّ قريشاً تخلّت عن مضايقة المستضعفين فعادا إلى مكّة ووجدا قريشاً على حالها السيّئ ضدّ المسلمين، فمات زوجها وبقيت حزينة كاسفة الحال والبال فقرّر الرّسول (صلى الله عليه وسلم) مواساتها فتزوّجها وأزال عنها ما كانت فيه من غمّ وآتاها شرف أمومة المؤمنين.

٢. تزوّج عائشة بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما إكراماً لوالديها لما كان لهما من التّضحيات في سبيل العقيدة والعمل لإعلاء راية الإسلام.

٣. تزوّج حفصة بنت عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنهما بعدما استشهد زوجها في معركة بدر، فحزنت هي وأبوها حزنا شديداً، فخفّف بل أزال حزنهما بزواجه من حفصة إكراماً لعمر ومجازاةً لبنتها وإزالة لحزنها.

٤. في السّنة السّادسة من الهجرة وقعت معركة بين المسلمين وبين بني المصطلق، فوقع جويريّة بنت الحارث زعيم بني المصطلق في الأسر، فأتت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تطلب المال في الفداء، فأراد الرّسول أن يكرمها ليأتلف قومها فتزوّجها، ولمّا علم المسلمون بذلك قالوا أصهار الرّسول أسرّاء عندنا، فأعتق كلّهم من عنده أسرى بني المصطلق، فجاء أبوها ولمّا سمع بهذا التّكريم أسلم وأسلم معه قومه كلّهم، ولذا قالت السّيدة عائشة (رضي الله عنها): ما أعلم إمرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويريّة.

٥. تزوج من أمّ حبيبة بنت أبي سفيان حيث إنّها أسلمت مع زوجها عبد الله بن جحش، وهاجرت هي وزوجها إلى الحبشة فراراً من إيذاء قريش، فارتدّ زوجها هناك وتنصّر وبقيت هي مصرّة على الإسلام، فافترقت عن زوجها فبقيت محزونة دون صاحب ومعيل، فلمّا علم الرّسول (صلى الله عليه وسلم) حالها بين زوج مرتدّ وأب مشرك، كتب إلى النّجاشي أن يزوّجها له إزالة لوحشتها، ولمّا وصلها الخبر كادت تطير فرحاً بهذا التّكريم، فزوّجها النّجاشي من الرّسول (صلى الله عليه وسلم) وأصدقها من ماله.

٦. تزوّج زينب لما ذكرنا لتعويضها عن الغبن الّذي وقعت فيه من زواجها من زيد وطلاقها منه، وكان تفتخر على ضرّاتها وتقول: إنّكنّ كلّكنّ زوّجكنّ أولياؤكنّ من الرّسول (صلى الله عليه وسلم) ولكنّي زوّجني الله من رسوله(صلى الله عليه وسلم).

٧. تزوّج صفيّة بنت حييء بن أخطب رئيس بني النّضير، سباها من خيبر، وكانت زوجاً لأحد رؤسائها، فتكريماً لنسبها وحسبها وتطييباً لقلبها أعتقها ثمّ تزوّجها.

وهكذا كان زواجه لكلّ واحدة من أمّهات المؤمنين لمصلحة اجتماعيّة أو سياسيّة أو إحسان إلى من يستحقّه، ولم يكن لقضاء داعية الجنس، فلو كان لذلك لما تزوّج من تلك الأرامل المتروكات، وقد كان الزّواج حلالًا بدون حدّ لعدد الأزواج إلى أن حدّد الله الزّواج من أربع، فأبقى الله تعالى أزواجه له لما ذكرنا، وأحلّهنّ له ومنع منه الزّواج بعد ذلك من أيّ امرأة كانت كما يأتي ذلك في الآية الثّانية بعد هذه الآية.

المسألة الثّالثة: كان لرسول الله (ﷺ) خصائص فقد فرض عليه أشياء لم تفرض على غيره من الأمّة وحرّمت عليه أشياء لم تحرم على غيره، وأبيحت له أشياء لم تبح لغيره.

فإن ما فرض عليه فتسعة:

١- التّهجّد باللّيل.

٢ ـ صلاة الضّحى.

٣- الأضحية.

٤ ـ الوتر.

٥ ـ السّواك.

٦ ـ قضاء دين من مات معسراً.

٧- مشاورة ذوي العقول في غير الشّرائع.

٨- تخيير النّساء بين الطّلاق والبقاء معه.

٩ ـ إذا عمل أثبته وندبه للنّاس.

وأما ماحرم عليه فعشرة:

١- تحريم الزّكاة عليه وعلى آله.

٢ ـ صدقة التّطوع لا يجوز له أخذه.

٣- خائنة الأعين وهو أن يظهر غير ما يضمره.

٤- أن يضع لامّته أي ثياب الحرب إذا لبسه.

٥ ـ الأكل متّكئاً.

٦- أكل الأطعمة الكريهة الرّائحة.

٧- التّبدل بأزواجه بأن يطلّق واحدة ويتزوّج مكانها أخرى.
٨- نكاح امرأة تكره صحبته.
٩ ـ نكاح الحرّة الكتابيّة.
١٠- نكاح الأمة مطلقاً.

وأما ما أُحلّ له لا لغيره فهي خمسة عشر:

١ ـ صفيّ المغنم.
٢ ـ الاستبداد بالخمس أو خمس الخمس.
٣ ـ الوصال وهو صوم يومين بدون تخلّل إفطار بينهما.
٤- الزّيادة على أربع نسوة.
٥- النّكاح بلفظ الهبة.
٦- النّكاح بدون وليّ ولا شهود.
٧- النّكاح بدون صداق.
٨ ـ جواز نكاحه في الأحرام.
٩ ـ جعل الإنعتاق صداقاً لمن يتزوّجها.
١٠- دخول مكّة بغير إحرام (في حقّنا فيه خلاف).
١١- جواز القتال في مكّة.
١٢- لا يرث ولا يورث.
١٣- بقاء زوجيّته على أزواجه بعد وفاته.
١٤- إذا طلق إمرأة تبقى حرمته عليها فلا تزوّج من أحد.
١٥- سقوط القسم بين أزواجه عنه.

* * *

قال جلّ وعلا:

﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ

لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾

(ترجى) أصله ترجئ من الإرجاء بمعنى التّأخير أي تؤخّر **(من تشاء منهم)** من أزواجك في الفراش والمبيت معها **(وتؤوي)** تضمّ **(إليك من تشاء)** منهنّ **(ومن ابتغيت)** طلبتها إلى الفراش **(ممّن عزلت)** اعتزلتها من قبل **(فلا جناح)** فلا إثم ولا حرج **(عليك)** في كلّ ذلك **(ذلك)** التّفويض إلى مشيئتك **(أدنى)** أقرب إلى **(أن تقرّ أعينهنّ ولا يحزنّ)** حيث إن كنت مختاراً فمن ذهبت إليها تعتقد بأنّك ذهبت إليها حبّاً فيها، وإن كنت مأموراً بالذّهاب إليها فتقول: إنّما جاء لأنّه مأمور لا حبّاً في **(ويرضين)** حينما كنت مختاراً **(بما آتيتهنّ كلّهن)** من القسم **(والله يعلم ما في قلوبكم)** من الحبّ **(وكان الله عليماً)** بحال عباده **(حليماً)** لا يعاقبهم فوراً. وبعد نزول هذه الآية لم يبق القسم واجباً على النّبيّ (ﷺ) ولكنّه كان يقسم دائماً ويقول: (يا ربّ إنّ هذا قسمي فيما أملك) وهو الأمور الظّاهرة (ولا تلمني فيما تملك ولا أملك) من الحبّ والميل القلبي. ثمّ بعد أن أحلّ الله تعالى له أزواجه الموجودة عنده، حرّم عليه أن يتزوّج إمرأة أخرى بعد ذلك؛ فقال تعالى: **(لا يحلّ لك)** أيّها النّبيّ **(النّساء)** أي زواجهنّ **(من بعد)** من غير هذه الأزواج **(ولا)** يحلّ لك **(أن تبدّل)** تتبدّل **(بهنّ)** بكلّهن فتطلّقهنّ ولا بواحدة منهنّ فتطلّقها وتتزوّج بدلهنّ أو بدل واحدة منهنّ **(من أزواج)** أخريات **(ولو أعجبك حسنهن)** حسن الأخريات **(إلّا)** أنّه يحلّ لك أن تأخذ **(ما)** جواري **(ملكت)** إياهنّ **(يمينك)** فتتمتّع بهنّ **(وكان الله على كلّ شيء رقيباً)**. وبهذا حرم عليه زواج أي إمرأة كانت بعد، وأباح له أخذ الجواري والتّمتع بهنّ إلّا أنّ الرّسول لم يأخذ بعد ذلك أيّ جارية، وفي الحديث أنّه أبيح له بعد ذلك الزّواج من النّساء أيضاً إلّا أنّه لم يتزوّج بعد ذلك، فهذا ممّا يدلّ على أنّه ما كان يتزوّج النّساء لداعية الجنس، بل حسب المصلحة كما ذكرنا ذلك، والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن كيفيّة دخول بيوت النّبيّ (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ

لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾

قد سبق في سورة النّور أنّ الله تعالى حرّم دخول أحد بيت أحد إلّا بعد الإستئذان وحصول الإذن بالدّخول، ولكنّ لم يزل النّاس يدخلون بيوت النّبيّ (ﷺ) بدون استئذان بصفة أنّه كان نبيّهم، وكانوا يدخلون لتعلّم دينهم، وكان هناك أناس يتمنّون طعام النّبيّ (ﷺ) فيدخلون بيته قبل الطّعام وينتظرون نضجه ليأكلوا منه، وبعد الأكل يبقون ويتحدّثون، فكان ذلك يؤثّر على راحة النّبيّ (ﷺ) فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(**يا أيّها الّذين آمنوا لا تدخلوا**) بيتاً من (**بيوت النّبيّ إلّا أن يؤذن لكم**) بالدّخول فتدعون إلى الطعام، وحينئذ فادخلوا بعد حضور الطّعام (**غير**) داخلين قبل حضور الطّعام فتكونوا (**ناظرين**) منتظرين (**إناه**) نضجه فتأكلوا (**ولكن إذا دعيتم**) إلى بيته (**فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا**) أي دخلتم للطّعام وبعد أن أكلتم فاخرجوا (**ولا**) تبقوا في بيته (**مستأنسين لحديث**) كلام وحكايات يذكرها البعض للبعض (**إنّ ذلكم**) من الدّخول بدون إذن والبقاء الطّويل في بيته قبل الطّعام وبعده (**كان يؤذي النّبيّ**) ويؤثّر على راحته (**فيستحي منكم**) أن يقول لكم اخرجوا (**والله لا يستحي**) لا ينفك (**من**) إعلام (**الحقّ**) وقوله (**وإذا سألتموهن**) أي إذا سألتم أزواج النّبيّ وأهل بيته (**فاسألوهنّ من وراء حجاب**) بينكم وبينهنّ بحيث لا يرى بعضكم بعضاً (**ذلكم**) أي الحجاب (**أطهر**) أدعى للطّهر (**لقلوبكم وقلوبهن**) من أحاديث النّفس و وساوس الشّيطان (**وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله**) ولا يجوز لكم أن تؤذوا الرّسول (ﷺ) بأيّ نوع وفي أيّ حال (**ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده**) من بعد وفاته أو من بعد طلاقه إن حدث، فيحرم نكاحهنّ عليكم (**أبداً**) حرمة مؤبّدة لأنّهن أمّهاتكم، وقد ذكر الله تعالى قبل أنّ أزواج النّبيّ أمّهاتهم إلّا أنّه صرّح هنا بحرمة نكاحهنّ لكي لا يتوهّم النّاس أنّهنّ أمّهات في الإحترام

والتّكريم فقط (**إنّ ذلكم**) أي نكاح أزواج النّبيّ (ﷺ) لو فرض وقوعه (**كان عند الله**) تعالى ذنبا (**عظيماً**) كنكاح الرّجل أمّه بدون فرق (**إن تبدوا شيئاً**) من القول بزواج بعض أزواج النّبيّ (ﷺ) (**أو تخفوه**) فتنووا بذلك في قلوبكم (**فإنّ الله كان بكلّ شيء**) من الإبداء والإخفاء (**عليماً**) عالماً، وقد صدر من بعضكم هذا، فلذلك أدّبكم وأعلمكم بتحريم ذلك مؤبّدا. وبلغ ما أمر الله تعالى بفرض الحجاب بين أزواج النّبيّ (ﷺ) وبين المؤمنين، قال آباؤهن وإخوانهن: فهل هذا الحكم يشملنا يا رسول الله؟ فأجاب الله تعالى على سؤالهنّ بقوله جلّ وعلا:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

(**لا جناح**) لا إثم (**عليهنّ**) على أزواج النّبيّ (ﷺ) (**في**) رؤية وكلام وعدم التّحجب من (**آبائهن**) وإن علوا، وسواء أكانوا آباءً من النّسب أو من الرّضاع (**ولا أبنائهنّ**) وإن نزلوا، وسواء أكانوا أبناءً من النّسب أو من الرّضاع (**ولا إخوانهنّ**) سواء أكانوا لأبوين أو لأب فقط أو لأمّ فقط وسواء أكانوا من الرّضاع أو من النّسب (**ولا أبناء إخوانهنّ**) من أيّ جهة كان الإخوان وإن نزل أبناؤهم (**ولا أبناء أخواتهنّ**) وإن نزلوا، وسواء أكانت الأخوات لنسب أو رضاع ولأيّ جهة كانت أخوتهنّ (**ولا نساؤهنّ**) من النّساء المؤمنات أو غيرهن (**ولا ما**) الّذين (**ملكت**) إياهّم (**أيمانهنّ**) من الجوار والعبيد (**واتقين الله**) أيّتها الأزواج الطّاهرات في غير هؤلاء، فلا يرونكنّ ولا ترونه (**إنّ الله على كلّ شيء**) ممّا تعملن (**شهيداً**) لا يخفى عليه شيء.

ثمّ بعد أن نهى الله تعالى المؤمنين عن أن يفعلوا شيئاً ممّا يؤذي النّبيّ، أراد أن يأمرهم باحترام النّبيّ (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

(**إنّ الله وملائكته يصلّون**) الضّمير يشمل الله تعالى والملائكة، وعند بعض العلماء

أنّه لا يجوز جمع الله تعالى مع الغير في ضمير واحد فقالوا: التّقدير أنّ الله والملائكة يصلّون **(على النّبيّ)** وهو محمّد (ﷺ)، ومعنى الصّلاة هو الدّعاء ولكنّ بالنّسبة لله تعالى أنّه يرحم وينزل رحمته باستمرار الزّمان على النّبيّ (ﷺ) وبالنّسبة للملائكة أنّهم يدعون له بالرّحمة وزيادة مراتبه الشّريفة، وقيل معناه بالنّسبة لله والملائكة أنّهم يثنون عليه، **(يا أيّها الّذين آمنوا صلّوا)** ادعوا بنزول الرّحمة **(عليه)** على النّبيّ (ﷺ) أو أكثروا من الثّناء عليه **(وسلّموا)** عليه **(تسليماً)** كثيراً وكاملاً. وأقول قد ذكرت الصّلاة مطلقة، فالمراد بها كلا معنييه، أي أنّ الله تعالى ينزل رحمته على النّبيّ (ﷺ) وملائكته يدعون له بالرّحمة والإزدياد في الرّتب العالية ويثنون عليه، فادعوا أيّها المؤمنون للرّسول بالرّحمة وزيادة المراتب، واثنوا عليه وسلّموا عليه تسليماً.

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: في صيغة الصّلاة على النّبيّ (ﷺ) عن كعب بن عجرة (ﷺ) قال: يا رسول الله أمّا السّلام عليك فقد عرفناه فكيف الصّلاة عليك؟ قال: قولوا (اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد)[١] رواه البخاري والتّرمذي ولفظه: (اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على إبراهيم، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت **على** آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد، والسّلام قد علمتم) وذلك أنّ الرّسول (ﷺ) علّمهم السّلام في التّشهد بقوله: (السّلام عليك أيّها النّبيّ ورحمة الله وبركاته) وهناك صيغ كثيرة للصّلاة أفضلها الصّيغة الأولى إلّا أنّها يزاد، وبارك على آل إبراهيم، فتقول وبارك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم...الخ، لأنّه ورد في البخاري رواية كذلك، وتسمّى هذه الصّيغة الصّلاة الإبراهيميّة وهي أفضل الصّلوات.

سؤال: كيف شبّهت الصّلاة والبركة على محمّد بالصّلاة على إبراهيم، والمشبه به أقوى وإنّ الرّسول (ﷺ) أكبر من إبراهيم، فيلزم أن تكون الصّلاة والبركة عليه أقوى وأزيد؟

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢٣٣ الحديث رقم ٣١٩٠. صحيح مسلم ١/ ٣٠٥ الحديث رقم ٤٠٥. سنن الترمذي ٢/ ٣٥٣ الحديث رقم ٤٨٣.

الجواب: عن هذا السّؤال بوجوه ذكرها القسطلاني (رحمه الله تعالى) في الفتح:

الأوّل: أنّ التّشبيه باعتبار الأسبقيّة في الزّمان لا باعتبار الأفضليّة، وإبراهيم سبق رسول الله (ﷺ) في الوجود والصّلاة والبركة عليه.

الثّاني: إنّ المراد بآل إبراهيم كلّ الأنبياء ومن ضمنهم محمّد (ﷺ)، فالأنبياء كلّهم مع محمّد أفضل من محمّد وحده.

الثّالث: أنّه صدر هذه الصّيغة من الرّسول (ﷺ) قبل أن يعلم أنّه أفضل من إبراهيم (عليه السلام).

أقول: إنّ الكاف ليس للتّشبيه، بل للقِران، فإنّ الكلام وإن كان خبراً صورةً فهو إنشاء معناً، فيكون المعنى: صلّ على محمّد وعلى آل محمّد مقارنا للصّلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، فيكون الدّعاء بالصّلاة على محمّد وآله وإبراهيم وآله معاً، ولا تشبيه هنا والله تعالى أعلم.

المسألة الثّانية: في بيان فضل الصّلاة على النّبيّ (ﷺ) ونذكر ما ورد حول ذلك من الأحاديث بعضها إن شاء الله تعالى:

١. في مسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): من صلّى عليّ صلاةً واحدةً صلّى الله عليه عشراً [١].

٢. عن أنس (ﷺ) أنّ رسول الله قال: (من صلّى عليّ صلاةً واحدةً صلّى الله عليه بها عشراً، وحطّت عنه عشر خطيئات، ورفعت له عشر درجات) أخرجه الترمذي[٢].

٣. وعن أبي طلعة أنّ رسول الله (ﷺ) جاء ذات يوم والبشر في وجهه فقلت: إنّا لنرى البشر في وجهك يا رسول الله؟ قال: (أتاني الملك فقال: فقال يا محمّد إنّ ربّك يقول: أما يرضيك أنّه لا يصلّي عليك أحد إلّا صلّيت عليه عشراً، ولا يسلّم عليك أحد إلّا سلّمت عليه عشراً)[٣].

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٢٨٨ الحديث رقم ٣٨٤.

(٢) سنن الترمذي ٢/ ٣٥٤ الحديث رقم ٤٨٤.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٩ الحديث رقم ١٦٤٠٨.

٤. في التّرمذي أيضاً عن علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): إنّ البخيل الّذي ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ[1].

المسألة الثّالثة: الصّلاة على النّبيّ (ﷺ) في غير الصّلاة واجبة أو مندوبة؟ فنقول:

قال القرطبيّ (ﷺ): لا خلاف في أنّ الصّلاة على النّبيّ (ﷺ) فرض في العمر مرّة واحدة، وأمّا في باقي الأوقات فسنّة مؤكّدة لا يتركها إلّا من لا خير فيه. وقال البعض: هي واجبة كلّما ذكر إسمه، ومنهم من قال: تجب في المجلس مرّة واحدة، وإن تكرّر ذكره وقبل كلّ دعاء وبعده. ومنهم من أوجبها مرّة واحدة، والّذي يقتضيه الإحتياط الصّلاة عليه كلّما ذكر إسمه، لما ورد في ذلك من الأخبار الموجبة لذلك بظاهرها، وأمّا في الصّلاة فقد ذهب الجمهور إلى أنّ الصّلاة على النّبيّ (ﷺ) من سنن الصّلاة، وخالف الشّافعيُّ الجمهورَ، فقال بوجوبها في التّشهّد الأخير، فإن تركها المصلّي وجبت عليه الإعادة للصّلاة. وشنّع بعض العلماء على الشّافعي وقال: إنّ الإجماع على خلافه. وقال ابن كثير: أخطأ في دعوة الإجماع على خلاف الشّافعي، حيث رجع الإمام أحمد إلى قول الشّافعي أخيراً، وذهب إلى ذلك من الصّحابة ابن مسعود وأبو مسعود البدري وجابر بن عبد الله، ومن التّابعين الشّعبي وأبو جعفر الباقر ومقاتل بن حيّان. هذا وإنّ بعض الشّافعيّة أوجب الصّلاة على الآل في التّشهّد الأخير أيضاً، وهو وجه للشّافعي إلّا أنّه ضعيف جدّاً. وفي التّشهد الأوّل ليس بواجب اتّفاقاً، وهل هي مستحبّة؟ هناك قولان للشّافعيّ الأوّل نعم والثّاني لا.

المسألة الرّابعة: في الأوقات الّتي ورد الأمر بالصّلاة على النّبيّ (ﷺ) فيها وهي:

١. بعد فراغ المؤذّن من الآذان، للحديث الّذي رواه الإمام أحمد أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ثمّ صلّوا عليّ، فإنّه من صلّى عليّ صلاةً صلّى الله عليه بها عشراً، ثمّ سلوا الله تعالى لي الوسيلة، فإنّها منزلة في الجنّة لا تنبغي إلّا لعبد من عباد الله تعالى، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشّفاعة. قال ابن كثير أخرجه مسلم وأبو داود والتّرمذي والنّسائي من حديث كعب ابن علقم[2].

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ٧٣٤ الحديث رقم ٢٠١٥.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٢٨٨ الحديث رقم ٣٨٤، سنن أبي داود ١/ ١٤٤ الحديث رقم ٥٢٣، سنن الترمذي ٥/ ٥٨٦ الحديث رقم ٣٦١٤، سنن النسائي ٦/ ١٦ الحديث رقم ٩٨٧٣.

٢. عند دخول المسجد والخروج منه للحديث الّذي رواه الإمام أحمد: كان رسول الله (ﷺ) إذا دخل المسجد صلّى على محمّد وسلّم ثمّ قال: اللّهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج صلّى على محمّد وسلّم، ثمّ قال اللّهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك[١].

٣. الصّلاة عليه في صلاة الجنازة: حيث ذكر الشّافعي أنّ رجلاً من الأصحاب قال: (إنّ السّنة في الصّلاة على الجنازة أن يكبّر الإمام ثمّ يقرأ الفاتحة سرّاً في نفسه، ثمّ يصلّي على النّبيّ (ﷺ) ويخلص الدّعاء للميت (أي بعد التّكبيرة الثّالثة) ثمّ يسلّم في نفسه سرّاً (أي بعد التّكبيرة الرّابعة).

٤. في صلاة العيد: قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) في صلاة العيد: إنّ المصلّي يكبّر تكبيرة يفتح بها الصّلاة ويحمد الله تعالى، ويصلّي على النّبيّ (ﷺ) ثمّ يدعو ويكبّر ويفعل مثل ذلك بعد سائر التّكبيرات.

٥. عند ختم الدّعاء: عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: الدّعاء موقوف بين السّماء والأرض لا يصعد حتّى تصلّي على نبيّك. وكذلك قبل الدّعاء حيث روى مرفوعاً عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال: لا تجعلوني كغمر الرّاكب، صلّوا عليّ أوّل الدّعاء وآخره وأوسطه.

٦. يوم الجمعة وليلته: روى الأمام أحمد أنه قال رسول الله (ﷺ): من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النّفخة، وفيه الصّعقة، فأكثروا من الصّلاة عليّ، فإنّ صلاتكم معروضة عليّ، قالوا: يارسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت (أي وقد بليت)، قال (ﷺ): إنّ الله تعالى حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

المسألة الخامسة: هل يجوز الصّلاة على غير النّبيّ (ﷺ) أم لا؟ لا خلاف في أنّ الصّلاة على غير النّبيّ بتبعيّة النّبيّ كأن تقول: اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد وعلى فلان وفلان ممّن تشاء أن تذكره جائزة، وأمّا الصّلاة على غيره انفراداً كأن تقول: اللّهم صلّ على فلان ممّن تحبّ الصّلاة عليه، ففيه خلاف ويتلخّص الخلاف في رأيين:

الرّأي الأول: قال بعض العلماء: إنّ ذلك جائز، واحتجوا لقولهم هذا بدلائل من الكتاب والسّنة نوردها فيما يلي:

(١) مسند الأإمام أحمد ٦/ ٢٨٢ الحديث رقم ٢٦٤٥٩.

أما ما ورد من الكتاب:

١. قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿هُوَ الَّذي يُصلّي عَلَيْكُمْ وَمَلائكته﴾.

٢. قال تعالى في سورة البقرة في حقّ الصّابرين: ﴿أولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحمة﴾[١].

٣. قال تعالى في سورة التّوبة: ﴿خُذْ مِنْ أَموالِهِمْ صَدَقَةً تطهّرهم وتزكّيهم وصلّ عليهم إنّ صلاتك سكن لهم﴾[٢].

أما ما ورد من السّنة:

١. حديث عبد الله بن أوفى (رضي الله عنه) قال: كان رسول الله(ﷺ) إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: ألّلهم صلّ عليهم، فلمّا أتاه أبي بصدقته فقال(ﷺ): اللّهم صلّ على آل أبي أوفى[٣].

٢. حديث جابر(رضي الله عنه) أنّ امرأته قالت: يارسول الله صلّ عليّ وعلى زوجي، فقال (ﷺ): صلى الله عليك وعلى زوجك[٤].

٣. الرأي الثّاني: قال الجمهور لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصّلاة عليهم لأنّ هذا صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال أبوبكر (ﷺ) ولا يقول علي (ﷺ) وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال محمّد عزّ وجلّ وإن كان محمّد عزيزاً وجليلاً، وحملوا ما ورد في الكتاب والسّنة على الدّعاء لهم.

وأقول: إنّ الخلاف بين الفريقين لفظيّ، إذ الحاصل أنّه إذا أريد تعظيم غير الرّسول (ﷺ) تعظيماً مثل تعظيم الرّسول فلا يجوز، وإلّا فيجوز، إلّا أنّ الأحسن ترك ذلك، لئلّا يوهم التّعظيم وجعل الغير كالرّسول (ﷺ) في التّعظيم، والله تعالى أعلم.

وعلى القول بعدم الجواز فالمراد به الكراهة لا التّحريم على الصّحيح، كما قال الإمام النّووي: إن لم يقصد به التّعظيم كالرّسول وإلّا كفر.

وأمّا السّلام على غير النّبيّ في الغياب كأن تقول: زيد عليه السّلام فكالصّلاة على الغير.

---

(١) البقرة ـ ١٥٧ .

(٢) التوبة ـ ١٠٣ .

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٥٤٤ الحديث رقم ١٤٢٦.

(٤) سنن أبي داود ٢/ ٨٨ الحديث رقم ١٥٣٣.

المسألة السّادسة: من المراد بالآل في قوله (ﷺ): قولوا اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد ...الخ الحديث؟

الجواب: ورد ذكر الآل في ثلاثة أحاديث من الرّسول (ﷺ) وهي:

١. في الزّكاة وفي الخمس، بروايات مختلفة حاصل الكلّ أنّ الصّدقة لا تحلّ لآل محمدّ (ﷺ)، فالمراد بالآل هناك كما قال العسقلاني(ﷺ) هم بنو هاشم، وبنو عبد المطلب عند الشّافعي، وعند مالك وعند أبي حنيفة هم بنو هاشم فقط، وعن أحمد روايتان، وعن المالكيّة عند بعضهم بنو قصي كلّهم وعند البعض هم بنو غالب. فالمراد بالآل في هذه الأحاديث هؤلاء على اختلاف الأقوال، فلا يجوز لهم أخذ الزّكاة والصّدقات.

٢. ورد في ذكر الآل في قوله (ﷺ): (اللّهم اجعل رزق آل محمّد كفافاً) أي بقدر الحاجة لا يزيد عليها ولا ينقص. والمراد بالآل هنا أهل بيته، أي أزواجه الطّاهرات فقط لا أقاربه من بني هاشم ولا غيرهم لأنّ الدّعاء من الرّسول (ﷺ) مقبول، وقد كان رزقه ورزق أزواجه كفافاً، ولكنّ أقاربه من بني هاشم وغيرهم، فقد كان منهم خلفاء وملوك ملكوا الدّنيا وما فيها، وكان منهم أثرياء أصحاب الكنوز من النّقود والأموال، فدلّ حالهم على أنّه لم يكونوا مرادين بدعاء الرّسول (ﷺ)، والّا كان رزقهم كفافاً لا زائداً عليهم ولا ناقصاً.

وورد الآل في حديث الصّلاة حيث قال (ﷺ): (قولوا اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد) والمراد بهم أتباع الرّسولﷺ من المؤمنين جميعاً من لدن بعثته إلى يوم القيامة وذلك للادلّة التّالية:

١. ذكر النّووي في شرح مسلم بعد ذكر الأقوال في تفسير الآل أنّ أظهر الأقوال هو أنّ الآل هم الأمّة كلّهم.

٢. قال تعالى: ﴿ادخلوا آل فرعون أشدّ العذاب﴾[١] والمراد بآل فرعون أتباعه، وهكذا فكثيراً ما ورد الآل في القرآن بمعنى الأتباع.

٣. لو كان المراد بالآل الذريّة وقد أمرنا الرّسول (ﷺ) بالصّلاة على إبراهيم وآل

---

(١) سورة غافر . ٤٦ .

إبراهيم، ومن ذرية إبراهيم أبوجهل وأبولهب ومشركو مكّة، فيلزم أن يأمرنا النّبيّ (ﷺ) أن نصلّي على المشركين وأبي جهل وأبي لهب وهذا باطل.

٤. قال نشوان الحميري وهو عالم في اللّغة، الآل هم الأتباع، وقال ذلك في شعره:

آل النّبيّ هم أتباع ملّته   من الأعاجم والسّودان والعرب

لو لم يكن آله إلّا قرابته   صلّى المصلّي على الطّاغي أبي لهب

٥. قال عبد المطلب حينما تعلّق بأستار الكعبة ودعا حينما جاء أبرهة لهدم الكعبة مخاطباً ربّه:

وانصر على آل الصّليب وعابديه اليوم آلك

وأبرهة كان من أتباع الصّليب لا ذريّة له، وكذا الله تعالى لا آل له بمعنى الذّرية، فالآل بمعنى الأتباع أي انصر أتباعك ياربّ على أتباع الصّليب.

٦. إنّ الرّسول (ﷺ) بعدما فتح مكّة ألقى خطبة قال فيها: إنّ كلّ عصبيّة وعنصريّة تحت قدميّ، هاتين كلّكم من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربيّ على عجميّ ولا لعجمي على عربيّ ولا..... ولا.......الخ إلّا بالتقوى)[1] فليس من المعقول أن يُنشيء عصبيّة لأقاربه ويأمر بتعظيمهم بالصّلاة عليهم خاصّة بين الأمّة والمسلمين بعد ذلك، والله أعلم[2].

* * *

(١) مسند الإمام أحمد ٥/ ٤١١ الحديث رقم ٢٣٥٣٦، ونصّه: عن أبي نضرة حدّثني من سمع خطبة رسول الله في وسط أيّام التّشريق فقال يا أيّها النّاس ألا إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد، إلى لا فضل لعربيّ على عجميّ ولا لعجميّ على عربيّ ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلّا بالتّقوى، أبلّغت؟ قالوا بلّغ رسول الله، ثم قال أيّ يوم هذا؟ قالوا يوم حرام، ثمّ قال أيّ شهر هذا؟ قالوا شهر حرام؟ قال ثمّ قال أيّ بلد هذا؟ قالوا بلد حرام، قال: فإنّ الله قد حرّم بينكم دماءكم وأموالكم، قال ولا أدري قال أو أعراضكم أم لا، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، أبلّغت؟ قالوا بلّغ رسول الله، قال ليبلّغ الشّاهد الغائب.

(٢) كما أنّ المعروف في الإسلام أو في القرآن أنّ الدّعاء يعمّ جميع المؤمنين كما قال تعالى على لسان نوح في سورة نوح: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا**﴾ (٢٨) .وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)**﴾ وتخصيص الدّعاء بفئة ينافي

ثمّ بعد أن نهى الله تعالى عن إيذاء الرّسول (ﷺ) وأمر بتوقيره والصّلاة عليه أراد أن يذكر عقاب من يؤذي النّبيّ خاصّة وعقاب من يؤذي المؤمنين عامّة فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝٥٨﴾

(إنّ الّذين يؤذون الله) تعالى بنسبة ما لا يليق به من الشّريك أو الولد **(ورسوله)** بتكذيبه وعدم إطاعته **(لعنهم)** طردهم **(الله)** تعالى من رحمته **(في الدّنيا)** فلا يريحهم فيها**(والآخرة)** فيعذّبهم فيها **(وأعدّ لهم عذابا أليماً)** مذلّا لهم **(والّذين يؤذون المؤمنين)** الرّجال **(والمؤمنات)** من النّساء **(بغير ما)** أي ذنب **(اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا)** كذباً وافتراء **(وإثما مبيناً)** أراد بذلك الكافرين والمنافقين، حيث كانوا يشيّعون إشاعات كاذبة ضدّ الرّسول (ﷺ) وضدّ المؤمنين والمؤمنات.

ثمّ أراد الله تعالى أن يجعل شعاراً للنّساء المؤمنات؛ فقال جل وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٩﴾

(ياأيّها النّبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين) فليتستّرن بأن **(يدنين)** يرخين **(عليهن)** على أجسامهن **(من جلابيبهن)** جمع جلباب وهي العباءة فليسترن بها كلّ بدنهنّ **(ذلك)** السّتر **(أدنى أن يعرفن)** بسببه بالطّهر والعفاف والتّحصن، فإنّه كانت نساء ساقطات يتعرّض لهنّ الشّباب، فإذا تستّرن وعرفن **(فلا يؤذين)** فلا يتعرّض لهنّ أحد **(وكان الله غفوراً)** عن ما سبق من التّكشف **(رحيماً)** ولرحمته يغفر. فالسّتر لجميع البدن إلّا الوجه والكفين واجب على المرأة عند الجمهور، وعند بعض يجب ستر الوجه والكفين أيضاً، ويجب عليها أن تضع على وجهها برقعاً لا تُرى فيه، وهي ترى الطّريق،

عموميّة الرّحمة. والأمثلة على هذا في القرآن كثيرة لا تحصى، ثمّ إنّ تضييق الدّعاء على شريحة خاصّة من النّاس ينافي كرم الله تعالى وكرم نبيّه (ﷺ).

والكلّ متّفقون على أنّه إذا خيف الفتنة يجب ستر الجميع والله تعالى أعلم.

ثمّ إنّه كان في المدينة بعض ضعفاء الإيمان والمنافقون يبثّون إشاعات ضدّ المؤمنين ويخوّفونهم من العداء، ويوهنون عزمهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

(**لئن**) وبعزّتي (**لم ينته**) لم يترك (**المنافقون والّذين في قلوبهم مرض**) شكّ في الإيمان (**والمرجفون في المدينة**) الّذين يبثّون الدّعايات السّيئة ليخوّفوا بها المؤمنين، والمعنى لئن لم يترك كلّ هؤلاء من معاداة المسلمين (**لنغرينّك بهم**) لنأمرنّك بضربهم وحينئذ (**فلا يجاورونك فيها**) في المدينة بل يطردون منها (**إلّا قليلاً**) وهم التّائبون فيكونون (**ملعونين**) مطرودين من قبل المؤمنين بحيث (**أينما ثقفوا**) وجدوا (**أخذوا وقتلوا تقتيلاً**) وكان ذلك (**سنّة الله**) عادة الله وتقديره (**في**) الأمم (**الّذين خلوا**) مضوا (**من قبل**) حيث أمر الله تعالى المؤمنين بضرب المنافقين في كلّ أمّة وتطهير البلدة منهم (ولن تجد) أيّها السّامع (**لسنّة الله تبديلاً**).

وبعد ذلك تطهّرت المدينة منهم فتاب من تاب ومات من مات وطرد من طرد، اللّهم فافعل ببلادنا ما فعلت بهم من طرد المنافقين والكافرين.

ثمّ ذكر الله تعالى في هذه السّورة أحكاماً، ولأنّ الأحكام لتاركها عقوبة في الآخرة، كان يخوّفهم الرّسول بها فأصبحوا يسألون الرّسول (ﷺ) عن وقت قيام السّاعة، وماذا يفعل الله بالنّاس فيها؛ فقال جل وعلا:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾

(يسألك النّاس) أيّها النّبيّ **(عن)** وقت قيام **(السّاعة)** يوم القيامة **(قل إنّما علمها)** علم وقتها **(عند الله)** لا يعلم ذلك غيره **(وما يدريك لعلّ السّاعة تكون قريباً)** ولعلّ هذا للتحقيق لا للترّجي، فالسّاعة قريبة لأنّ مدّة الدّنيا مهما طالت فهي قليلة بالنّسبة للأبديّة، بالأضافة إلى أنّ قيامة كلّ أحد تقوم بموته والموت قريب. ثمّ بيّن الله تعالى ما يفعل بالنّاس في الآخرة فقال جلّ وعلا: **(إنّ الله لعن الكافرين)** طردهم من رحمته؛ فلا نعيم ولا جنّة لهم، بل وزيادة على حرمانهم من النّعيم **(وأعدّ لهم سعيراً)** ناراً مسعرة يدخلونها ويكونون **(خالدين)** مؤبّدين **(فيها)** في السّعير أبداً **(لا يجدون ولياً)** صديقاً يساعدهم **(ولا نصيراً)** ينقذهم من العذاب.

ثمّ ذكر الله تعالى ندامتهم في ذلك اليوم فقال جل وعلا:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

(يوم تقلّب وجوههم) ذواتهم **(في النّار)** فيقعون في النّار مرّة على البطن وأخرى على الظّهر، وعلى الجنب اليمين مرّة وعلى اليسار أخرى؛ فيتندّمون في ذلك الوقت **(يقولون)** جميعاً **(ياليتنا أطعنا الله)** فحكمنا بشريعته وعملنا بها **(وأطعنا الرّسولا)** في ما بلغنا به من اتّباع شريعة الله تعالى **(وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا)** رؤساءنا **(وكبراءنا)** وهم المسنّون في العمر أو علماء السّوء **(فأضلّونا السّبيلا)** ومنعونا من الأسلام **(ربّنا آتهم ضعفين من العذاب)** أي مثل ما تعذّبنا لضلالهم ومثلاً آخر لإضلالهم **(والعنهم لعناً)** بعداً عن رحمتك **(كبيراً)** ذلك اللّعن.

ثمّ بعد ما ذكر الله تعالى في هذه السّورة من تنزيه للرّسولﷺ ونهى عن إيذائه وأمر باحترامه، لم يزل بعض المؤمنين يقولون في حقّ النّبيّ (ﷺ)، والظّاهر أنّ هؤلاء كانوا من اليهود الّذين أسلموا، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾

(ياأيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين آذوا موسى) منكم أيّها المنسوبون إلى اليهوديّة سابقاً، فلا تؤذوا النّبيّ إن آمنتم صدقاً، لأنّ إيذاءكم لموسى كان كذباً أيضاً حيث **(فبرّأه الله)** تعالى وأظهر نزاهته **(ممّا قالوا)** في حقّه **(وكان)** موسى **(عند الله وجيهاً)** ذا جاه وشرف ومنزلة سابقة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

(ياأيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله) في كلّ عمل وفي الأقوال خاصّة **(وقولوا)** في حقّ الرّسول وغيره **(قولاً سديداً)** ولا تفتروا ولا تكذبوا على أحد، فإن فعلتم ذلك **(يصلح)** الله **(لكم أعمالكم)** فيوفّقكم لصالحها **(ويغفر لكم ذنوبكم)** جميعها. ثمّ أراد تعالى ما يصلح به القول والعمل ويستقيم به الإنسان في كلّ مجال من الحياة وفي كلّ حال من أحوالها، فقال جلّ وعلا: **(ومن يطع الله ورسوله)** فجعل أقواله وأفعاله موافقة لما يرضيها ويوافق أمرهما **(فقد فاز)** في الدّنيا والآخرة وبالسّعادة **(فوزاً عظيماً)** يريحه من كلّ مكروه.

ثمّ وجّه الله تعالى لومه إلى الأنسان على مخالفته لأمر الله تعالى وعدم تطبيق شريعته وعدم العمل بها فرديّاً واجتماعيّاً؛ فقال جل وعلا:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾

(إنّا عرضنا الأمانة) وهي التّكاليف الشّرعية وتعمير الأرض وفق دين الله تعالى وشريعته، والحياة عليها وفق أوامر الله تعالى، فعرضنا ذلك **(على السّموات والأرض والجبال فأبين)** لم يكن لهم قابليّة واستعداد لذلك، وضعفن وعجزن عن **(أن يحملنها وأشفقن)** وضعفن **(منها)** من حملها **(وحملها الإنسان)** أي كان له استعداد وقوّة على أداء الخلافة في الأرض، فلذلك كلّفناه ذلك وجعلناه خليفة في الأرض **(وكان الإنسان)**

تفسير الباليساني
المعروف
في حسن البيان
تأليف
المرحوم العلامة الشيخ محمد ابن الشيخ
طه الباليساني (رحمة الله عليه)
١٣٣٦هـ/١٩١٨م - ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م
الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م
دار أحياء التراث العربي

وهم الكفرة (**ظلوماً**) حيث لم يؤدّوا الخلافة وفق شريعة الله تعالى (**جهولاً**) بعاقبة ظلمهم هذا وهو العذاب في الآخرة، كما قال تعالى: (**ليعذّب**) اللّام لام عاقبة، أي كان عاقبة تخليف الأنسان في الأرض وظلم بعضهم بالخروج عن شريعة الله تعالى أن (**يعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات**) عن المعصية الأولى وهو الأكل من الشّجرة (**وكان الله غفوراً**) لمن تاب لشريعة الله ورجع إليها (**رحيماً**) بهم فيدخلهم جنّات النّعيم يوم القيامة وفي الدّار الآخرة وآخرة الأمور، وصلّى الله تعالى على المولى محمّد وعلى آله وصحبه وأمّته أجمعين والحمد لله ربّ العالمين. كتب ببغداد يوم ١٣ جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ.